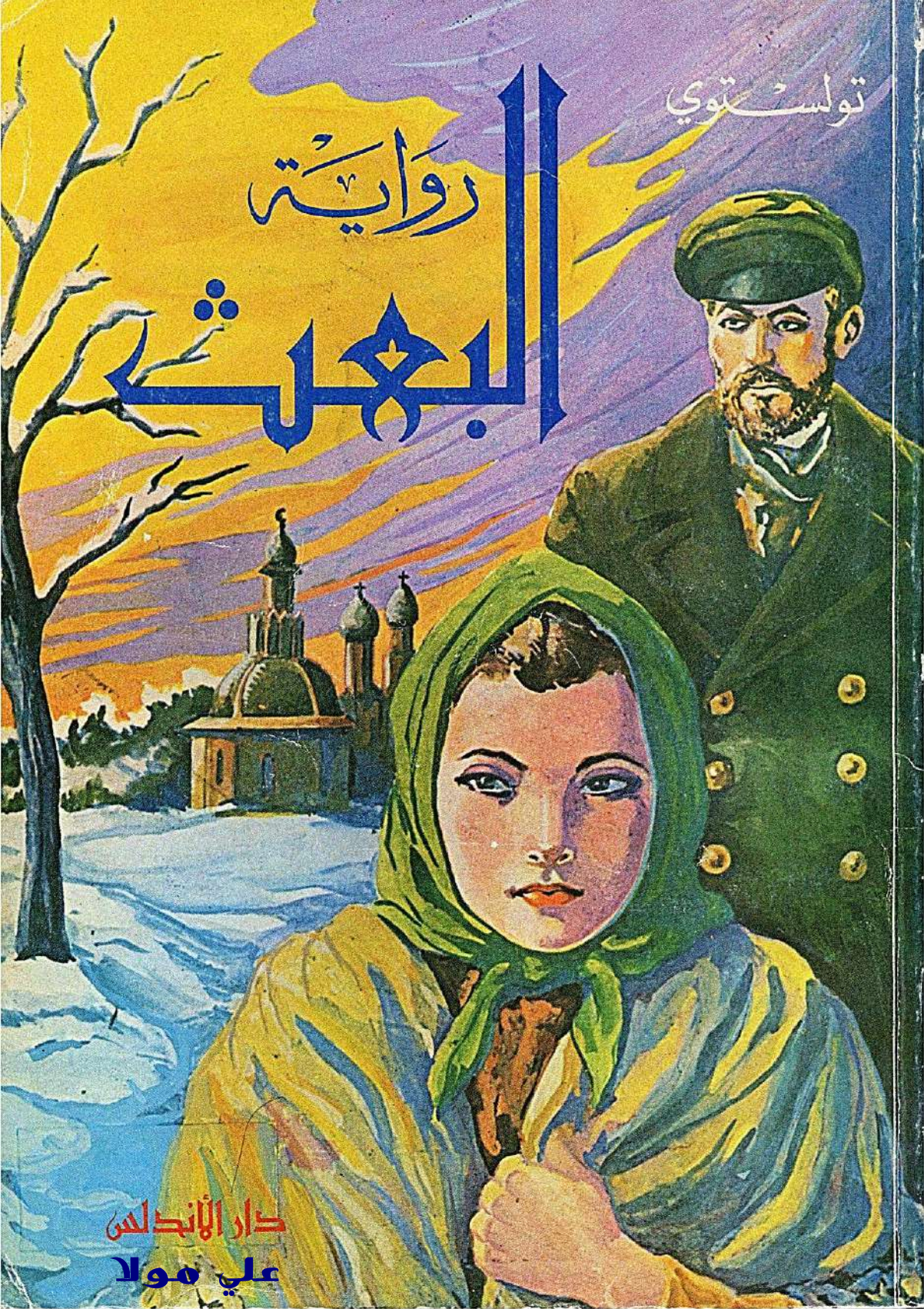


تولستوي

روايته الجهل



دار الأندلس
علي هولا

تولستوي
روايته
الجهل

الترجمة الكاملة

ترجمة
علي محمد جابر

دار الأندلس
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الثالثة

١٤٠٤م - ١٩٨٤م

جميع الحقوق محفوظة

دار الأنسلس - بيروت ، لبنان

هاتف : ٣١٧١٦٢ - ٣١٦٤٠١ - ص.ب : ٤٥٥٣ - ١١ - تلخس ٢٣٦٨٣

الفصل الأول

١

عبثاً يجهد أنفسهم ألوف وألوف من الناس يقيمون في حيز صغير من الدنيا ، في أن يجعلوا الأرض التي تقلهم غير ذات إنتاج . وعبثاً يحاولون سحق القرية لتستحيل قوة الانبات فيها . وعبثاً يسممون الهواء بالنفط والدخان . وعبثاً يقطعون الأشجار الباسقة ، ويطردون الحيوانات والطيور . فالربيع سيظل ربيعاً حتى في المدينة . وستسطع الشمس ، وسيعود النبات الى الظهور ليس في الطرقات والحدائق فحسب ، وإنما بين الحجارة المرصوفة في الشوارع ، والأشجار الباسقة في ذات الثمر وغير ذات الثمر ستظل تشمخ برؤوسها ، ناشرة في الفضاء عطر أوراقها الغضة الطرية ، وستظل براعمها تتقبل نور الشمس وتفتح له قلوبها . والعصافير والطيور ستبني أعشاشها فرحة طروبة . والنحل والذباب سيظل طنينها يملأ الفضاء عندما تلامسها من جديد حرارة الشمس . كل شيء سيمتلئ بهجة وفرحة ، أشجار وأطيار ، ذباب وأطفال ، والرجال وحدهم هم الذين سيظلون يجند بعضهم بعضاً ، وينكل بعضهم ببعض . هؤلاء الرجال الذين لا يستمتعون في هذا الصباح الربيعي بحال الكون الرائع الذي أبدعه الخالق لهناء وسعادة أبناء الفناء الذين يدعومهم للسلام والوحدة والمحبة . انهم لا يقدررون قدر هذه النعمة ، ولا يدركون سرها المقدس . ولا يقيمون وزناً إلا لما ابتكروه من أساليب الخداع ، والتنكيل المتبادل .

لم يكن هاماً ولا مقدساً لدى دوائر السجن الحكومي ، أن يزهر الكون بحلته الربيعية القشبية ، ولكن كان المهم لدى السجنان صحيفة من الورق تحمل اختتاماً وأمرأ ، وبموجبها كان ينبغي أن يمثل ذلك الصباح (٢٨ نيسان) أمام المحكمة رجل وامرأتان ليحاكما . ولذلك جاء سجان عجوز ، عند الساعة الثامنة صباحاً الى المشى الضيق المظلم المؤدي الى الجناح الخاص بالنساء ، فخفضت لملاقاته من الجانب المقابل سجانة مريضة السمات ، ترتدي (بلاوزة)

رمادية ، وثوباً أسوداً ، فسألته قائلة في حين تقدم حامل المفاتيح من أحد الأبواب العديدة التي تفتح على ذلك المشى :

— أجنّت تطلب (ماسلوفا) ؟

وفتح الحارس أحد الأبواب فجهت الواقفين أمامه نفحة من هواء عفن خرجت من الغرفة . ثم صاح الحارس :

— الى المحكمة يا (ماسلوفا) .

وعاد فأغلق الباب ثانية ، ولبت ساكنة ينتظر خروج المرأة المطلوبة . كانت نسمة الريح النقية المنعشة الصادرة عن السهول القريبة تملاً فناء الدار على بعد خطوات من ذلك المشى المشحون بالهواء الثقيل المغن الرطب ، الذي يملأ نفس المقيم فيه كآبة وغماً . وحتى حامل المفاتيح الذي كان قد ألفه منذ زمن طويل كاد أن يغمى عليه أثر عودته ، وأخذ غثيان وميل للنوم في آن واحد .

كان يسمع عبر باب السجن ضوضاء وجلبة وأصوات شجار ، وحركة مستمرة للذهاب والإياب بأقدام حافية .

— أسرع بالخروج . — صاح الحارس من جديد ثم فتح الباب . وما هي إلا ثوان معدودات حتى خرجت مسرعة امرأة شابة ، حسنة التكوين ، صغيرة الجسم . كانت ترتدي (جاكّة) ستر رمادية اللون فوق (بلوزة) وثوباً أبيض ، وتلبس بقدميها جورباً من الكتان ، وتنتعل حذاء ثقيل خاصاً بالمساجين ، وتقطي رأسها بغطاء أبيض تطل من تحته خصلات من شعر أسود قد صفف بعناية فائقة ، وتعلو وجهها الصفرة الخاصة بأولئك الذين قضوا مدة طويلة ضمن مكان مغلق . وكان التناقض بين بياض بشرتها ، وسواد حدقتها يبرز بريق عينيها الجيلتين اللتين كان في أحدهما حول خفيف . وكان سائر كيانها يفيض بالجاذبية المرحّة . كانت تمشي مرفوعة الرأس ، ونهداها المكتنزان بارزان . وعندما بلغت المشى طأطأت رأسها قليلاً ، ونظرت الى الحارس نظرة استعداد للقيام بما يأمرها به .

وفيما كان الحارس هم بإعادة اغلاق الباب إذ بإمرأة عجوز مكشوفة الرأس ، بيضاء الشعر تطل منه بوجهها الشاحب ، المتجعد ، القاسي الملامح .
فدار بينها وبين (كاترين) حديث خافت ، ولكن الحارس دفع بثلثك الى الداخل وأغلق الباب خلفها . فارتفعت قهقهات نساء ، وابتسمت (ماسلوكا) وهي تدنو من كوة صغيرة . وفي حين أطلت العجوز ثانية من كوة أخرى سمع صوت بقول :

— حاذري ، ولا تخافي . وانكري كل شيء .
— لقد تساوى كل شيء في نظري . وأصبحت لا أهتم بشيء . هل هناك أسوأ مما أنا فيه ؟ — أجابت تقول وهي تهز برأسها .
— لا شك في أن أمراً ما سيحدث . هيا واتبعيني . — قال الحارس ساخراً .
وتوارى وجه العجوز من الكوة الصغيرة ، ولحقت (ماسلوكا) بخفيها وهو يسير في الممشى بخطى سريعة ، فهبطا سلماً حجرياً ، ومرا من أمام سجن الرجال حيث كان يرتفع الضوضاء والضجيج ، وحيث دفع الفضول عيوناً أخذت تتلصص من ثقب أقفال الأبواب . فبلغا مكتب مدير السجن حيث كان جنديان يتقلدان البنادق ينتظران السجينة ليقوداها الى المحكمة . وكان المدير يعد صحيفة تنبعت منها رائحة التبغ فأمرع بتسليمها الى أحد الجنديين فطواها هذا ودسها في ثنية كم معطفه ، ثم أشار لإشارة الى رفيقه فمشى عن يسار السجينة في حين مشى هو عن يمينها . على مثل تلك الوضعية اجتازوا الممشى ، فباب السجن ، ففناء الدار ، فالباب الخارجي الكبير ، وبلغوا الشارع .
كان سائقو العربات ، والموظفون ، والعمال ، وغابرو السبيل يقفون ، وبعضهم يغمغم بقوله :

— هذه إحدى عواقب السيرة السيئة .
وحتى الصبيان كانوا يكفون عن اللعب ، وفي فضولهم شيء من الرعب سرعان ما يتلاشى لوجود الجنديين حارس السجينة اللذين يحولان دون أن تمس أحداً بسوء . ووقف أحد باعة الفحم في عرض الشارع ، ودنى من السجينة

باحترام وأعطاها (كوبيك) فاحر وجهها خجلاً ، وأطرقت برأسها الى الأرض وغضمت بكلمات غير مفهومة .

كانت تستحث خطواتها بقدر ما تقوى عليه قدمها اللتان لم تتعودا المشي مسافات طويلة ، واللذان كانتا قد سحجها الحذاء الحكومي الثقيل . وكانت تراقب بمؤخر عينها ، دون أن تلتفت يمينا أو شمالاً ، أولئك الذين حملهم الفضول على الوقوف وإطالة النظر اليها ، فترتاح نفسها اذ ترى انها محط انظار الجميع وانتباههم ، وتمضي تعب نسمات الربيع العطرة عباً ، وتلأ بها رثيتها اللتين أضربها هواء السجن الفاسد . وكان أمام أحد مخازن الحبوب بضع حمامات تلتقط ما تنثر من الحب على الأرض . وعندما اقتربت من أحدها لمستها بقدمها لمساً رقيقاً ، فنفرت الحمامة فلامس جناحها خدها فابتسمت (ماسلوا) لذلك ولكنها ما لبثت ان تجهم وجهها وأطلقت زفرة عميقة اذ تذكرت واقعها الأليم .

٢

لقد كان تاريخ حياة (ماسلوا) عادياً جداً . كانت ابنة لأمراة قروية تعمل أمها راعية لمجول أحد سكان القصور ، وكانت هي تساعد أمها في مهمتها . وكانت تلك القروية التي لم تكن ذات بعل تضع في كل عام ولداً ، وكما يحدث غالباً في مثل هذه الحالات ، كان الأطفال يعمدون فور ولادتهم ، ثم تهجرهم أمهاتهم لأنهم جاءوا الى الدنيا دون رغبتهم - على حد تعبير الأمهات - ولأنهم مثار ازعاج لمن . وهكذا لا يلبثون أن يتواروا من عالم الأحياء .

بمثل هذه الطريقة جاء ثم اختفى الى الأبد خمسة أولاد . وكانت السادسة أنثى جاء بها متشرد . كان لا مفر لها من أن تلاقى نفس المصير الذي لقيه أخوتها الخمسة لولم تتدخل الصدفة فتدخل الى الزريبة احدى سيدات القصر كي تعنف الخادمة للذنب ما . كانت النفساء نائمة على كومة من القش ، ويجانبها المولودة الجديدة ملقاة وهي بمثابة صخرة وحياة . فعنفت السيدة خادمتها للذنب المزعوم ، ثم لسمحها بدخول النفساء الى ذلك المكان لتضع فيه طفلها . غير انها

عندما وقع نظرها على الطفلة رق لها قلبها وأدركتها نفحة من الرحمة والحنان ، فهدأت ثورتها ، وعرضت نفسها عرابة للطفلة ، وأوصت بأن تعطي الأم مزيداً من الحليب والمال لتغذية الطفلة وإعالتها . وهكذا نجحت الطفلة من المصير الذي لقيه أخوتها . وأطلقت المراتان المعجوزان اسم (المستنقذة) عليها .

كانت الطفلة قد بلغت عامها الثالث عندما أصيبت أمها بمرض فماتت . ولما كانت جدتها لا تدري ما تصنعه بها فقد أخذتها المعجوزان لتميش بينها في القصر . كانت الطفلة بعينها النجلاوين وحيويتها الدافقة موضع سرور وسوى لمنقذتها المعجوزين . كانت صغراهما (صوفيا إيفانوفنا) وعرابة الطفلة أشد عطفاً عليها ، في حين كانت الكبرى (ماري إيفانوفنا) أكثر قسوة . كانت الأولى تعني بتهدئتها ، وتعليمها القراءة ، وتفكر في أن تتبناها ذات يوم ، في حين كانت الكبرى (ماري) تفكر في اتخاذها وصيفة . ولذا كانت تتشدد عليها في المطالب ، وتغلظ لها القول ، وأحياناً تضربها عندما يسوء مزاجها . تحت تأثير هاتين السلطتين المتناقضتين نشأت الطفلة بين السيدة والوصيفة . وكانتا تطلقان عليها اسم (كافانا) تحبباً ، ودلالة على وضعها الممتاز . كانت تخطط الثياب ، وتنظف غرف البيت ، وتمسح الصور المقدسة ، وأحياناً ترافق سيدتها ، وتقرأ لها لتسليتها .

لقد تقدم منها كثيرون يطلبون يدها للزواج ، ولكنها كانت ترفض ذلك دائماً ، لادراكها قسوة حياتها إذا ما اقترنت بعاقل أو خادم ، وهي التي اعتادت حياة القصور الناعمة المريحة .

هكذا تصرمت أعوامها الثاني عشرة . وعندما كانت لا تزال في عامها السابع عشر ، جاء إلى القصر أحد أقرباء المعجوزين ، الذي كان قد جاء بصطاف ، قبل ذلك عند خالتيه . فهامت به الطفلة هياماً شديداً . كان ذاك ضابطاً في الجيش ، وقد جاء يستجم فترة قصيرة ليعود مرة ثانية إلى ميدان القتال ضد الأتراك . وقبل سفره بيوم واحد ، أي في اليوم الثالث لوصوله ، اغواها وغادرها في اليوم التالي بعد أن ترك في أحشائها جنيناً ، وفي يدها ورقة

من ذوات المئة روبل . وبعد ثلاثة أشهر لم يبق لدى الفتاة من شك في كونها حاملاً .

منذ ذلك التاريخ أصبح كل شيء ثقيلاً عليها . لم تعد تفكر في شيء سوى الفرار من المنزل لتغطي عارها . وكانت تقوم بخدمة سيدتها بغير رغبة وكيفما اتفق . ولم يطل الأمر بالعانستين حتى تبينتا حقيقة وضعها ، فأنبئتها (ماري ايفانوفنا) مراراً على فعلتها وأخيراً اتفق الاختان على انه ويجب أن تنفصل عنهن ، ومعنى ذلك وجوب طردها .

وعندما أصبحت الفتاة منبوذة دخلت في خدمة أحد ضباط الشرطة كوصيفة . ولم قدم خدمتها له غير ثلاثة أشهر لأن سيدها الضابط الذي كان يناهز الخمسين من عمره ، بدأ يلاحقها ويرادها عن نفسها . وذات يوم أحب أن يكون جريئاً معها إلا أنها كانت أشد جرأة منه فوصفته بالأحمق ، وضربتة على صدره ضربة ألقته على ظهره . وطبيعي أن تطرد من البيت بدعوى انها شرسة وقحة . وكان قد أصبح من العسير عليها أن تبحث عن عمل جديد لأن أيام الوضع كانت قد اقتربت فألجأتها الحاجة للجوء لاحدى القرويات التي كانت تبسج خيراً ، وتقوم في بعض الأحيان بأعمال القابلة وأقامت عندها .

وجاء الوضع حيناً ، وقليل الآلام . ولكن لما كانت القابلة قد أسعفت قبل قليل امرأة غيرها مريضة فقد نقلت اليها عدوى حمى النفاس . أما المولود الجديد فقد نقل الى المستشفى حيث مات بمشهد من المرأة التي نقلته .

كان كل ما تملكه (كاتانا) من الثروة مئة وسبعة وعشرون روبلاً . مئة منها أعطاهما إياها الضابط الذي اغواها ، وسبعة وعشرون روبلاً حصلت عليها من عملها . وقد تبخر كل ما كان لديها ، ولم يبق معها عندما خرجت من منزل القابلة سوى ستة روبلات لا غير .

لقد تقاضتها القابلة أربعين روبلاً بدل اقامتها شهرين في بيتها ، واحتالت عليها فاخذت أربعين أخرى بدعوى انها تريد أن تشتري لها عجلة ، وأخذت خمسة وعشرين غيرها بدل نقل الطفل الى المستشفى ، ولم تعلم (كاتانا) كيف

أنفق الباقي . وكانت قد تحسنت صحتها ، فرأت نفسها بحاجة للبحث عن عمل جديد فدخلت في خدمة أحد خفراء الاحراج .

ولم يطل الأمر بهذا الخفير ، الذي كان متزوجاً ، ان جد في مطاربتها بعد قليل من دخولها المنزل كضابط الشرطة ، فأحببت أن تتفادى مأزقاً معه محافظة منها على عملها ، غير أنه كان خبيراً ماهر وكان « سيدها » وبوسعه أن يتصرف بها كما يهوى . وهكذا فقد تمكن بعد ملاحقة طويلة أن يخلو بها في مكان ما ، وأن تكون له . ولم تلبث الزوجة أن ارتابت بهما ، وفي أحد الأيام فاجأتها في خلوة فانهالت بالضرب على (كاثانا) حتى سال دمها ، وطردتها من المنزل دون أن تدفع لها أجرها الشهري على الأقل .

وذهبت (كاثانا) الى المدينة لمنزل إحدى قريباتها المتزوجة من رجل كان فيما مضى يعمل مجلداً للكتب وقد أحرز من قبل وضعية حسنة ، ولكنه بعد أن انقض عنه أكثر زبائنه أدمن الخمر ، وأصبح ينفق في الحانة سائر ما تصل اليه يده .

وكانت زوجته تملك حانوتاً صغيراً لكبي الثياب وتنظيفها تنفق من دخله الضئيل على نفسها وأولادها ، وعلى السكير أيضاً . فعرضت هذه على قريبتها (كاثانا) أن تعملها المهنة . غير ان هذه رفضت هذا العرض بعد أن رأت سوء حال العاملات اللواتي يعملن عندها . وذهبت الى أحد مكاتب التوظيف تطلب عملاً في أحد البيوت . فكان لها ما أرادت عند أرملة ذات ولدين . وبعد أسبوعين من دخولها البيت ، تظاهر الابن الأكبر بأنه نسي كتبه كي يلاحق (كاثانا) وكان لا يزال صبياً وطالبا في المدرسة . ولما أحست والدته بذلك ألقت اللوم عليها وسرحتها من الخدمة .

ولم يكن من السهل إيجاد عمل جديد لها . وفي أحد الأيام رأت سيدة في مكتب التوظيف ، ترقدي ثياباً ثمينة ، ومجوهرات فطلبت هذه منها أن تزورها في منزلها بعد أن علمت بوضعها وأعطتها عنوان المنزل وكان ان قامت بهذه الزيارة .

وأحسنن السيدة استقبالها . وقدمت لها خمرأ وحلوى وأبقته عندها حتى المساء . وجاء زائر الى البيت وكان طويل القامة ذالمة كثة ولحية رمادية فجلس من فوره بجانبها وأخذ يمازحها . فنادته ربة البيت الى غرفة مجاورة فسمعتها (كاتانا) تقول له :

— انها ثمرة غضة طازجة . لقد وصلت حديثاً من الريف .
ثم دعته هي وقالت لها ان ذاك السيد كان كاتباً كبيراً وواسع الثراء ، وأنه سيبها ما شاءت اذا هي عرفت كيف تسره . وخرج الكاتب مسروراً ، فنفحها بخمسة وعشرين روبلا ، ووعداها بأن يعود قريباً .
وسرعان ما تبخرت تلك الدراهم . إذ أعطت (كاتانا) خالتها قسماً منها بدل بقائها تلك المدة في بيتها ، والباقي اشترت به ألبسة وأدوات زينة . وزارها الكاتب الكبير بعد أيام ، وأعطاهها خمسة وعشرين روبلا اخرى وطلب منها ان تستأجر غرفة مؤثثة .

وفي المنزل الذي اكرت فيه الغرفة المؤثثة ، أقامت (كاتانا) صلات مع أحد ساكنيه وهو شاب جريء وعامل في أحد المتاجر . ولم تلبث الصلات أن تطورت واستحالت هيأماً فحملتها سذاجتها على أن تبوح بذلك للكاتب الكبير فهجرها على الفور . ونسبها الفتى أيضاً عندها لحت له بالزواج . ولعله كان أجدى لها لو استطاعت البقاء في تلك الغرفة وحدها ، ولكنها علمت ان القانون لا يسمح إلا للواقي يحصلن على إذن خاص ويخضعن للمراقبة الصحية .

وعادت (كاتانا) مرة اخرى لبيت خالتها . وإذ رأتها هذه بشبابها الأنينة والفراء الثمين لم تجرأ أن تعرض عليها العمل في حانوتها مرة اخرى ، إذ حسبتها قد أصبحت أعلى منزلة وأرفع شأنًا . أضف الى ذلك أنها هي أيضاً لم تعد تنظر بعين الارتياح لغسل الثياب وكيها . وترى تلك المهنة القليلة الجدوى الكثيرة التعب حرة بالمعطف والازدراء . غير انها عندما استحالت عليها إيجاد كنف تستظله ، وعصفت بها الحاجة الملحة ، تصيدتها حباتل امرأة وضيفة كان عملها تصيد الفتيات الغريبات لتلقي بهن في سوق الدعارة .

كانت (كاثانا) قد تعودت التدخين منذ مدة طويلة ، وعندما تعرفت على عامل المحل التجاري عليها معاقرة الخمر لا لأنه كان سائغاً في حلقها شيئاً على نفسها فحسب ، وإنما لأنه كان يوفر لها ملهاة آنية ويسكت صوت ضميرها ، ذلك لأنها عندما لا يكون الخمر قد خدر حواسها ، كانت تظل ضجرة ، ويستحوذ عليها الخجل . ودعتها القوادة الى الغداء ، وعندما لعبت الخمرة برأسها عرضت عليها ان تدخلها أحد البيوت العامة الفخمة أفخم ما في المدينة ، وزينت لها مباحج وامتيازات الحياة المترفة الناعمة التي تعرضها عليها . كان على (كاثانا) ان تختار بين مهنة الحادمة المهينة ، مع ما فيها من التعرض الأكيد لنزوات الرجال ، وامتنان البغاء السري القليل الفائدة ، وبين وضعية البغي المجازة الهادئة الجزيلة الفائدة . وبديهي ان تختار الثانية ، إذ حسبت انها بذلك تنتقم لنفسها من الأمير الذي أغواها ، ومن عامل المحل التجاري ومن سائر الرجال الذين كانت حاقدة عليهم .

غير ان السبب الأقوى ، والذي كان له الأثر الأكبر في اقناعها هو قول القوادة لها ان يوسعها اختيار الثياب التي ترغبها من الحرير والدمقس والخمسل وثياب السهرات والرقص ، التي تكشف عن الصدر والظهر والذراعين . وعندما ابصرت (كاثانا) نفسها لأول مرة بثوبها الحريري الأصفر الفاتح ، المحلى بإطارات من الخمل الأسود ، المكشوف الصدر والظهر والذراعين ، عندما امضت عقد الاتفاق وسرعان ما استدعت المقابلة عرية حملتها بها الى أشهر محل في العاصمة محل (كارولينا البرتا روزانوف) .

وهنا بدأت (ماسلوقا) حياة جديدة ، حياة على هامش الشرائع السبوعية والانسانية ، تلك الحياة التي يحياها عدد كبير من المنكودات الطالع ولا نقول بترخيص من سلطات شرعية تدعي انها تنشد الخير العام ، وإنما نقول في ظلل حمايتها الحقيقية . حياة وضعية مرذولة سرعان ما تقود صاحبها ، بعد ان يقامي آلاماً مبرحة هائلة ، الى هرم مبكر فموت ذريع .

كانت تقضي أكثر يومها نائمة نوماً ثقيلًا ، بعد مجهود ليلة كاملة . وتسليقظ حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة بعد الظهر متمبة الحواس ، فتتناول قليلاً من

القهوة واملاح (سلتز) ثم تقبل تطوف في الحجرات وليس ما يسترها سوى
قيص طويل أو قصير ، وتطل على الشارع من وراء قضبان النوافذ الحديدية . ثم
يأتي الحمام وشد الحصر بمشد ضيق ، واختيار الثوب ، وجدل مع صاحبة المحل
أو مع بقية النسوة ، وحرمة الحدود ، وتكحيل الحواجب فالمشاء الدسم السخى ،
فتوب الحرير الفاتح اللون الذي يدع نصف الجسم عازياً . وبعد ذلك فالقاعة
الكبيرة الحافلة بالأثاث الثمين ، المضأة بانوار باهرة ، فاستقبال الزبائن . وتبدأ
الاشارات فالرقص ، فالخلى ، فالنجر ، فالتبغ ، فالمساومات ، مع فتيات ،
وبالغين ، مراهقين ، وشيوخ على حافة القبر ، عزاب ، ومتزوجين ، عسكريين
وتجار ، مع تتر وأرمن ، سكارى ، وغير سكارى ، أغنياء وفقراء ، مرضى وأصحاء ،
اجلاف ومهذبين ، موظفين ، وطلاب وصبية ، وباختصار مع اناس من مختلف
الطبقات والاعمار والطباع . صراخ ومزاح ، ضحك وموسيقى ، وتبغ وخر ،
خمر وتبغ ، من أول الليل حتى مطلع الفجر حيث يبدأ النوم الثقيل . وهكذا
دواليك على مر أيام الأسبوع ، منذ الأول حتى الأخير . ثم تأتي في نهاية كل اسبوع
الزيارة للطبيب التي يفرضها القانون ، التي هي أشبه باستعراض يظهر فيه الموظفون
والأطباء احتراماً لمناصبهم وتشدداً في المحافظة على السلامة العامة ، ولكنهم
غالباً ما يتلذذون بامتهان الشعور بالكرامة الذي تحفظ الطبيعة عن طريقه ليس
النوع الانساني فحسب وانما المعجيات أيضاً . استعراض حقيقي للنسوة يعطى
لهن بعده ترخيص بمزاولة عملهن مدة اسبوع آخر . ثم تعود الحالة سيرتها الأولى
صيفاً وشتاء ، ربيعاً وخريفاً ، في الأعياد وغير الأعياد .

على مثل ذلك أمضت (ماسلوا) سبعة أعوام ، تنقلت خلالها بين محلين
اثنين . وذهبت مرة واحدة الى المستشفى . وفي العام السابع ، وكانت قد بلغت
السادسة والعشرين من عمرها وقعت الحادثة التي استوجبت توقيفها وإحالتها الى
المحكمة بعد سجن احتياطي استطال ستة أشهر بين اللصوص والقتلة .

٣

عندما كانت (ماسلوا) تحبس في قاعة صغيرة من جناح المحكمة ، وقد

خلعت حذاءها الثقيل الذي آذى قدميها وهي في طريقها من السجن الى المحكمة ،
كان الأمير (ديمتري ايفان نيكليندوف) ذاك الذي أغواها من قبل ، يستيقظ
في فراشه الوثير الذي يعلوه غطاء من الريش .

وجلس في فراشه فبدأ قيص نومه الجليل المستورد من هولندا ، وأخذ يستعرض
في ذاكرته ، وهو يدخن لفافة تبغ ، ما قام به من الأعمال في يومه المنصرم ،
وما يتوجب عليه القيام به في يومه المقبل .

تذكر السهرة التي قضاها في منزل آل (غورتشاكين) الواسمي الثراء
الجزيلي الاعتبار ، الذين يقول الناس عنه أنه سيتزوج من ابنتهم . وطرح لفافة
التبغ ومد يده الى علبة من الفضة ليتناول منها لفافة اخرى ، ولكنه غير رأيه
فجأة في اللحظة الأخيرة ، ونهض من فراشه ، ولبس حذاءه ، وارتدى تباً
أنيقاً ومضى بخطى وثيدة ، ولكنها قوية وملينة بالحوية باتجاه المفصلة التي كانت
يجانب غرفة النوم ، حيث شرع ينظف أسنانه بمسحوق خاص ، وتضمض بأكبر
عطر ، ثم تقدم من مفصلة من المرمر حيث غسل يديه جيداً مبدئاً عناية فائقة
بإظافره الطويلة ، ثم فتح صنوبر الماء بأقصى قوته وغسل وجهه ورقبته ، ثم
انتقل الى غرفة اخرى حيث كان رشاش الماء ، فوقف تحته يتردد بمائه . ثم نشف
جسمه الضخم العضلات ، مع ميل للسمنة ، بمنشفة اسفنجية ، واستبدل قيصه ،
واحتذى حذاء لناعاً كصفحة المرأة ، ثم جلس أمام المرأة يمشط لحيته السوداء
وشعره الفاتح .

كانت سائر مقتنياته من ثياب بيضاء ، وربطة عنق ، ودبابيس ، وأزرار ،
كلها من نوع جيد ممتاز يحنج للبساطة والألوان الزاهية ، ولكنها مرتقعة الثمن .
وطفق يرتدي ثيابه بهدوء ، ثم مضى نحو غرفة الطعام التي كانت عبارة عن
قاعة كبيرة ، قضى ثلاثة رجال في صقل أرضها يوماً كاملاً واقتضتهم جهداً
كبيراً . كانت تحتوي على (بوفه) من الخشب ومائدة قوائها على شكل مغالب
السباع .

كان على المائدة المغطاة بغطاء نظيف وثين ، ومكوي ، ركوة من الفضة

ملأى بالقهوة تفوح منها رائحة شهية ، وإناء للسكر من الفضة أيضاً ، وقطعة من الزبدة ، وسلّة صغيرة تحتوي على خبز وبسكوت .

والى جانب ذلك كان يوجد بريد الصباح ، رسائل ، وصحف ، وعدد من (مجلة العالمين) .

وفيا كان (نيكليندوف) يهم بفض الرسائل جاءت امرأة طاعنة في السن ترتدي ثياباً سوداء ، وعلى رأسها غطاء أبيض . كانت تلك (اغربينا بتروفنا) وصيفة الأميرة والدّة (نيكليندوف) التي توفيت قبل قليل . وقد ظلت (اغربينا) بعد وفاة سيدتها تعمل كقيمة على منزل ولدها .

كانت (اغربينا) قد رافقت الأميرة في عدة رحلات الى الخارج فهي لذلك تبدو ، من حيث تصرفاتها ، شبيهة بسيدة كبيرة . لقد ثبت وترعرعت في منزل آل (نيكليندوف) وعرفت الأمير منذ كان طفلاً ينادونه بصيغ التعجب .
- نهارك سعيد يا (ديمتري ايفان) .

- نهارك سعيد يا (اغربينا بتروفنا) هل من جديد ؟

- رسالة جاءت تحملها وصيفة آل (غورتشاكين) وهي ما زالت تنتظر في مخدعي . - قالت (اغربينا) وهي تقدم له الرسالة ، وقد ارتسمت بسمة خبيثة على شفتيها .

- حسن . - أجاب (ديمتري) وهو يتناول الرسالة ، ولكنه امتعض عندما تبين ابتسامه (اغربينا) التي كانت تعني ان قيمة المنزل تحسب ان سيدها ينوي الزواج من ابنة آل (غورتشاكين) التي بعثت بهذه الرسالة .
- فلم يرقه ذلك .

- ابلغني الوصيفة أن تنتظر .

وخرجت (اغربينا) ، ولكن بعد أن أصلحت أشياء رأتها موضوعة على بعض أثاث المنزل بشكل لا يرضيها .

وفض (نيكليندوف) الغلاف المعطر وأخرج منه رسالة غير متساوية السطور مكتوبة على ورق ممتاز وبأحرف انكليزية . وكان هذا نصها : « عملا

بما أخذت به نفسي وذلك بأن أكون لك بمثابة « مفكرة » أقول لك أنه
يترتب عليك أن تحضر الجلسة هذا اليوم (٢٨ نيسان) ، وأنه لذلك يستحيل
عليك الذهاب معنا نحن و (كولوزوف) ، لتزور الشرقية (ز) كما سبق
ووعدت بتسرعك المهود نهار أمس ، اللهم الا اذا كنت مستعداً لدفع غرامة
قدرها (٣٠٠) روبل اذا ما تقييت عن جلسة مجلس المهلفين .

« لقد تذكرت هذا ليلة أمس بعد أن خرجت من البيت . ولذا لا تنسى
ذلك . التوقيع : الأميرة م غورتشاكين » .

وقرأ الأمير في الصفحة التي تليها ما يلي :

« لقد كلفتني أمي أن أنقل اليك أن مكانك على المائدة سيظل محفوظاً لك
حتى الليل . على كل حال تعال متى تهياً لك ذلك . التوقيع : م . ك . » .

كانت تلك الرسالة إمتداداً لملاحقة الأميرة (غورتشاكين) للأمير
(نيكليندوف) التي بدأتها قبل شهرين . وهي الآن تحشى أن يتملص من
الشباك التي تزيدها يوماً عن يوم كثافة حوله .

لقد كان لدى الأمير (نيكليندوف) - عدا عن التردد المألوف لدى
الرجال عندما يبلغون مرحلة معينة من العمر ، القوا خلالها حياة المذات
الرخيصة - سبب آخر يحول دون توريط نفسه بالتزامات حتى في حال
تصميمه على الزواج من الأميرة . وطبيعي ان هذا السبب ليس كونه منذ ثمانية
أعوام ، قد أغوى (كاثانا) ثم تخلى عنها ، فان تفكيراً كهذا كان يثير امتعاضه .
كما انه لم يكن يتصور مجال من الأحوال ، أن يكون في ذلك ما يحول دون
زواجه من الأميرة .

لقد كان السبب الحقيقي علاقات غرامية مريبة كثيراً ما زعم انه راغب
في وضع حد لها ، ولكنه في الواقع كان شديد الحرص عليها .

كان (نيكليندوف) حياً بطبعه وخاصة ازاء النساء . وكان ذلك الحجل
حافزاً لرغبة (ماري فاسيليفنا) في السيطرة عليه . فحاطته بعلاقات كان
يزداد انغماساً فيها يوماً عن يوم ، كما يزداد شعوراً بثقل وطأتها عليه . لقد

انسأقت نفسه في البداية مع وسائل الاغراء ، حتى أصبح لا يحرو على قطع صلاته بخليلته الا بموافقتها ، لشعوره بمسؤوليته وكانت هي أبعء ما تكون عن ابداء مثل هذه الموافقة . بل انها تجاوزت ذلك الى التهديد بالانتحار اذا ما هجرها بعد تضعياتها في سبيله .

وفي صباح ذلك اليوم حمل اليه البريد رسالة من زوج خليلته ، وكان أحد (ماريشالات النبلاء) . فعرف الخط والطابع ، واحمر وجهه خجلاً ، وعادته حيويته الدافقة التي طالما وافته عندما يحس بدنو الخطر . وسرعان ما زايله انفعاله أثر اطلاعه على مضمون الرسالة .

لقد كتب له زوج (ماري فاسيلينا) يخبره أن المجلس الذي يرأسه سيجتمع اجتماعاً غير عادي في أواخر شهر أيار ، ويطلب اليه ألا يتغلف عن حضور هذا الاجتماع « ليقف بجانبه » لأنهم سيناقشون قضيتين هامتين : الأولى قضية المدارس ، والثانية قضية الطرق ، وكانت كلتاها تلاقبان معارضة شديدة من الرجعيين .

كان ذلك المارشال ميالاً بطبعه لفئة الاحرار . وكان يناهض بالاشتراك مع بعض التقدميين ، أعمال الرجعيين التي تعاضم شأنها في عهد القيصر نيقولا الثالث ، وكانت هذه المناهضة تستنفد سائر جهوده ووقته ، حتى لم يبق لديه وقت يلاحظ فيه خيانة زوجته له .

وسرعان ما تذكر (نيكليندوف) ما لقيه من الغم نتيجة هذه العلاقات . وتذكر أيضاً أنه في إحدى المناسبات تصور انه من الجائز أن يكشف زوج خليلته خيانتها له ، وفي مثل الحالة قد يكون من المرجح أن يطلبه الزوج للمبارزة ، كذلك تذكر انه قرر آنئذ أن يقبل المبارزة ولكنه بدلاً من اطلاقه النار على خصمه ، فسيطلقه في الهواء . وتذكر الموقف الرهيب الذي وقفته خليلته حين لمح لها بفصم عرى علاقاته بها ، اذ اندفعت بعامل اليأس والقنوط نحو البحيرة لتلقي نفسها بها .

— لا سبيل لي الى أي شيء ، حتى ولا الى الذهاب لرؤيتها ما دمت لم اثلق جوابها . — كان يقول في نفسه .

كان قبل ثمانية أيام قد بعث برسالة حازمة الى خليلته يعترف فيها بخطئه ، ويعرض فيها استعداده لكل تضحية تكفيراً عنه ، وقال في نهاية خطابه ان تلك العلاقات ينبغي أن يوضع حد لها حفاظاً على مصلحتها هي .

غير أن الجواب المنتظر لم يرد . وبدا له أن ذلك بشير خير فلو لم تكن موافقة على قسم عرى هذه العلاقات اذن لإجابته في الحال ، أو لأسرعت اليه كما فعلت غير مرة .

لقد قيل له ان ثمة ضابطاً يلاحق (ماري فاسيليفنا) بغرامه . وعلى الرغم من أن وجود مزاحم له قد أثار غيرة وحفيظته ، فقد رأى في ذلك خير سبيل للخلاص من تلك الورطة التي طالما أثقلت ضميره .

وكان بين الرسائل التي تلقاها (نيكليندوف) رسالة من مدير املاك والدته ، يطلب اليه فيها الحضور الى المزارع لاجراء معاملات حصر الإرث ، ولتقرير الطريقة التي ستدار بموجبها هذه الأملاك ، أيريد ابقاؤها كما كانت على عهد والدته أم يرغب في استثمارها لحسابه الخاص . وكان من رأي المدير ان استثمارها بلا وسيط اجزل فائدة . ثم يعتذر المدير لتأخره عن إرسال مبلغ الثلاثة آلاف روبل للأمير قائلاً أنه سيبعثها في البريد المقبل ، ويعزو هذا التأخير لتمتع المزارعين أو لعدم استطاعتهم دفع ما عليهم . وكثيراً ما اضطروا للجوء الى القوة لجباية المال منهم .

وكان أثر تلك الرسالة على نفسه محزوناً ومفرحاً في آن واحد .

كان يسره أن يكون مالكا للملكية واسعة كهذه . وكان من جهة أخرى لا يزال يذكر انه في شبابه كان قد حمله دافع الشباب النبيل ، متأثراً بنظريات (سنسر) و (هنريش جورج) على الايكتفي بالتفكير والتصريح والكتابة بأن الأرض ينبغي ألا تكون ملكاً فردياً ، وانه ينبغي عليه أن يقرن الأقوال بالفعال ولذا وزع على القرويين سائر ما ورثه عن أبيه من أملاك .

والآن وقد جعلت منه وفاة أمه ملاكاً كبيراً فان عليه أن يختار بين نوعين من الحياة ، فاما أن يتنازل عن المتي هكتار من الأراضي التي ورثها عن أمه ،

وأما أن يضع يده عليها ، وبذلك يكون قد أعلن صراحة ، وبشكل جدي أن تلك المثل التي طالما نادى بها من قبل كانت زائفة خادعة . فأما النوع الأول فقد كان من الصعب اختياره ، لأن تلك الملكية كانت كل ما بقي له من ثروة . وأصبحت تنقصه المرأة والشجاعة للعودة الى صفوف الجيش بعدما ألفه من حياة البطالة والرفاهية . وفضلاً عن ذلك فقد تكون تلك تضحية لا فائدة منها ، إذ كان قد فقد اقتناع الشباب واراדתه . ومع ذلك فقد كان يرى في تنكروه لتلك المثل التزمية الجواذة ، التي كانت فيما مضى موضع فخره واعتزازه ، مثارم وغم . لذا كانت رسالة المدير مبعث بلبلة واضطراب .

٤

دخل الأمير الى مكتبه بعد فراغه من تناول طعام الافطار ليراجع مذكرة الدعوة التي وردته من المحكمة ، ولينأكد من الموعد المضروب لحضوره اليها ، وليجيب على رسالة الأميرة . وقبل أن يدخل المكتب مر بطريقه على غرفة كان يتخذها مكاناً للرسم ، أيام كان يحاول أن يكون رساماً ، حيث كان لا يزال على المنصة لوحة غير قامة . فأعادت الى ذاكرته تلك اللوحة ومسوداتها المعلقة على الحائط عدم أهليته لان يكون رساماً ناجحاً ، وكان يعزو ذلك لافراط ذوقه الفني في الدقة . وعلى أي حال ، فان ذلك لم يكن ليسره .

لقد استقال من الجيش منذ سبعة أعوام لتومه ان له موهبة الرسام . وها هو ذا الآن يرى نفسه مجبراً على الاعتراف بخطئه في الاستهانة ببقية المهن كما فعل من قبل . فألقى نظرة عجيلى فياضة بالقلق على ما في تلك الغرفة من مظاهر الترف وعاد قدخل مكتبه وهو منقبض النفس .

كانت غرفة المكتب واسعة فسيحة ، وأنيقة محتوية على كافة أسباب الراحة الممكنة . فتقدم (نيكليندوف) من مكتب فخم وتناول مذكرة الدعوة التي تدعوه لحضور الجلسة الساعة الحادية عشرة ، ثم تناول ورقة وكتب الى الأميرة يشكرها فيها على الدعوة التي وجهتها له ، مؤكداً لها أنه سيبذل قصارى جهده كي لا يتخلف عن الحضور على العشاء . غير أنه ما لبث ان مزقها لأنه رأى

فيها زيادة في التورط . ثم كتب اخرى الا أنه وجدها جافة ومهينة ، ولذا مزقها بعصبية شديدة ، ثم قرع الجرس ، فأطل خادم مزين اللحية جاد الملامح يأتزر بمئزر رمادي اللون .

— حسناً تصنع اذا أبلغت الحوذي أن يمد العربة .

— بالحال يا صاحب السمو .

— وأبلغ وصيفة آل (غورتشاكين) التي تنتظر انني أشكرهم وسأحاول الا أتخلف عن الحضور .

— حسن يا صاحب السمو .

— ليست تلك طريقة مهذبة . ولكني لا أستطيع الكتابة هذا ما سأخبرهم به . — كان يخاطب نفسه بذلك وهو في طريقه الى مخدعه لارتداء ثيابه .

كانت العربة الفخمة التي كان يستقلها عادة ، والتي كانت دوليبها مؤطرة باطارات من المطاط ، تنتظره عندما وصل الى الباب الخارجي .

— عندما وصلت ليلة أمس الى منزل الأمير (غورتشاكين) أكد لي خادمهم أن سموكم قد خرجتم . — قال له الحوذي وقد استدار نصف دورة فبدأ عنقه النحاسي اللون القوي العضلات .

— حتى سائقو العربات على علم بعلاقاتي بآل (غورتشاكين) .

— قال (نيكليندوف) في نفسه ، وقد عاودته ذكرى المشكلة التي شغلت تفكيره في الأيام الأخيرة وهي: هل يجب عليه أن يتزوج من ابنة (غورتشاكين) أم لا .

كان يحدوه للتفكير بالزواج أمران : أولهما امكانية العيش عيشة راضية ، وثانيهما الأمل في أن يحمل الجو العائلي والاولاد الى حياته التي تبدو سخيفة جوفاء ، اهدافاً نبيلة . غير أن اعتبارات أخرى كانت تهيب به للإقلاع عن فكرة الزواج . أولها الاشفاق من فقد الحرية التي يتمتع بها عادة العوانس القساة القلوب ، والحذر مما عند سائر النساء من خفايا في الزوايا . كذلك كانت ثمة اعتبارات أخرى تقف في جانب زواجه من (مارغريت غورتشاكين) ، وهي

كونها تنتمي لعائلة طيبة ، وانها في سائر تصرفاتها ، في ملبسها ، وفي حديثها ، وفي مشيتها ، وحتى في ضحكها ، كانت تتحلى بميزات فطرية تسمو بها فوق كل عادي .

ذلك هو الوصف الصحيح الذي كان الأمير يراه حرياً بتلك الصفات التي كانت دائماً موضع تقديره . وعلاوة على ذلك فقد كانت الأميرة تميزه عن غيره من الناس وهذا يعني انها كانت تفهمه وكان ذلك في نظره خير دليل على ما تتحلى به من مواهب .

كذلك كان ثمة اعتبارات خاصة تقف ضد زواجه من (مرغريت) . منها ان النساء كثيرات وبوسعه الزواج ممن هي اكفاء منها وأكثر مميزات . وفوق ذلك ، فهي قد بلغت السابعة والعشرين من العمر ومن الطبيعي أن تكون قد أحببت غيره . وهذا ما لا يطبق احتمالاً . لم يكن يرضي غروره أن تحب (مرغريت) رجلاً غيره حتى ولو كان في الماضي ، وحتى لو كان ليس بوسمها التنبؤ بأن شخصاً ما يدعى (نيكليندوف) سيقف ذات يوم في طريق حياتها . هكذا كانت الأفكار تتنازع (نيكليندوف) ما بين مؤيد ومقبح أمر زواجه . حتى لقد كان يضحك في سره عندما يقارن بين وضعيته وبين وضعية حمارة (بوريدان) التي لم تكن تدري بأي وجه من وجهي أوراق نبات الفصفصة تبدأ الأكل .

— قبل أن أعلم على ماذا عولت (ماري فاسيليفنا) ، وقبل أن أضغ حداً لعلاقي بها لا أستطيع أن أقرر شيئاً ما — كان يقول في نفسه . وكانت فترة الانتظار هذه سارة له .

— على كل حال سأفكر في هذا في المستقبل . — قال في نفسه ثم أضاف يقول بينما كانت العربية تقف أمام المحكمة بغير جلبة — الآن علي أن أؤدي المهمة التي أوكلها الى المجتمع بلء الدقة والأمانة التي تميزت بها أعمالي ، بقطع النظر عن ان تلك الجلسات تتميز أحياناً بأهميتها وفائدتها . ثم دخل القاعة .

كانت الحركة شديدة في رواق المحكمة . وكان الحجاب يهرعون من جانب لآخر وهم يحملون اضبارات ورسائل . خدم وخدامون ، وموظفون يسرعون الخطى من جهة لأخرى . وكان المتداعون والمتهمون ، يقفون بجانب الحيطان ، أو يتحلقون جلوساً وقد أمضهم الضجر .

— أهذه محكمة المنطقة ؟ — قال (نيكليندوف) يسأل أحد الحجاب .

— أيها تعني المدنية أم الجزائية ؟

— أنا أحد المحلفين .

— إذن اذهب الى قاعة المحاكمات . اذهب عن اليمين ثم الى اليسار ، في

الباب الثاني .

سار (نيكليندوف) بالاتجاه الذي دله عليه الحاجب . كان على الباب رجلان ، أحدهما تاجر ذو ملامح هادئة ، ويبدو ان غذاءه كان سخياً بدليل ما يظهر على سمائه من المرح ، وكان الثاني مستخدم من أصل يهودي . فتقدم (نيكليندوف) منها ، وكأنا يتحدثان عن اسعار الصوف ، وسألها عما اذا كانت تلك غرفة المحلفين .

— بلى ، يا سيد . هذه هي . وأرى أنك احد زملائنا . — قال أحدهما

يهوديه .

ثم أضاف يقول بمثل لهجته السابقة ، عندما اجابه الأمير بالإيجاب .

— سنعمل معاً . أنا (باغلاسيغو) تاجر من الدرجة الثانية . قال ذلك وهو

يمد يده المريضة الى الأمير .

— مع من أتشرف بالتحدث ؟

فأعطاه الأمير اسمه ودخل الى غرفة المحلفين .

-- كان والده من عداد خدمة الأمبراطور السامين .

— قال اليهودي .

— أهو غني ؟ — قال التاجر يسأل .

— أنه واسع الغنى .

كان في القاعة عشرة أشخاص من مختلف الطبقات والوضعيات . بعضهم كان جالساً والبعض الآخر كان يمشي في القاعة ذهاباً وإياباً وآخرون كان بعضهم يتعرف على بعض .

كان بين الحاضرين عسكري واحد يرتدي بزته الرسمية . وكان آخرون بتياب الحفلات . ولم يكن بينهم سوى واحد يرتدي الزي « الوطني » . وعلى الرغم من أن بعضهم كان قد ترك عمله ، ويبدو أنه كان يأسف لذلك ، فانهم كانوا جميعاً تبتدو على وجوههم دلائل الإرتياح التي يولدها الاعتزاز بالمنصب الرفيع الذي جاءوا للاضطلاع بأعبائه . كانوا يتبادلون البطاقات وبعضهم كان يحاول التمكن بأسماء زملائه . وكانوا يلغظون بالحديث عن الربيع الذي حل مبكراً هذا العام ، وعن الدعوى التي سيشترون في النظر فيها .

كان بين المحلفين الذين لم تكن لهم سابق معرفة (نيكليندوف) من سارع بتقديم نفسه اليه ، ظناً منهم ، دون شك ، ان في ذلك شرفاً كبيراً لهم ، في حين هو يراه أمراً جديداً طبيعياً . ولو أن سائلاً سأل (نيكليندوف) لماذا يرى نفسه اسماً من بقية الناس اذن تعجز عن الجواب . لم يظهر أي تفوق طيلة حياته ، كما لم يبرهن عن أي صفة غير عادية . هو يجيد التكلم بالانكليزية ، والفرنسية ، والالمانية . هو يرتدي الثياب الداخلية والخارجية وربطات العنق والدبابيس المشتراة من المحلات التجارية الهامة في المدينة . ولكن هذه أشياء يعرفها هو وحده ، ولا تقوم دليلاً على تفوقه . ومع ذلك فقد كانت شدة الاقتناع من هذا التفوق ، وكان يتقبل مظاهر التكريم والاجلال من الناس كأمر واجب الأداء واخلالهم به كان يؤلم كبريائه .

ومع ذلك فقد كان ينتظر (نيكليندوف) شيء من مثل هذا في قاعة المحلفين . كان بين هؤلاء رجل يدعى (بطرس جيراسيموف) ولم يكن (نيكليندوف) يتذكر لقبه . كان هذا فيما مضى يعمل في بيت أخته كعلم لبناتها . وعندما أنهى علومه عين استاذاً في التجهيز . كان (نيكليندوف)

يستقل ظله على الدوام لضحكته الصاخبة ولضعته كما كانت تقول أخت (نيكليندوف) .

— كيف ؟ أنت هنا أيضاً ؟ — قال وهو يضحك ضحكته الصاخبة ، ويدنو منه . ثم أضاف — ألم يكن يوسعك أن تتواري ؟
فاجابه (نيكليندوف) — هذا ما لم أفعله أبداً .

— هذا ما يسمى بالجرأة الأدبية — قال (بطرس جيراسيموف) وهو يضحك ضحكة أشد صخباً ، وأضاف يقول — يبدو أننا سنتسلى بعض الوقت . عندما نجوع أو تعطش فلن نجد من يقدم لك ما تسد به رمقك أو تنقع غلتك .

فقال (نيكليندوف) في نفسه : يبدو ان ابن الكاهن هذا يريد احتقاري . وأخذته عاصفة من الغم كما لو كان قد نعي اليه سائر أفراد عائلته ، وابتعد عنه لينضم الى جماعة كانوا قد تحلقوا حول رجل طويل القامة شديد الادعاء ، ظن أنه كان يقص عليهم أمراً هاماً .

كان يتحدث عن محاكمة جرت في المحكمة المدنية ، كما يتحدث عن شيء مألوف منه . كان يسمي المحامين المبرزين والقضاة باسمائهم والقيامهم . وروى قضية أحسن أحد المحامين فيها اختيار طريقة السير في الدعوى ، فكانت النتيجة ان خسرت صاحبة الحق ، وهي امرأة عجوز ، مبلغاً ضخماً من المال دفعته للطرف الآخر . وأنهى كلامه بقوله : هذا محام عبقرى .

وكان بقية رفاقه ينصتون اليه بتوقير ، فاذا ما تكلم أحدهم قاطعه هذا كما لو كان وحده العليم بهذه القضايا .

ولم تبدأ الجلسة ، على الرغم من وصول (نيكليندوف) متأخراً ، لأن أحد القضاة ما زال متغيّباً .

٦

كان الرئيس ، وهو رجل طويل القامة ، أشيب الرأس ، قد جاء مبكراً . كان متزوجاً ، وكانت زوجته تحيا حياة مضطربة مشوشة نظيره . غير ان كليهما كان يحاول ألا يعكرو صفو الآخر بشيء .

كان قد زارته في العام الماضي معلمة سويسرية عند مرورها في طريقها الى سان بطرسبرج . وفي هذا الصباح تلقى منها بطاقة تحببه فيها انها تنتظره في فندق ايطاليا من الساعة الثالثة بعد الظهر حتى السادسة مساء ، ولذا فهو يرغب في أن يبدأ المحاكمة مبكراً ليفرغ منها قبل الساعة السادسة ليتسع له الوقت للقاء (بكلارا) السيدة ذات الشعر الأشقر التي أقام معها صلات في الريف خلال العام الماضي .

ودخل غرفته وأوصد الباب خلفه بالمفتاح ثم أخرج من أحد الأدراج ثقلين رياضيين وأخذ يجري عليها عدة تمارين . فرفعها بيديه الى ما فوق رأسه عشرين مرة ثم الى كلا الجانبين ، فالى الأمام ، والوراء ، ثم طوى ركبتيه قليلاً ثلاث مرات وهو رافع الثقلين فوق رأسه .

— لا شيء يقوي الجسم كالسباحة والتمارين الرياضية — هذا ما كان يخاطب به نفسه ، وهو يتحسس بيده اليسرى التي كان يتوهج فيها خاتم ذهبي ، عضلات ذراعه الأيمن .

وكان ينوي متابعة تمارينه لو لم يدفع أحدهم الباب عليه من الخارج فأسرع بإخفاء الثقلين وفتح الباب .
— معذرة .

ودخل الغرفة قاضي قصير القامة ، عريض المنكبين ، يضع على عينيه نظارات ذهبية ، والاستياء باد على وجهه .

— لم يحضر بعد (ماتيو نيكينينا) كعادته . — قال بخشونة .

فأجابه الرئيس قائلاً :

— هو دائماً يأتي متأخراً .

— ليس هنالك ضمير يحاسب . — قال القاضي بغيظ وهو يشعل لفافة تبغ .

كان هذا القاضي ، الشديد المحافظة على المواعيد ، قد تحاصم في الصباح مع زوجته التي جاءت تطلب منه مزيداً من المال لأنها أنفقت المعاش بكامله خلال وقت قصير ، ولما لم يلب طلبها تشاجرت معه وتوعدته قائلة : سوف لن تجدد

طعاماً في البيت عند عودتك . فخرج من البيت دون أن يلي طلبها وهو الآن يخشى أن تنفذ وعيدها . وهي التي يعلم استعدادها لكل شيء .
— ليقولوا ما طاب لهم أن يقولوا ، من أنه ينبغي على المرء أن يحيا شريفاً ، وأن يحافظ على المثل الأخلاقية . — كان يقول في سره وهو يراقب الرئيس الذي كان ممثلاً صحة وجوراً ، ووجهه يطفح بالبشر والارتياح ، والذي كان يصلح سالفه بيديه البيضاء . — هو دائماً خالي البال منشرح النفس ، وأنا في حالة ضجر مستمر .

ودخل أحد الكتبة يحمل اضبارة دعوى .
— شكراً . — قال له الرئيس وهو يشعل لفافة تبغ . ثم أضاف يقول . — أية دعوى سنناقشها الآن ؟

— أعتقد انها ستكون دعوى التسمم . قال الكاتب مظهرأ اللامبالاة .
— حسن . لتكن دعوى التسمم . — قال الرئيس وهو يحسب انها ستكون بسيطة بحيث تمكنه من مغادرة المحكمة قبل الساعة الرابعة .

— ألم يحضر بعد (نيكيثا نيكيثيتش) ؟
— كلا . لم يحضر بعد .
— وهل (بريفي) موجود ؟
— بلى هو هنا . — أجاب الكاتب .
— حسن . أبلغه ، إذا رأيته إن أول الدعاوى ستكون دعوى حادث التسمم .

كان (بريفي) هذا وكيل المدعي العام الذي سيتولى جانب الادعاء ذلك النهار .

وتلاقى في الرواق مع (بريفي) . وكان مطأطأ الرأس ، محلول أزرار البزة ، يتأبط بحفظة أوراق ، وهو يسير بخطى سريعة متهافئة ، وكأنه يركض ويخبط الأرض برجليه ، ويده الطليقة تؤدي حركات وإشارات .
— يريد (ميخائيل بتروفيتش) أن يعلم إذا كنت على استعداد لافتتاح الجلسة . — قال له الكاتب .

- أجل أنا مستعد . ولكن بأي الدعاوي ستبدأ ؟

- بدعوى حادث التسمم .

- حسن جداً . - أجب وكيل النائب العام .

والواقع أنه كان يرى عكس ذلك . ولكنه لما كان قد ظل طوال الليلة الفاتنة يلعب الورق مع نفر من أصدقائه ويشرب الخمر حتى الساعة الثانية صباحاً ، ثم صحب آخرين الى محل لبائعات الهوى الرخيص ، حيث كانت تعمل (ماسلوف) منذ شهور فانه لم يذق طعم الراحة طيلة ليله ، كما لم يتسع وقته لدراسة القضايا التي سيتولى فيها طرف الادعاء . والحق أنه كان شديد الرغبة في تصفح أوراق الدعاوي ولو بصورة سريعة ، فاستغل المقرر هذه المناسبة ليشير على الرئيس بوجوب النظر أولاً في قضية التسمم .

كان (بريفي) محافظاً متشديداً ، وأرثوذكسياً فعالياً كسائر الموظفين الألمان في روسيا . وكان المقرر تحريماً أقرب لأن يكون رديكالياً . وينظر الى وكيل النيابة نظرة الكراهية ويحسده على منصبه .

- ودعوى (سكوتيزي) ؟ قال المقرر يسأل .

- لقد قلت انني لا أستطيع - أجب وكيل النيابة - ينقصنا شهود ، وهذا ما سأعلنه أمام المحكمة .

- ولكن ...

- أكرر انني لا أستطيع .

ودخل غرفة مكتبه ويده تبدي إشارات .

والواقع أن فقدان الأدلة لم يكن العامل الحقيقي للتأجيل المتواصل في قضية (سكوتيزي) وإنما كان شيء آخر . - كان وكيل النيابة يعلم ان مثل هذه الدعوى اذا نظرت في مدينة كبيرة حيث أكثرية المحلفين من المثقفين ، فانها صائرة حتماً الى الحكم بالبراءة ، ولهذا ، وبالاتفاق مع سيادة الرئيس ، فهو يرغب في إحالتها الى إحدى مدن الولاية ، حيث أكثرية المحلفين فريديون ، ومستعدون للموافقة .

وأخذ الزحام يتزايد في الرواق وتتعاظم الحركة .
كان الناس يزدهمون ، بصورة خاصة ، أمام قاعة المحاكمات المدنية ، حيث
كانت تنظر الدعوى التي تحدث عنها السيد الذي ذكر سابقاً . وخرجت من
القاعة المرأة المعجوز التي جردها (المحامي المبقرى) من كل حقها ليضعه في يد
موكله الذي لا حق له فيه . وكان الجميع من القضاة الى المحامي والموكل على أتم
اقتناع من ذلك .
كانت هذه بدينة ترتدي ثوباً أخضر اللون ، وتضع في قبعتها وردات
ضخمة . وعندما أصبحت في الرواق ، وقفت تتحدث مع محاميتها وهي تهزله
يدها الضخمة .

— ماذا سيحدث الآن ؟ وما سيجد الآن ؟

كان المحامي يستمتع بمنظر وردات قبعتها ، وهو لا يصفي إليها ، إذ كان
منشغل الفكر بإحدى القضايا .

وفتح باب القاعة وخرج منه (المحامي المبقرى) بخطى سريعة ، ووجهه
يطفح بالبشر لنجاحه . كان الفضل لبراعته في خروج المرأة ذات الوردات
الضخمة من كل حقها ، ليفوز موكله الذي دفع له عشرة آلاف روبل ، بأكثر من
مئة ألف روبل . واتجهت نحوه الأنظار ، فلما أحس بها بدا وكأنه يقول لهم :
ليس لي من حاجة لإعجابكم بي يا سادتي .
ومر من أمام الجميع لم يأبه لأحد .



وأخيراً جاء (نيكيتيش) . ودخل القاعة أحد الحجاب وكان نحيل الجسم ،
طويل العنق ، يحرق إحدى رجله جراً ، ولكنه كان شريفاً وذكياً . كان هذا
الحاجب لا يستقر في منصب ، لأنه كان مدمناً سكيراً . وقد عين في منصبه
هذا منذ ثلاثة أشهر بفضل وساطة سيدة كبيرة تعطف على زوجته ، والظاهر
أن تلك الوظيفة وافقت هوى من نفسه فاحتفظ بها .
— هل كل المحلفين حاضرون ؟ — قال يسأل وقد رفع نظارته الى عينيه .

- أظن أن قد حضر الجميع . - أجاب التاجر .
 - سرى في الحال .
 وأخرج من جيبه لائحة بأسماء المحلفين ، وبدأ يقرأ ثم ينظر الى كل واحد ليتحقق من وجوده ، ثارة من فوق نظاراته وثارة من ورائها .
 - خ. م. (نيكيفوروف) مستشار الدولة .
 - هو أنا . - قال الرجل المدعي الذي كان عليماً بكل القضايا .
 - (إيفان سيمينوفيتش) كورونيل سابق .
 - ها أنذا . - قال ذاك الذي كان يرتدي البزة العسكرية .
 - (بطرس دا كلا سيف) تاجر من الدرجة الثانية .
 - موجود . وعلى أتم استعداد . - قال الرجل الطيب .
 - الأمير (ديمتري إيفان نيكليندوف) ضابط في الحرس .
 - هذا أنا . - أجاب الأمير .
 فنظر الحاجب الى الأمير من فوق نظاراته نظرة تدل على التوقير والاحترام ، وأبدى حركة تدل على أنه يريد تمييزه عن سواء من المحلفين ثم مضى يواصل القراءة .
 - الكابتن (جورج ديمتريفييتش دانسكو) . (غريغوريوس ايفيموفيتش) تاجر . وهكذا حتى النهاية .
 كانوا جميعاً موجودين .
 - والآن أيها السادة ، تفضلوا الى القاعة - قال الحاجب بتأدب و أشار الى الباب .
 فوقف الجميع وأخذوا يدخلون القاعة يوسع بعضهم الطريق للبعض الآخر تأدباً .
 كانت الغرفة مستطيلة ، وكان في أقصاها منبر يصعد عليه بثلاث درجات . وكان في وسط المنبر طاولة كبيرة يعلوها غطاء أخضر اللون ، محلى بإطار أشد خضرة ، وثلاث كراسي ذات مستند من الخشب المشغول . وكان يعلق في الحائط

رسم القيصر بيزة استعراض عسكرية برتبة « جنرال » ويده اليمنى على مقبض سيفه ، وإحدى رجله تتقدم الأخرى ، وإلى اليمين تمثال يسوع المسيح مكللاً بإكليل من الشوك ، وصف من الكراسي مخصص للمحلفين ، وطاولة صغيرة للمحامين ، ومكتب وكيل النيابة . وإلى اليسار طاولة المقرر . وأمام الأماكن المعدة للنظارة كانت مقاعد المتهمين وهي ما زالت خالية . كل ذلك كان يشغل نصف القاعة التي كان يقسمها حاجز خشبي إلى قسمين . وفي النصف الثاني كانت المقاعد المخصصة للنظارة ، ترتفع على شكل مدرج وتمتد حتى آخر القاعة . كان يجلس في المقاعد الأمامية أربع نساء ورجلان يبدو أنهم كانوا عمالاً . وكانوا يتحدثون بصوت خافت إجلالاً وتأثراً برهبة المكان . وحالما دخل المحلفون إلى القاعة ، وأخذوا أماكنهم ، تقدم الحاجب إلى منتصف القاعة ونادى بصوت قاصف كأنما كان يريد إرهاب الحضور .

— المحكمة .

فهب الجميع واقفين ، وظهر القضاة الثلاثة على المنبر يتقدمهم الرئيس بسالفيه الجميلتين ، ثم القاضي ذو النظارات الذهبية والنظرات الحزينة التي كانت آتخذ أشد كآبة لأنه كان قبل دخوله القاعة قد أبلغه ابن حبيه أن أخته سوف لن تعدم طعاماً في البيت . ثم أضاف وهو يضحك :

— صبراً . سنعتاد على ارتياد المطاعم .

— يا للجنة ، إذا كان في ذلك ما يحمل على الضحك . — قال القاضي وقد ازداد غماً .

وكان آخر من دخل من القضاة القاضي (ماتيو نيكييتش) كمادته في كل مرة . كان ذا لحية كبيرة ، ونظرات طيبة ، ويشكو من مرض الأمعاء . وكان الطبيب قد زاره في الصباح ووصف له وصفة ، وعين له أنواع الطعام ، ولذا جاء متأخراً .

كان بادي الاهتمام عندما دخل القاعة . وكان بطبعه ميالاً لتصيد المصادفات النادرة يستفتيها بأشياء يرغب في إيجاد حل لها . كان قد قرر أنه إذا كان عدد

الخطوات التي سيخطوها من الباب حتى مقعده قابلاً للقسم على ثلاثة دون أن يترك كسوراً ، فان المآكل التي عينها له الطبيب ستكون عاملاً على شفائه ، والمكس بالمكس . وجاء عدد الخطوات ستاً وعشرين خطوة وخطا خطوة قصيرة ثم جلس في مكانه بعد أن عد السابعة والعشرين .

كان مظهر الرئيس والقضاة رائعاً جداً بياقاتهم الموهمة بالذهب . وكانوا يشعرون بذلك . فجلسوا في مقاعدهم وكأنهم مرتبكون لرغبة مقامهم ، وغضوا من أبصارهم تواضعاً وأقبلوا ينظرون الى الطاولة التي أمامهم ، والتي كان فوقها أداة مثلثة الزوايا يحتم فوقها النسر الامبراطوري ، وعدة أقلام ، وورق أبيض وأدوات أخرى .

وجاء وكيل النيابة مسرعاً كعادته ، يتأبط حقيبته ، ودخل القاعة في اللحظة التي دخل القضاة إليها . فجلس في مقعده المعد له ، وأقبل يتصفح خلاصات أوراق الدعوى بسرعة ، مستغلاً الوقت القصير الذي لديه . كانت تلك هي المرة الرابعة التي يتولى فيها الاتهام . ولما كان يطمح الى المناصب العالية فقد توهم أنه من الضروري أن تنتهي كافة الدعاوي التي يشترك فيها بالأدانة . لم يكن قد كون لنفسه أي فكرة عن حادث التسمم سوى فكرة إجمالية . وكان قد أعد مسودة ببعض النقاط ولكنه كان لا يزال بحاجة الى بعض المعلومات ، وهو الآن يحاول جمعها ولو كان بشكل رؤوس أقلام .

وعلى الجانب الثاني من المنبر كان المقرر يتصفح صحيفة قد رفعت دعوى بحق صاحبها ، وقد بذل جهداً كبيراً في الحصول عليها . كان ينوي التحدث بشأنها مع القاضي المصاب بمرض الأمعاء ، الذي كان يعلم أنه يشاطره الرأي ، إلا أنه كان يريد أن يقف بنفسه على محتويات المقال الذي سبب رفع الدعوى .

٨

ألقي الرئيس نظرة عجل على ملف الدعوى . وسأل الحاجب بعض الأسئلة فأجيب عليها ، ثم أمر بإحضار المتهمين . ففتح باب جانبي ودخل منه جندان على رأسهما قبعتان كبيرتان من الفراء ، وسيفاهما مسلولان ، ودخل من وراءهما

المتهمون . رجل أحمر الشعر ، أنمش الوجه ، وامرأتان . كان الرجل يلبس ثياب المساجين ، وكانت يدها تحتفیان تحت كفيه بطولهما . وكان هادىء المظهر مطمئنه فجلس على أحد طرفي المقعد ليفسح مجالاً للمرأتين ، ثم أخذ يتفرس في وجه الرئيس ، في حين بدأت شفتاه تتحركان كأنما كان يحدث نفسه بشيء .

وجلس بجانبه امرأة طاعنة في السن ترتدي بثياب السجينات ، صفراء الوجه ، قد سقط شعر جفניה وحاجبيها ، واحمرت عيناها . جلست بهدوء ثم أصلحت ثوبها إذ كان قد علق بسمار في المقعد ، وأقبلت تمحديق في القضاة .

وكانت الثالثة (ماسلوف) . واشترأت أعناق الرجال نحوها ، وشخصت أبصارهم في ذلك الوجه العطوف الناصع البياض ، وتينك العينين السوداوين البعبدتي الغور البراقتين ، وذلك الجسم المليح الانسجام . حتى ان أحد الحارسين أطال النظر إليها ، ولما أحس بسوء فعلته حول نظره عنها باتجاه النافذة .

وانتظر الرئيس ريثما يستقر المتهمون في أماكنهم ، ثم تحول نحو الكاتب ، وبدأت المحاكمة بالمراسيم المعتادة : المناداة على المحلفين بأسمائهم ، والمحلفين الاحتياطيين ، وفرض غرامة على المتخلفين ، وتلاوة بعض الأعذار المقدمة من بعض المتخلفين ، وتسمية بديل عن هؤلاء من بين المحلفين الاحتياطيين . وبعد الفراغ من تشكيل المحكمة على هذا الشكل ، طلب الرئيس من الكاهن أن يقوم بأخذ اليمين القانونية .

كان الكاهن عجوزاً وارم الوجه ، أصفر اللون ، يرتدي ثوباً بلون القهوة ، ويتدلى على صدره صليب ذهبي ، ويحانه وسام . فتقدم هذا من الهيكل وهو يجر قدميه جراً . وحذا القضاة حذوه .

— أعنا يا رب . — قال الكاهن وقد وضع يده على الصليب الذهبي ، ثم أمسك عن الكلام ريثما يقترب المحلفون منه .

كان وما زال يمارس هذه المهنة منذ سبعة وأربعين عاماً . وخدم المحكمة منذ تأسس مجلس المحلفين ، وهكذا فهو يفخر بأنه أخذ القسم من ألوف وألوف من الناس . ثم يضيف قائلاً أنه وهو الشيخ الهرم لا يزال يعمل في سبيل الوطن ،

والعائلة ، والكنيسة التي خلف لها تركة تقدر بأكثر من ثلاثين ألف روبل ، هذا فضلاً عن البيت الذي يسكنه . وهو الآن يستعد للاحتفال بعيدة كما احتفل كاهن الكاتدرائية . أما ما ورد من النهي عن القسم في الانجيل فلم يكن يخطر له على بال ، كما لم يكن يثقل ضميره . كون مهمته تلقي هذا القسم من الناس ؛ وهي ليست بالمهمة الشريفة . بل كان الأمر بالعكس ، فقد كان مرتاح النفس لها لأنها تتيح له فرصة الاتصال بأفراد الطبقة العليا . لقد وثق صلاته (بالمحامي العبقرى) الذي رآه خليقاً بتقديره ، لأنه تقاضى عن دعوى واحدة مبلغ عشرة آلاف روبل ، وتلك هي دعوى المجوز .

وقال الكاهن للمحلفين بعد أن لبس الثوب الكهنوتي المختص بمثل هذه المناسبات .

— ارفعوا يديكم اليمنى وضموها أصابعكم هكذا .
ورفع يده الفليضة ، التي كان في كل أصبع من أصابعها حفرة صغيرة ، ضاماً إبهامه الى سبابته كمن يريد أن يتناول مسحوقاً .
— أقسم أمام الانجيل المقدس ، وبصليب الخالص ، انني في الدعوى ... ومضى يعد الكلمات ويقف عند كل واحدة منها .
— أقسم أمام الانجيل المقدس ، وبصليب الخالص ... أجمعها مضمومة هكذا . — قال متوجهاً بالكلام الى فتى كان قد ترك يده تسقط . — انني في الدعوى التي ...

كان (الرجل المدعي) والكورونيل السابق والتاجر وآخرون غيرهم قد اجادوا ضم أصابعهم كما علمهم الكاهن ، ولكن الآخرين كان يبدو انهم يؤدون هذا المرسوم على غير رغبة . كان بعضهم يرجع الكلمات بصوت عال وقاس ، والبعض الآخر يرجعها بصوت خافت متلعثماً في بعض الكلمات ، أو يسبقه الكاهن فيسارع الى اللحاق به كالحائف من الخطأ .

ودعى رئيس المحكمة المحلفين ، بعد أن أقسموا اليمين القانونية لانتخاب رئيس لهم ، فانتقلوا الى غرفة المذاكرة وأشعلوا لفائف التبغ .

واقترح احدهم أن يسمى (الرجل المدعي) رئيساً فقبل الاقتراح دون مناقشة . فطرحوا لفائف التبغ وعادوا الى قاعة المحاكمات ، حيث أعلن (الرجل المدعي) انتخابه رئيساً ، وجلس الجميع .

كل هذا كان يجري عفو الخاطر وبشكل مهيب ، وكان القيام بهذه الاجراءات والمراسم يسبب ارتياحاً كبيراً للقضاة إذ يجعلهم يعتقدون أنهم يؤدون واجباً اجتماعياً ، بما فيهم (نيكليندوف) .

وخطب الرئيس المحلفين فذكر لهم حقوقهم وواجباتهم ، والمسئولية الملقاة على عواتقهم . وحينما كان يتكلم لم يكن يستقر ثانية واحدة فكان تارة يلتفت الى اليمين ، ثم الى اليسار وطوراً يستند على مسند المقعد ، وآخر ينحني الى الورا ، والى الأمام ، وينتفحس الأشياء التي على الطاولة . وابان للمحلفين ان لهم الحق في استجواب المتهمين عن طريق الرئيس ، وفي فحص كافة الأدلة ومعاينتها ، وان عليهم أن يضعوا اقرارهم صحيحاً منبثقاً عن قناعتهم ، وأن يحافظوا على سرية آرائهم ، وألا يصرحوا لأحد بشيء والا عرضوا أنفسهم للعقوبات التي نص عليها القانون .

كان الجميع يصغون اليه بانتباه . وكان التاجر الذي كانت انفاسه تتصعد بصعوبة ، وتنبعث منه رائحة الخمر يوافق على كل جملة بإحناء رأسه .

٩

بعد أن فرغ الرئيس من القاء خطابه ، التفت الى المتهمين وقال :

— انهض يا (سيمون كيرتنكين) .

فهب الرجل المنادي واقفاً كمن أجفل .

— ما اسمك ؟

— أدعى (سيمون بيتروفيتش كيرتنكين) أجاب بصوت راعد وبلا تردد مبرهنًا بذلك على أنه كان يعلم مسبقاً عما سيُسأل .

— ما هي وضعيتك ؟

— أنا قروي .

- من أي ولاية ومنطقة ؟
- من ولاية (نولا) منطقة (كابريفو) ناحية (كيومبيانكوي) قرية (بوركي) .
- كم عمرك ؟
- أربعة وثلاثون عاماً . ولدت في ...
- ما هو دينك ؟
- ادين بالروسية الارثوذكسية .
- هل أنت متزوج ؟
- كلا .
- ما هي مهنتك ؟
- خادم في المطعم المسمى (ماوريتانيا) .
- هل أقيمت بحققك دعوى ؟
- لم يحكم علي قط لأنني كنت على الدوام ...
- هل أقيمت بحققك دعوى ؟
- لا ، كما هو ثابت وجود الله .
- هل تبلفت مذكرة الاتهام ؟
- بلى تبلفتها .
- اجلس . يا (اوفيميا ايفانوفنا بوتشكوفنا) . قال الرئيس متابعا وقد تحول ناحية احدى المرأتين .
- كان (كيرتسكين) ما زال واقفاً ويحجب (بوتشكوفنا) عن الرئيس . فقال له هذا .
- اجلس يا (كيرتسكين) .
- إلا أنه ظل واقفاً . واضطر المقرر ان يدنو منه مملقاً فيه بعينيه ويصيح به بلء صوته على مقربة من اذنه .
- هل سمعت . اجلس .

فجلس الرجل كالحفل كما وقف ، وأصلح ثوبه وهو لا يزال يغمغم بشيء
حدثاً به نفسه .

— ما هو اسمك ؟ — قال الرئيس يسأل المجوز متضجراً وهو يقلب بعض
الأوراق ، ودون أن يلقي نظرة على المرأة .

كانت (بوتشكوبا) في الثالثة والأربعين من عمرها ، وتقطن في المدينة
وتعمل وصيفة في فندق (ماوريتانيا) ولم تقم بحققها دعوى ، قد تبلغت مذكرة
الانتهام . كانت تجيب بصوت عال وترفق كل جواب بنظرة متحدية كأنها تقول :
— نعم . أنا هي (بوتشكوبا) ولا أسمح لأحد بأن يضحك مني .

ثم جلست عند نهاية الاستجواب دون أن تنتظر أن يأذن لها الرئيس .
— ما اسمك ؟ — قال الرئيس متوجهاً بالسؤال الى المتهمة الثالثة : — ينبغي
أن تقفي — أضاف يقول بلهجة عذبة عندما رأى (ماسلوكا) لا تزال جالسة .
فوقفت (ماسلوكا) يهدوء ، عالية الرأس ، بارزة الصدر ، وحدقت في وجه
الرئيس بعينها النجلاوين وهي تبسم .

— ما اسمك ؟

— يسموني (ليمبوف) أجابته بسرعة .

كان (نيكليندوف) ، منذ بداية الاستجواب ما ينفك يتفرس ملياً في
وجوه المتهمين من وراء نظاراته . ويقول في نفسه ، دون أن تفارق نظراته
وجه الفتاة .

— لا يمكن أن يكون ذلك ، من أين جاءها هذا الاسم (ليمبوف) ؟
وفيما كان الرئيس يهم بالقاء اسئلة اخرى عليها اذا بالقاضي ذي النظارات
الذهبية يستوقفه ويسر اليه شيئاً بحنق مكبوت ، فأجابه الرئيس بحركة تدل
على الإيجاب ، ثم تحول نحو المتهمة من جديد .

— كيف (ليمبوف) ان لك اسماً غير هذا ؟

فصمت المتهمة ولم تحر جواباً .

— سألتك عن اسمك الحقيقي .

— اسمك في المعمودية . — قال القاضي .

— كانوا فيما مضى يسموني (كاترين) .

وعلى الرغم من ان (نيكليندوف) كان لا يزال يأبى الاعتراف أمام نفسه بأنها هي ويقول هذا مستحيل ، إلا أنه تبين أخيراً أنه أمام تلك الفتاة التي أحبها ذات يوم والتي أغواها في ساعة طفيان الشهوة العارمة ثم تخلّى عنها ، والتي طالما تمنى تناسي ذكرها لأنها كانت ثقيلة الوطأة على نفسه مؤلة لكبريائه . لم يبق لديه من شك في انها هي . اذ تبين في ملامح وجهها الطابع الخاص الغامض المميز لكل شخص ، وعلى رغم شحوب لونها ، وعلى رغم تهدل اسفل خديها لامتلائها بالشحم ، فقد تبين ذلك الطابع وتمرفه في وجهها ، وفي فمها ، وفي عينيها الحولالوين ، وبصورة خاصة في ابتسامتها الساذجة البريئة ، وفي نظراتها ، وفي تأديها ، وما في كيانها من جاذبية .

— أجيبي بسرعة — قال الرئيس بعذوبة . — ما اسم أبيك ؟

— إني ابنة غير شرعية .

— هذا لا يهم . ما اسم عرابك ؟

— ميخائيل .

كان (نيكليندوف) آنئذ يردد في سره قائلاً :

— أية جريمة اقترفتها ؟

— ما هو لقبك ؟

— كانوا ينادوني كامي (ماسلوف) .

— وما هي وضعيتك ؟

— مواطنة .

— أتدينين بالأرثوذكسية ؟

— أنا أرثوذكسية .

— والمهنة . ما هي مهنتك ؟

فصمتت (ماسلوف) ولم تجب .

- ما هي مهنتك ؟

كنت في أحد المحلات .

- ولكن في أي محل ؟ - قال القاضي ذو النظارات الذهبية ملحاً بقساوة .

- تعرفه جيداً . - أجابت (ماسلوقا) وهي ما زالت تبسم . ولكنها

طغى عليها الحجل فتورد خداهما ، وتلفتت ذات اليمين وذات اليسار ثم عادت فحدقت بالرئيس من جديد .

كان في تلك النظرة التي القتها على جمهور النظارة المحتشد ، وفي تلك الابتسامة التي افترت عنها شفتاهما ، وفي الكلمات التي حصبت بها القضاة ، وفي الأمارات المبررة التي بدت على ملاحظها ، كان في كل ذلك معنى خاص ، معنى عجيب ومروع وممزق لنياط القلب بكل ما في تلك الكلمات من معنى ، جعل الرئيس يطأطئ الرأس ، وألقى على القاعة سكوناً عميقاً ، وما عثم ان ارتفعت قهقهات ، وصغير خافت ، فرفع الرئيس رأسه ، ومضى يواصل الاستجواب .

- ألم تداني بجريرة ؟

- كلا . - أجابت بصوت خافت وهي تصعد زفرة .

- هل تبلغت مذكرة الاتهام ؟

- نعم .

- اجلسي .

فجلست المتهمة وأصلحت ثوبها كسيدة كبيرة ، ودست كفيها البيضاوين الصغيرين في كمي (بلوزتها) دون أن ترفع نظرها عن الرئيس . وكان يبدو على ملامح وجهها شعوب ورزانة .

وأمر الرئيس باستدعاء الشهود وادخلهم الى غرفة اخرى ، ثم نادى على الطبيب الشرعي . وبعد ذلك وقف المقرر ، وأخذ يتلو وقائع الدعوى . كان صرته في البداية عالياً رناناً ، ولكنه استحال في النهاية رتيباً أبحاً لأنه كان يقرأ بسرعة . ودب الضجر في نفوس القضاة وبدأ يظهر من خلال تصرفاتهم فها هم أولاً يتهامسون ويتسارون فيما بينهم ، وغطى احد الحراس فمه بكفه عدة

مرات ليخفي تشاؤبه . وكان (كيرتشكين) لا يفتأ يبدي حركات وإشارات بيده أما (بوتشكوف) فقد كانت منتصبه القوام جادة الملامح ، هادئة ، تدخل أصبعها تحت غطاء رأسها من وقت لآخر لتحكه . وكانت (ماسلوف) تبدو أحياناً هادئة وتتبع بانتباه أقوال المقرر ولكنها كانت أحياناً أخرى تهتم بالوقوف ويصطبغ وجهها بحمرة الخجل ، وتصعد زفرة ، وتغير وضع كفيها ، ثم تعود فتحدق بنظرها في المقرر .

وكان (نيكليندوف) وهو جالس في مقعده في الصف الأول من المحلفين لا يرفع نظره عن (ماسلوف) في حين كانت نفسه تتمخض عن أمر عميق الجذور ، شديد الألم .

١٠

كان نص قرار الاتهام كما يلي :

« في ١٧ كانون الثاني عام ١٨٠٠ مات فجأة في إحدى غرف منزل (ماوريتانيا) (فردينند سميلكوف) المواطن السيرياني والتاجر من الدرجة الثانية . وجاء في تقرير طبيب المنطقة الرابعة ان الوفاة حدثت بسبب انفجار أحد الشرابين نتيجة الإفراط الشديد في شرب الخمر . ثم دفن الجثمان وبعد أربعة أيام جاء من سان بطرسبرج رجل يدعى (تيموكين) تاجر من سيبيريا رقيق ومواطن للمتوفي ، وعندما اطلع على الظروف الغامضة التي احاطت بالوفاة ، داخلته الشبهة في صحة ما قيل ، ورأى أن الوفاة لا بد قد حدثت نتيجة تسمم دسه له بعض الاشرار طمعاً في الاستيلاء على خاتمه الماسي والمبلغ الكبير من المال الذي يجمهله . وقد تبين ان (سميلكوف) كان يحمل مبلغاً ضخماً ولكنهم لم يعثروا على شيء منه بعد موته . وطلب إعادة التحقيق فكانت النتيجة ما يلي :

١ - لقد أخذ (سميلكوف) من البنك قبل وفاته بقليل مبلغ (٣١٠٠) روبل ، ولم يعثر المحققون في حقيبته الا على (٣١٢) روبل و (١٦) كوبيك .

٢ - أمضى (سميلكوف) مع امرأة من النساء العموميات تلقب (ليوبكا) (كاترين ماسلوف) قسماً من نهار ما قبل وفاته في الفندق المسمى (ماوريتانيا)

والقسم الباقي في بيت المرأة . وقبل أن ترافق هذه التاجر (سميلكوف) الى الفندق لآخر مرة ، كانت قد جاءت الى الفندق وحدها تحمل مفتاحاً أعطاها إياه (سميلكوف) ، وفتحت حقيبته أمام خادمي الفندق (أوفيميا بوتشكوف) و (سيمون كيرتنيكين) وأخذت منها دراهم . وحينما كانت المرأة تخرج المال شاهد الشاهدان اللذان كانا حاضرين عدة رزم من الأوراق المالية من ذوات المئة روبل .

٣ - عندما عاد (سميلكوف) من المحل العمومي تصعبه المرأة (ليوبكا) جرعت هذه كأساً من الكونياك ، بناء على نصيحة (كيرتنيكين) كانت قد وضعت فيه مسحوقاً أبيض أعطاها إياه (كيرتنيكين) .

٤ - باعت المرأة (ليوبكا) ثاني يوم الى صاحبة المحل الذي تعمل فيه الشاهدة المدعوة (روزانوف) خاتماً من الماس ادعت أن التاجر قد أهداها إياه .

٥ - أودعت وصيفة الفندق (أوفيميا بوتشكوف) ثاني يوم وفاة التاجر (سميلكوف) مبلغ (١٨٠٠) روبل في البنك .

« أثبت التشريح الطبي الذي اجري على جثة (سميلكوف) ، وفاقاً لمنصوص القانون ، وجود مادة سامة في احشائها مما يحمل على الظن ان هناك جريمة . » وعندما سئلت المراتان والرجل (ليوبكا وبوتشكوف وكيرتنيكين) كأظناء أنكروا قيامهم بأي شيء . غير ان (ليوبكا) اعترفت بان (سميلكوف) عندما كان في المحل العمومي اعطاها مفتاح حقيبته وطلب اليها أن تذهب الى الفندق وتحضر له أربعين روبلاً لا غير ، كما يؤيد ذلك شاهدا العيان (بوتشكوف وكيرتنيكين) اللذان كانا حاضرين فتح الحقيبة واغلاقها . وفيما يتعلق بالتسمم فان (ليوبكا) تجيب بانها عند وصولها للمرة الثانية للمخدع (سميلكوف) وضعت قليلاً من مسحوق أبيض في كأس من الكونياك على اعتباره مخدراً ينمي كمي تستطيع العودة الى بيتها . وأضافت انها لم تأخذ دراهم وان الخاتم الماسي كان هدية منه لها عندما ضربها فبكيت وحاولت الذهاب الى بيتها .

« وتقول (أوفيميا بوتشكوف) مؤكدة انها لا تعلم شيئاً على الاطلاق عن

فقدان المال وانها لم تدخل الى المخدع حيث دخلت (ليوبكا) وحدها ، واذا كان قد فقد شيء ، فالمسئولة عنه (ليوبكا) لأنها هي التي دخلت المخدع ومعه مفتاح الحقيبة .

فارتعش جسم (ماسلوكا) عندما بلغ هذه النقطة ، وفجرت فاهها كن تحاول الاحتجاج ، واتجهت بنظراتها نحو (بوتشكوكا) .

« وعندما سئلت (بوتشكوكا) ثانية عن مصدر مبلغ (١٨٠٠) روبل التي أودعتها في المصرف أجابت انها حصيلة عملها مدة اثني عشر عاماً مع (سيمون كيرتسكين) الذي تنوي الاقتران به .

« أما (سيمون كيرتسكين) فانه في الاستجواب الأول أقر بسرقة المال بدافع من (ماسلوكا) التي ذهبت الى الفندق ومعه المفتاح وأنه اقتسمه مع (ماسلوكا) و (بوتشكوكا) .

وهنا ارتعش جسم (ماسلوكا) ثانية ، وهبت من مكانها واقفة وبدأت الكلام وهي تشير بيديها . ولكن المقرر أسكتها وتابع التلاوة .

« لقد اعترف (كيرتسكين) بهذا . ولكنه في الاستجواب الثاني أنكر السرقة والمسحوق متهماً (ماسلوكا) وحدها . وفيما يتعلق بالمال المودع في المصرف أكد ما قالته (بوتشكوكا) وقال انه حصيلة الهبات التي كان تزلأه الفندق يهبونها لها .

وتمضي المذكرة مواصلة سرد الوقائع ومقابلات الشهود والمتدخلين الفرعيين لنتهي بما يلي :

« أقام (سميلكوف) التاجر من الدرجة الثانية ، والذي كان كبيراً مدمناً ، وفاسقاً ، علاقات مع احدى البغايا الملقبة (ليوبكا) والتي تعمل في محل (روزانوف) وهام بها . وفي ١٦ كانون ثاني عام (١٨٠٠) بينما كان موجوداً في المحل المذكور ، بعث (ليوبكا) الى الفندق الذي كان تازلاً فيه ، وأعطاه مفتاح حقيبته لتحضر له منها مبلغ أربعين روبلاً ليدفع لصاحبة المحل ثمن المشروبات التي شربها . وعندما وصلت (كاترين ماسلوكا) الملقبة (ليوبكا) الى

خدع التاجر تواطأت مع خادمي الفندق (كيرتنكين) و (بوتشكوف) على سرقة المال والأشياء الثمينة الموجودة في حقيبته التاجر واقتسامها فيما بينهم . وهكذا وقع .

فارتعش جسم (ماسلوف) واستعرت حرارة وجهها .
« وكان من بين ما أخذته (ماسلوف) خاتم ماسي ، وبعض الدراهم التي أخفتها أو ربما أضاعتها بسبب حالة السكر التي كانت عليها آنشد . ولكي يغطوا جريمة السرقة عمل الثلاثة على أن يعود (سميلكوف) إلى الفندق ودسوا له سماً كان يحمله (كيرتنكين) . واتماماً لهذه الخطة حملت (ماسلوف) التاجر على العودة إلى الفندق ليقتضيا الليلة معاً ، وهناك ألقت المنهمة المسحوق في كأس (سميلكوف) واسقته إياه فكان سبباً في وفاته .

« وبناء على الأدلة المذكورة آنفاً ، فإن (سيمون كيرتنكين) وعمره أربعة وثلاثون عاماً قروي . و (أوفيميا بوتشكوف) وعمرها ثلاثة وأربعون عاماً ، و (كاترين ماسلوف) وعمرها ستة وعشرون متهمون باقتراح جريمة السرقة والقام السم التي ارتكبت في (١٧ كانون الثاني عام ١٨٠٠) ضد شخص التاجر (سميلكوف) والتي استحوذوا فيها على خاتم ماسي ومبلغ (٢٥٠٠) روبل . وكان السم الذي دسه المتهمون المتواطئون في كأس ضحيتهم سبباً في موته الفجائي . هذه الجريمة تنطبق عليها أحكام الفقرتين (٤ - ٥) من المادة (١٤٥٣) من قانون الجزاء ، لذلك فإن (سيمون كيرتنكين) قروي و (أوفيميا بوتشكوف) و (كاترين ماسلوف) مواطنان يحالون إلى محكمة المحلفين .

وعندما انتهى المقرر من تلاوته نص قرار الاتهام أغلق بعناية ملف الأوراق ثم جلس وهو يمسخ شعره بيده . فتنفس معظم الحاضرين الصعداء ظناً منهم أن المحاكمة لا تلبث أن تبدأ وإن كل شيء سيتضح عما قريب ، وإن العدالة ستأخذ مجراها . وكان (نيكليندوف) وحده الذي لا يشعر بهذا الشور . لقد كان مذعوراً من الجريمة المعزوة (لماسلوف) تلك التي عرفها منذ عشرة أعوام عندما كانت لا تزال طفلة بريئة طاهرة .

عندما فرغ المقرر من تلاوة قرار الاتهام ،لقى الرئيس نظرة ذات معنى على (كيرتنكين) كأنما يريد أن يقول له ان الحقيقة ستوضح عما قريب . ثم ناداه بعد ان استشار المحلفين .

— يا (سيمون كيرتنكين) .

فاستوى واقفاً ويداه مسبلتان على جانبيه ، وانحنى الى الامام دون أن يكف عن تحريك شفتيه .

— أنت متهم بارتكاب جريمة سرقة بتاريخ (١٧ كانون الثاني عام ١٨٠٠) ضد أموال التاجر (سميلكوف) واحضار زرنينخ نصحت (ماسلوف) بأن تدسه له في الخمر الأمر الذي نتج عنه موت (سميلكوف) وذلك بالاشتراك مع (اوفيميا بوتشكوف) و (كاترين ماسلوف) أتعترف بجريمتك ؟

— يستحيل ، لأن مهنتنا نحن الخدم ...

— ستقول هذا فيما بعد . أتعترف بجريمتك ؟

— كلا . ولدي أيضاً ...

— ستقول هذا فيما بعد ، فيما بعد . — قال الرئيس يهدوء وحزم .

— أتعترف بجريمتك ؟

— يستحيل . لأن ...

وهنا قفز المقرر من مكانه وتقدم من (كيرتنكين) وأسكنه بكلمة سكون . فالتفت الرئيس ناحية (اوفيميا بوتشكوف) . وقال :

— يا (اوفيميا بوتشكوف) أنت متهمة بالاشتراك مع (سيمون كيرتنكين) و (كاترين ماسلوف) بارتكاب جريمة سرقة بتاريخ (١٧ كانون الثاني عام ١٨٠٠) مال وخاتم ماسي من حقيبة التاجر (سميلكوف) واقتسامها فيما بينكم ، ولكي تفتلوا جريمتكم وضعت له السم في الخمر فمات بسبب ذلك أتعرفين بجريمتك ؟

— لست مجرمة بأي شيء . — أجابت المتهم بصوت جلي أجش . — لم نطأ قدمي أرض غرفته . هذه الحائثة هي التي دخلتها وبوسها أن تفعل أكثر من ذلك .

- ستقولين هذا فيما بعد . — أجاب الرئيس بصوت هادئ رصين .
- ألا تعترفين بجريمتك ؟
- لست أنا التي أخذت الدراهم ، ولست التي دسست له السم ، حتي لم ادخل غرفته ، ولو كنت أنا ...
- وتعترفين بجريمتك ؟
- كلا ، كلا .
- حسن . وهنا تحول الرئيس الى المتهمه الثالثة ، وقال : يا (كاترين ماسلوف) أنت متهمه بالدخول الى الغرفة التي كان يشغلها التاجر (سميلكوف) في فندق (ماوريتانيا) وسرقة خاتم ماسي ودراهمه ... وكان يلفظ الكلمات كأنه يقرأ أدعية مستظهرة ثم أمسك قليلاً ليصغي الى أحد القاضيين الذي نبهه الى نقص الأدلة الثبوتية — وبالعودة ثانية الى الفندق حيث دسست له الزرنيخ في كأس الخمر وأجرعته اياه الأمر الذي سبب وفاته . اعترفين بجريمتك ؟
- كلا ، لست مجرمة بشيء . — أسرعت المتهمه تجيب — أقول الآن كما قلت سابقاً . لم اسرق شيئاً ، شيئاً على الاطلاق . لقد أهداني الخاتم الماسي .
- ألا تعترفين بسرقة ألفين وخمسمائة روبل ؟
- أقول انني لم آخذ إلا أربعين روبلاً .
- وانك أجرعت التاجر (سميلكوف) خمرًا مسموماً ؟
- هذا صحيح . ولكنهم أكدوا لي ان ذلك كان خذراً لا يمكن أن يضر أحداً . لست أهلاً لأن اسمي . وأقسم أمام الله على انني لم أكن أقصد السوء .
- هكذا اذن انت تنكرين سرقة المال والخاتم . ولكنك من جهة اخرى تعترفين بوضع المسحوق في الخمر ؟
- نعم أعترف بذلك ، ولكنني كنت أحسب أنه مسحوق منوم . لقد وضعته له لكي ينام . لم أشاء ، ولم أتصور قط أنه يسبب له الضرر ...
- حسن .
- وهنا أسند الرئيس ظهره على مسند الكرسي ، مرتاحاً للنتيجة التي توصل اليها ، ويداه ممدودتان على الطاولة .

— اشرح لي لنا الآن الحقيقة بكاملها. ان اعترافاً صادقاً يفيدك كثيراً ويحسن من وضعك .

كانت (ماسلوا) تحرق في الرئيس ، غير أنها ظلت صامتة لا تحير جواباً ، وحمرة الخجل تكسو وجهها ، وكان كل من يراها يدرك أنها كانت تحاول التغلب على الخجل .

— قصي علينا كيف حدث ذلك .

— كيف حدث ذلك ؟ — قالت بحماس — ذهبت الى الفندق فاقتادوني الى غرفة كان « هو » موجوداً فيها في حالة سكر شديد ... وعندما لفظت كلمة « هو » أجفلت كمن بوغئت بما يربع وجعلت عيناه ، وأخيراً واصلت كلامها .

— كنت أريد العودة ولكنه منعني من ذلك . وأمسكت من جديد عن الكلام كأنما كانت قد أضاعت مجرى حديثها أو عرضت لها فكرة جديدة . — وبعدئذ ؟ — سأله الرئيس .

— فلبثت هناك بعض الوقت وعدت الى بيتي .

وهنا اعتدل وكيل النيابة في مقعده متكئاً على أحد كوعيه . فقال له الرئيس . — أريد أن تسأل بعض الأسئلة ؟ — ولما أجابه بالإيجاب ، أشار اليه الرئيس أنه يستطيع ذلك .

— أريد أن أعلم اذا كان للفتنة سابق علاقة (بسيمون كيرتنكين) — قال الوكيل يسأل دون أن ينظر الى (ماسلوا) ، وقد زوى ما بين عينيه ، وزم شففيه . فكرر الرئيس السؤال ، وكانت (ماسلوا) تنظر الى وكيل النيابة برعب ظاهر .

— بلى كنت أعرف (سيمون) .

— ما هي نوع العلاقات التي كانت بينكما ؟ وهل كانت متواصلة ؟

— ما هي نوع العلاقات ؟ لقد كان يبعث لي بنزلاء الفندق الغرباء ، وغير ذلك لم يكن لي علاقة به — أجابت الفتاة بقلق ، وهي تنقل نظراتها بين الرئيس والوكيل .

— كذلك اريد ان اعلم لماذا كان (كيرتكنين) يبعث بالغرباء الى (ماسلوف) دون غيرها من النسوة ؟

وأجال محجريه بنجبت ظاهر .

— لا أدري . ومن أين لي أن أعلم ذلك ؟ كان يبعث بهم الى من يريد لها — أجابته وهي تدور بنظرها برعب بين الموجودين ، وصوبته برهة الى (نيكليندوف) .

— قد تكون عرفتني . — قال الأمير مخاطباً نفسه ، وقد صعد الدم الى وجهه . غير ان (ماسلوف) لم تكن قد أمعنت النظر فيه جدياً ، ثم عادت فعلقت نظراتها المرعوبة في وجه الوكيل من جديد .

— هكذا اذن . تنكر المتهم ان يكون لها علاقات وثيقة خاصة (بكيرتكنين) . حسن . لم يبق ما أريد السؤال عنه .

وعاد الوكيل الى الجلوس مرة أخرى ، وبدأ عليه انه يسجل شيئاً . لم يكن الوكيل يكتب شيئاً . وإنما كان يمر بقله على وصمات وثيقة الاتهام ، لأنه لاحظ المحامين ومعقي الدعاوي ، يسجلون في مذكراتهم رؤوس أقلام ، بعد كل سؤال يسألونه ، ليدعموا بها الدفع التي يفكرون أن يضللوا بها الخصم . وأمسك الرئيس عن الاستجواب برهة قصيرة كان خلالها يناقش القاضي ذا النظارات حول افضلية استعمال الأسئلة المكتوبة ، ثم قال :
— وماذا حدث بعدئذ ؟

— كان الوقت ليلاً — أجابت (ماسلوف) وهي أكثر اطمئناناً فأنظرة الى الرئيس . — وكنت قد صعدت الى غرفتي بعد أن سلمت الدراهم لصاحبة المله ، وعلى وشك أن أنام ، وإذ (بيرة) إحدى رفيقاتي تأتي إلي لتقول لي : ان صديقك التاجر قد عاد ويريد أن تذهبي معه . فرفضت الزول ولكن صاحبة المله أمرتني . كان هو — ولفظت هاته الكلمة مرة أخرى برعب — في البهو الكبير ، ويريد أن يقدم مشروباً لبقية الفتيات ، ولم يكن يحمل مالا ، وامتنعت صاحبة المله أن تدينه ، وعندئذ أمرني ان اذهب الى الفندق ، ودلني على مكان

المال، وعين لي المبلغ الذي يجب احضاره فصعدت بالأمر وأحضرت له ما طلب .
كان الرئيس آنشد يتحدث بصوت خافت الى القاضي الذي كان على يساره
فلم يسمع مما قالته (ماسلوف) كلمة واحدة ، ولكي يوم الناس انه سمع كل
شيء ردد الكلمة الأخيرة .

— وصعدت بالأمر . ثم ماذا ؟

قمت بما أمرني به ، وأحضرت اربع ورقات من ذوات العشر روبلات .
وهنا امسكت (ماسلوف) عن الكلام كمن اخذ برعب مفاجيء ثم
استأنفت كلامها .

— دخلت الغرفة ، ولكني لم أدخلها وحدي . كان معي (كيرتسكين)
وهذه . وأشارت الى (بوتشكوف) .

— هذا غير صحيح . أنا لم ادخل الغرفة . — قالت (بوتشكوف) ولكن
المقرر أسكتها حالا .

— وعندئذ أخذت بحضورها الأربع ورقات من ذوات العشر روبلات .
— قالت (ماسلوف) منية حديثها وقد زوت ما بين عينيها دون ان تنظر الى
(بوتشكوف) .

— أريد أن أعلم إذا كانت المتهمه قد رأت عندما أخذت الأربعين روبلا ،
كم كان في الحقيقة من المال — قال وكيل النيابة مقاطعاً .

فانتفضت (ماسلوف) ، وأحست على الفور ان ذلك الرجل يتعمد ادايتها .
— لم أحصها . وإنما رأيت أوراقاً من ذوات المئة .

— إذن تعترف المتهمه إنها رأت أوراقاً مالية من ذوات المئة . حسن . ليس
لدي ما أسأل عنه بعد .

— هل أخذت المال ؟ — سأها الرئيس وهو ينظر في ساعته .

— بلى .

— وبعدئذ ؟

— وبعدئذ أراد التاجر ان أعود معه .

— وكيف أعطيته المسحوق ؟

— كيف ؟ وضعته في كأس الخمر وأسقيته له .

— لماذا فعلت ذلك ؟

— لأنه لم يشأ أن يدعني أذهب . — أجابت الفتاة بعد برهة صمت ، وهي تصعد زفرة عميقة — كنت متعبة وضجرة ، وفي غفلة منه خرجت الى الرواق ، فقلت (لكيرتكنين) كم أكون سعيدة لو يسمح لي بالذهاب الى البيت . فأجابني (سيمون) كذلك نحن متعبون ، فلنمطه منوماً ، وعندئذ تستطيعين الذهاب الى بيتك . وحسبت أن المسحوق غير ضار ، فوافقت ، وأخذته بغية وضعه في كأسه . وعندما عدت الى الخدع حيث كان التاجر موجوداً ، وطلب إلي أن أسقه خمراً ، فصبيت من زجاجة كانت على الطاولة كاسين من الكونياك واحداً له وآخر لي ووضعت المسحوق في كأسه . وأقسم لك يا سيدي الرئيس اني ما كنت لأفعل ما فعلت لو علمت ان ...

— وما هو سبب وجود الحاتم في حوزتك ؟

— لقد أهداه لي هو نفسه .

— متى أعطاك إياه ؟

— عندما عدنا الى الفندق . كنت أود العودة حالاً ، فكسر لي المشط الكبير الذي كنت أضعه في شعري ، فأخذت أبكي فأراد تعويضي عنه فخلع خاتم من أصبعه وقدمه لي هدية .

وهنا اعتدل وكيل النيابة في مقعده من جديد ، وطلب من الرئيس بلطف السماح له بإلقاء بعض الأسئلة .

— أريد أن أعلم كم من الوقت لبثت المتهم في خدع (سميلكوف) فمرت (ماسلوف) موجة من الرعب وأمرعت تحيب .

— لست أذكر .

— آه . هل تذكر المتهم انها دخلت غرفة أخرى عندما خرجت من الغرفة التي كان يشغلها التاجر ؟

- فكبرت (ماسلوا) برهة ثم قالت :
- بلى دخلت غرفة مجاورة ، ولكنها كانت خالية .
- ولماذا دخلت ؟
- في هذه المرة القى سؤاله على المتهمه مباشرة .
- لأرتاح بعض الوقت ، وتسكن أعصابي ريثما تأتي العربية .
- و (كيرتكنين) هل اجتمع الى المتهمه في الغرفة هذه أم لا ؟
- بلى . دخل اليها أيضاً .
- ولماذا ؟
- لأن التاجر كان قد دفع لنا ثمن بعض أقذاح من الكونياك فشريناها معاً .
- آه . شرباها معاً . وبماذا تحدثت المتهمه مع (كيرتكنين) بماذا تحدثا ؟
- قال الوكيل مردداً :
- فاعتدلت (ماسلوا) في مقعدها ، وحركت ذراعيها ، وأجابت بجرأة .
- بماذا تحدثنا ؟ لا أذكر . اصنع بي ما تريد ، أنا لست مذنبه . لقد قلت كل ما أعلمه .
- لا أريد ان أسأل عن شيء آخر . — قال الوكيل واكلب يسجل بعض الملاحظات التي تؤكد دخول المتهمه غرفة مع (سيمون) .
- وأعقب ذلك فترة سكون امتدت بضع دقائق .
- أليس لديك ما تقولينه غير هذا ؟
- لقد قلت كل شيء . — أجابت (ماسلوا) وهي تصعد زفرة ثم جلست .
- وهنا دون الرئيس بعض الملاحظات ، وأصغى الى ما كان يسره له أحد القضاة ، ثم أعلن رفع الجلسة مدة عشر دقائق .
- كان القاضي الذي تحدث الى الرئيس هو الذي بدأ في الصباح ، معالجة جديدة ، فأعرب الرئيس عن رغبته بإجراء عملية تدليك ، وتناول بعض مقويات القلب ، لأنه أحس بفراغ في معدته . وكان هذا هو السبب في رفع الجلسة .
- فهب الجميع واقفين من قضاة ومحلفين وموظفين ، وخرجوا جميعاً من القاعة

مرتاحي الضمير لقيامهم بجزء من الواجب المقدس الذي القاه المجتمع على عواتقهم .
وجلس (نيكليندوف) أمام احدى النوافذ في غرفة المحلفين وغاص في
خضم ذكرياته الماضية .

١٢

لم يبق من شك لدى الأمير في أن تلك المتهمه كانت (كاترين) . كان لا يزال
يتذكر الظروف التي تعرف عليها فيها . لقد رآها للمرة الأولى عندما كان يحتاز
الصف الثالث في الجامعة ، وكان قد ذهب لقضاء فصل الصيف مع خالاته ،
في حين كان يعد أطروحة البكالوريا . كان من عادته الاصطيف مع أمه وأخته
في مزرعة كبيرة لهم بالقرب من موسكو . ولكن لما كانت أخته قد تزوجت
هذا العام ، وأبى مرافقتها الى منطقة الحمامات وكان يستعد للأطروحة ، فقد
ذهب الى مزرعة خالاته لثقتة من انه سيلقى عندهن هدوء أو راحة ...
كانت أخوات أمه يحملن الكثير من الحب لابن أختهن ، وكان هو من جهته
يبادلهن نفس الحب ، ويعرف أنه وارثهن ، وكان يروقه ما يلقيه عندهن من
بساطة في العادات .

كان آتشد على مثل تلك الحالة النفسية الصالحة لتقبل الحساس الخاص بالشباب
الذي يحملهم على تقدير جمال الحياة وإدراك أهميتها ، ويجعلهم يتصورون - الى
ان يشعروا بعسر مهمة الإنسان - ان في مقدورهم بلوغ الكمال في اصلاح
أنفسهم ، وإصلاح الانسانية بأجمعها ، فيكرسون جهودهم لمثل هذا المثل الأعلى ،
واثقين تمام الثقة من بلوغ تلك الدرجة من الكمال التي تخيلوها مثلاً أعلى لحياتهم .
كان قد قرأ في الجامعة ذلك العام ، ما كتبه (سبنسر) و (هنريش جورج)
حول ملكية الأرض ، فكان لما قرأه تأثيره العميق على نفسه ، خصوصاً وهو
ابن ملاكة كبيرة .

لم تكن ملكية أبيه ذات أهمية كبرى ، غير ان أمه كانت قد أخذت من
أبيها بائنة من أملاك واسعة . وهنا تبين مدى الظلم في الملكية الفردية للأموال
غير المنقولة ، فأسرع في توزيع ما ورثه عن أبيه على المزارعين ، لأنه كان من

أولئك الذين يرون لذة حقيقية فائقة في التضحية في سبيل المثل العليا .
وكان هذا موضوع الأطروحة التي يعدها ، وعنوانها « ملكية الأموال غير
المنقولة » .

كانت حياته في الريف بالقرب من خالاته ، حياة جد هادئة .
كان يستيقظ مبكراً ، أحياناً الساعة الرابعة فيستحم في النهر الذي كان
ينساب عند أسفل الأكمة ، ثم يعود الى البيت قبل أن يصبح الصباح ، وعندما
تكون الحقول لا تزال مغمورة بضباب خفيف ، وندى الليل لا يزال يغمر
الزهور والأعشاب . وأحياناً كان يكتب أو يطالع بعض الكتب بعد تناوله
القهوة في الصباح . غير انه كان كثيراً ما يذهب للتمشي في الحقول أو الغابة .
وكان يرقد فترة قصيرة قبيل الغداء ، في ركن منعزل من الحقل ، ويتناول
طعامه مع خالاته ، ثم يذهب للزهوة ممتطياً صهوة جواد ، أو يستقل قارباً
يمخر به عباب النهر .

وأحياناً أخرى كان ماء الشباب ، ودفق الحياة يطغيان على كيانه ، فيخرج
ليلاً الى الحقول ، وعلى الأخص في الليالي المقمرة حيث يبقى هائماً على وجهه
حتى مطلع الفجر .

في مثل تلك الهناء الهادئة تصرمت الأشهر الأولى من اقامته بجوار خالاته
دون أن يأبه بكثير أو قليل لقوام (كاترين) الجذاب ، وعينها النجلوين ،
ودون ان يعيرها أي التفات .

لقد نشأ (نيكليندوف) وترعرع في رعاية أم فائقة الحنوة وظل حتى بلغ
التاسعة عشرة من عمره يحتفظ بمثل براءة الأطفال . وكان من رأيه ان عروس
احلامه هي التي ستصبح زوجة له . وما عداها ممن ليس له نصيب في الزواج
منهن فهي في نظره مجرد اشخاص لا أكثر ولا أقل .

وجاءت سيدة من الجيران لزيارة خالاته يوم عيد الصعود ترافقها ابنتاها
وولدها الذي كان لا يزال طالباً ، يصحبه أحد أصدقائه وهو قروي ورسام .
وبعد ان تناولوا الشاي ذهب الصبية يلعبون في أحد حقول القمح التي حصدت
حديثاً فاشتركت معهم (كاترين) .

وصادف ان جاء وقت قضى قانون اللعبة بأن يجري (نيكليندوف)
و (كاترين) معاً جنباً الى جنب ، فأعجبه ذلك إلا انه كان أبعد ما يكون
عن التفكير بأن رباطاً عاطفياً سيكون مع الأيام بينه وبين تلك الطفلة .
وبمقتضى قانون اللعبة كان على (نيكليندوف) ان يضع يده في يد (كاترين) ،
وان يجري الرسام وراءها ليقبض عليها . وكان هذا ، وهو يجري في أثرها
بأقصى ما تستطيعه ساقاه القصيرتان العضليتان من سرعة ، يخاطب نفسه بقوله :
— من العسير على التفريق بينهما .

ثم قال وقد ضرب كفاً بكف : واحد ، اثنان ، ثلاثة .

فبدلت (كاترينا) مكانها ، وهي تحبس الضحك في صدرها ، وأمسكت
بيدها الصغيرة يد (نيكليندوف) الضخمة ، ومضت تركض وإياه الى اليسار ،
فيسمع حفيف ثوبها المنشأ . وكان (نيكليندوف) يمضي في الركض كيلا
يلحق به الرسام ، مضاعفاً سرعته حتى بلغ أقصى حدود الحقل بعد أن أفلت
يده من يدها ثم تلفت الى الوراء ، فرأى الرسام يطاردها وهي تركض بأقصى
ما تستطيعه ساقاها من السرعة مبتعدة الى الجهة اليسرى .

كانت ثمة شجرة ، وكانوا قد تواضعوا على الا يتجاوزوها ولكن (كاترين)
أومات الى (نيكليندوف) باسمه ليلحق بها وتجاوزت الشجرة .

فأدرك (نيكليندوف) ما ترمي اليه وأسرع نحوها ، وكان وراء الشجرة
حوض ماء تحفیه الأعشاب ، فعمد فيه وسقط على الأرض ، فلتشق كفاه ،
وقلوت ثيابه بقطرات الندى ، غير انه ما عثم ان نهض من كبوته ضاحكاً
منها ، وانطلق يركض من جديد . فخفت (كاترين) للقاءه ، وهي لا تنفك
باسمه ، ومدت له يدها .

— هل جرح كفك ؟ — قالت تسأله وهي ترنو بنظرها اليه ، وتصلح بيدها
الثانية صفائرها وهي تلهث .

— كنت أجهل أنه يوجد هناك حوض ماء — أجاب قائلاً دون أن يدع
يد الفتاة .

وإذا اقتربت منه قليلاً ، شد على يدها ، وفجأة قبلها في فمها ، دون وعي منه . فسحبت الفتاة يدها من يده بسرعة وتراجعت بضع خطوات الى الوراء ، ثم أخذت غصنين غضين من الشجرة وأخذت تضرب بها خديها الملتهبين ، ومضت نحو جمهور الصبية .

منذ ذلك الحين تطورت العلاقات بين (نيكليندوف) وبين (كاترين) لقد كانا على مثل الوضعية الخاصة بفتى وفتاة كلاهما ساذج ، وكلاهما بريء ، وكلاهما يشعر بالليل للآخر . وكان يحب (نيكليندوف) ان تدخل (كاترين) الى غرفته ، أو أن يرى من بعيد ثوبها الوردي وصدرتها البيضاء ، حتى يبدو في نظره كل شيء مغموراً بالنور ، وحتى ينقلب كل شيء أشد جلالاً وأكثر مرحاً ، وأجزل أهمية ، وتبدو الحياة أعم هناء . وكانت تبادله نفس الاحساس . لم يكن وجود (كاترين) وحده مما يدخل السرور على قلب (نيكليندوف) ، وإنما كان مجرد التفكير بأنها موجودة كافياً لأن يغمر روحه بفيض من الهناء . وكانت هي تهتز أوتار قلبها له عندما تفكر بوجوده وأنه قريب منها . وكان إذا وردته رسالة من أمه تحمل له ما يسوءه ، أو عندما يتعسر عليه المضي قدماً في أطروحته ، وعندما تطفئ عليه موجة الغم الخاصة بسن الفتوة ، كان يكفيه بإزاء كل هذا أن تعرض له ذكرى وجودها كي ينلأشى ما به من غم وكآبة . كانت مهام (كاترين) في المنزل متعددة النواحي . ومع ذلك فقد كان لديها متسع من وقتها لكل شيء . وفي أوقات الفراغ القليلة كانت تزجي وقتها بالمطالعة ، وكان (نيكليندوف) يعبرها مؤلفات (ترجينيف) و (دوستويفسكي) . ولكن كان أشدها تأثيراً على نفسها الكتاب المسمى (الهدوء بعد العاصفة) (لترجينيف) . كانا كلما اجتمعا يتحدثان بصوت خافت سواء في الرواق أو على الشرفة ، أو في غرفة (ماري باولوفنا) وصيفة خالتيه العانسين العجوز ، حيث كانت ترقد (كاترين) ، وحيث كان يطيب (لنيكليندوف) أن يتناول الشاي أحياناً . وكان حديثها في حضور هذه المرأة بالغ العذوبة والرقّة ، ولكنها اما أصبحتا منفردين ارتج عليها ، وبأن

عاجزين عن الكلام ، وعندئذ كانت تتولى العيون مهمة التعبير عما عجزت عن الافصاح عنه تلك الكلمات التي كانا يغمغان بها ، ثم لا يلبثان ان يرتبكا ولا يحرران على البقاء معاً .

هكذا سارت الأحوال طيبة المدة التي قضاها (نيكليندوف) عند خالتيه . وأدركت هاتان ما يحدث فارتاعتا له وبادرتا بإبلاغه فوراً الى الأميرة (ايلينا ايفانوفنا) والدة (نيكليندوف) برسالة بعثتا بها اليها .

كانت خالته (ماري ايفانوفنا) تخشى ان يقنع (ديمتري) في حبائل (كاترين) ، غير ان خوفها كان باطلاً ، فحب (نيكليندوف) كان حب روح بريئة وفي هذا عاصم لكليهما من خطر التردى والسقوط في الهاوية . فهو لم يكن لا يشتهيها فعصب ، وإنما كان مما يثير الرعب في نفسه امكانية وجود مثل هذه الشهوة . ولكن مخاوف خالته الأخرى كانت أقرب للمعقول ، إذ كانت تخشى ، مدفوعة بنفسيها الشعرية ، أن يستمر حب (نيكليندوف) (لكاترين) فيتزوجها غير قلق بالآ لأصالته ووضعته .

ولو أن (نيكليندوف) كان قد تبين انه مغرم (بكاترين) أو لو أن أحداً حاول اقناعه باستحالة ربط مصيره بمصير (كاترين) ، إذن لكان مؤكداً انه سيجيبه بأن ليس ما يمنع زواجه منها ، لأنه يحبها . غير ان خالتيه لم يصرحا له بمخاوفهما ، وسافروا ولم يكون فكرة واضحة عن الحب الذي أيقظته (كاترين) في نفسه . كان يحسب ذلك الاحساس بعضاً من مرح الحياة العميم الذي كان يملأ كيانه ، وعند مغادرته المنزل ، وكانت (كاترين) تقف الى جانب خالتيه ، تشيعة من على الشرفة بنظراتها ، وعيناها النجلوان مخضلتان بالدموع ، أحس عندئذ ، ان شيئاً جبلاً ومقدساً في حياته قد تحطم الى غير رجعة . فأحس موجة من الغم الشديد تملأ نفسه .

— وداعاً يا (كاترين) ، وشكراً . — قال وهو يصعد الى العربية .

— وداعاً يا (ديمتري ايفان) . — أجابته بصوتها الرخيم وهي تمسك يحمده كبير الدموع التي أعشت عينيها ، فهرعت الى غندعها لتطلق العنان لدموعها دون حسيب أو رقيب .

مرت ثلاثة أعوام قبل ان يعود الأمير (ديمتري ايفان نيكليندوف) فبرى (كاترين) للمرة الثانية ، وكان قد جاء لوداع خالتيه قبل أن يلتحق بغرفة الحرس التي عين ضابطاً فيها . كان قد أصبح تام الرجولة ، مختلفاً اختلافاً كبيراً عن ذلك الصبي الغر الذي زار فيما مضى تلك الأماكن .

كان آنئذ مخلصاً نزيهاً مستعداً لتضحية نفسه في سبيل قيامه بعمل جميل . وهو الآن فاسق ، لا يفكر في شيء الا في ملذاته . كان يرى الكون سراً مغلقاً وطمساً يحاول استكناه رموزه بجواس مرج . وهو الآن يرى كل شيء واضحاً وبسيطاً ، ووفقاً على نزواته الشخصية . كان شديد الرغبة في الاتصال بالطبيعة والفلاسفة والشعراء الذين فكروا وعاشوا قبله . وهو الآن يحس بالحاجة للاصدقاء والرفاق ، وسائر ما في المجتمع من مغريات . كانت المرأة تبدو له كائنات غامضاً جذاباً ، يجعل منه غموضه أدعى للسرور والسعادة . أما الآن فقد أصبح يرى لسائر النساء ، ما عدا قريباته وزوجات اصدقائه ، معنى معيناً هو كونهن وسيلة للمذات . لقد كان فيما مضى لا يحس بالحاجة الى المال ، فكان لا ينفق مما كانت أمه قد عينته لنفقاته سوى الثلث ، وتنازل عن ميراثه عن أبيه لصالح الفلاحين . أما الآن فلا يكفيه مبلغ (١٥٠٠) روبل الذي عينته له أمه شهرياً ، وكثيراً ما دب خلاف بينها بسبب القضايا المادية ، كان ينتهي دائماً بتأنيب ضميره له .

كان فيما مضى يرى ذاته (الأنا) كائناً معنوياً . أما الآن فقد أصبح مقتنعاً بأن ذلك (الأنا) حيوان جميل صحيح الجسم قوي البنية . وكان من نتائج ذلك التغيير الجذري اقلاعه عن ايمانه بذاته ليؤمن بالآخرين ، لأن ايمانه بنفسه لم يكن عسيراً عليه .

فعندما يؤمن بنفسه لا بد له من البحث عن حلول لمشكلات كثيرة لغير صالح الأنانية الحيوانية . وعندما يؤمن بالغير فلا مشاكل ولا حلول ، اذ كل شيء لمصلحة (الأنا) المادي ضد مصلحة (الأنا) المعنوي . وليس هذا كل ما في الأمر ،

بل انه بايمانه بنفسه يلقى استنكاراً عاماً لعمله بينما يجد موافقة واطراء عامين اذا ما امن بالغير .

لو ان (ديتري) كان قد قرأ أو تحدث عن الله والحقيقة والثراء والفقر لوجد سامعوه كلامه شاذاً وسخيفاً ، ولسخرت منه أمه وخالاته ولنادينه مستهزئات (يا فيلسوفنا الغالي) . اما اذا قرأ روايات وأقاصيص شديدة الاغراق في الانفلات ، او ذهب الى المسرح الفرنسي ثم عاد فتحدث عما شاهده فانه سيلقي اطراء وتشجيعاً من الجميع . وعندما كان يحيا حياة شريفة وقرر أن يتزوج هلع قلب أبويه جزعاً على صحته ، وأمهم التي اقض مضجعها مجرد تفكيرها بان ابنها قد يتزوج من (كاترين) ، هذه الأم ملأ قلبها حبوراً عليها بأن (ديتري) قد اختطف خلية أحد اصدقائه الفرنسية . وعندما بلغ (ديتري) رشه ، فوزع على المزارعين ميراثه عن أبيه ، مدفوعاً بقناعته العميقة من ان ملكية الارض أمر غير عادل ، أثار جزع أمه وأقاربه ، وظل مدة طويلة موضع هزئهم وسخرتهم وتقريعهم ، وما فتئوا يقولون له ، انه افقر المزارعين بدلاً من رفع مستواهم . وكان ذلك صحيحاً ، لأن هؤلاء أدمنوا الخمر وهجروا العمل .

ولكن ، بعد ان التحق بالحرس الامبراطوري ، واختلط بالاوساط الاربستوقراطية العليا ، وأخذ يبرز المال حتى ارهق ثروة أمه ، فان الأميرة المعجوز لم تأس على ذلك ، ورأت من الطبيعي الجميل أن يأخذ قسطه من لذاذات الحياة بين الأوساط العليا .

لقد كافح (نيكليندوف) ضد المفهوم الجديد للحياة . وقد جر عليه ذلك الكفاح كثيراً من المصاعب لأن ما كان يراه جميلاً كان في نظر الآخرين قبيحاً ، والعكس بالعكس . وهكذا اقلع عن ايمانه بنفسه ليؤمن بالغير ، فكان ذلك منه تنازلاً عن شخصيته وكان مؤلماً له في البداية ، غير أنه ما عثم أن تناساه في غمار الحياة الجديدة ومعاقرة الخمر والتدخين ، حيث وجد عزاء وسلوى ، فأقبل بكلية عليها ، لأنه كان بطبعه حساساً متحمساً ، وهكذا اسكت صوت الضمير الأمر الذي كان يهيب به للقيام بأعمال أخرى جد مختلفة .

وهذا التحول الذي بدأ عند وصوله الى سان بطرسبرج ، بلغ ذروته بعد التحاقه بالحرس الامبراطوري .

ان الحياة العسكرية ، بمجد ذاتها ، مفسدة للرجال ، اذ تجعلهم في حالة بطالة تكاد تكون مستمرة ، او على الأقل ، بحالة انقطاع عن كل عمل مفيد ومعقول . وفي حين ترفع عن كواهلهم سائر الواجبات الانسانية ، فانها تضفي عليهم شرفاً زائفاً هو شرف الفرقة التي ينتمون اليها وشرف الراية ، وتمنحهم سلطاناً مطلقاً على كثيرين من الناس ، في حين تفرض عليهم خضوع العبيد غير المجدي وغير المشرف ، وعندما يضاف الى المفسدة التي تسببها الحياة العسكرية ، مفسدة الغنى ، والقرب من العائلة القيصرية ، كما هو الحال مع الحرس الامبراطوري ، فان تلاقي هاتين المفسدتين يخلق حالة نفسية ، تدعى بحق ، جنون الأناية الحقيقي . عاش (نيكليندوف) مغموراً في مثل هذا الجنون ، منذ سار على غرار رفاقه في السلاح بعد التحاقه بالحرس الامبراطوري وكانت مهمته تتلخص في ارتداء بزة فخمة ، تنظيفها وتعني بها يد غير يده ، وان يتقلد سيفاً يصقله غيره ، وان يمتطي جواداً رباه وأسلس قياده وأعدده له سواء ، وان يقود الجنود في المناورات ، او يستعرضهم ، وان يقفز الحواجز ، وان يحسن استعمال سيفه ، وان يطلق الرصاص فيصيب الاهداف ، وان يلقي غيره كل هذه التمارين .

ولم يكن حوله سوى لقيف من شبان وشيوخ ينتمون بأجمعهم الى أكثر العائلات الروسية عراقة في الارستوقراطية ، بما فيهم الامبراطور نفسه وحاشيته الذين كانوا فوق اقرارهم اياه على تصرفاته يقدمون له الشكر ويكافئونه على اعماله . هذا في النهار ، وفي الليل كانت المسارح والمراقص والمواخير يتلوها في اليوم الثاني زهات على ظهور الجياد ، وقفز حواجز ، وتمارين على السلاح الأبيض ، والجنون المطبق المعتاد ، ثم الحمر ، فالتذمر فالنساء .

هذا الضرب من الحياة أشد ضرراً على الجندي أمثال (نيكليندوف) ورفاقه ، مما هو على الرجل العادي الذي يحيا حياة شبيهة بحياته . اذ ان هذا يحس بتبكيت الضمير لأنه لا يرى مبرراً لأعماله . ولكن الجندي يرى أنه يؤدي

واجباً وطنياً مقدساً ، ويفخر به ، وخصوصاً ابان الحروب . وكان هذا حال الأمير (ديميتري ايفان نيكليندوف) الذي التحق بالجيش في بداية الحرب مع تركيا . — نحن في خطوط النار على الدوام دفاعاً عن الوطن ، وذوداً عن حياضه ، ومهما استمتعنا بحياتنا ، وأمعنا في هذا الاستمتاع فلن نضر أحداً . وأنه لمن الجنون ألا نفعل ذلك . هذا هو لسان حال هؤلاء .

وهكذا كان تفكير (نيكليندوف) في تلك الحقبة من حياته . وكان جد مسرور لانعتاقه من القيود المعنوية التي كان قد أخذ نفسه بها في مستهل شبابه . في غمرة ذلك الجنون المزمع كانت تمر حياته عندما عاد فرأى (كاترين) للمرة الثانية في بيت خالتيه ، بعد ثلاثة أعوام من لقائه الأول بها .

١٤

عديدة كانت الأسباب التي حملت الأمير (نيكليندوف) على أن يعود مرة أخرى لزيارة خالتيه اللتين كانتا قد كتبتا له معربتين عن شوقها الشديد لمعاينته . غير ان السبب الحقيقي الذي حفزه على ارضاء رغبة العانسين المعجوزين كان شديد شوقه للقاء (كاترين) وان كانت دوافع هذا الشوق غير سليمة الأمر الذي كان يأبى الاعتراف به حتى أمام نفسه . وكل ما كان يقوله هو انه يرغب في زيارة خالتيه ما دام قصرهما يقع في طريقه الى فرقته ، وانه يشتهي أن يرى الأماكن التي شهدت ساعات ناعمة هنيئة من حياته بالقرب من (كاترين) وان يلقاها هي أيضاً .

كان وصوله الى القصر في أواخر شهر آذار وخلال الجمعة المقدسة ، وتحت وابل من المطر الغزير ، والبرد الشديد . وهكذا فانه عندما دخل على خالتيه كان يتنفض من شدة البرد الا أنه كان قوي البنية ممتلئاً حيوية كالعادة . وكان يقول في نفسه وهو يحتاز فناء الدار المغطى بالثلج المتساقط عن الأسطح ، متملياً ذلك البناء الضخم الذي كان يعرفه معرفة تامة .

— ارجو ان تكون ما زالت موجودة هنا .

وكان يتوقع ان تحف هي للملاقاته عندما يقرع الباب غير ان شيئاً من هذا لم

يحدث ، ورأى أمام مدخل الجناح المخصص للخدم ، خادمتين حافيتين مشمري الثياب تغسلان الرواق . اما (كاترين) فلم يقع على أثرها في أي ركن من أركان المنزل ، ولم ير سوى (تيكون) الخادم المعجوز الذي كان منهمكاً بتنظيف البيت ، وعلى صدره صدارة بيضاء .

وفي القاعة التقى بخالته (صوفيا ايفانوفنا) مرتدية ثوباً حريرياً ، وتضع على رأسها شالاً من الصوف .

أحمد الله لمجيئك . - قالت له وهي تقبله - ان (ماري) منحرفة الصحة قليلاً وقد تأخرت في الكنيسة بعد تناول القربانة .

- شكراً أيتها الخالة (صوفيا) . أجاها الفتى وهو يقبل يدها - معذرة . لقد بللتك .

- اذهب الى غرفتك واخلع ثيابك . مسكين انت متجمد . لقد طر شارباك . (يا كاترين) ، (يا كاترين) . احضري القهوة حالاً .

- في الحال . - أجاب من المشى صوت عذب رخيم ما زال الأمير يتذكره . فغمرت الفرحة فؤاده . انها هي . ما زالت موجودة . كانت أشبه بشمع من نور الشمس يطل من خلال الغيوم .

وقاده (تيكون) الى حجراته القديمة ، فتبعه فرحاً مسروراً . كان يرغب في أن يستعلم عن (كاترين) وعن حياتها ، وعما اذا كانت مخطوبة ، ولكنه أعوزته الجرأة ، فاقصر على السؤال منه عن أبناء أخيه ، وعن الجواد القديم ، وعن (بولكان) كلب الحراسة الكبير . كان جميع هؤلاء ما زالوا احياء وبحالة حسنة ما عدا (بولكان) الذي أصيب بداء الكلب فمات .

وفيا كان يهم بأن يغير ثوبه ، سمع وقع أقدام في الرواق تبعه قرع على الباب لا يزال يذكرهما . لقد كانت هي . فوضع المعطف على أكتافه وقال : - ادخلي .

لقد كانت هذه (كاترين) ، غير انها كانت أشد جمالاً ومرحاً منها في أي وقت مضى . لم يزل لها عيناها النجلوان ، وابتسامتها المرحمة الساذجة ،

وصدارتها البيضاء النقية . لقد جاءت تحمل اليه ، بناء على رغبة خالته قطعة صابون معطر ، ومنشفتين ، احدهما من القماش الناعم والاخرى اسفنجية النسيج . كانت قطعة الصابون الجديدة كل الجدة ، والمنشفتان ، وهي ذاتها ، كل شيء كان جميلاً غصاً يبعث المرح والاعجاب . كانت شفتاها الحمراء والفضتان تمسكان نفسيهما كيلا تفتران عن ابتسامة سرور كعهده بها في أيامها الماضية عندما كانت تقف أمامه .

— أهلاً بك ومرحباً ، يا (ديمتري ايفان) — قالت على استحياء وصبغت خديها حمرة الخجل .

— نهارك سعيد . كيف حالك ، وكيف أنت ؟
وارتبك فلم يدر كيف يخاطبها ، وأحس بحمرة الخجل تصبغ وجهه .
— شكراً . لقد أمرتني خالتك ان أحضر لك هذا الصابون الوردي الذي طالما أحببته . — قالت ذلك ووضعت الصابون على الطاولة والمنشفتين على ذراع المقعد .
— ان (ديمتري ايفان) يحمل معه صابونه الخاص . — أجاب (تيكون) يحفاء ، مشيراً بيده الى محفظة من الجلد الأحمر ذات اطار وقفل من الفضة .
— ابلغني عني الشكر لخالتي . كم أنا مسرور لمجيئي . — اضاف يقول وقد شعر بعذوبة ورزانة فائقتين .

وكان جواب الفتاة الوحيد ابتسامة ارتسمت على شفتيها وخرجت من الغرفة . استقبلت المجوزان العائسان (نيكليندوف) بسرور غير عادي . كانتا تحبانه حباً يقرب من العبادة ، وكان في طريقه الى ميدان المعركة حيث يحتمل ان يسقط صريعاً ، او جريحاً ، او أسيراً ، وكان هذا يثير في نفسيهما الشجن والحنو .

جاء (نيكليندوف) وفي نيته قضاء يوم واحد عند خالتيه . ولكنه عندما رأى (كاترين) عدل برناجه ، وأبرق الى صديقه (شموك) لملاقاته عندهما بدلاً من انتظاره له في (اوديسا) كما كان الاتفاق بينهما .
كان ذلك قبيل عيد الفصح بيومين اثنين ، فرأى أن يقضيها في ذلك المنزل القديم .

لقد أثارت له (كاترين) منذ اللحظة الأولى نفس الاحساس الذي كانت تثيره له في الماضي . وكالماضي كان لا يقوى على النظر اليها ، دون أن تشير مشاعره . كان يصفي بغبطة بالغة لصوتها العذب وضحكاتها ووقع أقدامها . وكانت نظراتها الباسمة ، وعيناها الدعجاوان تطيش له ، ويرتبك عندما يراها تحمر خجلا . كان قد أدرك انه مفرم ، ولكن ليس على طريقته القديمة عندما كان لا يؤمن بأن الانسان يستطيع أن يحب أكثر من مرة واحدة . هو الآن يحب ، ويحيد الحب ، ويستمتع بلذاته . ولكنه يعلم نوعيته ، وما هي نهايته الممكنة .

كان (نيكليندوف) كسائر الرجال تقريبا ، ذا طبيعتين احدهما تنعم بفعل الخير ، ولو كان على حساب مصالحها الخاصة . والثانية وحشية ، أافية ، وبلا وازع ، وعلى استعداد لتضحية الانسانى جماء في سبيل ملذاتها . وكانت قد تغلبت هذه على الأولى خلال اقامته في بطرسبرج ، ولكن احساساته القديمة قد استيقظت الآن ، وأطل الانسان المعنوي من مكمنه مطالبا بحقه . ودارت رضى معركة عنيفة في داخله دامت يومين دون أن يأبه لها . كان الواجب بدعوه للسفر ، ويرى ان لا مبرر لبقائه مدة أطول ، ولكن ما كان يجده في بقاءه من السعادة الفائقة والهناء العميق كان أقوى أثرا فطنى على صوت الواجب والضمير فلم يسافر .

وجاء الكاهن والشهاس الى البيت في عربية قبيل عيد الفصح ليباركا الخبز كالمعتاد ، وليقيا صلاة منتصف الليل ، فلقيا عناء كبيرا في اجتياز المسافة التي بين الكنيسة والقصر والتي لا تتجاوز الخمسة كيلومترات . فحضر (نيكليندوف) الصلاة مع خالتيه وسائر خدم المنزل ، غير انه كان على رغبه عائق النظر (بكاترين) التي كانت آنشد تحمل المبخرة .

وفيا كان (نيكليندوف) هم بدخول غرفته بعد الفراغ من الصلاة وتبادل القبلات مع خالتيه والكاهن اذا به يسمع في الرواق صوت (ماري باولوفنا) الوصيعة المعجوز وهي تقول انها تستعد للذهاب الى الكنيسة برفقة (كاترين) لحضور القداس ومباركة الخبز .

— كذلك سأذهب أنا . — قال في نفسه .

كانت حالة الطريق تجعل من الذهاب الى الكنيسة ضرباً من المستحيل . ولذا فان (نيكليندوف) الذي كان يتصرف في ذلك البيت كما لو كان في بيته ، أمر بأن يسرج الجواد المعجوز ، وارتدى بزته الرسمية الخاصة بالمراسم ووضع عباءة على أكتافه ، وسار الى الكنيسة متحدياً الوحول والثلوج .

١٥

ظلت ذكرى تلك الصلاة التي حضرها (ديمتري ايفان) عند منتصف الليل حية في نفسه ، وباقية لا تمحى .

كانت الصلاة قد ابتدأت عندما بلغ (نيكليندوف) الهيكل بعد أن اجتاز على ظهر الجواد ، مسافة بعيدة في ظلام لا يهديه فيه نور الله إلا بياض الثلج الذي كان ينير له الطريق بين مرحلة وأخرى .

كان المصلون كثيرين . وكان القرويون يجلسون عن اليمين ، يرتدي الشيوخ منهم ثياباً خاطوها بأيديهم ويلفون على سيقانهم لفائف من قماش أبيض ، والشبان يلبسون ثياباً جديدة من الجوخ ، ويشدون خصورهم بمناطق ذات ألوان زاهية ، ويحتذون أحذية طويلة ، وتجلس القرويات عن اليسار ، وعلى رؤوسهن أغطية حريرية حمراء ، ويرتدين صدائر من المخمل أكامها حمراء وفساتين من ألوان متعددة ، ما بين الأزرق والأخضر والأحمر ، ويحتذين أحذية جديدة . وكانت المجائز قد تجمعن في الصفوف الأمامية وعلى رؤوسهن أغطية بيضاء ، ويرتدين فساتين رمادية اللون ، وبينهن الصبية على أذرعهم شرائط المعمودية ، ورؤوسهم مطلية بالدهن .

كان الرجال يكثر من الركوع ، أما النسوة ، وخصوصاً الطاعنات في السن ، فكن شاخصات بأبصارهن الى المذبح الذي كان مضاء بالشموع ، ويقرعن بقبضات أيديهن جباهن ورؤوسهن وبطونهن ، ويصلين بصوت خافت ثم لا يلبثن أن ينتحنين الى الأمام بخشوع كمن يهن بالركوع . وكان الصبية يقلدون آباءهم فإذا ما رأوا أنهم يراقبونهم ازدادوا امعاناً في الصلاة .

كان الهيكل الذي يضيق بالصور المقدسة ، يتوهج كقطعة من ذهب حيت في النار ، ويسطع فيه نور ينبعث من عدد عديد من الشموع المضاءة ، وقنديل كبير ، ويسمع من كلا فرقتي المرتلين اللتين ترافقان المصلين ، نغم ضاحك عذب تختلط فيه أصوات الصبية الحادة بأصوات الكبار البالغين .

وظل (نيكليندوف) يتقدم الى ان بلغ وسط الكنيسة ، حيث يجلس امثاله ابناء الطبقة الأريستوقراطية . كان ثمة احد الملاكين ترافقه زوجته وولده الذي كان يلبس ثياب بحار ، وعامل البرق ، وتاجر يحتذي حذاء طويلا وقيم الكنيسة وشارته على صدره . ومن وراء زوجة التاجر كانت تقف (ماري باولوفنا) بثوبها الليلكي ، و (كاترين) بثوبها الناصع البياض ، ونطاقها الأزرق ، وشريطه حمراء تعقدها على شعرها الأسود الفاحم .

كل شيء كان ثمة جميلا مرحاً وقديساً ، سواء في ذلك الكاهن الذي كان يرتدي الثوب الفضي الموشى بصلبان ذهبية ، والشماس بثوبه الموشى بالفضة والذهب . والترتيل ، وحركات الكاهن وهو يرفع بيده القنديل ذا القاعدة المثلثة ليبارك الحاضرين ، والطريقة التي كان هؤلاء يقاطعون بها كل لحظة مرددين معاً قولهم : « بعث يسوع ، بعث يسوع » . كل شيء كان جميلا ، وكانت (كاترين) أجمل من كل هذا بثوبها الناصع البياض ، ونطاقها الأزرق ، وشريطها التي تربطها صفائرها ، وعينيها النجلوين اللتين تطفحان بالسعادة والهناء .

كان (نيكليندوف) على مثل اليقين من انها كانت تراقبه ، دون ان تلتفت نحوه ، وأكد له ذلك انه عندما مر بالقرب منها اثناء تقدمه نحو الهيكل وهمس يقول لها :

— لقد قالت الحالة اننا سنتناول عشاء بعد الصلاة الثانية رأى الدم يتصاعد الى وجهها ، شأنها في كل مرة كانت تنظر فيها اليه ، وأجابته فرحة باسمة ، وهي تحديق بنظرها في عينيه .

— اعلم ذلك .

في تلك الأثناء كان الشماس يطوف على المصلين ليجمع الصدقة منهم ، فلما

مر بجانب (كاترين) مس ثوبه ثوبها دون أن يأبه لها ، واصطدم (نيكليندوف) دون ان يقصد الاساءة اليه . فشق ذلك عليه ، وعجب لهذا الرجل كيف لم يدرك ان كل ما في الكنيسة وخارجها ، وكل ما في الدنيا بأسرها انما وجد من أجل (كاترين) ، وان كل شيء قد يندثر ويتلاشى الالهى ، لانها محور الكون . لأجلها يتوهج الذهب على المذبح ، ولأجلها وحدها تضيء الشموع في الشمعدانات ، ولأجلها ترتفع تلك الألحان العذبة الضاحكة « هي قيامة السيد المسيح ، فليفرح البشر » . كل ما في الدنيا من جميل وصالح انما وجد لأجلها . وينبغي ان تدرك ذلك (كاترين) . هكذا كان يحسب (نيكليندوف) وهو يتملى جمال قوامها البارع وهي في ثوبها الجميل الناصع البياض . وكان واضعاً انها تشاطره نفس الشعور كما يبدو ذلك في قسمة وجهها الجاد .

وخرج (نيكليندوف) من الكنيسة ، خلال فترة ما بين القداسين فكان الناس يفسحون له الطريق ويمحيونه باحترام . كان البعض يعرفه ، والبعض الآخر كان يتساءل من يكون هذا ؟
والتف حوله المتسولون في باحة الكنيسة فوزع عليهم كل ما كان يحمله من المال ، وهبط السلم .

كان الضباب قد انقشع قليلاً ، ولكن الشمس كانت لا تزال بعيدة وراء الأفق ، وكانت الجماهير التي تخرج الى فناء دار الكنيسة تجلس على القبور ، ولكن (نيكليندوف) لم ير أثراً (لكاترين) فلبث ينتظر خروجها ، والجماهير ما زالت تتدفق الى الخارج ، ويرتفع وقع اكعاب أحذيتها الحديدية على البلاط . واستوقف عجوز يرتعش جسمه ، وهو طاهي (ماري باولوفنا) الأمير (نيكليندوف) ليقبله ثلاث مرات . وأخرجت زوجته العجوز المتغضنة الوجه ، من منديل كانت تحمله ، بيضة صفراء وقدمتها له جرياً على تقليد شعبي روسي يعتم ان يقبل الناس بعضهم بعضاً ثلاثاً في عيد الفصح ، وان يتبادلوا الهدايا بالبيض المصبوغ باللون الأصفر . وجاء بعدها شاب قروي ضخم العضلات يرتدي سترة جديدة وزناراً أخضر فابتسم وقال :

— بعث يسوع . — قالها بسرور ، ثم تقدم من (نيكليندوف) وقبله في فمه ثلاثاً ، فخرشت لحيته القاسية وجه الأمير ، وملأت رائحته العطنة أنفه . وفيما كان الأمير يبادل القبلات الثلاث اطلت (ماري باولوفنا) من بين الجماهير بشوهدا الوهاج يتبعها رأس أسود محبوب بشريطته الحمراء ، ذلك هو رأس (كاترين) التي عرفت في الحال من بين تلك الجماهير فوقفتا ريثما تتصدقان على الفقراء والمتسولين . وكان أحد هؤلاء رجل في وجهه فرحة تقشعر منها الأبدان قد امتدت حتى غمرت أنفه ، فدنا من (كاترين) فبحثت هذه في جيبها عن قطعة نقود اعطته اياها ، ثم بادلت القبلات الثلاث ، دون ان يبدو منها أي تقزز واشمزاز . وعندما تلاقى نظراتها بنظرات (نيكليندوف) بدا وكأنها تقول له :

— هل أحسنت صنعاً بتقبيلي هذا المنكود الطالع ؟
و كأننا كان هذا جوابه : بلى لقد احسنت يا معبودتي ، كل هذا جميل ، وأنا أحبك .

فهبطت المراتان السلم ، وخف للملاقاة (نيكليندوف) . لم يكن ينوي تهنتها بالعبد ، وانما كان يبغى ان يكون على مقربة منها .

— بعث يسوع — قالت (ماري باولوفنا) ثم نظفت شفتيها وقبلته ثلاثاً .

— حقاً لقد بعث يسوع . — أجابها (نيكليندوف) وهو يبادلها القبلات .

ثم نظر الى (كاترين) فاحمر وجهها وتقدمت منه .

— لقد بعث يسوع (يا ديمتري ايفان) .

— حقاً لقد بعث يسوع .

وتبادلا قبلتين ثم أمسكا كأنها يتساءلان عما اذا كان لا بد من ان تكون القبلات ثلاثة . ثم عادا ليتبادلا القبلة الثالثة وابتنسا .

— ألا تعودين الى الكنيسة ؟

— كلا ، (يا ديمتري ايفان) أجابت الفتاة وهي تتنهد بلاء رثيها كما يحدث

بعد جهد سار ، وحدثت فيه بنظرات مستكينة طاهرة ومفرمة .

عندما يتحاب شخصان رجل وامرأة ، فلا بد من ان يمر غرامها بلحظة يسمو فيها عن الحس الشهواني ، وينتظر ، وتتوحد الروحان روحاً واحدة . كانت تلك هي اللحظة التي مر بها غرام (نيكليندوف) غداة ليلة عيد الفصح ، وذلك هو الموقف الذي تجلى أمام عيني (نيكليندوف) بوضوح ، وهو جالس في قاعة المحلفين مستعرضاً كافة تفاصيل علاقته (بكاترين) فطغى على كل ما عداه . ها هو ذا رأس أسود تحليه شريطة حمراء ، وشعر أسود قد صفت بعناية فائقة ، وفستان ابيض ، وصدر قد نهّد حديثاً ، ووجه توردته حمرة الخجل ، وعينان دعجاوان مبهرتان ، وبراعة صارخة تدل على ذاتها ، وذلك الحب العميق الساذج الذي لا يقتصر عليه وحده ، وانما يشمل كل ما هو صالح وجميل ، بل اكثر من ذلك اذ انها توزعه بين كافة المخلوقات . أليس في تقبيلها للتسول انصع دليل على ذلك ؟ في تلك الليلة شعر بحب غير ذي حدود ، وكان يبدو له ان الفتاة وهو لم يكونا الا ذاتاً واحدة .

ليت كل شيء تم على مثل تلك اللحظة ، ووفقاً لذلك الشهور الذي احسسته في الكنيسة وفي فناء الدار . لم يبق شيء من هذا ويا للأسف . لقد وقع الحزن والمؤلم . تلك هي الافكار التي كانت تشغل تفكيره وهو جالس الى النافذة في قاعة المحلفين .

١٦

عندما عاد (ديعتري) من الكنيسة الى البيت تناول العشاء مع خالتيه ، فأكثر من شرب الخمر رغبة منه في (تجديد قواه) عملاً بالعادة المتبعة في فرقته في الجيش . ثم ذهب الى غرفته حيث القى بنفسه على الفراش دون أن يخلف شيئاً من ثيابه ، وراح في ثبات عميق . واستفاق من نومه على قرع خفيف على الباب ، فعرف انها كانت (كاترين) فهب من فراشه وهو يفرك عينيه .

— أهذه انت يا (كاترين) ؟ أدخلني .

ففتحت هذه الباب موارباً وقالت :

— المائدة جاهزة . — قالتها والسرور باد على وجهها كما لو كان في ذلك

حدث هام . كانت ما تزال ترتدي ثوبها الأبيض ولكنها كانت قد نزعَت
الأشرطة الحمراء عن شعرها .

— سأذهب سريعاً . — قال وهو يتناول المشط .

فلبثت برهة واقفة فلاحظ ذلك (نيكليندوف) فخطى نحوها خطوة ،
ولكنها استدارت في اللحظة الأخيرة ، وخرجت من الغرفة بخطى سريعة قصيرة .
— يا لي من غبي . لماذا لم أوقفها . — قال مخاطباً نفسه . ثم خرج من الغرفة
مسرعاً ليلحق بها .

كان يحجل ما يريد ، غير ان صوتاً خفياً كان يهيب به ان عليه ان يتصرف
تصرف غيره من الرجال في مواقف مماثلة .

— تمهلي يا (كاترين) . — صاح يقول لها .

فالتفت الفتاة اليه ثم وقفت وقالت :

— ماذا تريد ؟

— لا شيء . ولكنني ... ثم طوق خصرها بذراعه ، بعد ان بذل مجهوداً
كبيراً للتغلب على خجله فحدقت في عينيه وقالت :

— هذا قبيح ، هذا قبيح يا (ديتري ايغان) .

وكان وجهها قد احترق ، وأوشكت ان تبكي ، ورفعت ذراعها عن
خصرها لتتخلص منه .

فتركها (نيكليندوف) تفلت ولبت برهة مخجولاً من نفسه مشمئزاً من
عمله ، ولكنه عاد ففكر في الموقف السخيف الذي وقفه فخف وراءها وقبل
عنقها .

كانت هاته القبلة بعيدة كل البعد مختلفة كل الاختلاف وتلك البريئة الساذجة
التي تبادلاها في فناء دار الكنيسة قرب شجرة (الليلاك) ثم تبادلوا على أثرها
النهائي بعيد الفصح . كانت هذه مريعة جداً ، وعرفت ذلك (كاترين) .

— ما تفعل . — هتفت تقول بصوت ينضح بالألم كأنما كان قد حطم أنفـس ،
ما في نفسها ، وفرت هاربة .

ودخل (نيكليندوف) قاعة الطعام حيث كانت خالتاه والطبيب ، واحدى جاراتهن يتناولون المقبلات . لم يكن ما قد حدث بالحدث الهام ، ومع ذلك فقد كان الأمير في حالة ارتباك شديد لا يدري معه ما يصنع . وكان يخبط خبط عشواء في حديثه وفي اجاباته عما يسأل عنه ، اذ كانت افكاره منصرفه (لكاترين) مأخوذة بلذة القبة الأخيرة . ولا يقوى على التفكير بأمر آخر . وعندما جاءت الفتاة ودخلت القاعة تنهت لها سائر جوارحه ، وكان لا بد له من مجهود كبير يبذله مع نفسه الجموح التواقة للنظر اليها .

وذهب الى غرفته بعد الفراغ من تناول الطعام ، حيث ظل مدة طويلة ، مدفوعاً بانفعاله الشديد ، يتلصص على كل حركة ، ويتسقط كل نأمة لعله يتبين في احداها وقع اقدام (كاترين) أو يبلغ صوتها سمعه . كانت قد تنهت الغريزة الحيوانية فطنت على الانسان المعنوي الصالح الذي كان يسيطر على حواسه منذ ثلاثة أعوام حتى تلك الليلة عندما كان في الكنيسة . لقد تغلب الآن الحيوان على الانسان .

وعلى رغم حرصه على ترصد الفتاة فانه لم يتمكن من الانفراد بها ، ذلك لأنها في الواقع كانت حريصة على تجنب ذلك وتحاشيه ما استطاعت . ولكنها كان لا بد لها من الدخول الى الغرفة المجاورة لغرفته لأن الطبيب سيبات تلك الليلة في المنزل وينبغي عليها والحالة هذه ، ان تعد له السرير . وعرف الأمير وقع اقدامها فخف اليها حابساً أنفاسه ساعياً على رؤوس أقدامه كمن يسعى لارتكاب جريمة . كانت تمسك بكلتا يديها غطاء مخدة محاولة الباسه لها . فالتفتت اليه وارتسمت على شفتيها ابتسامة لم تكن المعهودة منها المرحمة المطمئنة ، وإنما كانت ابتسامة باهتة تم عن اسف ورعب ، وكأنها تقول له ان ما تحاوله أمر قبيح . وكان ما يزال في نفس (نيكليندوف) بقية من مقاومة ، لذا فقد لبث برهة واقفاً قريباً لا يبدي حراكاً . ولآخر مرة سمع صوت حبه الحقيقي يهيب به خافتاً محدثاً عن الفتاة ، وشعورها ، وعما يمكن ان تكون حياتها ، غير ان صوتاً آخر كان أشد عنفاً يلح قائلاً له : « لا تدع لذتك وسعادتك تغتلب من بين يديك » . وكان ان تغلب هذا الأخير .

فتقدم من الفتاة بحزم وتصميم ، وبحركة وحشية احتضنها بين ذراعيه ووضعها على السرير .

— يا (ديمتري ايفان) ارجوك ... حسنة لوجه الله ... دعني . — كانت تقول له . — ما هي ذي (ماري باولوفنا) قادمة . — اضافت تقول وقد افلقت من بين يديه .

— حسن . اسمعي . سأذهب الليلة الى غرفتك . هل تكونين وحدك ؟
— ماذا تقول ؟ خف الله . كلا . — غمغمت تقول ولكن ما كان ينتاب جسمها من الرعدة كان يدل على انها كاذبة .

ودخلت (ماري باولوفنا) الغرفة حاملة الحشية ، وهي لا تفتأ تعنف (كاترين) لأنها نسيت الملاحف ، وإذ رأت الفتى نظرت اليه نظرة توبيخ ، فغادر الغرفة دون أن يقول شيئاً . لقد أدرك من تعابير وجه (ماري باولوفنا) انها تظن به الظنون ، وكان يعلم انها على حق ، وان ما يبسته كان قبيحاً . غير انه لم يستحي . لقد حالت الفريزة الحيوانية التي جعلت محل حبه (لكاترين) دون امعان الفكر . كان يود اشباع شهواته بأي ثمن كان . لقد أصبح يعلم ما هو السبيل اليها ، وكان يفتش عن هذا السبيل .

ظل طوال ليلة مضطرباً قلقاً ، فقد كان يحاول ان يراها في أي مكان تنها له ذلك ، سواء أكان في غرفتها ، أم على الشرفة أم في القاعة . ولكن (كاترين) كانت تتحاشى لقاءها معه . وفضلاً عن ذلك فان (ماري باولوفنا) كانت قد لاحظت ما بينها فأصبحت تراقبها بعين يقظة .

١٧

على مثل هذا القلق والاضطراب استقبل الأمير ليلته . وانصرف الطبيب الى مخدعه لينام ، وأوت خالتاه الى مرقدهما . كان (نيكليندوف) يعلم جيداً ان (ماري باولوفنا) لا بد أن تكون مع خالتيه لتساعدهما على خلع ثيابهما ، وأن (كاترين) قد تكون وحدهما في مخدع الخدم . فأسرع في الخروج من البيت . كان الليل رطباً ودافئاً والهواء مثقلاً بالضباب الخفيف الذي يخلفه

وراء ذوبان الثلوج ، وينبعث من النهر القريب صوت أجش هو صوت تكسر ألواح الجليد التي تجرفها مياه النهر .

وأسرع (نيكليندوف) يوسع الخطى ، غير مبال بالأحوال والثلوج والمياه الراكدة ، ودنى من نافذة يستطيع من ورائها مراقبة غرفة الخدم . كان قلبه يخفق خفقاناً شديداً يستطيع معه احصاء دقاته . وكان تنفسه عسيراً وشاقاً . كانت الغرفة مضاءة بقنديل باهت النور . وكانت (كاترين) جالسة وحدها أمام طاولة ويبدو عليها انها تفكر ، وكانت نظراتها شاردة . فلبث برهة يراقبها كأنها كان يحاول قراءة أفكارها . وظلت الفتاة ساهمة بعض الوقت . وفجأة هزت رأسها كأنها تؤنب نفسها ، ورفعت نظرها الشارد عن الأرض ثم ابتسمت ، وبحركة عصبية اتكأت بذراعيها على المنضدة ، وعادت نظراتها الى الشروود من جديد . وكان الأمير ينظر اليها وبدون قصد يصفي الى هدير مياه النهر ، وتكسر ألواح الجليد المستمر ، وصوت اصطدام بعضها ببعض ، والتقصف الذي يشبه صوت تقصف الحطب الأخضر عند احتراقه ، وتكسر الزجاج عندما يسقط على الأرض .

وهزته الشفقة والمرحة ، وهو يراقب ذلك الوجه الذي يبدو عليه التفكير والاجهاد لما يعتلج في صدر صاحبه من الانفعالات النفسية . ولكن ، وهنا موضع الغرابة ، فقد أزكت تلك الشفقة والمرحة اوار شهواته .

وقرع الزجاج محاذراً ، فارطعت (كاترين) وانتفضت كمن مسه تيار كهربائي ، وبدأ على وجهها رعب مفاجيء ، ثم وقفت وتقدمت من النافذة وألصقت وجهها بزجاجها . وعلى الرغم من انها عرفت فان مظاهر الجزع لم تفارقها وظل وجهها متجهماً كما لم يره الأمير قط . فابتسم لها هذا فبادلته الابتسام غير انه كان ابتساماً حزيناً صادراً عن نفس تنوء تحت وطأة خوف ميت . فأشار اليها بيده لكي تخرج لملاقاته ولكنها أشارت اليه برأسها إشارة الرفض دون أن ترفع وجهها عن الزجاج ، فأدنى فيه كي يقنمها بالخروج إلا انها قفزت نحو الباب كأن أحداً قد ناداها . فتنحى (نيكليندوف) عن النافذة ، وكان

الضباب من الكثافة بحيث لم يكن يرى من النافذة على بعد خمس خطوات ، سوى كتلة سوداء ، ينبعث منها بصيص نور أحمر . وكان لا يزال يسمع هدير ماء النهر ، وتكسر الجليد المتواصل . وفجأة سمع في الباحة صباح ديك ، جاوبه آخر ، وتبعه آخرون ، وأخذت الديكة تتجاوب في الحقل حتى اختلط بعضها ببعض واستحال تمييزها . كان كل شيء حوله هادئاً هدوء القبور ولا يعكره سوى هدير مياه النهر .

وأخذ (نيكليندوف) يطوف في الوحول جيئة وذهاباً وظل هكذا بعض الوقت ثم عاد الى النافذة من جديد . كان القنديل لا يزال مضاء ، وكانت (كاترين) واقفة بجانب الطاولة وتبدو على وجهها دلائل التردد والقلق . فناداها ، وسرعان ما هرعت خارجة من الغرفة ، دون ان تحاول معرفة المنادي . ثم سمع صوت باب يفتح ثم يغلق بعنف . وكان لا يزال ينتظر بفارغ الصبر . فاحتضنها بين ذراعيه ، دون أن يفوه بكلمة واحدة ، فالتصقت (كاترين) به ورفعت رأسها فتلاقت الشفاه المنشودة . وهكذا كانت يحس باستعداد شهوته ، وهما متمتعان في زاوية خارج البيت . وفجأة فتح الباب وسمع صوت (باولوفنا) الغضبي ينادي : - يا (كاترين) .

فأفلتت من بين ذراعيه ، وهرعت الى البيت . ولم يلبث (نيكليندوف) ان سمع صوت قفل يغلق ثم تلاه اطفاء القنديل ، وساد الظلام والهدوء . كان الضباب ما زال يزداد كثافة ، وهدير مياه النهر ، وصوت تكسر الجليد ما زال مسموعاً .

ودنى (نيكليندوف) من النافذة ، ولكنه لم ير شيئاً . فنادى ولكنه لم يجد جواباً . عندئذ عاد ادراجه الى البيت وصعد الى غرفته دون ان ينام ، فخلع حذاءه ، بعد قليل ، ومضى حافي الأقدام في المشى الى ان بلغ غرفة (كاترين) التي كانت بجانب غرفة (ماري باولوفنا) . فأرهم سمعه وأنصت الى صوت أنفاسها الهادئة الرتيب ، وفيما كان يهم بأن يقرع باب غرفة الفتاة ، إذا به يسمع صوت سعال المعجوز وتلملها في الفراش ، فحبس أنفاسه .

ومرت دقائق قليلة عادت بعدها انفاس المعجوز تسمع رتيبة هادئة ، فتقدم من باب غرفة الفتاة ، وهو يمشي على رؤوس أقدامه كيلا يحدث ضجة . كان كل شيء هادئاً في غرفتها فلم انها لم تكن نائمة ، لأنه لم يكذب يهيمس بندائه لها حتى هبت من فراشها وأخذت تتوسل اليه بلهجة شاكية ان يدعها وشأنها قائلة له :
— ما هذا الذي تحاوله ؟ ... يستحيل ... وسيداتي ؟

هذا ما كانت شفتها تقغم به ، ولكن سائر جوارحها كانت تقول له : أنا لك . كلي لك . وهذا ما سمعه (نيكليندوف) .
— أتوسل اليك ... أرجوك ... — بهذا كان جنون الشهوة العارمة يجعله يهذي .

وساد سكون قليل سمعت على أثره حركة يد تمس القفل ثم فتح الباب ، فدخل (نيكليندوف) .

— أواه . ماذا أنت فاعل ؟ دعني . — كانت تقغم .
فاحتواها بين ذراعيه ، وليس ما يسترها سوى القميص ، وشرع يدفعها الى الداخل .
— كلا . كلا ... هذا قبيح ... ما تفعل ؟ ... دعني . — وكانت في كل مرة تزداد به التصاقاً .

غادر (نيكليندوف) (كاترين) مرتعشة واجدة ، لا تجيب بشيء على ما يقوله لها وخرج الى الهواء الطلق . كان الظلام قد بدأ ينقشع ، ويسمع من بعيد صوت تكسر الجليد ، وأصبح يرى بوضوح تنزي مياه النهر وانسيابه . وأخذت أمواج الضباب تتبخر ، ويبدو من ورائها قوس القمر ينير بنوره الباهت الكثيب أمراً نكراً . كان (نيكليندوف) يحاول جاهداً ادراك مدى أهمية ما قد حدث .

— ماذا حدث ؟ أكان أمراً صالحاً أم طالحاً ؟ ... على كل حال الجميع يفعلون ما فعلت . — بهذا كان يخاطب نفسه . ثم مضى الى غرفته مطمئن النفس واستلقى على فراشه ونام .

جاء (شموك) صديق الأمير (ديمتري ايفان) في اليوم التالي . كان مرحاً مقداماً ، وما عزم ان حاز على تقدير ربي البيت العائسين واعجابها بما أظهره من دماثة الخلق والسخاء وحسن المعشر والحب (لنيكليندوف) ، ولكنها أخذت عليه افراطه في السخاء . إذ أنه أعطى روبلاً لمتسول أعمى ، ووزع بين الخدم خمسة وعشرين . وعندما جرححت ساق كلب (صوفيا ايفانوفنا) الذي كانت تناديه باسم (سيستكا) اقتطع قطعة من منشفته وهي من الحرير الخالص وربط بها الجرح . وقالت المعجوزان انها لم تريا قط سخاء مفرطاً كهذا . انها بلا ريب لم تكونا تعلمان ان (شموك) كان مديناً بمبلغ مئتي ألف روبل ، وأنه كان واثقاً من عجزه عن وفاء هذا المبلغ الضخم ولذا فان عشرين روبلاً تنقص أو تزيد كان في نظره غير ذي أهمية .

وسافر (شموك) بعد يوم واحد ، يرافقه صديقه (نيكليندوف) ، لأنه لم يكن يستطيع غير ذلك لانتها مدة اجازته .

وظل الصراع غنياً طوال ذلك النهار في نفس (نيكليندوف) كانت صراعاً بين شعورين متناقضين . فمن جهة كان لا يزال حياً في نفسه صدى ذكريات ليلته الحادة ، ذكريات الشهوة الحيوانية التي لم يستخلص منها كل ما منى نفسه به من متع ، ومع ذلك وعلى الرغم من ذلك فقد كان فخوراً لئله مبتغاه . وكان من جهة أخرى واثقاً من انه أساء التصرف ، ومقتنماً من وجوب تلافي ذلك الخطأ ، لا لأنه كان ضاراً (بكاترين) وإنما من أجل نفسه ، لأنه لم يكن يستطيع التفكير إلا في نفسه لما فيه من أمانة عمية . كان يقول في نفسه : ما عسى ما سيقوله الناس عني ؟ وماذا سيحكمون علي ؟ أما حالة (كاترين) النفسية ، وما سينالها من الضر والأذى ، فهذا ما لم يكن في حسابه بقليل أو كثير .

ولاحظ ان (شموك) قد أصبح عالماً بما بينه وبين الفتاة من علاقات فازداد فيها وكبراً .

— لقد أدركت الآن سر غرامك بخالتيك — قال له الفتى وهو يضحك —
ليس عجباً أن تتوقف هنا ، ولو كنت في مكانك لحاولت أن اطيل اقامتي ما
استطعت . الحق معك انها وردة لم تفتح بعد .

لقد ألم (نيكليندوف) اضطرابه على السفر ذلك اليوم ، إذ انه يرى ان
غرامه هذا قد يوفر له بعض اللذات ، ولكنه من جهة أخرى كان يرى في
سفره وسيلة لفصم عرى علاقته قد يجوز ان تسبب له متاعب في المستقبل .
ورأى من واجبه ان يعطي بعض المال (لكاترين) لا لأنها بحاجة اليه ولكن
لأن الجميع كانوا يتصرفون هكذا ، ولذا فانه قبل موعد سفره ، وبعد أن
تناول الطعام ، تربصا في الرواق ، فلما رآته حاولت الدخول الى جناح الخدم
ولكنه سد عليها الطريق .

— كنت أريد أن أودعك . — قال وهو يلوح بيده التي تحمل مظروفاً
ضمنه ورقة من ذوات المئة روبل .
— كنت أريد ...

فأدركت (كاترين) ما يقصد . فزوت ما بين عينيها ورفعت يده عنها .
— كلا . قال لها وهو يدس المظروف بين يديها ، ثم أسرع في إعادة يده
كما لو كانت قد جرحته . ومضى لا ينوي على شيء حتى دخل غرفته وأخذ
يذرع الغرفة بعصية ذهباً وإياباً ، أسفاً لذلك الموقف الذي وقفه ، متوجعاً
كمن يشكو ألماً جسدياً .

— على كل حال ما العمل ؟ هذا ما يحدث دائماً . لقد تصرف (شموك)
نفس التصرف مع المعلمة . كذلك عمي (غريغوريوس) ، وحتى أبي له ولد ولا
يزال حياً في (ميتينكا) إذا كان الجميع هكذا يفعلون ، فلماذا لا أحذو
حذوهم ؟

بمثل هذا كان (نيكليندوف) يخاطب نفسه محاولاً من وراء ذلك تناسي
فعلته ، وإسكات صوت ضميره غير أنه خاب فأله . لقد كانت ذكرى موقفه
الأخير مع (كاترين) تقض مضجعه . كان يدرك ان تصرفه كان وضعياً

ومجيباً حقيراً وفاسقاً . فهل من المعقول ان يظل يعتقد في نفسه النبيل والشرف . ولما استعصى عليه إيجاد حل لمشكلته وسدت في وجهه السبل لجأ الى النسيان .

وأعانه الحرب والاصدقاء والحياة الجديدة على النسيان . وكان كلما أمعن في الحياة العملية ، كانت تلك الذكري تحبو في نفسه أكثر فأكثر ، وهكذا حتى تلاشت بكاملها ، الى ان كان يوم وكانت الحرب قد انتهت ، جاء فيه لزيارة خالتيه فعلم ان (كاترين) قد طردت من المنزل بعد ذهابه بقليل ، وانها قد وضعت ولذا ذكر لم يلبث أن طواه العدم في طياته ، فأحس بما يعتصر فؤاده . وقدر المدة التي انقضت بين ولادة الطفل وسفره من البيت فلم انه ولده . وعندما أكدت له خالته ان الفتاة كانت فاسقة كأماها سر كثيراً لأنه رأى في ذلك تخفيفاً لجريمته . كان يود لو يرى (كاترين) والطفل ، غير انه كان يشعر بألم مبرح وخجل دائم ، ولذا فانه لم يبدأ أي محاولة لمعرفة مقرها ، وهكذا فقد نسي زلته وكل شيء .

وها هو ذا الماضي يعود الى الحياة من جديد ، بفعل حادث عجيب ، فيرى نفسه مجبراً على الاعتراف بفضاعة ما كان منه ، وخلوه من أي شعور انساني ، وإلا لما لبث عشر سنوات في حياة هادئة وإدعة وهو مثقل الضمير بذلك العبء الباهظ .

ولكنه كان بعيداً كل البعد عن أن يعلن زلته لسائر الناس وأن يعترف للغير بما يعترف به لنفسه . لقد كان يخشى أن تفضح (ماسلوكا) أو محاربا ذلك الماضي البشع فيبدو على حقيقته أمام سائر الناس . وهذا ما كان يقض مضجعه .

١٩

كان الحلفون يدخنون ، وهم جالسون في قاعة المذاكرة منتظرين . وكان التاجر الطيب يعلق باطراء على تصرفات (سميلكوف) في حياته .

— ها هوذا رجل قضى لباناته في حياته . لقد كان سيبريانياً حقيقياً . وأي نصيب أصاب !

كان رئيس المحلفين يقول لهم ملاحظاً ان كل شيء يتوقف على تقدير الخير الطبي . في حين كان (جيراسيموفيتش) يتندر على المستخدم اليهودي ويضحك معاً القهقهة . أما (نيكليندوف) فقد كان غارقاً في تأملاته ، باحثاً عن ذكريات ماضيه ، لا يفوه بكلمة إلا إذا سئل عنها وعندئذ كان يجيب بكلمات مقتضبة . وكان لسان حاله يقول : دعوني بسلام .

وعندما عاد المقرر ليعلن لهم ان عليهم أن ينتقلوا الى قاعة المحاكمات ارتاع (نيكليندوف) كما لو كانوا يدعونه ليحاكم وليس ليكون حاكماً . لقد كان في قرارة نفسه عالماً بضمته ، وأنه غير خليف بالظهور بين الناس . ومع ذلك فانه عندما عاد أخذ مكانه في الصف الأول بين المحلفين ، ووضع رجلاً فوق أخرى وأخذ يلعب نظاراته .

وجيء بالمتهمين من جديد .

كان في القاعة أشخاص جدد ، علم (نيكليندوف) فيما بعد انهم الشهود . ولاحظ ان (ماسلوف) لم تكن ترفع نظرها عن سيدة بدينة كانت تجلس في الصف الأول ، وترتدي ثياباً زاهية اللون ، وتجعل شعرها شريطة عريضة . فعلم انها كانت صاحبة المثل الذي كانت (ماسلوف) تعمل فيه .

وبأشر الرئيس استجواب الشهود ، مبتدئاً بالأسئلة التقليدية التي يفرضها القانون . ثم جاء الكاهن الذي كان يحرق قدميه جراً ، وابتدأ يحلف الجبراء والشهود اليمين القانونية بالهدوء والارتياح المعهودين . ثم غادر الجميع القاعة ما عدا (روسا) صاحبة المثل .

وعندما طلب اليها الرئيس الادلاء بما تعلمه عن الحادث الذي يعرض أمام المحكمة أجابت هذه بصوت عذب رخم ، ولهجة المانية شارحة تفاصيل القضية على الوجه التالي وهي تمط عنقها وتحرك رأسها .

لقد جاء (سيمون) ومعه عامل الفندق ليصطحب معه (ليوبكا) . وبعد

ساعات عادت هذه الى المحل يرافقه التاجر الذي كان في حالة « شبه غيبوبة » .
(شددت (روسا) على هذه الكلمات) ثم أضافت تقول :
وفي المحل عاد الى معاقرة الحمر ، ولما نقدت الدراهم التي كان يحملها فقد بعث
الى الفندق بتلك الفتاة التي كانت « المفضلة لديه » . وهنا أشارت الى
(ماسلوف) .

فحسب الأمير ان هذه تبتسم . فبدت له ابتسامتها كرية ، وأحسن بشعور
غامض شاذ هو مزيج من الإشمئزاز والرحمة .
— ما هو رأيك في (ماسلوف) ؟ سألها محامي الفتاة وقد احمر وجهه خجلاً ،
لأنه كان يقف هذا الموقف للمرة الأولى .

— رأيي فيها حسن جداً . هي فتاة متعلمة أنيقة (شيك) وقد تربت في
بيت عائلة شريفة ، تحسن قراءة اللغة الفرنسية . وقد تسرف أحياناً في شرب
الحمر ، ولكنني لم أرها قط سكرانة . هي بحق فتاة طيبة .

كانت (كاترين) ما زالت تنتظر الى الشاهدة ، ثم حولت نظرها الى
المحلفين ، ثم عادت فحدقت بنظرها بالأمير (نيكليندوف) وانقلبت أسارير
وجهها متجهمه قاسية . وكان هو ينظر الى تينك العيين الدعجاوين ، الحولاوين ،
والنظرات المتوقدة البراقة ، فلا يقوى على رفع نظره عنها على الرغم من الرعب
الذي كان يحسه . لقد تذكرت تلك الليلة المشثومة ، والضباب والجليد الذي
كان يتكسر ، ثم ذلك البصيص من نور القمر الذي شهد مشهداً مرعباً . كل ذلك
يطالعه الآن واضعاً من خلال تينك العيين الدعجاوين اللتين كانتا تنقلان بينه
وبين ما حوله .

— لقد عرفتي . — كان يقول في نفسه . وحشر نفسه في مقعده وطأطأ رأسه
كمن يتوقع ضربة . وصعد زفرة ثم قال في سره : لبت هذه المحاكمة تنتهي الآن .
كان يحس نفس احساس الصياد الذي يضطر الى الاجهاز على عصفور جريح
فيحرك في نفسه الشفقة والمروية ، وهو يتململ في الأرض . كان يود أن ينتهي
قريباً لينسى .

كان الأمير (نيكليندوف) يشتهي ان ترفع الجلسة بأسرع ما يستطيع ليخلو لنفسه ، ولكنها استطالت خلافاً لما كان يرجوه ، وهذا ما كان يبعث اليأس في نفسه . ودعى الرئيس المحلفين الى معاينة الأدلة الثبوتية ، وكافا عبارة عن خاتم كبير ومصفاة اكتشف السم بواسطتها ، وذلك بعد ان فرغ من استجواب الشهود وضبط افاداتهم ، وبعد الاطلاع على تقرير الطبيب المشرح ، وبعد عدة أسئلة القاها وكيل النيابة ليظهر اهتمامه الشديد .

وقبل أن يبدأ المحلفون بفحص الدليلين طلب وكيل النيابة ان يتلى أولاً تقرير الطبيب الذي قام بتشريح الجثة . فلم يجرؤ الرئيس على رفض هذا الطلب مع علمه بأن من شأن هذه التلاوة خلق مضايقات له ولغيره اذ يؤخر نهاية الجلسة ويبعد موعد الطعام . فوقف المقرر وبدأ يتلو بصوت رتيب صحيفة اخرجها من اضبارة الدعوى .

كانت نتيجة الفحص الخارجي على الجثمان كما يلي :

١ - طول (سميلكوف) متر واحد وستة وتسعون سنتيمتراً - ياله من عملاق . - مسم التاجر في اذن (نيكليندوف) .

٢ - يجب ان يكون العمر في حدود الأربعين تقريباً بدليل شكله .

٣ - كان الجثمان منتفخاً .

٤ - لون الجلد مائل الى الخضرة ، مع نقط سوداء .

٥ - البشرة تعلوها دمامل متعددة ومن مختلف الاحجام وفي بعض المواضع فقت وتدلّت شرائح .

٦ - الشعر أسود وكثيف ، ويسقط بمجرد مسه .

٧ - العينان في غير مدارهما ، وقد فقت حدقتاهما .

٨ - يخرج قيح من الفم المفتوح ومن الأنف والأذنين .

٩ - الرقية يسترها ورم الوجه والصدر .

وهكذا يمضي التقرير مفصلاً في سبعة وعشرين بنداً حالة الجثة المهترئة التي

زادها الورم ضخامة ، والتي جاء صاحبها التاجر الى العاصمة للاستمتاع بحياته .
وكان كلما أوغل المقرر في تلاوة التقرير يزداد شعور الأشياء الشديد عند
(نيكليندوف) .

لقد تراءى له ان سائر ما لاقته (كاترين) في حياتها ، وان ذلك النجيع
النازف من الأنف وغيره ، والعينين اللتين خارج مدارهما ، وسائر التفاصيل
الواردة في التقرير الطبي التي تقشعر لها الابدان ، لقد تراءى له آنئذ ان كل ذلك
كان من فعله . وأحس انه يكاد يختنق .

وتنفس الرئيس الصعداء ارتياحاً ورفع رأسه عندما فرغ المقرر من تلاوة
تقرير الكشف الخارجي على الجسم ، وحسب ان في ذلك ما يكفي لاشباع
رغبات وكيل النيابة. غير ان المقرر ما عثم أن أخذ يتلو تقرير الكشف الداخلي
على الجثة . فأطرق الرئيس برأسه الى الأرض وأسند خده على راحة كفه
وأغض عينيه وكان التاجر الذي يجلس بجانب الأمير يصارع النعاس ويدفعه
عن نفسه بمجهود كبير . وما برح المتهمون والحراس جامدين لا يبدون حراكاً .
كان الكشف الطبي الداخلي كما يلي :

- ١ - كانت الجلدة التي تكسو الجمجمة تنسلخ بسهولة .
- ٢ - كانت عظام الجمجمة بحجم غير عادي ولم تمس .
- ٣ - كان على الغشاء المغلف للدماغ الذي كان بلون وردي باهت ، نقطتان
صغيرتان .

ومضى التقرير على مثل ذلك الى أن أورد ثلاثة عشر بنداً .
وجاءت بعد ذلك تلاوة اسماء الشهود الحاضرين ، وأخذ التواقيع ، وتلاوة
خلاصة تقرير الطبيب التي كانت تفيد ان حالة البطن والكلى والأمعاء غير
العادية ، التي أظهرها التشريح تؤكد تأكيداً شديداً ان موت (سميلكوف)
نتج عن تجرعه سمّاً ممزوجاً بالحرر . لم يتوصل لتعيين نوع السم ، ولكنه يؤكد
أنه تجرعه مع الحرر .

- يا لهذا الرجل من برميل . - قال التاجر وقد استفاق من نومه .

ظل المقرر ساعة كاملة يتلو التقارير ، ويبدو أن هذا لم يكف و كبل النيابة ، فقد قال له الرئيس ، بعدما فرغ المقرر من تلاوة هذه التقارير :

— اعتقد ان لا فائدة من تلاوة تقرير الطبيب عن تشريح الأمعاء .

— أنا أعتقد العكس . وأراها واجبة . — أجاب الوكيل بلهجة حازمة ليدلل على رفضه التفريط بأي من أصول المحاكمات لأن اغفال هذه التلاوة يصلح سبباً لتمييز الدعوى .

فقال القاضي صاحب اللحية والنظرات الوادعة الذي يشكو من مرض الأمعاء ، وقد شعر بانحطاط قواه .

— لست أدري الى ما يقودنا كل هذا .

ولم يقل شيئاً القاضي ذو النظارات الا أنه كان عابس الوجه ، لعله كان لا يتوقع أي شيء حسن من زوجته ومن مستقبله .

وبدئ بتلاوة التقرير . وهذا بعض ما جاء فيه :

« في الخامس عشر من شهر شباط عام ١٨٠٠ أنا الموقع ذيلاً تلقيت أمراً من الفرع الطبي رقم (٦٣٨) — بدأ المقرر التلاوة بصوت عال دفعا للنعاس الذي كان مستولياً على الجميع — فأجريت الفحص على أمعاء الجثمان بحضور مساعد المفتش الطبي ، بالطريقة التالية :

١ — الرئة اليمنى والقلب في اناء من الزجاج (٢٥٤٠) كيلوغرام .

٢ — عصارة البطن في اناء بلوري (٢٥٤٠) كيلوغرام .

٣ — البطن في اناء بلوري (٢٥٤٠) كيلوغرام .

٤ — الكبد والكلى والطحال في اناء بلوري (١٥٢٠) كيلوغرام .

٥ — الأمعاء في اناء فخاري (٢٥٤٠) كيلوغرام .

وهنا قاطع الرئيس المقرر بعد أن تشاور مع زميله فقال :

— المحكمة ترى الا لزوم لتلاوة هذا التقرير .

فأمسك المقرر وسجل و كبل النيابة ملاحظته بسرعة .

ثم أضاف الرئيس قائلاً : يرجى من حضرات المحلفين معاينة الأدلة .

فتقدم رئيس المحلفين وآخرون غيره من الطاولة حائرين لا يدرون أين يضمون أيديهم ، وجرب التاجر الحاتم باصبعه .
- يا للشيطان ، ما هذه الأصبع . - قال وهو عائد الى مكانه بعد أن وضع الحاتم حيث كان ، وراقه ان يتصور المتوفي عملاقاً .

٢١

على هذه الصورة جرت معاناة الأدلة المعروضة أمام المحكمة . وأعلن الرئيس انتهاء الاستجوابات ، ظناً منه انه بهذه الصورة يستطيع تأجيل الجلسة مبكراً ، وأعطى الكلمة الى ممثل النيابة دون أن يترك له فترة استراحة ، ودون أن يأخذ بعين الاعتبار اذا كان هذا الموظف يحتاج للطعام والشراب والتدخين اسوة بغيره من أبناء الغناء . إلا أن ممثل النيابة لم تأخذه شفقة على غيره ولا على نفسه . كان هذا بليداً بطبعه ، ومن سوء طالع له أحرز وساماً من الذهب في المهد ، وحصل على جائزة في الجامعة على اطروحته « الرق في القانون الروماني » ، مما زاده غروراً بنفسه واعتداداً بها ، بالاضافة الى كونه محظوظاً من النساء . وعندما أعطي حق الكلام وقف على مهل ، مدلاً بقوامه الجميل ، وأجال نظره في القاعة وهو يطأطأ رأسه ، وبدأ الكلام متوخياً الا ينظر الى المتهمين . قال :
- سادتي المحلفين . ان الحادثة التي نضعها أمامكم لتروا رأيكم فيها . - كان قد أعد هذا الخطاب حينما كان المقرر يتلو التقارير - هي جريمة لها مميزاتها . اذا جاز هذا التعبير .

كان من رأيه أن ممثل النيابة العامة يجب ان يتوسع في ابداء مطالعته ، وان يجعل لهذه مفهوماً عاماً لتكون شبيهة بدفوع المحامين ذوي الشهرة الواسعة . صحيح ان النظارة كانت مؤلفة من حوذي وثلاث نسوة ، احدها من خياطة والأخرى طاهية والثالثة كانت اخت (سيمون) . ولكن هذا كان ذا أهمية ضئيلة ، فقد كانت تلك بداية سائر المحامين . والنائب العام يجب ان يكون على مستوى مهمته ، بمعنى انه يجب عليه أن يتعمق في دراسة (بيسيكولوجية) الجريمة ، وان يبرز الادواء التي تنخر كيان المجتمع .

— سادتي المحلفين . نحن الآن أمام جرم خاص بأواخر القرن الحالي . جريمة تحمل في ثناياها نواة الانحلال الخلقي الذي ذرقه ، والذي من ضحاياه حالياً بعض افراد المجتمع الذي تشاهدونهم الآن على هذه المقاعد ...

لقد اسهب ممثل النيابة في مطالعته محاولاً شرح الوقائع والتفاصيل التي جمعها ولم يتوقف عن الكلام خلال خمسة أرباع الساعة ، سوى فترة قصيرة حيث استرد انفاسه ولكنه عوضها بسيل دافق من الكلام . كانت لهجته عطوفة أحياناً ، وأحياناً أخرى كانت رزينة هادئة ، ولكنه كان لا يلبث ان يملو صوته وتصبح لهجته ونبرات صوته مهددة متوعدة الا أنه لم ينظر ولو مرة واحدة الى المتهمين ، الذين كانوا يكادون يلتهمونه بعيونهم .

لقد كان في مطالعته كل ما كان المجتمع يعتبره كلمة العلم العليا . لقد أتى على ذكر الوراثة وبحشها ، وللجريمة المتأصلة وجاء على ذكر (لومبردسو) و (تارد) والتطور ، وتنازع البقاء والتنويم المغناطيسي ، والإيحاء (وشاركو) وفساد الجنس ، وكان من رأيه ان (سميلكوف) مثال الروسي البدائي مجسداً . وقد أوقعه كرمه وطيب عنصره فريسة في حبال جماعة من فاسدي الأخلاق بطبعهم فذهب ضحيتهم . كذلك كان يرى ان (سيمون كيرتسكين) حصيلة جيل متلبد بفعل أجيال من العبودية ويكاد يكون ممجياً وجاهلاً وخلواً من الحس المعنوي . وحتى أنه لا يدين بدين . وكان يرى أن (اوفيميا) الخلية الخليفة به وضحية الوراثة التي تتجمع في شخصها سائر الخصائص المميزة للانحلال الخلقي . وكان من رأيه ان مسبب كل هذا كانت (ماسلوف) خلاصة الانحطاط الخلقي البالغ الذروة .

— هذه — صاح يقول دون أن ينظر اليها — هذه أيها السادة ، قد أحرزت . قسطاً من العلم لا يقتصر على مجرد القراءة والكتابة ولكنها تعرف الفرنسية . هي يتيمة ، ولعل بذور الجريمة متأصلة في قرارة نفسها منذ ولادتها . لقد نشأت في احضان عائلة مثقفة ونبيلة وكان في مقدورها أن تحيا حياة شريفة من عملها . ولكنها بدلاً من ذلك هجرت من أحسن اليها لتتغص في حمأة الشهوات التي من

أجل الوصول اليها دخلت احد المحلات العمومية . كانت تستغل العلم الذي تعلمته للتأثير بالطريقة الغامضة التي كشف العلم عن حقيقتها بلسان (شاركو) والتي عرفت بكلمة ايجاء . وهذه الطريقة استطاعت أن تستحوذ على تفكير وصداقة (سميلكوف) الروسي الطيب ، والرجل الكريم الذي أولاها ثقته فنهبتة أولاً ثم قتلته قتلة بشعة آخر الأمر .

— أظنه يشتط قليلاً . — قال الرئيس للقاضي ذي النظارات .

— بلى هو أهوج . — أجاب الآخر .

— سادتي الحلفين ، بين أيديكم الآن مقدرات هؤلاء الثلاثة . كذلك بين أيديكم ، لخدماء ، مقدرات ومستقبل هذا المجتمع الذي اختاركم لتكونوا مثلاً رائعاً في مقرراتكم ، فتعمقوا في دراسة الجريمة ، والخطر الراهن الذي يشكله للمجتمع هؤلاء الموبوءون ، لكي تحولوا دون تسرب عدوهم اليه ، وتكفوه غائلة ضرورهم .

ثم جلس ممثل النيابة في مقعده مرتاح النفس لمطالعة دون شك كمن ارهقته أهمية القرار الذي ينبغي ان يتخذ .

ثم قال بعد ذلك باختصار متخلياً عن براعته الخطابية ان (كاترين) نومت التاجر تنويعاً مغناطيسياً ولذا منحها ثقة عمياء وعندما بحث بها الى الفندق لتحضر له بعض الدراهم ، صممت على الحصول على سائر ما كان في الحقيبة من المال . ولما فوجئت بوجود (سيمون) و (اوفيميا) رأت نفسها مجبرة على اقتسام المال معها . وعندما عادت الى الفندق بصحبة التاجر الغريب قتلته لتغطي جريمتها . وهنا وقف بين صفوف المحامين رجل متوسط العمر يرتدي بدلة (فراك) وقبصاً منشأ الصدر . كان ذاك محامي (سيمون) و (اوفيميا) الذي تقاضاهما ثلاثئة روبل ، فألقى دفاعاً بارعاً كل البراعة بررفيه ساحة موكلية ، وألقى التبعة على عاتق (ماسلوكا) . وأشار الى قول الفتاة واعترافها بوضعها السم قاتلاً انه لا يمكن ان يصدق ان (سيمون) و (اوفيميا) كانا حاضرين عندما فتحت الحقيبة ، وانه لا مجال للشك بأن الألف وثمانئة روبل المودعة في المصرف كانت

حصيلة اتعاب ذينك الشخصين الطيبين اللذين غالباً ما يحصلان على هبات يومية تبلغ الخمس روبلات . أما فيما يتعلق بمال التاجر ، فقال ان (ماسلوف) سرقته وأودعته عند بعض الناس ، أو لعلها اضاعته بالنظر لحالة عدم الوعي التام التي كانت عليها . كذلك السم فان (ماسلوف) هي وحدها المسؤولة عنه ، ولذا يطلب الى المهلين الاعتراف ببراءة موكله من جريمة السرقة ، وان لا يقروا تدخلها بوضع السم ، ونفى وجود سبق التصور والتصميم عندهما . ودخضاً لما أورده ممثل النيابة من الحجج ، قال في خطابه ان نظرية الوراثة نظرية علمية صحيحة ، ولكنها لا يمكن تطبيقها بحال من الأحوال على (بوتشكوف) لأنها مجهولة الأب والأم .

وعندما سمع ممثل النيابة هذا القول زوى ما بين عينيه وهز كتفيه باستخفاف شديد .

وجاء دور محامي (ماسلوف) الذي القى دفاعه خجلاً ، متردداً فلم ينكر اشتراك الفتاة في السرقة ، وقال انها اذا كانت قد وضعت المسحوق في الخمر فقد فعلت ذلك لكي تنمي الرجل . وأخيراً عمد الى اثارة شعور القضاة ليباهي ببلاغته وفصاحته فقال ان (ماسلوف) قد اكرهت على احتراف البغاء بسبب جريمة رجل ظل طليقاً لا تطاله يد العدالة ، في حين تقاسي هي مغبة جريمته . غير ان هذه الالتفاتة التي أريد لها ان تؤثر على احساس القضاة لم يكتب لها النجاح ، لأنها اعتبرت من قبل المحكمة خروجاً عن الموضوع ، وطلب اليه الرئيس التقيد بنقاط الدفاع .

ولما فرغ محامو الدفاع من القاء دفوعهم وقف ممثل النيابة من جديد ، كي يدلل على ما في مطالعته من طيبة فأكد انه لا يكفي ان تكون (بوتشكوف) بمجهولة الأبوين كي تنكر تائسير قانون الوراثة وانما وراثة الجريمة أيضاً . وفيما يتعلق بالرجل المزعوم - ولفظ هذه العبارة بلهجة جارحة - الذي يزعمون انه اغوى (ماسلوف) فقد أكد ممثل النيابة انها هي الغاوية ، وانها سببت كثيراً من الضحايا .

قال ذلك وجلس جلوس الظافر ، وعندئذ سأل الرئيس المتهمين اذا كان لديهم ما يضيفونه دفاعاً عن أنفسهم فأكدت (بوتشكوف) جهلها بكل شيء ، ملقبة تبعته على عاتق (ماسلوف) وغمغم (سيمون) مردداً قوله : ماذا تريدون ؟ ؟ ... أنا لست مذنباً ... هذا ظلم ... أما (ماسلوف) فلم تحر جواباً . وعندما أعاد الرئيس السؤال عليها لتدافع عن نفسها ، أجالت فيما حولها نظرة أشبه بنظرة الحيوان البريء المطارد الذي علق بالشرك ثم خفضت رأسها وأقبلت تبكي وتشقى في بكائها .

— ما الذي دهاك ؟ — قال التاجر يسأل وقد التفت الى مصدر البكاء فاذا به الأمير الذي كان جالساً بجانبه والذي كان يحاول امساك نفسه عن البكاء . لم يكن (نيكليندوف) قد أدرك بعد خطورة وضعيته المعنوية . وعزا بكاءه والدموع التي كانت تتسابق للانهار من عينيه لتتهيج عصبي أصابه . وكان يرفع نظاراته عن عينيه عدة مرات ثم يعود فيضعها من جديد . كان الذعر من الفضيحة التي سيلاقها لا محالة عندما يطلع الجميع على ماضيه الأسود ، يطغى على الشعور الطيب النبيل الذي بدأ ينمو في داخله ، وكان الخوف من اللحظة الحاضرة يسيطر عليه أكثر من أي شعور آخر .

٢٢

عندما ألقى المتهمون آخر كلمة في الدفاع عن أنفسهم ، تحدث الرئيس مطولاً مع زميليه حول نوعية الأسئلة التي ستوضع أمام المحلفين لمناقشتها والإجابة عليها ، ثم مضى يتابع الاجراءات المعتادة .

وعلى الرغم من كونه شديد الرغبة في فض الجلسة بأسرع ما يستطيع ، وعلى الرغم من علمه بأن المدرسة الفرنسية كانت تنتظره في الفندق فقد كان من عادته أنه إذا ما تكلم فمن العسير عليه أن يتوقف . كان يريد إقناع المحلفين بأنهم إذا ما رأوا المتهمين مذنبين فعليهم أن يصرحوا بذلك ، وإذا كان العكس فعليهم أن يعلنوا براءتهم . كذلك قد يتأتى أن يروم مذنبين في أمر وأبرياء من آخر ففي هذه الحالة يجب أن يأتي قرارهم مطابقاً لاقتناعهم .

كذلك أوضح لهم أنه يجب عليهم استعمال حقهم بعبادة وحكمة . وود لو يوضح لهم أنهم إذا ما أجابوا على أحد الأسئلة بالإيجاب فإن ذلك يعني موافقتهم على سائر ما ورد في السؤال ، ولذا يجب عليهم إيضاح كل ما لا يقرونه . غير أنه عندما نظر في ساعته ورأى أنه لم يبق سوى خمس دقائق لتصبح الساعة الثالثة قرر الانتقال الى عرض وقائع الدعوى .

— ان النتائج المستخلصة من الوقائع هي كما يلي : — ثم اخذ يتلو وقائع الدعوى كما مر بنا .

كان القضاة ينصتون متجهمي الوجوه . كانوا بلا شك ، يرون ذلك الخطاب صالحاً وملائماً للظروف ومنطقياً على كافة الأنظمة والأصول ، ولكنهم كانوا يرونه طويلاً ومملًا . وهكذا كان رأي ممثل النيابة وجميع من حضر .

كان المخلص رصيناً . غير أن الرئيس رأى من الضروري إضافة بعض العبارات حول حقوق المحلفين ، فكرر طلبه إليهم باستعمال حقهم بحكمة وانتباه واتزان .

— سادتي المحلفين . لقد أقسمتم اليمين ، وأنتم ضمير المجتمع ، فتذكروا ذلك ، ولا تنسوا الاحتفاظ بسرية قاعة المذاكرة .

منذ اللحظة الأولى التي بدأ الرئيس الكلام فيها لم تفارقه نظرات (ماسلوا) ، وظلت شاخصة بأبصارها اليه كأنها كانت تحاذر أن تفوتها كلمة من كلماته ، وهكذا استطاع الأمير مراقبتها دون أن تأبه له . لقد حدث له آنئذ ما يحدث لأولئك الذين يمعنون النظر في وجه شخص حبيب لديهم لم يروه منذ أعوام ، إذ تبدو أمامهم للوهلة الأولى سائر التبدلات التي طرأت عليه خلال فترة الغياب ، ثم لا يلبثون أن يعودوا تدريجياً فيرونه كما كان منذ أعوام خلت ، وتختفي التغيرات ، وتنجلي أمام أعين البصيرة الطابع الخاص المميز لكل شخص . بلى . لقد كانت هي بعينها .

وعلى رغم ثوب السجينات الذي كانت ترتديه ، وعلى رغم بدانتها وتضخم أسفل وجهها ، والغضون التي بدأت تظهر في جبينها وصفحتي وجهها ، وتورم

عينها ، على رغم كل ذلك فقد كانت هي بعينها ، (كاترين) التي أحبها ليسة
عيد الفصح ، وأحبها ببراءة وطهارة . أحب عينها المليئين بالحب الطافحتين
بالحياة الباسمتين سروراً .

— أكان من الضروري أن تنظر هذه الدعوى أمام الهيئة التي أنا عضو فيها ،
وأن أراها في مقعد المتهمين بعد انقضاء عشرة أعوام على مفارقتي لها . وماذا
بعد ذلك ؟ ليت هذه المحاكمة تنتهي بسرعة .

لقد ثار (نيكليندوف) على ما أحسه من ندم بات يثقل ضميره تدريجياً .
كان يقول في نفسه ان كل ما يراه أمامه لم يكن سوى محض مصادفة ، وأنه
سوف لن يخلف وراءه ما قد يؤثر على حياته . كان يحس احساس الكلب الذي
أفرغ فضلاته في غرفة وأخذ صاحبه يمرغ أنفه في تلك الفضلات ، فشرع الكلب
يتخبط بين يديه محاولاً الإفلات منه والهرب . ولكن صاحبه الذي لا يرحم
يأبى إفلاته .

كان قد أدرك مدى حقارة ماضيه ، وأحس بثقل يد صاحبه عليه .
ولكنه لم يكن قد تبين مدى الضرر الذي سببه . لم يكن يتصور ان شيئاً ما
يمكن أن يؤثر على معنوياته . ولم يصدق ان تلك السلسلة من المآسي التي يشهدها
الآن كانت كلها من صنع يده .

كان يجلس في الصف الأول بين الحلفين ، يلعب نظاراته بيده مظهرأ
اللامبالاة ، ولكنه في قرارة نفسه ، كان شاعراً بضعته لا لفعلته هذه فحسب ،
وإنما لحياته كلها الحافلة بالبطالة ، والفسق ، والقسوة . وهكذا أخذت تنزاح
تلك العصابة التي أخفت عن عينيهِ طيلة عشر سنوات تلك الجريمة وتلك الحياة .
وها هي ذي الأشياء قد أخذت تتكشف أمام ناظريه ، وأخذ هو ينظر برعب
شديد الى الهاوية التي سيتردى فيها .

٢٣

عندما أنهى الرئيس خطابه الطويل الرتيب ، سلم زميله رئيس مجلس الحلفين
ملف الأوراق التي تحتوي على الأسئلة التي قررت المحكمة وضعها أمامهم

ليناقشوها . ثم هب الجميع وقوفاً فاراح لذلك المحلفون إذ أصبح بمقدورهم أن يتحركوا من أماكنهم ، وذهب هؤلاء الى قاعة كبيرة وقف على بابها ، فور دخولهم إليها ، حارس ينتضي سيفاً مسلولاً يضعه على كتفه ، وغادر القضاة المنصة وسحب المتهمون .

وجلس المحلفون على المقاعد الوثيرة ، وأشعلت لفائف التبغ ، وتوارى ذلك التحفظ المصطنع الذي كانوا يأخذون أنفسهم به ، ونشط الحديث بينهم .
— ليست الفتاة مجرمة . — قال التاجر برزانة . — لقد تورطت من حيث لا تشمر ويلبغي أن نكون متساهلين معها .
— هذا ما نحن مقدمون على بحثه — قال الرئيس — لا ينبغي أن ننساق مع انطباعاتنا .

— لقد أجاد الرئيس بتلخيصه . — قال الكورونيل .
— بلى . لقد كان رائعاً . وكاد يغلبني النوم .
— المهم هو ان الخادمين لم يكن في مقدورهما أن يعلما بوجود الدراهم لو لم تخبرهما (ماسلوا) بذلك — قال المستخدم اليهودي .
— إذن أنت ترى انها هي السارقة ؟
— كلا هذا مستحيل ، أنا لا أصدقه أبداً . — قال التاجر — كانت السارقة تلك المرأة الساقطة العمشاء العينين .

— نعم ، نعم . كلهم ملائكة — أجاب الكورونيل بتمهل مقصود .
— ولكنهم يؤكدون انها لم تدخل الغرفة ...
— وهل تصدقها ؟ أنا لا أصدق كلمة واحدة من كلمات هذه القدرة .
— كونك لا تصدقها لا يكفي . — قال المستخدم اليهودي مقاطعاً .
— لقد كان المفتاح معها ...
— وماذا يعني هذا ؟ — أجاب التاجر .
— والخاتم ؟
— لقد أعطاها إياه — صاح التاجر — كان (سميلكوف) سكيراً فضربها ،

ثم أخذته الشفقة عليها فقال لها خذي هذا ولا تبكي . تصور رجلاً طوله (١٩٦) سنتراً ووزنه (١٢٨) كيلو غراماً .

— ليس هذا موضوع البحث — قال (بطرس جبراسيموف) — ان عقدة العقدهي في التأكد مما اذا كانت هي التي تصورت وصممت على دس السم له ، أم كان الخادمان هما الفاعلان .

— لم يكن بإمكان الخادمين القيام بذلك وحدهما . إذ كان المفتاح معها . وتطاول أمد هذه التساؤلات والتقديرات .

— اممحوا لي يا سادة — قال الرئيس — لنجلس ولنتكلم . تفضلوا ثم جلس . — أنا أعرف هذه الطبقة من النساء — قال المستخدم اليهودي ، ولكي يبرهن على صحة رأيه في مسئولية (ماسلوف) أورد حادثة سرقت فيها إحدى النساء من مثيلاتها ساعة صديق له من الريف . وأورد الكولونيل تأييداً لرأيه حادث سرقة أشد غرابية وهي سرقة (ساموفار) من الفضة .

— أيها السادة ، أرجوكم أن تظلموا على الأسئلة . — قال الرئيس وهو يضرب بالقلم الرصاص على الطاولة . وساد الصمت من جديد .

١ — المدعو (سيمون بتروفيتش كيرتينكين) القروي وعمره (٣٤) عاماً من (يوركي) منطقة (كرابيفو) المتهم بتسميم التاجر (سيلكوف) بتاريخ ١٧ كانون الثاني (١٨٠٠) في مدينة (ن) بقصد سرقة ، بالاشتراك مع بعض الأشخاص ، بوضعه السم في كأس كونياك مما سبب له الموت . والمتهم أيضاً بسرقة خاتم ماسي ومبلغ (٢٥٠٠) روبل هل هذه التهمة ثابتة عليه ؟

٢ — هل التهمة الواردة في السؤال الأول ثابتة على المرأة المدعوة (أوفيميا بوتشكوف) وعمرها (٤٣) عاماً ؟

٣ — هل التهمة الواردة في السؤال الأول ثابتة بحق المرأة المدعوة (كاترين ميكاييلوفنا ماسلوف) وعمرها (٢٧) عاماً ؟

٤ — إذا كانت المرأة المدعوة (أوفيميا ايفانوفنا بوتشكوف) غير ثابتة

عليها التهمة الواردة في السؤال الأول فهل ثابت عليها انها دخلت غرفة (سميلكوف) المذكور في فندق (ماوريتانيا) الذي تعمل فيه كوصيفة ، وانها فتحت حقيبته بفتاح جاءت به قصد سرقة ماله ؟
وقرأ رئيس المحلفين السؤال الأول ثم قال :

— ما رأيكم أيها السادة ؟

فأجاب الجميع بالموافقة سواء على وضع السم وسرقة المال ما عدا شيخ عجوز عمله نقل الرسائل الذي كان دائماً مياًلاً للحكم بالبراءة على الجميع ، فقد رأى هذا ان (كيرتينكين) غير مسؤول . فشرح له الرئيس السؤال من جديد ظناً منه انه لم يفهمه ، فلم يفد ذلك شيئاً وظل متمسكاً برأيه وقال :

— هل نحن قديسون ؟

وأجاب المحلفون على السؤال الثاني بتبرئة (بوتشكوف) من جرم التسميم . غير ان التاجر ارتأى انها هي المسؤولة عن كل شيء لأنه كان يريد تبرئة (ماسلوف) ولكن لما كان الرئيس راغباً في التقيد بأحكام القوانين فقد عمل على انجاح رأيه فكانت (بوتشكوف) غير مسؤولة عن التسميم .
وأجابوا على السؤال الرابع بالموافقة ، ولكنهم منحوها الأسباب التقديرية وطلبوا لها تخفيف العقوبة .

وأثار السؤال الثالث المتعلق (بماسلوف) نقاشاً حاداً ، وكان رأي رئيس مجلس المحلفين انها المسؤولة عن وضع السم له في الخمر ، وعن السرقة ، وخالفه التاجر والكولونيل وناقل الرسائل . اما الباقيون فظلوا مترددين . وظل رأي الرئيس هو الغالب مدة طويلة لأنهم كانوا قد تعبوا بأجمعهم ، ولأن كل شيء تم بالموافقة .

كان (نيكليندوف) مقتنعاً من براءة الفتاة ، ومن ان هذا كان اقتناع الجميع أيضاً . وعندما رأى أن التاجر كان غير موفق في دفاعه عنها ، ورأى تصلب الرئيس برأيه لمجرد معاكسة ذلك ، أدرك ان الفتاة ستجرم ، ولذا قرر التدخل في الدفاع عنها ولكن بحذر خوفاً من ان يكتشف رفاقه قسطه في

المسؤولية عن جريمة (ماسلوف) . ولكن (بطرس جيراسيموفيتش) كفاه مؤونة ذلك لاستيائه من لهجة الرئيس الآمرة .
- عفواً . أليس من الجائز والممكن أن يفتح خادما الفندق الحقيبة بفتح آخر بعد أن أقفلتها الفتاة ؟

- هذا ما أقوله أنا . - قال التاجر مؤيداً .
- انه لمن غير المنطق ان تكون الفتاة قد أخذت المال ، إذ كيف وفي أي شيء ستنفقه وهي في مثل وضعيتها المعروفة ؟
- هذا هو . - قال التاجر .

- قد يكون أكثر احتمالاً ان يوجد ذهابها الى الفندق فكرة السرقة عند الخادمين الذين حملها جريمتها .

كان (جيراسيموفيتش) محتدأ ، وكذلك كان الرئيس عند دفاعه عن وجهة نظره ، غير ان الأول كان أكثر توفيقاً في اقناع الحلفين ، وهكذا وافق الجميع على براءة (ماسلوف) من جرم السرقة ، ثم انتقلوا لمناقشة تدخلها بوضع السم .

ورأى التاجر محامي (ماسلوف) المتحمس انها بريئة مما نسب اليها ، إذ ليس لديها ما يوجب وضع السم ، ولكن الرئيس أجابه ان من المستحيل اقرار هذا القول ، ما دامت هي قد اعترفت بوضعها مسحوقاً في الخمر الذي شربه المتوفي .

- صحيح انها اعترفت بوضع المسحوق ولكن على اعتباره مخدراً ، أي أفيون .

- قد يسمى بالافيون . - قال الكولونيل الذي كان يظهر انه يجد لذة في تحويل مجرى البحث .

وقص حادثة زوجة أحد أقاربه التي تسمت بالأفيون ولولا عناية بعض الأطباء الأذكياء ، واسعافه اياها لكان الموت سبيلها الحق . وكان يتكلم بلهجة فيها من السلطة والافئاع ما جعل الباقيين يتهيئون الرد عليه . ورأى

المستخدم ، وقد شجعه ما كان من نجاح تلك القصة أن يقاطعه ليبتكر قصة مشابهة .

— هناك الكثيرون ممن أدمنوا الأفيون يستطيع أحدهم أن يجرع أربعين نقطة دفعة واحدة . فمثلا ان أحد أبناء عمي ...

غير أن الكولونيل لم يتوقف عن الكلام ، وظل مواصلا تعداد النتائج الوخيمة التي جرها الأفيون على زوجة قريبه .

— لقد أوشكت أن تصبح الساعة الخامسة تقريبا . — قال أحد المحلفين .

— هكذا إذن أيها السادة فلنعتبرها مسؤولة ولكن بدون قصد السرقة .

وهذا يعني انها لم تسرق المال ، هل أنتم موافقون ؟

فوافق (بطرس جبراسيموفيتش) مسرورا لنجاح رأيه .

— تستحق الأسباب المخففة — أضاف التاجر .

كانوا جميعهم متفقين ما عدا ناقل الرسائل الذي أصر قائلا :

— كلا . كلا . ليست مسؤولة .

— هذا الذي قلناه — قال الرئيس موضحا — بدون قصد السرقة ، يعني

انها غير مسؤولة .

— حسن . فلنضع الأسباب المخففة وينتهي كل شيء على ما يرام . — قال

التاجر مسرورا .

وكان التعب قد أخذ منهم مأخذا كبيرا ، وكانت المناقشات الحادة التي

اشتركوا فيها قد سببت لهم الشيء الكثير من اضطراب الفكر بحيث لم يخطر

على بال أحد منهم أن يضيف الى القرار الفقرة التالية : « بلى وانما بغير قصد

القتل » . حتى (نيكليندوف) لم يفتن لذلك لاضطراب حالته النفسية إذ

ذلك .

وحملت الأجوبة الى المحكمة على هذه الصورة .

لقد قص علينا (ريبيلي) ان بعض المتداعين رفعوا الى أحد القضاة دعواهم

ليفصل فيها ، ولكن القاضي بعد أن راجع كافة المصادر القانونية ، وقرأ أكثر

من عشرين صحيفة من التشريع الروماني ولكن بدون جدوى ، عندئذ قرر اللجوء الى عملية (المفرد والمزدوج) وذلك بأن يطرح في الهواء ما يسمى زهر النرد فاذا جاء مجموع الاثنين رقماً مزدوجاً كان معنى ذلك أن الحق بجانب المدعي وينبغي ان تحكم المحكمة لصالحه ، وإذا كان العكس فبالعكس .

ولو ان المحلفين لجأوا لهذه الطريقة دون غيرها ، اذن لما اتخذ القرار بالاجماع . غير ان الرئيس كان شديد الرغبة في فض الجلسة للحاق بصديقه الفرنسية التي كانت تنتظره في الفندق فحالت عجلته دون أن يلفت انتباه المحلفين الى ان من حقهم اضافة العبارة التالية الى جوابهم : « بلى ، ولكن بغير قصد القتل » . وفضلاً عن ذلك فان حضرة الكولونيل كان قد أضجر الجميع وأملهم بقصته التي لا نهاية لها من زوجة قريبه . كذلك لم يفتن (نيكليندوف) ، لاضطراب أفكاره ، ان يذكر زملاءه بمأساة رئيسهم . وكان (بطرس جيرا سيموفيتش) قد غادر القاعة عندما بدأ الرئيس يتلو الاسئلة وأجوبتها . غير أن السبب الحقيقي لذلك الخطأ كان التعب الذي استولى على الجميع ، وحلهم على استعجال الوصول الى اتفاق بخلي سبلهم بسلام .

وقرع الجرس في غرفة مذاكرة المحلفين فأغمد الحارس ، الذي كان يحرس الباب سيفه وتنحى جانباً ، فعاد القضاة الى المنصة ، ودخل المحلفون القاعة فراداً ، وكان الرئيس يحمل في يده نسخة عن الأجوبة فقدمها لرئيس المحكمة ، فبدرت منه حركة استغراب لدى اطلاعه عليها ، ثم أخذ يتحدث الى زملائه . لقد كانت غباوة من المحلفين أن يستدركوا للحادثة الأولى فيقولون « بدون قصد السرقة » وألا يستدركوا للحادثة الثانية فيقولون « بدون قصد القتل » فكانت النتيجة انهم نفوا قصد السرقة عن (ماسلوف) ولكنهم أدانوها بقتل رجل بغير حق .

— أنظروا أي فظاعة اقترفوها — قال وقد توجه الى القاضي الذي كان على يساره — سيكون الحكم بالأشغال الشاقة مع أن الفتاة بريئة .
— كلا ليست بريئة — قال القاضي ذو النظارات .

— أكرر أنها بريئة . وأعتقد أن من الواجب الأخذ بأحكام المادة (٨١٧) التي تنص أنه « إذا رأى القضاة قرار المحلفين جائراً فبوسعهم إلغائه » فما هو رأيك ؟ — قال للقاضي الذي على يمينه .

ولكن هذا لم يجب على الفور إلا أنه نظر الى رقم الاضارة التي كانت مواجهة له ، وأخذ يحري في ذهنه عملية قسمة . كان قد قرر أنه إذا كان العدد قابلاً للقسمة على ثلاثة دون أن يدع كسوراً ، فمن الواجب أن يجيب بالموافقة . ومع أن الرقم لم يكن قابلاً للقسمة على ثلاثة فقد وافق على رأي الرئيس ، لما فيه من طيبة .

— بلى هذا هو رأيي . .

— وما هو رأيك أنت ؟ — قال الرئيس يسأل القاضي المقرون الحاجبين .
— أرى ألا نلغي هذا القرار . — أجاب هذا بلهجة جازمة — لقد أكرت الصحف من التعليق على قرارات البراءة العديدة التي يصدرها مجلس المحلفين ، فما عساها تقول هذه الصحف اذا ما صدرت هذه القرارات عن المحكمة .
فنظر الرئيس الى ساعته فراها تكاد تبلغ الخامسة .

— آسف جداً . — قال . ثم أعاد الملف الى رئيس مجلس المحلفين وهنا وقف الجميع .

وسئل الرئيس ، ثم أخذ يراوح بين ساقيه وهو يتلو الأسئلة وأجوبتها . فدهش المقرر والمحامون ، وحتى ممثل النيابة لغرابة ذلك القرار ، ولم يبد أي شيء على المتهمين ، وربما كان ذلك لأنهم لم يفهموا مدلول الأجوبة .

وسر ممثل النيابة كثيراً لما أحرزه من نجاح غير متوقع ، وخصوصاً بالنسبة (لماسلوكا) ، وكان شديد الاقتناع بأن الفضل في نجاحه يعود لفصاحته وعندما أعطيت له الكلمة ألقى نظرة خاطفة على قانون الخبراء ثم وقف وقال :

— أطلب تطبيق أحكام المادة (١٤٥٢) والفقرة الرابعة من المادة (١٤٥٣) بحق (سيمون كيرتينكين) ، وتطبيق أحكام المادة (١٦٨٩) بحق (أوفيميا بوتشكوكا) وتطبيق أحكام المادة (١٤٥٤) بحق (كاترين ماسلوكا) ، وكانت تلك أقصى عقوبة يمكن الحكم بها .

مذاكرة . - قال الرئيس .
فهب الجميع وقوفاً ، وانصرفوا يتمشون في الأروقة مرتاحي النفوس كمن
أدى عملاً مجيداً .
- أتعلمون أننا افترقنا منكم ؟ - قال (بطرس جيراسيموفيتش) وهو
يدنو من (نيكليندوف) الذي كان الرئيس يشرح له شيئاً . - لقد حكمنا على
هذه المنكودة بالسجن .
- ماذا تقول ؟ - صاح به (نيكليندوف) دون أن يعير التفاتاً لوحدة
الحال البغيضة التي يظهرها نحوه .
- لا شك في ذلك - قال هذا - كان علينا أن نجيب على السؤال كما يلي .
« مذنب . ولكن بدون قصد القتل » . هكذا قال المقرر ، والآن يطلب ممثل
النيابة العامة الحكم عليها بالسجن خمسة عشر عاماً .
- هذا ما اتفق عليه الجميع - قال رئيس مجلس المحلفين .
وعلق (بطرس جيراسيموفيتش) قائلاً لقد كان من الواجب أن يقال : ما
دامت لم تسرق ، فانه لا يمكن أن يتكون لديها قصد القتل .
- ولكنني تلوت الأجوبة بصوت عال قبل كتابتها فلم يعترض أحد عليها
- قال الرئيس محتجاً .
- كنت آنئذ خارج القاعة فلم أتمكن من تفهم القرار - قال (بطرس
جيراسيموفيتش) - كيف سهوتم عن هذا ؟
- ما كنت لأتصور ذلك ... - قال (نيكليندوف) مبرراً موقفه .
- أنظروا ماذا فعلنا .
- لا يزال بالإمكان استدراك الخطأ .
- كلا . لقد سبق السيف العذل . كان يجب أن تلاحظوا ذلك قبل الآن .
فنظر (نيكليندوف) الى المتهمين أولئك الذين يتقرر مصيرهم فألقاهم هادئين
ساكنين يحرسهم الجنود . وكانت (ماسلوفا) تبسم من حين لآخر ، فأحس
بشعور سيء يولد في نفسه .

عندما كان (نيكليندوف) يتصور من قبل أن (ماسلوف) قد تبرأ ، وأنها قد تسكن المدينة ، وأن من الجائز والممكن أن يتلاقيا مصادفة ، فان هذه الفكرة كانت تسبب له جزعاً شديداً ، أما الآن فان السجن وسيبيريا كفيلا بتحطيم هذه الامكانية سينقطع العصفور المحتضر عما قريب عن الكد في سبيل الحياة ، وسينتهي كل شيء ، وسيسدل النسيان ستاراً كثيفاً والى الأبد على كل شيء حتى على ذكرى وجوده .

٢٤

لم تكن مخاوف (بطرس جيراسيموفيتش) غير واردة ، فها هو ذا الرئيس يصحبه القاضيان الآخران يخرجون من قاعة المذاكرة وأخذ يتلو الحكم في هلاء من اللهفة والتشوق . وكان هذا نص القرار :

« في عام (١٨٠٠) وفي (٢٨) نيسان ، وبناء على أوامر صاحب الجلالة ، فان القسم الجزائي من محكمة (ن) وبعد الاطلاع على مطالعة المحلفين ، ووفقاً لمنطوق الفقرة الثالثة من المادة (٧٧٥) من قانون الجزاء والمادتين (٧٧٦) و (٧٧٧) يقرر ما يلي :

« يحكم القروي (سيمون كيرتسكين) عمره ٣٤ عاماً ، والمواطنة (كاترين ماسلوف) وعمرها ٢٧ سنة بالأشغال الشاقة الأولى (سيمون) لمدة ثمانية أعوام ، والثانية (كاترين) لمدة أربع سنوات ، وبجرمان من كافة الحقوق المدنية ، ويجردان من سائر أملاكهما ، وسائر ما نص عليه قانون الخبراء عملاً بأحكام المادة (٢٥) من القانون المذكور .

« ويحكم على المواطنة المدعوة (أوفيميا بوتشكوف) عمرها ٤٣ عاماً ، بالسجن لمدة ثلاثة أعوام ، وتحرم من حقوقها المدنية وغير ذلك مما ينص عليه القانون وذلك عملاً بمنطوق المادة (١٩) من قانون الجزاء .

« توزع نفقات الدعوى بالتساوي بين المتهمين الثلاثة ، واذا عجز المتهمون عن وفائها فتحال على الخزينة .

« وفيما يتعلق بالأدلة الثبوتية ، فيعاد الخاتم وتتلص المصفاة » .

وفيا كان الرئيس يتساقط قرار المحكمة كان (كيرتنكين) واقفاً يحرك شفثيه باستمرار ، وكانت (بوتشكوف) يبدو عليها الهدوء والاطمئنان ، اما (ماسلوف) فانها لم تكذب تسمعه ينطق بالحكم حتى احتقن وجهها ، وصرخت بصوت حاد قوي كاد يصم آذان الحاضرين وقالت :

— أنا بريئة ، أنا بريئة . انكم تقتربون جريمة بحقي ... لم أقصد تسميته ، لم افكر قط بذلك ، واقسم عليه . اقسم . ثم سقطت على المقعد وهي تشق بالبكاء .

وعندما اقتاد الحراس المتهم (سيمون) والمتهمة (بوتشكوف) كانت (كاترين) لا تزال تشق بالبكاء غير آبهة لما يدور حولها ، مما اضطر احد الحراس لأن يشدها من كعها .

— يستحيل ان ينتهي كل شيء هكذا . — قال على الفور (نيكليندوف) بعد ان لاثى ذلك الشعور الأثافي الذي كان قد قام في نفسه .

ورغب في أن يرى الفتاة من جديد دون ان يعلم سبباً لذلك ، فخرج الى الرواق غير ملق بالآ لما قد يمكن أن يحره عليه بشرعه من تركيز الانتظار عليه . فأدركها ، ولكنه مشى أمامها بضع خطوات . كانت الفتاة قد كفت عن البكاء ، وكانت تسمح بمبدالها خديها اللذين كانت تبدو فيها نقط حمر ، وتهز كيانهما شهقة بكاء عنيفة من حين لآخر . وعندما مرت بجانبه لم تلتفت اليه ، وعندئذ عاد (نيكليندوف) ليواجه الرئيس فألفاه قد غادر المكان فتبعه الى الباب الخارجي .

— سيدي الرئيس . — قال له عندما كان هذا يلبس معطفه — هل تسمح لي بالقليل من وقتك لأتحدث اليك عن الدعوى التي حكمنا فيها منذ قليل ؟ أنا أحد المحلفين .

— لقد سبق ان تشرفت بمعرفتك ، فأنت هو الأمير (ديمتري إيفان نيكليندوف) ، يسرني أن أراك ، لقد التقينا عدة مرات ثم صافحه مذكراً إياه كيف وأين تلاقيا . — هل من خدمة استطيع قضاءها لك ؟

— لقد وقع خطأ في الجواب بالنسبة (لماسلوف) . هي بريئة وبالرغم من ذلك فقد حكم عليها بالأشغال الشاقة .

— كان حكم المحكمة بناء على مطالعة المحلفين التي لم تكن منسجمة أصلاً

مع الوقائع . — أجابه الرئيس دون أن يقف .

— حسن . ولكن ألا يوجد سبيل لإصلاح الخطأ ؟

— توجد على الدوام أسباب صالحة لتمييز الدعوى . فعليك باستشارة بعض

المحاميين .

— ولكن هذا الخطأ كبير جداً .

— لقد كان لقضية (ماسلوف) امكانيتان . — قال الرئيس متوخياً

مسايرة (نيكليندوف) .

فلم يجبه الأمير .

— هل أنت ذاهب في هذا الاتجاه ؟ — سأله الرئيس .

— بلى . — قال (نيكليندوف) وهو يرتدي معطفه .

وخرجوا الى الهواء الطلق ، فرأيا نفسيهما مكرهين على التحدث بصوت أعلى

لأن ضجيج الشارع كان يطغى على صوتيهما .

— تأمل ما أعرب ذلك . — قال الرئيس متابعاً كلامه : — لم يكن لهذه

القضية سوى امكانيتين ، فإما البراءة وإخلاء السبيل ، وإما الأشغال الشاقة .

وليس من حل وسط فلو أجبتكم بقولكم « مذنب ولكن بدون قصد القتل » .

لأخلى سبيلها في الحال اذ تحسم مدة محبوسيتها السابقة مما ستحكم به ، على

افتراض ذلك .

— لقد كان الخطأ فادحاً .

— وإذا علمنا ان كل شيء كان متوقفاً على هذا الحكم الذي جاء خاطئاً .

— قال الرئيس مبتسماً ابتسامة مرثية :

ثم نظر الى ساعته فرأى انه لم يزل أمامه سوى ثلاثة أرباع الساعة لينتهي

موعد الانتظار .

— شاور أحد المحامين ولیمز الدعوى . هي مسألة بسيطة قال ثم نادى
حوزياً يدعى (نوربانسكاجا) وقال له أنا لا أدفع سوى ثلاثين كوبياً .
— تفضل يا صاحب السعادة .

— الى اللقاء الآن ، وإذا جدت لك حاجة عندي فستجديني في منزل
(دفورنيكوف) شارع (دفوربانسكاجا) — ثم حبا يتأدب واستقل العربية
ومضى في سبيله .

٢٥

أصبح الأمير أكثر هدوءاً واطمئنناً بعد الحادثة القصيرة التي دارت بينه
وبين رئيس المحكمة . ولطف الهواء الطلق حرارة جسمه . كان يحسب ان
الاحداث التي مرت به ذلك النهار ، وكانت كلها مصادفات غير عادية ، كانت
السبب في حدة ما تعرض له من انطباعات . ولكنه كان ، على كل حال ،
يرى أن لا بد من القيام بعمل ما تلافياً لوضع تلك الفتاة وإنقاذاً لها بأسرع ما
يمكن ... وإن لا بد من البحث عن عنوان أحد المحامين الشهيرين (فانارين)
أو (ميكينشكين) .

وعاد (نيكليندوف) ادراجه الى المحكمة ، وفي أحد الأروقة التقى
بالمحامي (فانارين) وكان يعرفه بالاسم والوجه ، وأبدى له رغبته في
التحدث اليه .

— اعتر كثيرأ بأن أضع نفسي تحت تصرفكم . — قال المحامي . — انا
الآن متعب ، ولكن إذا كانت القضية غير طويلة ... قصها عليّ ... قصها
عليّ ... ولندخل الى هنا .

ودخلا الى أحد المكاتب ، وجلسا الى احدى الطااولات .

— ما هي القضية ؟ — سأله المحامي .

— قبل كل شيء أرجو ان تحتفظ بسرية ما قد سأقصه عليك .

— ليس من حاجة لهذا الطلب ، فهو واجب علينا .

— لقد كنت اليوم عضواً في مجلس المحلفين ، فحكمتنا على امرأة أعلم انها بريئة بالأشغال الشاقة .

قال هذا ثم أمسك عن الكلام واصطبغ وجهه بحمرة الحجل .

فحدق (فانارين) في وجه محدثه ولبت بانتظار .

— لقد حكمتنا على امرأة بريئة ، وأرغب في تمييز الحكم ، كما أرغب في ان أوكل أمره اليك .

كان أحب ما لديه انتهاء ذلك الشرح بأسرع ما يستطيع لأنه كان مؤلماً له .
ولهذا أسرع فقال :

— وفيما يتعلق باتعاب المحاماة ونفقات الدعوى فأنا أقوم بها مهما بلغت .
واحرر وجهه من جديد .

— هذا ما لا أهمية له . — قال (فانارين) : — ولكن ما نوع هذه الدعوى؟
فشرحها له (نيكليندوف) باختصار .

— حسن جداً . غداً سأبدأ بدراسة الدعوى ، وبعد غد ، والأفضل أن يكون الخميس تفضل الى منزلي لأعطيك رأيي . والآن هيا بنا فلا يزال لدي عمل كثير .

فودع (نيكليندوف) المحامي وخرج ، وشعر براحة واطمئنان لأنه يريد المساعدة (لاسلوقا) .

وأخذ يعب الهواء الربيعي في الشارع عباً . كانت الأمسية رائعة فأحب أن يذهب ماشياً على الاقدام غير ملق بالأسائقي العربات الذين كانوا يلحون في عرض خدماتهم عليه . وسرعان ما ازدحمت في ذهنه الافكار ، واستيقظت ذكرى (كاترين) ومساوئه ، فأظلمت الدنيا في عينيه .

— كلا . كلا . سوف أفكر في كل هذا . أما الآن فأنا بحاجة لما يرفه عن نفسي .

وإذ تذكر الدعوة التي تلقاها من آل (غورتشاكين) ، نظر في ساعته فرأى انه قد يجوز أن يصل في الموعد المحدد .

وفي هذه الاثناء مرت حافلة (ترام) فصعد اليها ، غير انه لم يلبث أن تركها واستقل عربة فبلغ المنزل قبل أقل من عشر دقائق .

٢٦

لم يكد البواب يلمحه قادماً حتى أسرع وفتح له الباب الكبير الخشبي السبيك الذي دار على محوره دون أن يحدث ضوضاء . وانحنى الخادم الأمين احتراماً للأمير ، ورحب به ودعاه للدخول ثم أردف يقول :

— تفضل يا صاحب السمو . انهم بانتظارك على المائدة ، وقد أمروني أن أبلغ سموكم ، انهم ينتظرون حضوركم .

ثم مضى وقرع جرساً .

— هل يوجد زوار ؟ — قال الأمير وهو يلقي اليه بمطفئه .

— يوجد هنا (كولوسوف) و (ميخائيل سرجيفيتش) بالإضافة الى أهل البيت .

وكان خادم يرتدي (فراك) وقفازاً أبيض يقف منتظراً عند نهاية السلم .

— تفضل يا صاحب السمو انهم بانتظارك .

بلغ (نيكليندوف) غرفة الطعام بعد أن اجتاز قاعة واسعة فخمة . كانت العائلة بكاملها حول المائدة ما خلا الأميرة (صوفيا فاسيليفنا) التي لم تفارق غرفة نومها منذ عدة سنين . وكان برأس المائدة المعجوز (غورتشاكين) ، وعن يساره كان الطبيب ، وعن يمينه أحد المدعوين وهو (فران فراتوفيتش كولوسوف) موظف ومشايخ (لغورتشاكين) . وكانت تجلس بجانب الطبيب الآنسة (ريدر) معلمة ابنة (غورتشاكين) وهي طفلة في الرابعة من عمرها تجلس بجانب معلمتها . وكان يجلس في الجهة المقابلة (بيتيا) ابن الأمير (غورتشاكين) الذي كان طالباً وفي الصف السادس ، والى جانبه طالب كان بمثابة معلم له . والى جانب هذين كان يجلس (ميخائيل سرجيفيتش) وقبالة تجلس (كاترين اليكسييتشفا) وهي عانس في حدود الأربعين من عمرها . وأخيراً (مارغريت) وكان بجانبها مكان شاغر .

— أخيراً جئت فأهلاً ، وسهلاً . تفضل اجلس . كنا على وشك أن تنتهي . — قال (غورتشاكين) ورفع عينيه اللتين كانتا بلون الدم ويبدو كأنها بلا أجفان في حين كان يأكل على ما بقي له من أسنان ، يجهد وعلى سهل . ثم نادى الخادم (استيبان) وفمه ممتلئ وأشار إلى المقعد الشاغر .
— سأخدم سموكم في الحال — قال (استيبان) .

ودار (نيكليندوف) حول المائدة ليصافح المدعويين الذين وقفوا جميعهم للسلام عليه باستثناء الجنرال المجوز ، والسيدات . وكان يرى تلك المصافحة سخيفة بغيضة ، فاعتذر عن تأخره ، وكان يهيم بالجلوس في المقعد الشاغر بين (مارغريت) و (كاترين اليكسيشفنا) ، إلا أن الأمير أصر على أن يأكل من المقبلات التي كانت على طاولة ثانية .

وحسب (نيكليندوف) نفسه غير جائع ، غير أنه بعد أن تناول قليلاً من الجبن تفتحت قابليته وابتدأ يأكل بنهم .

— أحسب انكم كنتم تصفون الدرايق لأدواء المجتمع . — قال (غورتشاكين) بسخرية بينة ، ومتنبئاً كلمة صحيفة رجعية كانت تهاجم مجلس المحلفين على الدوام — هل برأتم المجرمين وأدنتم الأبرياء ؟

— لقد صنعنا بعض الشيء . بعض الشيء ... أجابه (نيكليندوف) .
— قدموا له الطعام — قالت (مارغريت) كيما تبرهن عن وحدة الحال التي بينها .

كان (كولوسوف) يشرح آتئذ وبصوت عال مقالاً يهاجم مجلس المحلفين . كانت (مارغريت) فائقة الأناقة كماداتها ، وكانت ترتدي ثوباً حسن الطراز وان كان لا يلتفت الأنظار .

— ربما كان متعباً . — قالت وقد نظرت إلى (نيكليندوف) .
— كلا . كلا . ليس كثيراً . هل زرتم السقيفة ؟
— كلا . أجلناها لمناسبة أخرى . لقد زرنا آل (سولومانوف) حيث لعبنا التنس . وأؤكد أن السيد (كروكو) لاعب لا يضارعه أحد .

كان (نيكليندوف) قد جاء الى هذا البيت ترفيهاً عن نفسه ، إذ كان يروقه المنزل وساكنوه ، لما فيه من مظاهر الترف التي كانت توافق ذوقه ، وجو الملق الذي كان يشيع فيه . ولكنه في ذلك اليوم ، ولأسباب خفية غامضة لم يقو على ادراكها ، كان يرى كل شيء فيه بغيضاً . كل شيء من البواب حتى الخدم ، ومن المدعوين حتى (مارغريت) نفسها . كان يرى كل شيء مصطنعاً وغير جذاب . كانت لهجة (كولوسوف) الآمرة المتبدلة تسوءه . وخطم المعجوز (غورتشاكين) الشهواني كان يشير امتعاضه . كذلك كانت لغة (كاترين اليكسيتشفنا) الفرنسية ، ووجه المدرسة وتلميذها المرعوبان . وأكثر ما ساءه قول (مارغريت) : « قدموا له الطعام » . لقد كان (نيكليندوف) يتردد في نظرتة للأميرة بين رأيين . فطوراً كان يراها وكان شعاعاً من نور القمر يحللها فتبدو لعينيه جميلة غضة وذكية . وطوراً آخر كان يراها مغمورة بنور يبهر الأبصار فيخفي عنه مواطن النقص فيها . وكان هذا شأنه تلك الليلة . كان يرى غضون وجهها وتجاويع شعرها الاصطناعية ، وأكواعها الغليظة ، وظفر إبهامها الكبير الذي يشبه ظفر أبيها الأمير المعجوز .

— انها لعبة ملة حقاً . — قال (كولوسوف) وهو يقصد التنس بقوله هذا . —
لقد كانت لعبة (لابتا) أكثر متعة . تلك اللعبة التي كنا نلعبها في الصغر .
— لا يجوز حكمك عليها لأنك لم تمارسها . — أجابته (مارغريت) — هي لعبة جد ممتعة .

وتراءى (لنيكليندوف) انها تلفظ كلمة « جد » بشكل مقصود .
ودار نقاش حاد حول هذا الموضوع ، اشترك فيه (ميخائيل سرجيفيتش) و (كاترين اليكسيتشفنا) ، وظل الباكون صامتين ، ولكن الضجر كان بادياً عليهم .

— أجدل على الدوام . — قال المعجوز (غورتشاكين) ، ثم رفع الفوطة عن صدره ، وأخر كرسيه الى الوراء مسبباً ضوضاء .

فنهض الجميع عن المائدة ، وتقدموا من طاولة صغيرة عليها اقداح ماء فاتر معطر فتمضمضوا فيه .

— أليس صحيحاً ان طباع اللاعبين تتجلى في اللعب ؟ — قالت (مارغريت)
تسأل (نيكليندوف) وقد تحولت نحوه .
كانت قد أدركت انه كان مشغول البال ، وكانت شديدة الشوق لمعرفة
أسبابه .

— أجهل ذلك لأنني لم أحاول البحث عنه .
— أترغب في زيارة أمي ؟ — سألتها (مارغريت) .
— بلى ، بلى — أجابها بلهجة تدل على عدم الرغبة في ذلك ثم أخرج لغافة
تبغ من محفظته .

فنظرت اليه الاميرة نظرة استفهام صامته ما عثم ان تبينها فاستولى عليه
الحجل . ثم قال يخاطب نفسه :
— حقاً . ان هذا معناه نقل السامة الى الناس .

ثم أضاف يقول وهو يتوخى أن يكون أكثر تأديباً ولياقة انه لمن دواعي
سروره ان تتنازل الأميرة لاستقباله .

— بما لا ريب فيه ان أمي يسرها ان تراك . وستجد عندها (ايفان
ايفانوفيتش) وسيكون بوسعكم ان تدخنوا .

كانت ربة البيت الأميرة (صوفيا فاسيليفنا) قد اعتادت منذ ثمان سنوات
ان تستقبل مدعوها وهي جالسة في مقعدها المريح محاطة بالوسائد ، والمطارف ،
والخمل ، والذهب ، والعاج ، والنحاس المنقوش ، والورود . وكانت تتميز
(نيكليندوف) عن سائر اصدقائها لأنها كانت صديقة لوالدته ، ولأنه كان شاباً
ذكياً ، وترغب في تزويجه (بمارغريت) .

كان على الزائر ان يجتاز قاعتين قبل الوصول الى الجناح الذي تشغله الأميرة
(صوفيا) . وعندما كان (نيكليندوف) يجتاز أولاهما تتقدمه (مارغريت)
وقفت هذه وقد وضعت يدها على مسند كرسي مذهب ، وحدقت ملياً في
وجهه . كانت جد راغبة في الزواج وكان (نيكليندوف) صفقة جيدة ، وفضلاً
عن ذلك فقد كان يعجبها . وكانت قد ألقت فكرة كونه لها . وهكذا فقد

كانت تحاول تحقيق رغبتها بمثل الأحرار اللاواعي الخاص بمرض الأعصاب .
وها هي ذي تحاول اثارته لانتزاع ايضاحات منه .
- احسب ان حادثاً غير عادي قد حدث لك فهل يمكن ان اعلم ما هو ؟
- قالت تسأله .

فتذكر الأمير الفتاة التي رآها في المحكمة فزوّى ما بين عينيه ، وتغضن
جبينه . غير انه أراد أن يكون صريحاً .
- حادث عجيب ورائع وخطير .
- وما هو هذا ؟ ألا تستطيع معرفته ؟
- أما الآن فلا . أرجو ان تسمح لي بكتاتنه الآن . ان الذي حدث لي من
الغربة بحيث لم استطع تكوين فكرة واضحة عنه حتى الآن .
واحر وجهه خجلاً .

- أترفض اطلاعي عليه ؟ - قالت تسأله ، وقد تجهم وجهها ، ودفعت
الكرسي الى الأمام بحركة عصبية . ثم قالت له - حسن . هيا بنا .
ومشت أمامه بسرعة وهي تهز رأسها كمن تحاول طرد افكار مزعجة وغير
مجدية . وحسب (نيكليندوف) انه لاحظ انها تحاول حبس دموعها فسامه
ذلك وأخجله . غير أنه كان يعلم ان أي ضعف يبديه تجاهها سيجعلها أكثر أملاً
فيه وهو الذي يرى في علاقاته الحالية بها مشار رعب وازعاج . وهكذا تبعها
الى غرفة أمها دون أن يفوه بكلمة واحدة .

٢٧

كانت الأميرة (صوفيا فاسيليفنا) قد فرغت قبل قليل من تناول طعامها
الذي كان دائماً مؤلفاً من اصناف غنية بالعناصر المغذية . وكانت تتناول طعامها
في غرفتها كيلا يراها أحد وهي تقوم بهذه العملية المألوفة . كان آنتذ بالقرب من
مقعد طاولة صغيرة عليها فنجان قهوة ، وكانت هي تدخن لفافة تبغ معطرة ،
كانت الأميرة نحيلة الجسم ، طويلة القامة ، سمراء اللون ، طويلة الأسنان ، سوداء

العنين كبيرتها . وكانت تأبى التسليم بأنها أصبحت عجوزاً على الرغم من تقدمها النسبي في السن .

كان تروج اشاعات كثيرة عن وجود علاقات لها مريبة بالطبيب . وكان (نيكليندوف) فيما مضى لا يعير أي التفات لتلك الاشاعات . أما الآن فإنه لم يتذكرها فحسب ، وإنما استرعى انتباهه وجوده بجانبها ولحيته ذا الشقين المنفصلين مطلية بالدهن ، وأوجد له انطباعات سيئة . وكان (كولوسوف) يجلس على مقعد مريح قليل الارتفاع عن الأرض يشرب قهوته . ودخلت (مارغريت) الى الغرفة بصحبة (نيكليندوف) ولكنها ما لبثت أن غادرتها .

— عندما تحسن ان أُمي قد تمعت فتفضل الى عندي . — قالت موجهة كلامها الى (نيكليندوف) لتشره بأنها قد نسيت كلماته الماضية .

— نهارك سعيد يا صديقي . تفضل واجلس . وحدثني . — قالت الأميرة ، وقد فتحت فيها قبانت اسنانها الاصطناعية التي أجيد صنعها حتى ليظن المرء بأنها ليست كذلك . — لقد قيل لي انك عدت من المحكمة سييء المزاج . والواقع هو ان هذه المهمة قد تكون شاقة ومؤلة لذوي القلوب الحساسة . — أضافت تقول بالفرنسية .

— الحق معك فهذا هو الواقع . يشعر الانسان بضآلته ... ويعلم أن لا حق له بأن يدين غيره .

— هذه حقيقة كبرى . — قالت ذلك بلهفة كما لو كانت قد اكتشفته للمرة الأولى . ثم أضافت تقول له كي تتعلمه كماداتها مع محادثتها . — ولوحثك ؟ لاني لشديدة الرغبة في أن أراها . ولولا مرضي لذهبت الى بيتك قصد رؤيتها . — لقد أهملتها . — أجابها متضجراً بلهجة جافة لعلمه انها تتعلمه .

وعلى رغم الجهد الذي بذله فإنه لم يستطع ان يجعل تصرفاته وحديثه أكثر تأدياً ولياقة .

— أتدري أن (ريفرين) نفسه أكد لي ان الأمير يتمتع بموهبة فنية صحيحة ؟ — قالت الأميرة موجهة الكلام الى (كولوسوف) .

وإذا تبينت انها لن تستطيع استدراج (نيكليندوف) لحديث أدبي شيق ، فقد توجهت الى (كولوسوف) تسأله عن وجهة نظره حول مأساة جديدة صدرت حديثاً ، وكان في لهجتها ما يوحي بأنها ترى في كلامه فصل الخطاب وان كل كلمة منه حرة بأن تنقش على ألواح من المرمر .

فانتقد (كولوسوف) المأساة انتقاداً شديداً ، مبدئياً ووجهة نظره في الفن ، فأعجبت الاميرة أيما اعجاب بصواب انتقاداته . وحاولت احياناً الدفاع عن المؤلف ، ولكنها اضطرت أخيراً لإعلان موافقتها على آرائه والاقرار له بالغلبة عليها .

كان (نيكليندوف) يسمع ويلاحظ فيبدو له كل شيء غريباً . لقد لاحظ ان أياً منها لم يكن يرى للمأساة أي ميزة إلا تلك التي يراها لها الآخر . وانها كأنها يتكلمان لمجرد الحاجة لتحريك عضلات اللسان والحنجرة بعد الطعام . ولاحظ ان (كولوسوف) كان شبه ثمل على الرغم من انه لم تبدر منه أي بادرة قبيحة . كما لاحظ أيضاً ان الاميرة (صوفيا فاسيليفنا) كانت تنظر من وقت لآخر الى النافذة تراقب أشعة الشمس المظلة عبرها والتي كانت توشك ان تقع عليها ، مخافة ان تكشف ما على وجهها من مساحيق .

— بالضبط . — قالت عندما أبدى (كولوسوف) بعض ملاحظاته . ثم قرعت الجرس .

— تحسن صنعاً (يا فيليب) إذا أسدلت الستار . — قالت الاميرة للنادم الذي خف لتلبية نداءها .

وفي حين كانت عيناها تراقبان حركات (فيليب) الخادم حولت مجرى الحديث للصوفية والشعر .

— ليس هذا هو الستار الذي كان ينبغي أن تسدله (يا فيليب) وانما ذاك . — صاحت تقول له .

فحنى الخادم العريض المنكبين القوي العضل رأسه اعتذاراً وقصد النافذة التي أشارت له الاميرة اليها . ولكن الحظ أبى أن يحالفها هذه المرة أيضاً على

رغم الجهد الذي بذله الخادم لإرضائها . فقطعت حديثها مرة أخرى لتقول (لفيليب) انه يخطئ دائماً وأنه يعتمد تعذيبها بلا رحمة . فاستشاط الخادم غيظاً واتقدت عيناه . فقال (نيكليندوف) في نفسه وهو يراقب وجه الخادم وقد تجهم .

— سيبحث بها الآن الى الشيطان .

ولكن (فيليب) الجميل كبح جماح غيظه ، ولاذ بالصبر الجميل ، وأخذ يقوم بما تأمره به الاميرة (صوفيا) .

— ان نظريات (دارون) رائحة . — كان (كولوسوف) يقول وهو يتململ في مقعده . — لولا ما فيها من المبالغة .

— أتؤمن بنظرية الوراثة ؟ — قالت الاميرة تسأل (نيكليندوف) وقد أزعجها سكوته الطويل .

— كلا لا أؤمن بها . — أجاها وهو غارق في تأملات شاذة خطرت له . كان قد تصور (كولوسوف) الكبير البطن ، الأصلع الرأس ، الخالي الذراعين من العضلات ، يقف بجانب (فيليب) الذي كان خير أنموذج للرسام ، وكلاهما عاري الجسم . ثم جرب أن يتصور أيضاً منظر أكتاف (صوفيا فاسيليفنا) كما هي في واقعها تحت الحمل والحبر ، ولكن المشهد كان مثيراً للتقزز والإشمئزاز الشديد . فصرفه عنه .

فحدقت الاميرة بنظرها فيه ملياً من رأسه الى أخمص قدميه ثم قالت له : — أحسب ان (مارغريت) بانتظارك فالحق بها فتسمعك معزوفة جديدة (لفريج) .

— سوف لن تعزف شيئاً . — قال (نيكليندوف) في نفسه . — ما أبرع هذه العجوز في الكذب .

فهب واقفاً ثم صافح اليد النحيلة الشفافة المألئى بالخواتم التي مدتها له الاميرة . وتلاقى وهو يعبر القاعة مع (كاترين اليكسييتشفا) فاستوقفته وقالت له بالفرنسية :

— أرى ان مهمة المحلفين مجلبة للغم لأصحابها .
— هذا صحيح . وقد أزعجني ما لحق بي من السأم والضجر اللذين لم استطع التخلص منها بل ربما نقلتها للآخرين . فمعذرة .
— وماذا أصابك ؟

— أرجو أن تعذرني على كتمان . — أجاب (نيكليندوف) وهو يفتش عن قبعة .

— ألا تذكر أنك قلت مراراً انه ينبغي قبول الحقيقة دائماً ؟ إذن كيف ترفض الآن التصريح بها ؟ ألا تذكرين ذلك (يا مارغريت) ؟ — قالت ذلك عندما رأت هذه قادمة نحوها .

— لقد كان ذلك مني ، ولكني قلته ونحن نلعب الورق وفي اللعب يمكن التصريح بالحقيقة . — أجاب (نيكليندوف) : — أما في واقع الحياة فنحن جد أشرار ... أو على الأقل فانا جد شرير بحيث لا أستطيع فعل ذلك .
— ليس في الحياة ما هو أسوأ من ان يجلب الانسان الغم لنفسه . — قالت (مارغريت) . — أما أنا فلا ولن أحاول ذلك ، ولذا تراني دائماً مرحة ، أتريد أن تأتي ؟ سنحاول شفائك من هذه الحالة النفسية .

كان إحساس (نيكليندوف) يشبه إحساس الجواد الذي يعلم انهم يداعبونهم ليلجموه . ولكنه في ذلك اليوم لم يكن على استعداد للرضوخ لمشينة تفرض عليه . ولذا اعتذر بحاجته للذهاب الى بيته ، فودع وخرج .

ولبثت (مارغريت) بمسكة بيده عند وداعه أكثر من المعتاد ثم قالت له :
— لا تنس ان أصدقاءك يهتمون لما يملك . أتاني غداً ؟
— لا أظن . — أجاب (نيكليندوف) وهو خجل دون أن يعلم بما أو لماذا ثم خرج مسرعاً .

— ما معنى ذلك ؟ — قالت (كاترين اليكسيتشفنا) تسأل فور خروجه .
— اني منشغلة البال لتصرفه الشاذ . أريد معرفة السبب منها كلف الأمر . قد تكون قضية كبرياء فحبيبنا (ديتري) سريع التأثر .

— ربما كان هناك قضية غير شريفة . — كانت (مارغريت) على وشك ان تقول ولكنها لم تفتح تلك العبارة البذيئة .
ثم قالت وهي ترفو الى الأفق البعيد ويكاد وجهها يكون بلا حياة ، وعلى طرفي نقيض منه عندما كانت تحديق في عيني (نيكليندوف) .
— لا مفر للانسان من أن تمر به في حياته أيام بؤس ، وأيام هناء . ترى أمن الممكن أن يخدعني هذا أيضاً ؟ سأقف منه « بعد ما رأيت » موقف المحاذرة .
هذا ما قالت في نفسها .

ولو أن سائلا سأل (مارغريت) عما تعنيه بعبارة « بعد ما رأيت » اذن لأحرجها هذا السؤال . لقد كانت في قرارة نفسها تعتبر الأمير أكثر من مجرد أمل لها، كانت تراه وكأنه قد قطع لها عهداً بالزواج منها ان لم يكن عن طريق الكلام فمن طريق النظرات والابتسامات والتلميحات . وكم كان يحز في نفسها اضطرابها على أن تنفض يدها مما كانت تعتبره قد بات منها قاب قوسين أو أدنى .

٢٨

— إن ما أفعله مخجل جداً، ويكاد يكون عملاً وضعياً — كان (نيكليندوف) يفكر في نفسه وهو في الطريق الى منزله .
لم يكن قد نسي الانطباع المؤلم الذي ساوره أثر حديثه مع (مارغريت) . ولم يكن يرى نفسه مخطئاً بالنسبة للأميرة اذ لم يصدر منه ما يمكن أن يعتبر وعداً أو عهداً وانه لم يتحدث قط إليها بصورة جدية عن قضية الزواج . غير أنه كثيراً ما لمح لها تلميحات تعد وعداً . وهذا ما كان يقض مضجعه . ومع ذلك فانه لم يكن قد أدرك استحالة زواجه منها مثلما أدركه ذلك اليوم .
— إن ما أفعله مخجل جداً ، ويكاد يكون عملاً وضعياً . — هكذا كان يردد في سره مفكراً في حياته كلها وليس في علاقاته بالأميرة فحسب . — أجل ان كل ما في حياتي مخجل ومعيب . — كان يردد في سره وهو يدخل البيت .

— لن أتناول طعاماً الليلة . — قال لخدمته الذي تبعه حتى غرفة الطعام حيث كانت المائدة معدة والشاي جاهزاً . — فاذهب ونم .

— كما تشاء سيدي . — أجابه الخادم وهو يرفع صحاف الطعام عن المائدة .
كان (نيكليندوف) ينظر إليه بحنق ، لأنه كان شديد الرغبة في ان يتركوه لوحده ، وأن يدعوهم بسلام .
هنا توفيت أمه منذ ثلاثة شهور .

وما أن دخل (نيكليندوف) تلك القاعة ، ورأى ذلك النور الباهت المنبعث من قنديلين الذي ينيرها ، وشاهد صورتي أبيه وأمه ، حتى تذكر آخر صلاته بأمه التي لم تكن خليقة بولد بار بأهله . كان يتمنى موتها لا لشهوة الميراث أو حب السلطة وإنما لكي لا يرى ما كانت تقاسيه من آلام لا تطاق ، ومرضاها العضال الذي كان يسم حياته هو .

فأقبل يتملى تلك اللوحة الفنية التي أبدعتها ريشة أحد الفنانين المشهورين ، التي تبرز أمه بثوب الرقص عارية الصدر والظهر وتكاد تكون نصف عارية . فسأه ذلك المشهد وغمه في آن واحد . وازداد غمًا واستياء عندما تذكر أن تلك المرأة قد احتضرت وماتت قبل ثلاثة أشهر في تلك القاعة ذاتها وتحت تلك اللوحة عينها التي تبرزها كأجل ما تكون ، وانها كانت عند موتها كالومياء ، باردة ، وتنبعث منها رائحة لا تحتمل ، فوهم انه يشمها آنئذ .

وتذكر مناسبة أخرى مؤلمة أيضاً . تذكر أن الأميرة قبل موتها بيوم واحد ، دعتة إليها وقالت له مجزن لا يوصف وهي ممسكة يده بكلتا يديها الناحلتين : « لا تقسو في الحكم علي يا صغيري . لا تقسو علي في الحكم اذا كنت قد قصرت في أداء واجبي بعض الأحيان » ثم انهمرت الدموع من بين أهداب تلك العيون التي يهت نورها .

— يا إلهي . يا إلهي . يا له من رعب . — صاح (نيكليندوف) وعيناه لا تزالان عالقَتين بصورة تلك المرأة نصف العارية .

وذكره ذلك العتق الجميل بامرأة شابة ، ذكره (بمارغريت) التي دعتة

ذات ليلة إليها منتحلة سبباً وهمياً ، كي يشاهدها مرتدية ثوب الرقص ويتملى جاهلها ، فأثارت امتعاضه ذكرى ذلك الصدر الجميل ، وذينك الذراعين ... كذلك ذكره بذلك الأمير المعجوز ذي الغرائز الوضيعة الوحشية وذو الماضي القبيح ... وتلك الأم المشهورة بسكرها ... كل شيء كان مخزياً ... كل شيء كان يبعث على الحجل ، ومدعاة للتقزز والاشمئزاز .

— بلى . بلى — كان (نيكليندوف) يقول في نفسه — ينبغي قطع تلك الصلة الزائفة بآل (غورتشاكين) . يجب التحرر من (صوفيا فاسيليفنا) ، والميراث ، وكل شيء . كي أعيش في منأى عن ذلك الجو الفاسد ... خارج البلاد ... في (روما) ... وأنهى لوحته ...

وعندئذ تذكر أنه يشك في موهبته الفنية .

— هذا ما لا أهمية له — قال في نفسه — على الأقل سيكون بإمكانني استنشاق الهواء بحرية . سأذهب أولاً إلى القسطنطينية ثم إلى روما .

ولكنه قبل كل شيء عليه أن يسوي قضية مجلس المحلفين وأن يجتمع بمحامييه .

وهنا قام في مخيلته بوضوح تام شبح المتهمة بعينيهما السوداوين الحولاوين . ترى كم ذرفت من الدموع لدى سماعها الحكم عليها ...

وطرح (نيكليندوف) عقب لفافة التبغ ، وأشعل أخرى ثم أخذ يذرع القاعة ذهباً وإياباً بخطى واسعة . وعادت إلى ذاكرته الهنيئات النشوى التي قضاهما معها واحدة تلو أخرى ثم تذكر آخر مواقفه معها . تذكر الشهوة العارمة التي تملكته ، واليأس المبكر الذي أصابه . أواه . ما أجل ذلك الثوب الأبيض ، وذلك الشريط الأحمر . ويا لتلك الصلاة عند منتصف الليل .

— حقاً لقد كنت أحبها ليلة عيد الفصح . كنت أحبها حباً طاهراً ناعماً كحبي لها في الصيف الذي أقمت فيه في منزل خالتي عندما كنت أعد أطروحتي . ثم عاد فتصور نفسه شاباً متحمساً طيباً ومغرماً لما كان في سالف أيامه ، فغمرته موجة من كآبة عميقة .

كان الفارق كبيراً بين فتى الأمس وبين كهل اليوم . وقد يكون هذا الفارق أكبر مما بين (كاترين) ليلة عيد الفصح وبين (ماسلوف) التي تجلس الآن على مقعد الاتهام . كان فيما مضى حراً طليقاً ، في زهرة العمر ، واثقاً من المستقبل ، جم الأمان . أما الآن فهو يتخبط في دياجير حياة منغصة ، زرية ، لا يجد له سبيلاً للخلاص منها ، بل أكثر من ذلك ، انه لا يجد من نفسه إرادة الفرار منها . كان إذ ذاك فخوراً باستقامته وصدقه . أما الآن فهو يعيش في دوامة من الكذب يراها المجتمع الذي يعيش في أوساطه حقائق راهنة . ترى كيف السبيل الى قطع صلاته (بصوفيا فاسيليفنا) وزوجها دون أن يخرج موقفه ؟ وبأي طريقة سليمة يتوصل لقطع علاقاته (بمارغاريت) ؟ وكيف يوفق بين ما يراه في مبدأ ملكية الأرض من اجحاف ، وبين احتفاظه بالمساحات الواسعة من الأراضي التي ورثها عن أمه ؟

و (كاترين) التي جر عليها الأذى ، كيف السبيل الى تدارك وضعها ؟ انه لا يستطيع التخلي عنها . وانه ليستحيل عليه التخلي بمثل هذه الصورة عن امرأة أحبها كثيراً ، فيكتفي بدفع نفقات المحامي محاولة منه لإنقاذها من عقوبة لا تستحقها ... أيكفر عن خطيئته بالمال كما فعل أول مرة ؟ ... وهنا تذكر اللحظة التي أوقفها فيها في الرواق ، قدس لها بين ثدييها المظروف الذي كان يحتوي على ورقة المئة روبل . ثم فر هارباً .

— بشس ذلك المال . بشس ذلك المال . — قال (نيكليندوف) باشمئزاز وجزع . — يا للهول . انه لن يقوى على فعل ذلك إلا وضيع وحقير . أتراني رجلاً وضيعاً وحقيراً ؟ هل يمكن أن يكون ذلك ؟ — ولفظ هذه العبارة بصوت عال وقد وقف . — أيمكن أن أكون وضيعاً ؟ وحسب أن صوتاً يجيبه .

— ما عساك تكون إذن ؟ ... أكانت تلك الفعلة هي الوحيدة التي قت بها في حياتك ؟

ويضي (نيكليندوف) محاسباً نفسه . ألم تكن عاراً وشيناً علاقاته (بماري

فاسيليفنا) وصداقته لزوجها ، وقبوله الميراث عن أمه مع علمه بتناقضه مع العدل والمنطق ، وحياة البطالة والفسق التي يحياها ؟ أجل انه لوضيح . يوسع الناس أن يصفوه بما يهون . ويوسع أن يخذع سائر الناس ، ولكنه لا ولن يستطيع خداع نفسه . وهنا أدرك أن ما كان يشعر به من اشمئزاز إزاء المجتمع والأمير و (صوفيا فاسيليفنا) و (مارغريت) والخدم لم يكن كل ذلك سوى صدى احتقاره لنفسه . وفي حين كان يعترف لنفسه بضمته وحقارته ، كانت شعور عزاء وارتياح يولد في داخله .

ليست هي المرة الأولى التي يحس فيها (نيكليندوف) ذلك الاحساس الذي أسماه « تطهير الروح » فقد أحسه مراراً ولكن على فترات متباعدة . وعندما كانت تعرض له حالات « الاشرار » هذه كان يضع لنفسه نهجاً خاصاً ليسير عليه في حياته فيقول : « الآن تبدأ حياة جديدة » ونهج قويم ينبغي ألا أحيد عنه ، غير أن مغريات الحياة ، لا تلبث أن تستدرجه من حيث لا يشعر ، فتلقي به في غيابة هوة سحيقة أعمق غوراً . لقد استرد اعتباره أمام نفسه غير مرة . وكانت الأخيرة عندما قدم استقالته من منصب ضابط في الحرس ، وسافر الى الخارج ليتابع دراسة الرسم . وظل منذ ذلك الحين لا يأبه للتناقض الصارخ بين سيرته في حياته وبين ما يوحى به ضميره . أما الآن فهو يجزع إذ يتجلى له ذلك .

لقد كان ذلك التناقض من الحدة والوضوح بحيث أصبح يشك حتى في امكانية حدوث مثل ذلك « التطهير » .

— كلا . كلا . كل هذا عديم الفائدة . — كان يهيب به صوت داخلي شديد الاغراء .

« كثيراً ما حاولت اصلاح نفسي ، والسمو بها الى مستوى أفضل ، ولكن كانت تنقضي الارادة الحقيقية . فلماذا أعيد التجربة مرة أخرى ؟ وفضلاً عن ذلك فلست الوحيد ، فهناك الكثيرون من أمثالي » .

ولكن انساناً آخر كان قد تنبه في داخل (نيكليندوف) . لقد استيقظ

ذلك « الأنا » المعنوي الحر ، الحقيقي الوحيد ، الأبدي ، والقوي الذي لا يتغير ، والذي يجب عليه أن يثق به في مستقبل أيامه . لقد كان البون شاسعاً بين ما هو عليه الآن ، وبين ما ينبغي أن يكون . ولكن الانسان المعنوي الذي استيقظ كان يرى كل شيء ممكناً .

— سأحطم حبائل الكذب التي انشبت بها . — قال بصوت عال وبلمهجة حازمة — سأقول الحقيقة مهما كلف الأمر . سأقولها لجميع الناس نزولاً عند نداء ضميري . سأقول (لمارغريت) انني رجل فاسق ، وان زواجنا مستحيل . سأقول (لماري فاسيليفنا) ... كلا . كلا . لن أقول لهذه شيئاً . سأقول لزوجها انني كنت كاذباً في صداقتي له وانني رجل فقير . سأفعل بمراتي عن أمني ما تقضي به العدالة ... سأقول (لكاترين) انني كنت وضعياً ، وانني مجرم تجاهها . سأحاول التخفيف عنها بشتى السبل ومختلف الوسائل ، وسأطلب السماح منها ... سأطلب السماح كما يطلبه الصبيان .

ثم أمسك قليلاً عن التفكير ، ليعود الى تصوراتهِ .

— سأتزوج منها إذا اقتضى الأمر .

فضم ذراعيه الى صدره كما كان يفعل أيام الطفولة وشخص ببصره الى السماء ضارعاً .

— يا إلهي أعني . أرشدني . أعمل على أن أعود لسابق صلاحِي وطهارتي . كان يتوسل الى الله كي يمنحه القوة المعنوية ويطهره . وما قد تقبل الله توسلاته .

انه الآن لا يحس في نفسه مجرد حرية الحياة وقوتها ومرحها فحسب ، وانما سائر قوى الخير مجتمعة . انه يشعر في نفسه القوة على القيام بكل ما يستطيعه الانسان من الأعمال الصالحة الجميلة . وعندما تبين له ذلك فاضت عيناه بالدموع ، وكانت دموعاً طاهرة زهية ، دموع فرح وابتهاج لبعث انسانيه المعنوي الذي ظل راقداً أعواماً طوالاً .

وقد يكون في هذا بعض الشر لأن شعوره يبعث الإنسان الفاضل في نفسه آثار فيها حبه لذاته .

وأحس (نيكليندوف) بحرارة ففتح النافذة التي تطل على الحديقة . كانت الليلة قراء ، وكانت معتدلة البرودة . وكان السكون عميقاً . ونقل اليه الأثير من بعيد صدى ضوضاء عجلة تسير على الطريق ، ثم عاد السكون يخيم من جديد . كان أمام النافذة شجرة باسقة ، وكانت تلقي ظلها على فناء الدار الواسع الخاوي من كل شيء . وكان الى اليسار منزل صغير كان نور القمر يغمر سطحه فبدا أبيضاً ، وامتد ظله حتى بلغ الشجرة الباسقة .

كان (نيكليندوف) ينظر الى الحديقة ، والسطح الذي كان يجلسه نور القمر ، وإلى ظلال الشجرة ، ويصيح بسمعه الى السكون الرهيب ، ويستنشق ذلك الهواء الرطب المنعش فيهتف حبوراً :

— رياه ما أجمل كل هذا . ما أجمل كل هذا يا رب .

وعاد ففكر في ان البعث المعنوي الذي تم في داخله كان جميلاً أيضاً .

٢٩

عادت (كاترين) مرة ثانية الى السجن فبلغته حوالي الساعة السادسة مساء وهي مجهدة متعبة ، يؤلمها قدمها بسبب طول المسافة التي أرغمت على قطعها سعياً على الأقدام . كان الجوع يعض أحشاءها ، والحكم الجائر غير المتوقع الذي حكمت به كان أكثر ارهاقاً لها من الخمسة عشر كيلومتراً التي قطعتها سيراً على الأقدام .

عندما كانت في المحكمة ، وكان الحراس يأكلون الخبز والبيض الذي يحملونه ، كان يسيل له لعابها ، وتود لو تستطيع الحصول على ما تسد به رمقها وتدفع به الجوع الذي بدأت تحس بوطاته . ولكنها كانت ترى في استجداؤها بلفة من العيش زيادة في الازلال . غير انها بعد انقضاء فترة قصيرة على موعد تناول الطعام ، هدأت ثورة جوعها ، وحل الضعف محلها .

على هذه الحالة من الجوع والاعياء تلي عليها قرار المحكمة .
حسبت (ماسلوف) ان سمعها خانها ، ولم تصدق ما سمعته أذناها ، إذ لم
تكن تتصور مجال من الأحوال ان هذا سيكون مصيرها . غير انها عندما رأت
وجوه المحلفين والقضاة الجادة الهادئة وهم ينصتون الى القرار وكأنه أمر طبيعي
عندئذ أطلقت ضجة الاحتجاج تلك التي ملأت أصدائها القاعة .
- لست مذهبة .

وحتى صرختها هذه بدأت وكأنها أمر عادي مألوف قد تعود القضاة
والمحلفون سماع الكثير من أمثاله . وإذ تبين ذلك انفجرت باكية وعلا
شهيقها يلاً القاعة ، وأيقنت أن لا مفر لها من الاستسلام للظلم الفادح الذي
أصاها .

وبما زادها استغراباً كون الذين حكموا عليها ذلك الحكم الجائر لم يكونوا
شيوخاً ، وانما كانوا شباناً ، وكثيراً ما داعبتها انظارهم . وتذكرت انها تبينت
من مثل النيابة العامة مواقف مريبة . وكان غيره يتوسلون بشتى السبل ،
وينتحلون مختلف الاعذار كي يبرأوا من أمام باب الغرفة التي كانت تنتظر فيها
صدور القرار ، ليكحلوا عيونهم بمرآها . هؤلاء الرجال أنفسهم هم الذين
حكموا الآن عليها بالسجن أربع سنوات مع الأشغال الشاقة ، على الرغم من
براءتها .

بكت كثيراً وطال بكأؤها . وأخيراً هدأت ثورتها النفسية فظلت قابضة في
غرفة المتهمين ، مستسلمة استسلاماً تاماً منتظرة أن يقودوها الى غير ذلك
المكان ، ولم يبق لها من رغبة سوى التدخين .

على مثل تلك الحالة النفسية وجدها (كيرتينكين) و (بوتشكوف) اللذان
نقلا بعد صدور الحكم الى نفس الغرفة التي كانت فيها فلما رأتها (بوتشكوف)
انبرت تكيل لها الشتائم والمسابات وتصفها بالسجينة .

- لكم كذبت أيتها السافلة ، ولكن كذبتك لم ينفعك . لقد لقيت ما
تستحقينه ...

وكانت (كاترين) وقد دست يديها في كمي (بلوزتها) ، وطأطأت رأسها ،
تتنظر في الارض القذرة نظرات جامدة مرددة قولها :
— لن أجيبكما بشيء فدعاني بسلام .
وعندما جاء أحد الحراس ، بعد ذهاب (كيرتينكين) و (بوتشكوف)
وأعطاهما ثلاث روبلات قائلاً لها :
— هل أنت (ماسلوف) ؟ خذي . ان سيدة قد أرسلتهم لك فانتفضت
وسألته .

— من هي هذه السيدة ؟
— من هي ؟ خذي بلا كثرة كلام . أمن الضروري أن تقدم لك تفاسير ؟
كانت (روسا) هي التي أرسلت الدراهم . لقد سألت هذه الأذن قبل
مغادرتها المحكمة إذا كان يسمح بإرسال دراهم الى (ماسلوف) ، ولما أجابها
بالإيجاب خلعت قفازها الجلدي ذا الأضرار الثلاثة لتخرج من جيبها حافظة نقود
أنيقة أخرجت منها ورقة من ذوات الروبلين ونصف وأضافت عليها خمسين
كوبيك ، أعطتهم للأذن الذي أعطاهم بدوره للحارث .
وقالت له (روسا) أتوسل اليك ان توصلهم (لماسلوف) .
وقد استاء الحارس من كلمات (روسا) لتومه انها تتم عن شك فيه ،
ولهذا أجاب (ماسلوف) بفظاظة .
وكان سرور الفتاة عظيماً لأنها رأت في ذلك المال عوناً لها على بلوغ شهوتها
في التدخين .

— كم أكون مسرورة لو أدخن لفافة تبغ . — قالت في نفسها :
واستبدت تلك الرغبة بسائر حواسها حتى كانت تستنشق بشراهة الهواء
المشحون برائحة دخان التبغ المنتشر في الرواق .
وصدر الأمر عند الساعة الخامسة بنقلها الى السجن فتقدم منها حارسان
سارت وراء أحدهما وتبعها الثاني . وعندما بلغوا الباب الخارجي أعطت أحد
الحارسين عشرين كوبيك وتوسلت اليه أن يشتري لها علبتين من لفائف التبغ .

- حسن جداً . حسن جداً . - قال الحارس وهو يتنسم : - سأشتري لك ما تريد .
 ولم يتبها لها ان تدخن في طريقها الى السجن ، وهكذا بلغت (ماسلوف)
 سجنها دون ان تشبع رغبتها في التدخين .
 وعندما دخلت الى السجن كان رتل من المساجين قادماً باتجاه معاكس ،
 وكان بينهم شباب وشيوخ ، مرد وذوولحى ، روس وأجانب . فامتلات
 القاعة الواسعة بالغبار ، وضوضاء وقع الأحذية الثقيلة ، وصلصلة القيود ،
 ورائحة العرق الحادة . وعندما كانوا يمرون بجانب (ماسلوف) كان الجميع
 يتفحصونها من رأسها الى أخمص قدميها .
 - يا لها من فتاة جميلة .
 - نهارك سعيد أيتها الحلية .
 وقفز شاب أسمر اللون ، ذو شاربين كبيرين نحوها فأحدث قيده ضوضاء
 قوية ثم قبلها في فمها .
 فدفعته (ماسلوف) عنها بعنف .
 - كيف ؟ هل نسيت صديقك ؟ لا مجال للتبجح الفارغ . - قال لها
 ضاحكاً وقد أبرقت عيناه .
 - ما هذا الذي يجري هنا ؟ - صاح نائب المدير وهو يدنو من مكان الحادث .
 ولما كان السجين قد خف مبتعداً فقد أخذ يعنف (ماسلوف) .
 - ولماذا أنت هنا ؟
 وأرادت (ماسلوف) الاعتذار بقولها انهم جاءوا بها من المحكمة . غير
 انها كانت من التضعضع المعنوي بحيث لم تدرك بماذا تجيب .
 - هي عائدة من المحكمة يا سيدي . - قال أحد الجنود وقد تقدم
 خطواتين منه وأدى التحية العسكرية .
 - حسن . خذوها من هنا . ما هذه القباحة !
 - نعم سيدي .

— خذها حالاً يا (سوكولوف) . — صاح نائب المدير .

فتقدم البواب منها ، ودفعها بعنف ، ثم اقتادها الى الرواق المؤدي الى جناح النساء ، حيث تحروها بدقة ، ولما لم يجدوا معها شيئاً من المنوعات ، لإخفائها لفائف التبغ في رغيف من الخبز أعادوها الى حيث كانت في الصباح .

٣٠

أدخلت (كاترين) الى غرفة كبيرة طولها سبعة أمتار وعرضها خمسة . وكان لها نافذتان مرتفعتان يدخل منها نور الشمس في النهار . وكان في وسطها مدفأة ونوع من أسرة الأرياف يشغلان معاً نحو ثلثي مساحة الغرفة . وكان يعلق في الحائط المواجه للباب أيقونة داكنة اللون يعلوها الغبار ، وأمامها طاقة من الزهور الجافة . وفي الزاوية القريبة من الباب ، حيث كان أرض الغرفة حالك السواد ، كان يوجد خابئة تنبعث منها رائحة خانقة . وكان هذا كل ما في الغرفة .

كان قد أظلم الظلام . وكان ساكنو تلك القاعة الزرية وهم عشر نساء وثلاث صبية ، على وشك أن يناموا . ولم يكن ينفذ عبر النافذتين أي بصيص من نور . ومع ذلك فقد كان لا يزال بمضن مستيقظات . منهن تلك المرأة التي أوقفت لأنها لا تحمل وثيقة تثبت هويتها ، وتلك التي أوقفت بتهمة سرقة وهي مصابة بالتدرن الرئوي ، وكانت مستلقية في فراشها جاحظة العينين جامدة في الحد من السعال الذي كاد يخنقها . وكان ثمة ثلاثة نساء أخريات مكشوفات الرؤوس يرتدين قمصاناً من قماش سميك يراقبن المساجين الجدد الذين يعبرون الرواق . كذلك كان ثمة ثلاثة غيرهن يخطن بعض الثياب وهن جالسات في فراشهن .

كانت إحدى هؤلاء العجوز التي تحدثت صباح ذلك اليوم مع (ماسلوف) قبيل ذهابها الى المحكمة . كانت طويلة القامة ، قوية البنية ، عبوسة الوجه متغضنة . وكان في خدها شامة كبيرة سوداء مكسوة بالشعر . وكانت تدعى (كورابلوفا) . وقد حكم عليها بالأشغال الشاقة لقتلها زوجها بضربة فأس لمحاولته اغتصاب ابنتها .

كانت أقوى النساء سلطة بين السجينات . وكانت تبصمن الخمر . وكانت بجانبها امرأة قصيرة القامة ، فطساء الأنف ، صغيرة العينين سوداءها . كانت حارسة لأحد ممرات القطار ، وقد حكم عليها بالسجن لمدة ثلاثة أشهر لأنها لم توفّقها ، وعدم إرسالها إشارة الخطر في الوقت المناسب فمر القطار وأحدث مأساة . وكانت الثالثة تدعى (فيدوسيا) . غير أن رفيقاتها كن يدعونها باسم (فنيشكا) تحبها . كانت جميلة ذات وجه وردي اللون ، ناصع البياض ، كبيرة العينين زرقاءهما كعيني الطفل ، شقراء الشعر الذي تتزوج غدائره رأسها . لم تكن قد تجاوزت السادسة عشرة من عمرها وقد سجنّت لوضعها السم لزوجها بعد قليل من زواجها . غير أنها حين أخلي سبيلها بكفالة مالية ، وخلال الثمانية أشهر التي ظلت طليقة خلالها ، سوت أمرها مع زوجها وعاشت معه عيشة راضية وكانا على أحسن ما يكون من الوفاق . وعلى رغم كل هذا ، وعلى رغم ما بذله حبها وحمايتها التي كانت تحبها حباً شديداً ، والتي دافعت عنها كثيراً ، فقد حكمت المحكمة عليها بالأشغال الشاقة في سيبيريا .

كانت (فيدوسيا) تلك المرأة الطيبة المرحّة الدائمة الابتسام ترقد مع (ماسلوكا) ، وكانت تحبها كثيراً وتقدم لها ما تستطيعه من الخدمات .

وكان ثمة امرأتان جالستين على السرير لا تعملان شيئاً . كانت احداهن في الأربعين من عمرها ، صفراء اللون ، نحيلة الجسم ، متجمدة الوجه ، تبدو عليها سياء جمال ذوى مبكراً . وكانت تطعم طفلة تحملها بين ذراعيها . كان الجرم الذي ارتكبته وحكم عليها بالسجن لأجله يتلخص فيما يلي : عندما جاء الشرطي الى القرية التي تسكنها كي يسوق احد الفتيان ليؤدي الخدمة العسكرية تجهم السكان وعارضوه قائلين له ان ذلك العمل مخالف للقوانين ، وحاولوا بينه وبين أخذ الفتى . وكانت هذه المرأة وهي خالة الشاب المطلوب الى الجندية ، من اكثرهم جرأة وعصياناً فأمسكت بزمام جواد الشرطي . وكانت الثانية عجوزاً متوسطة القامة ، بيضاء الشعر ، مقوسة الظهر . وكانت في طرف القاعة الثاني بالقرب من المدفأة ، تحاول اخافة صبي في الرابعة من عمره كي يكف عن ازعاج

الناس ولكنه كان يركض من حولها لا يستتره غير قبيص واحد ، مطلقاً قهقهة
مرحة مردداً قوله :

— هل تستطيعين اللحاق بي ؟ هل تستطيعين اللحاق بي ؟

كانت المعجوز تقضي المدة التي حكم بها عليها لإضرارها النار في إحدى المزارع
بالاشتراك مع ولدها . وكان يقض مضجعها أكثر فأكثر تذكرها لولدها الذي
كان سجيناً مثلها وزوجها الشيخ الذي أصبح بلا معيل وليس لديه من يعتني به إذ
أن زوجة ولده قد فرت من المنزل الى حيث لا يدري ، وسيكون في بيته
مغموراً بالأقذار دون شك . وكان يقف بقرب النافذة أربعة نساء يتحدثن مع
الموقوفين الجدد عند مرورهم في الرواق . وكانت احداهن ، وهي سجينة بجرمة
سرقة ، ضخمة الجثة حمراء الشعر متهللة اللحم متهدلة ، صفراء الوجه نحيلة
الجسم ، ومن حين لآخر كانت تطلق كلمات نابية بصوت أبج . وكان بالقرب
منها امرأة تبدو وكأنها طفلة في العاشرة من عمرها . وكانت تضحك بلا انقطاع
لكل ما تشاهده في الرواق . وكانت عيناها السوداوان تتقدان في وجهها
الأنثى . كانوا يلقبونها بالجميلة لأنافتها . وكانت قد سجنبت بتهمة سرقة واضرام
النار . وكانت تقف وراءها امرأة طويلة القامة نحيلة الجسم ، حبلى ، ضخمة
البطن كثيراً ، وترتدي قبيصاً قذراً ، وكان منظرها يستدعي الشفقة والرحمة .
وقد حكم عليها بالسجن بجرمة التغطية على اللصوص . كانت صامتة وتراقب
بفضول كل ما يجري في الرواق وهي تبسم .

وكانت الرابعة قروية متوسطة القامة جاحظة العينين ، ينضح وجهها بالطيبة ،
وقد سجنبت لمخالفتها قانون تحريم بيع الخمر في الأرياف . وكانت تقف الى
النافذة كزميلاتها ولكن دون أن تفوه بكلمة واحدة ، أو أن تكف عن حياكة
الجوارب وكان يجانبها طفلان احدهما الذي كان يعابث المعجوز . وكانت الطفلة
الثانية في السابع من عمرها شقراء الشعر جميلة القوام ، وكانت تصغي باهتمام ،
وقد استدارت عيناها ، الى ما كانت المرأة الضخمة تقذف به الرجال من الكلام
النابي ، فتردده بصوت خافت كأنها تتوخى استظهاره .

وكانت أخيرتهن طويلة القامة حسنة القوام ، جعداء الشعر جميلة العينين .
كانت ابنة أحد الكهنة وقد اغرقت ابنها في بئر كانت لا تنفك تروح وتغدو
في القاعة بخطى واسعة ، منطوية على نفسها ، حافية القدمين ، لا يسترها سوى
قميص قدر بلون الرماد ، وغير ملقبة بالألما يدور حولها .

٣١

لم تكذب (ماسلوا) تدخل السجن بعد عودتها من المحكمة حتى خف النسوة
اليها فتحلقن حولها بما فيهن ابنة الكاهن التي وقفت فترة قصيرة ثم زوت ما بين
عينها ، وعادت الى سابق ما كانت عليه من الذهاب والإياب ، دون أن تنبث
ببنت شفة . وتوقفت (كورابلوا) عن الخياطة ، ونظرت الى (كاترين)
نظرة استفهام .

— كيف ؟ أراك قد عدت . لقد كنت أحسب أنك ستبرئين .

قالت ذلك ورفعت نظراتها عن عينها وطرحت الثوب على السرير .

— لقد كنا نحسب ان سيخلى سبيلك يا بنية . — قالت حارسة القطار .
— أردنا شيئاً وأراد الله غيره .

— هل صدر قرار الحكم ؟ — سألتها (فيدوسيا) باشفاق وحنو ، وهي ترو
اليها بعينها الزرقاوين كعيني الطفل ثم اكفهر وجهها وارتعشت شفتاها اذ كانت
توشك ان تبكي . ولم تجب (ماسلوا) بشيء وانما مضت الى حيث جلست
يجانب (كورابلوا) .

— اظنك لم تأكلي . — قالت (فيدوسيا) وهي تدنو منها .

ولم تجب (ماسلوا) أيضاً ، ولكنها أخرجت رغيف الخبز من جيبها
ووضعت على المائدة ، ثم خلعت (البلوزة) التي علاها القبار وغطاء رأسها .
وتقدمت منها أيضاً المعجوز المقوسة الظهر التي كانت تلاعب الطفل .

— تشيست . — قالت المعجوز للطفل الذي لم يرفع نظره عن رغيف الخبز
منذ وقعت عينه عليه .

وإذ رأت (ماسلوا) نفسها محطة أنظار صديقة ترو اليها بعطف وحنان ،

بعد ما قاسته في يومها من عذاب معنوي ، أحست بمقعدة تنعقد في حلقها . وعلى رغم الجهد الذي بذلته في التغلب عليها فقد غلبها البكاء وعلا شهيقها .
— لقد قلت لك ان تلجئي الى حمام بارع . ولو فعلت ما قلته لك ، إذن لأصبحت الآن حرة طليقة .

فلم تقو (ماسلوا) على أن تجيب بشيء ، وأخرجت لفائف التبغ من رغيف الخبز ، وهي لا تزال تشفق بالبكاء ، وقدمتها « للجميلة » فتناولت واحدة منها أشعلتها وأعادت (ماسلوا) .
فأخذت هذه تعب الدخان عباً ، دون أن تكف عن البكاء ، ثم قالت بصوت مشوه .

— لقد حكم علي بالاشغال الشاقة .

— ألا يخاف الله هؤلاء القتلة ؟ — قالت (كورابلوا) : — أبحكمون على بريئة ؟

وهنا ارتفعت قهقهات النسوة اللواتي كن واقفات وراء القضبان الحديدية ينظرن الى الرواق . حتى الطفلة الصغيرة كانت تضحك وكانت ضحكتها الفضية تختفي في غمرة ضحكات المجازر الحشنة الأغنة .

— آه أيها الفاسق . ماذا تفعل ؟ — قالت المرأة ذات الشعر الأحمر وهي تضحك ضحكة عالية . ثم الصقت جسمها بالقضبان الحديدية وأرسلت كلمات نابية على السمع قدرة .

— يا لك من سمجة . — ما هذه الضحكة التي تضحكينيها . — قالت (كورابلوا) ثم تحولت نحو (ماسلوا) وسألها ، وماهي المدة التي حكم عليك بها ؟

— لقد حكم علي بالسجن أربعة أعوام .

قالت ذلك وانهمرت الدموع من عينيها حتى بللت لفافة التبغ فطرحتها جانبا وتناولت غيرها . فأسرعت حارسة القطار لالتقاطها واخفاها . ثم قالت :

— يظهر انهم يفعلون ما يحلو لهم .
وانطلقت تتحدث بصوت خافت وبلا توقف .
وهنا ابتعد بقية النسوة عن النافذة ودنن من (ماسلوف) وكانت أسبهن
بائعة الخمر ومعها طفلها .

— ولماذا هذه القسوة ؟ — قالت تسألها دون أن تكف عن عملها .
— لأن المال لم يلعب دوره . فبالمال يستطيع المرء أن يفعل ما يشاء .
بوسع صاحب ذلك الأنف المنتصب الأريئة ، إخراج شخص يكاد يختنق بالماء ،
دون أن يتل به .

— أجل . — قالت « الجميلة » متدخلة : — ولكن لا بد من وجود ألف
روبل قبل الاستماع لأي كان .

— هذا نصيب . — قالت المعجوز : — من كان بوسعه أن يتصور انهم
سيحكمون بالسجن على زوج المرأة التي اختطفها آخر ، وعلي أنا في مثل سني
هذه ؟ ... — ثم أخذت تقص قصتها للمرة المئة . — من الواضح ان أحداً لن
يخرج من السجن استجداء .

— هذا ما يحدث دائماً . — قالت بائعة الخمر ، وهي تمن النظر في رأس
ابنتها بعد أن وضعتها على ركبتيها ، ثم شرعت أناملها السريعة الحركة تتسلل
بين شعرها . — لماذا تبيعين الخمر ؟ ... لانني لا أدري ما أصنع كيلا يموت
أطفالي جوعاً ...

قالت ذلك ثم راحت تواصل البحث عن القمل في رأس ابنتها .
وإذ سمعت (كاترين) ذكر الخمر تذكرت انها عطشى فقالت (لكورابلوفا)
وهي تمسح دموعها بكم قبضها :
— اشتبي جرعة من الخمر .
— وما يمنع إذا كان لديك مال ؟ — أجابتها الأخرى .

٣٢

أخرجت (كاترين) الورقة المالبسة التي بمشتها (روسا) اليها ، وقدمتها

(لكورابلوفا) . ولما كانت هذه أمية وتجهل قيمة الأوراق النقدية فقد أرتها « للجميلة » فأخبرتها انها من ذوات الروبلين ونصف الروبل فصدقتها ، وذهبت الى حيث كانت تخفي زجاجة الخمر .

فنفرق بقية النسوة عنها . وجلست (ماسلوفا) على السرير بعد أن نظفت (بلوزتها) وغطاء رأسها من الغبار الذي علق بها في الطريق من المحكمة واليها ، وأقبلت تقضم رغيف الخبز .

— لقد احتفظت لك بقليل من الشاي . — قالت لها (فيدوسيا) ثم أحضرت ابريقاً من التتلك — لقد برد .

كان الشاي بارداً . ولكن (ماسلوفا) لم تمعاً بذلك وأقبلت تجرع منه .
— خذ (يا فيناسكا) . قالت ذلك للطفل ثم أعطته قطعة من رغيف الخبز الذي ما يرح ينظر اليه بنهم .

وكانت (كورابلوفا) قد أحضرت زجاجة الخمر وكأساً فقدمت (ماسلوفا) الخمر للبانعة و « للجميلة » وكن ثلاثتهن أشبه بما يسمى أريستوقراطية السجن ، إذ كن يملكن مالا ، وكانت واحدتهن تقدر الأخرى وتحترمها .

وما عثم ان نشطت (ماسلوفا) فأخذت تقص عليهن ما جرى معها ، مقلدة حركات وكيل النيابة وصوته باذلة قصارى جهدها في ابراز كافة التفاصيل التي كان لها أكبر الأثر على نفسها . كان قد استرعى انتباهها ان جميع الرجال كانوا ينظرون اليها نظرات خاصة سواء في قاعة المحاكمات أو في قاعة المتهمين حيث كان يتذرع بعضهم بحجج كاذبة فيأتي لمجرد النظر اليها .

— حتى الجنود — أضافت تقول — كانوا يأتون ليروها ... وأحياناً كان بعضهم يأتي فيطلب ورقة أو شيئاً ما ، غير ان كل هذه ليست سوى وسيلة لرؤيتها إذ يكادون يلتهمونها بعيونهم .

وهنا ابتسمت ورفعت نظرها بأكبر .

— كلهم سواء — قالت (كورابلوفا) . يشبهون الذباب الذي يفتش عن العسل . هذا ما يحدث للجميع ...

- حتى في السجن يحدث ذلك . - قالت (ماسلوف) عندما دخلت السجن تصادف وصول سرب من الموقوفين قادم من المحطة ، فالتفوا حولي . ومن حسن الحظ جاء نائب المدير لنجدتي ، وتوافق أحدهم معي .
 - ما هي أوصافه ؟ - قالت الجميلة تسأل .
 - هو شاب أصغر ذو شاربين .
 - قد يكون هو .
 - من هو هذا ؟
 - هو (ايشغوف) ذاك الذي مر منذ قليل من هنا .
 - ولكنني لا أعرف (ايشغوف) هذا .
 - كيف لا تعرفين (ايشغوف) ذاك الذي قر من السجن مرتين ؟ ...
 لقد القوا القبض عليه الآن . ولكن ذلك لا أهمية له فسيفر من جديد .
 تصوري ان السجناء أنفسهم يخافونه .
 كانت الجميلة هي التي توزع البريد على المساجين ، ولذا كانت تقف على كل صغيرة وكبيرة في السجن .
 - على الرغم من قراره المتكرر فلن يصبح حراً طليقاً . - قالت (كورابلوفا) . ثم أضافت تقول موجبة الكلام (ماسلوف) : - وماذا قال المحامي عن تمييز الدعوى ؟
 - لست أدري . - أجابت (ماسلوف) .
 وكانت المرأة البدينة الشاحبة اللون قد اقتربت من شاربات الخمر ، فقالت (ماسلوف) وقد دست يدها في شعرها الأحمر الكث المتجمد ، وأخذت تحك رأسها :
 - أنا أخبرك (ياكاترين) . يجب أولاً ان تعلني عدم قبولك بالحكم ، ثم تستشيرني بعدئذ أحد المحامين .
 فالتفتت (كورابلوفا) الى هذه وقالت لها بمنحك .
 - وأنت ما جئت تصنعين هنا ؟ هل أتت بك رائحة الخمر ؟ نحن نعلم ما يجب علينا فعله ولا تحتاج لارشاداتك .

- انا لا أكلهك . فاسكتي .
- اسمعوا ما تقول . أتريدن خمراً أم لا ؟
- حسن قدمي لها أيضاً . — قالت (ماسلوا) وكانت مستعدة لمشاطرة رفيقاتها كل ما لديها .
- يا لك من غبية . سأعطيها ما تحتاجه .
- فأخذت ذات الشعر الأحمر تتوعد (كورابلوفا) .
- اتحسين انني أخشاك ؟
- ايتها السجينة القذرة .
- هذه أنت .
- يا خبيثة الأصل .
- اتصفيني بهذه الصفة ؟ وأنت المجرمة القاتلة . قالت المرأة البدينة وقد استشاطت غيظاً .
- ابتعدي من هنا قلت لك . — قالت (كورابلوفا) متوعدة .
- ولكن تلك كانت تدنو منها أكثر فأكثر . فلطمتها (كورابلوفا) على صدرها البدين المترهل ، والظاهر ان هذا ما كانت تتوقعه تلك بدليل انها أسرع فأمسكت بها من شعرها بيد وهمت ان تصفعا على وجهها باليد الثانية ، لولا ان هذه أمسكت يدها وهكذا لبثتا فترة طويلة تحاول كل منهما طرح الأخرى أرضاً . فأسرعت « الجميلة » و (ماسلوا) لتخليص شعر رفيقتها منها ولكنها كانت ممسكة بها بقوة ، ثم لفت صغيرتها على معصمها في حين كانت (كورابلوفا) وهي مطأطأة الرأس ، لا تنفك تضرب خصيمتها وتحاول ان تعض يدها . وتحلق النسوة حولها محاولات تفريقهن وهن يصرخن صراخاً جاداً . حتى المرأة المصابة بالتدرن الرثوي كانت تراقبهن وهي تسعل سعالاً شديداً . وبكى الأطفال وتجمع بعضهم مع بعض لفرط الرعب ، ودخل السجانون القاعة ليتبينوا ما حدث ففرقوا بين المتضاربتين ، وأخذت (كورابلوفا) تصلح شعرها المنفوش ، وتغطي الأخرى ثدييها اللذين كانا باديين من خلال قميصها الممزق ، وهما يتبادلان الشتائم والتهم .

— أجل . أعلم ان الخمر هو السبب في كل هذا . غداً سأخبر المدير ليعاقبها .
— كانت السجانة تقول . — لا أستطيع سماع قصصك . لتذهب كل واحدة الى مكانها ولتلتزم الصمت .

ولكن الصمت لم يسد إلا بعد فترة طويلة وظلت المراتان تتبادلان الشتائم وإلقاء مسؤولية الشجار . وأخيراً كفنا . فخرج السجانون .

فركمت المعجوز أمام الأيقونة المقدسة وشرعت تصلي .
— تضاربت امرأتان من المحكوم عليهما بالسجن . — قالت بصوت أبج ذات الشعر الأحمر عند الطرف الثاني من السرير متبعة كل كلمة بشتيمة نابية .
— أسكني وإلا كسرت رأسك . — أجابتها (كورابلوفا) ثم كالت لها الشتائم .

ثم صمتتا برهة .
— لو لم يسكنوني لفقات عينها . — قالت الأولى ، فردت عليها (كورابلوفا) بالمثل .

وأخيراً هدأت العاصفة وسكنت المراتان وساد الصمت .
ونام أكثرهن مغفمات بكلام غير مفهوم ، إلا المعجوز فانها ما زالت راكعة تصلي وابنة الكاهن ما فتئت تذرع الغرفة ذهاباً وإياباً .
ولم تكن (ماسلوفا) قد نامت ، ولكنها كانت منصرفه للتفكير بمصيرها وانها أصبحت سجيناً ، وقد عيروها بذلك مرتين . ففمها ذلك غماً شديداً .
وكانت (كورابلوفا) راقدة بجانبها وقد أولتها ظهرها . فتحولت الى الجانب الآخر لتصني إليها وهي تقول .

— ما كنت أتصور ذلك أبداً . — قالت (ماسلوفا) بصوت خافت .
— كم من المجرمات برئت ساحتهن وأنا البريئة أدا .
— لا تخافي . — قالت لها (كورابلوفا) لتواسيها . — في سيبيريارجال كثيرين ، وستسوي أمرك .

— أجل سأسوي أمري . ولكنني قبل ذلك سألاقي الأمرين لأنني تعودت على رخاء العيش . لم أكن أستحق ما أصابني .

— إرادة الله لا تقاوم . — أجابت الأخرى : — يفعل الله ما يشاء .
 — أعلم ذلك ، ولكن الازدعان يكلف غالبا .
 — اسمعي تلك البلهاء . — قالت (كورابيلوفا) مسترعية انتباه (ماسلوف) لشهيق بكاء يأتي من الطرف الثاني من السرير العام .
 كانت المرأة ذات الشعر الأحمر تبكي . لقد ضربت وشتمت ، ولكنها لم تظفر بقطرة واحدة من ذلك الحمر الذي طالما تشتهيه ... لقد كانت نصيبها الدائم في حياتها حيثما حلت السخرية والشتائم والضرب والمسابات ... وأجبت أن تشجع نفسها وتقوي عزيمتها بالعودة الى ذكرى غرامها الأول (يكد كامولودونكوف) العام الشاب . ثم عادت فتذكرت نهاية ذلك الغرام في تلك الليلة الرهيبة التي قذفها هذا فيها ، على سبيل المزاح ، بمحلول كاو ، ثم أقبل ، وهو في حالة سكر شديد ، يضعك هو وصعبه منها ، في حين كانت تتلوى من الألم ... فأثارت تلك الذكرى اشفاقها على نفسها ، وأزكت احساسها بانها منبوذة ، فأقبلت تبكي بحرارة كالطفل متدمرة شاكية شارقة بدموعها .
 — يا لها من منكودة . — قالت (ماسلوف) انها تستدر الشفقة .
 — أجل انها لمنكودة ، وتستدر الشفقة . ولكن عليها ان تحترم الآخرين على الأقل .

٣٣

كان الانطباع الأول الذي استولى على احساس (نيكليندوف) هو ان حدثا هاما قد طرأ على حياته . وقبل ان يحاول الكشف عن ماهيته ، كان عميق الاقتناع بأنه لن يكون إلا نبيلاً وأصيلاً : انه (كاترين) والمهاكمة ، وضرورة قول الحقيقة في المستقبل ، والابتعاد عن النفاق .
 ومن غرائب الصدق أن يحمل له البريد ذلك الصباح الرسالة المنتظرة بفارغ الصبر ، والتي كان آتئذ أشد ما يكون حاجة اليها . جاءت (ماري فاسيليفنا) تقول له برسالتها انها تترك له حرية التصرف بحياته ، متمنية له السعادة والهناء في زواجه المقبل الذي كانت تتصوره وشيك الوقوع .

— زواج ... — قال باستهزاء . — ما أبعدني عن هذا الأمر .
وتذكر ما كان قد قرره بالأمس من اطلاع زوج المرأة على جريمته ، عارضاً
عليه ما يشاءه من ترضيات . ولكنه عاد فرأى فيه خطأ كبيراً .
— ولماذا اتعاس حياة رجل يعيش ناعم البال في جهله ؟ أجل سأفعل ذلك
إذا ما سألتني وسأعترف له بكل شيء . ولكن ليس من الحكمة في شيء ان
أبادر للاعتراف له بذلك .

كذلك رأى ان من المسير عليه التصريح (لمارغريت) بما ينويه بالنسبة
لزواجه منها . ورأى ان خير ما يفعله مؤقتاً الانقطاع عن زياراتهم ، حتى إذا
ما سئل عن أسباب انقطاعه أجاب بالحقيقة .
أما بالنسبة (لكاترين) فكان يرى انه ينبغي أن يكون كل شيء واضحاً
ومحدداً .

— سأزورها في السجن ، وسأطلب صفحتها عن زلتي ، وسأزوج منها إذا
اقتضى الأمر . — بمثل هذا كان يفكر . وكانت فكرة التضحية والزواج من
(كاترين) تلبية لنداء الواجب تهز مشاعره .

لم يبدأ (نيكليندوف) منذ زمن طويل ، يوماً كيومه ذاك الذي تزخر
فيه نفسه بالمقاصد الطيبة ، والنوايا الحسنة ، والروح العامرة بالاقدام . فها هوذا
يدعو قيمة قصره (اغريينا بيروفنا) ويخبرها بأنه ابتداء من ذلك اليوم لن
يكون بحاجة للقصر ولا لخدماتها هي . وان احتفاظه بالقصر حتى الآن كان
لرغبته في الزواج . أما وقد تنازل عن فكرته هذه فلا بد له من الاستغناء عنه .
فنظرت اليه قيمة القصر نظرة استغراب ودهشة .

— انني أشكر لك خدماتك لي ، ولكنني لست بحاجة لمثل هذا القصر ولا
لهذا العدد العديد من الخدم . أطلب اليك ان تهني لي ثيابي الآن وبعدئذ
ستبلغك (نتاليا) أختي الأوامر في حينها .
فهزت (اغريينا بيروفنا) رأسها .
— ألا تحتاج لشيء آخر ؟

- كلا . لا احتاج لشيء آخر . وحسناً تصفين إذا أبلغت (كورني) انه
- حر في تصرفاته اعتباراً من الآن وان كان قد استلف مني راتب شهرين .
- هل فكرت في أمرك ودرست ما أنت مقدم عليه يا (ديتري ايفان) .
- إذا كنت ستسافر الى خارج البلاد فستحتاج لقصرك عند عودتك .
- لم تدركي قصدي بعد ، فأنا لا أنوي السفر الى الخارج .
- وهنا اصطبغ وجهه بحمرة الخجل حتى منابت شعره .
- لا بد من الاعتراف بكل شيء إذ لا فائدة من الكتمان . - كان يقول في نفسه . - من الضروري إيضاح الأمر .
- لقد حدث لي حادث . - بدأ حديثه معها بصوت عال . - هو حادث خطير وغريب . أتذكرين (كاترين) التي كانت عند خالتي (ماري ايفانوفنا) ؟
- بلى أنا علمتها الحياطة .
- لقد مثلت أمس أمام المحكمة وكنت في عداد المخلفين .
- آه ، رباة . مسكينة . وبماذا يتهمونها ؟
- يتهمونها بجريمة قتل . وكنت أنا المسبب .
- كيف المسبب ؟ ان ما تقوله غريب جداً .
- وانقدت عينا المعجوز بهريق حاد . انها تعرف تاريخ حياة (كاترين) .
- نعم ، نعم . أنا هو المسبب . وهذا سيفير مجرى حياتي .
- لست أرى أي صلة لهذا بحياتك . - قالت (أغربينا) وهي تخفي ابتسامتها .
- ما دمت أنا المسبب لما تلاقيه من الويلات ، فالواجب يقضي علي بأن ابذل جهدي لانقاذها .
- هذا يرجع الى رغبتكم الطبية . غير ان قسماً هاماً مما جرى لها لا علاقة لك البتة به ، ولا ينبغي ان تبتئس بسببه ، لقد شذت عن الصراط السوي منذ زمن طويل ، فمن كان المخطيء ؟ - قالت المعجوز بحزم وقسوة .
- لقد كنت أنا المخطيء ، ولهذا أرغب في تلافيه .

— أرى ذلك عسيراً عليك .
 — وكذلك أراه أنا . ولكن على كل حال سأحاول ما استطعت . وبالنسبة
 لك فانت تعلمين ما أوصت به أمي .
 — أنا لا أهتم لنفسي ، فالأميرة المرحومة والدتك كانت جد كريمة معي فلم
 تدعني احتاج أحداً ... وكثيراً ما حاولت ابنة اختي أن اذهب فأقضي عندهما
 بقية عمري . وغداً اذا ما غادرت هذا المنزل سأقيم معها . ولكن صدقني انك
 ترتكب جريمة في حق نفسك اذا كنت جاداً فيما قلته لي الآن اذ لو لم تأت انت
 ما أثبتت لأناه غيرك حتماً .
 — لا أشاطرك هذا الرأي . أعدي لي الثياب ، ودعي المواعظ ... اشكرك
 على كل شيء .

لقد أصبح (نيكليندوف) أكثر حياءً وتقديراً (لأغريينا) و (كورني)
 منذ تبين له ان الحياة التي يحياها كانت لاخلاقية ، وشعر باحتقار نفسه . ولم
 تمنح لو بصرح بكل شيء (لكورني) كما صرح (لأغريينا) ولكن الجسرة
 خائنه .

كان (نيكليندوف) وهو في طريقه الى ذات المحكمة تقله ذات العربية التي
 أفلته يوم أمس ، ويقودها الخوذي ذاته متخذاً اليها ذات الطريق التي سلكها
 بالأمس ، ومع ذلك فقد كان يحس أنه قد أصبح رجلاً آخر ، رجلاً يختلف كل
 الاختلاف عما كان في اليوم الماضي .

كذلك أصبح يرى زواجه من (مارغريت) أمراً مستحيلاً ، وكان بالأمس
 يحسب ان زواجه منها سيجعلها جد سعيدة ، أما الآن فقد أصبح يرى نفسه
 وضعياً ، ولذا فهو غير كفء للتقرب منها فما بالك بالزواج .

— لو عرفت ماضي حق المعرفة ، إذن لرفضت أن تستقبلني في منزلها . أمن
 الممكن الشهور بالسعادة ، أو على الأقل الاطمئنان في الحياة ما دمت أعلم أن
 (كاترين) سجينه ، وانها غداً او ما بعده ستنقل الى مكان ما في سيبيريا لتقضي
 أعوام سجنها ؟ وفي حين تقاسي الأهوال في سيبيريا يجربني ، أقلب أنا في

أحضان السعادة الى جانب امرأة شابه ، أو اقترع في المحكمة وماريشال النبلاء الذي خنته بوقاحة . كلا ، كلا . هذا مستحيل ، سأحدث مع المحامي . وبعثند ... بعثند سأواجهها ، وأحدث معها وأطلب منها الصفح . واذ تصور أنه سيمود ليراهما ، وانه سيعترف لها بخطيئته وسيعدها بالعمل ما أمكن على تلافي أمرها ، وأنه سيتزوجها امتلأت نفسه بهجة وسروراً .

٣٤

عندما بلغ (نيكليندوف) بناء المحكمة صادف أحد كتبتها في الرواق فسأله أين وكيف يستطيع مواجهة المساجين الذين صدرت أحكام بحقهم ، فأجابه الكاتب انهم في سجون مختلفة ، وانه قبل أن يبت نهائياً في أمرهم فان الأذن بزيارتهم يعطى من قبل النيابة العامة .

— سأرافق ممثل النيابة بعد الجلسة أما الآن فمن العسير التحدث اليه . وفيما كان (نيكليندوف) يهم بالدخول الى قاعة المحلفين بعد أن شكر الكاتب على معلوماته ، رأى زملاءه يغادرونها لينتقلوا الى قاعة المحاكمات . فحياء التاجر ذو الوجه الصبوح الذي كان قد أكل وشرب جيداً كمادته ، تحية صديق قديم ، ولم يبد (بطرس جيراسيموفيتش) ثقل الظل للأمر كالمعتاد . كان (نيكليندوف) راغباً كل الرغبة في اطلاع المحلفين على مدى علاقته القديمة بالمتهمة التي حكموا عليها بالسجن أربع سنوات نهار الأمس ، على الرغم من برائتها . وكان يقول في نفسه .

— كان من الواجب علي أن أقف أمس فأصرح بجريمتي أمام جمهور الحاضرين . ولكنه عندما دخل القضاة الثلاثة القاعة الواسعة يتبعهم الكاهن والحرس والمحلفون وأخذ الجميع أماكنهم شعر برهة وانكماش ، وأدرك آتئذ انه اليوم كما كان بالأمس تعوزه الجرأة على تكبير جلال ذلك المشهد ، والاجراءات المهيبة . وبعد أن أقسم المحلفون اليمين القانونية ، والقي الرئيس كلمته ، تكررت نفس الاجراءات النظامية التمهيدية . كان ينظر آتئذ في دعوى سرقة يتهم فيها شاب في حوالي العشرين من عمره ، ضيق المنكبين ، شاحب اللون مريض السمات .

وكان يجلس على المقعد بين جنديين شاهري السيوف يراقب الداخلين. كان ملخص الدعوى ما يلي : لقد قام المتهم بالاشتراك مع أحد زملائه بخلع قفل باب أحد المتاجر وسرقة ما قيمته (٣٠٧٥) روبل ، فداهما رجل الشرطة أثناء ارتكابهما الجريمة . وأقر كلاهما بفعلته ، فاعتقلا وأودعا السجن . غير أن الشريك توفي قبل انتهاء المحاكمة ، وظل هذا ليحاكم وحده . كانت الأشياء المسروقة موضوعة على الطاولة أمام القضاة كأدلة اثبات .

وسارت المناقشات سيرتها المعهودة . من استجوابات فيمين فشود فخبراء فأدلة اثبات . وكان الشرطي الذي القى القبض على الجانبين مقلًا في اجاباته عما يسئل عنه ، سواء من قبل الرئيس أو المدعي العام أو المحامين . وكانت جميعها على النسق التالي :

— أجل يا سيدي . كلا يا سيدي . هذا ما حدث .

وكان يبدو أنه يشفق على المتهم فهو لا يريد احراج موقفه . وكان الشاهد الثاني عجوز شاحب اللون ، وهو صاحب المحل التجاري الذي سرقت منه الأمتعة . ولما سأله الرئيس عما اذا كانت الأغراض التي على الطاولة تخصه أجاب بلا رغبة ان نعم . ولما سأله المدعي العام عما اذا كانت الأغراض هذه ذات أهمية بالنسبة له أجاب بقوله :

— لعن الله الفائدة التي انتظرها منها . لو علمت انها ستسبب لي كل هذا العناء ووجع الرأس اذن لما اكتفيت بعدم الشكوى وانما لبذلت مالا كي اتفادى ما لقيت من مضايقات لقد أنفقت خمس روبلات أجور عربات . وزيادة على ذلك فأنا مريض وأشكو من فتق ، وأشعر بآلام عصبية .

وكان المتهم يعترف بكل شيء . ويتكلم بصوت خافت . وينظر فيما حوله بنظرات شاردة كحيوان صغير علق في الشرك .

كانت القضية بسيطة واضحة كل الوضوح . ولكن ممثل النيابة العامة أخذ بالقاء الأسئلة ، كما فعل في اليوم الماضي ، التي تضلل المتهم الخطر وتوقعه في مناقضات تدينه . ثم قال في مطالعته ان السرقة وقعت في مكان مأهول ، ومصعوبة بكسر ، وعليه فان الجاني يستحق حكماً قاسياً .

وجاء محامي الدفاع يفند حجج ممثل النيابة العامة . فلم ينكر الجرم ولكنه قال ان المتهم لا يشكل بالنسبة للمجتمع الخطر الذي يصوره ممثل النيابة العامة . وشرح الرئيس ، ممثل العدالة والحياد ، ما علمه المحلفون وما لم يستطيعوا علمه . ثم أعلنت فترة استراحة خلال الجلسة ، كما مر أمس ، حيث دخن الجميع وثرثروا ثم أعلن الحاجب افتتاح الجلسة فأخذ الحراس الجالسون ينفضون غبار النعاس عن عيونهم .

وقد علم من سياق الدعوى ان المتهم كان قد أدخله والده كعامل في أحد مصانع التبغ حيث لبث خمس سنوات . ولكنه أقصي عن عمله بعد ذلك ، على أثر خلاف قام بين بعض العمال ورب العمل . ولما أصبح عاطلاً عن العمل لازم الحانة حيث أنفق القليل الذي كان قد ادخره من عمله . وفي أحد المطاعم تعرف على شريكه . وفي حالة سكر من كليهما خلعا معاً قفل باب أحد المتاجر ، وأخذوا ما وصلت اليه أيديهما من الأشياء . هذا الشاب يحاول ممثل النيابة العامة الآن إبرازه كحظر على المجتمع .

— أجل . انه شخص خطر كذلك التي كانت بالأمس . — كان (نيكليندوف) يقول في نفسه . — ولكن اذا كان هؤلاء خطرين . فما بالناس نحن اذن ؟ ما عساي أكون أنا الرجل الفاسق الغوي . وما هو المجتمع بكامله ؟ المجتمع الذي لا يكتفي بعدم احتقاره لي ، على الرغم من اطلاعه على رذائلي كلها ، وانما يختصني بالإضافة الى ذلك بكل تحلة واحترام ؟

لقد كان واضحاً جلياً ان الفتى لم يكن مجرمًا محترفاً . وإنما فتى فقيراً ، ألبائته ظروفه لارتكاب جريمة السرقة . كذلك أصبح واضحاً أنه كما نتفادى حدوث وقائع مماثلة ، علينا أن نعد الى تلك الظروف التي لجأت إليها فنزيلها من الوجود . وتلك هي الحاجة ، والجهالة ، والفقر .

— لو أتبع لهذا الفتى المنكود الطالع رجل شفقة يقول له عند دخوله الحانة بصحبة رفاق يكبرونه سناً ، بعد مجهود اثني عشرة ساعة لينفثق على الخمر في ساعات قلائل بمجهود أيام : « لا تدخل يا بني الى الحانة . ولا تنفق على الخمر ما

اقتضاك الحصول عليه تعباً وكداً ، لو أتيح له هذا الرجل إذن لأقلع عن فعلته ، ولما رأيته الآن جالساً أمامنا في صفوف المتهمين . — هذا ما كان (نيكليندوف) يقوله في نفسه وهو يتأمل وجه الفتى الشاحب المرعوب . — ولكن رجلاً الخبير هذا لم يظهر قط في طريقه وهو يعمل بكبد . وقد تعلم من رفاق السوء إن الرجل البارح هو ذاك الذي يحسن شرب الخمر ، والتفوه بالكلام البذيء والسباب ، وخداع القريب . وحينئذ أصبح مريضاً وفاسداً وراح يتسكع في الشوارع بلا مال وبلا عمل ، ومد يده الى بعض الحاجات العتيقة سداً لموزة ، يأتي المجتمع فيعاقبه بحجة إصلاحه . إلا أن هذا العمل لمشائن بغيض .

لم يكن (نيكليندوف) ، وهو جالس في الصف الأول بين المخلصين ، يتتبع سير الدعوى وإنما كان منصرفاً لأفكاره هذه مأخوذاً بتأملاته ، فيسبب له تتبعها غماً وأسى . وأدهشه أنه لم يظن لها من قبل . وأن أحداً غيره لم يظن لها أيضاً .

٣٥

خرج الأمير (نيكليندوف) الى الرواق في فترة الاستراحة ، وفي نيته ألا يعود الى القاعة مرة أخرى وليفعل القضاة بالتمهم ما يحلو لهم . فقد قرر ألا يكون له في المستقبل أي صلة بتلك المهزلة السخيفة .

واستعلم الأمير عن مكان النائب العام وتوجه إليه . ومانع الحاجب في دخوله عليه محتجاً بكثرة أعماله ، ولكن الأمير نحاه جانباً وتقدم من أحد الكتبة وشرح له قصده . وفعل لقب الأمانة وأناقة (نيكليندوف) فعملها فسمح له بالدخول .

كان النائب العام واقفاً . فسأله الخاج الأمير وسأله يحفاء .

— ماذا ترغب ؟

— انني أحد المخلصين وادعى (نيكليندوف) واحتاج حاجة ملحة لمواجهة (ماسلوف) . — أجاب الأمير مسرعاً وقد احمر وجهه خجلاً ، شاعراً بأنه يستخدم نفوذه لغاية بعيدة الأثر على حياته .

كان النائب العام أسمر اللون ، ربع القامة ، حاد العينين كثيف اللحية كث الشعر .

— (ماسلوا) اعرف من هي ... تمزى إليها جريمة دس السم . ولماذا تريد أن تراها ؟ — قال له يهدوء . ولكي يلفظ من جفاء لهجته أضاف يقول : لا أستطيع إعطاء الاذن بالزيارة قبل أن أعرف السبب .
— أريد أن أراها لأمر يهمني كثيراً . — أجاب الأمير وقد ازداد وجهه احمراراً .

— ولكن ، هل صدر بحكمها حكم ؟
— بلى . لقد حكم عليها بالسجن أربع سنوات مع الأشغال الشاقة ولكنها بريئة .

— هكذا ؟ — أجاب النائب العام دون أن يأبه لما قاله (نيكليندوف) عن براءة (ماسلوا) — إذا كان قد حكم عليها بالأمس فينبغي أن تكون في السجن الوقت ، وهناك لا تمنع زيارة الموقوفين أنصحك في أن تذهب الى هناك .
— ينبغي أن أراها حالاً .

— ولماذا تحتاج لمواجهتها ؟
— لأنها حكمت بالأشغال الشاقة وهي بريئة . وأنا المجرم .
— وما يعني هذا ؟

— لقد أغويتها . ويجريرتي هوت الى الدرك الذي تتخبط فيه الآن . ولولا فعلتي لما انحطت بهذا المقدار .

— لست أرى الصلة بين ما تقول وبين طلب الترخيص بزيارتك لها .
— أريد أن أتبعها الى حيث تذهب ... وأريد الزواج منها . — قال هذا واخضلت عيناه بالدموع شأنه في كل مرة كان يتحدث فيها عن مقاصده .

— هل أنت جاد في قصدك هذا ؟ — قال له النائب العام — انها لحادثة فريدة من نوعها . إذا لم أكن غلطاً فسموك مستشار في مدينة (كراسنوبورسك)
— أضاف يقول ، وقد تذكر أنه سمعهم يتحدثون عن (نيكليندوف) هذا الذي يحدثه الآن بما يعسر تصديقه .

— عفواً . أظن أن هذا لا علاقة له بطلي . — أجاب (نيكليندوف)
بنفاد صبر .

— هذا صحيح . — أجاب النائب العام دون أن يتأثر ويكاد يكون باسم —
ان رغبة سموكم شديدة الاغراق في الخيال ، وبعبدة جداً عن المألوف .
— أتمنحني الترخيص ؟

— أجل وسأكتبه حالاً . والآن تفضل بالجلوس .
ثم تقدم من مكتبه وشرع يكتب .
ولبت (نيكليندوف) واقفاً الى أن فرغ النائب العام من كتابة الترخيص
ودفعه له وهو يتفحصه ملياً .
— كذلك أود أن أصرح بأنه لا يسعني منذ الآن أن أواصل عملي في مجلس
المحلفين .

— هذا الاعتذار ينبغي أن يبنى على أسباب مشروعة .
— سبب ذلك اعتباري كل جلسة من جلسات المحكمة عملاً ليس عديم
الفائدة فحسب ، وإنما عملاً غير لائق .

— صحيح ؟ — أجاب النائب العام باسم كما لو كان قد سره هذا التصريح .
— يجب أن تعلم انني كقاض لا يسعني إقرار سموكم على هذا الرأي . وأنصح
لك بأن تصرح بذلك للمحكمة ، فاذا قبلت اعتذارك ، وإلا فسأراني مجبراً على
فرض غرامة على سموكم .

— لقد صرحت بذلك للمحكمة . — أجاب (نيكليندوف) . — وأؤيد
لكم انني لن أدخل قاعة المحكمة بعد الآن .
— أرى من واجبي إبلاغ سموكم أنكم بذلك تعرضون أنفسكم للغرامة .
— أجابه النائب العام وهو يحن رأسه .

لم يكبد (نيكليندوف) يخرج من مكتب النائب العام حتى دخل إليه أحد
القضاة فسأل قائلاً .

— من ذاك الذي كان هنا الآن ؟

- هو (نيكليندوف) ذاك الذي كان في مجلس بلدية (كراسنوبورسك)
يقترح اقتراحات خيالية . وهو الآن يفكر في الزواج من امرأة محكومة
بالأشغال الشاقة .

- أهذا ممكن ؟

- لقد صرح لي بذلك الآن ... ويبدو أنه واقع تحت تأثير حالة نفسية
خاصة .

- أعتقد أن شبيرة اليوم ليست على حالة سوية من العقل ...

- أجل . ولكن هذا ليس فنياً .

- أتعلم أن (إيفاشنكوف) الجزيل الاحترام قد أضجرنا كثيراً ؟ انه يتكلم
كالرشاش .

- ينبغي إسكاته . ان هذا نوع من اضاءة الوقت وتعطيل الأعمال .

٣٦

على أثر خروج الأمير (نيكليندوف) من مكتب النائب العام توجه رأساً
الى السجن حيث صادف خيبة أمل جديدة . فقد أنبأه المدير ان (كاترين) يجب
أن تكون قد اقتيدت الى السجن القديم ، حيث يحضر المحكومون بالابعاد .
وكانت المسافة بين السجنين طويلة بحيث لم يستطع الأمير بلوغه إلا بعد الظهر
على الرغم من سرعته الفائقة في المسير . وأراد أن يقترب من باب البناية الكبير ،
القائم اللون ، إلا أن الحارس لم يسمح له بالدنو منه وقرع جرساً فخف اليه بواب
أطلعته الأمير على الترخيص الذي يحمله . غير ان البواب أبى أن يسمح له
بالدخول قبل الاستئذان من المدير . وهكذا اضطر (نيكليندوف) أن ينتظر .
وفيا كان (نيكليندوف) يصعد السلم سمع البيانو يعزف مقطوعة من
مقطوعات (ليست) . فسأل الخادمة عما إذا كان المدير حاضراً في البيت
فأجابته بالنفي .

- ومتى يحضر ؟

- سأستعلم عن ذلك .

وتوقف العزف وارتفع صوت حاد يقول انه غير موجود وسيظل غائباً طيلة ذلك النهار . قولي ذلك لكل من يسأل .

وعاد البيانو يبعث أنغامه من جديد . إلا أنه لم يلبث أن توقف من جديد ، وسمع صوت كرسي يجر مما دله على أن العازفة أرادت أن ترى من هو الذي يسأل عن المدير في مثل تلك الساعة .

— إن أبي متغيب عن البيت . — بدأت تقول بصوت حاد فتاة قبيحة الوجه شاحبة اللون . ولكنها إذ رأت شاباً أنيقاً غيرت لهجتها وقالت : — تفضل أدخل . ماذا تريد ؟

— أريد أن أواجه سجينته ولدي ترخيص من النيابة العامة . — آه . لا أعرف شيئاً من هذا . — أجابت الصبية — ان أبي متغيب عن البيت . ولكن إذا شئت أن ترى نائب المدير فهو في مكتبه . أتريد أن تترك لي اسمك ؟

— أشكرك كثيراً . — قال لها دون أن يجيب على سؤالها . ولم يكذب بل بلغ أعلى السلم حتى عاد البيانو الى إرسال نغماته . وفي البهو الخارجي التقى بأحد الموظفين فأخبره هذا ان الترخيص بدخول السجن الجديد غير صالح لدخول السجن القديم . وفضلاً عن ذلك فان موعد الزيارات قد فات .

— تعال الى هنا غداً في الساعة العاشرة صباحاً حيث موعد الزيارات ، وسيكون المدير في مكتبه .

فعاد (نيكليندوف) الى بيته وهو لا يفكر في شيء سوى (كاترين) والحديث الذي دار بينه وبين النائب العام ، وما قاله له الموظفون وما أجابهم به . وكانت محاولة رؤية (كاترين) بشتى الطرق الممكنة ، وتصرّحه برغبته للنائب العام ، وذهابه الى السجنين ، كل ذلك كان عاملاً على إثارة أعصابه التي أبت أن تهدأ .

وعندما بلغ المنزل أخرج السجل الخاص الذي اعتاد أن يدون فيه مذكراته اليومية فدون ما يلي :

« منذ عامين لم أسجل هنا شيئاً عن أحداث حياتي لأنني كنت أرى ذلك أموراً صيانية ، وكنت أحسبني غير مخطيء . أنه حديث بين ضميري وذلك (الأنا) الحقيقي المثقف الموجود بين جنبي كل انسان . لقد ظل هذا (الأنا) مغموراً بالظلام طيلة هذه المدة ، وقد تنبه الآن بسبب حادثة غير عادية . ففي (٢٨ نيسان) بينما كنت في المحكمة بوصفي عضواً في مجلس المحلفين ، رأيت على مقاعد الاتهام ، وفي ثياب السجينات ، (كاترين) تلك الطفلة الغريبة التي أغويتها في زمن مضى ، والتي حكم عليها بالسجن مع الأشغال الشاقة خطأً اختطأته . أعود الآن من السجن ، بعد ان قابلت النائب العام واستحصلت منه على اذن بمواجهتها ، ولكنهم أبوا السماح لي بذلك . أنا مصمم على رؤيتها ، والتحدث إليها ، وطلب الصفح منها ، والتكفير عما اجترحته بحقها ، والزواج منها إذا استلزم الأمر . رباه أعني ... إني لأشعر بسرور فياض يغمر قلبي » .

٣٧

لم تغف عن (لكاترين) طوال ليلها ، وهي مستلقية في فراشها على ذاك السرير السيء الذي كانت فيه كالقبورة . وكانت أحياناً ، وقد اتسمت حدقتها ، تنظر محملة باتجاه باب السجن ، وأحياناً أخرى تراقب ابنة الكاهن التي ما انفكت تذرع القاعة ذهاباً وإياباً . وكانت عاصفة من الأفكار والتصورات تجتاح مخيلتها . فطوراً كانت تقول أنه ليس من مصلحتها أن تعبر التفتاح لأي من المساجين . وإنما عليها أن تتصل بأحد السجناء أو الكتيبة أو الموظفين ، فالنساء يجتذبن الجميع على السواء . غير أن فكرة واحدة كانت تشغل بالها وتقض مضجعها ، وهي أنها قد يدر كها الهزال نتيجة السجن فينفض الناس من حولها ، وهناك الطامة الكبرى .

تذكرت انها في المحكمة كانت محط انظار الجميع ابتداء من القضاة حتى الجنود . وحتى محاميها كان ينظر اليها نظرات خاصة . كما تذكرت أيضاً أن (سبرتا) قالت لها ان طالباً كانت تحبه أثناء وجودها في محل (روسا) قد

جاء يسأل عنها . كانت تستعرض في ذاكرتها كل شيء ، وسائر الناس ما عدا (نيكليندوف) .

لم تكن تتذكر شيئاً عن طفولتها ، وشبابها ، وعن هيامها بالأمير . لقد احتفظت بتلك الذكريات التي كانت شديدة الإيلام لنفسها ، في أعماق أعماق روحها ، وأوصدت عليها الباب الى الأبد ، فهي لن تتذكر (نيكليندوف) حتى ولو في الحلم .

لم تكن قد عرفت عندما كانت تنظر اليه أثناء المحاكمة . وليس ذلك لأنه قد تغير كثيراً وأصبح ذا لحية ، وانما لأنها لم تفكر فيه إطلاقاً . لقد دفنت كافة ذكرياتها عنه ذات ليلة حالكة عاصفة عندما أبى أن يعرج على بيت خالته أثناء عودته من ميدان القتال .

لم يكن يهمل كثيراً ، تلك الليلة ، أمر ذلك الجنين الذي تحمله في أحشائها لأنها كانت ترتقب لقاء الأمير . وعندما خاب أملها بلقائه تغير كل شيء وأصبح ذلك الجنين الذي سيطل قريباً على الدنيا مثار ازعاج لها ، وعبئاً ثقيلاً لا قبل لها به .

كانت العانس تتوقع قدوم (نيكليندوف) تلك الليلة . ولكنه أبرق في الساعات الأخيرة معتذراً بأنه لا يستطيع التوقف لأن عليه أن يكون في سان بطرسبرج في اليوم التالي . ولما علمت (كاترين) بذلك قررت الذهاب الى المحطة كي تراه وهكذا فأنها بعد ان أعانت سيدتها على خلع ثيابها غطت رأسها بلاءة واصطحبت معها (ماسكا) ابنة الطاهية المجوز وذهبت الى المحطة لتكون بانتظاره عند وصول القطار في الساعة الثانية بعد منتصف الليل .

كانت تلك ليلة عاصفة من ليالي الخريف . وكانت الرياح تهب عاتية والمطر ينهمر مدراراً . وكان الظلام حالكياً حتى لم تكن ترى الأرض . وضلت الطريق في الغابة القاتمة كغم الذئب على رغم معرفتها الجيدة بها . وكان القطار يوشك أن يغادر المحطة عندما وصلتها إذ كان الجرس قد قرع مرتين . ولما أصبحت على الرصيف رأت الأمير واقفاً في إحدى عربات الدرجة

الأولى ، وعلى مقربة منه ضابطان يلعبان الورق في تلك الشقة الباهرة النور . كان (نيكليندوف) متكئاً باحدى يديه على مسند المقعد مرتدياً قيصاً شديداً البياض وسروال الفرسان وهو يضحك ببله شديده . فقرعت (كاترين) الزجاج بأناملها المتجمدة من البرد . ولكن الجرس ما عثم ان قرع للمرة الثالثة فتحركت المعجلات . فأعادت الفتاة نداءها ودنت من النافذة . إلا ان العربى كانت تفر منها . فجرت (كاترين) وراءها لتلحق بها . وحاول أحد الضابطين رفع الزجاج فتسرع عليه . ودنى (نيكليندوف) من النافذة .

وكان القطار قد أصبح يسير مسرعاً . وعلى الرغم من ان (كاترين) كانت تجري بأقصى سرعتها ، آمله أن تعود فترى الأمير إلا أن عربات الدرجة الأولى كانت قد توارت ، وجاءت بعدها عربات الدرجة الثانية ولكن لتختفي ، وكذلك عربات الدرجة الثالثة . وكانت قد خرجت من تحت السقيفة ، قد أهمتها عصفه من الريح اطارت ملاءتها عن رأسها والتفت ثوبها على ساقها .

وكانت الطفلة تجري وراءها من بعيد كي تلحق بها وهي تنادىها قائلة : يا خالى (ميكابلوفنا) يا خالى (ميكابلوفنا) لقد أضعت مندليك . وأمسكت (كاترين) فجأة عن الجري ، والتفتت الى الوراء ثم انفجرت قبكي بكاء مرأ . ثم صرخت تقول :
— لقد ذهب .

هو الآن جالس في مقعد مخملي مريح في عربى قطار فخمة يضيئها نور باهر ، يتندر ويشرب الخمر . وأنا هائمة على وجهي في هذا الظلام الدامس ، تتلاعب بي الريح ، وبيللتي المطر أبكي وأبكي . وعندما بلغت هذا الحد من تفكيرها ألقت بنفسها على الارض باكية بكاء اليائسة مما حمل الطفلة على ان تقول لها متوسلة مرعوبة .

— لنعد الى البيت يا خالة .

فلم تعجب (كاترين) وكانت قد قررت أمراً .

— عندما يأتى القطار الثانى سألقى بنفسى تحت عجلاته فينتهى كل شيء ... هكذا كانت تفكر .

وفجأة أحست بحركة في أحشائها . انه « هو » الطفل . طفلها . لأجله نسيت كل ما كان يرهقها منذ قليل . نسيت كرمها للأمير ، ورغبتها في الانتقام ، وتصميمها على الانتحار .

وإذ هدأت ثورة أعصابها ، غطت رأسها بمنديلها ، وعادت أدراجها الى البيت متعبة مغمومة ، ملطخة الثياب بالوحل ، مبتلة بالماء .

منذ ذلك الوقت . أ التحول الذي طرأ على نفسها ، والذي كان من المحتم أن يقودها الى الدرك الذي تردت فيه .

كانت تؤمن بالله كما يؤمن به غيرها من الناس . ولكنها ابتداء من تلك الليلة فقدت إيمانها به ، وإيمانها بوجود مؤمنين به . وأصبحت ترى تضليلاً وظلماً ، كل ما يبشر به المبشرون عن الله وشرائعه . كان (نيكليندوف) في نظرها خيراً من غيره من الرجال الذين عرفتهم ، فاذا كان هو كذلك فما عسى أن يكون أولئك يا ترى .

وأكدت لها الاحداث التالية صدق معتقدها . فقد طردتها العانس من منزلها عندما أصبحت لا تصلح دابة لحمل الأثقال . وأساء الآخرون معاملتها ولم يرحوها . واستغلها النسوة كوسيلة للغنم ، ورأى فيها الرجال ابتداء من الشرطي المعجوز حتى السجان ، مادة لذة . لم يكن أحد يريد لها غير ذلك . بهذا أقنمها الكاتب المعجوز الذي عرفته بعد قليل من سقوطها . كان يقول لها ان اللذة هي سعادة الحياة ، وجمالها ، وشعرها . كل يحيا لنفسه ، وللحصول على لذته الخاصة . أما الله والخير فكلمات غير ذات مدلول .

وعندما كانت تتساءل أحياناً لماذا يكثر الشر على الأرض ، ولماذا يؤذي الناس بعضهم بعضاً ، ولماذا يعم الشقاء العالم ، كانت تجيب نفسها بأن مثل هذه الأفكار والتأملات شديدة الازعاج ومن الضروري التخلص منها . كل الوسوسات تنس متى وجد الحمر والتبغ .

٣٨

عندما ارتفع صوت الصفارة المعتاد يوقظ المساجين عند الساعة الخامسة من

صباح اليوم التالي وكان نهار أحد ، أيقظت (كورابلوفا) صديقتها (كاترين) التي كانت قد نامت تلك الليلة نوماً عميقاً . وعندما أقامت هذه شرعت تفرك عينيها وتتنفس بصعوبة ذلك الهواء العفن الثقيل . كانت جد راغبة في أن تعود فتنام ولكن الخوف تغلب على النعاس فهبت من فراشها واقفة ثم عادت فجلست على حافة السرير وأخذت تجيل نظرها فيما حولها .

كانت النسوة قد استيقن جميعهن . وظل الأطفال وحدهن نياماً . وكانت بائعة الخمر ترتدي ثيابها محاذرة إيقاظ الأطفال . والمسالوة تشد بيديها على صدرها شاحبة الوجه وتسعل سعالاً شديداً . وعندما يهادنها السعال كانت تتوجع بصوت عال يكاد يكون صراخاً . وكانت المرأة ذات الشعر الأحمر تقص بسرور رؤيا رأتها . في حين كانت المعجوز واقفة تصلي أمام الايقونة المقدسة . وكانت ابنة الكاهن جالسة على حافة السرير وهي تنظر فيما حولها بعينين لا تزالان تصارعان النعاس . والجميلة تسوي شعرها الأسود اللامع .

وسمع وقع أقدام في المشى ، ثم صليل قفل الباب ، ودخل سجانان يرتديان سراويل قصيرة جداً رمادية اللون ، وحلا الخائبة القذرة التي كانت في الغرفة . كان النسوة قد خرجن الى الرواق ليفسلن وجوههن . ولم تلبث طويلاً المرأة ذات الشعر الأحمر حتى اشتبكت في شجار مع امرأة أخرى جاءت من الجناح الثاني ، فارتفعت المسبات والشتائم ، والضرب ، والتوجع .

— أتريد أن تسكتي ؟ — صاح أحد البوابين يقول لذات الشعر الأحمر ، ثم ضربها بقبضة يده ضربة قوية على ظهرها البدن العاري تجاوب صداها في الرواق — ستترين ما يحل بك اذا سمعت صوتك مرة أخرى .

— أنت تمزح ايها الشيطان المعجوز . — قالت المرأة .

— اسرعن . اسرعن . وتبأن لحضور القداس .

ومشطت (كاترين) شعرها على عجل . وجاء المدير يصحبه سجان .

— أجبني على اللائحة . — قال الموظف .

وكن قد حضرن جميعهن ولم تتخلف واحدة منهن . فوقفن صفيين . ثم صحبتن سجاناً الى الكنيسة .

كانت (ماسلوف) و (فيدوسيا) في وسط الصف المؤلف من أكثر من مئة امرأة . وكن جميعاً يغطين رؤوسهن بلاءات بيض ويلبسن الثياب بلون واحد . وقلما وجد بينهن من ترتدي ثوباً مختلف اللون ، ما عدا أولئك اللواتي جاء أزواجهن لزيارتهم . وعندما انتقلت (ماسلوف) من ممشي لآخر تلاقت بعدوها البغيضة (بوتشكوف) فأشارت تدل (فيدوسيا) عليها .

ودخلن الكنيسة خاشعات ، وجلسن على المقاعد التي على اليسار وحشر بعضهن بعضاً . ثم جاء بعدهن المساجين المحكومون بالابعاد الى سيديريا فجلسوا في الجهة اليمنى .

كانت تتوهج تحت نور الشمس ككرة من ذهب الكنيسة الجديدة التي أقامها أحد التجار وأنفق في بنائها مبلغاً ضخماً من المال .

وساد سكون عميق حتى لم يكن يسمع فيها سوى صوت انسان يسعل أو يخط ، وطفل يبكي ، وصليل القيود . وفجأة اضطرب السجانون وتجمعوا ثم انشطروا شطرين ما عثم ان تكون منها صفان مر من بينهما المدير الذي كان قد دخل من باب الكنيسة في تلك اللحظة ، ثم واصل طريقه حتى أصبح في مقدمة المصلين .

كان آنشد يوشك أن تبدأ الصلاة .

٣٩

ارتدى الكاهن ثوباً حريرياً مزر كشاً وضيقاً جداً ، فوق ثيابه العادية ثم تناول رغيفاً كبيراً من الخبز فقطعه الى اجزاء صغيرة وضعها في طبق ، وأقبل يصلي بصوت خافت ، وكان وهو يصلي يتناول قطع الخبز الصغيرة ويضعها في كأس . وكان الشماس ايضاً يصلي باستمرار بلفة تكاد لا تفهم ، ولكن كان يستدل على ان اكثرها كان دعاء الله ليحفظ القيصر والعائلة المالكة .

وتلا الشماس بعد ذلك فصلاً من اصحاح الرسل بصوت شاذ وأبح حتى لم يكن بالامكان فهم شيء منه . وتلا الكاهن ايضاً بصوت واضح جلي جزءاً من انجيل مرقس حيث يقول ان يسوع المسيح بعد ان بعث من القبر ، وقبل ان

يذهب ليجلس عن يمين الإله الآب ، ظهر لمريم المجدلية وللأحد عشر رسولاً ، وأمر هؤلاء ان يكرزوا بالناس بالإنجيل . ثم قال لهم ان من لا يؤمن فسببتموه الهاوية الأبدية . ولكن من يؤمن « بي » فسينجو ، وسيغلب على الأرواح الشريرة ، وسيكون في مقدوره شفاء المرضى ، والقبض على الأفاعي دون أن تستطيع ايذاءه ، وسيفهم اللغات الجديدة ، ولن يموت ولو شرب السم .

ولكن جوهر القداس الحقيقي كان الافتراض بأن تلك القطع الصغيرة من الخبز التي وضعها الكاهن في التبيذ ، ستصبح بفضل بعض الصلوات لحم المسيح ودمه . وكان الكاهن يرفع يديه بحركات رتيبة متناسقة ، بمقدار ما يسمح به ثوبه الضيق . ثم يركع ويقبل الهيكل . ولكن الاجراء الأساسي كان وضع منشفة عدة مرات فوق الكأس والطبق . وهذا هو الوقت الذي يصبح فيه الخبز والخمر لحم المسيح ودمه .

— الى القديسة الطاهرة المباركة أم الله . — صاح الكاهن يقول . فرددت الجوقة بلحن رائع : انه لجليل وعادل تمجيد اسم تلك التي وهبت الحياة ليسوع المسيح وهي ما تزال عذراء وان ملائكة السماء تمجدها . وبعد هذا يمكن القول بان التحول قد تم .

وغمس الكاهن قطعة من الخبز بالخمر ووضعها في فمه مقتنعاً بأنه قد أكل قطعة من لحم الإله وشرب جرعة من دمه .

ثم رفع الكأس بيديه ، واتجه الى المصلين يدعوم لياكلوا من لحم الإله ويشربوا من دمه . فتقدم بعض الصبيان فسألهم الكاهن عن اسمائهم وقدم لهم قطعاً من الخبز المقدس ، ثم جاء الشماس فنظف لهم أفواههم وهو يتلو « الاطفال يأكلون لحم الإله ويشربون دمه » .

وبعد ان انتهى الكاهن من توزيع القربانة على جماعة المؤمنين أغلق الكأس . وحين فرغ من التهام آخر قطعة من اللحم وجرع آخر جرعة من الدم الإلهي لحس شواربه بعناية ، ونظف شفتيه ، ونزل عن الهيكل مسروراً أطلق الهيا ، بطلاً الأرض بقوة .

ولكنه بعد ان فرغ من القداس الأول شرع في قداس آخر مواساة للمساجين.
فأخذ يصلي صلاة طويلة جداً ، على ضوء الشموع الطويلة ، وهو واقف أمام
صورة الإله الذهبية ذلك الإله الذي أكل منذ قليل لحمه وشرب دمه .

— يا يسوعي الكثير العذوبة ، يسوع يا مجد الرسل ، أيها السيد المتناهي
القوة ، يا خلصني ، ويا فادي ، ويا حي ، يا يسوع الطيب أنقذني بشفاعتك ...
وكان من وقت لآخر يكف عن التلاوة ليسترد أنفاسه ، ثم يخشع ويركع ،
فيحذو سائر المصلين حذوه . كان المدير يركع ، وكذلك السجانون والمساجين
فتصطدم قيود هؤلاء ببعضها .

ثم يعود فيناجي يسوع قائلاً :

— يا يسوعي الطيب ، يا يسوعي المتناهي القوة . يا يسوعي ذا المجد ...
كانت كلمة يسوع التي كان يكثر من ترديدها تخرج من بين شفتيه كالصغير .
وعند نهاية كل جزء ، كان يشمر ثوبه المبطن بالحرير ، ثم يركع حتى تلامس
جبهته الأرض ، في حين كان المصلون يرددون الكلمات الأخيرة وهم راكعون .
— يا يسوعي . يا ابن الإله خلصني .

ثم يستوي الجميع واقفين فيعلو صليل القبول التي اضنكت الأرجل الهزيلة .
ظل القداس مستمراً على هذا النحو مدة طويلة . وبعد ان فرغوا من هذا
الذي ينتهي بعبارة « خلصني » بدأوا بالذي يقول (اليلويا) . كان على المصلين
في هذه ان يركعوا مرتين بينما كانوا في الأولى لا يركعون سوى مرة واحدة . ولذا
فان جميع المصلين تنفسوا الصعداء ارتياحاً عندما رأوا الكاهن يغلط الكتاب .
ولكن الحفلة لم تنته بانتهاء هذا الفصل . كلا . فهناك فصل آخر بدأ حين
تناول الكاهن من على المذبح صليباً مزخرفاً محلى بالذهب ، ومشى حتى بلغ وسط
الكنيسة راقعاً يديه الصليب ، فأدناه أولاً من المدير فقبله ثم جاء دور السجانين
وغيرهم الذين كانوا يتهافون ويزدحمون ويطأ بعضهم بعضاً فيتشاقون بصوت
خافت . ولما كان المدير يسر شيئاً للكاهن فقد كان عندما يحني الصليب يقع على
أنوف المساجين الذين كانوا على رغم كل ذلك يبذلون قصارى جهدهم في الوصول
اليه ليقبلوه .

على مثل هذه الصورة انتهت الصلاة المسيحية التي أقيمت انهاء للروح المنوية عند الاخوة المنحرفين .

٤٠

لم يكن يخطر على بال أحد من حضروا الصلاة، سواء في ذلك الكاهن والمدير و (ماسلوقا) ، ان يسوع المسيح الذي كان اسمه يخرج كالصغير من بين شفتي الكاهن الذي يمجده الآن ويناجيه بمثل تلك الصورة الغريبة ، لم يحرم شقشة اللسان هذه وحدها الحالية من كل معنى ، وسائر المراسيم والطقوس التي اجراها الكاهن على الخبز والخمر فحسب ، ولكنه حرم كذلك تحريماً قاطعاً ان ينادي أحد أحداً بيا معلم . لقد حرم الصلاة في المعابد وفرضها في الخلوة . وحرم اقامة المعابد قائلاً انه جاء ليهدمها، لأن الصلاة ينبغي أن تكون في أعماق الروح لا في المعابد . وكان أكثر تحريماً لما يأتونه الآن من سجن أولئك الذين خلقوا على مثال صورته ، وتحريمهم وتعذيبهم . كما حرم سائر أنواع العسف وسوء استعمال السلطة على الناس مصرحاً بأنه جاء لتحرير العبيد والمضطهدين .

لم يكن يدور في خلد أحد ان ما أقيم ثمة من مراسيم كان في الواقع اهانة لدين يسوع . وان ذلك الصليب الذهبي المرصع بالحجارة الكريمة الذي رفعه الكاهن عن المذبح وقدمه لأولئك المنكودين ليقبلوه ، لم يكن في الواقع سوى رمز لمنصة الاعداء التي صعد عليها يسوع المسيح لأنه حرم ما قام به الكاهن باسمه هنا . كذلك لم يكن يدور في خلد أحد منهم ان أولئك الكهنة يأكلون فعلاً لحم الإله ويشربون دمه .

وإذا كان الكاهن يقوم الآن بما يقوم به مطمئن النفس مرتاح الضمير لعمله فذلك لأنهم لقنوه منذ الصغر ان هذا هو الدين الحق والوحيد ، الدين الذي عاش اسلافه ومانوا عليه . لم يكن يؤمن بأن الخبز سيتحول الى لحم ، وان تلاوة كلمات معينة تفيد الروح ، وانه قد أكل بضعة من الاله (بهذا لا يمكن ان يؤمن أحد) ، إلا أنه كان واثقاً ومقتنعاً من ضرورة الايمان بذلك وكان العامل الأقوى الذي كان له أكبر الأثر في تكوين اقتناعه هذا ، هو كونه منذ

الثامنة عشرة من عمره وحتى الآن ، ما زالت هذه الصلوات والقدايس مورد رزقه الوحيد يحصل منه على ما يقيم به أود نفسه وعياله .
 كذلك كان الأساس الذي يقوم عليه ايمان الشماس الذي كان قد نسي أصول دينه . كان يعلم ان لكل صلاة تعرفتها المقررة ، وان المسيحيين الحقيقيين يدفعونها مسرورين راضين . وهكذا فهو يصيح ، ويلحن ، ويقرأ ويصلي ، مقتنعاً من حاجته لذلك حاجة التاجر لبيع البطاطة والقماش والفحم .
 كان مدير السجن وسجانه ، يجهلون جوهر ديانة المسيح ، ومنغرى تلك الطقوس الكنسية . ولم يكونوا يحاولون فهمها . كانوا يعلمون انهم يؤمنون ، وان من الضروري ان يؤمنوا لأن جميع السلطات القائمة بما فيها القيصر يفعلون ذلك . كانوا يحسبون ان الدين يقر قسوة وظيقتهم . فتطمئن نفوسهم ، ولولا ذلك لأحجم الكثير من ممثلي السلطة عن اضطهاد وإرهاق الغير . ولدينا مثل على ذلك مدير السجن ذاك الرجل الطيب الذي ما كان ليرضى عن بقائه في هذا المنصب لو لم يكن له من الدين عون وسند . ولذا كان أثناء الصلاة كثير الخشوع والخضوع بادي التقوى .

كان أكثر المساجين يعلمون ان الدين أكذوبة بارعة اخترعت فكانت وبالاً على بني البشر . ولكنهم كانوا يعلمون أيضاً ان تلك الأيقونة الذهبية ، وذلك الصليب ، وعبرة (يا يسوع أعني) و (يا يسوع أنقذني) كان لها قوة غامضة مجهولة بوسعها أن تهب بسطة من العيش في هذه الدار الدنيا ، وراحة في الدار الأخرى .

صحيح أنه كان بينهم أيضاً الكثير ممن جربوا أن يحصلوا على الحياة الهيئية بفضل تلك الطقوس والصلوات ولكنهم فشلوا . غير ان كلا منهم كان يحسب نفسه حالة شاذة من حالات سوء الحظ لا تصلح دليلاً على بطلان ذلك الدين الذي انبثقت عنه تلك المؤسسة التي أقرها العلماء والبطريرك .

هكذا كان ايمان (ماسلوف) . كانت أثناء القداس تشعر ، كغيرها ، بمزيج من السامة والتقوى ، وفي بداية الأمر ، كانت لا تعير التفاتاً لأي شيء ، ولكنها

ما لبثت أن أبصرت قروياً ذا لحية شقراء واقفاً وراء المدير ، وكان ذلك زوج (فيدوسيا) الذي كانت نظراته لا تفارقها . فأخذت (ماسلوا) تراقبه ، ثم أسرت شيئاً الى جارتها ، وبلا وعي كانت تخشع وتركم كبقية المصلين .

٤١

أفاق الأمير (ديمتري ايفان) من نومه مبكراً على خلاف عادته ، فارتدى ثيابه على عجل وخرج من المنزل .

كان يبدو ان المدينة ما زالت راقدة ، اذ كان الشارع يكاد يكون خالياً من المارة ، ما عدا قروي كان يقود عربته منتقلاً من باب الى آخر وهو يصيح بصوت أغن حليب حليب .

وكانت أمطار الربيع قد بدأت تهطل ، وأخذت براعم الأعشاب الأولى تظهر في الحدائق ، وأشجار الدلب الباسقة كانت أوراقها الخضراء العطرية تهتز تحت نسبات الربيع الدافئة ، وسكان البيوت كانوا قد شرعوا يفتحون بقدر نوافذ بيوتهم لتتسرب منها النسبات العطرية البليلة . وفي الشوارع كانت أبواب المنازل تفتح بتثاقل .

وكان جماعة من الناس يتجمعون في حديقة سوق الخضار التي سيمر فيها (نيكليندوف) في مواجهة صف الحوانيت المتعددة . وأمام الحانة كان يقف عمال بشياهم الأنيقة ، دلالة على انهم في يوم عطلة ، ونساء يضعن على رؤوسهن ملاءات زاهية الألوان مرقمة بالخرز .

وكان رجال الشرطة يصطفون على طول المنزه يحوار اكداش الخضار التي يلعب فوقها بمرح وضوضاء عدد عديد من الأطفال الصغار . وفي الشوارع الرطبة كانت ترتفع جمجمة المجلات الثقيلة ، ورخص العربات ، وأصوات اجراس حافلات الترام وصدى التواقيس التي تدعو المؤمنين لحضور القداس الإلهي الذي أقيم شبيه له في كنيسة السجن . وكان المارة ، وهم يرتدون ثياب الأعياد ، يتجه كل منهم الى كنيسة .

وأقل الخوذي الأمير الى حيث كان السجن ، ولما بلغه كانت أبوابه لا تزال

مغلقة . وكان على مقربة من موقف العربات صف من بيوت خشبية واطشة السقف . وعلى بعد أمتار كان يرتفع البناء الضخم من الحجارة والطين الذي كان يمنع الاقتراب منه . وكان على بعد مئة خطوة منه يقف رجال ونساء يتأبط كل منهم رزمة ، والحارس والبندقية على كتفه كان يمشي ذهاباً وإياباً يحذراً يحفاه من تسول له نفسه الدنو من البناية . وكان على مقربة من البيوت الخشبية حارس آخر يرتدي ثياب الأعياد الرسمية يسجل على ورقة اسماء الراغبين في زيارة المساجين . فتقدم (نيكليندوف) منه وذكر له اسم (ماسلوف) ثم سأله لماذا لا يسمحون للناس بالدخول . فأجابه بقوله :

— انهم ما زالوا في الكنيسة يصلون ، ومتى فرغوا ستفتح الأبواب .

فانضم الأمير الى الجمهور المنتظر .

وجاء رجل يمشي حافي القدمين ويرتدي ثياباً رثة ، وعلى رأسه قبعة زرية ، ومضى نحو الباب فانتهره الحارس قائلاً :

— الى أين تريد ؟

— وأنت لماذا تقتهرني هكذا . — أجاب الرجل غير هائب وهو يتراجع .

— اذا كان الدخول ممنوعاً فساكن انتظر . لا فائدة لك من الصراخ . كأنك جنرال .

فأغرب الحاضرون في الضحك تأييداً له .

كان معظم أولئك الزوار بثياب قدرة رثة . والقليل منهم كان يرتدي ثياباً

أنيقة . وكان يقف بجانب (نيكليندوف) شاب أنيق الثياب حسن المظهر

يحمل صرة ثياب بيضاء . فسأله الأمير اذا كان يأتي الى السجن للمرة الأولى

فأجابه بأنه يأتي بصورة متواصلة كل صباح أحد لزيارة أخيه المحكوم بجريمة

تزوير وفيما كان هذا يهم بأن يسأله بدوره عما اذا كانت هذه أولى زيارته استرعى

انتباهه وصول عربية يجرها جواد أصيل تقل فتى وفتاة تضع هذه خيراً على

وجهها كان الفتى يحمل صرة كبيرة فتقدم من (نيكليندوف) وسأله لمن ينبغي

أن يسلم ذلك الحيز الذي جاء بحمله صدقة للمساجين .

— هذه خطيبتى . وقد عن لها ذلك . وسمح لنا أبواها ان نحمل هذه الهبة

للمساجين . فأجابه (نيكليندوف) انه يزور السجن للمرة الأولى ، ولذا فهو لا يستطيع إرشاده بصورة وافية . ونصحه بأن يسأل السجن .
وهنا فتح باب السجن الحديدي الكبير ، وخرج منه ضابط يتبعه سجان .
فتناول اللائحة التي كان البواب قد سجل فيها أسماء الزوار وأعلن السماح بالدخول . فتنحى الحارسان جانباً ، وهرع جمهور الزوار يدفع بعضهم بعضاً ، ويصطدم بعضهم ببعض كأنهم يخشون ضياع الوقت . فأخذ السجنان يحصي عددهم بصوت عال واضعاً يده على أكتاف كل فرد منهم عندما يمر من أمامه تحوطاً من بقاء أحدهم سجيناً عند الخروج ، واحتراساً من فرار أحد المساجين .
وكان على بعد بضع خطوات من باب السجن تجويف في الحائط ضمنه صليب .

— ما معنى وجود هذا هنا ؟ — قال (نيكليندوف) يسأل نفسه . وعن غير قصد عاد ففكر ان مثال السيد المسيح ينبغي ان يكون رمزاً للحرية وليس للسجن .

كان الأمير يمشي على مهل ، وفي داخله تصطبخب عاصفة من الأفكار والتأملات ، تاركاً المجال لغيره من الزوار الراغبين في السرعة . كان يتنازعه عاملان ، عامل الرهبة من أولئك الجناة ، وعامل الشفاق على من تحتويهم جدران ذلك البناء الكئيب بغير ذنب ، أمثال ذلك الشاب الذي صادفه يوم أمس ، وأمثال (ماسلوف) . كذلك كان يشعر بمزيج من الرهبة والتأثر عندما يفكر بأنه سيلتقي (بكاترين) .

وفيا كان الأمير يجتاز باب الردهة الكبيرة سمع مدير السجن يتكلم بكلام لم يأبه له لأنه كان غارقاً في لجة تأملاته ، وظل يمشي وراء الجمهور المتجه نحو سجن الرجال . ولما بلغ القاعة المعدة لمقابلة الزوار طرق سمعه ضجيج يصم الآذان منبعث من مئات الأصوات . وحين تقدم قليلاً ورأى ذلك الحشد الحاشد من البشر ، الملتصق بالحاجز كما يلتصق الذباب بقرص من السكر أدرك عندئذ ما يجري هناك .

كان في القاعة حاجزان يبلغان السقف . أولهما كان يقف خلفه المساجين ، ويقف الزوار وراء الثاني . وكانت المسافة بين الحاجزين تبلغ الثلاثة أمتار كان الحراس يتجولون فيها طوال مدة الزيارة . ولذا كان من الصعب رؤية وجوههم بوضوح ما لم يكن ذا نظر حاد فكيف بإيصال أي شيء اليهم . كانت الوجوه لاصقة بالحاجز . وجوه أزواج وزوجات ، آباء وأبناء وأصدقاء وكل يحاول التحدث والتفاهم . ولكن الحديث كان من الأمور الشاقة العسيرة لبعد ما بين الحاجزين ، ولأن كل واحد منهم كان يتوخى أن يطغى صوته على صوت جاره ليسمع بوضوح . وهكذا كانوا يتصايحون ويتصارخون وكل يجهد في أن يكون صوته الأعلى .

كانت امرأة عجوز تقطي رأسها بغطاء كبير تقف بجانب (نيكليندوف) ووجهها لاصق بالحاجز ، وذقنها ترتجف ، وهي تخاطب شاباً صاحب الوجه مخلوق الرأس كان يصغي إليها بانتباه وقد زوى ما بين عينيه . وكان بجانب العجوز فتى يتناول بعنقه مصيحاً بسمعه ليتمكن من التقاط حديث كان يفهم به سجين ضامر الوجه لفرط ما يقاسيه من ألم ، وهو يهز رأسه . وكان ثمة سجين يطلق بين فترة وأخرى صرخة تدوية ثم يغرب ضاحكاً . وإلى جانب هذا كانت تجلس على الأرض امرأة تحتضن طفلاً وهي تتوجع ، ولعل تلك كانت أولى زياراتها للرجل أغبر الشعر ، يقف وراء القضبان الحديدية مقيد الرجلين وفي ثياب المساجين .

وكان البواب الذي استقى منه الأمير المعلومات يقف وراء تلك المرأة وهو يتحدث بصوت عال الى سجين أصلع الرأس متوقد النظرات كان يقف وراء الحاجز الثاني .

وعندما تبين (نيكليندوف) ان عليه ان يتحدث الى (كاترين) في مثل هذه الظروف ثارت ثائرتة على أولئك الذين يقيمون مؤسسات على هذه الشاكلة ، ودهش كيف لا يثور سائر الناس احتجاجاً عليها . ولبت زهاء خمس دقائق باهتاً تتنازعه موجة لا توصف من الغم والكآبة .

كان يدرك انه لم يكن نظيرهم ، ولكنه كان يرى انه ما زال عاجزاً عن
تقويم الاعوجاج .

— لقد جئت لغاية معينة ومن الضروري أن أسمى لتحقيقها . — كان يقول
في نفسه ليتغلب على نفوره .

وفيا كان يبحث بنظرة عن أحد ممثلي السلطة رأى رجلاً ذا شاربين يرتدي
بزة ضابط ، وهو يسير ذهاباً وإياباً خلف الزوار فتقدم منه وقال له :
— أيتفضل سيدي باعلامي عن مكان وجود السجينات ، وما هي الوسيلة
للتحدث اليهن .

— أتبحث عن الجناح الخاص بالنساء ؟

— بلى يا سيدي .

— كان ينبغي ان تستعلم عن ذلك في الردهة الأولى . الى من تريد ان
تتحدث ؟

— أريد أن أتحدث الى (كاترين ماسلوف) .

— أسجينة سياسية هي ؟

— كلا . هي لا غير ...

— هل صدر حكم بحكمها ؟

— لقد حكم عليها منذ يومين . — أجابه (نيكليندوف) بلهجة متواضعة
محاذراً ان يفقد محدثه الاهتمام الذي أظهره نحوه .

ويظهر ان ما أبداه من تأدب ورقة جانب كان له تأثيره على ذلك الرجل
الرهيب .

— إذا كنت تريد الذهاب الى جناح السجينات ، فتعال من هنا . — قال
الضابط وقد أدرك من مظهره انه خليف بالاحترام ثم التفت الى أحد الموظفين
وكان صدره يضيق بالأوسمة وقال له . — رافق هذا السيد الى جناح السجينات
يا (سيندوروف) .

وهنا سمع صوت شهيق بكاء عند الحاجز .

كان (نيكليندوف) يرى كل شيء عجبياً وغريباً، وأغرب ما رآه أنه يكون من واجبه اظهار الامتنان لكافة موظفي السجن ، وابداء الرضى عن مديري تلك القطائع .
ورافق الموظف الأمير الى جناح السجينات .

٤٢

كانت قاعة الزيارات في الجناح الخاص بالنساء شبيهة بقاعة الزيارات عند الرجال . أي انها كانت مفصولة بحاجزين خشبيين الى ثلاثة أقسام . مع فارق بسيط وهو انها هنا اصغر منها هناك ، وزوارها أقل بكثير من زوار تلك لقلة السجينات . وعلى الرغم من ذلك فان الضجيج والاضطراب كانا أشد وأدهى . كان الحراس يتجولون بين الحاجزين وكذلك رئيسة السجانات التي كانت تضع شريطة في ذراعها تميزاً لها عن غيرها . كان الجميع لاصقي الوجوه بالحاجز كما هو الحال في سجن الرجال . وفي حين كان البعض يتطاول واقفاً على رؤوس أقدامه ليعلو على غيره ويسمع صوته ، كان هنالك أناس جالسين على الأرض يتحدثون مع بعضهم .

وبما استلقت نظر (نيكليندوف) وجود نورية بينهن نحيلة القوام منقوشة الشعر وعلى رأسها غطاء وضع باهمال فوق شعرها الأجمد . كانت عند منتصف الحاجز تقريباً ، وكانت تحاول التفاهم مع نوري يقف في الجانب المقابل يرتدي سترة خمرية اللون ويضع في وسطه نطاقاً . وكان بجانب النوري جندي يحاس على الأرض وهو يتحدث الى إحدى السجينات ، كذلك كان ثمة فتى قروبي، أشقر اللحية محتقن الوجه للجهد الذي يبذله لحبس دموعه . كان يتحدث مع سجينة شقراء جذابة تنو اليه بعينيها الزرقاوين بعذوبة فائقة . كان هذان (فيدوسيا) وزوجها . وكان عدد من الرجال وآخر من النساء في كلا الجانبين يتحدثون بصوت عال أو ينظر بعضهم الى بعض وهم صامتون .

لم تكن (ماسلوا) بين هاتيك النسوة اللواتي كن وراء الحاجز . ولكن (نيكليندوف) رأى صبية حسناء تقف قبالة ظنها هي فتسارعت دقات قلبه ،

وحسب انه يكاد يخنق . لقد أزفت الازفة ، وحانت اللحظة الحاسمة .
ودنى من الحاجز فمرف من فوره (كاترين) التي كانت تقف وراء
(فيدوسيا) تصفي حديثها مع زوجها وهي تبسم . لم تكن في ثياب
السجينات ، وانما كانت تلبس ثوباً أبيض يبرز مفاصل صدرها وئديها ، وتبدو
من تحت غطاء رأسها صغيرتان من شعر أسود ناعم .

— هذه هي اللحظة التي سيتقرر فيها كل شيء . — قال (نيكليندوف)
وتسأل كيف ينبغي أن يناديا .

— يجوز ان تأتي من تلقاء نفسها . — قال في نفسه .
ولكنها لم تأت من تلقاء نفسها ، لأنها كانت تحسب ان (برتا) هي التي
تبحث عنها ، ولم يكن في حسابها قدوم مثل ذلك السيد .
— من هي التي ترغب أن ترأها ؟ — سأله أحد الحراس .
— أرغب في أن أرى (كاترين ماسلوا) . — قال وقد بذل جهداً كبيراً
يبيع صوته .

— يا (ماسلوا) هنا سيد يبحث عنك . — صاح الحارس .
فاستدارت هذه عالية الرأس ، بارزة الصدر بمثل الرزاة التي عرفها منها .
وأمعنت النظر طويلاً في وجه الأمير باستفهام صامت . انها لم تعرفه . ولكن
ملابسه أخبرتها انه من الاغنياء فابتسمت حبوراً .
— ماذا تريد ؟ — قالت تسأله دون أن تفارق الابتسامة شفتيها ، وهي ما
زالت تنفّس في وجهه .

— كنت أريد ان أقول ...
ولبت برهة حائراً لا يدري كيف وبما يخاطبها ، أبصيفة المفرد أم بصيفة
الجمع . وأخيراً قرر الأخيرة ومضى يتابع حديثه ولكن بصوت خافت .
— كنت أريد أن أراك ... أنا ...

— يا للشيطان ، بماذا تحدثني . — صاح جاره . — هل استلمته أم لم تستله ؟
ثم صاح آخر قائلاً : هو محتضر ، هو شديد الهزال .

لم تتمكن (ماسلوا) من فهم ما كان يحدثها به (نيكليندوف) ولكن شعاعاً من نور أضاء مخيلتها ، فاستعادت ذكرياتها القديمة التي طالما أقصتها عنها . فتلاشت الابتسامة عن شفتيها ، وبدت في جبينها غصون مؤلمة .
— لست أسمع ما تقول . — صاحت تقول وقد زوت ما بين عينيها بشكل أقوى .

— لقد جئت ...

كان (نيكليندوف) يقول في نفسه : — انني أقوم بواجبي ... الندامة الصادقة تفرضه علي ... وهنا تراحت الدموع الى عينيها وأحس بعقدة في حلقه فتشبث بالحاجز كي يكبح فيض الدموع الذي كان على وشك الانطلاق .
— لن يذهب لولا المرض . — كانت تصيح امرأة .
— أقسم لك انني أجهل ذلك . — صاح آخر .

وشمرت (ماسلوا) بالانفعال الذي اعترى الأمير ، فظهر عليها التأثر أيضاً واتقدت عيناها ، وعلت خديها الشاحبين حمرة غير متناسقة . إلا ان الموجه ظل محتفظاً بتمبيره القاسي وعينيها الحولابن ظللتا تنظران اليه بتأدب .
— أظنني أعرفك ولكن لا أدري أين . — صرخت تقول له .

— جئت أطلب اليك الصفح . — قال لها (نيكليندوف) بصوت قوي ثابت كمن يتلفظ بعبارة قد درسها طويلاً . ثم أخذه الخجل وأخذ يلتفت يميناً وشمالاً ، ولكنه كان قد وطد النفس على تحمل ذلك الخجل الذي سيضاعف من طهارة نفسه ثم تابع حديثه بصوت عال :

— لقد أسأت وكنت وضيعاً ... فسأعيني .
وكانت واقفة لا تبدي حراكاً ولا تفوه بكلمة واحدة إلا ان نظراتها لم تفارقه قط . وعندئذ غادر الحاجز كي يخفي دموعه .

فتقدم منه المدير الذي بعث معه من يرافقه ، والذي كان على ما يبدو يتم له ، وسأله لماذا لا يتحدث مع السجينة فتظاهر (نيكليندوف) بتنظيف أنفه اخفاء لانفعاله ، وأجابه انه من المستحيل عليه ان يتحدث عبر الحاجز لأنه لن يفهم شيئاً .

ففكر المدير برهة ثم قال :

— حسن ، حسن . سنعمل على أن تخرج لبعض الوقت . — ونادى سجانة كانت هناك وقال لها احضري (ماسلوقا) يا (ماري كارلوفنا) .

٤٣

وأطلت (كاترين) بعد فترة قصيرة من باب جانبي وتقدمت من الأمير ، ووقفت أمامه وأخذت تحديق فيه . كان شعرها الاسود يتدلى على جبينها ، كما كان منذ يومين ، ويبدو على وجهها الأبيض الجميل تعبير عن سكونة وجمال . وكانت عيناها السوداء ان تتقدان من حين لآخر ، بنور غريب تحت أجفانها المتورمة .

— هنا بإمكانكما أن تتحدثا . — قال المدير وأسرع في الابتعاد . فتقدم الأمير من مقعد كان قرب الحائط ، وتطلعت (كاترين) صوب نائب المدير وهزت أكتافها استغراباً ، وجلست على المقعد بجانب الأمير وقد أصلحت ثوبها .

— أنا أعلم انه من العسير أن أقال صفحك ... — بدأ (نيكليندوف) كلامه . غير انه عندما شعر بأن الدموع ستحول بينه وبين الكلام أمسك قليلاً . — أنا أعلم ذلك وإذا كنت لا أستطيع محو الماضي ، فسأقوم بكل ما أستطيعه على الأقل ... فقولني ، إذن .

— أين رأيتني ؟ — قالت تسأله أخيراً دون أن تجيبه على سؤاله . — يا إلهي أعني . — كان يتوسل الى الله في سره . — الهمني ما ينبغي أن أصنع .

وما انفك يتأمل ذلك الوجه الذي تغير كثيراً . — رأيتك منذ يومين في الجلسة التي كنت فيها عضواً في مجلس المحلفين . فهل عرفتني ؟

— لم يكن لدي الوقت الكافي لأعرفك . — قالت (ماسلوقا) : — حتى لم أنظر اليك .

كان (نيكليندوف) بهم بأن يصرح لها باسمه لكنها لم تكن تحتاج ذلك كي تعرفه ، إذ كانت ذاكرتها قد استعادت ذكرى تلك الملامح التي طالما تأملتها ، وطالما استخلصت من تأملها لذة ومتعة .

وأقبل الاثنان يرنو أحدهما الى الآخر . وفجأة سألهما (نيكليندوف) .
— ألم تضعي ولدأ ؟

— أجل لقد وضعت ولدأ ولكن الموت عاجله بسرعة والحمد لله .
— أجابته محتدة وبصوت أجش متحاشية تلامي نظراتها .
— ولماذا ؟

— لأنني كنت مريضة وعلى وشك الموت أيضاً .

— هل طردتك خالتي ؟

— أجل . إذ من يريد خادمة ذات ولد ؟ لقد طردتني عندما تأكدت من حملي ... من الخير تناسي كل ذلك ... لست أذكر شيئاً . لقد ذهب الماضي الى غير رجعة .

— كلا . لم يذهب الماضي ، ولا أريد أن تنتهي الأمور على هذه الصورة .
يجب أن أكفر عن خطيئتي .

— ليس ثمة ما يجب التكفير عنه . ما مضى فات . — أجابت (ماسلوف) . وفجأة تحولت نحوه ، وأخذت ترنو اليه وهي تبسم ابتسامة أرادت لها أن تكون جذابة ، ولكنها بدت له رهيبة .

لم يكن يخطر على بال (ماسلوف) انها ستعود فترى الأمير مرة أخرى ، وعلى الأخص في مثل ذلك المكان ، ولذا فانها عندما رآته ثارت شجونها لأنها تذكرت ماضياً كانت تتمنى تناسيه . لقد تذكرت آنئذ عالماً جديداً من احساس مثالي طاهر ، تلاقى فيه بفتى أحبها فبادلته ذلك الحب . ثم تذكرت ما أظهره ذلك الفتى الذي أحبته من القسوة نحوه ، والسلسلة الطويلة المؤلمة من المذلة والهوان والمذاب التي أعقبت تلك البرهة القصيرة السعيدة ، والتي لا تزال تقاسي نتائجها حتى الآن . فأحست بألم عميق . ولما لم تكن لديها القوة

الكافية للتغلب على مشاعرها فقد عمدت الى ما تعودته دائماً من دفن تلك الذكريات تحت ستار من الضباب يتفق ووضعها الحاضر . وأخذت تقارن في ذهنها بين الرجل الذي يقف الآن أمامها ، وبين ذاك الفتى الذي أحبته من قبل . وإذ رأت ان نتيجة المقارنة مؤلة لها ، سارعت الى طمس تلك الذكريات التي كانت فيما مضى غالية على قلبها . ولذا فانها لم ترف في (نيكليندوف) الرجل الأنيق الحسن الهندام الذي يقف أمامها معطر الوجه ، ذلك الفتى الذي هامت به ذات يوم ، وانما رأت فيه احد أولئك الذين يستغلون سقوط مثيلاتها من النساء ليحصلوا على ما يستطيعونه من لذة ومتعة . وكانت وهي صامتة ، تفكر في إيجاد طريقة ووسيلة تمكنها من الحصول على أكثر ما يمكن الحصول عليه منه .

— لقد أصبح الماضي ماضياً . — قالت له . — والآن سيبعثون بي الى سيبريا .

وارتعشت شفتاها عندما لفظت ذلك الاسم الرهيب .

— أنا واثق من براءتك . — قال لها (نيكليندوف) .

— أجل أنا بريئة . لست لصة ولا قاتلة ... يقولون ان محامي كان السبب في إدانتي ... وعلينا الآن ان نميز الحكم ، ولكن ذلك يكلف غالباً ...

— لقد فكرت في ذلك واستشرت محامياً .

— ينبغي اختيار أحد المشاهير وألا ننظر للنفقات .

— سأفعل ما أقدر عليه .

وصمت الاثنان برهة ، ثم ابتسمت ابتسامتها القديمة .

— والآن أرجو ان تسعفني بشيء من المال ... كلا . لا أريد كل هذا . يكفيني عشر روبلات .

— أجل كل هذا . وأكثر من هذا . كل ما تريدن . — أجابها (نيكليندوف) ثم أخرج حافظة نقوده وقد احمر وجهه خجلاً من جديد . فتلفتت (كاترين) الى المدير الذي كان يمشي في الردهة ذهاباً وإياباً .

— حذار أن يراك المدير ... تريث الى أن يدبر ، فانه إذا علم أنك أعطيتني مالا فسيأخذه مني .

وفيا كان (نيكليندوف) بهم أن يضع في يدها ورقة من ذوات العشر روبلات ، إذا بالمدير ينظر نحوه فاخفى الورقة في يده .

— لقد قضى على هذه المرأة . — كان يقول في نفسه وهو يتأمل ذلك الوجه وتلك الجفون المتورمة ، التي كانت فيما مضى حبيبة الى قلبه ، وتلك العيون التي كانت تراقب خطوات المدير بحنق ثم لا تلبث ان تعود فتتظر بشراسة الى تلك اليد التي تخفي الورقة المالية .

وفجأة عاد ذلك الصوت المغربي الذي سمعه الليلة الفائتة ، يرن في أذنه محاولاً اقناعه بالعدول عن اداء واجبه متسائلاً عن الفوائد التي قد يجنيها من وراء عمله هذا .

« انك لن تجني فائدة من هذه المرأة . انها عبء ثقیل تضعه على عاتقك . وستكون عقبة تعوقك عن اتيان أي عمل نافع ومفيد لك وللغير . أعطها مالا وتناساها الى الأبد » .

كان قد أدرك ان أمراً هاماً تتمخض عنه روحه آنذاك . وان مصير حياته الخاصة كان في كفتي ميزان متعادلتين . وان أي جهد يبذله سلباً أم إيجاباً ، كفيلاً بأن يميل بهاته الكفة أو تلك . وكان ان قام بهذا المجهود معتمداً على الله الذي تجلى له الليلة الماضية . فكان في عونه . وهكذا صمم على أن يصرح لها بكل شيء . فقال لها :

— يا (كاترين) . لقد جئت لأطلب اليك الصفح فلم تجيبي ...

غير ان (ماسلوف) لم تكن تصفي اليه ، وانما كانت تنتقل بنظرها بين يد الأمير التي تخفي الورقة المالية وبين المدير الذي كان يمشي في الردهة مقبلاً ومدبراً . ولم يكذب يوليها ظهره حتى اختطف الورقة من يد الأمير بخفة وأخفتها في زنارها .

ان كلامك لغريب . — أجابت (ماسلوف) مبتسمة ابتسامة ظنها الأمير ساخرة .

لقد أدرك (نيكليندوف) انها تضرر له عداء . وان ثمة ما يرغما على أن تتخذ لنفسها هذا الموقف ، ويحول بينه وبين الوصول الى قلبها . غير ان ذلك كان يزيد قرباً منها بدلاً من اقصائها عنها .

لقد أدرك أنه لا بد له من عملية تجديد لنفسيتها ، وان هذه عملية صعبة وشاقة . غير ان ذلك كان يضاعف في نفسه الرغبة في متابعتها حتى النهاية . كان يشعر نحوها شعوراً ظل حتى ساعتئذ مجهولاً منه . الا أنه شعور مجرد من كل مظاهر الأثانية . لم يكن يطلب شيئاً لنفسه . ويكفيه ان تتنبه معنوياتها ، وان تعود كما عرفها منذ عشرة اعوام الطفلة الوداعة .

— لماذا تقولين هذا القول (يا كاترين) ؟ أنا اعرفك تماماً أتذكرين كيف كنت في (يانوفو) ؟

ولكنها ظلت مصرة على عنادها .

— ولماذا اعادة الماضي ؟ — قالت تسأله بنشافة وقد زوت ما بين عينيهما .

— أنا استعيد ذكراه لرغبتى في اصلاح ما فات ، لأنني احبه يا (كاترين) ... كان قد بدأ حديثه اليها هكذا كي يصرح لها برغبته في الزواج منها . ولكن النظرات تلاقت فبتين في عينيهما معنى رهيباً قاسياً ووحشياً أوقفه عن الكلام .

وهنا كان الزوار قد بدأوا ينصرفون . فتقدم المدير من الأمير وأشار له أن موعد الزيارة قد انتهى . فهبت (ماسلوف) واقفة ولبشت تفتظر بانكسار ان يودعها .

— الى اللقاء يا (كاترين) . لدي أشياء كثيرة أود التصريح لك بها . ولكن الوقت لم يسمح بذلك كما ترين . — قال لها وهو يد لها يده .

— أما أنا فأرى انك صرحت لي بكل شيء .

ومدت له يدها دون أن تصافح يده الممدودة لها .

— كلا . كلا . سأحاول أن أراك في مكان آخر لأحدث اليك بحرية . وعندئذ سأبوح لك بأشياء جد خطيرة .

— شأنك وما تريد . تعال اذا كانت هذه رغبتك . — قالت له ذلك وابتسمت ابتسامة شبيهة بتلك التي كانت تبتسمها لزوارها الذين كانت ترغب في اشباع شهواتهم .
 — أحبك يا (كاترين) أكثر مما أحب اخي . — تلك آخر كلمة قالها لها .
 — ما أعذب هذا الكلام . — رددت الفتاة ، ثم حنت رأسها وتوارت خلف الحاجز .

٤٤

كان الأمير (نيكليندوف) يحسب ان (كاترين) بعد ان يجتمع بها ، وقتاً كد من رغبته في اعادة اعتبارها ، ستمود تلك الطفلة الغريبة التي عرفها في أيامه الماضية . ولكنه لما ان تبين له ان (كاترين) قد توارت الى الأبد ، وان (ماسلوقا) قد حلت محلها أخذته الدهشة واستولى عليه الجزع . وكان مفاجأة مؤلة له ، كونها لم تكن تكتفي بعدم الشكوى مما آل اليه حالها ، وترديها في تلك الحماة البشعة ، وانما كان يبدو له انها كانت مسرورة به راضية عنه .

ولا يمكن ان يكون غير ذلك . فلكي يمارس المرء عملاً لا بد له من أن يكون مؤمناً بفائدته وأهميته .

يكاد الناس يجمعون على الاعتقاد بأن اللص ، والقاتل ، والزانية يخجلون من عملهم وسيرة حياتهم ، ولكن الواقع خلاف ذلك . فالذين دفع بهم سوء الطالع ، أو قادتهم أخطاؤهم الشخصية للسلوك مسلكاً شائناً يالفون مع الأيام ذلك المسلك ، ويصبح من العسير اقناعهم بقبحه . ولكي يقنعوا أنفسهم بصواب ما يذهبون اليه يلزمون أوساطاً معينة تشاكلهم حيث لا ينظر الى عملهم الا بعين الاقرار والموافقة .

والجتماع يقف مدهوشاً أمام مباهاة القتل واللصوص بجرائمهم . ولكن هل كان ذلك لأن هؤلاء أقل عدداً نسيباً ، ولأن من يدين ينظر الى الأمور من وجهة نظر مختلفة تماماً ، عن وجهة نظر من يدان ؟ ولكن الا يحدث مثل ذلك بين

الأغنياء فيفاخر هؤلاء بثرواتهم التي هي حصيلة السرقة ؟ وبين القواد الكبار فيمجدون انتصاراتهم التي تكاد لا تختلف في جوهرها عن جريمة القتل ؟ وبين ذوي النفوذ الذين يرجع الفضل في نفوذهم للنفاق ؟ ... وإذا كنا لا نعد فيما نراه من هؤلاء اعراض انحطاط فكري ، فذلك دون شك لكون الأوساط التي تفكر هذا التفكير أكثر عدداً ، ولأننا نحن بعض أعضائها .

وكانت (ماسلوا) قد كونت لنفسها فكرة مماثلة عن حياتها الخاصة ، ووضعها الاجتماعي . وعلى الرغم من كونها إحدى بائعات الهوى الرخيص ، ومحكومة بالسجن ، فإنها كانت تحسب ان في مقدورها تبرير سلوكها بناء على نظرياتها الخاصة ، فقد كانت ترى ان معظم الرجال من شبوخ وشباب علماء وجهلاء ، متنفذين ومساكين انما يحييون لمجرد اشباع غرائزهم الجنسية الذي توفره لهم امرأة جذابة ، وفي سبيله يحشدون سائر جهودهم وقواهم حتى في حين يزعمون انهم يفكرون ويعملون لأشياء أخرى افضل وأسمى .

وهي امرأة جذابة وقوية ، وبوسعها ان تسلم نفسها للرجال او تمتنع عليهم ، واذن فهي مخلوقة مرغوب فيها وتطلب وتستعطف وتسترضي .

هذا ما أيده لها تاريخ حياتها الماضية وواقعها الراهن . فقد رأت خلال الأعوام العشرة الأخيرة من حياتها ان سائر الرجال ابتداء من (نيكليندوف) نفسه حتى السجن كان كل يشتهيها لنفسه ، هذا بقطع النظر عن عبثها دون ان تأبه لرغباتهم . ولهذا فقد كانت ترى ان سائر الرجال كانوا يتحينون الفرص لامتلاكها ، متوسلين لذلك بمختلف الوسائل من اغراء ، وعنف ، ومال ، وبراعة .

تلك هي الصورة التي كانت (ماسلوا) ترسمها في ذهنها لحياة الانسان ، وكانت راضية عنها أكثر من أي صورة أخرى . اذ ان أي تبدل في وجهة نظرها كان معناه بالنسبة لها ، فقدان الشجاعة التي ينبثق عنها رأيها في الحياة . وخشية من أن تفقد تلك الشجاعة ستظل ملازمة للأوساط التي تفكر تفكيرها وترى رأيها . وها هي ذي حين عرض عليها الأميران بنقلها الى وسط آخر

يختلف عما ألفته أبت عليه وتمنعت مخافة ان تفقد اعتبارها لنفسها ولهذا السبب نفسه كانت تتناسى حتى ذكريات طفوليتها الأولى وغرامها بالأمير لتباينها ووجهة نظرها الحالية . لقد ألقت هذه الذكريات في غيابة زاوية من ذاكرتها وختمت عليها كما تفعل النحلة ببقاتها اذ تضعها في الخلايا وتحكم اغلاقها عليها كيلا تعيقها في عملها . لم يعد (نيكليندوف) في نظرها ذلك الفتى الذي أحبه يوماً من الأيام ، وانما أصبح ذلك السيد الثري الذي ينبغي استغلاله ، وابتزاز ماله كغيره من الرجال .

— لم اصرح لها بالفرض الأساسي من مواجهتي لها . لم أقل لها انني أود الزواج منها . ولكنني سأفعل ذلك على كل حال . — هكذا كان (نيكليندوف) يفكر في نفسه .

كان السجانون يقفون في باب السجن ليحصوا الخارجين منه فاذا ما خرج أحدهم ضربه السجان على ظهره . ولم ير (نيكليندوف) في ذلك ما يعتبر اهانة ، حتى انه لم يعمره انتباهاً .

٤٥

لقد قرر الأمير (ديتري ايفان) اجراء تغيير كامل على شكل حياته . كان يفكر في تأجير القصر الفخم الذي يسكنه ، والاقامة في أحد الفنادق الاقتصادية . ولكن قيمة منزله (اغريينا بتروفنا) أقنعت به انه لا يستطيع اجراء أي شيء قبل حلول فصل الشتاء لأن البيوت لا تؤجر قبل ذلك الوقت ، هذا بالإضافة الى انه من الواجب ايداع أثاث البيت والسكنى في مكان آخر .

وهكذا ظل كل شيء على حاله مؤقتاً . غير ان عملاً دائماً كان قد بدأ في المنزل منذ ذلك الحين اشتركت فيه (بيتروفنا) و (كوري) والطاهية العجوز وخادمان آخرون . ذلك هو تنظيف الأثاث والطنافس المصنوعة من الصوف والفراء تنظيفاً تاماً ولفها في ملاءات من القماش بعد حشوها بمسحوق مبيد للحشرات .

كان (نيكليندوف) يقف مدهوشاً عندما يطل من النافذة فيشاهد تلك

المقتنيات المنزلية العديدة الجدوى والتي لا عمل لها سوى اشغال سواعد (اغربينا) و (كورني) وغيرهما من الخدم .

— سوف لن أغير شيئاً من شكل حياتي ما دام مصير (ماسلوف) لم يتقرر بعد . — هكذا كان يفكر .

وذهب (نيكليندوف) لزيارة المحامي في اليوم الذي عينه له . كان (فينارين) يسكن بيتاً فخماً يملكه . وكان على المدرج اصص ازهار فخارية كبيرة ، وعلى النوافذ ستائر فخمة ، ويشاهد في كل مكان أثر الثرف الخاص بأولئك الذين أثروا بسرعة ، والدال على أرباح أحرزت بمجهود قليل .

كان المراجعون يجلسون في غرفة الاستقبال وقد أمضهم الضجر منتظراً كل دوره . وجاء أحد معاوني المحامي وكان يعرف الأمير فقال له أنه سيعلمن قدومه للمحامي في الحال . ولكن الباب فتح عندئذ وأطل منه شاب ربيع القامة يتبعه (فنارين) وعلى وجهيهما ذلك التعبير الذي يشاهد عند من عقد صفقة مشبوهة ولكنها مضمونة الأرباح .

— تلك خطيبتك يا حبيبي . — قال (فنارين) ضاحكاً .

— ها ، ها . ان اللجنة شيء عظيم ... عند ما لا تحول الذنوب دون الوصول إليها .

— يبدو انك خير .

— آه . سمو الأمير تفضل . — قال (فنارين) عندما رأى الأمير . ثم اقتاده

الى داخل المكتب الفخم ، بعد أن ودع الزائر الاول .

— تفضل دخن . أرجوك . — قال ذلك ثم جلس على مقعد قبالة ، ومحاولاً اخفاء ابتسامة ارتياح للصفقة التي عقدها .

— شكراً ... جئت لأستعلم عن تلك الدعوى .

-- حالاً ، حالاً . آه . ما أجهل هؤلاء التجار الأغنياء . — قال يخاطب

نفسه — هذا الذي كان هنا منذ قليل يملك ما يزيد على اثني عشر مليون روبل . وحديثه أدنى من حديث قروي . وهو على استعداد لتسليم نفسه للجزار قبل أن تفلت من يده ورقة الخمسة وعشرين روبلاً .

— هو يتحدث أسوأ من قروي ، وأنت لا تلهج إلا بالمال . — قال (نيكليندوف) في نفسه ، وقد اشمئز من ذلك الرجل المنافق ، الذي يخالف كلامه الآن ما قاله للعميل منذ لحظة .

— لقد أتعبني . كم هو ضيع . وكم هو حقير . — قال بعدئذ بلمهجة من يريد الاعتذار الى عميله لأنه لم يحدثه عن الموضوع الذي جاء من أجله . — لنتحدث عن الدعوى . كان محامي الدفاع ضعيفاً ولا يصلح لشيء . لقد أضاع كافة فرص التمييز .

— وعلى ماذا عولت ؟

— لحظة واحدة . — ثم أقبل على معاونه وقال له . — أخبره انني لن أتنازل أبداً . وقد أخبرته بذلك . اذا كان يستطيع وإلا فليصنع ما يحلو له . — لا يرضى .

— حسن . فليتحمل التبعات — صاح المحامي ، واختفت أدلة المرح التي كانت بادية على وجهه ولبت فترة مفكراً .

— أنظر . — قال وقد حاول إظهار اللطف . — يقولون اننا معشر المحامين نربح كثيراً بجهد قليل . لقد أنقذت مديناً من دعوى باطلة ، والآن علي أن أتحمّل النفقات ... فضلاً عن أن القضية كانت عسيرة التسوية ... هكذا إذن ان دعواكم لم تعالج كما كان ينبغي أن تعالج . لا توجد موجبات صالحة للتمييز ومع ذلك فبالوسع اجراء محاولة ، وقد أعددت هذا ثم فتحت مخطوطاً وأقبل يتلوه مسرعاً مغفلاً الفقرات المألوفة ، ومركزاً على ما يراه حرياً بالتركيز عليه . « في جلسة محكمة الجزاء ... النخ وبقرار تلي ... النخ وعلى أساس قرار مجلس المحلفين ... النخ . اعتبرت المدعوة (ماسلوف) مسؤولة عن تسميم التاجر (سميلكوف) وبناء على المادة (١٤) و (١٥) النخ من قانون الجزاء حكم عليها بالأشغال الشاقة النخ ...

ثم توقف قليلاً ، كأنما كان يصغي بارتياح لقراءة ما كتبه ، على الرغم من أنه قد اعتاد مثل ذلك . ثم مضى يتلو بلمهجة المقتنع :

« ان هذا القرار هو نتيجة حتمية لأخطاء ونواقص خطيرة في أصول المحاكمة ، ولذا نطلب إلغائه . قبل كل شيء نقول ان تلاوة تقرير الخبير الطبي عن حالة احشاء المتوفي قد قوطعت من قبل الرئيس خلال رؤية الدعوى .

— هذا هو السبب الموجب الأول .

— ولكن إذا كان النائب العام هو الذي طلب تلاوته — قال (نيكليندوف) مدهوشاً .

— هذا لا يهم . يمكن استغلاله للدفاع .

— لم تكن لازمة .

— حسن . ولكنها تصلح دائماً لثبوت سبباً .

« ثانياً : لقد قاطع الرئيس محامي الدفاع عندما ملح لسقوطها المعنوي رغبة منه في زيادة الايضاح عن طباع المتهمه ، وطلب اليه التقيد في صلب الدعوى . في حين أن معرفة طباع المتهم معرفة صحيحة هي على جانب عظيم من الأهمية عند الإجابة كما ينبغي على الأسئلة .

— هذا هو الثاني .

وحلق (فنارين) في وجه (نيكليندوف) .

— لقد كان محامي الدفاع يتكلم بصورة جد رديئة حتى ان أحداً لم يكن يصغي إليه . — قال الأمير وهو يزداد دهشة .

— لم يكن يستطيع أكثر من ذلك لغباوته . — أجاب المحامي وهو يضحك . — ولكن هذا لا يمنع من استخدامه كسبب .

« ثالثاً : ان الرئيس ، خلافاً لما جاء في الفقرة الاولى من المادة (١٠١) من قانون الجزاء لم يأت ، في الخلاصة ، على ذكر العناصر القانونية التي تشارك في تكوين نظرية الادانة . كذلك لم يشر الى أن للمحلفين الحق في أن ينفوا عن (ماسلوف) قصد القتل ، حتى بعد اعترافها بإلقاء السم في كأس (سميلكوف) فينفوا عنها جريمة القتل في أجوبتهم للمحكمة ، ويثبتوا عليها الوقوع في خطأ كانت نتيجة غير المتوقعة من المتهمه ، وفاة التاجر . وهذا هو السبب الرئيسي .

- ولكن كان علينا نحن المحلفين أدراك خطئنا .
- ولنأت الآن على ذكر السبب الرابع . — قال المحامي متابعاً :
- « إن جواب مجلس المحلفين على سؤال المحكمة حول مسؤولية (ماسلوف) يشكل تناقضاً واضحاً . فالتهمة تقول ان (ماسلوف) قد دست السم للتاجر (سميلكوف) بقصد سرقة . وعندما نفى مجلس المحلفين قصد السرقة عنها ، فقد أراد دون شك نفي قصد القتل عنها ، غير ان الخطأ كان في ملخص الرئيس غير الكامل ولهذا جاء الجواب على هذه الصورة . ويحتم الجواب شرح المادتين (٨٠٨) و (٨١٦) من قانون الجزاء ... الخ ... ويوجب على الرئيس إيفاءها لمجلس المحلفين . وهنا تبدأ مناقشات جديدة ويتطلب الأمر جواباً جديداً على السؤال المتعلق بمسؤولية المتهم .
- لماذا أذن لم يفعل ذلك الرئيس ؟
- كذلك أنا أرغب في البحث عنه . — قال (فنارين) وهو يضحك .
- إذن ستندارك محكمة التمييز الخطأ ؟
- يتوقف ذلك على من يكون الرئيس . ولنمض مستعرضين أشياء أخرى ثم مضى متابعاً التلاوة .
- « وقرار المحلفين هذا لا يخول المحكمة حق تطبيق المادة كذا الخ ... بحق (ماسلوف) وتطبيق أحكام الفقرة الثالثة من المادة كذا الخ ... دون الوقوع في مخالفة قانونية خطيرة .
- « لهذه الأسباب المذكورة مجتمعة أتشرف بتقديم الرجاء ... الخ بتبني القرار عملاً بأحكام المادة الخ ... وإعادة الدعوى للنظر فيها مرة ثانية » .
- هذا منتهى ما يمكن فعله ، وهذا ما فعلناه . أما الآن فكل شيء يتوقف على الشخص الذي سيرأس المحكمة . إذا كان لديك نفوذ أو وساطة فابدأ باستخدامه حالاً .
- لدي بعضها .
- عجل باستخدامه ، لأن العطلة الصيفية ستبدأ قريباً وفي حال رد طلب التمييز فلن يبقى لدينا سوى التماس العفو من جلالة القيصر .

- شكراً ... وكم هو بديل الأتعاب ؟
 - سيقدم لك المعاون نسخة عن أوراق التمييز ، ولائحة بالأتعاب .
 - كنت أريد أن أسألك سؤالاً آخر . لقد استحصلت من النائب العام على إذن بزيارة السجينة في السجن . ولكنهم أخبروني أنه ينبغي الحصول على إذن من حاكم الولاية لزيارتها خارج أوقات الزيارة . فهل هذا صحيح ؟
 - أجل هذا صحيح . ولكن الحاكم مجاز الآن ويقوم نائبه مقامه . ولكنني أشك في أن هذا الأحق سيوافق على ذلك .
 - (ماسلينيكوف) ؟
 - بعينه .
 - أنا أعرفه . - قال ذلك واتجه نحو الباب .
 وهنا دخلت المكتب زوجة المحامي متهافئة وبدون سابق انذار . كانت امرأة صغيرة الجسم ، قبيحة التكوين ترتدي ثياباً على طراز أولي (Original) تزيدها قبحاً . دخلت دخول الظافرين يتبعها رجل طويل القامة نحيل الجسم ترابي اللون لاصق الشعر بالصدغين والجبين .
 - يا (أنتوليو) . - قالت وهي تفتح الباب - أنا بانتظارك فمجل . لقد حضر (سيمون فرانوفيتش) وسيلقي بعض قصائده وينبغي عليك أن تتلو شيئاً (لغارسين) .
 فحاول (نيكليندوف) ان يخرج من الغرفة غير أن السيدة اعترضت سبيله بعد أن تحدثت مع زوجها بصوت خافت وقالت له :
 - أيها الأمير أنا أعرفك فلا حاجة للتعارف . أتوسل إليك أن تشرف حفلتنا الأدبية . ستكون رائعة لأن (أنتوليو) يجيد التلاوة .
 - أرأيت ان لدي مهاماً أخرى ومن نوع آخر . - قال المحامي ذلك مبتسماً وأشار الى زوجته اشارة يفهم منها أنه من المستحيل مقاومة رغبات شخص له مثل تلك الفتنة والاغراء .
 ولكن (نيكليندوف) ، الذي ظهر الكدر والتجهم على وجهه ، شكرها

بتأدب ودماثة للشرف الذي توليه له بهذه الدعوة ، واعتذر بأن لديه أشغالا هامة .

— يا له من تقيل . — قالت المرأة ذلك فور خروج الأمير .
عندما خرج الأمير الى قاعة الانتظار قدم له معاون نسخة عن عريضة التمييز ، ولما سأله الأمير عن أتعاب المحاماة أجابه ان (اناتوليو سيميوفيتش) لا يبدد جهوده في أعمال كهذه ، وانه قد قام بهذه الخدمة اكراماً للأمير فقط . ثم قدر الأتعاب بمبلغ ألف روبل .

— ومن ينبغي أن يوقع الطلب ؟ — سأله (نيكليندوف) .
— توقعه المتهمه . وإذا تعذر ذلك فسيوقعه (فنارين) .
— كلا . كلا . سأذهب الى السجن لأخذ توقيعها . — قال (نيكليندوف) مرتاحاً لذلك ، لأنه يهيء له وسيلة للتحدث الى (كاترين) من جديد قبل اليوم الموعود .

٤٦

ارتفع صوت صفارات الحرس في رواق السجن ، فارتفع على الأثر صوت صليل قيود المساجين ، في الساعة المعتادة من ذلك الصباح ، وفتحت أبواب الأجنحة ، وأخرجت الى الرواق الخواوي الخشبية التي كانت تنبعث منها روائح عفنة تتقرز لها النفس . وخف المساجين لارتداء ثيابهم وغسل وجوههم ، ثم خرجوا الى الأروقة حيث وزع عليهم الماء الساخن ليعيدوا لأنفسهم الشاي . وكان حديث الساعة المتداول بين كافة المساجين عقاب (السورغا)^١ الذي يعدون عدته ليعاقبوا به بعض المساجين ذلك الصباح . وكان أحد هؤلاء المستخدم (فاسيليف) الذي قتل حبيبته في ساعة غيرة . كان شاباً متعلماً يحبه رفاقه في السجن كثيراً لحفة روحه وكرمه ، وللطلاقة التي يسير أموره بها مع الرؤساء . وكان مطلعاً على كثير من القوانين ، ويطالب باصرار بوجود

١ - السورغا : شريط حديدي مقرر على بمضه .

تطبيقها بنصها وروحها . حدث منذ ثلاثة أسابيع أن أحد السجناء قاصص سجيناً لأنه لوث طرف بزته الجديدة بالحساء عن غير قصد . فخفف (فاسيليف) لنصرتة مبنياً للسجان أنه ما من قانون يبيح له إساءة معاملة المساجين . — سأعلمك القوانين . — قال له السجان ثم قذفه بما لا يحصى من الشتائم . فأجابه (فاسيليف) بمثلاً . ولما رفع هذا يده فوقه ليضربه قبض على معصيه ودفع به الى الخارج . فقدم السجان تقريراً الى المدير واستحصل منه على أمر بوصفه في إحدى زنازات القصاص .

كانت هذه كناية عن غرف صغيرة باردة لا نور فيها وتغلق من الخارج بقفل كبير وليس فيها كرسي أو سرير مما يضطر السجناء ان يجلس أو يستلقي على الأرض القذرة ، متعرضاً لهجمات الفئران التي تكثر هناك والتي تبلغ بها الجرأة الى حد انتزاع رغيف الخبز من يد السجناء ، وعضه عندما يكون ثامناً . وأعلن (فاسيليف) امتناعه عن الذهاب الى الزنازاة لأنه لم يرتكب جرماً . فحاول السجان جره بالقوة يساعده بعض رفاقه ولكنه أفلت من بين أيديهم . وهنا أسرع الجميع لمساعدة السجان بما فيهم (بطرس) المعروف بقوته ، فقفزوا على كل مقاومة عنده ثم نظموا ضبطاً بالحادث ادعوا فيه انه يقوم بتدبير تمرد ، ولم يلبث أن صدر الأمر بحل كل مذنّب ثلاثين جلدة (بالسورغا) . وكانت هؤلاء المذنبون (فاسيليف) والمتشرد (نيبومنياشي) .

كان يجب ان يحلوا في قاعة زيارات النساء وقد اعلن ذلك على المساجين الليلة الماضية فأثار نقاشاً حاداً .

كانت (كورابلوفا) ورفيقاتها الجميلة و (فيدوسيا) و (ماسلوفا) جالسات في إحدى الزوايا محتقنات الوجوه منفعلات بفعل ما شربته من الخمر الذي كانت تجود به (ماسلوفا) على رفيقاتها بسخاء ، وهن يشربن الشاي ويعلقن على العقوبة . — لم يأت شيئاً سوى انه دافع عن أحد رفاقه . — كانت تقول (كورابلوفا) . — يقولون عنه انه جريء . — قالت (فيدوسيا) متدخلة . — حسناً تصنعين اذا حدثته بذلك يا (كاترين) . — قالت حارسة المر . وهي تعني (نيكليندوف) .

أجل سأحدثه بأمره . - قالت (ماسلوف) ورددت رأسها الى الوراء وهي تبكس . سيفعل ذلك اكراماً لي .

- بلى . ولكن متى يأتي ؟ - قالت (فيدوسيا) ذلك ثم أطلقت زفرة . - سيعاقبونه بمد قليل .

- لقد شهدت مرة معاقبة قروي بهذه الطريقة . لقد بعث بي حمي لعند (الاستاروستا)^١ وعندما وصلت الى ...

ولكن القصة التي كانت تنذر بأن تكون لا نهاية لها ماتت على شفقي محدثها اذ سمع وقع أقدام في المشى فصمت النسوة وأقبلن بصغين .

- لقد جاء به أولئك الشياطين . وسيجلدونه الآن بلا رحمة . انهم يكرهونه لأنه لا يتصاغر أمامهم . - قالت الجميلة .

وساد سكون لم يسمع خلاله أي صوت أو حركة في المشى وهكذا استطاعت حارسة الممران تكمل قصتها وان تعبر عن الرعب الذي شعرت به عندما رأتهم يعذبون ذلك القروي . وقصت الجميلة كيف تلقى (ايشكوف) ذلك القصاص دون ان تند عنه كلمة توجع . وهنا وضعت (فيدوسيا) ابريق الشاي في مكانه ، وانصرفت (كورابلوفا) وحارسة الممر الى عملها ، وذهبت (ماسلوف) فجلست على حافة السرير متضجرة ووضعت يديها تحت ركبتيها وشبكت اصابعها ببعضها ببعض . وفيما هي تهم بأن تستلقي على السرير اذا بالسجانة تدخل عليها وتنبئها بأن زائراً ينتظرها في غرفة المدير .

- خاطبيه بشأننا - قالت لها (مانستشوفا) المعجوز المتهمة باضرار النار ، في حين كانت (ماسلوف) تصلح غطاء رأسها أمام المرأة المكسورة - قولي اننا لم نضر النار وانما الذي اضرها هو ذلك القاتل . وان الخادم رآه . قولي له ان يستدعي (ديمتري) فهو يعرف كل شيء وسيطلعه على كل شيء . انه لظلم . لقد سجنونا نحن وظل هو طليقاً ينعم مع زوجة غيره .

١ - لعلها تعني جاني .

— حقاً أنه لظلم . — قالت (كورابيلوفا) .
— سأقول له ذلك فكُن واثقات . — أجابت (ماسلوفا) ثم قالت
(لكورابيلوفا) . — يجب أن آخذ جرعة من الحمر إيقاظاً للجرأة .
فصبت لها هذه نصف كأس من الحمر جرعته دفعة واحدة . ثم نظفت
شفيتها وسارت وراء السجنانة وهي تردد قولها : إيقاظاً للجرأة .

٤٧

كانت قد مضت مدة من الزمن والأمير ينتظر في قاعة انتظار السجن .
وعندما وصل وأبرز الاذن الذي بيده من النائب العام سأله الحارس المناوب
قائلاً :

— عن تبحث ؟
— أود مواجهة السجننة (ماسلوفا) .
— يستحيل ذلك الآن لأن المدير مشغول .
— أين ؟ أفي مكتبه ؟ — قال الأمير مستفسراً .
— كلا : انه في الادارة .
ولكن (نيكليندوف) لاحظ تردداً في جواب الحارس .
— هل توجد عطلة اليوم ؟
— كلا . هناك قضية داخلية .
— متى أستطيع مواجهته ؟
— بعد فترة قصيرة ، انتظر .
وفيما كانا يتحدثان دخل عريف أول ذو شاربين تنبعت منها رائحة دخان
التبغ ، والمرق يتصبب من جبينه . فالتفت الى السجنان وصاح فيه يحفاه
قائلاً .

— لماذا سمحت له بالدخول الى هنا ؟
— ظننت أن المدير موجود هنا . — قال الأمير متدخلاً وقد استغرب
الاضطراب البادي على العريف .

وهنا فتح الباب ودخل (بطرس) مضطرباً والعرق يتصبب من جبينه .
— أظنه سيدكرها مدة طويلة . — قال متوجهاً بالكلام الى العريف .
فأشار له هذا بعينه اشارة يلفت فيها نظره لوجود الأمير فسكت ثم زوى
ما بين عينيه وخرج من الغرفة .

— ترى من ذاك الذي سيتذكر ؟ ... ولماذا هذا الاضطراب البادي عليهم
اليوم ؟ ولماذا أشار العريف الي بعينه ؟ — كان الأمير يفكر في نفسه .
فقال له العريف :

— لا يمكن بقاؤك هنا . تفضل الى مكتب المدير .

وفيا كان (نيكليندوف) يهم باللاحاق به إذا بباب يفتح من ورائه ويدخل
منه المدير أكثر اضطراباً من مرؤوسيه . كان ممتقع الوجه لاهناً . ولكنه عندما
رأى الأمير التفت الى أحد السجان وقال له .

— أحضر (ماسلوف) يا (فيدوتوف) من الجناح الخامس ثم دعا
(نيكليندوف) للدخول .

ودخلا الى غرفة متوسطة الاتساع ، ذات نافذة واحدة حيث يوجد مكتب
وبعض الكراسي . فجلس المدير .

— هنالك واجبات شاقة ومؤلة . — قال وهو يخرج من جيبه لفافة تبغ
ويصعد زفرة .

— يبدو انك مرهق بالعمل . — قال له الأمير .

— أنا جاد مرهق من وظيفتي ، لأنها تحتم علي القيسام بواجبات خطيرة
ومحزنة . يتمنى المرء التخفيف عن هؤلاء التعساء ولكن ذلك يضاعف ويلاتهم
أحياناً . لا يزال بعيداً الوقت الذي أرى نفسي فيه حراً ... ان ثمة واجبات
جد مؤلة .

لم يستطع (نيكليندوف) التكهن بأسباب ذلك الغم . ولكنه أدركته
الشفقة عليه لما رآه من فرط غمه .

— اعتقد ان القيام بأعباء هذه الواجبات قد يكون شاقاً . ولكن لماذا
رضيت بهذا المنصب ؟

- لأنني رب عائلة وليس لدي مورد آخر .
 - ولكن إذا كان يسبب لك الازعاج ...
 - أحاول صنع الخير ما وسعته طاقتي . وأبذل قصاري في تخفيف
 الآلام ... ان واحداً غيري في مكاني سيتصرف بصورة مختلفة ... تصور ان
 عندي هنا ألفي سجين . ولك ان تتصور من أي فصيلة هم ... رباه .
 ثم سرد قصة شجار وقع بين سجينين انتهى بحريمة قتل . وقطع حديثه
 دخول (ماسلوف) يتبعها الحارس . وكان (نيكليندوف) قد لحها على عتبة
 الباب قبل ان يتنبه المدير لوجودها . كان وجهها محتقناً . وكانت تسير وراء
 الحارس بخفة ونشاط وهي تبتسم . ولكنها عندما رأت المدير أجفلت إلا انها
 أخفت ما بها وأظهرت السكينة ومضت نحو الأمير .
 - نهارك سعيد . - قالت له وهي تجر الكلمات ، بينما كانت تصافحه بشدة
 وحرارة .
 - جئت أحمل اليك عريضة التمييز لتوقيعها لقد وضعها الحامي ، وهي
 بحاجة الآن لتوقيعك عليها . ثم بعدئذ رفعها لسان بطرسبرج . - قال ذلك
 وقد أدهشه منها ذلك اللقاء .
 - ولم لا ؟ سأوقعها ... كل شيء ممكن في هذه الدنيا . - اجابته وهي
 تبتسم .
 فأخرج (نيكليندوف) من جيبه ورقة مطوية وتقدم من الطاولة .
 - أنستطيع الكتابة هنا ؟ - قال يسأل المدير .
 فالتفت هذا الى (كاترين) وقال لها :
 - تقديمي واجلسي . تحسنان الكتابة ؟
 - كنت في ما مضى أحسنها . - أجابته وهي تجلس ثم أصلحت ثوبها
 وأكمامها .
 ثم أسرع وتناولت القلم بيد صغيرة عصبية ، ولوت وجهها ناحية الأمير
 وهي تبتسم . فمين لها المكان الذي ينبغي ان توقع فيه . فغمست القلم بالخبر
 بعناية ثم هزته فوق الهبرة وكتبت اسمها .

— هل بقي ما يجب فعله ؟ — قالت تسأل وهي تنقل نظرها بين الأمير والمدير ، في حين كانت تضع القلم طوراً على المحبرة وأخرى على غطاء الطاولة .
— كنت أود أن أقول لك شيئاً آخر . — قال لها (نيكليندوف) وقد تناول منها القلم ووضعها في مكانه .

— تكلم إذن . — أجابته الفتاة : — وكأنما كان قد خطر لها خاطر أو أخذها نعاس فانقلبت جادة .

فخرج المدير عندئذ من غرفة المكتب . وجلس الحارس الذي رافقها بعيداً عنها قرب النافذة . فأصبحا منفردين .

٤٨

لقد دنت الساعة الحاسمة .

ما فتىء الأمير يؤنب نفسه لأنه لم يبد لها رغبته في الزواج منها عندما رآها المرة الأولى . كانت جالسة قبالة على مقربة من الطاولة . ولما كانت الغرفة كثيرة النور فقد أخذ يتفرس في ذلك الوجه الذي لم يره منذ سنوات . فراعته تجمعات عينها وفها ، والورم البادي حول عينها فأخذته الشفقة عليها . فانحنى على الطاولة كيلا يسمع حديثها الحارس الذي كان شبيهاً باليهود . ثم قال لها :

— إذا لم نحصل على شيء فسنقدم بالتماس الى جلالة القيصر سنبدل جهداً .

— ليت هذا كان قبل الآن ... لو أتيح لي حمام قدير . — هتفت تقول .

— ولكن محامي كان من القيادة بحيث لم يكن لديه ما يقوله سوى تملقي .

— وأردفت هذه الكلمات بقمحة صاخبة . — لو علمت أنك ستذكرني اذن

لسارت الأمور جميعها بصورة مختلفة . اليوم يعتبرني جميع الناس لصة .

كان (نيكليندوف) يفكر في نفسه ويقول : لا بد أن اليوم قد جد لها

أمر غريب . — وفيما كان يهم بأن يصرح لها بأفكاره إذا بها تعود الى الكلام .

— أريد أن أطلب اليك أمراً . يوجد هنا في هذا السجن عجوز طيبة ،

يعجب الجميع لسجنها . كذلك يوجد مسجون آخر هو ولدها والاثنان متهمان

بإضرار النار في أحد البيوت مع انها بريئة . - قالت هذا وحولت وجهها
شطره وصوبت نظراتها اليه . - لقد توسلت إلي أن أرفع لك أمرها وأمر
ولدها كي تتوسط لها . ويدعى (مانسشوا) ... أتعرفه ؟ هي عجوز طيبة
وجد طيبة حتى ليكفي مجرد النظر اليها للتحقق من براءتها . اهتم لذلك يا
حبيبي ... - ثم أطرقت بنظرها الى الارض وهي تتبسم .

- حسن . حسن . سأرى ذلك . - قال (نيكليندوف) وهو يزداد
دهشة لجراتها . - أود الآن ان أتحدث اليك بأمر هام جداً أتذكرين حديثي
آخر مرة ؟

- يا للشيطان ... لقد تحدثت كثيراً آخر مرة ... ماذا قلت لي ؟
- أجابته وهي لا تزال تضحك في حين كانت تهز رأسها وتلفت يمينا وشمالا .
- قلت انني جئت أطلب سماحك .

- ولماذا تلح بطلب السماح ؟ ... السماح ... السماح ... كل هذه أشياء لا
طائل تحتها ... الأفضل ...

- أريد أن أقول انني أود التكفير عن خطيئتي . - قال مكتملاً حديثه .
- ليس بالكلام فحسب وانما بالفعال أيضاً . لقد صمت على الزواج منك .
فعلت ملامح وجه (ماسلوقا) موجة من الرعب لا توصف . وكانت تحدق
فيه بنظرها ، وكأنها لا تراه .

- وما الداعي لهذا ؟ - قالت مجنق مكبوت وقد زوت ما بين عينيها .
- أعلم أن ذلك واجب علي ، وأقسم عليه أمام الله .

- أي شيطان يتحدث عن الله الآن ... انه لا يتحدث عن شيء في
أوانه ... الله ... ومن هو الله ؟ ... كان ينبغي أن تفكر فيه قبل الآن .
- أجابت وقد ففرت فاهها .

وعندئذ أدرك (نيكليندوف) سر انفعالها الغريب لأن رائحة الخمر قد
ملأت أنفه . فقال لها :
- هدئي روعك .

- آه . تطلب إلي أن أهدأ روعي . أحسبك تظنني سكرى ؟ بلى أنا سكرى . ولكني أدرك ما أقول . - ثم أخذت تتحدث بثبات شديد في حين كانت حمرة الخجل تملو وجهها . - أنا امرأة سجيئة ، وأنت سيد غني وأمير ، وينبغي ألا تدنس نفسك بالاقتراب مني ... اذهب مع أميرائك .

- مها بلغت قسوتك علي ، فانها لن توازي ما ألاقيه من تبكيت الضمير . - قال (نيكليندوف) مغفماً وهو يرتعش - ليس بوسعك أن تتصورني مدى شعوري بالخطأ تجاهك .

- شعوري بالخطأ . - قالت تقلد كلماته بحدة . - ولكنك لم تشعر بخطئك وألقيت بوجهي مئة روبل إليكها فخذها . انها ثمن حبك .

- لقد كنت حقيراً وقاسياً . - كان يردد قوله - ولكني الآن صمتت علي ألا أفارقك ، وسأحافظ علي وعدي .

- يبدو من كلامك انك لن تبر بوعدهك . - أجابت وهي تقهقه ضاحكة . - يا (كاترين) .

- ابتعد عني . دعني . أنا طعمة السجون . وأنت أمير ومكانك ليس هنا . - صرخت بوجهه بحدة وسحبت يدها من يده .

ولما كانت قد تحركت في نفسها عاصفة من الكراهية له ، شرعت تقذفه بما يعني لها من الكلام .

- لقد جعلت مني وسيلة للذئب في هذه الحياة . والآن تريد أن تتخذ مني منقذاً لنفسك في الدار الأخرى ... انك لبغيض الي بنظاراتك وخطمك الضخم القذر ... أغرب عني أقول لك ... أغرب ... أغرب ...

وهبت واقفة بحركة عصبية .

- اصفي . ما هذه الضجة التي تقيمينها ؟ من الذي سمح لك ؟ - قال لها الحارس وقد خف إليها عندما سمع صراخها .

- أرجوك أن تدعها . - قال (نيكليندوف) .

- لا يجوز للسجينة بحال من الأحوال ... - قال ولم يكمل .

- أرجو أن تقرئ قليلاً . - قال الأمير ملحاً .
فعاد الحارس الى مكانه قرب النافذة ، وجلست (ماسلوا) مرة أخرى
وأطرقت بنظرها الى الأرض ، مشبكة أصابعها الصغيرة .
وكان (نيكليندوف) واقفاً أمامها ولا يدري بماذا يخاطبها .
- ألا تصدقيني إذن ؟
- أصدق انك ستزوجني ؟ هذا لن يكون أبداً . سأقتل نفسي قبل ذلك .
فتأكد .

- وعلى الرغم من ذلك أرغب في أن أكون مفيداً لك .
- هذا مجرد كلام . أقول لك جادة لا حاجة لي لخدماتك ... أواه ، لماذا
لم أمت تلك الليلة . - هتفت تقول ثم انفجرت تبكي بكاء مرأى يبعث الشفقة .
كان قد أصبح الكلام متعذراً على (نيكليندوف) ، وعندما رأى دموعها
تنهمر بغزارة غلبته دموعه فبكى .

وران الصمت عليها برهة . وإذا رأت (ماسلوا) دموع الأمير تبلل خديه
أخذتها الدهشة وأقبلت تسح دموعها بمنديلها . فتقدم الحارس منها وأعلن لها
أن المقابلة قد طالت .

- لقد غلبها الانفعال . - قال الأمير للحارس ، في حين كانت تقف . ثم
قال لها . - سأحضر غداً اذا تهيأ لي ذلك ، وعلى كل حال فكري فيما قلته لك .
فلم تجبه ، وإنما تبعت الحارس حتى دون أن تلتفت إليه .

- صحيح يا عزيزتي . لقد اصطدت صيداً حسناً . - قالت لها (كورابولوا)
عند عودتها الى السجن . - يبدو أنه مغرم بك حقاً . فاعتنمي هذه الفرصة لأن
يوسعه انقاذك فالأغنياء يستطيعون كل شيء .

- هذا صحيح . - قالت حارسة الممر . - لا بد للشيطان الفقير من التفكير
مراراً قبل الاقدام على الزواج . أما الغني فيأتي ذلك على الفور .
- هل حدثته عني ؟ - قالت (ماتششوا) تسألها .

ولكن (ماسلوا) لم تحر جواباً ، ولم تمر أذن صاغية لأسئلة رفيقاتها

وحديثهن ، بل كانت ، وهي مستلقية على السرير ، تحديق بنظرات شاردة باتجاه زاوية مظلمة من زوايا السجن ، بينما كانت روحها تتمخض عن تحول اليم ...
لقد أعادت كلمات (نيكليندوف) الى ذاكرتها ذكرى ذلك المجتمع الذي ذاقته وبلاته ، والذي صبت عليه فيضاً من اللعنات عندما فرت منه . وأصبح يتعذر عليها الآن استعادة ذلك النسيان الذي ما زالت تخفي في طياته ذكرياتها . كما أصبحت ترى الحياة شاقة عليها في غمرة ذكريات ذلك الماضي ...
وأخيراً سكن انفعالها قليلاً ، عند حلول الظلام ، فطلبت المزيد من الحر ، وأقبلت تعب منه هي ورفيقاتها حتى ثلن .

٤٩

كل شيء في هذه الحياة يأتي على نط واحد . - كان الأمير يفكر في نفسه عند مغادرته السجن .

وتجلبت له مسؤوليته بالنسبة (لكاترين) بصورة واضحة جلية .
ولولم يحاول التكفير عنها ، إذن لما استطاع إدراك مداها ، وحتى (ماسلوف) نفسها ما كانت لتدرك مبلغ الأذى الذي ألحقه بها .
وقد بات يعرف الآن مقدار ما أوقعه بتلك المنكودة الحظ من فادح الضر والأذى ، الذي يرى أنها هي قد أصبحت عالمة به أيضاً . لقد تبين له أنه ، حتى ذلك الوقت ، ما انفك يتلاعب بشعورها ، فأربعه ذلك ... ولكن .
أبدعها وشأنها ؟ انه يرى ذلك مستحيلاً عليه . ومع هذا فقد كان لا يدري على وجه التحقيق أي نوع من العلاقات سيقبمه معها في المستقبل لتصبح الصلات بينها أقل إيلاماً لكليها .

وفيا كان يغادر السجن تقدم منه سجان تزين صدره الأوسمة ، ويتجلى الرياء في وجهه ، وقدم له رسالة بصورة سرية قائلا له :
- لدي رسالة لسموكم .

- من هي ؟

- إقرأها أولاً وعندئذ تعلم من هي . انها من مجرمة سياسية وأنا حارس في

احدى القلاع ... لقد توسلت إلى ... وعلى الرغم من كون ذلك محظوراً علينا فقد رأيت أن أصغي لتوسلاتها ، فدهش (نيكليندوف) وعجب بنقل حارس مولج بالمحافظة على المساجين السياسيين ومراقبتهم رسالة منهم ويسلمها على مرأى من الناس . لقد كان دون شك يجهل أن ذاك الرجل كان يقوم في السجن بمهمة جاسوس بالإضافة الى وظيفته كحارس .

كانت الرسالة مكتوبة بيد ثابتة . وهذا ملخصها :

« لما كنت قد علمت أنك قد جئت الى السجن يحذوك المطف على شخص معين ، فاني أرغب في أن أراك . فاطلب مواجتي فساظلمك على أشياء هامة عن محبتك وعن السجناء السياسيين .

« المترفه بفضل سموك (فيرا بوغودوتشوفسكا) » .

— من هي هذه يا ترى ؟ — ظل (نيكليندوف) مدة طويلة يتساءل وهو ما زال متأثراً من مقابلته (لماسوفا) .

كان يبدو انه لا يعرف صاحبة هذا الاسم .

كانت هذه ابنة كاهن . وقد التقى بها (نيكليندوف) في احدى رحلاته لصيد الدببة حيث توقف ورفاقه التماساً للراحة في قرية من ريف محافظة (نوفجورود) كانت هذه تعمل فيها كمدرسة . فالتصقت منه تلك المعلمة المسكينة أن يعينها بقليل من المال لتواصل دراستها في الجامعة . فقبل الأمير التماسها ولبى طلبها وقدم لها ما تحتاج اليه . ثم احتوى النسيان في طياته ما أسداه من جميل ومن اسدي إليها . وهي الآن ، اذ علمت بمجيئه الى السجن الذي كانت فيه كعميلة سياسية ، يبدو أنها ترغب في أن تقدم له ما تقوى عليه من خدمات .

وتذكر (نيكليندوف) بسرور ذلك الزمن الذي تعرف فيه على تلك المخلوقة .

كان ذلك في بعض أعياد المرافع ، وفي قرية جد صغيرة متخفية بين الغابات حيث كان الصيد وافراً . وكان الصيادون قد عادوا من رحلاتهم محملين بصيدهم .

وجلسوا يتناولون طعامهم فدخل صاحب الفندق عليهم وأعلن ان هناك ابنة أحد الكهنة ترغب في التحدث الى الأمير (نيكليندوف) .

— هل هي جميلة ؟ — قال واحد منهم .

— أسكت يا رجل . — قال (نيكليندوف) ثم غادر المائدة متعجباً من رغبة ابنة أحد الكهنة في التحدث اليه . وفي غرفة ثانية وجد فتاة دميعة ، ولكنها جميلة العينين ، ترتدي ثياباً حقيرة .

— هذا هو الأمير يا (فيرا افراموفنا) . — قال لها صاحب الفندق . تستطيعين التحدث اليه ، وما أنا ذاهب .

— أي خدمة تستطيع تقديمها لك ؟ — سألتها (نيكليندوف) .

— انني ... انني ... انظري يا صاحب السمو . أنت غني تبذل مالك في الصيد وفي سبيل مسراتك . — أجابته الفتاة مرتبكة . — بينما أنا أرغب في أن أكون نافعة لبني الانسان ولكن يستحيل ذلك علي لافتقاري للعلم . وماذا يمكنني عمله ...

— أنا معلمة وأرغب في الالتحاق بالجامعة ، ولكن لا يسمح لي ... كلا . هو انه ... ليس لدي المال اللازم ... هذا ما التمس من سموك ... فكن جواداً ... سأهني دروسي وسأعيده لك .

كنت وما زلت اتوسم خيراً بأولائك الأغنياء الذين يضرون بالناس ويسكرون القرويين عندما يأتون لصيد الدببة ، وإنهم قد يأتون أعمالاً خيرية ... ان ثمانين روبلاً تكفيني .

ولما رأت (نيكليندوف) يحدق فيها بنظرات فاحصة رزينة ظنت انه قد يرفض طلبها أضافت تقول بحدة :

— ولكن ... وإذا كنت لا تريد اعطائي هذا المبلغ ، فاني شاكرة لك على كل حال .

— الأمر بالعكس . فانه لمن دواعي سروري أن تهأت لي هذه المناسبة ... وأيقنت الفتاة ان الأمير مانحها ما طلبت فاحمر وجهها خجلاً ولبثت صامتة .

— إذا رأيت أن تنتظريني برهة قصيرة فسأعود حالاً . — قال لها (نيكليندوف) .

ولما خرج من الغرفة رأى ان أحد رفاقه كان يتلصص عليه من شقوق الباب . ثم مضى يطلب المبلغ الذي طلبته دون أن يعير تعليقات رفاقه ومزاحهم أذناً صاغية . وعندما قدم لها المال قال لها :

— اليك ما طلبته . ولكنني أطلب اليك ألا تقوهي بكلمة شكر واحدة فأنا الذي ينبغي عليه أن يؤدي واجب الشكر .

وحينما عاد الى المائدة كاد أن يشتبك مع أحد رفاقه الضباط في عراك لمزاحه معه حول الفتاة .

وأحس (نيكليندوف) بارتياح نفسي عندما تذكر تلك الأمسية . وعادته روعة تلك الرحلة وبهجة العودة منها .

لقد تذكر ما كان يساور نفسه من بهجة وارتياح ، وما يغمر كيانه من اطمئنان عندما كانت رثاء تستنشقان الهواء الثلجي ، والثلج يكوي وجهه عند سقوطه عن الأشجار . وحين كان سائر كيانه مغموراً في شبه غيبوبة لذيدة . أيام لم يكن يشغل ضميره ندم أو ازعاج ، خوف أو رغبات .

— كم كنت سعيداً آنذاك ! — كان يقول في سره . — وكما أنا تعيس الآن ! كنت يومئذ أرى كل شيء هيناً مفرحاً . أما الآن فأرى كل شيء شاقاً ومحزناً . لقد أصبحت (فيرا افراموفنا) ثورية دون شك ، ولذا اعتقلت لأرائها السياسية . فقرر (نيكليندوف) العمل على مواجهتها اذ قد تقدم له بعض ما يفيد في التخفيف عن (ماسلوف) .

وهكذا انصرف الى منزله ، مفكراً في الماضي الحلي المليء بنزق الشباب ومسراته ، وفي الحاضر الكئيب المحزن .

٥٠

عندما استفاق (نيكليندوف) من نومه في اليوم التالي تذكر كل ما مر به بالأمس فجزع له . ولكن التردد لم يجد سبيلاً الى نفسه في مواصلة ما وطد العزم

عليه من انتشالها من الهوة التي تردت فيها . فخرج من منزله قاصداً منزلاً (ماسلينيكوف) ، يحفزه هذا العزم ، لكي يلتبس اذنًا له بزيارة المعجوز (مانستشوف) و (بوغودوشوفسكايا) التي قد تكون ذات فائدة لمصلحة (ماسلوف) .

كان الأمير يعرف (ماسلينيكوف) منذ عيّن أمين صندوق للغرفة . وكان آنئذ ضابطاً طيباً وخدموا . غير أن (نيكليندوف) حسب أنه قد تغير بعد ان تزوج من امرأة ثرية محبة للسلطة ففرضت عليه الاستقالة من الجيش والبحث عن وظيفة مدنية . وكانت زوجته تهزأ به وتدله وتعني به كما يعنى بحيوان أليف جميل .

كان (نيكليندوف) قد زاره مرة واحدة ، ولكنه لما لم يجد في ذلك البيت ما يستحق الاهتمام اقلع عن زيارته له من جديد .

وعندما عاد (ماسلينيكوف) فرأى الأمير اشرق وجهه سروراً . كان لا يزال له لون وجهه الوردي ، ومظهره الرائع . كان فيما مضى يرتدي بزة عسكرية تظهره مظهرًا رائعاً . واليوم يلبس بدلة مدنية تبرز تقاطيع جسمه الحسن التكوين .

كان فارق السن بينها كبيراً ، ومع ذلك فقد كانا يتحدثان بحرية ووحدة حال .

— شكراً لك على هذه الزيارة . — قال له . — تعال معي للسلام على زوجتي . لا يزال أمامنا عشر دقائق لبدء الجلسة . لقد سافر الحاكم ، والآن أنوب عنه في الحكم . — قال ذلك بسرور لم يقوَ على اخفائه .
— جئت أطلب اليك خدمة .

— ما عساها تكون هذه الخدمة ؟ — قال (ماسلينيكوف) يسأل بقلق وقسوة وهو يترقب .

— يوجد في السجن امرأة اهتم لها . — فازداد وجه الحاكم امتقاعاً — وأتمنى أن أتحدث اليها خارج غرفة الزيارات . وقد أخبروني ان أمر ذلك راجع اليك .

— اني مستعد لخدمتك يا صديقي الحبيب . وسأخدمك . غير اني لست ملكاً إلا لفترة قصيرة .

— أتمدني باعطاء الاذن ؟

— أجل . ومن هي هذه المرأة ؟ وبماذا تتهم ؟

— هي متهمة بجريمة سرقة وتسميم إلا انها بريئة .

— هكذا هي الحاكم . — قال له : — أنا أعلم أنك تخالفني في الرأي ، ولكن رأيي يركز على أسس قوية . أما أنت فتحرري .

كان منذ عام تقريباً قد تبنى رأياً اقتبسه عن احدى الصحف المحافظة الرجعية .

— لا أدري إذا كنت كذلك أم لا . — أجابه (نيكليندوف) :

— ولكني أؤكد لك ان محاكم اليوم ، صالحة كانت أم طالحة ، هي خير من محاكم الأمس .

— أي محام اخترت لها ؟

— لقد اخترت لها (فنارين) .

— آه . (فنارين) . — قال (ماسلنيكوف) وقد لمز بفعه .

كان قد تذكر ان (فنارين) قد عذبه ذات مرة وكان قد حضر كشاهد في بعض الدعاوي وظل يسخر منه ويهزأ به ويخرجه بالأسئلة طوال نصف ساعة .

— لا أحبذ اختيارك . أن (فنارين) شبيه بالمجانين .

— كذلك أود أن أطلب اليك خدمة أخرى . — قال (نيكليندوف)

مغفلاً اجابته على كلامه . — يوجد في السجن معاملة فقيرة منكودة الطالع أود أن

أراها . أتستطيع اعطائي اذنًا بزيارتها ؟

فأطرق (ماسلنيكوف) برأسه يفكر ملياً . ثم قال :

— أظنها متهمة بجرم سياسي .

— بلى . هكذا قيل لي .

— لا يمكن السماح بزيارة هؤلاء إلا لذويهم . سأعطيك اذنًا عاماً بزيارة

السجن ... وأظنك لن تسيء استعمال هذه الثقة . ما اسم محبتك هذه ؟ ...
(بوغودوتشوفسكا جا) ؟ ... هل هي جميلة ؟
- انها مرعبة .

فهرز (ماسلينيكوف) رأسه دلالة الموافقة وتقدم من الطاولة ثم كتب :
« أجيئ للأمير (ديمتري إيفان نيكليندوف) مواجهة السجينة (ماسلوف)
والطبيبة المتمرنة (بوغودوتشوفسكا جا) في مكتب مدير السجن » . ثم وقعه
بتوقيعه .

- ستشاهد النظام الذي يسود ذلك المكان ، علماً بأن هؤلاء سيذهبون
قريباً الى سيبيريا . وقد احتطت لهم وأوليتهم عنايتي ، لأن تلك المهمة مما يتفق
ومواهي . لقد كادت تقع محاولة تمرد عندنا ، ولو كان غيري في مكاني لأبلغ
نباها للمسؤولين ، ولساء بسبب ذلك وضع أولئك التعساء . أتدري ماذا قررنا ؟
لقد قررنا جلد سجينين . فانتهى كل شيء . صحيح انه ينبغي العطف عليهم .
ولكن كذلك ينبغي اتخاذ الحزم عندما يستدعي الأمر ذلك .
- لقد زرت السجن مرتين . فخرجت متألماً في كليتها .

- صحيح ؟ كان ينبغي عليك أن توثق صلاتك بالكونتيس (باميك)
ما دمت تهتم لحال المساجين . انها امرأة منقطعة النظير بحسنة . لقد اعنتها ما
وسعني ذلك . وأؤكد لك أن نظام السجون قد تحسن كثيراً . فالיום لا
تشاهد فظائع الأمس . فيما يختص (بفنارين) أؤكد لك انه شخص سيء ، على
الرغم من عدم معرفتي له . في الجلسات يسأل سؤالات ... وأي سؤالات
هي ...

- شكراً لك . - قال (نيكليندوف) وقد تناول من يده الاذن بزيارة
السجينات اللاتي يهتم لهن .

- كيف ألا تذهب معي لزيارة زوجتي ؟

- كلا . أرجو أن تعفيني وتساعني ، فليس لدي وقت .

- انها سوف لن تعتفر لي ذلك إذا قلت لها انك جئت الى هنا وذهبت
دون أن تزورها .

ثم سار يرافقي الأمير الى عتبة الباب الداخلي وهو يقول له أتوسل اليك ان تأتي لزيارتها فترة قصيرة .
ولكن (نيكليندوف) لم يتأثر بتوسلاته فاعتذر بضيق وقته بينما كانت الخادم يحضر له المعطف والعصى ويفتح له الباب .
— إذن فالى نهار الخميس استودعك الله . — صاح يقول : — هذا هو اليوم الذي نستقبل فيه الزوار . — سأخبرها بأنك سوف تحضر .

٥١

ذهب الأمير من منزل (ماسلينيكوف) قاصد السجن حيث سأل عن المدير . فأطلت الخادمة التي رآها في المرة الأولى ، وسمع العزف ولكنه كان من منوعات (كلنتي) فأدخل الأمير الى غرفة قليلة النظافة في وسطها طاولة عليها قنديل فوقه اطار قد احترق جانبه . وما لبث ان جاء المدير بوجهه المتعب الكئيب .
— تفضل اجلس . ماذا تريد أيها الأمير ؟ — قال يسأله وهو يكمل زر بزره .
— لقد أجاز لي نائب الحاكم زيارة السجن . وهذا ترخيص عام . واحب أن أواجه (ماسلوف) .
— (ماركوفا) ؟ — قال له المدير مقاطعاً لأنه لم يتبين الكلام بسبب ضجيج البيانو :
— كلا . هي (ماسلوف) .
— حسن . هي (ماسلوف)
فقام المدير من مكانه وفتح الباب نصفه حيث كان مصدر انغام (كلنتي) وقال متذمراً كالشاكبي من هذه الانغام .
— صغبرتي . توقفي عن العزف بعض الوقت . لسنا نستطيع التحدث .
فتوقفت الانغام . وسمع وقع أقدام قادمة مسرعة . وأطل شخص من

الباب . فتظاهر المدير بارتياحه لتوقف العزف وأخرج لفاقة تبغ وأشعلها
وقدمها للأمير الذي اعتذر عن قبولها .

— ليس بوسعك أن ترى (ماسلوكا) هذا النهار لسوء الحظ .
— ولماذا ؟

— أنت المسؤول يا صاحب السمو . — أجاب المدير وهو يبتسم ابتسامة
خفيفة . — لقد مددتها أمس بعض المال فاشتريت خمرأ شربته فسكرت
وتشاجرت مع سائر رفيقاتها .
— ولكن .

— فاضطررنا الى اتخاذ اجراءات صارمة بحقها . كلهن سواء . انها رزيلة
من العسير استئصال شأفتها . أرجو أن لا تعطيها مالا بعد الآن .
فتذكر الأمير موقفها معه بالأمس فأخذه الجزع .
— والمرأة (بوغودوتشوفسكايا) الموقوفة يجرم سياسي أستطيع
مواجهتها ؟

— لا مانع من ذلك . وأنت ماذا تريدن ؟ — قال يسأل طفلة في الخامسة
أو السادسة من عمرها كانت قادمة نحوه وعيناها لا تفارقان (نيكليندوف) .
— إذن أنا ذاهب لأراها . — أجاب الأمير .
— هيا بنا نذهب معاً .

ونحى الطفلة جانباً برفق وحنو ثم وقف وخرج الى الرواق فلم يبلغه حتى
عادت أنغام (كليمنتي) الى سابق سيرتها .
— انها فتاة موهوبة . — قال المدير مؤكداً . — انها تدرس الآن في
(الكونسرفتوار) وتستعد للامتحان .

عندما بلغا السجن فتح الحراس الباب مؤدين التحية . كان أربعة من
المساجين يحملون خائبة من الخشب ، فلما رأوا القادمين افسحوا لها الطريق ،
ونظر أحدهم اليها نظرة رهبة .

— ما اسم الموقوفة التي تود رؤيتها ؟ — قال المدير يسأله :

- اسمها (بوغودوتشوفسكا جا) .
- هي في القلعة . ولا بد من الانتظار بمض الوقت .
- هل استطيع أن أرى خلال هذه المدة الأم (ماتستشوف) وابنها المتهمين بإضرار النار قصداً ؟
- الموجودان في الرقم (٢١) بلى ، نستطيع رؤيتها .
- أرغب أن أراهما في زنزانتيهما .
- حسن . ولكنك تكون أكثر راحة في غرفة الزيارات .
- أفضل رؤيتها في الزنانات .
- حسن . حسن . لقد اخترت مهمة صالحة .
- وهنا دخل عليها نائب المدير وهو ضابط أنيق ، فقال له المدير :
- رافق الأمير الى الزنانة رقم (٢١) حيث يوجد الفتى (ماتستشوف)
- ثم عد به الى المكتب . وسأطلب ... ما هو اسمها ؟
- اسمها (فيرا بوغودوتشوفسكا جا) .
- كان نائب المدير شاباً أشقر اللون ، قفوح منه رائحة ماء الكولونيا ، وقد غمر شاربيه بالدهن فقال (لنيكليندوف) .
- معذرة . أهتمك أمر مؤسستنا ؟
- أجل . يهمني أمر هذا الرجل الذي قبل لي عنه انه بريء .
- فهز الضابط كتفيه . وقال :
- قد يكون ذلك ممكناً . ولن ينعدم حادث من هذا النوع . ولكن هذه البراءة المزعومة قد تكون أكثر الاحيان مجرد كذب واختلاق .
- كانت السجون مفتوحة أبوابها . وكان الكثير من ضيوفها في الأروقة .
- فمضى النائب ومرافقه في طريقهما . وكان النائب يرد على تحية السجنانيين بإيماءة خفيفة من رأسه ، بينما كان لا يأبه للمساجين الذين كانوا يسارعون لتحيته ثم يفسحون له الطريق فيقفون بجانب الحائط . وبلغا رواقاً آخر مغلقاً بباب حديدي وكان أكثر عفونة وظلاماً من سابقه . كان على الجانبين أبواب مغلقة

بأقفال ضخمة وفي وسط كل باب ثقب صغير مربع الشكل طوله سنتيمتران في في مثلها عرضاً .

— أين هو (ماتستشوا) ؟ — قال الضابط يسأل سجاناً متغضن الوجه حزين السمات .

— في القسم الثامن على اليسار .

— هل كل الزنانات مشغولة ؟ — سأله (نيكليندوف) .

— أجل أن جميعها مشغولة ما عدا واحدة .

٥٢

— أسمح لي بأن أنظر من الثقب ؟ — سأل الأمير .

— نعم . نعم . — أجاب الضابط بتأدب .

فأدنى (نيكليندوف) عينه من ثقب الباب فشاهد شاباً أشقر اللون طويل القامة ، يرتدي قبصاً قصير الأكمام يذرع الغرفة ذهاباً وإياباً . وعندما أحس بحركة عند الباب وقف برهة وتطلع ناحية الباب وقد زوى ما بين عينيه ثم تابع مسيرته . وعند الباب الثاني التقت نظرات الأمير بنظرات رجل كان يتأمله مرعوباً ، فابتعد عنه الى الثالث حيث شاهد رجلاً مستلقياً على الأرض ويفطي رأسه بثوبه . ورأى في مكان آخر رجلاً طويل القامة نحيل الجسم يجلس على الأرض وذقنه على صدره وبداه على ركبتيه . وعندما سمع وقع الاقدام تلفت باتجاه الباب بلا مبالاة كمن لا همه الأمر ، وكمن يعتقد ان ما من شيء يفيد في التخفيف عنه . وكانت نظراته تتم عن ألم شديد آثار عاطفة الاشفاق في نفس (نيكليندوف) عليه ، فأسرع هذا يلتمس الباب ذا الرقم (٢١) الذي فتحه الحارس بناء على اشارة الضابط .

كان على مقربة من السرير شاب نحيل الجسم ، مستدير العينين تتم نظراته عن طيبة . وكان ينظر الى الزائرين برعب وهو يرتدي سترته . وأكثر ما استرعى انتباه (نيكليندوف) ثأنك العينان المستديران الطيبتان اللتان كانتا تفتقلان برعب بين الضابط و (نيكليندوف) .

— هذا السيد يرغب في الاطلاع على القضية المتهم فيها أنت .

— صحيح ؟ شكراً .

— لقد بلغتني من سواك . — قال (نيكليندوف) وهو يدخل الزنزانة ثم وقف بجانب النافذة القذرة ذات الحاجز الحديدي . — ولكني أرغب في أن تقصها أنت بكاملها علي .

فاقترب (ماتستشوا) من النافذة أيضاً ، وابتدأ يقصها عليه ، وهو يسارق الضابط النظر اليه . كان صوته حيباً عندما بدأ يتحدث ، إلا انه أخذ يزداد شيئاً فشيئاً قوة وثباتاً . وعندما خرج نائب المدير لإلقاء بعض التعليقات على السجنائين ازداد جراءة فكان واضحاً وصريحاً .

وهزت كلماته وحركاته مشاعر الأمير وأثر في نفسه رأى شاب قروي طيب وبسيط يقف أمامه في السجن مرتدياً ثياب المساجين فيقص عليه قصته . كان الأمير يتأمل السرير والحشية التي كانت فوقه ، أو قل كيس القش ، والنافذة ذات الحاجز الحديدي الضخم ، والجدران الرطبة السوداء ومنظر ذلك السيء الحظ الذي يثير الشفقة والرحمة ، فيزداد كآبة وغماً . ولم كان يتمنى لو يستطيع ألا يصدق ما يقوله ذلك المنكود الطالع ، كما كان يؤله أن يتصور أن تلك القصة ملفقة ، وان يكون في وسع صاحب ذلك الوجه الذي تنيره ثالك العينان المستديرتان الحانيتان أن يزور الحقائق .

كان الحادث واضحاً وثابتاً . لقد اختطف أحد تجار النبيذ زوجة الرجل بعد قليل من زواجها . فلجأ هذا الى المحكمة فأقرت له حقه وأعادت له زوجته . ولكن هذه ما لبثت أن فرت من المنزل في اليوم التالي . فذهب يبحث عنها في منزل التاجر ، فانكر هذا وجودها على الرغم من ان زوجها رأها عنده ، وطلب اليه مغادرة المكان . ولما لم يذعن هذا استعان التاجر بصانعه وضرباه حتى سال دمه . ولم يمض إلا القليل حتى شب الحريق ، فاتهم التاجر زوج المرأة وأمه زوراً وبهتاناً ، بينما كان الزوج يوم وقوع الحريق في بيت عرابيه .

— هكذا إذن : لست المسؤول عن حريق المتجر .
— كلا يا سيدي . انها فكرة ما خطرت لي قط على بال . لقد كان هو الجاني . حرقه لأنه كان مؤمناً عليه . ثم القى التبعة علي وعلى أمي ، مدعياً اننا هددناه ... صحيح انني توعدته ... ولكنني لم أنفذ وعيدي . وكنت غائباً عندما احترق الخزن . كان هو الجاني . أمّن على المحل ثم اضرم النار فيه ليقضي علي وعلى أمي .

— هل ما تقوله كل الحقيقة ؟

— أجل يا سيدي ، وأقسم على ذلك كما لو كنت أمام الله . أوأه يا سيد . ليكن في قبلك شفقة علينا . — ثم حاول ان يلقي بنفسه على قدمي (نيكليندوف) إلا انه منعه من ذلك . — اشقى علينا ، أنقذنا فنحن أبرياء . — هكذا كان يتوسل اليه ، وفجأة تقلصت عضلات وجهه وأخذ يبكي بكاء مرأ ، ثم أخذ يمسخ دموعه بكم قبيصة القدر .

— هل انتهيت ؟ — سأله نائب المدير وهو يتقدم منه .

— بلى . تدرع بالصبر يا صاح وتأكد انني سأقوم في سبيلك بكل ما في وسعي . — قال له (نيكليندوف) قبل ان يفارقه .
وظل السجين يتبع الأمير بنظراته حتى توارى عنه وعندما أغلق الباب أخذ يتلصص من الكوة الصغيرة حتى اختفى في الممشى .

٥٣

كانت أبواب سائر الزنانات مفتوحة لأنها كانت ساعة تناول طعام العشاء . وكان الأمير قد رق كثيراً لحال أولئك المساجين التعساء ، واستحى لنفسه من وقوفه موقف اللامبالي إزاء تلك المشاهد المؤثرة . وعندما كان ماراً في ممشى أسرع أحدهم في الدخول الى أحد الأقسام وخرج ومعه عدة رجال ما لبثوا ان التفوا حوله ، وأخذوا يتوسلون اليه .

— كن جواداً يا صاحب المعالي يا من نجهل اسمه . واطلق سراحنا .

— لا سلطة لي هنا . ولا استطيع أن أفعل شيئاً .

— ابلغ شكوانا السلطات المختصة . — قال له أحدهم — لقد مضى علينا شهران في هذا السجن بلا أي سبب .

— ولماذا ؟ — قال (نيكليندوف) مستفهماً .

— لقد جاؤوا بنا الى السجن . ومضى علينا شهران دون ان نعلم سبباً لذلك .

— هذا صحيح . — قال له المدير متدخلًا . — هؤلاء قرويون يحملون هويات

انقضت مدتها ولم تبدل ، وكان ينبغي أن نبعث بهم الى مراكز ولاياتهم ولكن سجن تلك الولايات التهمة النيران فظلموا هنا . وقد نقل رفاتهم الى مراكز ولاياتهم .

— كيف ؟ المثل هذا السبب وحده ؟ — قال (نيكليندوف) يسأل وقد

توقف عن متابعة طريقه .

كان ما يقرب الأربعين شخصاً قد تحلقوا حول الأمير ونائب المدير ، وأخذوا

يتحدثون دفعة واحدة غير ان الضابط أسكتهم جميعاً .

— هدوء . وليتكلم واحد لا غير .

فبرز من بينهم قروي طويل القامة جاد الملامح في حوالي الخمسين من عمره

وابتدأ يشرح للأمير كيف أوقفهم لأن ليس لديهم هويات . أو بأصح تعبير

لمرور بضعة أيام على انقضاء المدة القانونية على هوياتهم دون أن تبدل . ولم

يكونوا من قبل يابسون لمثل ذلك . أما الآن فيعتقلونهم شهوراً كالحجرامين .

— كلنا عمال وننتمي لجمعية واحدة ... يقولون ان السجن في ولايتنا قد

التهمته النيران فما ذنبنا نحن . كن جواداً ، وانقذنا .

لم يفهم (نيكليندوف) الا القليل مما قاله ذلك الكهل لأنه كان عالق النظر

بقملة سوداء كانت تدب هبوطاً من شعر رأس العامل الى خده .

— ولكن هل يمكن ان يسجنوهم لأجل قضية تافهة كهذه ؟ — قال الأمير

يسأل نائب المدير .

— بلى . هذا صحيح . وكان من الواجب نقلهم الى ولاياتهم .

ولم يكذب نائب المدير ينهي كلمته هذه حتى برز من بينهم رجل ضخيم الجثة ،

وبدأ يشكو من سوء المعاملة والتعذيب بلا سبب موجب وقال :

— انهم يعاملوننا أسوأ مما يعاملون الكلاب .
— هيه . يتحدث هذا على الدوام هكذا ... اسكت وإلا ...
— ما ينبغي أن أقول إذن ؟ — هتف القروي يقول بلهجة القانط . — أترانا مجرمين ؟

— هدوء . — صاح بهم نائب المدير يقول بلهجة الأمر فسكت القروي .
— ما معنى كل هذا ؟ — كان (نيكليندوف) يتساءل ، في حين كانت مئات العيون تراقب حركاته من وراء القضبان الحديدية . ثم قال :
— أوجد أبرياء في السجون ؟

— وكيف تفادي ذلك ؟ — أجاب الموظف — فضلا عن ذلك فانك اذا حملت ما يقولونه حمل الصدق فجسيمهم أبرياء .
— ولكن هؤلاء القرويين لا ذنب لهم .

— بالتأكيد ... ان وظيفتنا مؤلفة جداً لاتصالها أكثر ما يكون بذوي السوابق السيئة والفاستدين . واذا لم نكون أشداء حازمين فانهم يتمردون علينا .
لقد اضطررنا ان نعاقب سجينين نهار البارحة .
— وكيف تعاقبونها ؟

— لقد عاقبناهما (بالسوركا) بناء على أوامر عليا .
— ألم تلغ العقوبات الجسدية ؟
— أجل . ولكن ليس بالنسبة للحكومين بأحكام طويلة الأمد لحرمانهم من الحقوق المدنية .

فتذكر (نيكليندوف) القموض والتكتم الذي كان يوم أمس يسود الجميع عندما كان ينتظر حضور (ماسلوف) في قاعة الزوار وأدرك أسبابه الآن . لقد كانوا يعاقبونهم ، فعصفت بلبه عاصفة من الغم والأسى والألم والاشمئزاز والتقزز لم يشعر بمثلها في حياته . فأسرع متجهاً نحو مكتب المدير ليتخلص من ذلك المكان العفن غير ملق بالأمرافقه ودون ان يلتفت لأحد . وكان المدير يتحدث مع بعض الناس ، وقد نسي ما كان الأمير قد طلبه منه ولم يتذكره الا حين رآه .
— تمهل قليلا . — قال له المدير . — تفضل بالجلوس ، وسأبحث بطلبها حالاً .

كان مكتب المدير مؤلفاً من جناحين ، أولها عبارة عن غرفة ذات نافذتين قدرتين في داخلها مدفأة مهشمة ، وغثال يسوع المسيح الموجود دائماً حيث يعذب اشباهنا ، وبعض السجان . وكان في الجناح الثاني ما يناهز العشرين شخصاً بين رجل وامرأة ، متعلقين حلقات ، يتحدث بعضهم الى بعض بصوت خافت . وبعضهم كانوا أزواجاً . فجلس المدير الى طاولة بالقرب من النافذة وأشار الى كرسي جلس عليها الأمير بالقرب منه ، ومضى يراقب الحاضرين . فاستوقف نظره فتى ذو محيا جذاب ، يرتدي ستره قصيرة كان يتحدث الى رجل في ثياب المساجين ، والى فتاة كانت واقفة بجانبه . وكان الى جانب هؤلاء رجل عجوز يضع على عينيه نظارات داكنة يتحدث الى فتاة سجيئة وكان ثمة صبي يرمق العجوز بنظرات المجيزع . وعلى بعد قليل كان يجلس شاب وفتاة ربما كانا حبيبين . كانت هي صغيرة السن ، تبدو وكأنها طفلة ، شقراء قصيرة الشعر ، أنيقة الملبس حازمة الملامح فاتنة . وكان هو قوي الجسم أجعد الشعر وفي ثياب المساجين . كانا يتحدثان همساً وكان يستدل من مظهرهما ان كليهما يحب الآخر حباً جنونياً . وكان بجانب الطاولة عجوز قد اغبر شعرها قرندي ثياباً سوداء ، وهي قائمة ترفو بنظرات حب وحنان الى ولدها الشاب البادية عليه اعراض مرض السل الذي يتأكل كيانه . وكان يبدو انها ترغب في أن تقول له شيئاً ، غير ان الدموع كادت تخنقها ، بينما كان الشاب يقلب بين يديه صحيفة ورق ويحركها بحدة .

كان على بعد خطوات منها فتاة جميلة حسنة التكوين ، ذات لون صحيح ، وعينين لامعتين ، تجلس بقرب أمها التي كانت تبكي ، وتغر بيدها على اكتافها بحنان . كل ما فيها كان جميلاً . البدان الطويلتان البيضاء ، والشعر القصير الأجعد ، والأنف ، والفم ، والشفتان . وأكثر من كل هذا تانك العينان الواسعتان النجلوان الحلوان الصريحتان . وعندما دخل الأمير صوبت هذه اليه عينيهما الرائعتين فطرة من الزمن ثم حولتهما الى أمها . وكان بجانب الحبيبين رجل اسمر اللون ، منقوش الشعر ، غامض المظهر يتحدث بسخط الى رجل

يبدو عليه انه من جماعة (سكوبتز)^١ وأخيراً كان بقرب الباب شاب يرتدي مشمعاً وكان يهتم لما يحدثه وجوده من انطباعات عند الزوار أكثر من اهتمامه بالحديث الذي يتحدث به .

كان (نيكليندوف) وهو جالس بجانب المدير يقلب نظره فيما حوله بفضول كبير . وفجأة استرعى انتباهه طفل صغير تقدم منه وسأله بصوت صاف حاد :
- وأنت من تنتظر هنا ؟

فدهش (نيكليندوف) لهذا السؤال ، ولكنه عندما تفرس في ذلك الوجه القاسي الملامح ، ورأى تينك العينين المعبرتين الوديعتين أجابه أنه ينتظر احدي معارفه .

- لعلها أختك ؟ - قال له الصبي ملحاً .

- كلا . ليست أختي . - أجابه (نيكليندوف) وقد ازدادت دهشته .

- وأنت يا صغيري من تنتظر هنا ؟

- أنا هنا مع أمي السجينة السياسية .

- خذي (كوليا) يا (ماري باولوفنا) . - قال المدير الذي كان من رأيه

ان موقف الأمير مع الطفل مخالف للأنظمة .

فهبت واقفة الفتاة الجميلة التي أعجب بها (نيكليندوف) فبان قوامها البارع

المديد وأسرعت نحو الأمير والطفل .

- لا شك في أنه كان يسألك من أنت . - قالت وهي تبسم ورمقته بعينها

الواسعتين الحلوتين المتوقدتين . وكان في كلامها البساطة العذبة التي يبدىها أولئك

الذين يرون التخلي بلطف وحنان الأخت في علاقاتهم مع الناس ، من الضروريات .

- يريد أن يعرف كل شيء . - قالت ذلك ثم ابتسمت ابتسامة عذبة لم

يستطع (نيكليندوف) والطفل الا مقابلتها بالمثل .

- أجل لقد سألتني عن انتظر .

- تعلم (ماري باولوفنا) ان الحديث مع الغرباء ممنوع . - قال المدير .

١ - اسم تعرف به طائفة روسية .

- بلى ، بلى . حسن جداً . - أجابت الفتاة .
- ثم تناولت بيدها البضة الطويلة يد (كوليا) الصغيرة وعادت الى حيث كانت أمها .
- من هو هذا الطفل ؟ سأل الأمير المدير .
- هو ابن امرأة سجينه سياسية . لقد ولد هنا في السجن .
- أجباً ما تقول ؟
- وسينذهب قريباً الى سيبيريا مع أمه .
- وهذه الفتاة ؟
- لا أستطيع اجابتك على هذا السؤال . - قال المدير هازراً اكتافه . - ها قد اتت (بوغودوتشوفسكا جا) .

٥٥

- جاءت (فيرا ايفراموفنا) تمشي بخطى ثابتة من الباب الداخلي . كانت قصيرة القامة ، ناحلة الجسم ، صفراء اللون ، قصيرة الشعر ، واسعة العينين ، ينضح وجهها بالطيبة .
- كم أنا مسرورة لقدموك . - هتفت تقول وهي تصافحه بجمرة - ألا تزال تتذكرني ؟ فلنجلس .
- ما تصورت قط انني سألتقي بك في هذا المكان .
- آه . بالنسبة لي ، فاني بحالة لا بأس بها هنا ، ولا أتمنى شيئاً .
- وكانت وهي تتحدث الى الأمير ترنو اليه بعينين واسعتين يقرأ فيها الرعب . وتحرك عنقها الطويل الناحل الشاحب اللون .
- وشاء (نيكليندوف) أن يستفهم عن السبب في اعتقالها وعندئذ بدأت (بوغودوتشوفسكا جا) تقص عليه قصة اعتقالها الرائعة ، وترصع حديثها بفقرات علمية وتمايير دخيلة . فتحدثت عن الدعاية ، وتفكك الجماهير ، وعن الفروع ، وفروع الفروع التي كانت ترى ان من واجب الجميع أن يعرفوها ، والتي لم يسمع بها (نيكليندوف) قط . كانت تشرح له كل هذه الأمور نقطة فنقطة ظانة انها

تهمه . ولكن (نيكليندوف) كان يحدق بنظره في ذلك الشعر الخفيف الصافي اللون المنفوش حول ذلك العنق الطويل الشاحب ، ويتساءل مستغرباً لماذا جيء بها الى هذا المكان . ولماذا كانت تبدو فخورة .

لقد كان يشفق عليها من وضعها الحالي ، ولكنها شفقة تختلف عن تلك التي كان يشعر بها نحو (مانستشوبا) وولدها السجينين البريثين في هذا السجن العفن . لقد كان يشفق عليها من تلك الدوامة الغريبة الصاخبة من الأفكار التي كونتها لنفسها ، والتي ، بسببها ، كانت تحسب نفسها بطلا .

وكان الأمير قد لاحظ تشابهاً كبيراً بين تصرفها وتصرف غيرها من مساجين تلك القاعة الذين استرعى وجوده انتباههم فاتخذوا لأنفسهم وضعية غير طبيعية وضعية التحفظ أمام الغريب .

وبدا له أنه تبين مثل هذه التصرفات عند الفتاة التي ترتدي ثياب السجينات وعند العاشقين أيضاً . كما تبين شبيهاً لها عند سائر الموجودين حوله ما عدا المعجوز . والشاب المصاب بالتدرن الرئوي والفتاة الجميلة ذات العينين السوداوين البراقتين .

كانت (فيرا ايفراموفنا) تحاول كسب عطف الأمير لصالح احدي رفيقاتها تدعى (شينستوفا) التي لم تكن منتسبة للحزب ، ولكنها اعتقلت لعثورهم في منزلها على كتب ووثائق أودعت عندها لحفظها . ولما كانت (فيرا) ترى نفسها مسؤولة نسبياً عن اعتقالها فقد توسلت للأمير لينبذ جهده لانقاذها . لم يكن لديها ما تقصه عن تاريخ حياتها سوى القليل . فهي بعد ان أنهت دراستها في الجامعة كقابلة ، اتصلت بأحد فروع حزب (محرري الشعب) . وكانت قد قرأت كتاب رأس المال (لكارل ماركس) فأظهرت رغبة في العمل على النجاح « الثورة » . ولم تدر كيف انضمت الى الحزب . وسارت الأمور في البداية على خير ما يكون ، ولكن الأمر انعكس أخيراً عندما قبض على أحدهم وضبطت في حيازته رسائل ومستندات ، فألقي القبض على الجميع .

— لقد ألقوا القبض على أيضاً ، وقريباً سيبعثون بي الى سيبيريا ... ولكن

هذا ليس بذي أهمية بالنسبة لنفسه ، فأنا على حالة حسنة ، حسنة جداً .
— قالت مبتسمة ابتسامة تستدر الشفقة .

فسألها (نيكليندوف) عن تلك الفتاة التي كانت تعني بالطفل ، فأخبرته
انها ابنة لأحد كبار القواد ، واحدى المنتميات لحزب ثوري منذ مدة طويلة ،
وانها قد اعتقلت بناء على اعترافها باطلاق النار على أحد الجنود ، مع انها ليست
الجانبة الحقيقية . كانت تسكن مع بعض أفراد الحزب في منزل كان يعتبر بؤرة
المؤامرات ، لوجود مطبعة داخله . وذات ليلة دامهم رجال الشرطة بغية
تحرير المنزل غير ان من كانوا فيه قرروا المقاومة فأطفأوا الانوار بغية اتلاف كل
ما يدينهم . ولكن الشرطة كانت قد ملأت المكان . وفي غمرة هذا الظلام
انطلق عيار ناري أصاب مقتلاً من أحد رجال الشرطة . وعندما سأها المحقق
من اطلق النار اعترفت بأنها كانت الفاعلة . وعلى الرغم من ان يدها لم تلمس قط
سلاحاً نارياً ، وانها في الواقع أعجز من ان تقتل ذبابة فقد اعتبر اعترافها
صحيحاً ، وحكم عليها استناداً على ذلك الاعتراف بالاشغال الشاقة وستنقل
قريباً الى سيبيريا .

— انها روح نبيلة محبة للخير ... — كانت تردد (ماري ايفراموفنا) .

لقد كان واضحاً جلياً انها جد راغبة في الكلام . ولعل من أسباب هذه
الرغبة رغبتها في اظهار مقدرتها وفصاحتها للناس . وكان (نيكليندوف)
يقصر على بعض أسئلة يطرحها عليها من حين لآخر ، وعندئذ كانت تندفع في
الكلام دون توقف . وعلى الرغم من كل ذلك فقد سنحت للأمير فرصة صرح
لها فيها بخشيته من عدم استطاعته أن يكون ذا فائدة لها في ما شاءت توسيطه
فيه لانعدام النفوذ الذي تسرعت وعزته اليه .

وأخيراً تحدثت عن (ماسلوفنا) كانت قد اطلعت على تاريخ حياتها ، كما
يحدث دائماً في السجون حيث لا يلبث ان يصبح معروفاً كل شيء . فنصحت
(نيكليندوف) بنقلها الى سجن المجرمين السياسيين ، أو على الأقل الى
المستشفى حيث يوجد عمل كثير ونقص في العمال .

فشكر لها (نيكليندوف) نصيحتها ، وأعاد عليها ما يتوقعه من عجزه عن خدمة (شينستوفا) . ولكنه وعدها بأنه سيحاول ذلك عندما يذهب الى سان بطرسبرج .

٥٦

قطع المدير حديث الأمير و (فيرا ايفراموفنا) عندما اضطر على التصريح لها بأن الوقت المحدد لها قد انتهى . فهب (نيكليندوف) واقفاً ، وودع (فيرا) ومضى نحو الباب حيث وقف يشاهد المشهد الذي كانت وقائعه تمثل أمام عينيه .

وعبثاً كان المدير يردد القول بانتهاء وقت الزيارات ، فان أحداً لم يبد حراكاً سواء في ذلك الزوار والمساجين ، ما عدا حلقتين أو ثلاثة هؤلاء وقفوا ولكنهم لبثوا يتحدثون وهم وقوف . وعندما أخذ بعضهم يودع البعض الآخر كانت الكثيرون يعلو نحيبهم . ولكن أشد تلك المشاهد تأثيراً على النفوس كان مشهد وداع الفتى المسلول لأمه التي كانت تشق بالبكاء وهي ملقبة رأسها على كتف ابنها . وكانت الفتاة الجميلة ، التي كان (نيكليندوف) يوليها عنايته دون أن يأبه لذلك ، واقفة أمام أمها التي كانت تبكي فتحاول الترفيه عنها ببعض العبارات . وكان الحبيبان العاشقان يقفان متقابلين ويد الواحدة بيد الآخر وقد غابا في نشوة سامية . وكان الشيخ ذو النظارات الداكنة ما زال يمسك بكلتا يديه يد ابنته وهو يهز رأسه دلالة على موافقته لما تقوله له .

— هذان هما السعيدان الوحيدان . — قال الفتى ذو السترة الاميركية المشمة (لنيكليندوف) . — سيتكللان هذه الليلة في السجن وستلحق به الى سيبيريا . — وهو ؟

— هو محكوم بالأشغال الشاقة . طوبى لأولئك الذين يسعدهم الحظ بالحصول على قليل من السعادة في حاة شقاء كهذا . — أضاف يقول عندما سمع بكاء الشيخ ذي النظارات الداكنة .

— سادتي . أرجو أن تضعوا حداً لزيارتكم . — كان المدير يردد بصوت

مضطرب ضعيف . — لا تكفهوني على أن أكون قاسياً . لقد انتهى الوقت ، وأقول ذلك للمرة الأخيرة .

وكان قارة يهب واقفاً ، ثم يعود فيجلس على كرسيه ، ويأخذ نفساً عميقاً من لفافة التبغ ، ثم يتركها تنطفئ ، فيشعلها من جديد . وكان يبدو أنه بالرغم من شدة تأصل المبررات الزائفة في نفسه ، تلك المبررات التي يحيز لرجل تعذيب رجل سواه دون أن يعتبر نفسه مسؤولاً عن ذلك ، فانه كان يستحيل عليه أن ينجو من محاسبة ضميره له واعتباره إياه أحد مسيبي تلك المآسي التي تمثل في تلك القاعة . وكان يُرى أنه يتألم أيضاً وان عبثاً ثقيلًا يجثم على صدره .

وأخيراً دبت الحركة بينهم فاتجه المساجين ناحية واتجه الزوار ناحية أخرى ، إذ أولى أولئك وجوههم شطر الداخل ، بينما أولاء هؤلاء ظهورهم . وكان أول من ترك القاعة الشاب المسلول ، وكان آخرهم الشيخ ذو النظارات الداكنة الذي كان يمشي على مهل ، خرج وبعد خروجه (نيكليندوف) .

— من حسن الحظ ان المدير شخص طيب . — كان الفتى الذي يرتدي المشمع يقول للأمير وهما متجهان معاً باتجاه الباب الخارجي . — ولكن مثل هذه الاجتماعات التي رأيناها هي في الواقع غير عادية وغير مألوفة ، ومع ذلك ففيها القدر الكبير من الآلام والمرارة . هذا ما يقول به سائر الناس .

— ولكن هل شكل الزيارات في السجون الأخرى يختلف عما هو عليه هنا؟ — بلى يا سيدي فان أقصى ما يستطيعه الزائر للمجرمين السياسيين هو رؤيتهم من وراء حاجزين ، كالمجرمين العاديين سواء بسواء .

كان الأمير يتحدث الى (ميدنتزف) الفتى الذي قدم نفسه للأمير بهذا الاسم ، حينما التقى بالمدير في البهو الخارجي ، فقال هذا له ، وامارات التعب بادية عليه .

— اذا شئت ان ترى (ماسلوف) فتعال غداً . — قال ذلك بحاملة للأمير .

— حسن . أشكرك . — أجاب هذا وأسرع بالخروج .

كان الأمير يحس ، بالإضافة الى الشفقة ، احساساً بالغثيان المعنوي ذلك

الاحساس الذي شعر به لدى دخوله قاعة الزيارات في الجناح الخاص بالنساء لأول مرة. كان يرى ان الآلام التي يقاسيها ذاك الفتى (مانستشوف) مضنكة . ومضنك أيضاً الشك الذي لا بد سيساوره حول وجود الله ، والحاجة للخير في هذا العالم المليء بالشرور . كذلك كان يرى ان حادث أولئك القرويين المساكين الذين سجنوا كل هذه المدة لنقص في هوياتهم أمراً مريعاً . ومريعة أيضاً حياة أولئك السجانين الذين لا عمل لهم الا ارهاق اخوانهم . غير ان ما كان يراه أشد ترويعاً هو اضطرار المدير ذلك الشيخ الطيب الضعيف الخلق للحوول بين الأم وولدها ، بين الأخ وأخته ، بين الزوج وزوجته ، والتفريق بين من أعدتهم الطبيعة ليعيشوا معاً الى الأبد .

— لماذا كل هذا؟ — كان يسأل نفسه دون أن يقع على جواب تراح نفسه اليه .

٥٧

في اليوم التالي ذهب (نيكليندوف) الى منزل (فنارين) وقص عليه قصة (مانستشوف) وطلب اليه ان يتولى الدفاع عنه . فأصغى المحامي بانتباه واهتمام للقصة ثم قال له اذا كانت القضية كما رويتها لي فسادافع عنها مجاناً .

كذلك قص عليه قصة المئة وثلاثين قروياً المعتقلين بلا جرم ، وسأله بمن تتعلق قضيتهم ، ومن هو المسؤول عما حدث لهم . فلبث المحامي صامتاً بعض الوقت باحثاً عن جواب تراح نفسه اليه فلا يجده ثم قال :

— تسألني من هو المسؤول ؟ — ثم لبث برهة يفكر وقال : — ليس من أحد . اذا راجعت النائب العام فسيحيلك على (ماسلنيكوف) باعتباره مسؤولاً . واذا راجعت هذا فسيؤكد لك ان المسؤولية تقع على عاتق النائب العام . والنتيجة هي انك لن تعرف من هو المسؤول .

— حسن . سأذهب الآن لمواجهة (ماسلنيكوف) وسأقص عليه خبر كل شيء .

— لا حاجة لذلك . لأن (ماسلنيكوف) (وأحسبه ليس صديقاً لك أو من احد اقربائك) رجل سافل . وأسوأ من ذلك هو سافل مراء .

فتذكر (نيكليندوف) ما قاله نائب المدير عن المحامي (فنارين) ولكنه
لزم الصمت . ثم ودع المحامي ومضى الى بيت (ماسلينيكوف) حيث كان
ينوي ان يلتبس منه أمرين أولهما نقل (ماسلوف) الى المستشفى ، والثاني أن
يتم لقضية المثة وثلاثين منكوداً الذين كانت جريمتهم الوحيدة وجود نقص في
هوياتهم . كان يسوءه ان يلتبس خدمة من رجل (ماسلينيكوف) غير انه لم
يكن لديه وسيلة أخرى لبلوغ غايته .

وشاهد (نيكليندوف) أمام بيت نائب الحاكم ، عربات كثيرة فذكره ذلك
بما قاله هذا له حول استقبالات زوجته ، التي شدد عليه بالدعوة لحضورها .

حينما وصل (نيكليندوف) الى منزل (ماسلينيكوف) كان خادم يرتدي
بزة خاصة وقبعة سوداء طويلة ، يساعد على الترحل من العربة سيدة أنيقة قد
أمسكت بيدها ذيل ثوبها ورفعته عن الأرض حتى بان حذاءها الجميل الأسود
اللامع . ورأى عربة آل (غورتشاكين) بين العربات ، فحياء سائقها بتقدير
واحترام كما ينبغي لسيد قريب جداً من العائلة .

وفيما كان الأمير يسأل أحد الخدم عما اذا كان (ميخائيل ايفانوفيتش) اسم
(ماسلينيكوف) الحقيقي ، موجوداً في البيت ، اذا به يراه قادماً نحوه مشياً
شخصية عسكرية برتبة رفيعة . كانا يتحدثان عن (يانصيب) خيري سينظم في
المدينة قريباً . وكان كلامهما يتحدث طوراً باللغة الروسية ، وآخر باللغة الفرنسية
عن احتفالات كان لفيف من السيدات يقمنها ويرصدن ريعها للأعمال الخيرية .
وكان من رأي تلك الشخصية الكبيرة ان مثل هذه الأعمال هي أخلق بالسيدات .
— فيعملن وليبارك الله عملهن . — هتف (ماسلينيكوف) قائلاً ، ثم التفت
الى الأمير مجيباً . وقال : مساء الخير يا سمو الأمير ، ما أصعب أن نراك . تفضل
معي كي أقدمك لزوجتي . ان آل (غورتشاكين) موجودون هنا . ستتسابق
سائر جميلات هذا البلد عليك أيها الوارث النبيل .

— الى اللقاء يا صديقي . — قال القائد وهو يصافح (ماسلينيكوف) .
— هيا بنا الى الطابق العلوي . — قال له هذا . — ليس بوسعك ان تتصور
مدى سرورنا بحضورك اجتماعتنا .

وصعد الدرج بخفة وسرعة فائقتين اذا أخذنا بعين الاعتبار ضخامة جسمه ، وهو ممسك بذراع الأمير .

كان (نيكليندوف) يعتقد ان السرور البادي على (ماسلينيكوف) كان سببه الانتباه الذي أولاه اياه القائد ، واللفظ الذي خاطبه به . وان أي مظهر من مظاهر الاحترام والتكريم يلقاه من الجهات العليا يكون له في نفسه رد فعل سار كذاك الذي يحدث لكلب صغير عندما يشرع صاحبه يدله . وهذا كان شأن (ماسلينيكوف) الذي لم يلاحظ التجهم البادي على وجه (نيكليندوف) ، واقتاده بالقوة الى القاعة .

— فيما بعد . سنتحدث عن قضاياك فيما بعد . وسأفعل كل ما تطلبه مني .
— كان يقول له وهو يجتاز قاعة كبيرة . ثم قال لأحد الخدم الذي كان واقفاً بجانب الباب : اعلن للقائدة وجود الأمير (نيكليندوف) . أنت جئت تطلبني وحدي ولكنه من الضروري ان تحيي زوجتي أولاً . لقد أنبتني لأنني لم اصطحبك لعندها في المرة الأخيرة .

وكان الخادم قد أعلن لها ذلك ، ولذا فان (آنا اغناتيفنا) حنت رأسها تقديرأ له من وراء الطوق المضروب حولها من قبعات النساء .

كان عدد من النساء والرجال الذين يرتدون بزات رسمية ، وتزين الأوسمة صدورهم يتحلقون حول مائدة في جانب من القاعة . وفي آخر القاعة من الجهة المقابلة كان ثمة نسوة يجلسن حول مائدة شاي وهن يتحدثن الى بعض الرجال الذين كانوا يقفون أمامهن .

— الحمد لله . أملكك أصبحت لا تريد التعرف علينا ؟ هل أسأنا لك ؟ — بمثل هذه الكلمات الدالة على حالة رفع الكلفة التي لم توجد قط ، استقبلت (آنا اغناتيفنا) الأمير (نيكليندوف) . هل من معرفة سابقة بينكما يا سيدة (بيليافسكي ميخائيل ايفانوفيتش شرتوف) ؟ اجلس بجانبني . تفضلني بالجلوس الى مائدتنا يا (مارغريت) . سيحضرون لك الشاي الى هنا . وانت تعال الى هنا ... — قالت ذلك لضابط يتحدث مع (مارغريت) . — هل لك بكأس من الشاي أيها الأمير ؟

- كلا . كلا . انك لن تستطيع اقناعي . — كان صوت نسائي يقول :
- انك لا تستطيع اقناعي . قل انه لم يكن يحبها .
- الأصح انه كان يستطيع الحلوى .
- أسخريته لاذعة على الدوام ؟ — قالت إحدى السيدات التي كانت تختال في الحرير والذهب والحجارة الكريمة ضاحكة بملء شديها .
- انها لذيدة . اعطني قطعة أخرى .
- أتذهب بمثل هذه السرعة ؟
- أجل . فهذا آخر يوم تقضيه هنا .
- بمثل هذا الجو الرائع يمكن العيش هنيئاً في الريف .
- كانت (مارغريت) رائعة حقاً بقبعتها الجميلة وثوبها القاتم المرقم الذي يبرز عجيزتها دون ان يدع ثنية . فاحمر وجهها خجلاً عندما رأت (نيكليندوف) وقالت له .
- ظننت انك سافرت .
- عن قريب سأسافر ، إذ لا يزال يحول دون سفري بعض القضايا الهامة .
- وإذا كنت الآن هنا فبسيبها .
- تعال لوداع والدتي . اعتقد انها ترغب في أن تراك . — قالت له الأميرة ، وقد ازداد وجهها احمراراً لأنها كانت تكذب وتعلم أنه يعلم ذلك .
- أشك كثيراً في أن ينتهي لي الوقت الكافي للاستمتاع بمثل هذا السرور .
- أجاب (نيكليندوف) متجاهلاً ما علا وجهها من حمرة الخجل .
- فزوت (مارغريت) ما بين عينيها ، وهزت كتفيها ثم انصرفت الى ضابط أنيق يقف بجانبها كان قد عرض نفسه ليحمل لها الشاي ، ولكن سيفه اصطدم بقوائم أحد المقاعد .
- ينبغي عليك أن تضعي بشيء في سبيل الملجأ . — كان صوت يقول :
- لن أتأخر . ولكنني احتفظ بسخائي للبانصيب . هناك سترييني .
- كانت حفلة القائدة رائعة وناجحة . وكانت ربة المنزل شديدة الارتياح لهذا النجاح .

— لقد أخبرني (ميكا) ان سموكم تولون السجنون عناية كبيرة وتقومون بزيارتها . — قالت (اغناطينا) موجهة الكلام للأمير . — ما أعظم ما يفهمك . قد يكون (ليكا) بعض النقائص ، ولكن سموكم تعلمون كم هو طيب . انه بمثابة الأب لأولئك النساء . ان طيبة (ميكا) فائقة الحد . وأمسكت عن الكلام ، كمن لم تجد ألفاظاً كافية للتعبير عن مدى « طيبة » زوجها . ثم اتجهت بنظرها وهي تبتسم شطر سيدة عجوز تحلى شعرها بأشرطة ليلكية كانت آنئذ تدخل القاعة . ثم راحت تتحدث معه عن أشياء كثيرة لا صلة لها بالقضايا العامة ولما تأكد لدى الأمير انه قد قام بما يرضي العرف الاجتماعي العام تقدم من (ماسلنيكوف) وقال له :

— هل تسمح لي ببضع دقائق من وقتك ؟

— اجل ، صحيح . فلندخل الى هنا .

ودخل الاثنان غرفة مؤثثة على الطراز الياباني وجلسا معاً الى احدى النوافذ .

٥٨

— أنا الآن رهن رغباتك . أتريد ان تدخن ؟ — مهلاً وأحضرك لك صحناً لكي لا تنسخ ثيابك . — قال وهو يقدم له المنفضة .

— جئت لأحدثك بقضيتين .

— صحيح ؟ — أجاب (ماسلنيكوف) وعلت ملامحه علامات الضجر . ولم يبق فيه ما يذكر بالكلب الصغير .

كانت الأصوات تدوي متشابكة في القاعة وكان يطغى عليها صوت نسائي يردد قائلاً :

— أبداً . أبداً لن أصدق .

في حين كان يسمع صوت رجل يروي قصة يذكر فيها الكونتيس (فوروزوف) و (فيكتور أبراكسين) كما كانت تسمع ضحكات صاخبة ولغظ شديد .

وفيا كان (ماسلينيكوف) يصفي الى الأمير لم يكن يترك كلمة تفوقه مما كان يقال في القاعة .

— جئت أراجع بشأن تلك الفتاة ...

— بلى . أعلم ذلك . تلك البريئة .

— أطلب اليك خدمة جديدة ، اعتماداً على ثقتي بأن صداقتي لك كفيلة بأن تفتقر لي كافة المضايقات التي قد أسببها لك . لذلك أرجو منك أن تدخلها المستشفى كخادمة .

فعض (ماسلينيكوف) على شفته ولبت هنية يفكر .

— أشك في ذلك ... سأبحث هذا الأمر غداً وسأبلغك النتيجة .

— لقد قيل لي انه يوجد كثير من المرضى وانهم بحاجة لمرضات .

— نعم ، نعم . كن مطمئناً . على كل حال سأخبرك بما يجد .

— تراني شاكر أحسن صنيعك .

وهنا ارتفعت في القاعة قهقهة عامة مفاجئة .

— قد يكون هذا (فيكتور) . — هتف (ماسلينيكوف) باسمه .

— انه حلو المعشر عندما يكون حسن المزاج .

— كذلك يوجد في السجن مئة وثلاثون قروياً معتقلون بسبب هوياتهم .

— كيف علمت ذلك ؟ — قال (ماسلينيكوف) وظهرت على وجهه دلائل

القلق والاستياء .

— كنت في زيارة لأحد المساجين ، فالتف حولي أولئك التعمساء وقصوا

علي قصتهم .

— من هذا الذي ذهبت لرؤيته ؟

— ذهبت لأرى قروياً متهماً وهو بريء ، وقد خاطبت محامي بشأنه .

ولكن المشكلة ليست هنا . وانما كيف نفسر ان عدداً من الأبرياء يلقي بهم

في غيابة السجن لجرّد فقد الهوية أو نقصها ؟

— هذا أمر يتعلق بالنائب العام . — قال (ماسلينيكوف) يقاطعه بلمحة

جافة . — ان من واجب النائب العام ومعاونيه تفقد السجون والتثبت من عدم وجود ظلمات فيها . انهم بدلاً من ذلك يقضون الوقت بلعب الورق .

— هكذا إذن أنت لا تستطيع عمل شيء ما ؟ — قال له (نيكليندوف)

وقد تذكر ما قاله (فانارين) من ان هذا سيلقي التبعة على النائب العام .

— لا أقصد ذلك . وانما أحب أن استوضح . سأقوم بعمل ما اكراماً لك .

وأؤكد لك انني سوف لا أنسى . — قال (ماسلينيكوف) وقد نفّض الرماد عن لفافة التبغ بأصبع يده البيضاء المليئة بالخطوات .

— هذا شر عليها . هي بلون الرماد . كان صوت نسائي يقول في القاعة .

وارتفعت قهقهة عامة في القاعة من جديد .

— لنعد الى القاعة .

— لا يزال لدي سؤال آخر . لقد قيل لي انهم جلدوا بالأمس أحد المساجين .

فهل هذا صحيح ؟

— آه . أتريد التدخل بمثل هذا أيضاً ؟ كلا . كلا يا صديقي . يبدو انه ليس بالوسع السماح لك بزيارة هذه الأماكن لأنك تضع أنفك حيث لا ينبغي لك . تعال ، تعال معي ، فأنا تدعوك . — قال (ماسلينيكوف) وقد أمسك (نيكليندوف) من ذراعه ، وظهر عليه الانفعال كشأنه بعد حديثه مع القائد ، ولكنه كان وليد القلق لا وليد السرور . فأفلت (نيكليندوف) منه بعنف وانطلق يبتاز الردهة فالقاعة الكبيرة ، فالصالة الأمامية دون أن يودع أحداً ودون أن يفوه بكلمة واحدة ، ماراً بين الخدم الذين خفوا للوقوف ابجلاً له ، ثم خرج الى الشارع .

— ما به ؟ هل أغضبتك ؟ — قالت (آنا) تسأل زوجها .

— هذا وداع على الطريقة الفرنسية .

— كلا . هذا وداع على طريقة (زولو) .

— لا مجال للإستغراب فقد كان هكذا دائماً .

وانصرف أناس وجاء غيرهم . واستؤنفت الأحاديث ، وكانت الصورة التي

غادر فيها (نيكليندوف) القاعة موضوعاً صالحاً تداوله الحاضرون فترة من الوقت .

في اليوم التالي لزيارة (نيكليندوف) لمنزل (ماسلينيكوف) تلقى الأمير رسالة مكتوبة بخط جميل مطمئن يقول له فيها نائب الحاكم انه كتب لطبيب السجن مستنسباً نقل (ماسلوف) الى المستشفى كخادمة . وكانت الرسالة تنتهي بالمباركة التالية : « صديقك ورفيقك المحب (ماسلينيكوف) » .
— يا له من أحمق . — هتف الأمير يقول عندما فرغ من تلاوة الرسالة .

لقد أدرك (نيكليندوف) ان (ماسلينيكوف) يقصد من كلمته « رفيقك » وضع نفسه في مستواه ، وانه ، وهو مقتنع من أهميته الشخصية ، يريد ان ينمق الأمير ، أو على الأقل ، اصفاء امتياز على مركزه ، ولهذا وقع الرسالة بكلمة « رفيقك » .

٥٩

يسود الاعتقاد بأن لكل شخص صفات تميزه عن غيره من الناس . وهذا الخطأ الذي أصبح شائعاً ، بعيد كل البعد عن أن يكون حقيقة ثابتة ، وان كان لا يخلو من بعض مظاهرها . بوسعنا أن نقول أن زيدا من الناس طيب أكثر مما هو شرير ، ذكي أكثر مما هو غبي ، نشيط أكثر مما هو خامل أو بالعكس . ولكنه من البلاءة بمكان القول بأن زيدا هذا طيب وذكي دائماً ، وان عمراً على العكس شرير وغبي على الدوام . ونحن نصنف الناس هكذا ، ولكنه غير منطقي ، وغير مصيب ، فالناس يشبهون الأنهر ، يجري الماء فيها جميعها . غير ان أحدها قد يكون مستقيماً في مكان ما ، ومنعرجاً في مكان آخر ، واسماً وضيقاً ، صافي الماء وعكره ، فاتراً وبارداً . وهكذا شأن البشر ، فهم يحملون في داخلهم بذور الفضائل والرزائل ، فطوراً تتغلب هذه وطوراً تتفوق تلك . وقد يحدث ألا يظل الانسان على حالة واحدة ، على رغم كونه ما زال هو هو لم يتغير ولم يتبدل .

وينبغي أن يكون نصب أعيننا أن هذا التغير قد يقع بصورة فجائية ،

كما هو الحال مع (نيكليندوف) ، إذ انقلب شعور الطهارة والارتياح الذي شعر به فور خروجه من قاعة المحكمة ، ومن السجن بعد اجتماعه الاول (بكاترين) ، الى شعور بالرعب والاشمئزاز منها . كان قد عقد العزم على ألا يفارقها وألا يتخلى عنها ، وأن يظل محافظاً على ما قطعه على نفسه بالنسبة لها ما دامت هي موافقة عليه . وكان هذا مثار غم له واستياء .

وعاد (نيكليندوف) ذلك النهار الى السجن كي يرى (ماسلوف) فسمح له المدير بالتحدث اليها ولكن في غرفة الزيارات بدلاً من مكتبه وقد لاحظ الأمير منه زيادة في التحوط ، على الرغم من طيب عنصره ، فرأى أن ذلك يعود ، دون شك ، لتعليمات خاصة بوجوب اتخاذ المزيد من الاحتياطات بالنسبة له ، وردتهم من نائب الحاكم أثر اجتماعه به .

— بمقدورك أن تراها ، ولكنني أتوسل اليك ألا تعطها مالا بعد الآن . وفيما يتعلق بنقلها الى المستشفى ، كما أمر صاحب السعادة نائب الحاكم ، فقد وافق الطبيب عليه ، ولكنها رفضته قائلة انها لا تريد أن تنظف أوساخ المرضى . أو اه يا سمو الأمير . يبدو انك لا تعرف هذا النوع من البشر .

وكان جواب الأمير الوحيد على قوله هذا ، تكرار الرجاء بالسماح له بزيارتها . فنادى المدير أحد السجن وأمره بأن يرافق الأمير الى قاعة الزيارات في الجناح الخاص بالنساء .

كانت قاعة الزيارات هذه خالية عندما دخلها الأمير . ولكنه لم تكذب تنضي بضع دقائق حتى فتح الباب الداخلي وأطلت منه (ماسلوف) .

كانت تبدو عليها سياء الرزاة والحجل عندما أبصرها الأمير خلف القضبان الحديدية ، فتقدمت منه وقالت له بصوت خافت وهي ترنو اليه بعينها السوداوين .

— ساحني (يا ديمتري ايفان) . لقد كان تصرفي معك نهار أمس غير سليم .

— أنا الذي احتاج للصفح . — أجاب الأمير .

— دعني ولا تفكري . — أجابته ، وقد تبين الأمير عدااء في عينيها
السوداوين اللتين ما زالت تصوبها اليه .
— لماذا ترغبن في أن أدعك وشأنك .
— هذه رغبتني .

— اشرحي لي أسباب رغبتك بشكل أستطيع فهمه . تكلمي بوضوح .
فعادت الى التحديث فيه بتلك النظرات القاسية التي تفيض بالكثير من
الأفكار السيئة .

— أقول لك جادة ... دعني ... وشأني ... ذلك خير لك وأجدي ...
تناس تلك الفكرة ... لن أستطيع تحقيقها . — قالت له ذلك بشفتين
مرتعتين . ثم صمتت .
وساد صمت قصير تبادلا أثناء النظرات بامعان . ولم تلبث (كاترين) ان
قالت :

— دعني . فسأنتحر قبل تحقيق رغبتك .
لقد أدرك (نيكليندوف) ان كراهية شديدة ، ناجمة عن اساءة لم تصادف
غفراناً ، تكمن وراء ذلك الرفض ، ولكنه رفض يصدر عن قصد نبيل . وقد
وضع حداً لكل شك ، ورد روحها الى سابق احساسها السامي الذي احسته
أول الأمر .

— أكرر الآن لك ما قلته من قبل (يا كاترين) . أتوسل اليك أن ترضي
بي زوجاً . وإذا أبيت فسأتبعك اينما ذهبت ، الى أن توافقين .
— أنت تقول ذلك . أما أنا فلن أزيد حرفاً واحداً . — أجابته وشفاتها
ترتعتان .

وكان قد بلغ من تأثر (نيكليندوف) ان تعذر عليه الكلام . وأخيراً
سكن تأثره قليلاً فقال .

— أنا ذاهب الآن الى الريف ، وبعد ذلك سأذهب الى سان بطرسبرج ،
وسأبذل قصارى جهدي في سبيل قضيتنا ... قضيتك . آه . سوف لن ينفذ
هذا الحكم انشاء الله .

— وإذا نفذ ... فانا استحققه ، ان لم يكن لهذا الأمر فلفيره من الآثام ...
— أجابته (كاترين) وقد أدرك مدى الجهد الذي تبذله لحبس دموعها .
— هل رأيت آل (منستشوف) ؟ — قالت تسأله لتخفف من حدة تأثرها . — أصبح ما قيل عن براءتها ؟
— هذا ما أظنه .

— يا لتلك المعجوز من امرأة طيبة . — قالت له .
فأعاد عليها (نيكليندوف) كل ما قصه عليه القروي . سألها عما اذا كانت تحتاج لشيء آخر . وأعقب ذلك فترة ساد فيها صمت عميق . وفجأة قالت (كاترين) .
— فيما يختص بالمستشفى فسأذهب اليه إذا أحببت ... وأعدك انني سوف لن أعود لشرب الخمر مرة أخرى .
فأحد (نيكليندوف) النظر في عينيها اللتين كانتا تبتسمان ، ولم يقو على أن يفوه بكلمة سوى قوله :
— حسن .

وكان يحدث نفسه بقوله : لقد تغيرت تغيراً تاماً .
وبعد ان استعرض ما كان قد تبينه بالأمس من انفعالها أخذ يستعرض الشعور الجديد الذي لم يذكر انه عرفه منها قط .
لقد أصبح الآن لا يشك بسلطان الحب .
وحين عادت (ماسلوف) الى سجنها العفن بعد انتهاء المقابلة ، خلعت (بلوزتها) وجلست على حافة السرير وأسبلت يديها على ركبتيها .
لم يكن في ذلك القسم من السجينات سوى المسولة والقروية التي مانعت في سوق ابن أخيها للخدمة العسكرية ، و (مانستشكوفنا) وحارسة خط القطار والطفلين الصغيرين . أما ابنة الكاهن فقد كانت قد نقلت الى المستشفى نهار أمس لظهور أعراض الجنون عليها . وكان الأخريات يفسلن ثيابهن .
كانت (مانستشكوفنا) مستلقية على السرير ، والطفلان يتوثبان في المشى

الذي كان بابه مفتوحاً . فتقدمت حارسة الممر و (فلاديمير سكتشا) من (ماسلوف) ، ويداهما الرشيقتان لا تنفك تحوكم الجوارب .

— هل رأيته ؟ — قالت الاثنتان تسألانها .

فلم تجبها بشيء وظلت تحرك ساقها اللتين لا تبلغان الأرض .

— مادهاك يا حبيبتي ؟ — قالت تسألها حارسة القطار . — يجب أن تكوني جريئة .

فلم تجب (ماسلوف) أيضاً .

— لقد ذهبت الرفيقات لغسل الثياب . — قالت (فلاديمير سكتشا) : — يقال انهم وزعوا احساناً هذا اليوم .

وفجأة صاحت حارسة القطار قائلة : — يا (فيناسكا) أين أنت أيها الصغير ؟ — ثم طرحت الجوارب وخرجت تعدو .

وهنا سمع وقع أقدام ولفظ نساء ، ودخل السجينات الأخريات يجررن قباقيبهن ، وكل واحدة تحمل رغيفاً من الخبز ، وبعضهن تحمل رغيفين . وتقدمت (فيدوسيا) من (ماسلوف) ثم قالت تسألها بلهجة عذبة وهي تنظر اليها بعينها الزرقاوين تتوضعا .

— ماذا دهاك ؟ هل حدث لك شيء ؟ أنظري لدينا خبز للشاي .

— أترأه غير فكره وأقلع عن فكرة الزواج ؟ — سألتها (كورابلوفا) .

— كلا . لم يغير رأيه ، وإنما أنا التي رفضت . — أجابت (ماسلوف) .

— لقد قلت له ذلك بصراحة .

— هذه غباوة منك . — أجابتها (كورابلوفا) بصوت أبج .

— ولماذا ؟ إذا استحال العيش معاً فما معنى الزواج ؟ — أجابت

(فيدوسيا) .

— ألا ينوي زوجك اللحاق بك ؟ — قالت حارسة القطار .

— هذه حادثة من نوع آخر ، اذن نحن زوجان قديمان . ولكن ماذا يفيد

هذان من زواجهما إذا كانا لا يستطيعان العيش معاً ؟

— ألا تعلمين أيتها الغبية أن بوسعه أن يغمرها بالذهب إذا تزوجها ؟
— لقد قال لي : سألحق بك الى حيث تذهبين . — قالت (ماسلوف) .
— بوسعه ان يلحق بي أو لا يلحق إذا شاء . ذاك شأنه ... سوف لن أرجوه ... سيذهب الى سان بطرسبرج ليتوسط لقضيتي ... فكل الوزراء أقاربه ... ومع كل هذا ، فلست احتاجه .
أفرك على ذلك . — قالت (كورابلوفا) وهي تببت أمراً وترمي لغاية .
فلنتناول الآن قليلاً من الخمر .
— لست راغبة بذلك فتناولن أنتن إذا شئتن وأنا أدفع الثمن . — أجابت (ماسلوف) .

٦٠

كان قد تقرر انعقاد المحكمة في سان بطرسبرج للنظر في طلب التمييز الذي تقدمت به (ماسلوف) ضد قرار الحكم الذي أصدرته المحكمة بحقها . وكان الأمير شديد الرغبة في الذهاب الى هناك لمحاولة استخدام نفوذه لصالحها . وكان ينوي في حال رد الطلب ، أن يرفع التماساً الى الامبراطور باسمها عملاً بنصيحة (فانارين) له . — كان من الضروري استدراك ذلك لأن المحامي يرى أن الأسباب الموجبة للتمييز كانت ضعيفة . — وحتى في حال فشل الالتماس فان (نيكليندوف) كان مصمماً على اللحاق بها . ولما كان موعد سفر الدفعة الأولى من المساجين الى سيبيريا التي ستضم (ماسلوف) ، سيعين في أوائل شهر حزيران ، فقد كان ينوي التأهب لهذه الرحلة والقيام قبل ذلك بزيارة الى ممتلكاته لاتخاذ الاجراءات اللازمة . وبدافع من هذه الرغبة قام برحلة الى (كوسمينسكوجي) أوسع ممتلكاته وأقربها وأوفرها غلة . لقد قضى في هذه الزرعة أيام فتوته ، ولكنه بعد ان أصبح شاباً لم يزرها سوى مرتين ، كانت أولاهما في حياة أمه وقد اصطحب معه مديراً المانياً جديداً أوكل اليه ادارة الأملاك بعد أن درس أحوالها دراسة وافية ولذا فقد كان مطلعاً على كافة

أوضاعها ، والشروط التي تربط القرويين بأصحاب الاملاك ، وتجعل المزارع جزءاً منها .

كان (نيكليندوف) يعلم ذلك منذ وزع ميراثه عن أبيه على فقراء المزارعين مدفوعاً بنظرية (سبنسر وهنري جورج) التي كان يمتنقها منذ كان طالباً . ولكنه بعد أن التحق بالجيش وانغمس في حياة الملذات مبدداً عليها ما يزيد على عشرين ألف روبل في العام ، فقد فقدت تلك النظرية قوتها المعنوية لديه ، وتناساها لأنه أصبح يراها غير ملزمة له ، ولم يكلف نفسه ولو مرة واحدة ، غناء البحث عن الوسائل التي كانت أمه تحصل منها على ما يسد نفقاته ، بل ان هذا لم يخطر له قط على بال . أما الآن فقد وضعته وفاة والدته وحاجته للعناية بأملاكه وجهاً لوجه أمام قضية ملكية الارض من قبل شخص واحد .

لو ان فكرة تغيير النظام الراهن كانت قد عرضت له قبل شهر واحد من الآن اذن لرأى أنها ضرباً من (أوتوبي) الأحلام البعيدة التحقيق ، ولرأى ان استغلال أملاكه لا يتعلق به مباشرة وإنما بالواسطة ، ولظل ، وهو مطمئن لهذه النظرية ، مثابراً على نهج حياته يتقاضى ربح أملاكه وهو بعيد عنها . أما الآن ، وعلى الرغم من ان رحلته الى سيبيريا تضطره على الاتصال بالمهامين والموظفين والسجنائين ، وتفرض عليه الاحتفاظ بوضعيته الاجتماعية ، وبدخله السنوي ، فانه يرى انه لا يقوى على ترك الأمور على حالها دون إدخال تعديل كبير عليها ، حتى ولو كان في ذلك اضرار بمصالحه . ولذا فقد قرر عدم استغلال ممتلكاته مباشرة ، وتأجيرها بأجر معقول للمزارعين كي يتمكن هؤلاء من الاستقلال التدريجي .

وعندما كان (نيكليندوف) يقارن بين وضع مالك كبير للأراضي وبين من يسرق العبيد ، كان يبدو له أن من يستغل أرضه باستخدام مزارعين فقراء وعمال مأجورين لا يفرق كثيراً عن مسرق العبيد . على أنه لو أجرم الأرض لقاء أجر سنوي معقول لكان ذلك بمثابة منحهم أرضاً يستغلونها لحسابهم

الخاص . وليس هذا بالحل النهائي للقضية ولكنه خطوة كبيرة نحو الحل الحقيقي . وسبيل صالح للوصول الى تحسين عادل وانساني لأحوالهم .
كان وصول (نيكليندوف) الى (كوسمينسكوجي) حوالى منتصف
النهار . وبما انه قد جاء دون ان يخبرهم بقدومه فقد اضطر أن يكتري عربية
تنقله من المحطة الى البيت .

جلس الخوذي في مقعده موارباً وكان يدعى (جامسيك) ويرتدي ثوباً
يشده على وسطه بزئار . وظل طوال الطريق يتحدث الى الأمير تاركاً جواده
تسير في الطريق على هواها . ولما كان (جامسيك) يجهل انه يتحدث الى مالك
المزارع . - وقد تعتمد الأمير الا يعرف نفسه لأحد . - فقد اندفع يتحدث
عن المدير .

- هو الماني متأنق . - قال وقد تحول بنصف جسمه ناحية الأمير ثم فرقع
سوطه . يقتني عربية فخمة لا مثيل لها . وعندما يخرج فيها للزهوة مع زوجته ،
فليس ثمة من يضاهيه ... ما أروع شجرة عيد الميلاد التي أقامها في بيته في
الشتاء الماضي ... لقد رأيتها لأنني نقلت الى بيته عدة مدعويين ... ما أعظم
تلك الشجرة . لم يصنع شبيه لها في سائر الولاية ... يقول الناس عنه انه يسرق
كثيراً ... وهذا أمر طبيعي ، لأنه يتصرف كما لو كان مالكا . ويقولون انه
اشترى ملكية رائعة .

كان (نيكليندوف) يحسب انه لا يهتم لمعرفة الطريقة التي يدير فيها
الاماني ملكيته . ولكن كلمات (جامسيك) أيقظت في نفسه ندماً ظل ملازماً
له طوال الطريق . كان وهو في العربة يتملى جمال ذلك النهار الهادئ ويستمتع
به ، ويساير بنظره الغيوم التي تعبر السماء من وقت لآخر ، والطيور التي تجتاز
الفضاء ، والغابات المزدانة بجلل قشبية ، والمهار التي ترعى في الرياض ، والحقول
الخضراء ، وعلى الرغم من كل ذلك فان ثمة ما هو محزن ومغيظ كان يعكس صفو
استمتاعه بتلك المناظر الخلابة . ولو ان (نيكليندوف) رغب في التعمق بحثاً
عن كنه ذلك المحزن المغيظ لاعادت كلمات (جامسيك) الى ذاكرته صورة
عن الطريقة التي يدير بها ذلك الاماني أملاكه .

غير ان هذا الانطباع لم يلبث أن تلاشى من نفس (نيكليندوف) فور وصوله الى (كوسمينسكوجي) وانصرافه لمعالجة وبحث القضايا التي جاء من أجلها . وما هي إلا نظرة سريعة القاهها على سجلات الادارة ، وحديث دار بينه وبين وكيله الذي كان يحاول ببراءة الأطفال تبيان الفوائد التي يجنيها من امتلاك المزارعين لقطع صغيرة من الأرض ضمن ممتلكاته ، حتى اقتنع بوجهة نظره ، وازداد تمسكاً برغبته في التخلص من المضايقات ، والتنازل عن سائر ممتلكاته لصالح المزارعين .

وقد علم من السجلات ومما قاله له وكيله ان ثلثي أراضي الصالحة الخصبه كانت تستثمر بعمال وأدوات حراثة جيدة أما الثلث الباقي فكان يعطى للعمال على أن يدفع لهم خمس روبلات عن كل مساحة من الأرض تتسع (لفنيقة) من القمح^١ وعلى العامل أن يحرثها ويمشطها ثلاث مرات ، وأن يحصدها . وبالاختصار كان عليه أن يقوم بكافة العمليات التي لا يقوم بها العامل المياوم بأقل من عشر روبلات هذا في حال قبوله بأدنى الأجور . وكان المزارعون يدفعون للادارة ثمن ما يحتاجون اليه من غلالها أعمالاً ، ويدفعونه غالباً . كانوا يعملون في الحقول ، وزراعة البطاطة ، والغابات ومع هذا فقد كان أكثرهم يظل مدينًا للادارة . وإذن فان تأجير الأراضي على هذه الصورة للمزارعين سيكون أكثر انتاجاً مما ينتظر منها مع فائدة خمسة بالمئة .

كان (نيكليندوف) يعلم ذلك من قبل ، ولكنه الآن يبدو له جديداً فيدهش له ، ويتساءل كيف لم يلاحظ هو وغيره من الملاكين مبلغ الاجحاف في اتفاقياتهم مع العمال والمزارعين . وكان من رأي وكيله أنه يجب بيع المحصولات المحزونة في الاهراء بسعر أقل ، وأن الأرض إذا ما استغلها المزارعون لحسابهم الخاص ستكون أوفر غلة ، وان الأمير سيخسر كثيراً . فوافق ذلك الرأي ما في نفس الأمير ، وأقنعه بوقوع الخسارة عليه ولكنه رأى أنه في مقابل ذلك يكون قد قام بعمل جليل ، فقرر وضع مشروعه موضع التنفيذ على الفور .

١ - الفنيقة نوع من الكيل كان يكتال به .

وأوكل الى المدير ان يتدبر طريقة لاسترجاع البذار الذي بذره في الأرض ، وأن يبيع محتويات الاهراء ، وكافة المباني التي لم يعد يحتاج اليها . وهكذا رغب (نيكليندوف) الى وكيله ان يدعو كافة المزارعين في القرى الثلاثة التي تتكون منها ملكيته للحضور في اليوم التالي ليعلمن لهم رغبته وليعينوا بدل ايجار الأرض .

خرج (نيكليندوف) من مكتب المدير مرتاح النفس ، لتمسكه بوجهة نظره ، ورفضه آراء المدير ، واصراره على التضحية بمصلحته لصالح المزارعين ، ثم أخذ يطوف حول المنزل ، مفكراً فيما هو مزمع على القيام به ، فطاف بالرياض التي كانت بالأمس مزدهرة يانعة ، وأصبحت الآن مهملّة ، ومر بمحفل (التنس) وفي منتزه البيلسان الذي كان له مرتعاً يطيب له التدخين فيه ، وحيث لاحق بغرامه (كيرينوف) المجيئة عندما نزلت ضيفة على والدته منذ ثلاث سنوات .

وعاد الى منزل الالماني ، بعد أن أعد في ذاكرته ما سيخاطب به المزارعين في اليوم التالي . وكان ، وهو يتناول الشاي ، يقلب أوجه الرأي في الطريقة المثلى للتخلص من ميراثه ، ثم دخل الغرفة التي أعدها له في البيت الخاوي مرتاح النفس شأن من يقدم على عمل نبيل .

كان في الغرفة المجيئة ، الحسنة التهوية ، صور معلقة على الحيطان لبعض مناظر البندقية ، ومرتأة بين النافذتين وسرير جميل وطاولة صغيرة عليها كوب ماء وعلبة ثقب وأداة لإطفاء المصابيح .

كانت حقيبة الأمير موضوعة على الطاولة الكبيرة التي تحت المرتأة ، وهي مفتوحة وفيها ثيابه الفاخرة وبعض الكتب بينها كتاب بالروسية عنوانه « دراسات قانونية حول المسؤولية » وكتابان آخران يبحثان الموضوع ذاته أحدهما بالالمانية والآخر بالانجليزية .

كان يرغب في المطالعة خلال فترات الفراغ القليلة التي يسمح له بها وقته عند زيارته لممتلكاته ، غير انه في هذه المرة ، لم يصادف تلبية من نفسه ودافعاً من

رغبته ، وخصوصاً لمثل هذه الدراسات التي كان ذهنه مشغولاً عنها بأخرى تختلف عنها كل الاختلاف . وعندما وقّع نظره صدفة ، على تواليات مرقمة ومصنوعة من خشب الورد كانت فيما مضى تحتل مكاناً بارزاً من غرفة نوم أمه ، شعر بالعميق عندما تأكد من تخليه عن منزله الذي سيهدم ، وحديقته التي ستملاها الأعشاب الضارة ، وغاباته التي ستباد ، وأهرائه المتقنة ، والمهار ، والأدوات الزراعية ، وعن ثروة إذا لم يكن قد كسبها فلا أقل من أنه كان لا يزال محتفظاً بها . كان قبل الآن يحسب أن التنازل عن كل شيء من الأمور السهلة الهينة ، أما الآن فقد أدرك أن مجرد التفكير به لا غير ، قد ملأ قلبه غمًا وأسى . وعلى الأخص تنازله ، في مثل ظروفه عن نصف وارده السنوي . وطافت برأسه آلاف الأفكار والنظريات التي كانت ترى في تأجيله أراضيه ضرباً من الجنون ، وتهديماً منه لكيانه وثروته .

— ينبغي ألا أحتفظ بشيء من الأراضي ، ومتى كنت كذلك فليس بي من حاجة لإدارة أو مديرين ، وهكذا أذهب الى سيبيريا حيث لا أحتاج لبيت أو ممتلكات . — بمثل هذا كان يهيب به صوت فيجيبه آخر قائلاً :

— حسن جداً ، ولكنك سوف لن تقضي كل حياتك في سيبيريا ... وقد تزوج غداً ، وقد تنجب أطفالاً وعندئذ يكون من واجبك تسليم هذه الأراضي لهم كما أسلمها لك أسلافك . عليك واجبات حتى تجاه الأرض ذاتها ينبغي أن تؤديها ... ان هبة الأرض ، وتهديم الثروة والكيان أمور بالغة السهولة ، ولكن الصعب الشاق فاعادة البناء . تفحص ، وتقصى بإمعان ، وأعمل الفكر ، وتأمل بمستقبلك ، وبعدئذ صرف شؤونك وفاقاً لما تكون قد كونه لنفسك من رأي .

وكان (نيكليندوف) لا ينفك يتساءل عن البواعث التي تكمن وراء ما ينويه من أعمال ، هل كانت بباعث من الضمير أم اهتماماً لما سيتحدث به الناس عنها ، ولكسب ثنائهم . وكان لا مفر له آخر الأمر عن الاعتراف بأنه كان لما سيتحدث به الناس ضلعه الأوفى فيها .

وكان وهو منصرف لتأملاته ، تستوقفه علامات استفهام جديدة ، وتبدو له القضية أكثر تعقيداً . ولكي يطرد عنه تلك الأفكار الملحة المقلقة استلقى على السرير محاولاً أن ينام قائلاً في نفسه : سأفكر في هذا الموضوع المعقد غداً عندما تكون الأعصاب هادئة ، والذهن مرتاحاً . غير أنه لم يستطع رقاداً . كان يبلغ سمعه نقيق الضفادع وصداح العنادل المنبعث من الغابة غير النافذة التي كان ينساب منها نور القمر والهواء البليل . فأعاد ذلك الى ذاكرته الانعام التي كانت توقعها ابنة مدير السجن ، وهنا تذكر (ماسلوف) وتمثلها أمامه ، في اللحظة التي قالت له فيها وشفتاها ترتعشان :

— ما مضى فات ، ولا داعي لحيائه .

وصوره له وهمه ان الالماني قد خرج لاسكات الضفادع ... وكان لا بد من العمل على الخؤول دون ذلك ... ولكن الالماني كان قد هبط السلم وغادر المنزل . وعلى غير ما وعي أو ادراك منه فقد تحول المدير في خيلته الى (ماسلوف) عندما كانت تزجره قائلة له :

— اليك عني ، دعني . أنا طعمة السجن . وسموك أمير ؛ فهتف يقول وقد اقشعر بدنه وعاد له سابق وعيه :

— كلا يجب ألا أتردد . ولكن يا ترى هل ما أنا مقدم على عمله صالح أم طالح ؟

كان لا يزال يجهل ذلك ، وسيعلمه فيما بعد ... ثم أخذ يبدوله وكأنه هبط ، وهبط باستمرار ومعه المدير . (ماسلوف) ولم يلبث ان لفه الظلام في حواشيه .

٦١

كانت الساعة قد بلغت التاسعة عندما استفاق (نيكليندوف) من نومه في اليوم التالي ، فاحضر له الخادم الذي خصصه المدير لخدمته حذاء طويلاً لماعاً كصفحة المرأة ، وماء طازجاً نقياً ، وأبلغه أن المزارعين سيأتون قريباً تلبية لرغبته .

فففز (نيكليندوف) من سريره . وكان ما ساوره من ندم الليلة الماضية عندما فكر انه يتنازل عن أراضيه ويخرب بيته يديه ، قد زايله دون أن يدع أثراً وراءه ، حتى أنه تذكره باستغراب ، وهو يرتدي ثيابه على عجل ، مرتاح النفس لوضعه موضع التنفيذ عملاً يكسبه الفخر . وكان يطل من حينه لآخر على حقل (التنس) حيث كان سيجتمع مع المزارعين .

لم يكن عبثاً نقيق الضفادع العنيف الذي استمر طيلة الليلة الماضية ، فقد تساقط المطر رذاذاً عند الصباح ، وكانت قطراته التي ظلت عالقة بأوراق الأشجار وبراعم النبات تتلمع تحت نور الشمس كحبات اللؤلؤ ، وتفوح رائحة هي مزيج من عبير القرنفل ، ورائحة التربة المتعطشة للفزيد من الماء . وكان (نيكليندوف) وهو يرتدي ثيابه يرى المزارعين يتوافدون الى حقل التنس ، فيحیی بعضهم بعضاً ، ويتحدث بعضهم الى بعض ، ويتحلقون حلقات متوكئين على هراواتهم الضخمة . وجاء بعد ذلك المدير ، وهو رجل قوي البنية بارز العضلات يرتدي سرة قصيرة عليها ازرار غير عادية ، جاء يعلن للأمير ان المزارعين قد اجتمعوا ، ولكن باستطاعتهم الانتظار الى ان يفرغ من تناول ما أعد له من طعام وشراب .

— كلا . من الأفضل أن أخرج اليهم الآن . — قال الأمير .

ولم يلبث ان استولى عليه الخجل ، عندما تذكر انه سيتكلم الى جمهور . لقد قدم المكان تلبية لرغبة ملحة ، وهو الآن لا يجرؤ حتى على اعلانها . جاء ينوي تقديم الغنم لهم ... ومع ذلك فالخجل يمنعه عن ذلك . ولم يكذبون منهم حتى كشفوا عن رؤوسهم تحية له وتقديراً ، فكانت متباينة الأشكال والألوان ، فنها الأشقر الشعر ومنها الأجعد ، والأصلع ، والذي وخطه الشيب . فكان ذلك سبباً جديداً في ازدياد خجله وتفاقم حصره ، وهكذا لبث فترة ليست بالقصيرة لا يقوى على التفوه بكلمة واحدة . وكان المطر ما زال يسقط طلاً ، فتقع قطراته الصغيرة اللامعة على الشوارب واللحي والرؤوس ، ولبت المزارعون برهة شاخصين بابصارهم بانتظار ما سيقوله لهم سيدهم الذي كان قد بلغ به اضطرابه حداً اعجزه عن الكلام .

وكان المدير شديد الثقة بنفسه ، متبجحاً بمعرفته التامة لآخلاق المزارعين ، يتكلم اللغة الروسية تكلماً صحيحاً ، قوي البنية ، وحسن التغذية ، بحيث كان منظره وهيبته يتعاكسان ومنظر المزارعين ذوي الوجوه المتجمدة الطالحة ، والاكتاف الهزيلة التي كادت تكون اقفاصاً فخف لنجدته وليقطع جبل ذلك الصمت البغيض . فقال :

— ان الأمير يرغب في مديد المعونة لكم ، ويريد تسليمكم الأراضي ولكنكم لا تستحقونها .

— ولماذا لا نستحقها ؟ ألم نعمل لك كثيراً وجيداً ؟ — أجابه قروي أحمر الشعر .

— لقد كنا جد مسرورين على أيام المرحومة الأميرة ، ونحن جد شاكرين للأمير تفقده لنا .

— نحن راضون عن سيادنا . — قال أحدهم وكان طويل اللحية ، بارز عظام المنكبين . — ولكن المعضلة الكبرى هي اننا قد تكاثرتنا بحيث ضاق المكان بنا . — لأجل هذا دعوتكم ، وأرغب في أن أوزع عليكم الأراضي ما دمتم ترغبون ذلك . — قال لهم (نيكليندوف) .

فوجئوا جميعاً ، ولبثوا صامتين كأنهم لم يفهموا ما قاله لهم ، أو كأنهم لم يصدقوا ما سمعته آذانهم . ووقف بعد قليل أحد (الموجيك) وكان متوسط العمر وقال :

— وماذا يعني توزيع الأراضي علينا ؟

— يعني ايجارها لكم لتستطيعوا الاستفادة منها مقابل بدل زهيد تدفعونه . فهتف الجميع بصوت واحد مرعبين بالفكرة .

— هذا أمر عظيم . — قال مزارع عجوز .

— المهم أن يكون هذا البديل مستطاعاً .

— ان ما تعرضه حسن ونحن نقبل به .

— وسيكون ذلك أنفع حتى لسموك . ولكن المهم ان ندفع . تحدث في

هذه الأيام أمور كثيرة ...

— أنتم المسبيون وحدكم لما يحدث . — أجابه الألماني . — لو تصرفتم بنظام وعلمت عملاً صحيحاً لتأمنت مصالحكم .

— ماذا بوسعنا ان نعمل أكثر مما نعمل (باباسيليو كارلوفيتش) ؟ قال يسأل عجوز مستدق الأنف — انت تكرهني منذ مدة لأن حصاني دخل بعض حقولك ، وتريد ان تنتقم مني الآن .

— بإمكانكم ان تكونوا أكثر عافضة على أملاك الغير .

— هذا قول يصلح للحديث ، ولكن العمل به أمر عسير . — أجابه فتى اسمر اللون كث الشعر .

— لقد أمرتكم بأن تقيموا حواجز .

— بلى . ولكن القول وحده لا يكفي . ولا بد من وجود الخشب ايضاً .

— أجابه قروي صغير الجثة منهك الجسم .

— ما معنى هذا الكلام ؟ — قال الأمير يسأل وكيه :

Der corte Dieb im Dorfe.

— أجابه بهذا ثم أضاف باللغة الألمانية . — في كل عام نقبض عليهم ملتبشين بجريرة سرقة اشجار الغابة . — وأنت — قال موجهاً الكلام الى العامل — تعلم ان تحترم ملك الغير .

— اترانا لا نحترمك ؟ — أجاب المعجوز .

— لا يسعنا الا ان نحترمك لأننا تحت رحمتك .

— يا أعزائي . ما دمتم تكرهون المضايقات ، فجربوا أن لا تؤذوا الناس على الأقل .

— نحن نؤذيكم ؟ لقد خرب بيتي في الصيف الماضي . وها آنذا تراني . يبدو ان المحاكم لا تحكم على الأغنياء .

— لو تصرفت كما ينبغي لما حدث لك ما حدث .

ظل الحوار بين الممال والمدير يسير على هذا الشكل فترة غير قصيرة ، على الرغم من أن أحداً منهم لم يكن يدري لما يفعل ذلك او ماذا يتوخى منه . غير

ان (نيكليندوف) كان يرغب في انتهاء تلك القضية بأسرع ما استطاع ، وتعيين قيمة أجر الأرض ، وكيفية دفعه .

— حسن . ماذا تقررون بشأن الأرض . استأجرونها أم لا ؟ اذا تنازلت لكم عنها نهائياً فماذا تدفعون لي بدل أجرها ؟

— ما دامت الأرض تخصكم فعليكم وخدمكم تعيين بدل الآجار .

فحين (نيكليندوف) لهم قضية . فأخذوا ييكون ويشكون زاعمين أنه أجر غال جداً . كما هو الحال دائماً ، حتى ولو كانت القيمة أقل بكثير مما يدفعه جيرانهم .

كان (نيكليندوف) يحسب ان عروضه ستلاقي ترحيباً وقبولاً من قبل المزارعين ، ولكن شيئاً من هذا لم يحدث ، ولم يبدر منهم ما يدل على انهم كانوا يرونها لصالحهم الا عندما سألهم عما اذا كان ينبغي ان يتنازل عنها لصالح جمعية أم لأفراد ، اذ نشب خلاف حاد بين الفئة التي تحاول اقضاء الأضعف والأفقر ، وبين من يعارضون ذلك .

وأخيراً ذللت الصعاب وسويت الأمور بفضل تدخل الالماني ، واتفق على قيمة البدل وطريقة دفعه فعاد القرويون الى منازلهم وهم يتناقشون ويتجادلون في الموضوع وكان نقاشهم صراحاً . وعاد الأمير ووكيله الالماني الى المكتب ليضعوا صيغة العقد .

انتهى الأمر كما كان يرغب الأمير ، وحصل المزارعون على الاراضي بشروط أفضل من شروط القرى المجاورة ، وهبطت بسبب ذلك ، نسبة وارداته الى ما يقرب النصف ، غير انها كانت ما تزال عالية ، حتى بعد حذف ما يحصل عليه من بيع الغابة ، والأصناف المخزونة في الاهراء . وكان يبدو ان كل شيء قد تم بشكل مرضٍ ، الا أن الأمير كان يبدو قلقاً منقبض النفس ويشعر بما يشبه الخجل . لقد اتضح له ان المزارعين على رغم ما أظهره له من الشكر والامتنان لم يكونوا على رضى تام لتوقعهم ما هو أكثر . وهكذا فقد تبين له انه قد ضحى بقسم كبير من دخله ، دون ان يتوصل لارضائهم .

في اليوم التالي لتوقيع الاتفاقية مع المزارعين استقل (نيكليندوف) عربية المدير التي حدثه عنها (جامسيك) الحوذي ، وذهب الى المحطة مودعاً من شيوخ المزارعين وكهولهم الذين رافقوه مفكرين مترددين ، وهم يهزون رؤوسهم . كان الأمير يحس احساس من بدأ عملاً صالحاً ولكنه لم يتممه . لم يكن راضياً عن نفسه ... كما لم يكن يعلم سبباً لذلك . وكان يشعر بالغم والتجمل على السواء .

٦٢

على أثر مغادرة (نيكليندوف) لمزرعته في (كوسميسكوجي) ذهب الى (بانوفو) المزرعة التي ورثها عن خالتيه ، والتي التقى فيها (بكاترين) للمرة الأولى .

كان ينوي تسوية أموره فيها على غرار ما فعله في مزرعة (كوسميسكوجي) ولكنه كان أكثر رغبة في الحصول على المزيد من المعلومات عن (كاترين) ولولها ... وهل مات حقاً ؟ ... وكيف كان موته ؟

كان وصوله الى (بانوفو) صباحاً ، وأول ما استرعى انتباهه وهو يجتاز الرواق في ذلك القصر القديم ، مظاهر الإهمال البادية عليه . كان السطح ، وهو من الحديد ، قد علاه الصدأ لأنه لم ينظف منذ أمد بعيد . وكانت أبواب الواجهة الرئيسية مفككة الأوصال مخلمة ، وكذلك الباب الصغير الخلفي الذي يوقظ الكثير من الذكريات في نفس الأمير (نيكليندوف) ، والنوافذ تتجلى فيها مظاهر الخراب ، وحتى غرفة الإدارة والمطبخ وغرف الخدم كلها كانت مهجورة قدرة . ولم يكن ثمة ما قد لقي قليلاً من العناية والاهتمام سوى الحديقة لاحتوائها على الكثير من أنواع الفاكهة . كانت أغصان أشجار الكرز والخوخ التي أمام الباب تتسابق منتشرة في الفضاء ، مثقلة بازهارها مشبهة الغيوم البيضاء . وفي الناحية المقابلة كانت الأشجار أيضاً تنوء بازهارها كعهددها منذ اثني عشر عاماً ، عندما جرى جنباً الى جنب مع (كاترين) فسقط على الأرض وتشقق كفاه . كذلك كان النهر يجري في مجراه المعبود ، ويرتفع صوت خرير مياهه عند

الطاحون حيث يكون شلالاً، وتمتد على الضفة الثانية منه الحقول الواسعة حيث كانت المهار والحراف المتباينة الألوان ترعى هادئة مطمئنة .

كان المشرف على تلك المزرعة رجلاً قد تخرج من إحدى المدارس الدينية ، ولكنه هجر مسوحه والتحق بخدمة ذلك البيت . وعندما وصل (نيكليندوف) خف لاستقباله الى خارج الرواق هاشاً باشاً تميزاً له . ودعاه الى مكتبه . ولما عادت العربة التي حملت الأمير من المحطة ساد سكون مطبق وهدوء شامل . وكان بالقرب من النافذة فتاة تسير حافية القدمين ، ومن ورائها قروي لا يرتدي سوى القميص . فجلس (نيكليندوف) أمام النافذة وراح ينصت وهو يسرح نظره في الحديقة من مكان لآخر . كانت نسائم الربيع البليدة تلطف جو الغرفة ، فتدغدغ جبينه الذي كان يتصبب عرقاً ، وتعبث بأوراق كانت على الطاولة ، وتحمل إليه رائحة التربة التي حرثت حديثاً . وكان صوت مخابط الفسالات اللواتي كن يفسلن الثياب في النهر ، يبلغ صداه مسامعه متشابكاً موحداً أحياناً ، ويمتد عبر النهر الذي كانت مياهه تتلمع تحت نور الشمس . وفجأة حدثت له ظاهرة فريدة من نوعها .

لقد أعادت له تخيلته صورة نفسه أيام كان شاباً و بريئاً . كان آنئذ يحيد سلوى في الإصغاء الى صوت مخابط الفسالات ، وسقوط الماء في الطاحون . وكانت آنئذ نسائم الهواء تتماوج فوق جبينه الذي ينضج عرقاً ، وتداعب أوراق الأشجار . فعاد لا يرى نفسه كما كان في تلك الأيام السعيدة فحسب ، بل أكثر من ذلك عاد ليرى نفسه ممثلاً براءة و غضارة فتوة ، تتمخض روحه بأحلام في المستقبل ، ومثل عليا رائعة . وكما يحدث في عالم الأحلام ، فإنه سرعان ما تبين أن كل ذلك قد ذهب الى غير رجعة ، فاستولت عليه كآبة عميقة .

— متى تريد أن تتناول الطعام ؟ — قال له المشرف باسم .

— كما تريد . غير انني لا أشعر بميل للطعام الآن ، وسأقوم قبل ذلك بحولة

في القرية .

— إذا أردت تفقد حال المنزل فستجده من الداخل على أحسن ما يرام ...
 إذا كان مظهره الخارجي ...
 — كلا . كلا . سأنتفقه فيما بعد . ألا تزال حية المرأة المدعوة (مارتونا كارينا) ؟
 كانت تلك خالة (كاترين) .
 — بلى . وهي تسكن القرية ، وتسبب لي كثيراً من المزعجات . تمتلك حانة ولا أنفك في شجار معها . ولكن ما العمل ؟ لست أريد أن أبلغ السلطات عنها لكونها عجوز ، وتحتضن أطفال أختها . — أجب المشرع دون أن يكف عن الابتسام .
 — أين تسكن ؟ اشتبه أن أراها .
 — في نهاية القرية ، في الكوخ الثالث بعد الشارع الكبير سأرافقك إذا أحببت .
 — أشكرك . على كل حال سأمتدي الى منزلها . والآن أرجوك أن تدعو المزارعين لأنني أرغب في التحدث إليهم .
 كان في نية (نيكليندوف) أن يتخلى عن ممتلكاته في (بانوفا) كما تخلى عنها كوسمينسكوجي .

٦٣

عندما غادر (نيكليندوف) المنزل التقى بفتاة ترتدي قميصاً موشى تسير في الطريق حافية القدمين ملوحة بيدها اليسرى بحركة هادئة رتيبة ، في حين كانت اليمين تحتضن ديكاً أحمر يماوج عرفه تيبها واعتزازاً ، ويمد إحدى ساقيه من حين لآخر فتعلق أظافره بثوبها . ولما أبصرت الفتاة الأمير قادماً تباطأت ثم وقفت الى أن حاذاها فحبته كالعادة بأن أرجعت رأسها الى الوراء ، ثم انصرفت تسرع الخطى ، وهي ما تزال تحتضن الديك . كذلك التقى ، عند البشر ، بمعجوز ترتدي قميصاً رمادياً قدراً ، تزح تحت قلتين من الماء أنزلتها الى الأرض عندما اقترب منها وحيته بثلمها حيته به الفتاة . وكان هذا البشر بداية القرية .

كان النهار صحواً وحاراً ، وعلى الرغم من كون الساعة لم تكن قد تجاوزت العاشرة صباحاً ، فقد كان الجو خانقاً . وكانت الغيوم قد بدأت تتكاثر فتحجب نور الشمس أحياناً ، وتنبعث رائحة نفايات الحيوانات المحملة في العربات التي تتجه بها الى المرتفعات ، ومن الأكداس التي أخرجت حديثاً من الدور التي كان (نيكليندوف) يمر بها .

كان العمال الذين يسرون وراء العربات حفاة الأقدام ، عراة الرؤوس ، ملطخو القمصان والسراويل بالأوساخ ، يظلمون فترة من الوقت يتلفتون وراءهم ليشاهدوا ذلك السيد الطويل القامة الضخم الجثة ، الذي يضع على رأسه قبعة رمادية اللون عليها شريطة حريرية تتلمع تحت نور الشمس ، وهو يسير باتجاه القرية يقرع الأرض بعصاه ذات المقبض المذهب . وكان العمال العائدون بعرباتهم من الحقول ، يحملون قبعاتهم بأيديهم ، ينظرون بفضول الى ذلك السيد الذي جاء يتنزه في شوارع قريتهم . والنساء وهن جالسات أمام بيوتهن كن يتأرنه أنظارهن ويتغامزن عليه .

واضطر (نيكليندوف) على أن يتوقف بعض الوقت عند الباب الرابع ، لأن عربة كبيرة محملة بالزبل كانت تخرج منه آنئذ محدثة ضجيجاً قوياً بمجلاتها . كان يقود الجواد عجوز أحمر اللون ، قوي البنية ، حافي القدمين ، يرتدي سروالاً بالياً وقميصاً قذراً ينكشف عن أكتاف عارية من اللحم . وعندما خرجت العربة والجواد الى الشارع التفت المعجوز ناحية البيت وحيا الأمير .

— أملك ابن أخت السيدة ؟

— أهلاً بك . هل جئت لزيارتنا ؟ — قال المعجوز مرتبكاً .

— بلى . كيف صحتك ؟ — قال له (نيكليندوف) استدراجاً له في الحديث .

— بيش ... كيف تريد أن تكون حياتنا ؟ انها قليلة السرور . — أجاب

المعجوز الذي يبدو أنه كان يريد أن يقول أكثر مما قال .

— ولماذا ؟ — سأله الأمير بعد أن دخل البيت .

— أعتقد أنها لا يمكن أن تكون أسوأ . — قال المعجوز وهو يقوده الى ما

تحت السقيفة المصنوعة من القش .

— نحن هنا اثنا عشر شخصاً في هذا البيت . — قال المعجوز وهو يشير الى امرأتين كانتا تقفان في كومة النفايات حافيتين ملوثتي الساقين بسائل أصفر ، مشعرتي الثياب ، وتغطيا رأسيهما بغطاء رقيق وتستند كل منهما على مدراة . — احتاج الى ست (بوندات) من الخبز شهرياً (البند ١٦,٥٠ كيلوغرام) وليس لدي مال .

— ألا تكفيك غلتك ؟

— غلتي ؟ — قال الشيخ ساخراً . — ان الأرض التي استغلها تعمل ثلاثة أشخاص فقط ، وكان نتاجها هذا العام ثمانية أكياس من الحبوب ، وقد استهلك قبل حلول عيد الميلاد .

— اذن ، كيف تسوون أموركم ؟

— يشتغل أحد أبنائي كعامل ، واستدنت بضع روبلات من صاحب المعالي ، وقد وفيت له ولكني لم أتمكن من تسديد أجر الأرض .

— وكم تدفعون ؟

— علي أن أدفع أجر المنزل سبعة عشر روبلاً عن كل أربعة أشهر . ما أسوأ هذه الحياة ... لا يستطيع المرء التخلص من الضائقة .

— هل يمكن لي أن أدخل البيت ؟ — قال (نيكليندوف) يسأل وهو يتقدم من فناء البيت ماشياً في النفايات التي كانت تلبعث منها رائحة قوية حادة . — ولم لا ؟ — أجاب المعجوز وهو يمشي حافي القدمين ليفتح له الباب ، فيندفع سائل أصفر من بين أصابع قدميه .

وكانت المرأة ، وقد أصلحت غطاء الرأس ، وسدلت الثياب ، تراقبان يجزع ذلك السيد ذا الأزرار المذهبة الذي يدخل كوخها . وخرجت من باب الكوخ فتان جميلتان لا تلبسان سوى قميص .

ونزع (نيكليندوف) قميصه عن رأسه ، ودخل الغرفة مطأطئاً ، فالطبخ حيث كانت تلبعث رائحة الطعام . كان بجانب الفرن قروية عجوز قد شمرت عن ساعديها وانصرفت تعد الطعام .

— هذا هو السيد المالك وقد جاء ليتفقد حالنا . — قال الرجل المعجوز .
— تفضل . تفضل اجلس . — هتفت المرأة المعجوز تقول بأدب وهي تسدل أكامها .

— أحببت أن أرى كيف تعيشون . — قال (نيكليندوف) .
— إن حياتنا كما تراها . يكاد الكوخ أن يتداعى لفرط القدم . وإذا سقط فقد يقضي علينا جميعنا . نحن نحيا كالملوك . — قالت المعجوز بلهجة مرحة وهي تهز رأسها . — أنا الآن أعد الغداء ، لأن من الضروري أن يأكل من يعمل .
— ماذا أعددت للغداء ؟

— ماذا أعددت ؟ لقد أعددت طبقاً فاخراً . خبز وكفاس للطبق الأول .
كفاس وخبز للطبق الثاني . — أجابت المعجوز ضاحكة فظهرت أسنانها المسوسة .

— أرجو ألا تمزحي ، وإن تطلبيني على ما أعددت لغداء اليوم .
— آه أتريد أن ترى غداءنا الريفى ؟ يا له من فضول ؟ أرى أنك تريد أن تطلع على كل شيء . لقد قلت لك أنه خبز مع الكفاس ثم قليل من الحساء مع السمك الذي جاءت به النسوة نهار أمس ، وقليل من البطاطة .
— أهذا كل شيء ؟

— وماذا تريد بعد ذلك ؟ لدينا قليل من الحليب — قالت المعجوز وهي تضحك ناظرة ناحية الباب المفتوح الذي كان قد ضاق بالأطفال والنساء اللاتي جئن يحتضن أطفالهن وقد أعجبن من أمر ذلك السيد الذي يهتم بالاطلاع على غداء القرويين .

— أقول لك يا سيدي إن حياتنا مؤلمة . — قال له الرجل المعجوز ، ثم التفت الى الجمهور المحتشد في باب الغرفة وصرخ قائلاً :
— ماذا تريدون أنتم ؟

— الى اللقاء إذن . — قال لهم (نيكليندوف) مودعاً وخرج وهو مضطرب الأفكار يشعر بخجل لا يستطيع له تعليلاً .

وأفسح له النساء والأطفال الطريق فخرج الى الشارع ليتابع طريقه الى الجبل . وتبعه طفلان حافيان ، يرتدي أطولهما قميصاً قذراً جداً ، حتى لا يعرف إذا كان لونه في الأصل أبيضاً . ويرتدي الثاني قميصاً وردي اللون بالياً .
- الى أين تريد الذهاب ؟ - قال له أكبر الطفلين .
- أريد الذهاب لبیت (مانزوتا كارينا) . - أجاب الأمير - أتعرفان بيتها ؟

فأعرب الصغير في الضحك ، ولكن الأكبر سأله جاداً :
- أي (ماترونا) تعني ؟ أمي عجوز ؟
- أجل هي عجوز .
- آه - هتف الأول . - قد تكون هذه (سيمينيك) . إن منزلها في طرف القرية الثاني . سرافقك الى هناك . هيا بنا يا (فيدكا) . ولترافق السيد .
- والحيل ؟
- لا عليها . دعها .
فوافق هذا في الحال وانطلق الثلاثة .

٦٤

كان الأمير يجد في مرافقة الصبيان متعة أكثر مما يجده في مرافقة الرجال البالغين ، ولذا أخذ يتحدث إليهما .
كان الصبي ذو القميص الوردي ... قد كف عن الضحك ، وأخذ يتحدث كالرجال البالغين .
- من هو أفقر شخص في قريبتكم ؟ - سألهما (نيكليندوف) .
- من هو الأفقر ؟ ان ميخائيل فقير و (سيمون مكاروف) فقير ، وحتى (مارفا) أيضاً شديدة الفقر .
- إن أفقر شخص هي (أنيسيا) . هي فقيرة لدرجة أنه ليس لديها عجلة صغيرة ، وهي تقيم أودها مما تستجديه .

- صحيح انه ليس لديها عجلة صغيرة ، ولكن عائلتها مؤلفة من ثلاثة أشخاص فقط . أما (مارفا) فانها تعمل خمسة .

- ولكن (أنيسيا) أرملة .

- إذا كانت (مارفا) ليست أرملة فهي منفصلة عن زوجها .

- وأين هو زوجها ؟ - قال (نيكليندوف) سائلا :

- هو في السجن . - ثم أخذ يشرح له كيفية وقوع الحادث - كان المسكين قد قطع في الصيف الماضي ، شجرتين من غابة صاحب المزرعة ولذا اقتيد الى السجن منذ ستة أشهر في حين تعيش زوجته وأولاده الثلاثة وأمه المعجوز على الاستعطاء .

- وأين هو بيت (مارفا) ؟

- ها هوذا . - أجابه الصبي ثم أشار الى بيت صغير يلعب أمامه طفل هزيل الجسم شاحب اللون .

- أين أنت يا (فاسكا) يا شيطان - صرخ صوت نسائي من داخل البيت ، ثم خرجت على أثره امرأة متهاقة لا يكسوها غير قبض قذر ، وانقضت على الطفل ، واختطفته من أمام الأمير والرعب ظاهر على وجهها ، ودخلت به الى البيت ، كأنها كانت تخشى أن يناله الغريب بسوء . كانت تلك (مارفا) زوجة الرجل السجن لقطعه شجرتين من غابة الأمير .

- هل (ماترونا) فقيرة ؟ - قال الأمير يسأله بعد برهة وجيزة .

- كيف تكون فقيرة وهي تبيع الحمر . - قال الصبي الصغير .

وصرف (نيكليندوف) الصبيين عندما اقترب من المنزل ودخله . كنت غرفة واطئة السقف ، بحيث لا يستطيع شخص طويل القامة الوقوف فيها بملء قامته . وكان في وسطها مدفأة ومن ورائها سرير .

- في هذا السرير كانت (كاترين) مريضة . - قال (نيكليندوف)

في نفسه .

كان منظر الكوخ زرياً ، وتتدل على حيطانه خيوط العنكبوت . وعندما

دخل (نيكليندوف) فاصطدم رأسه بعتبة الباب ، كانت المعجوز تعد عملاً
لكبرى بنات أختها ولنفسها أيضاً .

— عن تبحث ؟ — قالت المعجوز تسأله منذ مرة ساخطة لأن ما تعمله لم
يأت على نحو يرضيها ، فضلاً عن أنها كانت تكره دخول الغرباء الى بيتها مخافة
الوشاية بها لبيعها الحمر الممنوع بيعه .

— أنا صاحب المزرعة وأرغب في التحدث اليك .
فدهشت المعجوز واستولى عليها الوجوم ، وأقبلت تتفحص الأمير . وسرعان
ما تبدلت لهجتها ، وقالت بتودد مصطنع .

— هذا أنت يا حبيبي ؟ لم أعرفك لفرط جهالي . ظننتك بعض الغرباء
الكثيرين ...

— أريد أن أتحدث اليك على انفراد . — قال (نيكليندوف) وهو ينظر
باتجاه الباب حيث كان يقف بعض الصبية وامرأة هزيلة الجسم تحتضن طفلاً
شاحب اللون على رأسه قبعة وقد تأكلت الحمى جسمه فاشتد هزاله ، ومع
ذلك فقد كان دائم الابتسام .

— ماذا تريدون أيها الفضوليون ؟ انتظروا قليلاً لأريكم عاقبة ازعاج الناس .
أعطني هذه العصا . — صاحت المعجوز . ولما رأت أن الصبيان قد فروا ،
قالت للمرأة الهزيلة : أغلقي هذا الباب .
ففعلت المرأة ما أمرتها به .

— وأنا التي كنت أقول ترى من عساه يكون ؟ وكنت أنت يا سيدنا الطيب
الكبير المحبوب . ألا تتقزز نفسك من الدخول الى زريبتنا ؟ ما أطيبك . اجلس
هنا يا صاحب السعادة على هذا المقعد . — قالت المعجوز ذلك ومسحت المقعد
بصدارتها — وأنا التي كنت أقول ترى من هذا القادم إلينا ؟ وكنت أنت أيها
السيد المحسن إلينا ، الذي يعولنا جميعاً . ساحني انني امرأة جاهلة وأكاد أكون
عمياء .

جلس (نيكليندوف) على المقعد ، ووقفت المعجوز أمامه واضعة كف يدها

اليسرى تحت كوعها الأمين ، وذقنها على راحة كفها الثاني ، ثم مضت تواصل حديثها .

— أتدري يا صاحب السعادة انك تبدو أكبر سنًا ؟ عندما عرفتك كنت ما تزال قويًا نشيطًا ، وقد تغيرت كثيرًا . ويبدو انك لست خالي البال من منفصات الحياة .

— جئت لكي أسألك عن (كاترين ماسلوف) فهل لا تزالين تتذكرينها ؟
— (كاترين) ؟ لا شك في أنني لا أزال أتذكرها . هي ابنة أختي ، وقد كلفتني دموعًا غزيرة . أعرف تاريخ حياتها بكافة تفاصيله ... ولكن من ذا الذي لم يقترف ذنبًا ؟ لقد كنّا حدثين تتناولان الشاي معًا ، وتشربان القهوة سوية و ... ليكن ما يكون ... ما العمل ؟ ولم يكن لديك ما يمنع من تركها ، ومع ذلك فقد أعطيتها مئة روبل . تأمل كيف كانت نهايتها . يا لها من غيبة . لو أطاعت رأيي وعملت بنصحي اذن لعاشت عيشة حسنة . ولكنها لا تساوي إلا القليل ، أقول ذلك على الرغم من كونها ابنة أختي ، فالحق يجب أن يقال . لقد بحثت لها عن عمل حسن ، فلم ترض التقييد به وشتت سيدها فطردوها . ثم بعد ذلك لماذا لم تبق في منزل حارس الاحراج ؟ انها بدلاً من سلوك السبيل الحسن ، أساءت التصرف فطردت أيضاً .

— يهمني أن أعلم ما هو مصير الطفل . أظنه ولد هنا . فماذا حدث له ؟
— لقد بذلت جهدي في سبيله . كانت (كاترين) بحالة خطيرة ، وحسبتها ستموت . ولذا عمدت الطفل وبعثت به الى ... لماذا أترك بريئاً يتعذب ؟ بعضهم يدع الطفل ليموت جوعاً ... أما أنا فأبيت له ذلك . ولذا بعثت به الى الميتم .

— أتتذكرين رقمه ؟

— كنت أحمل رقمه ولكن الطفل مات بعد أيام قلائل بناء على ما قالته هي لي .

— من هي هذه ؟

— انها المرأة التي كلفتها بهذه المهمة وقد ماتت ، وكانت تدعى (ميلانيا) .
كانت قترك الأولاد عندها حتى يصبح لديها ثلاثة أو أربعة ، ترضعهم
بالرضاعات .
— بصورة كان ...
— هكذا فعلت بابت (كاترين) . لقد طال بقاءه عندها حتى مرض ومات .
— هل كان جميلا ؟
— بلا ريب . — قالت المعجوز متملقة . — وكان يشبهك تماما .
— ولكن لماذا مرض ؟ أمن نقص التغذية ؟
— هذا ما أتصوره . لقد كان أم شيء لدى هذه المرأة تسليمه حيا . لقد
أخبرتني أنه مات فور وصولهم الى موسكو وقد أعطتني شهادة الوفاة . لقد
كانت بارعة بمثل هذه الأمور . لقد كانت تجتهد في تنظيم أمورهما .
ومضى الأمير يلقي عليها السؤال تلو السؤال ، ولكن سؤالاته وتحرياته لم
تأت بأكثر من ذلك .

٦٥

عندما هم الأمير بمفادرة الكوخ ، كان قد أصيب بخيبة أمل مريرة ، إذ لم
يحصل على مزيد من المعلومات من تلك المعجوز المتملقة ، السيئة القصد . ولدى
خروجه من الكوخ اصطدم رأسه بعتبة الباب .
كان الولدان الصغيران اللذان رافقا الأمير ، وكثيرون غيرهما لا يزالون في
الشارع ، ومعها امرأتان تحتضنان طفلين ، وكذلك المرأة الهزيلة التي تحمل ذلك
الطفل الهزيل الذي يشبه وجهه وجهه عجوز ، والذي لا تفارق الابتسامة
شفتيه . فعرف (نيكليندوف) فيها بسمه الألم . وعندما سأل من تكون هذه
قيل له انها (أنيسيا) المرأة التي تحدثوا عنها . وعندئذ سألتها عما تعمل نفسها .
— بما أعول نفسي ؟ يا لتعاسي . أعول نفسي من احسان المحسنين . — قالت
ذلك وامتلأت عينها بالدموع بينما كان الطفل الصغير يحرك ساقيه الهزيلتين
كتحريك الدودة فأخرج الأمير حافظة نقوده وأعطاهما عشر روبلات . ولكنه

لم يكذب يخطو أربع خطوات ، حتى تقدمت منه امرأة تقود طفلاً ، ثم عجوز ، ثم امرأة أخرى ، وأخرى ، وكلهن يشكين له سوء حالهن ، ويتوسلن إليه أن يعد لهن يد المساعدة . غير أنه لم يكن يحمل معه سوى سبعين روبلاً وزعها عليهم ثم عاد الى البيت وقلبه طافح بالغم .

وخف المشرف لاستقباله بوجه مشرق باسم ، وأبلغه ان المزارعين سيأتون مساء ذلك اليوم .

— حسن . شكراً لك . — أجاب الأمير .

ولم يدخل المنزل ، وانما لبث بعض الوقت يطوف في ممرات الحديقة حيث كانت أشجار التفاح تظمرها بفيض من أوراق أزهارها ، مستعرضاً في مخيلته مشاهد الفقر المدقع التي رآها . يموت الشعب الذي ألف هذا الاحتضار البطيء الألم . ويموت الأطفال ، وتسقط النسوة عباء تحت وطأة الأعمال المرهقة ، التي تفوق حدود طاقتهن . ومع ذلك فالجميع ، وخصوصاً الشيوخ العجزة ، لا يحدون قوت يومهم . ولما كان الشعب قد بلغ هذه الحالة بصورة تدريجية ، بطيئة ، ولا شعورية ، بحيث لم يتبين معها سوء حاله ، فقد ظنها الأغنياء أمراً طبيعياً لا يمكن أن يكون بصورة أخرى .

وبدت تلك الحقائق المؤلة لعيني (نيكليندوف) من الوضوح والجلاء بحيث أخذ يتساءل مدهوشاً كيف لم يلاحظها الآخرون حتى الآن ، وكيف ظلت طوال هذه المدة خافية عليه ، وكيف لم يدرك انه إذا كان الشيوخ والأطفال يسقطون عباء وجوعاً فلأن الأرض لم تثبت ما يشبع الماشية ، ولأنها عجزت عن انتاج الكفاية من الحبوب والأسمدة ، فقامت في ذهنه فكرة متهوسة لشروع جريء وهي تأجير الأرض للمزارعين مقابل بدل زهيد يكون من حصيلة رأسمال يحتفظ به لصالح المزارعين أنفسهم يستعملونه لدفع الضرائب ، وللأعمال المشتركة المنفعة بينهم . وحتى هذا ليس بالحل النهائي الصحيح للمشكلة ، ولكنه بداية الطريق اليه . وهو الآن مقدم على تنازله عن الملكية الفردية للأموال غير المنقولة .

وفور عودته الى البيت استقبله المشرف بشوشاً كمعادته ، ودعاه الى غرفة الطعام حيث أعد له الغداء ، معتذراً ، ومبدياً تخوفه من أن يكون الطعام الذي أعدته زوجته وابنتها مما لا يرضي ذوقه .

كان يغطي الطاولة غطاء سميك ، فوقه مناشف مطرزة الحواشي لتحل محل فوط المائدة ، وقدر قديم يحتوي على نوع من الطعام هو مزيج من لحم الدجاج والبطاطة . وقد يكون هذا لحم الديك الذي رآه في الصباح يعتمز بعمره ، ونوع آخر من الطعام مصحوب بلحم الدجاج ، وعجة مجللة بالجبن والسمن والسكر ، وآخر . وبوجه الاجال فقد كانت وجبة قليلا ما تتشاهما النفس . ولكن (نيكليندوف) لم يلق بالآلما أكله إذ كان منصرف الفكر لما هو مقدم على القيام به . وكانت الكتابة التي لازمتها في أعقاب عودته من القرية قد زابلت .

كانت زوجة المشرف لا تنفك تطل عليهم من الباب باستمرار ، في حين كانت ابنتها شبيهة بالمرعوبة وهي تنقل أطباق الطعام . وكان رب البيت دائم الابتسام ، راضي النفس ، فخوراً من براعة زوجته . وعندما رفعت المائدة دعى (نيكليندوف) وكيله وأجلسه بجانبه وأخذ يشرح له المشروع الذي ينوي وضعه موضع التنفيذ ، طالباً اليه رأيه . وكان هذا ، وهو ما زال يبتسم ، يعلن موافقته مسروراً لهما ، ولكن الحقيقة كانت غير ذلك ، فهو لم يفقه شيئاً مما شرحه له ، ولم يكن هذا عن قصور أو عجز في التعبير من جانب الأمير ، وإنما لأن الفكرة التي جاء بها هذا تناقض نظريته حول الملكية للدرجة انه عندما قال له الأمير انه سيتنازل عن كل شيء ، وان ما ينتج من بدل أجار الأرض سيكون منه رأسمال يحتفظ به لصالح المزارعين أنفسهم يستعملونه لحاجاتهم ، عندما قال له الأمير ذلك حسب انه قد أساء الفهم . فقال بلهجة الظافر .

— لقد فهمت الآن . ستتقاضى سموك الفوائد .

— كلا . تمنع فيما أقوله جيداً . سأتنازل لهم عن الأرض كلياً .

— وتبقى بدون دخل البتة ؟ — سأله المشرف وقد زايله الابتسام .

— هذا بالضبط . سأتنازل عن كل دخل .

فصعد المشرف زفرة عميقة ، ثم عاد الى الابتسام وراح يفكر في مصلحته وكيفية الاستفادة في المستقبل ، وعندما تأكد من استحالة ذلك عليه استولى عليه الحزن والغم الشديد ، ولكنه على رغم ذلك عاوده الابتسام مسوقاً بطبعه الخنوع .

وإذ أدرك (نيكليندوف) ان وكيله كان في شغل عنه ولم يكن يصني اليه ، قام من مكانه وجلس الى طاولة صغيرة ملطخة بالخبر وشرع في وضع مشروعه .

كانت الشمس قد أخذت تتوارى خلف أشجار البيلسان ، والذباب المتسرب ارجالاً من النافذة قد بدأ يلاحقه بلسعاته ، ويسمع صوت نوافذ وأبواب تفتح وتغلق ، ولغظ رجال يتحدثون بأصوات عالية دفعة واحدة ، فهب (نيكليندوف) من مقعده ، وتناول قدح الشاي الذي قدمته له زوجة المشرف ومضى للملاقة المزارعين الذين كانوا قد تجمعوا عند مدخل القرية .

٦٦

كان لفظ المزارعين المحتشدين أمام باب الجابي شديداً وحاداً ، ولكنهم ما ان ابصروا الأمير قادماً نحوهم حتى نزعوا قبعاتهم عن رؤوسهم ، وهدأ الضجيج وساد السكون .

كان هؤلاء المزارعون اجمالاً أشد فقراً من سكان (كوسمينسكوجي) . فكانوا يتحدثون الخشب وبعضهم كان بمشي حافياً . وقصانهم ممزقة ، وبعضهم كان قد عاد لتوه من العمل .

وشرع (نيكليندوف) يتحدث اليهم عن مشروعه ، بعد مجهود كبير قام به للتغلب على خجله ، وصرح لهم برغبته في التنازل لصالحهم عن كل ما يملكه ، ولكنه لم يلاحظ منهم أي بادرة رد فعل حسن لديهم .

— أنا أعتقد ان لكل فرد حق فيما تنتجه الأرض . — قال وقد احمر وجهه خجلاً .

— هذا هو . هكذا يجب أن يكون . — أجاب الجميع بصوت واحد .
ومضى (نيكليندوف) متابعاً كلامه قائلاً : ان خيرات الأرض للجميع .
ولذا قررت أن أتنازل لكم عنها بأجر تعينونه انتم . ومن هذا الأجر يتكون رأسمال تستغلونه لصالحكم .

كان كلامه موضع استحسان الجميع . ولكن تعبيرات وجوههم القاسية كانت أقوى دليل على تخوفهم وشدة حذرهم وكأن لسان حالهم يقول : سوف لن نقع في الفخ . ومع هذا فلم يكتفوا يرغبون في احراج الأمير ، فقد كانوا لا يرفعون أنظارهم اليه .

كان حديث (نيكليندوب) من الوضوح بحيث لا يسدح مجالاً للبس أو ابهام . وكان بين المزارعين غير واحد ممن يحسنون الفهم ، ومع ذلك فان أحداً منهم لم يبد عليه انه فهم شيئاً مما عرضه لهم ذلك لأنه كان فوق مقدورهم ان يتصوروا ان رجلاً يبلغ من الطيبة والانسانية درجة تجريد نفسه من سائر ما يملك لصالح الغير يمثل هذه السرعة والسهولة دون أن يكون في الزوايا خفايا .

— أي أجر نضع للأرض ؟ — قال لهم (نيكليندوف) .
— ليس أمر ذلك عائد إلينا . أنت صاحب الأرض . والحق لسموك في تعيين البدل . — قال الجميع .

— بما ان ما سيعين أجراء للأرض سيعود لكم في النهاية فأنتم الذين ينبغي أن تعينوا البدل لصالح جميعكم .

— الجمعية شيء والعمل شيء آخر .
— اصغوا جيداً وانتبهوا . — قال المشرف متدخلاً : — أن الأمير يتنازل لكم عن الأرض مقابل أجر تدفعونه عنها ، ومن هذا الأجر يصبح لديكم رأسمال تستخدمونه لمصلحتكم .

— أجل . أجل . لقد فهمنا . — أجاب عجوز أدرد مستاء دون أن يرفع

نظره عن الأرض . - هو نوع من المصارف وعلينا أن ندفع في أوقات معينة ... ولذا نحن لا نقبل . ان أحوالنا في غاية السوء ، وسيكون ذلك خراباً للجميع .

فارتفعت من بينهم صيحات استياء وتكاد تكون صرخات غضب .
- كلا . كلا . خير لنا أن تبقى كما كنا حتى اليوم .

وعندما أوضح لهم (نيكليندوف) المشروع من جديد وأفهمهم ان اتفاقاً سينظم يكون هو أول الموقعين عليه ارتفعت الأصوات بالاحتجاج .

- وما حاجتنا لذلك ؟ لقد عملنا حتى الآن ، وسنواصل العمل كما كنا . ولماذا هذه التوقيعات ؟ نحن جهلاء .

- كلا . كلا . لن نقبل بذلك . لم نتعوده . إذا شئت عمل شيء لصالحنا « فأعفنا من البذار » .

وكان هذا يعني ان يقدم المالك في المستقبل بتقديم البذار للزراعة المقبلة .
- ألا تريدون ؟ ألا ترغبون في الأرض ؟ - قال (نيكليندوف) يسأل قروياً شاباً كان يقف أمامه حافي القدمين ، مشرق الوجه ، وقبعته في يده شاة الجندي الذي يقف أمام رئيسه .

- كلا يا سيدي .

- هذا يعني انكم غير محتاجين لشيء وان لديكم كفايتكم .

- كلا يا سيدي . - أجاب الجندي بمرح ، وهو ممسك قبعته بيده كمن يريد تقديمها لمن يطلبها .

- فكروا في الأمر . - قال لهم الأمير ثم شرع يشرح لهم المشروع من جديد .

- لسنا بحاجة للتفكير . هذا لا يوافقنا . - أجاب المعجوز الأدرد بلهجة جافة .

- حسن . سأبقى في (بانوفو) طيلة نهار الغد ، فاذا عن لكم وغيرتم رأيكم فليبلغه لي أحدكم .

فصت الجميع ولم يحيروا جواباً . وهكذا عاد (نيكليندوف) الى المنزل دون أن يبت بشيء ما .

— أحب ان أطلعك على شيء يا سيدي . — قال المشرف بلهجة التأكيد . — انك لن تصل معهم الى نتيجة مرضية ، فهم عنيدون وعديمو الثقة ، وسيئو الظن . عندما يأتي أحدهم منفرداً فأدخله البيت وأقدم له المقعد والشاي يبدو كالوزير ويصبح معقولاً يعقل الأمور . ولكنهم عندما يجتمعون يصبحون عاجزين عن أي شيء صالح ...

— وهل بالإمكان استدعاء بعضهم الى هنا ؟ أذكاهم . — سأشرح لهم المشروع بكافة تفاصيله .

— سأعمل على ذلك . — قال المشرف .

— فليأت بعضهم غداً .

— سأفعل ما طلبت .

ومن جديد عاد المشرف الى الابتسام عندما رأى امرأتين تفتريان من الباب . فخرج للقاءهما وأشار لهما أن يتبعاه ثم انتحى بهما ناحية خلف البيت ، تاركاً (نيكليندوف) يفكر بمشروعه ويقتل الذباب عن اليمين والشمال .

وأخرجت الأمير من تأملاته صيحة امرأة مغبطة ، بينما كان المشرف يجيبها بهدوء . فأصاخ الأمير بسمعه فتبين الحوار التالي :

— ماذا تريد ؟ لقد اضحلت قواي ، وتريد الآن أن تقضي علي تماماً .

— كان يقول صوت نسائي بحدة مطردة .

— لقد أغفلتها برهة وجيزة . — كانت المرأة الثانية تقول . — أؤسل اليك

أن تعيدها لي . أي سرور تجده في تعذيب هذا الحيوان ؟ أضف الى ذلك سيبقى أطفالي بدون حليب .

— أخير كم بين الدفع نقدأ وبين مقابلة عملا . — كان المشرف يقول .

فاقترب (نيكليندوف) منهم . كانت المرأتان تقفان بجانب الباب

منفوشي الشعر ، واحدهما كانت حاملاً . وعندما ابصرتا الأمير اصلحتا غطاء

رأسبها الذي كان مائلا . وابتسم المشرف . كان الأمر غاية في البساطة . كانت المرأة قد تركنا دوابها ترعيان في حقل المالك فاحتجزها المشرف وهو الآن يطلب منها غرامة قدرها ثلاثون روبلا .
— لقد تعبت من القول لهما ان تراقبا الدواب عندما تطلقانها لترعى قرب الحقل .

— ذهبت أفترق ولدي فهربت البقرات .

— كان ينبغي ألا تفارقها .

— ومن يعني بولدي ؟

— لو انها رعت الكثير من العشب إذن لكان للعمل مبرر . — قالت المرأة الأخرى . — ولكذك احتجزتها فور دخولها الحقل كما تعلم .

— لقد أفسدوا العشب . وإذا تسامحنا معهم فسوف لن يبقى لدينا من التبن ما نطعم به حيواناتنا . — أجاب المشرف موجهاً الكلام للأمير .

— لا تكذب ، فالكذب حرام . — أجابت المرأة الثانية : — لم تدخل دوابي حقولك أبداً .

— حسن . الآن وقد ضبطتها بالجرم المشهود ، فادفعني مالا أو فأعمني مقابل ذلك .

— سأعمل فاطلق سراح الحيوانات . — أجابت المرأة بحدة — ليس لدي وقت ارتاح فيه . ان حماتي مريضة ، وزوجي سكير ، والعبء يقع علي وحدي حتى وهت قواي . انبجعي الآن وانت تعملين لهذا . ثم شرعت تبكي . فأمر الأمير باخلاء سبيل الدواب ودخل الى البيت ممتلئاً غماً . وكان في كل مرة يزداد دهشة كيف لا يرى الآخرون ما هو واضح وجلي .

— هل سمعت ؟ يا له من محب لحير القريب . — كان شاب قروي يمتطي فرساً سميناً يقول لرفيق له عجوز يركب جواداً آخر ، وهما يسوقان جيادهما ليلسا لترعى خلصة في حقول صاحب المزرعة .

— انظر كيف تنمو الأعشاب . — أجاب الآخر — ينبغي أن تأتي النساء فتحصد الكثيف منها ، وإلا فالويل لنا منهن .

— يطلب منا أن نوقع له . — قال الشاب وهو يعني الأمير — وعندما نضع تواقيعنا سيأكلك حياً .

— هذا مما لا شك فيه . — قال الآخر مؤكداً .

وأعقب ذلك فترة صمت لم يكن يسمع خلالها سوى وقع حوافر الجياد على التربة القاسية .

— أتنازل لك عن الأرض مجاناً ، على أن توقع لي هنا لا غير — أضاف الآخر — لقد أهلكونا . ولكن ذلك لن يتكرر الآن . لقد أصبحنا ندرك شيئاً . — ثم التفت إلى الورااء يتفقد مهرأ كان يجب أن يتبعه وأخذ يناديه باسمه (كونياسك ، كونياسك) ولكن المهر كان قد دخل إلى الحقل المبلل بندى الليل . وأخذ يصهل بين الاعشاب .

— خذ . لقد أصبح في حقل المالك . هو يعرف ما يوافقه فقد اعتاد ذلك .

٦٧

عندما عاد الأمير إلى البيت رأى أنهم قد أعدوا له في المكتب سريراً عالياً عليه حشية من الريش ومخدتان وثيقتان ولحاف مطرز بالحرير . فعرض عليه المشرف بعض المشروبات الروحية ولكنه أبى تناولها فخرج المشرف وتركه وحده .

لم يعكر رفض القرويين صفو الأمير ، وظل هادئاً مطمئناً حتى عندما أظهروا له سوء الظن به والاستعداد للعنف معه على عكس ما أظهره مزارعو (كوسمينسكوجي) الذين قبلوا عروضه شاكرين .

كان الحر شديداً في تلك الغرفة شبه القذرة ، ولذا خرج الأمير إلى الرواق بغية الطواف بين أشجار الحديقة . ولكن شبح أيامه الماضية ، وعلى الأخص ، تلك الليلة المشؤومة سرعان ما تمثل أمام بصيرته ، ولم يطق ، بل أبى أن يطوف في تلك الأماكن التي تحتفظ بذكرى جريمته . ولذا فقد جلس على عتبة البيت يستنشق النسمات البلية ، محدقاً في الظلال الكثيفة التي تملأ الحديقة ، حيث كان

يسمع صوت الهزارات وصفير طائر يختبئ بين اغصان شجرة عند الباب الخارجي .

وأشرق القمر ، وراح ينير بنوره ، شيئاً فشيئاً ، الحديقة المنورة ، والمنزل الذي كان مظهره يذكر بالخرائب . ودوى من بعيد هزيم الرعد ، وارتفعت غيمة سوداء فغطت ثلثي السماء ، ووجهت العصافير بغتة ، وارتفعت اصوات الأوز عبر الطاحون ، وصاحت الديكة يحاوب بعضها بعضاً .

هناك مثل روسي يقول : اذا صاحت الديكة بين غروب الشمس وقبل حلول الظلام فذلك يشير بليلة هادئة .

وكانت تلك الليلة أكثر من هادئة بالنسبة (لنيكليندوف) . كانت فوق ذلك مرحلة هنيئة ، اذ استيقظت في نفسه ذكريات ذلك الصيف الحبة الذي قضاه في تلك الأماكن عندما كان لا يزال فتياً و بريئاً . لقد عاودته أكثر من الذكرى . عاودته فتوته الأولى عندما لم يكن يتجاوز الرابعة عشرة من عمره ، وعندما كان دائم الصلاة لله والتوسل اليه ليكشف له عن الحقيقة . وعندما كان ، وهو على ركبتي أمه ، يبكي ويقول لها ، قبل ان يغادرها ، انه سوف يسير سيرة صالحة ، وأنه لن يسبب لها غماً . كان يحس نفسه وكأنه على مثل تلك الحالة النفسية التي كان عليها عندما تعاهد مع رفيقه (نيقولا أرتينيف) على أن يعيشا عيش الأشراف ، وأن يتبادلا العون والمساعدة ، وان يعملوا على اسعاد حياة الغير ...

وفجأة تذكر انه في (كوسمينسكوجي) كان متردداً ازاء تنازله عن بيته ، واحراجة ، وأراضيه . فتساءل عما اذا كان يسره ان يفقد كل شيء ، فكانت الجواب ، كلا . أما الآن فهو على العكس يرى من المستحيل عليه التردد او التراجع . وعادته ذكرى حوادث يومه . تذكر منزل القروي الفقير ومنزل (ماترونا كارينا) التي كانت ترى ان من واجب بنات طبقتها أن يسلن أنفسهن لصاحب الملك . وتذكر ذلك الطفل الصغير ذا الطاقة ، الذي كان يضمحل ويتلاشى لنقص التغذية . وتلك المرأة الحبلى ، المنهوكة القوى التي يحاول مشرفه

تشغيلها فوق ما هي عليه من الاجهاد لأنها لم تراقب حيواناتها مراقبة كافية ...
كان القمر يسطع بكامل بهائه باهراً ويكاد يكون بدرأ ، غامراً الحديدية
بنوره ، وناشراً في ارجائها ظلالاً كثيفة تمتد الى جانب أنواره التي يتلمع تحتها
سطح المنزل الحديدي وانطلقت أصوات طيور الهزار ترسل أنغامها البلورية عبر
الفضاء كأنها تحيي النور ، بعد ان كانت قد صمتت فترة من الوقت .

تذكر (نيكليندوف) انه في (كوسمينسكوجي) كان مختاراً لا يدري
كيف يتغلب على الصعاب التي كانت تعترض سبيله في السير على النمط الذي
اختاره لسلوكه المقبل في الحياة . أما الآن فهو يرى كل شيء سهلاً ، لم يكن
يفكر في عواقب المشروع ، وانما كان جل همه محصوراً فيما يجب عليه عمله . لم
يكن يحسب حساباً لما قد يحدث له ، وانما كان يفكر في ما ينبغي عليه صنعه
لصالح الآخرين . لقد أصبح الآن يرى من المستحيل الا يوزع أراضيهم بين
المزارعين ، وانه لا يستطيع التخلي عن (كاترين) ، وأنه يتوجب عليه حمايتها ،
والتكفير عن زلته معها . واتضح له ان من الضروري ان يدرس بامعان كل ما له
صلة بالحاكم والسجون والمعقوبات التي رأى فيها تفاصيل تخفى على الكثيرين . كان
يجهل ما يسفر عنه كل ذلك . ولكنه كان يراه واجباً عليه .

كانت الغمامة السوداء تزداد اتساعاً في رقعة السماء ، ويزداد لونها قتوماً .
وكان البرق الذي كاد يكون متواصلاً ، يضيء بنوره الباهت البيت الكبير
وأبوابه المخلمة ، ويتلوه هزيم الرعد . فمادت الطيور الى وجومها ، وما لبثت
ان اهتزت اغصان الاشجار واضطربت عندما عصفت بها الريح ، وبلغت عصفه
شديدة حيث كان يجلس (نيكليندوف) . ثم سقطت قطرة كبيرة من الماء
تبعتها اخرى ثم اخرى فأخريات ، فكان يسمع صوت وقعها على السطح .
وفجأة بدا وكان السماء قد التهبت عندما أومض برق شديد أعقبته لحظة سكون
جد قصيرة . وقبل ان يتمكن (نيكليندوف) من أن يرفع رأسه صك سمعه
هزيم رعد قاصف ثم أخذ صدها يتجاوب منتشراً في شتى الاتجاهات .
فدخل الأمير الغرفة ، وهو يردد في سره .

— أجل . إنه ليستحيل إدراك أسرار الحياة وتفهم مغزاها . لماذا وجدت خالتاي العجوزان ؟ ولماذا مات (نيقولا ارتينيف) ولماذا عرفت (كاترين)؟ ... كذلك استعصى عليه إدراك جنونه في حياته الشاذة التي كان يحياها . ولكنه اذا تعذر عليه تبين حكمة الله في خلقه ، فبوسعه على الأقل تحقيق المشيئة الإلهية التي أودعها الخالق تعالى في ضميره كإنسان . كان المطر يتساقط مدراراً ، وكان البرق ما زال متتابعاً ينير الأكوان . فخلع (نيكليندوف) ثيابه واستلقى على الفراش الذي كان يخشى أن يكون مليئاً بالحشرات كما يستدل من منظر الغرفة . وكان يحدث نفسه مغتبطاً بقوله : شعور المرء بأنه عبد أفضل من شعوره بأنه سيد .

ولم يكذب طفء المصباح ويستلقي في فراشه حتى تحققت مخاوفه من وجود الحشرات في سريره التي هاجته بعنف . — سأتنازل عن الأرض ، وسأذهب الى سيبيريا ... سأحمل شظف العيش وأقذار الحياة إذا اقتضى الأمر ذلك ... — هكذا كان يردد في سره . ولكنه على رغم ذلك الاستعداد الطيب فإنه لم يطق صبراً عليها فهب من فراشه ووقف أمام النافذة شاخصاً ببصره الى السماء .

٦٨

لم تغمض للأمير عين طيلة الليل وحتى مطلع الفجر . ولذا أفاق من نومه في ساعة متأخرة من صباح اليوم التالي . وجاء قبيل الظهر سبعة من المزارعين ، كانوا ، على حد قول المشرف ، أذكى أهل القرية جميعاً . وجلسوا على مقاعد متباعدة ، متعلقين حول طاولة صغيرة تحت أشجار التفاح . وقد بذل الأمير مجهوداً كبيراً لإقناعهم بالجلوس وارتداء قبعاتهم وخصوصاً الجندي السابق الذي كان قد ارتدى لهذه المناسبة الهامة جوارب جديدة وقبقيباً جديداً أيضاً . غير أنهم لما رضى بالجلوس عجوز

جاء الملامح أجمع اللحية كبيرها كلحية (موسى) بريشة (ميكال انجلو) ، ووضع قبعته الواسعة على جبهته التي لوحتها الشمس هذا الجميع حذوه . وجلس (نيكليندوف) أمامهم متكئاً بكوعيه على الطاولة الصغيرة ، وأخذ يشرح لهم مشروعه بشكل مفصل . وكان في حديثه أكثر ثقة من نفسه واطمئناناً ، وقد يكون ذلك لأنهم كانوا قلة ، أو لأنه كان أقل انتباهاً لنفسه . وعلى غير تعمد كان يوجه كلامه بصورة خاصة للمعجوز ذي اللحية الكبيرة الغبراء متوقفاً أن تبدر منه بادرة تدل على موافقة أو معارضة ، ولكن خاب ما كان يتوقع فانه على رغم احناء رأسه كرأس البطريق ، وانه كان يزوي ما بين عينيه عندما كان أحدهم يقاطع الأمير ، فان كلمة واحدة لم يقو على فهمها ما لم تنقل له باللهجة التي يفهمها . وكان أكثرهم تفهماً لحديثه عجوز يكاد يكون أجرداً وإحدى عينيه حواء ، الذي كان يبدو من تقويس حاجبيه أنه يبذل جهداً في تفهم كلام الأمير . كذلك كان ثمة عجوز قصير القامة ، قوي البنية ، أبيض الشعر واللحية متوقد النظرات ذكيها ، سريع الفهم لما يقول الأمير ، ويفتم المناسبات ليعلق على كلامه مازحاً ، مقتبلاً لبراعته دون ريب . ولكن كانت أكثر الجميع مناقشة للاتفاقية ، وبصورة جدية ، قروي طويل القامة قصير اللحية طويل الأنف يرتدي بزة خاطها منزلياً ، ويحتذي قبقاباً جديداً . كان سريع الفهم ، يقاطع عندما يرى حاجة للمقاطعة . أما الآخران ، المعجوز الأدرد والجندي السابق فكانا يصغيان بانتباه دون أن يفوها بكلمة واحدة .

وأخذ (نيكليندوف) يشرح لهم نظريته حول الملكية قائلا :

— يجب أن يمنع بيع الأرض وشراؤها ، وإلا فسرعان ما يستولي الأغنياء عليها جميعها ، وعندئذ يفعلون كغيرهم ما يطيب لهم لحقهم على الأرض . ثم أضاف مردداً أحد تعابير (سبنسر) وهو قوله : ليس بمعجيب أو مستغرب أن يضعوا ضريبة للسماح بالوقوف عليها .

— عندئذ لن يبقى من سبيل للتخلص من تلك الضريبة غير صنع جناحين لركوب الهواء . — قال المعجوز الساخر .

- هذه هي الوسيلة الوحيدة . — قال ذو الأنف الطويل .
- هذا هو الصحيح . — قال الجندي السابق .
- فقال البطريق . يسجنون امرأة لأن بقرتها رعت قليلاً من العشب .
- إذا كان لأحد قطعة أرض ، وكانت تبعد عنه مسافة خمسة أميال مثلاً ، وأراد استئجار غيرها ، فلن يستطيع ذلك لغلاء الأجور . — قال المعجوز الأورد محتداً .
- بما انني أعرف ذلك ، لذا جئت أتنازل لكم عن الأرض . — أجاب (نيكليندوف) .
- ولم لا ؟ انه عمل رائع . — قال البطريق .
- لقد قدمت (بانوفو) خصيصاً لهذه الغاية . للتنازل لكم عن الأرض . والآن علينا ان نعين الطريقة التي سنتبعها لتحقيقاً لذلك .
- تنازل لنا عنها ، ولا تحسب حساباً لغير ذلك . — قال المعجوز الأورد .
- فاستولى الخجل على الأمير لما تتضمنه تلك الكلمات من شك في نواياه ، ولكنه سرعان ما تقلب عليه ، مستغلاً تلك الملاحظة ليشرح مشروعه من جديد .
- يسرني كثيراً أن أتنازل لكم عن الأرض . ولكن بأي شكل ؟ وإلى من من المزارعين العديدين المحتاجين ؟ ولماذا نوزعها لأبناء هذه القرية وليس (لدينسكوي) القرية المعذمة .
- فلم يجبه أحد ، إلا الجندي السابق الذي غمغم قائلاً :
- هذا صحيح .
- والآن أوضحوا لي كيف ستفعلون إذا ما تنازلت لكم عنها بدون قيد أو شرط ؟ — أجاب الأمير .
- ماذا سنصنع بها ؟ ... سننقسمها فيما بين الجميع بأجزاء متساوية .
- قال المعجوز الذي كان يقوس حاجبيه .
- بلى هكذا سنفعل . — أجاب أحد الشيوخ .

— ما تفهم بكلمة ستنقاسمها فيما بين الجميع ؟ — أجابه (نيكليندوف) .
— هل يدخل في عداد هذا « الجميع » سائر أولئك الذين يعملون لحساب المالك ؟
وهل تشركونهم في هذا التوزيع ؟
— كلا . مطلقاً . — قال الجندي السابق متوسّلاً أن يسبغ على جوابه
مسحة من المرح .

فتدخل القروي الطويل القامة النشيط معلناً معارضته لهذا الرأي .
— ما دامت ستوزع فمن العدل أن تكون للجميع . — أجاب بصوت
ثابت .

— هذا غير ممكن . — أجاب (نيكليندوف) إذ كان قد أعد دفاعه
كإيلي :

— إذا وزعنا الأراضي على الجميع وبالتساوي فإن من لا يستغلونها بأيديهم
سيبيعونها من الأغنياء فيصبح لدى هؤلاء مساحات واسعة من الأراضي . كذلك
فإن بعضكم ستنكأ عائلته فتصبح أرضه غير كافية له وعندئذ يبتاعها الأغنياء
لحاجتهم إليها .

فأسرع الجندي السابق بالإجابة قائلاً : هذا صحيح .
— يكفي أن يمنع بيع الأراضي ، واعطاءها لمن يستغلها بيده لا غير .
— قال ذو الحواجب مقاطعاً .

غير أنه كان لا يزال لدى (نيكليندوف) اعتراض آخر على هذا الجواب
وهو : كيف يمكن تعيين من يعمل لحسابه ومن يعمل لحساب الغير ؟
وعندئذ تدخل القروي الطويل الذي برهن عن براعة فاقترح أن تستغل
الأرض بصورة مشتركة .

— من يعمل فسيكون له نصيب من خيرات الأرض ، ولكن من لا يريد أن
يعمل فلن يكون له شيء . — أجاب بصوته الثابت .

فاعترض (نيكليندوف) على هذه الطريقة ، قائلاً : إن العدالة تقضي ،
في مثل هذه الحالة ، أن يكون لدى الجميع آلات زراعية وجياد تتساوى في

العدد والشمس كيلا تختلف الوضعيات أو أن تكون الجياد والأدوات الزراعية بكاملها ملكاً للجميع ، ولكي يتحقق ذلك فلا بد من أن يظل الجميع على وفاق ووثام .

— إذا كان لا بد من هذا فأؤكد لك أننا لن نتفق أبداً . — قال الشيخ الأدرد .

— سينشب الخلاف الى ما لا نهاية . — قال ذو اللحية البيضاء والعينين الذكيتين .

— ستشاجر النساء في كل يوم .

— لقد عن لي اعتراض جديد . — قال (نيكليندوف) . — بأي حق يأخذ أحدكم أرضاً خصبة ، في حين يأخذ آخر أرضاً مجدبة ؟

— سنقسم الأراضي بالتساوي . — أجاب أحد الشيوخ .

ولكن (نيكليندوف) أبان لهم أن الصعوبة الكبرى ليست في توزيع الأراضي بين أبناء القرية الواحدة ، وإنما بين أبناء الولاية كلها . وعندئذ سيطلب كل واحد خيرة الأراضي .

— هذا صحيح . — أجاب الجندي السابق .

أما الباقون فلبثوا صامتين .

— ان القضية ليست سهلة كما تبدو ولأول وهلة . — أضاف (نيكليندوف) .
لسنا الوحيدين الذين فكروا في هذا الموضوع ، فقد قتله الكثيرون بحثاً وتديقاً ، وفي عداد باحثيه أحد أبناء أميركا الشمالية يدعى (جورج) ، انني أشار بالطريقة التي سأشرحها لكم لأنني من الآخذين برأيه .

— وما حاجتنا لذلك ؟ — قال العجوز الأدرد مقاطعاً . — أنت هو المالك ، وسنعمل بما تراه .

فأحدثت هذه المقاطعة ارتباكاً (لنيكليندوف) ، غير انه تبين بارتياح أن الباقين لم يكونوا موافقين عليها .

فقال العامل الذي كان أكثر تعقلاً .

— مهلاً يا عم (سيمون) . دعه يتكلم .
فأخذ (نيكليندوف) يشرح لهم نظرية (هنريش جورج) حول ملكية الأرض . وكان أول ما قاله :
— الأرض ليست ملكاً لأحد . وإنما هي ملك الله .

الأرض مشاع بين الناس وللجميع حقوق متساوية عليها ولكن من الأراضي ما هو خصب ومنها ما هو سبب . وطبيعي أن يتطلب الجميع أجودها . فكيف تسوى هذه الفوارق ؟ في مثل هذه الحالة يتوجب على من يريد قطعة أرض خصبة أن يدفع ثمنها العادل لمن يملكها . ولكن لما كان من المعقد والصعب تعيين ثمنها ، وتعيين المصدر الذي يأخذه ، وكذلك لما كان لا بد من الاحتفاظ بقدر من المال تحوطاً للنفقات العامة ، لذا ينبغي ان تسوى الأمور بشكل يكون على من يستغل أرضاً أن يدفع بدلها للصندوق العام كي ينفق منه على الحاجات العامة . وبهذه الطريقة يستفيد الجميع . من يريد أرضاً فعليه أن يدفع قدرأ معيناً يتناسب وجودة الأرض ، ومن لا يريد فلن يدفع شيئاً . وأما الذين لديهم أراضي فسيساهمون بالحاجات العامة حتى فيما يخصك أنت .

— هذا شيء حسن . — قال ذو الحواجب موافقاً . — من يحتفظ بالأرض الجيدة فعليه أن يدفع قدرأ أكبر .

— يا لهذا الأمير كي (جورج) من عبقرى . — قال المعجوز ذو اللحية الجعداء .

— المهم ان لا يكون الثمن أكثر مما نطبق . — قال القروي الطويل ظاناً ان الأمير قد انتهى من إيضاح مشروعه .

— يجب ألا يكون السعر أعلى أو أقل ، إذ لو ارتفعت أسعار الأرض فلن يقدم على شرائها إلا القليل لتعذر دفع الثمن ، وإذا هبطت أسعارها فسرعان ما يتداولون بيعها ويتخذون منها سلعة للتجارة . هذا مشروعي الذي وضعته لمصلحتكم .

— انه لعادل وحسن فلماذا لا نوافق عليه ؟ — صاحوا بأجمعهم لأنهم فهموا ما قاله لهم فارتاحوا له .

— ما أروع هذا التفكير . — كان يردد ذو اللحية الجمعاء .
— ما أعظم عبقرية (جورج) .
— وإذا أردت أنا الاحتفاظ بقطعة أرض ؟ — قال المشرف وهو يتسم
كمادته .

— إذا بقي شيء فاحتفظ به واستثمره . — قال الأمير .
— أنت ؟ وما حاجتك لها ؟ ألسنت فأكل جيداً دون أن تعمل في الأرض ؟
وهكذا انتهت المناقشة .

وكرر (نيكليندوف) على مسامعهم الخطوط الأساسية لمشروعه ، وقال
لهم انه لا يطلب منهم جواباً عاجلاً ، ورجاهم ألا يبتوا في شيء قبل بحثه مع
سائر رفاقهم والحصول على موافقتهم عليه . فوعده بذلك وخرجوا من عنده
وهم متحمسون للفكرة وظلت أصواتهم تسمع مدة غير قصيرة مبتعدة شيئاً
فشيئاً ، تحملها نسيات المساء الندية .

لم يبق أحد من المزارعين بعمل طيلة اليوم التالي ، وقضوا النهار في مناقشة
عروض سيدهم . وانقسم سكان القرية الى قسمين يقول أحدهما بأن لا خطر البتة
من مشروع الأمير ، في حين كان الآخر يرى فيه خبيثة يخشاها لأنه لا يدرك
كنها . وفي اليوم الثالث جاءوا جميعهم لإعلان قبولهم بمشروع الأمير
وموافقتهم عليه .

وكان الفضل الأكبر في اقناعهم يعود الى حد كبير لاحدى المعجائز إذ
فسرت لهم الأسباب الرئيسية الخفية التي حفزت الأمير على هذا التنازل وعلتها
كما يلي :

لقد أخذ الأمير (نيكليندوف) يفكر في انقاذ روحه ولذا عمد الى هذه
الوسيلة ، وأيدت رأيها بالمبلغ الضخم الذي تصدق به على الفقراء والمتسولين
أثناء وجوده في (بانوفو) .

كانت تلك هي المرة الأولى التي يشاهد فيها (نيكليندوف) الفقر بكافة
ويلاته ومآسيه ، ولأول مرة تتكشف أمام ناظره قسوة الحياة التي يحياها

أولئك القرويون ، ويتبين الحرمان الذي يلاقونه ، ولذا فانه لم يقو ، وقد أثارته مشاهد البؤس والمرض ، وحركت عاطفة الشفقة والمرثية في نفسه ، إلا أن يتصدق على الفقراء والمعوزين من المال الوفير الذي جاءه من بيع غابات (كوسمينسكوجي) ، والعربون الذي أخذه عن بيع الخزون في الاهراء ، على الرغم من اقتناعه بأن مثل ذلك العمل أمر غير منطقي .

وبما أن أخبار الهبات التي منحها الأمير للفقراء قد انتشرت في القرية ، وتسامع بين الناس انه يمدد المساعدة لكل طالب فقد تقاطرت اليه جموع النساء من شتى الجهات يستجدينه ويطلبن احسانه . وكان لا يدري لمن يهب ، ولا كم يهب ، غير انه كان يرى انه ما دام المال متوفراً لديه فليس بوسعهُ أن يصم أذنيه عن نداء أولئك النسوة المحتاجات اللواتي تبدو عليهن الحاجة لذلك ، كما كان يرى من غير الحكمة تبديد المال على مثل هذه الصورة . وقد رأى أن خير سبيل لتفادي هذه المشكلة هو الخروج من القرية ، وهكذا كان .

في اليوم الأخير من اقامته في (بانوفو) خطر له ان يزور البيت القديم . وفيما كان يفتش في درج خزانة مصنوعة من خشب الورد كانت لاحدى خالاته ، وكانت موضوعة في إحدى زوايا الغرفة عثر على رسائل عديدة وصور كثيرة لخالاته (صوفيا فاسيليفنا) وله أيضاً و (لكاترين) الجميلة الفضة البريئة ببسمتها الرائعة . وكان هذا كل ما أخذه الأمير الذي ترك كل ما عدا ذلك للشاري الذي اشترى منه البيت بعشر ثمنه مدعياً انه بحاجة للهدم .

وإذ تذكر الغم الذي ساوره لتخليه عن ممتلكاته في (كوسمينسكوجي) ، أخذه الدهشة لاستسلامه لمثل هذا الشعور القبيح وان يكن لبرهة وجيزة . أما الآن فهو على العكس ، يشعر بارتياح كبير لعمله ، وللحدث غير المنتظر ، كما يشعر المسافر الذي أضناه السير عندما يلح عن بعد واحة في مفازة سحيقة .

٦٩

عندما وصل الأمير (نيكليندوف) الى المدينة كانت أضواؤها قد أُنيرت ، فرأى شيئاً جديداً وغريباً استحوذ على اعجابه ، وذهب من محطة السكة

الحديدية رأساً الى البيت حيث كانت رائحة (النفثالين) لا تزال تملأ غرفه ،
وحيث كانت (بتروفنا) و (كورني) لا يزالان منهمكين بإصلاح البيت وقد
برح بهما الجهد والضجر .

كانت غرفة (نيكليندوف) غاصة بالصناديق المفتوحة بحيث كان يتعذر
على المرء ان يتحرك فيها . فرأى الأمير أن وجوده سيعيق أعمال الخدم
وسيحول دون انجاز مهمتهم في حفظ أشياء البيت .

كان الأمير قبل الآن يرى في مثل تلك البلبلة متعة ولذة . أما الآن فانها
تبدو له بغیضة زرية ، بعدما شاهده من بؤس حياة القرويين ، ولذا قرر
الانتقال الى أحد الفنادق تاركاً (لأغريبينا بتروفنا) مهمة تسوية مقتنيات
البيت ريثما تأتي أخته التي ستأخذ على عاتقها تدبير أمرها .

كان البرد قارساً ، وكان المطر الذي سقط في الأيام الأخيرة والعواصف التي
هبت قد خلفت وراءها موجة مفاجئة من الصقيع ذهبت بدفء أيام الربيع
الأولى ، وكان الهواء يهب بارداً حتى كان (نيكليندوف) وهو في ثياب
الصيف ، يرتعد من البرد فيستحث الخطى كي يبعث الحرارة في جسمه .
وكانت تخيلته تستعرض أشباح من شاهدتم في (بانوفو) ، من نساء وعجزة
وأطفال . والحياة البائسة الأليمة التي يحيونها ، فكان ، عن غير قصد ، يقارن
بينها وبين ما في المدينة من مشاهد رائعة .

كان ينظر الى المتاجر التي تباع اللحم والسمك والألبسة الجاهزة فيدهش
لذلك كأنما كان يراه للمرة الأولى . وكانت تدهشه وجوه التجار وسائقي
العربات الفخمة بثيابهم الأنيقة وستراتهم ذات الازرار المذهبة وقبعاتهم الممتازة ،
والخادومات بما زرنهن البيض والعصائب الخملية التي يعصن بها جباههن ، كما كان
يدهشه منظر بعض المارة الأقوياء البنية ذوي الوجوه المشرقة الوضيئة الذين
كانوا ينظرون الى المارة نظرات الازدراء .

كان يتصور ، وهو على حق ، ان معظم أولئك الذين يراهم كانوا من سكان
الأرياف الذين أرغمهم على التخلي عن مسقط رؤوسهم وهجر مساكنهم شظف

العيش وشقاء الحياة . ومن هؤلاء أولئك الذين يبدون مرتاحي النفوس منشرحي الصدور لأصابتهم بسطة من العيش هيأتها لهم المدينة فأحسنوا استقلالها . غير انه كان الى جانب هؤلاء كثيرون ابتلعهم هاوية حياة المدينة ، فهم يلاقون شراً من حياتهم الأولى ، من بين هؤلاء التعماء بوسعنا ان نعد الغاسلات والكوايات الهزيلات الأجسام الشاحبات الألوان المنفوشات الشعور اللواتي يعملن بأيد عارية من اللحم على ابواب الدور التي يتصاعد منها بخار الماء والصابون . وكذلك عمال المصانع الذين يأتزرون بمآزر من الجلد ، الملطخون بالصباغ من قة رؤوسهم الى أخمص اقداسهم ، المشري الأيدي حتى الأكواع الذين لوحت الشمس سواعدهم ، وتكاد ملامحهم تفصح عما يلاقونه من نصب وجهد وما يمانونه من غم وكآبة ، في حين لا تنفك أيديهم التي أوشكت أن تكون جلدأ على عظم ، تنقل جرار الصباغ من جهة لأخرى دون توقف لحظة واحدة ، وهم يحذفون ويلعنون . امثال هذه الوجوه تشاهد عند سائقي العجلات الذين يعلمون الغبار ، وعند أولئك الذين يقفون عند ملتقى الشوارع من رجال ونساء يستجدون ويستعطون ، عند بعض مرتادي الحانات التي مر (نيكليندوف) من أمامها ، فرأى جماعات من الناس يجلسون وراء الطااولات الصغيرة والقذرة الغاصة بالزجاجات وأقداح الشاي ، الذين كانت تعلو وجوههم كآبة عميقة أو افراط في السرور وهم يضحكون أو يغنون . غير ان ذلك السرور لم يكن صادراً عن حياة حسنة ، أو تدفق حيوية ، وانما كان سروراً زائفاً جاءت به سورة الحمر . — لماذا يجلس هؤلاء هنا ؟ — كان (نيكليندوف) يقول محدثاً نفسه في حين كان الهواء البارد يعصف حاملاً اليه رائحة الصباغ وزيته الخائقة .

ومرت بجانبه عجلة محملة بقضبان الحديد ، وكانت جمجمتها تكاد تصم الأذان كلما ارتطم بعض حملها ببعض فاهتزت لذلك وتأرجحت . فأسرع في سيره ليتقدمها ولكنه ما لبث أن سمع صوتاً يناديه باسمه ، فوقف وتلفت يميناً وشمالاً وإذا به يرى جندياً ذا شاربين مفتولين كالتصال مشرق الوجه يشير اليه اشارات التودد وهو يكاد يكون مستلقياً في عربة فضمة ، مبتسماً له ومبدياً أسنانه اللؤلؤية .

— مرحباً (يا نيكليندوف) أهذا أنت ؟
 وكان الانطباع الفوري الذي أحدثته المفاجأة عند الأمير انطباعاً ساراً .
 — أهذا أنت يا (شموك) ؟ — أجابه بكثير من البهجة .
 ولكنه سرعان ما تنبه الى أنه لم يكن ثمة موجب لذلك الابتهاج إذ كان
 (شموك) الذي عرفه منذ القديم .
 لم يكن قد رآه منذ مدة طويلة ، ولكنه كان قد علم انه اضطر على
 الاستقالة من الجيش بسبب ديونه المتعددة ، وانه قد انصرف للتجارة بأشياء
 عدة أخصها بيع وشراء الخيل ، وانه كان يكسب من تلك التجارة ما يقيم به
 أود حياته كما أنهم فهمها . وكان الارتياح البادي عليه يدل بوضوح على أن حياته
 ليست سيئة .
 — ما أعظم سروري بوجودك هنا إذ يكاد لا يوجد أحد في المدينة . ولكني
 أرى انك قد بدأت تهرم .
 كان قد ترجل من العربية ، وأخذ يلوي ظهره الى الأمام والى الوراء ليتخلص
 من الكسل .
 — لقد عرفتك من مشيتك ... انتعشى معاً ؟ ... الى أين نذهب لتتناول
 عشاء طيباً ؟
 — لست أدري . وربما ضاق بي وقتي عن ذلك . — أجاب (نيكليندوف)
 وهو يفكر بطريقة لبقة يتخلص بها من هذا الرفيق دون أن يسيء له . — وأنت
 لماذا جئت ؟
 — هي الأعمال ، الأعمال يا حبيبي . ألا تعلم انني أصبحت الآن وصياً ؟ أنا
 الآن أدير أملاك (سامانوف) ذلك الغني الكبير الغريب الأطوار . أتعرفه ؟
 انه يملك مساحة من الأرض تتسع لخمسين ألف (فانيكا) من القمح (الفانيكا
 تعادل ١٦,٥٠ كيلوغرام) .
 ولفظ (شامبوك) الأرقام بلهجة يتوخى من ورائها مضاعفة أهميته كما لو
 كان هو مالك هذه الثروة .

— كانت الملكية مهمة اجمالاً مريعاً . فالأراضي كانت بيد مزارعين لا يدفعون بدل أجرها . وكان المتخلف له عندهم يقارب الثمانين ألف روبل وقد بدلت الأوضاع خلال عام واحد خرجت بعده بفائدة سبعين بالمئة . فما رأيك ؟ فتذكر (نيكليندوف) انه قد بلغه أن (شموك) بسبب تبديده ثروته ، ووقوعه تحت دين كبير لا قبل له بوفائه أبداً ، قد أقيم وصياً على غني عجوز وهو الآن ينفق على نفسه من راتبه في هذه الوصاية .

— كيف السبيل الى التخلص من هذا دون ان أسيء اليه ؟ — كان (نيكليندوف) يتساءل في سره .

وفما كان يصغي لرفيقه القديم وهو يقص عليه كيف سوى أمور وصايته ، كان يتأمل ذلك الوجه المشرق الوضاء كالبدر والشوارب المفتولة .

— أين تريد أن نتناول العشاء ؟

— ليس لدي الوقت الكافي . — أجابه (نيكليندوف) وهو ينظر في

ساعته .

— إذن هنالك فكرة أخرى . سيجري سباق للغيل هذا المساء وأظنك

لن تتأخر عن حضوره .

— لا أستطيع الذهاب .

— تعال ، يا رجل تعال . لم يعد لدي جياذ خاصة ، ولكني أثق بجياذ

(غريغوريوس) فلدي مجموعة صالحة من التكهينات والترجيحات ... تعال ومنتناول العشاء معاً .

— لا أستطيع ذلك يا صديقي . ليس لدي الوقت الكافي لتناول العشاء

معك . — أجابه الأمير مبتسماً .

— يا لك من رجل . الى أين أنت ذاهب الآن ؟ تعال فاصطحبك معي في

عربي .

— أشكرك فأنا ذاهب لمنزل أحد المحامين وهو قريب من هنا .

— آه . صحيح لقد غاب عني انك مهم الآن بقضايا السجون . لقد قص

علي آل (غورتشاكين) شيئاً من هذا . وبهذه المناسبة أتعلم أنهم الآن في الريف ؟ ألا تريد أن تخبرني ما هي هذه القضية ؟
— أمن الممكن أن أشرحها لك الآن هنا في الشارع وبالسرية التي تريدها ؟ ...

— لقد كنت دائماً أولياً ، أنتحضر السباق ؟
— كلا يا رجل كلا . ليس لدي وقت ولا رغبة ، أنوسل اليك ألا تستاء لذلك .

— أي استياء ، وأي شيء آخر .
وفجأة انقلبت ملامح وجهه جادة ، ونظراته جامدة ، وزوى ما بين عينيه . لقد كان يحاول تذكر شيء ما دون شك . ولكن الأمير تبين في وجهه البلاهة التي لفتت نظره قبل قليل في وجه رجل كان يقف على باب إحدى الحانات .

— ان البرد قارس هذا النهار .
— هذا بما لا شك فيه .
— الى اللقاء يا حبيبي . لقد سررت كثيراً ببقائك .
وصافحه مصافحة حارة ، ثم صعد العربة وأخذ يلوح له بيده التي كان يلبس فيها قفازاً من الجلد الأبيض الفاخر ، وابتسم له ابتسامة كشفت عن أسنانه البيضاء الناصعة .

٧٠

حالما وصل الأمير الى منزل الهامي (فانارين) دعاه هذا الى مكتبه دون أن يتركه ينتظر دوره ، وشرع يحدثه على الفور عن دعوى (منشفوف) التي طالعها ، فأظهر امتعاضه منها لأنها لا تركز على أساس على حد رأيه .
— انها قضية تثير الامتعاض . كل الدلائل تدل على ان مسبب الحريق هو المالك الذي أشعل النار ليتقاضى من شركة التأمين المبلغ المؤمن عليه . ولكن الأمر الثابت هو انه لا يمكن اثبات مسؤولية (منشفوف) ، ولو ان الدعوى

ستنظر هنا وليس في محكمة الولاية لضمانت النجاح فيها دون أي أجر . وفيما يتعلق بالقروية (فيدوسيا بيرينيوف) فقد وضعت التماساً باسم المحكوم عليها ليرفع لصاحب الجلالة الامبراطور . وانصح لك أن تحمله بيدك الى (سان بطرسبرج) ، وأن تبحث عن أصحاب النفوذ لدى أعضاء هيئة العفو .
- لقد كتبوا لي أيضاً ...

- أرى يا سمو الأمير أنك انقلبت الى صدى للساجين . - قال الهامي مبتسماً . - وأظنك تهتم أكثر من اللازم بمثل هذه القضايا ، وانك قد لا تدري كيف تسوي أمر نفسك في النهاية .
- لا يا صاحبي . أرجو أن تصغي لهذه القضية ، انه حادث رهيب .
وأخذ يقصه عليه بكلمات موجزة .

كانت القضية تتعلق بمزارع يحسن القراءة والكتابة وكان هذا يشرح الانجيل لرفاقه ، ولما بلغ خبره رجال الكنيسة تدخلوا لدى السلطات فاقنيد المزارع الى السجن ، وصدقت المحكمة العليا حكم المحكمة الأولى .
وأنهى (نيكليندوف) كلامه قائلاً : انه لأمر رهيب . أتصدق ان مثل هذا قد يحدث ؟

- لا تستغرب ذلك . وينبغي أن تعلم أن القاضي والمدعي العام ورئيس المحكمة ليسوا سوى موظفين ينتظرون آخر الشهر ليتقاضوا راتبهم . وقبلاً لتناولهم هذا الراتب فانهم على استعداد لإتهام وإدانة نجمة الصبح .
- ولكن هل توجد في القانون مادة تنص على ابعاد الشخص لمجرد شرحه الانجيل لرفاقه ؟

- ليس بالابعاد فحسب ، وإنما بالسجن أيضاً إذا ما ثبت انه خرج في شرحه عما أقرته الكنيسة ، وعندئذ يتهم بمحاولة تغيير العقيدة الأرثوذكسية ويحكم بالسجن .
- انه شيء رهيب .

- بلى . ومثل هذا كثير . حتى انني عندما أرى القضاة كثيراً ما أراهم

شاكراً متمناً منهم لأنهم لم يبعثوا بسموك وبني أيضاً الى السجن . لأن بوسمهم أن يتهمونا ويحاكمونا ويحكموا علينا بالابعاد الى سيبريا بكل سهولة وبساطة .
- ولكن إذا كان كل شيء منوط بالنائب العام والقضاة فما فائدة المحاكم ؟
فأطلق المحامي ضحكة عالية .

- لا تسألني عن هذا يا حبيبي . هذا يسمى تفلسف ... بوسعنا أن نبحث هذا إذا أجبنا فتعال ليلة السبت فستجد هنا أدباء ورسامين وعلماء وعندئذ سنبحث كل هذا ... هل تعرفت على زوجتي ؟ ... أرجو أن تحضر .
- سأبذل قصارى جهدي كيلا أتخلف عن الحضور . - أجب (نيكليندوف) متعمداً الكذب لأن أمثال هذه الاجتماعات كانت تزعجه .
لقد أدرك الأمير (نيكليندوف) أنه إذا كان يحس ببعده عن رفيقه (شيبوك) ، فانه الآن قد تبين من القهقهة التي أطلقها المحامي عندما حدثه عن العدالة وعسف القضاة ورؤساء المحاكم ، ومن اللهجة التي لفظ بها كلمة « تفلسف » انه أشد بعداً عن المحامي والمجتمع الذي يعايشه .

٧١

استقل الأمير (نيكليندوف) فور خروجه من منزل المحامي ، عربة تنقله الى السجن بدلاً من الذهاب اليه سيراً على الأقدام ، لأن المسافة بعيدة وكان الوقت متأخراً . وأثناء الطريق تحول الحوذي نحوه ، وكان متوسط العمر طيب المظهر ، وقال له مشيراً الى بناية لا تزال في طور البناء .
- أنظر ، ما أروع هذا البناء الذي يشيدونه .
قال ذلك بلهجة كما لو كان مساهماً فيها .

لقد كانت فعلاً بناية ضخمة ذات طابع فني معقد . وكان البنائون ينقلون على السلام والمداير كالنمل الدؤوب والعمال يتسلقون السلام وهم يحملون أكياس الاسمنت وغيره من مواد البناء ، وكان النحاتون ينحتون الحجارة ويعيدونها لتكون صالحة للبناء ، وغيرهم ينقلون الجسور الحديدية والخشبية . وكان ثمة رجل جاد الملامح قاسيها يشير بيده الى فوق وهو يتحدث مع متعهد البناء الذي

كان يصفي اليه بإذعان مراقباً سائقي العجلات والعمال الذين كانوا يفرغون حمولة تلك العجلات .

وكان (نيكليندوف) يتأمل البناية مفكراً :

— ان العمال وأرباب العمل مقتنعون بأن الأمور يجب أن تكون هكذا وليس بصورة أخرى ... وفي حين تقتل النسوة أنفسهن جهداً في عمل يفوق طاقتهن ، والأطفال بقبعاتهم القذرة البالية ، والشيوخ يتضورون جوعاً يقيم هؤلاء هذا البناء الشامخ السخيف المديم الفائدة ... حقاً انه لعمل بليد .
— قال ذلك بصوت عال مختزلاً فيه أفكاره .

— كيف يكون عملاً بليداً ؟ — قال الخوذي كمن أهين : — ألا ترى أنه يوفر العمل للكثيرين ؟ انه ليس عملاً بليداً ولا أقل من ذلك بكثير .
— انه عمل غير ذي فائدة .

— ما داموا يبنونها فذلك دليل على فائدتها . — أجاب الخوذي : — وهذه الطريقة يوفر الطعام للكثيرين .

فلم يجب (نيكليندوف) ولكن الخوذي ما عثم أن عقب بقوله :
— كم من الناس يهبطون المدينة . وليس عجيباً ألا يجد بعضهم إن لم نقل أكثرهم عملاً يعمل به . — قال هذا ثم أشار بيده الى جمهور من القرويين قادمين باتجاه مماكس حاملين على ظهورهم مناجل وفؤوس وصرر الثياب .
— هل ازداد عددهم هذا العام ؟

— بلى . وهذا هو سبب هبوط أجور العمال ونادرة العمل . ولكنهم يطرقون كل باب ويلجأون الى كل وسيلة .
— وما هو سبب ذلك ؟

— يرجع السبب في ذلك لكثرة المواليد حتى لا يدرون مما يقتاتون آخر الأمر .

— وماذا هم تكاثروا ؟ أليس لديهم أراضي ؟

— ان الأرض لا تنتج ما يكفي لإعالتهم .

لقد حدث (نيكليندوف) ما يحدث عادة لأولئك الذين يؤلمهم عضو من أعضائهم فلا تقع الصدمة إلا عليه . وربما كان الناس يتعمدون وضع الملح على الجراح .

— أيمكن أن يكون الأمر واحداً في كل مكان ؟ — قال (نيكليندوف) مفكراً .

ثم سأل الخوذي كم يملك من الأرض في بلده ولماذا هبط المدينة . فأجابه بقوله .

— نحن أربعة ولدينا قطعة أرض تكاد لا تذكر ، فهبطت المدينة وذهب أخي ليؤدي خدمته العسكرية الإجبارية في حين ظل والدي وأخي الآخر للمناية بقطعة الأرض . ولكن أي حياة يحياها أبي وأخي . ان هذا يفكر في الانتقال الى موسكو .

— ولماذا لا تستأجرون أرضاً غيرها ؟

— ومن ؟ لقد أصبحت كل الأراضي بيد التجار ومسح هؤلاء يعسر الاتفاق ... هم أرغب في استغلالها لحسابهم . ان مالك أرضنا فرنسي ويأبى الكلام عن الاستئجار .

— هو فرنسي ؟

— بلى هو فرنسي ، ويدعى (دوفر) ولعلك تعرفه . انه حلاق الممثلات . ويبدو ان هذه المهنة تدر كثيراً لأنه كون ثروة لا بأس بها ... لقد اشترى كافة الأراضي التي نسكن فيها وهو الآن يتصرف بنا على هواه ... ولكننا راضون بذلك لأنه رجل طيب . أما زوجته الروسية فانها على طرفي نقيض معه . انها حشرة ضارة ، ولينجنا الله منها . انها كارثة لنا ... ها قد وصلنا . أين تريد ان أقف ؟ أمام المدخل الرئيسي ؟ أظنهم لن يسمعوها لك بالدخول الى السجن .

الفصل الثاني

١

تقدم الأمير (نيكليندوف) من مدخل السجن وهو شديد التأثر قاصداً زيارة (كاترين) . وكان وهو يقترب من البناية يتساءل في داخله قائلاً : ترى على أي حالة نفسية سأجد (ماسلوف) وعندما تذكر الغموض الذي يكتنف تلك المنكودة وغيرها من المساجين التعساء تلكه رعب شديد أخذ يجاهد عبثاً في التغلب عليه .

ونادى الأمير السجن واستعلم منه عن (ماسلوف) فأخبره انها رضية أخيراً بانتقالها الى المستشفى فذهب اليه بعد ان استخبر عن مكان وجوده والطريق اليه ، فأخبروه بأن عليه أن يمر في المشى الكائن أمام جناح الصبيان . وخرج على ندائه طبيب شاب خشن الصوت وسأله ماذا يريد . وعلى الرغم من مظهره الجاف فقد كان هذا الطبيب طبيب القلب . وإذا كان قد استقبل (نيكليندوف) متذمراً فلأنه كان يخشى ان يطلب اليه ما فيه خروج على النظام ، فأراد بذلك افهامه انه لن يخالف القانون خدمة لكائن من كان .

— ليس هنا سجن النساء .

— أعلم ذلك . وقد جئت أبحث عن ممرضة .

— آه ... نعم يوجد هنا اثنتان ... ماذا ترغب ؟

— انني أهتم كتسييراً لأمر احدها التي تدعى (ماسلوف) وأرغب في مواجهتها الآن . — قال له الأمير : — أنا ذاهب الى (سان بطرسبرج) لأقدم باسمها أوراق التمييز ، وأود ان أعطيها هذه الصورة قبل سفري . وأراه ايها .

— حسن ، حسن . — قال الطبيب وقد لطف لهجته : — هذا مسموح به .

ثم أمر احدي المجائز ان تذهب فتحضر (ماسلوف) في الحال .

وإذ رأى (نيكليندوف) ما كان عليه الطبيب من طيب العنصر تجرأ
فسأله عن سلوك (ماسلوف) فأجابه بقوله :

— ان سلوكها حسن . وأنا راض عنها . تقوم بما تستطيعه من الأعمال وتضع
فيه كل عنايتها . ها هي ذي قد جاءت .

وأطلت المعجوز من أحد الابواب ومن ورائها (ماسلوف) كانت ترتدي
ثوباً مرقعاً ومن فوقه الرداء الأبيض ، وتضع على رأسها غطاء أبيض يستر شعر
رأسها الاسود . ولما أبصرت (نيكليندوف) احمر وجهها خجلاً ، ووقفت
برهة كالمرتبكة المترددة ثم زوت ما بين عينيها وأطرقت بنظرها الى الارض
وتقدمت منه بخطى متقاربة سريعة ، وفي نيتها ألا تعد له يدها ولكنها عندما
أصبحت أمامه مدت له يدها لتصافحه ، وازداد وجهها احمراراً .

لم يكن قد رآها منذ طلبت اليه ان يساعها لما قالت له . وكان مقتنعاً بأنه
سيجدها على مثل تلك الحالة النفسية التي غادرها عليها . غير انه رأى في وجهها
تعابير لم يستطع فهمها . كانت تعابيراً جافة متحفظة عدائية بالنسبة له .
فأخبرها بما قاله للطبيب وقدم لها الصورة .

— هذا رسم قديم وجدته في (بانوفو) . وظننت انك قد تسرين بالاحتفاظ
به . فخذيه .

فألقت نظرة على الصورة وزوت ما بين عينيها ، وكأنها كانت تسأل نفسها
ماذا يعني هذا ؟ ثم أخذتها منه وأخفتها في ثنايا ثوبها الأبيض .
— لقد رأيت خالتك .

— صحيح ؟ — أجابت تسأله بلا مبالاة .

— هل أنت مرثاة هنا ؟

— كثيراً .

— ألا تتعبين من مهمتك ؟

— كلا مطلقاً على الرغم من انني لم أعتدها .

— يسرنى ذلك . على كل حال هنا خير من هناك .

- أي هناك ؟ — سألته وقد احمر وجهها حتى أذنيها .
 فأسرع قائلاً : — هناك في السجن .
 — ولماذا ؟
 — لأنني أعتقد ان هنا أوفى لصحة العقل والجسم . على الأقل لست مضطرة على الاتصال بمن فيه من المساجين .
 — يوجد هناك قوم طيبون . — قالت الفتاة .
 — لقد بحثت عن قضية (مانسشوف) يحتمل أن يبرأ .
 — يسرني ذلك كثيراً . يا لها من عجوز طيبة . — أجابت (كاترين) مبتسمة ابتسامة خفيفة .
 — سأذهب اليوم الى (سان بطرسبرج) لأن طلبك سينظر فيه قريباً .
 وأرجو أن ترد الدعوى للنظر فيها من جديد .
 — لقد أصبحت الآن لامبالية .
 — ولماذا الآن ؟
 — لأنه هكذا ... — أجابته وهي تنظر اليه نظرة استفهام صامتة .
 فأدرك (نيكليندوف) مغزى ذلك الاستفهام وانها تريد ان تعلم ما إذا كان الامير لا يزال مصرأ على ما صرح لها به من رغبته في الزواج منها ، أم انه قد غير رأيه بسبب الرفض الذي جابهته به .
 — لست أفهم لماذا أصبحت لامبالية . على كل حال أنا ما زلت عند قولي .
 وكانت اللهجة التي لفظ بها هاته الكلمات حاسمة ، فرفعت (كاترين) رأسها وصوبت اليه عينيها السوداوين ، وأشرق وجهها بالبشر والسرور ، غير ان الشفاء لم تتبع بما عبرت عنه النظرات .
 — لا فائدة مما تقوله .
 — أقوله ليبقى محفوراً على لوحة عائلتك .
 — لقد قلته غير مرة ، ولا داعي للتكرار من جديد . — قالت وهي تمسك ابتسامتها يجهد .

وهنا رتفعت ضجة في الغرفة المجاورة ثم بكاء طفل ، فتلقت (ماسلوا)
قلقة وقالت :

— أظنهم ينادونني .

— الى اللقاء اذن . — قال لها (نيكليندوف) ثم مد لها يده .

فتظاهرت بأنها لم ترها وأسرعت عائدة أدراجها دون أن تصافحه ، كأنها
تريد إخفاء فوزها ثم توارت وراء الباب .

— بماذا يتمخض عقلها ؟ ... وماذا يشغل قلبها ... وماذا يحول في
ذهنها ؟ ... أتراها تريد اختباري . أم هي لا تستطيع الصفع عني ؟ ...
ألعنها لا تجرؤ على الافصاح عما في نفسها ، أم هي لا تريد ؟ ... أتراها انقلبت
رحيمة أم قاسية ؟ ...

ولكن (نيكليندوف) لم يتمكن من الاجابة على هذه الاسئلة أجابة تطمئن
لها نفسه ، على الرغم من تردده الدائم لها . غير ان شيئاً واحداً كان بارزاً
وواضحاً وهو ان الفتاة قد تبدلت . وان تطوراً هاماً قد طرأ عليها ، تطوراً
لا يدينها منه فحسب ، وإنما يزيد لها دنواً وقرباً من ذلك (الله) الذي حدث
ذلك التطور بإرادة منه .

وتلقت (ماسلوا) أمراً بإعداد سرير فور عودتها الى الغرفة التي كان يوجد
فيها ثمانية صبيان . وعندما كانت تنشر الغطاء فيسوق السرير ، وقد انحنى
كثيراً ، زلقت قدمها وأوشكت أن تسقط على الأرض . فأغرب أحد الصبيان
ضاحكاً فلم تطلق (ماسلوا) امساك نفسها عن الضحك فألقت بنفسها على
السرير وأغربت ضاحكة ضحكة صاحبة امتدت عدواها الى الصبيان فانفجروا
بأجمعهم ضاحكين . فعنفتها الممرضة على ذلك وقالت لها :

— ماذا دهالك ؟ أتظنين انك الآن حيث كنت ؟ اذهبي واحضري العلاج .

فوجت (ماسلوا) وتناولت الكأس ، وهمت بالخروج إلا أنها قبل ذلك
نظرت الى الصبي الذي كان أول من ضحك وأطلقت قهقهة مدوية .

كانت أثناء النهار تخرج الصورة من غيبها وتقبل عليها تتأملها كلما خلت

لنفسها وفرغت من عملها . وعندما جن الليل وانفردت في مخدعها أقبلت عليها تتأملها مدة طويلة دون ان تشبع عيناها من النظر الى ذاك الذي يعود الى ذهنها الآن بعد أعوام طوال . كانت تحديق في تلك الورقة الصفراء الشاحبة ، فتداعب بنظراتها سائر ما فيها : السلم ، وأشجار الحديقة ، وعلى الأخص ذلك الوجه الغض الجميل والشعر الأجعد المتدلي على الجبين ، وكانت منصرفة انصرافاً كلياً لتأملاتها بحيث لم تشعر بالمرضة عندما دخلت عليها .

— ما هذا ؟ هل أعطاك اياها هو ؟ — قالت الممرضة تسألها وقد أكبت لتري الصورة : — أنت هذه الطفلة ؟

— ومن هي إذن ؟ — أجابت (ماسلوف) ضاحكة .

— ان لك الآن وجهاً مختلفاً . قد يكون قد انقضى عشر سنوات على هذه الصورة .

— عشر سنوات ؟ انها حياة بكاملها . — أجابت الفتاة بلهجة جادة وقد تلاشى اشراق وجهها وحلت محله غمامة من الغم والأسى وبرزت تجاعيد جبينها .

— حقاً . لقد كانت حياتك قاسية .

— لقد كانت أسوأ من حياة السجون بألف مرة . — أجابت (ماسلوف) . — ولماذا لم تستبدليها ؟

— لقد حاولت كثيراً فلم أتمكن . — قالت (ماسلوف) وقد ألقت الصورة في درج إحدى الطاولات ، وفتحت الباب وخرجت الى الرواق حابسة دموع الشجاعة .

لقد بدا لها للوهلة الأولى عندما كانت تتأمل الصورة انها ما زالت تلك الفتاة التي تتمثل فيها . وكالحالمة عاودتها السعادة التي ذاقتها في تلك الأيام الهنيئة ، ونادىها صوت داخلي قائلاً لها : انه ما زال يوسمها أن تكون سعيدة معه .

غير ان كلمات رفيقتها اعادتها الى واقعها وذكرتها بما صارت اليه الآن ،

وأبرزت أمامها ويلات حياتها التي بدأت تدرك مداها الآن . تذكرت ليالي خلاعتها الرهيبة وخصوصاً ليلة من ليالي (الكرنفال) عيد المرافع المريعة . كانت آنشد ترتدي ثوباً وردي اللون يكشف عن الصدر والظهر ، ملطخاً بالخر ، منفوشة الشعر الذي تحيطه بشرطة حمراء لا تمسكه ، متعبة ، سكرانة ، منهوكة القوى . فجلست في إحدى فترات الاستراحة بجانب إحدى زميلاتها وكانت طويلة القامة نحيلة القوام فشكت لها حالها فأجابتها هذه بالمثل وانضمت إليها (كلارا) صديقة (ماسلوا) فكان شأنها كشأنها وأكدت أنها مصمة على هجر هذه الحياة واستبدالها بغيرها فصمن على ذلك . غير أن عازف الكمان عاد يعزف من جديد فهب الشبان ، واحتضنها أحدهم وكان شاباً يرتدي بزة سوداء وربطة عنق بيضاء فطوق خصرها بذراعه القوية ، واحتضن آخر (كلارا) ، وهكذا انقضت ساعات تلك الليلة بين خر ، وتدخين ، ورقص ... وهكذا عاماً بعد عام ... ولم يكن باستطاعتها أن تبدل حياتها ... وكان هو المسبب لكل هذا ...

وفجأة عاودها حنقها الأعمى الذي أحسنه من قبل على الأمير ، وقامت في نفسها رغبة جامحة ملحة لتوبيخه وشمه ، وندمت على افلات الفرصة من يدها لأن تقول له انها تعرفه جيداً وانها لا تثق بكلامه ، وانها لن تسمح له في أن يسيء استغلال روحها كما أساء استغلال جسدها ، وان أي دليل على سخائه لن يرضيها ...

وشمرت بحاجتها الملحة للقضاء على ذلك الألم النفسي العميق واغراقه في الخمر .

ولو انها كانت ما تزال في السجن إذن لمضت تمسب الخمر ولكنها هنا لا تستطيع الحصول عليه إلا بواسطة الطبيب المتمرن ، الذي كانت تحشاه لملاحقته لها ، وكان أي اتصال جسدي بالرجال يثير اشمئزازها . وظلت مدة طويلة جالسة على مقعد في الرواق ، ثم ما لبثت ان انتفضت ، وهبت من مقعدها ومضت الى مخدعها دون ان تجيب زميلتها ، وشرعت تبكي هناك بدموع غزار حياتها البائسة الشقية .

كانت الدوافع التي حلت (نيكليندوف) على الذهاب الى (سان بطرسبرج) متعددة ، ولكن كان أهمها الأربعة التالية : أولاً تقديم عريضة لتمييز باسم (كاترين) ودعمها ببعض أصحاب النفوذ . ثانياً تقديم التماس لصاحب الجلالة الامبراطور باسم (فيدوسيا) . ثالثاً العمل على اخلاء سبيل (شينستوفا) التي كانت (فيرا بوغودوتشوفنا) تهتم كثيراً لقضيتها . والتوسط لشاب سجين مجرم سياسي للسماح لأمه بزيارته ، وتحسين أوضاع أولئك القرويين المبعدين الى القفقاس لشرحهم الانجيل .

لقد أصبح الأمير (نيكليندوف) بعد مواجهته (ماسلنيكوف) وبصورة خاصة بعد رحلته الى ممتلكاته ، شديد الاشمئزاز من المجتمع الذي شب وترعرع وتثقف في أحضانه ، ذلك المجتمع الذي يتظاهر بأنه لا يرى آلام ألوف وألوف الناس كي ينعم وحده بمباهج الحياة ومتعها . لقد كان شديد الاقتناع من ان سائر من يضمهم ذلك المجتمع ، عاجزون عن ادراك ما في الحياة من بؤس ومبلغ ما فيها من قسوة . انه الآن لا يستطيع اقامة أي علاقة مع أحد أفراد ذلك المجتمع دون ان يحس وخز الضمير . ومع ذلك فقد كانت تشده الى هذا المجتمع عادات حياته الماضية ، وصلات القربى والصداقة . وبصورة خاصة رغبته في تلبية موحيات قلبه لإنقاذ (ماسلوف) وضمان النجاح في مساعدة غيرها من المساجين التعماء الذين وثقوا به .

حل الأمير (نيكليندوف) ضيفاً على خالته الكونتيس (شارسكي) زوجة وزير سابق عند وصوله الى (سان بطرسبرج) وهكذا عاد الى الوسط الاريسوقراطي الذي كان يميل للابتعاد عنه . فسامه ذلك ، إلا أنه كان أمراً لا بد منه .

كان في نزوله في الفندق اهانة لخالته التي يرجو صداقتها لصلاتها الطبية وصداقاتها المتعددة مع شخصيات من ذوي النفوذ الكبير الذين يستطيعون تقديم خدمات جلي له .

- أصبح ما سمعته عنك ؟ يا لها من اعجوبة حقيقية ... - قالت الأميرة
 (إيكاترين ايفانوفنا) عندما أبصرته . - انك لتتقمص (هيوارد)^١ .
 مساعدات للمتهمين ، زيارات للسجون ، اصلاح لطريقة ممتلكاتك ...
 - لا تصدقي يا خالتي . ليس الأسد قبيحاً كما يصورونه ...
 - ولم لا ؟ على كل حال هي بادرة طيبة ... حدثني ... حدثني ...
 فقص عليها (نيكليندوف) علاقته القديمة (بكاترين) دون ان يغفل شيئاً .
 - بلى . بلى . أذكر ذلك . لقد قصت علي المسكينة (ايلين) شيئاً من
 هذا . لقد كانت تخشى أن تزوجك العانس برببيتها .
 كانت الكونتيس (ايكاترين) تتحدث دائماً بلهجة الاحتقار عن الأختين
 العانستين عمي (نيكليندوف) .
 - وهل لا تزال جميلة ؟
 كانت (ايكاترين) امرأة في حوالي الستين من عمرها مرحة صحيحة الجسم
 قوية البنية طويلة القامة ضخمة الجثة منعمسة وثرثرة كبيرة . وكانت
 (نيكليندوف) يحبها حباً جنونياً . وقد اعتاد على مرحها وتحمسها منذ نعومة
 اظفاره .
 - كلا ، كلا يا خالتي الحبيبة . لقد انتهى كل شيء . كل ما ابتغيه الآن هو
 انقاذها ومساعدتها لأنني كنت سبب سقوطها وعلى عاتقي تقع المسؤولية المعنوية
 لكافة أخطائها .
 - لقد أكدوا لي انك قررت الزواج منها .
 - هذا صحيح . ولكنها لا توافق على ذلك .
 فحدثت (ايكاترين) ابن أختها بدهشة واستغراب .
 - أرى انها أكثر ادراكاً منك . يا للغباء ... وكنت جاداً في تفكيرك
 بالزواج منها ؟

١ - جون هيوارد هو رجل الانكليزي الشهير في القرن الثامن عشر . أنفق
 معظم ثروته في مساعدة المساكين . زار أكثر سجون أوروبا ومات في روسيا مصاباً بحمى خبيثة .

- كنت مصمماً كل التصميم .

- وعلى الرغم من كل ما فعلته ؟

- لأجل هذا على الاخص . ليست هي المذنبه .

- يالك من غبي ممتاز - قالت الكونتيس باسمه - غبي جداً ممتاز . أتعلم أن
(إلينا) قد افتتحت ملجأ للمجذليات التائبات ؟ لقد زرت المؤسسة ويا لها من
مرعبة . لقد ظلت أغتسل ثلاثة أيام متتالية . بوسعك أن تبعث بحميتك
إلى هناك .

- لقد حكم عليها بالسجن مع الاشغال الشاقة ، وقد جئت للتوسط لإلغاء
هذا الحكم . وهذا هو الحافز الرئيسي لحضوري إلى (سان بطرسبرج) .
- آه ... وأين تنتظر هذه القضية ؟
- لدى المحكمة العليا . في مجلس الشيوخ .

- في مجلس الشيوخ ؟ ان ابن عمي ؟ (ليوفسكا) عضو فيه . ولكنه ينتمي
لمجلس الاستشاري (الهيرالدي) . أما الباقيون فلا أعرف أحد منهم . كلهم
ويعلم الله من هم . إما المان . أ . ب . ت . إلى آخر الحروف الهجائية . وأما
(إيفانوف) (سيمونيوف) (نيكيتين) أو (إيفاتنكو) (سيموننكو) نيكيتنكو ...
تتغير الوجوه ... رجال من العالم الآخر . ومع ذلك فسأوصي زوجي . وسنرى
إذا كان يليي طلبي .

- وهنا دخل خادم يرتدي سروالاً قصيراً يحمل رسالة في صنية من الفضة .
- انها رسالة ترد في وقتها . هي من (إلينا) سنستمع إلى (كيزيفتر) .
- ومن هو هذا ؟

- كيزيفتر ؟ سيأتي هذه الليلة ... وستشبع فضولك . انه مبشر فصيح
جداً . حتى المجرمين المحترفين يندمون عند سماعهم كلامه .
كانت الكونتيس من مشايخي النظرية الدينية التي كانت آنئذ منتشرة في
أنحاء روسيا والقائلة بأن جوهر المسيحية هو الإيمان بالفداء وعلى الرغم من اتباع

هذه النظرية لا يقرون اقتناء الصور والتماثيل فقد كان لدى الكونتيس طائفة كبيرة منها موزعة في سائر أنحاء المنزل حتى على رأس السرير الذي ترقد عليه ، دون أن ترى أي تناقض في ذلك .

- كم أتمنى لو تسمعه مجدليتك ... انها سترتد حتماً ... وأنت هل تبقى في البيت هذا المساء فتسمعه ؟

- يهمني قليلاً هذا يا خالتي .

- أقول لك انه جد مفيد . جرب ألا تتغيب . ولننتقل الآن إلى موضوع آخر : وماذا كنت تريد أن تطلب مني ؟

- كنت أرغب في طلب وساطتك بشأن سجين في القلعة .

- في القلعة ؟ ... إذن سأزودك برسالة إلى البارون (كيسغموت) . انه رجل طيب . يجب أن تتعرف عليه فقد كان صديقاً لوالدك . أظنه قد أصبح الآن روحانياً ، ولكن هذا لا يهم . وبماذا يستطيع أن يخدمك ؟ - بالسماح لأم السجن بزيارته . غير انه قد بلغني أن الامر يعود (لسيرفيانسكي) وليس (لكسغموت) .

- أنا لا أستخف ظل (سيرفيانسكي) . غير أن زوجته (ماريتا) تحبني كثيراً ، وأحسبها لن تتردد في أن تسدي لي هذا الجليل .

- كذلك أود التوسط لصالح سجينة في القلعة لا تدري لماذا سجنتم .

- هذا غير معقول يا حبيبي . انها تعلم السبب جيداً . ان سائر قصيرات الشعر يعلمن جيداً لماذا سجن . انهن يتمنين البقاء هناك . وهن خليقات به .

- لا أدري . ولكنني أعلم أنهن يتألمن ... وأنت التي تدينين بالمسيحية وتؤمنين بالإنجيل هل يخلو قلبك من الرأفة ؟

- ان الإنجيل شيء والمجرمين شيء آخر . ان العطف على (النهيلين) وعلى الاخص (النهليات) ذوات الشعر القصير ، لأشد سوءاً وخصوصاً عندما أكون لا أستطيع احتمالهن .

- لماذا؟
- أو بعد أول أذار تسألني لماذا؟
- ولكنهن لم يشتركن جميعهن في المؤامرة .
- ومن قال لهن ان يتدخلن بما لا يعنين؟ ان هذه القضايا ليست من اختصاص النساء ...

- وهل تعني (مارييتا) بمثل هذه القضايا ؟ - سألها الأمير .
- ان (مارييتا) هي (مارييتا) ... وهؤلاء يعلم الله من هن ... لنرى إذا كانت ستحكمنا امرأة في يوم من الايام .
- إنهن لا يطمعن في ان يحكمن ولكنهن يحاولن خدمة الشعب .
- لا حاجة بنا اليهن ليعلمننا انه يجب إعانة المحتاجين فنحن نعلم ذلك .
- ولكن هل من العدل ان يستنفذ الفقراء قواهم في العمل فلا يجدون غذاء بعيد لهم نشاطهم وحيويتهم في حين نسبح نحن في الوفرة والرخاء ؟
- كان (نيكليندوف) يتكلم بحماس متوخياً عرض نظرياته .
- على ما يبدو تريدني ان اعمل وأن لا أكل .
- كلا ، كلا ، كلي . هذا ما أطلبه . أريد أن يعمل الجميع وأن يأكل الجميع .
وعادت الاميرة تحديق بنظرها في (نيكليندوف) مستغربة أمره وراغبة في زيادة الاطلاع . ثم قالت له :
- ستنهي نهاية سيئة يا ولدي .
- ولماذا ؟

وهنا دخل القاعة رجل طويل القامة عريض المنكبين يرتدي بزة عسكرية برتبة جنرال وكان هذا زوج الكونتيس الوزير السابق .
- أهلاً بك يا ديتري . - قال هذا ثم قدم له خده المزين حديثاً كي يقبله .
- متى جئت ؟
ثم قبل جبين زوجته دون ان يقول شيئاً .

- انه ثوروي . - قالت الكونتيس . - ولو أقمت وزناً لكلامه لكان علي ان أذهب لفصل الثياب في النهر ، وأن اجعل من البطاطا غذائي الوحيد . يا له من غبي . وبالمناسبة - اضافت قولها - يقولون ان (كامنيسكي) مريضة وفي حالة خطرة ، وميؤوس من شفائها ، فينبغي ان تعودها .
 - في الحقيقة انها حادثة مريضة . - قال الزوج :
 - ينبغي ان تذهباً معاً . سأكتب بضعة رسائل .
 ولم يكذ (نيكليندوف) يتخطى عتبة الباب حتى صاحت تقول له :
 - احب ان اكتب (لمريتا) ؟
 - اجل . وأرجوك بذلك يا خالتي .

- حسن . سأكتب لها . لا تحسبني سيئة حتى ولو كنت لا استطيع هضم من تحميمهم . لست اتنى لهم شراً ... بوسعك الآن ان تذهب . ولكن لا تتخلف عن الحضور هذه الليلة . سنستمع إلى (كيزيفتر) وسنصلي . انا اعلم انكم لا تصلون . كذلك كان يفعل (إلين) . اذهب مع السلامة .

٣

كان (ايفان ميكايلوفيتش شارسكي) زوج الكونتيس ووزير الدولة السابق متطرف العادات ، صلب المبادئ ، يدافع عنها منذ نعومة اظافره بعناد خليق بقضايا اسمى . ومع ذلك فلم يكن فيها ما هو غير عادي . فكما ان من الطبيعي للمصفور ان يقتات بالدود ، وأن يكون مكسو الجسم بالريش ، وأن يطير ، كذلك كان جد طبيعي له ان يأكل طعاماً غالي الثمن اعدّه طهاة مشهورون ، وأن يرتدي ثياباً فاخرة الاناقة ، وأن يذهب للنزهة في عربة فضمة تجرها جياد اصيلة . وبالاختصار فقد كان همه ان ينعم بكافة اسباب الراحة .

اكذلك كان من مبادئ الكونت الاساسية ان يحصل من اموال الدولة على كل ما يستطيعه ، على الرغم من ثرائه ، وأن يقلد من حين لآخر بعض الاوسمة ، وأن يرتق صلاته بذوي النفوذ . وما عدا ذلك كان ثانوي الاهمية في نظره . وقد

اختص مدينة (سان بطرسبرج) بنشاطه ، طبقاً لهذه المبادئ ، إلى أن بلغ الأربعين من العمر عندما عين رئيساً للوزارة .

كان يجمع في شخصه عدة مؤهلات للنهوض بأعباء هذا المنصب ، إذ كان يعرف القوانين ، ومدلول الأعمال العلمية ومع أنه كان قليل الخبرة فقد كان يحسن الكتابة دون غلط في الإملاء - وكانت له مظاهر الالبته . وإذا كان في بعض المناسبات الخاصة يبدو متغطرساً ، فإنه كان عند غايته وضعياً ، ومجرداً من القيم الاخلاقية والاجتماعية ، ولذا كان ، تبعاً للظروف ، ظهيراً أو مناهضاً لجميع الناس . كان قليل الكلام خشية الوقوع في مناقضات فاضحة . وسواء كانت تصرفاته اخلاقية او غير اخلاقية ، افادت ام اخرت بروسيا والعالم اجمع فذلك ذو اهمية ثانوية في نظره .

وعندما تسلم منصب رئاسة الوزارة ظن الكثيرون انه يتحلى بصفات رجل الدولة . وكان هذا اقناعه هو . غير انه بعد انقضاء مدة من الوقت عجز خلاها عن القيام بأي شيء ، وعندما ارغمه على الاستقالة رجال من مثل خيرته وموظفون بلا مبادئ ، ولكنهم يجيدون القراءة والكتابة ، اتضح عندئذ بصورة واضحة جليلة انه لم يكن قليل الذكاء فحسب ، وإنما قليل العلم ايضاً يعتمد بقوته .

وأخيراً اقتنع بأنه ليس لديه ما يميزه عن غيره من الموظفين الكبار القليلي العلم والمعرفة الراضين عن انفسهم . غير ان هذا ما كان ليكفي الا يقتنع بأنه يجب على الحكومة ان تجعل له راتباً سنوياً وأن تمنحه الاوسمة .

اصفى الكونت (إيفان) إلى (نيكليندوف) كما كان من قبل يصغي لكتابه . وبعد ان فكر برهة وجيزة وعده بإعطائه رسالتي توصية ، إحداها (لفولف) عضو مجلس الشيوخ وأحد اعضاء المحكمة العليا .

- تروج حوله إشاعات مختلفة . ولكنه على كل حال رجل مستقيم ودقيق . وقد خدمته كثيراً . ومما لا شك فيه انه سيبدل قصارى جهده .

لقد اظهر الكونت اهتماماً كبيراً لقضية (فيدوسيا) كما ابرزها له (نيكليدوف) . ووافق رئيس الوزراء السابق فكرة تقديم الإلتماس لجلالة الإمبراطورة ونصح له بالإسراع به ما أمكن .

ولم يكد الأمير يحصل على الرسالتين اللتين وعده بهما الكونت ورسالة خالته (لماريتا) حتى خرج إلى الشارع لإيصالها .

وكان اول ما قام به زيارته (لماريتا) . فتذكر انه كان قد عرفها منذ كانت لا تزال طفلة . كانت ابنة لعائلة اريستوقراطية فقيرة ، فتزوجت من رجل حامى حوله مئات الشبهات .

واستولى عليه الخجل لاضطراره الى اللجوء إليها ، كما يحدث عندما تضطر المرأة ظروفه للالتجاء إلى لا يحترمه . ورأى انه يعود شيئاً فشيئاً لذلك الجو الخائى ، وذلك المجتمع السخيف المتحجر القواد الذي طالما اثار اشمئزازه .

كان ، قبل قليل ، قد عاوده ذلك الاشمئزاز من جديد ، عندما كان يتحدث مع خالته الكونتيس التي هزأت من اشيائه هي في نظرة اخلق بالإحترام من كل ما في الدنيا .

كانت (سان بطرسبرج) التي لم يرها (نيكليدوف) منذ عهد بعيد ما تزال تحدث في نفسه الانطباعات المعهودة كالانفعالات العنيفة ، وميوعة النفس . كل ما فيها جميل ومريح جم الرفاهية هادىء مما يجعل الحياة ناعمة مريحة .

وحمله حوذي حسن المنظر جميل الصورة ، متخذاً طريقه من امام بعض افراد شرطة البلدية الاقوياء البنية ، الاصحاء الاجسام الدمثي الاخلاق ، وبيوت جميلة حديثة الدهان ، في شارع رائع قد رش بالماء ونظف ، إلى ان بلغ منزل (ماريتا) .

كانت تقف امام باب البيت عربية يجرها جوادان مطهان من اصل إنجليزي ، كانا يراوحان بين قوائمها الاولى بصبر نافذ . وأسرع البواب الذي كان يرتدي

سترة ناصعة البياض لامعة ، ففتح مصراعي الباب امام الامير . واقتاده إلى ردهة البيت .

— ان الجزرال لا يستقبل احدا ، وكذلك زوجته . وعن قريب ستغادر (الجزرالة القائدة) البيت . — قال له الخادم :

فأخرج (نيكليدوف) رسالة خالته وبطاقته الخاصة وتقدم من طاولة صغيرة عليها سجل تسجل فيه اسماء الزوار . وكان قد بدأ بالكتابة مبدئياً اسفه الشديد لأنه لم يوفق إلى التحدث مع السيدة ، إذا بالخادم يتقدم من السلم ، ويصبح البواب قائلاً :

— إلى الامام .

وتقدم الحاجب وأخذ يتبع بنظره سيدة مكنزة الجسم قصيرة القامة كانت تهبط السلم بخطوات وثيدة تتلاءم ومركزها الاجتماعي .

كانت (مارييتا) تضع على رأسها قبعة كبيرة سوداء مزدانة بالريش يعلوها برقع يغطي وجهها ، وثوب حداد يكاد يغطي ثوب آخر اسود شفاف ، وقفازاً اسوداً .

وعندما رأت (نيكليدوف) أزاحت البرقع عن وجهها فبان من تحته وجه جميل رائع ، تزينه عينان جميلتان سرعان ما تحولتا نحوه .

— آه . الامير (ديمتري إيفان) هتفت تقول بمرح ظاهري ولهجة متحبة . — لقد عرفتكَ على الفور

— حتى انك لا تزالين تذكرين اسمي .

— ولم لا ؟ هل نسيت ؟ لقد مر وقت كنت انا وأختي من عاشقات سموك . — اجابت (مارييتا) بالفرنسية — لقد تغيرت كثيراً . . . كم يسوءني كوني مضطرة للذهاب . . . قد تستطيع الانتظار قليلاً .

قالت ذلك ووقفت لتتظر في ساعتها تم اردفت تقول :

- كلا . كلا . ذلك مستحيل . انا ذاهبة لتشييع جنازة . ألم يبلغك؟ إن
كل من في (بطرسبرج) لا يتحدثون بغير هذا الحديث . لقد مات ابن
(كامتيسكا جا) في مبارزة مع (بوسن) ... وهو وحيد أبويه ...
- بلى لقد بلغني شيء من هذا .

- اتعلم انني لا أستطيع ان اتخلف ؟ تعال غداً ، والافضل ان تأتي هذا
المساء . - أضافت تقول وهي تتقدم نحو الباب بخطى متقاربة رشيقة .
- يستحيل علي الحضور هذا المساء . - اجاب (نيكلنديوف) وهو يرافقها
حتى عتبة الباب . - ومع ذلك فانا بحاجة لجميل تسدينه لي .
- وما هو نوعه ؟

- احل رسالة من خالتي شرحت فيها كل شيء .
- لقد فهمت . تحسب الكونتيس ان لي تأثيراً على زوجي في اعماله الرسمية .
ولكن الواقع غير ذلك إذ ليس لي اي تأثير عليه ، ولا ارغب في التدخل ...
ولكن إكراماً للكونتيس ولسموك سأجرب ان افعل ... قل إذن ما هو ؟
وكانت اثناء ذلك تبحث بيدها التي تلبس القفاز عن جيبها دون ان توفق في
العثور عليه .

- ارغب في مساعدة فتاة مريضة مسجونة في القلعة خطأ .
- ماذا تدعى ؟

- تدعى (شيوستوفا ليد با شيوستوفا) ستجدين اسمها في الرسالة .
- حسن . سأفعل كل ما أستطيعه . - قالت (ماريتا) .

ثم قفزت إلى العربية الفخمة التي كانت تنتظرها تحت اشعة الشمس ، ثم
فتحت المظلة وهي تلقي اوامرها على الخادم لينقلها بدوره إلى الحوذي .
وتحركت عجلات العربية . ولكن الكونتيس (ماريتا) وكزت الحوذي

بالمظلة فأوقف الجياد الاصيلة التي كانت تقوس رؤوسها المارية من اللجم وتقرع الارض بجوافرها .

- لا تتأخر عن زيارتي ولكن بدون مصلحة . - قالت باسمة بسمة من يعلم مدى قيمتها .

ثم اسرعت فأسدلت البرقع على وجهها ، كما يسدل الستار بعد نهاية العرض في المسارح .

- إلى اللقاء إذن . - قالت وقد وكزت الحوذني بالمظلة من جديد .
فرد (نيكليدوف) تحيتها بإجلال وتوقير ومضت الجياد تنهب ارض الشارع نهياً ، وابتعدت العربية مسرعة وهي تتنزي فوق المنخفضات .

٤

عندما تذكر الامير بعدئذ بسمة (الجنرالة) اخذ يمز رأسه وهو يقول :
- يستدرجني ، دون وعي مني ، هذا الضرب في الحياة . ولا سبيل إلى نكران ذلك .

وحز في نفسه ان يضطر إلى التماس خدمات قوم لا يحترمهم .
وذهب الامير إلى مجلس الشيوخ . فأدخل إلى قاعة رائعة حيث وجد عدداً من الموظفين الرصنين الذين سارعوا لإعلامه بأن طلب التمييز المقدم من (ماسلوف) قد أحيل للدراسة إلى الجنرال (فولف) الذي يحمل له رسالة توصية من عمه .

- ستجتمع المحكمة هذا الاسبوع ، ولكننا لا نستطيع تعيين موعد النظر في الطلب الذي يهمك . وقد يجوز ان يناقش في الاسبوع المقبل إذا توسطت له .

وفيما كان الامير ينتظر ، سمع بعض الحاضرين يشرح تفاصيل حادث المباراة الذي ذهب ضحيته الشاب (كامنيسكي) وتتلخص في ما يلي : كان فريقاً من

الضباط يتناولون طعامهم في احد المطاعم ، ويسرفون في شرب الخمر كمعادتهم
فذكر احدهم بسوء الفرقة التي ينتمي لها (كامينسكي) . فكذبه هذا . فبادره
ذاك بالصفع ، فكانت المبارزة التي انتهت بسقوط الشاب (كامينسكي) جريحاً
برصاصة اخترقت أحشاءه . وقد أوقف (بوسن) والشهود ، ولكن جميع الناس
يعلمون انهم سيخلى سبيلهم بعد أسبوعين .

واذا رأى الامير ان انتظاره سيمتد فتره اخرى رأى ان يواجه البارون
(فورويوف) احد الموظفين الكبار ذوي النفوذ الذي يشغل دائرة في قصر
مجلس الشيوخ . ولكن لما كان حاجب مجلس الشيوخ قد انبأه ، وهو ينظر اليه
شزراً ، ان البارون لا يقابل في غير الايام المعينة للمقابلات ، فقد ترك بطاقته
وخرج لانتظار العضو (فولف) .

كان هذا قد فرغ من تناول غذائه ، وانصرف كمادته يدخن لفافة تبغ
وهو يتمشى في الغرفة ذهاباً وأياباً ، تسهلاً لعملية الهضم ، فاستقبل الأمير وهو
واقف على قدميه .

كان (فلاديمير فاسيليفيتس فولف) انيقاً اناقة تامة تميزه عن زملائه . وكان
وهو ينظر الى هؤلاء بترفع ، لا يستطيع الاعتراف بان مناسبة ما مهدت له
سبيل النجاح . فقد تزوج زواجاً موفقاً حصل منه على ثروة ضخمة يبلغ ريعها
السني حوالي ثمانية عشر الف روبل ، وعلى منصبه في مجلس الشيوخ .

كان يعتبر نفسه ممتازاً جداً ونزيهاً . وكانت النزاهة في مفهومه عدم قبول
هدية من احد .

وكان ، من جهة اخرى ، لا يرى في قبوله تعويض السفر ، وتعويض
الأقامة ، والرضوخ كالعبء لأوامر الدولة للحصول على كل ذلك ، ما يلوث
نزاهته في شيء . كذلك لم يكن يرى في سحق مئات من الاشخاص لمجرد دفاعهم
عن معتقداتهم ووطنهم ، ومعاقتهم بالنفي وبالسجون كما فعل عندما كان

حاكما في ولاية (بولونيا) عملا شائنا ، وانما كان يراه عملا نبيلًا ووطنية حقة .
كذلك لم يكن يرى عيبا في استئثاره بثروة زوجته الهائلة به وبثروة اختها
واستثمارهم لصالحه الخاص . لقد كان ، على العكس ، يعتقد انه بذلك يضمن
بنجاح مستقبله الخاص ومستقبل سائر الأثره .

كانت تلك العائلة مؤلفة من الزوجة المنكودة الفاقدة الإرادة ، ومن اختها
التي استأثر باملاكها وباع اراضيها ، واستغل ثمنها لصالحه ، ومن ابنة شابة
قبيحة الصورة صبية وجبانة تعيش في عزلة قاسية ولكنها اخيراً بدأت تحضر
الحفلات التي كانت تقام في منزل (الينا) والكونتيس (شارسكي) .

وكان (فلاديمير فاسيليفيتش) ولد شاب مرح اطلق لحيته ولما يتجاوز
الخامسة عشر من عمره . وكان لا يقوم بعمل الا شرب الخمر وتدخين التبغ
وتبديد المال . ولما كان قد بلغ العشرين من العمر دون ان ينهي علومه ، فقد
طرده والده من المنزل لللازمته رفاق السوء ، وتبذيره المال ، واثقال كاهله
بالديون مما يهدد مركز ابيه بالضياع . كان الشيخ قد وفى دينه استدانه ولده
في بعض المناسبات ، وكان يبلغ المئتي روبل ، وفي مناسبة اخرى قدى عنه
دينا بلغ ستمائة روبل وانذره بانها ستكون الاخيرة ، واذا لم يغير من سيرته
فسيطرده من البيت لا محالة . ولكن الشاب لم يقم وزنا لوعيد ابيه ، واستدان
الف روبل اخرى ، واعرب لوالده عن ضجره من البيت وانه له كالسجن .
فنفذ الوالد وعيده وطرده ولده من البيت ورفض الاعتراف به كولد . واذا اعلن
ذلك احجم سائر من في البيت عن ان يأتي على ذكر اسم ذلك المنكود الحظ
وهكذا حسب عضو مجلس الشيوخ ان حياته البيتية قد استقامت كافضل ما
يمكن .

واستقبل الشيخ (فولف) الأمير ببسمة ساخرة (كما كان شأنه مع سائر
الناس) وامسك قليلا ثم حياه وتلا رسالة التوصية .

— تفضل بالجلوس ، ولا تواخذني اذا ما لبثت امشي اثناء تحدثي معك فانا

بحاجة لذلك . فاعذرني . ثم طفق يمشي ذهاباً وإياباً ويداه في جيبه - لقد تشرفت بمعرفتكم ويسرني كثيرا ان يكون في مقدوري اسداء خدمة (لايفان ميكاييلوفيتش) . - قال ذلك وهو ينفث دخان التبغ الأزرق ببطء .

- اسمح لنفسى بان اتقدم بالرجاء لسعادتكم كي ينظر في طلب التمييز باقرب ما يمكن ، حتى اذا كانت لا بد من ذهاب المحكوم عليها الى سيبيريا فالأفضل التبكير به . - قال الأمير . - اعلم ذلك جيدا . في هذه الحالة تذهب مع البواخر الاولى من (نيخني نوفجورود) . - اجاب الشيخ الذي كان دائما عالما بكل شيء حتى قبل الاطلاع عليه .

- ما اسم مقدمة الطلب ؟

- اسمها (ماسلوف) .

فجلس (فولف) الى الطاولة الصغيرة ، والقى نظرة على بعض الاوراق ثم قال :

- حسن سأحدث بذلك الى زملائي ، وسيبث بالقضية نهار الاربعاء .

- أستطيع الابرار بذلك للمحامي ؟

- آه - لديها محام ؟ ولماذا ؟ لا فائدة من الابرار . ولكن اذا كنت تريد .

- قد تكون الاسباب الموجبة للتمييز والواردة في طلب غير وافية . ولكن من سياق الدعوى يبدو جليا ان الحكم كان الخطأ .

- اجل قد يحدث هذا احيانا . ولكن المحكمة لا تستطيع اضاءة الوقت في تدقيق كافة التفاصيل . اجاب (فولف) بلهجة قاسية وهو ينظر الى رماد لفافة التبغ - ان مهمة المحكمة هو العمل على تطبيق القوانين تطبيقا حسنا ودقيقا .

- هذه حادثة استثنائية .

- اعلم ذلك ، اعلم ذلك ، على الدوام حوادث استثنائية سنؤدي واجبنا . وغير ذلك لا يستطيع ان اضيع شيئا .

وكان عمود الرماد ما زال عالقاً باللفافة الا ان ثغرة كانت قد فتحت فيه واصبح ينذر بخطر السقوط .

- هل وصلت منذ قليل الى (بطرسبرج) ؟ - سأل (فولف) وقد امسك اللفافة بيده محاذرا ان يسقط الرماد . ولكنه اذ رآها تتأرجح اقترب بهدوء وحيطه من منفضة الرماد والقاء فيها . - كم هي مريعة حادثة (كامينسكي) لقد كان شاباً قوياً . وفضلاً عن ذلك فهو وحيد . يا لأمه كم تستحق المراثية . كانت كلماته هذه اختزالاً لحديث سائر سكان المدينة كلها بالنسبة لآل (كامينسكي) .

وتحدث (فولف) فترة اخرى ثم قرع الجرس وودع الأمير وخرج . - مع التقدير والاعتبار . - قال (فولف) وهو يمد له يده .. تعال الى العشاء في اي يوم ، الاربعاء مثلاً . وهكذا تطلع على ما يكون قد تم بالقضية . ومضى (نيكلينددوف) الى بيت خالته فور خروجه من منزل (فولف) لأن زيارته كانت قد استغرقت وقتاً طويلاً .

٥

جلس الأمير الى المائدة في بيت خالته ، عند الساعة السابعة والنصف مساء فادهشه ما رآه من تصرف الخدم ، اذ انهم ما يكادون يضعون الطعام ، ويستبدلون الاطباق الملوثة حتى يتواروا فلا يظهرون بعدها الى ان تدعوهم ربة البيت بقرع الجرس ، وعندئذ ياتون بالطبق الجديد ، ويرفعون الصحون المستعملة ثم يتوارون من جديد تاركين الجماعة وشأنهم يسوون امورهم كما يمن لهم . وهكذا يرى الرجال انفسهم مجبرين على خدمة السيدات .

كان الطعام فاخراً ، وكان سائر ما على المائدة من طعام وخرمما يشرف اهل البيت .

كان على المائدة ستة اشخاص ، الكونتيس والكونت وولدهما الضابط في الحرس ، ومعلمة فرنسية او قارئة ، ومدير املاك الكونت العام الذي وصل من الريف قبل قليل ، والامير (نيكليندوف) .

وكان طبيعيا ان يستأثر حادث المبارزة بجديتهم . وقد قيل ان الامبراطور اتى لحال الأم المنكودة الطابع . غير انه قد قيل ايضا انه سوف لن يقسو على (بوسن) لأن عمله كان انتصاراً لشرف البزة العسكرية . فقبحت الكونتيس صنيع القاتل ، لتدل على ان لها رأيا الخاص . وقالت :

— هذه حصيلة الخمر . يشربون ويسرقون ، ثم بعد ذلك يقتتلون .. انهم لا يستحقون العفو .

— لست افهم جيدا ما تقولين . — قال زوجها .

— ليس هذا بغريب ، وانما الغريب ان تفهمي . — قالت نجيب ثم التفتت الى الامير وازافت تقول : — هذا ما يحدث على الدوام . يفهمي سائر الناس ما عدا زوجي . اقول انني ارثي لحال الام واتمنى الا يذهب الدم هدرا دون ان تقتص له . فتدخل ولدها الذي ظل صامتا حتى ذلك الوقت ، مدافعا عن (بوسن) فأكد انه لم يكن يسمعه ان يتصرف بصورة اخرى ، والا طرده رفاقه الضباط من صفوفهم .

فأدرك (نيكليندوف) ما يرمي اليه ابن خالته من قوله هذا ، لأنه كان جنديا ، ولكنه كتم موافقته له . وعلى غير تعمد ، اخذ يقارن بين هذا الضابط الذي قتل رفيقه في السلاح ، وبين ذلك القروي الشاب القوي العضل الذي قتل رفيقه في حادث شجار . ولما لم يستطع ضبط نفسه عن الكلام فقد قص الحادث . كان الخمر سبب الجريمة الأول في كلا الحادثين . ولكن في حين يعود الضابط فينعم باعتباره وراتبه ومنصبه ، يشن ذلك القروي المسكين في السجن مخلوق الراس ، لا يرجو من احد خيرا .

وللهولة الاولى وافقت الاميرة على كلام ابن اختها ، ولكنها سرعان ما
وجت كبقية الحاضرين ، وران عليهم الصمت . فادرك (نيكليندوف) انه
جاء امرا اذا .

وانتقلوا من القاعة بعد ان فرغو من تناول الطعام ، اذ كان الزوار قد بدأوا
يتواردن وكلهم لهفة لسامع (كيزيفتر) .

كانت القاعة واسعة ، وكان فيها صفان من الكراسي ؛ وطاولة عليها قـدح
من الماء ومن وراء الطاولة مقعد فخـم . كان قد اصبح في القاعة كثير من النساء
الواتي يرتدين الثياب الحريرية والحمل ، وعدد من الرجال الذين يرتدون البزات
الرسمية او ثياب الاحتفالات ، وبعض افراد الشعب . كاحد التجار والحوذيين
وغيرهم .

كان (كيزيفتر) قوي البنية مستدير الوجه ، غليظ الاحناك . وكان يتكلم
باللغة الانكليزية فتنقل ما يقوله الى الروسية فتاة نحيلة القوام تضع نظارات على
عينها .

كان يؤكد ان خطايا الإنسان عظيمة ، وان القصاص سيكون قاسياً جداً ،
وان انتظار هذا القصاص مضي .

يكفي ان نفكر ايها الاخوة والاخوات ، في حياتنا هذه التي نحياها .
يكفي ان نفكر اننا نستشير باستمرار غضب الله علينا واننا نثير الآم ابنه الالهي
يكفي هذا لكي نعلم اننا لا نستحق الغفران وان هلاكاً مريعاً يتهددنا ، وعذاباً
ابدياً ينتظرنا - هكذا كان يقول بصوت مرتعش - وما هو طريق الخلاص ؟
كيف نتحاشى هذا الحريق الرهيب ايها الاخوة ؟ اوه . لقد اشتعل البيت
وليس من منقذ للخلاص .

ثم صمت فترة واخذت الدموع الصادقة تترقرق على خديه البدينين . لقد
لبث ثمانية اعوام يكرر هذه الموعظة ، التي كانت تزوق كثيراً ، دون ان

يضيف عليها او ينقص منها حرفا واحدا . وكان كل مرة يبلغ «البيت الملتهب»
يشعر بعقدة في حلقه وتهيج في انفه فلا يسهه الا البكاء .

وارتفع في القاعة شهيق بكاء . وكانت الكونتيس وهي متكئة بكوعها على
طاولة صغيرة من الموزاييك وتمسك راسها بيديها ، تنتفض اكتافها من حين
لآخر . كذلك كانت معظم الحاضرين يخفون وجوههم بأيديهم . وكانت ابنة
الشيخ (فولف) تبكي وهي راكعة . والحوذي ينظر الى المبشر نظرة مرعوية
كما لو كان يوشك ان يدهسه بعمرته ، ويحاول (كيزيفتر) الابتعاد عن الخطر .
وبعد صمت قليل ، رفع الخطيب رأسه ثم مضى متابعا خطابه بلهجة رقيقة
معبرة مبتسما ابتسامة الممثلين عندما يريدون التعبير عن سرورهم .

- ومع ذلك فانه لا يزال لدينا سبيل للخلاص . ذلك السبيل هو دم الابن
الاهي الوحيد المسفوح ، الذي قاسى لاجلنا كل صنوف العذاب . اذن ايها
الاخوة - وهنا اصبح صوته مرتعشا . - فلنحمد الله الذي بعث لنا بابنه قدس
الاقდس . ان دمه الالهى ...

هنا بلغ الاستياء مبلغه في نفس (نيكليندوف) ولم يعد يتحمل المزيد من
بقائه في القاعة فغادرها وهو يقار .

٦

عندما استفاق الامير من نومه في اليوم التالي ، قدم له الخادم بطاقة المحامي
(فانارين) الذي جاء الى العاصمة لأعمال تتعلق بمهنته ، يقول فيها ان بوسعه
البقاء الى ان يبيت في طلب (فاسلوف) هذا اذا كان سينظر فيه قريبا . وعندما
اطلع (نيكليندوف) المحامي على اسماء القضاة الثلاثة الذين ستألف المحكمة
منهم ابتسم وقال :

ثلاثة من اعضاء مجلس الشيوخ ، هم ثلاثة انواع مختلفة من الرجال ... قال

(فاتارين) .. (فغولف) موظف من (سان بطرسبرج) و (سكوفورودنيكوف) متشرع مشهور ، و (بي) رجل دواوين وان كان اذكاهم . بماذا اجابوك في اللجنة التي تنظر في طلبات التمييز ؟

- سأذهب اليوم لمقابلة البارون (فورابيوف) لأنني لم اتمكن حتى الان من الاجتماع به .

ولما كان (نيلكيندوف) قد لفظ بلمجة خاصة كلمة (بارون) وهو لقب يبدو غريبا اذا ما اضيف الى اسم روسي فقد اخبره (فاتارين) ان الامبراطور بطرس قد منح هذا اللقب لاحد اسلافه الذي كان وصيفا له . ثم انتقل بالوراثة من والد لولد . وكان البارون الحالي النذل الكبير شديد الاعتزاز والتميه بهذا اللقب .

- على رغم كل هذا فانا بأمس الحاجة لاستعطافه .
- حسن . ساراففك فترة قصيرة . واحملك معي في عربي .
وفي غرفة الاستقبال جاءه الخادم برسالة من (ماريتا) مكتوبة باللغة الفرنسية . وهذا نصها :

« خروجاً على عهدي الذي قطعته على نفسي ، فقد خاطبت زوجي بالموضوع اكراما لك . سيخلي سبيل محبتك في الحال لان زوجي قد كتب بذلك لأمر الموقع . احضر لمواجهة « نجلوغاية » انا بانتظارك - م .

- ما قولك ؟ يسجنون امرأة ستة اشهر ثم يطلقون سراحها على لا شيء .

- هذا ما يحدث دائما . لقد حققت غرضا من اغراضك على الأقل .

- ولكن ما يجنون من سجنها ؟

- الافضل عدم التفكير بذلك .

وكان الاثنان واقفين بالباب .

- ساراففك اذن . - قال (فاتارين) .

واستقل الاثنان العربية الفخمة ، وراحت الجياد تنهب الارض نهبا متجهة الى منزل البارون .

كان البارون حاضرا في البيت . وكان احد الموظفين يتحدث الى رجلين تبدو عليهما سياء الوقار وهو لا يهدأ عن الحركة لحظة واحدة . والتفت الى « نيكليندوف » يسأله .

— ما اسمك ؟

— الأمير « ديمتري ايفان نيكليندوف » . — اجابه هذا .

— لقد انبأني البارون عن سموكم . تفضل وادخل حالا .

واذ ذاك كان موظف آخر يرافق سيدة ترتدي ثياب الحداد ، وتسدل على وجهها حجاباً لتخفي دموعها .

ورافق الموظف الاول الامير حتى باب مكتب البارون وفتح له الباب ، وتنحى قليلا ليفسح طريقا للأمير . ولما دخل « نيكليندوف » الغرفة القى نفسه امام رجل ريع القامة ، ضخم العضلات ، قصير الشعر جالس امام مكتب ضخم ، وهو ينظر الى السقف . وكان بياض شعر لحيته ورأسه يزيد احمرار وجهه وضوحا وبروزا . وعندما تنبه لوجود الامير انفرجت شفتاه عن ابتسامة .

— يسرني كثيرا ان اراك ... اجلس ، اجلس ... ان صلة المعرفة قديمة بيننا ... لقد رأيتك عندما كنت طفلا في منزل والديك ... اي خدمة تستطيع تأديتها لك ؟ قل ، قل ، ودع المجاملات .

فشرع « نيكليندوف » يقص عليه قصة « فيدوسيا » . وكان البارون يردد من حين لآخر قوله :

— بلى ، بلى . افهم .

وعندما انتهى الأمير من كلامه اضاف يقول :

— ان هذا مثير جدا . هل اعددت الطلب ؟

- بلى ها هو ذا - اجاب « نيكليندوف » - ولكنني اود ان احدثك عنه
لأنني اعتقد انه يجب ان يؤيه له بشكل خاص .

- لقد احسنت صنعا . انها قضية مثيرة جدا . هي فتاة وهو رجل هنجي
يسيء اليها ويعذبها ... ثم يدور الزمن فينقلبا حبيبين .. اجل . اجل .
سأهتم لها .

- كذلك سيتدخل الكونت « ايفان ميكا بيلوفيتش » لصالحها .. - قال
الأمير ولكنه لم يكذب ذكر الكونت حتى تغيرت ملامح البارون .

- ابعث الطلب الى الدائرة ، ومن جهتي سابدل جهدي .
وهنا دخل الموظف الذي رافق « نيكليندوف » الى المكتب .
- السيدة التي خرجت منذ قليل تريد ان تعرض عليكم بعض كلمات .
- فلتدخل . لا تستطيع ان تتصور مقدار الشكاوي التي اتلقاها كل يوم .
وفتح الباب فدخلت منه المرأة التي ترتدي ثياب الحداد .
- غاب عني ان اتوسل اليكم الا تسمحوا لها برؤية ابنتها لأنها قد تقوم ..
- لقد وعدت بذلك .

- شكرا يا سمو البارون اذ بهذه الصورة تنقذون اما ...
ثم تناولت يده وقبلتها .

وهب الأمير واقفا ايمودعه فور خروج السيدة .

- سابدل قصارى جهدي . - قال البارون - وأصلك بوزير العدل ،
وسأقوم من جهتي ..

فودعه الامير اثر هذا الوعد وخرج .

وعندما كان يجتاز الدوائر الرسمية ويشاهد الحجاب ببزاتهم الرسمية الجديدة

ووجوههم المشرقة ، كان يقارن بينهم وبين المساجين والعمال فيعصف بنفسه غم لا يوصف .

٧

كان مصير المساجين منوطا بقائد عجوز في بطرسبرج ، ادى خلال خدمته العملية ، خدمات جلى . كان من اصل الماني ، وعلى رغم الاوسمة العديدة التي كان من حقه ان يحلي بها صدره ، فانه لم يكن يحمل منها سوى صليب ابيض يضعه في عروة سترته .

لقد ادى خدمته الاولى في القفقاس . وكان على رأس جيش من القرويين يرتدون بزات عسكرية ، فقتل المئات من الناس لغير ما ذنب سوى دفاعهم عن استقلالهم وعائلاتهم واموالهم . فاستحق هذا الصليب الأبيض تقديرا لهذه البطولة . ثم قام بعد ذلك في بولونيا بأعمال بطولية مماثلة استحق لأجلها صليبانا اخرى . واخيرا ، وعندما اصبح شيخا هرما قد هدمه المرض اسند اليه منصب المدير العام للسجون الذي كان له كالماء للسبك وكالفناء للطير .

كان شديد الحرص على تنفيذ الاوامر المعطاة له ، فلا يسمح لنفسه قط بتجاوزها . ولكنه في الامور التي يترك له الخيار في تصريفها كان يظهر تساهلا وتسامحا . كانت مهمته الاحتفاظ بالمجرمين السياسيين في السجون ، واخذهم بنظام لا تنقضي عليهم معه عشر سنوات الا ويكون اكثرهم قد جن ، او انتحر او مات مسكولا . وكان القائد يرى كل ذلك دون ان يحرك ضميره ، او يحدث ايما اثر في نفسه اكثر مما تحدثه انباء الكوارث الطبيعية كالعواصف والفيضانات في بلد قصى ، لان مسؤولية ما قد يحدث فعلى ما تلقاه من اوامر صادرة عن مصادر عليا قد تكون عن الامبراطور نفسه ، وما دام امر تنفيذها موكولا اليه فهو يعتبر نفسه غير مسؤول عن نتائجها .

كان الجنرال يقوم بتنفيذ هذه الاوامر دون ان يسمح لنفسه بابداء الرأي

فيها او التعليق عليها ، لانه كان يرى في ذلك جرأة غير بريئة لا تصدر عن جندي صالح ، ومواطن شريف . وكان يقوم اسبوعيا بزيارة تفقدية للسجون حيث يستمع لشكاوي المساجين ، ويتلقى طلباتهم ، تنفيذا للأوامر المعطاة له ايضا ، فكان يصفي اليهم يهدوء وانتباه . ولكن هل كان ، في الحقيقة ، يولي ايا منها اي التفات ؟ كلا . لاعتباره اياها غير مشروعة .

كانت الساعة المنصوبة على احد الابراج القريبة في المكان تعزف نشيدا روسيا تمجيدا لله ، ثم دقت بعده دقتين في اللحظة التي وصل فيها (نيكليندوف) الى منزل الجنرال .

وكان هذا جالسا امام طاولة صغيرة في غرفة مؤتة باثاث قاتم اللون ، ويجلس قبالة رسام شاب اخ ل احد مرؤسيه ، وهو يمسك بيده اليمنى صحننا صغيرا للقهوة مقلوبا ، كان ينتقل من مكان لآخر بقوة النبض في اصابع الجنرال والرسام ، فوق قطعة من الكرتون كتبت عليها الاحرف الهجائية وهما بانتظار ان يجيب على اسئلة القياها عليه .

كان الجنرال قد سأله « كيف تتعارف ارواح الاموات فيما بينها ؟ » . وحين وصل (نيكليندوف) كانت روح (جان دارك) تجيب بواسطة الصحن مستعملة الاحرف الهجائية المرسومة على قطعة الكرتون انها « تتعارف فيما بينها : ... » . وهنا قامت مشكلة عندما اكد الجنرال ان الصحن بعد ان وقف امام الحرف (ب) تحول نحو الحرف (ع) ثم نحو الحرف (د) وذلك يعني انها تتعارف (بعد) ان تتطهر . ولكن الرسام كان واثقا من ان روح (جان دارك) قد اجابت بواسطة الاحرف انها تتعارف « عن طريق النور » .

ويدون ان يأبها كان كل واحد منها يدفع الصحن باتجاه الحرف الذي يناسبه ، وهو شديد الايمان عميقه .

وحينا قطعت زيارة الامير تسليية الجنرال اظهر امتعاضه ثم وقف ووضع نظارته على عينيه وقرأ الرسالة ثم قال :

- ليدخل الى المكتب .
- اذا سمحت سعادتكم فسأواصل العمل وحدي . - قال له الرسام . - فيها قد حضرت الروح .
- حسن . اكمل العمل . - اجاب الجنرال وهو يسير بخطى واسعة متزنة باتجاه المكتب .
- ان سروري عظيم برؤيتك . - هتف الجنرال يقول بصوت اجش عندما عندما ابصر الأمير . ثم اضاف وهو يشير له الى كرسي ليجلس عليها . - هل وصلت الى بطرسبرج منذ مدة طويلة ؟
- لقد وصلت منذ ايام قليلة .
- وكيف والدتك ؟
- لقد توفيت .
- معذرة فقد اخبرني ولدي بذلك فتأملت . ولكنني نسيت .
- كان ينتظر ابن الجنرال مستقبل باهر . اذ كان في مكتب المعلومات مولجا بأخذ الاسرار من الجواسيس .
- اجل . اجل . لقد أدت ووالدك الخدمة العسكرية الاجبارية سوية . كنا رفاقاً طيبين ... وهل سموكم في الجيش ؟
- كلا .
- فهز الجنرال رأسه دلالة على عدم الموافقة .
- جئت اطلب اليك خدمة . - بدأ (نيكليندوف) الكلام
- ساقوم بها ما دامت في مقدوري .
- اذا كان رجائي يبدو لمعني سعادتكم غير موافق فارجو المعذرة . وعلى كل حال لا بد لي من تقديمه .
- وما هو نوعه ؟

- يوجد بين المساجين في القلعة فتى يدعى (غور كيفيتش) تطلب امه السماح لها بزيارته او على الاقل ان تبعث له بكتب .

فلم يبدر من الجنرال ما يدل على الاستياء او الارتياع ، وكان يتظاهر بالتفكير ولكنه في الحقيقة لم يكن يفعل ذلك رغبة منه في التقيد بالانظمة والقوانين المرعية الاجراء ، وانما استغلالا للمناسبة للتخفيف عن عقله المتعب .

- ليس بالامكان تلبية رغباتك . - اجاب - فالقوانين تحظر الزيارات . اما الكتب فلدينا مكتبة مليئة بالكتب ونحن نقدم لهم كل ما يطلبونه منها .

- هو يريد كتباً علمية لا كمال دراسته .

- دراسته ؟ لا تصدق .

ثم صمت برهة ليتابع بعدئذ كلامه قائلاً :

- انه لا يريد اكمال الدراسة ، وانما يرغب في ازعاجنا . وهذا كل ما في الامر .

- ولكن كيف سيقضي وقته خلال مدة سجنه التي لا نهاية لها ؟

- اذا اعزتهم اذا صاغية فسوف لن نسمع منهم غير الشكوى ... لقد اصبحنا نعرفهم .

كان يتحدث عن المساجين بنفس اللامبالاة التي يتحدث فيها عن عرق مختلف وطبقة خاصة من الناس .

- لقد منحناهم هنا امتيازات لم تعطى لسواهم من المساجين .

ثم اخذ يعدد وسائل الراحة التي اختصوا بها ، والتغذية الحسنة التي كانت تقدم لهم ، والعناية الخاصة التي يولونها ايها ، كي يبرهن على صدق قوله . وركز بصور ، خاصة على التغذية الحسنة ليدلل على مدى نكران الجليل عند المساجين .

- وفوق ذلك لديهم كتب دينية ، وصحف قديمة ، ولكنهم لا يلتفتون اليها . ولدينا مكتبة منتقاة ، ولكنهم لا يطالعون الا من حين لآخر . هذا

امر واضح . وحتى انه يسمح لهم بالكتابة . ففي كل قاعة لوحة وطباشير يستطيعون استعمالها باستمرار اذا نحو ما كتبوا ... ولكن . ليس هناك من يفكر بهذه الطريقة . هذا ما ينبغي الاعتراف به . كلهم في بداية سجنه تقوم قيامته ، ولكنهم اخيرا يسمنون ويطمثون .

كان الامير يصغي لذلك الصوت الابح المتراخي ويحقد بتلك الاعضاء المنهوكة ، وتينك العينين المنطفئتين تحت تلك الحواجب الكثيفة ، وتلك الحدود المترهلة المتدلية فوق ياقته الرسمية ، وذلك الصليب الابيض ، مفكرا في نفسه بان اي معارضة له او محاولة لتبيان حياة المساجين بصورة مختلفة عما يقول هي مهمة خاسرة وعديمة الجدوى . ومع ذلك فقد سأله عن (شينستوفا) تلك السجينة التي سيخلى سبيلها .

- (شينستوفا) ؟ (شينستوفا) ؟ .. لا اذكرها .. لدينا عدد عديد من المساجين .. - اصاف يقول وكأنه يأسف لوفرة هذا العدد ...

وقرع جرسا يدعوه كاتبه ، وفيما كان ينتظر قدومه ، حاول اقناع (نيكليندوف) بضرورة البحث عن وظيفة . .

- الوطن بحاجة لخدمات اشخاص اشراف نبلاء . ليكون لك مني اسوة حسنة ، فها انذا على رغم شيخوختي لا ازال اخدم وطني جهد طاقتي .

كان الكاتب جافاً ، متوقد العينين ذكيتها ، فاخبره بان (شينستوفا) لا تزال سجينة لانهم لم يتلقوا اي تعليمات بشأنها .

- عندما تردنا الاوامر سنطلق سراحها فوراً ، اذ لا مصلحة لنا بالاحتفاظ بها عندنا . - قال الجنرال وهو يحاول تكوين بسمه على فمه ، ولكنها ماتت في تقلصات عضلات وجهه .

- الى اللقاء يا صديقي . - قال له - اوجو الا يسؤك صريح الكلام . لا تتصل بالمساجين . ليس من بريء سوى المجتمع . نحن اعرف بهم .

لقد كان مقتنعا من صواب ما يقول ، ولو شك لكان عليه ان يعترف بأنه لم يكن بطلا يختتم حياته بالهد والفخار ، وانما موظفا باع ضميره في شبابه ولا يزال يبيعه حتى في شيخوخته .

وصعد (نيكليندوف) زفرة عميقة ، وانحنى يصافح اليد الكبيرة التي اصبحت جلدا على عظم ، والتي كان القائد يدها له بتغاضي واسترخاء ثم خرج من المكتب .

وهز القائد بدورده رأسه استياء ، واخذ يحك خاصرته وهو يعود الى القاعة حيث كان الرسام بانتظاره ليطلع على جواب روح (جان دارك) الذي كان قد سجله الرسام . فوضع القائد نظاراته على عينيه وقرأ ما يلي : « تتعارف فيما بينها بواسطة النور الذي ينبعث من هياكلها الاثرية . »

— آه . — قال وقد اغمض عينيه دلالة الموافقة . — ولكن اذا كان النور متشابها فيها جميعا . فكيف تتعارف ؟

وعادت اصابعه الى التشابك من جديد باصابع الرسام ، بعد ان جلسا معا امام الطاولة الصغيرة

واسرع الحوذي بالابتعاد عن ذلك المكان يحمل الامير . ثم قال وقد تحول نحوه .

— ان هذا المكان يبعث الغم في النفوس . اوشكت ان ادعك وأذهب .
— هذا صحيح . — اجاب الامير وقد احس باطمئنان وراحة ، وهو يرنو بنظره الى الفيوم الخفيفة التي كانت تطوف الفضاء ، والبواخر والقوارب التي كانت تهزها مياه (النيفا) بلطف وشكل رقيق .

٨

ذهب (نيكليندوف) الى قصر مجلس الشيوخ في اليوم التالي وهو موعد انعقاد

المحكمة للنظر في طلب التمييز الذي تقدمت به (كاترين) فوافق وصوله اليه وصول المحامي (فاتارين) فدخلوا معا وصعدا سلما فدخلوا الى الطابق الثاني . وكان المحامي قد زار القصر غير مرة ، فدخل الى بعض الغرف حيث ترك معطفه ، وبقي بثوب (الفراك) وربطة العنق البيضاء . وعندما ابلغه المقرر ان المحكمة قد انعقدت ، دخل الى قاعة محاذية للتي كان فيها .

كانت القاعة واسعة يشطرها الى شطرين ستار عال وكان يتصدرها شيخ اشيب الشعر يرتدي بدلة رمادية يجلس امام طاولة وضعت فوق منصة يصعد اليها بسلم قصير . وكان يصعد السلم آنثذ موظف آتنيق يتأبط محفظة اوراق . وعندما تلاقي (فاتارين) بزميل له من بطرسبرج يرتدي الثوب الرسمي ، شرع يتحدث اليه بحماس عن قضايا مهنية .

كان (نيكليندوف) آنثذ يتفحص الاشخاص الموجودين في القاعة ، وكانو في حدود الخمسة عشر شخصا بينهم امرأتان احدهما صبية تضع نظارات على عينيها ، والثانية عجوز قد وخطها الشيب .

وكان الطلب الذي سينظر فيه أولا يتعلق بدعوى نشر ، وجريمة تشهير ، ولذا كان في المحكمة نظارة اكثر من المعتاد .

وتقدم المقرر من (فاتارين) وسأله ما الذي جاء به فلما اخبره انه محامي (كاترين ماسلوف) كتب بعض كلمات في ورقة كانت في يده .

وخرج الشيخ ذو المظهر البطريركي من باب داخلي كان مفتوحا ، ليرتدي البزة الرسمية الرائعة التي تجعله شبيها بعصفور جميل . وكان الشيخ مضطرب الحواس دون شك ، بدليل انه ما عثم ان توارى وراء باب مقابل للدخل وهو يسير مسرعا اكثر من المعتاد .

— هذا هو (بي) الرجل الاكثر نفوذا في هذا القصر . — قال (فاتارين) للأمير .

وفتحت الجلسة بعد دقائق قليلة . فجلس (فاتارين) و (نيكليندوف) في مكان النظارة ، وجلس المحامي الثاني في الجانب الآخر امام طاولة صغيرة . وعلى الرغم من كون المحكمة العليا اقل اتساعا واكثر بساطة من محكمة الجنائيات فانها كانت تمتاز عنها بغطاء الطاولة الخملي الاحمر بدلا من الغطاء الكتاني الاسود وفيما عدا ذلك فقد كانتا لا تختلفان في شيء حتى الأيقونة والهيكल الصغير . كذلك وقف المقرر كما وقف زميله هناك ، وصاح ببلء صوته :
- المحكمة .

و كذلك تقدم اعضاء مجلس الشيوخ بأبهة مرتدين البزات الفخمة ، وجلسوا على المقاعد ذات المسند العالي ، محاولين الظهور بمظهر طبيعي .
كان هؤلاء اربعة : (تيكيتين) وكان حليق اللحية قاسي النظرات حادها كنصل الخنجر ، و (فولف) وكان مقطب الشفتين ابيض الالوين يحمل فيهما بعض الاوراق . (وسكوفور وديكوف) الرجل البدن الثقيل الجثة المنفوخ الوجه . واخيرا (بي) الشيخ المعجوز البطريركي . وجاء معهم الناموس العام بالنيابة عن النائب العام ، وهو رجل ربع القامة نحيف الجسم ، حليق اللحية اسود العينين ، وحزينا دائما وعلى الرغم من البزة التي كان يرتديها والتي كانت تظهره بمظهر مختلف ، وعلى رغم الاعوام الست التي مرت دون ان يراه (نيكليندوف) فقد عرفه على الفور لانه كان من خيرة اصدقائه ورفيقه اثناء الدراسة في الجامعة .

- اهذا هو النائب العام (سيلينين) ؟ - سأل الامير (فاتارين) .
- اجل . ولماذا تسألني عنه ؟
- لانني اعرفه جيدا . انه شخص ممتاز .
- هو نائب عام رائع وذكي . وربما كان مفيدا لنا للاتصال به .
- يصرف اعماله بمقتضى وحي ضميره . - اجاب الامير ، وقد تذكر الصداقة المثينة التي كانت تربطه به والنزاهة التي عهده يتحل بها .

- لقد أصبح ذلك متأخرا . - اضاف المحامي وهو يصفى الى تلاوة
الملخص .

كذلك حاول (نيكليندوف) الوقوف على فحوى تلك الدعوى الا انه لم
يتمكن من ذلك تماما . اذ ان الذي يناقش دائما في الدعوى ليس للعنصر
الاساسي فيها وانما ملاساتها الثانوية . كانت الدعوى ملاحقة للصحيفة اكتشفت
تلاعب مدير شركة مساهمة فاذاعته . وكان منطقيا ان تتحرى المحكمة عن
صحة ما يعزى الى المدير من التلاعب بارواح المساهمين ولكنهم كانوا يبحثون
عما اذا كان الجرم مجرد تشهير أو تهمة ، وعما إذا كانت هذه تتضمن عناصر
التشهير او هذا يتضمن عناصر تلك . كذلك كانوا يبحثون فيما هو اشد غموضا
وايهاما على الناس ، اذ كانوا يبحثون عن الصلة بين قرار حكم ، وبين قرار حكم
سابق .

لم يبد جليا واضحا لعيني (نيكليندوف) اللهم الا امر واحد وهو ان
(فولف) الذي يقوم في هذه الدعوى بدور المقرر ، والذي صرح له منذ يومين
بانه لا يمكن بحث اصل الدعوى ، قد أصبح الان متحيزا ، وان (سيلينين)
المعروف بتساهله ، يقف الان موقفا مخالفا عنيفا . والسبب في ذلك كونه
يعرف الظنين معرفة تامة ، ويعلم ما تنطوي عليه نفسه من سوء وانه جدير
بارتكاب اي جريمة على حساب مصلحة الغير ، وانه قبل قليل من رؤية الدعوى
كان قد اولم وليمة حضرها (فولف) كمدعو .

كل هذه العوامل جعلت (سيلينين) يثور عند سماعه مطالعة (فولف) ،
ويقف فيبيدي رأيه بحماس غير معهود فيه . وكان لذلك رد فعل سيء لدى
(فولف) الذي كان يتململ في مقعده ، ويبيدي يديه حركات كمن يشير
اشارات ، ويفهم بكلام غير مفهوم وقد أحسقت وجهه . غير انه اخيرا انسحب
مع بقية الاعضاء الى غرفة المذاكرة بكبرياء الكرامة الجريحة .

- لمصلحة من جئت ؟ - قال الكاتب (لفانارين) .

- لقد قلت لك من قبل انني جئت محاميا عن (كاترين ماسلوف) . -

اجابه المحامي .

- حسن جدا . ولكنهم سيناقشون طلبها بصورة مختلفة .
- وما معنى ذلك ؟

- بما ان هيئة المحكمة كانت تعتقد بان صاحبة العلاقة سوف لا تحضر الجلسة
فقد رأوا البقاء في قاعة المذاكرة ولكني ... ساحاول اعلامهم .
- باي طريقة ؟

- سافكر في ذلك ، سافكر في ذلك - اجابه الكاتب وهو يدون شيئا على
ورقة كانت بيده .

والواقع ان اعضاء مجلس الشيوخ كانوا يتودن ، بعد ان يفصلوا دعوى التشهير
في جلسة علنية ، ان ينظروا في بقية الدعاوي على افراد في قاعة المذاكرات
وهم يدخلون التبغ المعطر ويرتشفون اقداح الشاي .

٩

حالما دخل اعضاء المحكمة قاعة المذاكرات تحلقوا حول طاولة وبدأ
(فولف) مطالعته بحماس شديد ، مبينا الاسباب الموجبة لتمييز القرار
موضوع البحث .

ولكن الرئيس الذي كان سيء المزاج ، كان قد اصدر قراره في هذه
الدعوى مسبقا . وفيما كان يفكر في احد فصول مذكرات حياته التي ينوي
وضعه ، كانت كلمات (فولف) تبلغ سمعه كأنغام موسيقية مزعجة نائية .

كان الرئيس (نيكيوتين) قد كتب في اليوم السابق فصلا في مذكراته
هاجم فيه بعض الموظفين من الدرجة الاولى حالوا بينه وبين انقاذ روسيا من
خراب محقق أو باصح تعبير ، حالوا دون تقاضيه راتبا اكبر من راتبه الحالي .
وفيما كان القاضي المقرر يلقي مطالعته ، كان هو يفكر في ان مذكراته
ستكون وثيقة تنقل تلك الاحداث الى الاجيال المقبلة .

— هذا الواقع . — قال معقبا على كلمات (فولف) التي لم يكن قد وعى منها حرفا واحدا .

وكانت (بي) يصفي وامارات الفم بادية على وجهه مثلها برسم تاج على ورقة بيضاء .

كان متحمسا لحرية الصحافة ، محافظا على تقاليد نصف القرن الماضي . واذا كان قد تحيز في احكامه ذات مرة فقد كان لصالح الحرية . وكان من رأيه رد الطلب في تلك القضية لأنه يعتبر الدعاوي ضد الصحافة بمثابة اعتداء على حرية النشر .

وعندما انهى (فولف) مطالعته ، ولم يكن (بي) قد انجز رسم تاجه ، صرح هذا بصوت حزين وكلمات مقتضبة ان الاسباب الموجبة للتمييز كانت غير كافية ، ثم عاد الى متابعة الرسم .

كان (سكوفورو دنيكوف) جالسا قبالة (فولف) وهو يقضم شعر لحيته وشواربه ، فلم يكذب (بي) ينتهي من كلامه حتى هب من مقعده واقفا وقال بصوت ابح عال انه كان يرى ان تميز الدعوى اذا كانت الاسباب الموجبة كافية . على الرغم من اقتناعه بنذالة صاحب العلاقة . وبما ان هذه الاسباب غير كافية فانه يرى نفسه مجبرا على القول برد الطلب وفاقا لما ارتأه (بي) . وكان الارتياح باديا عليه شأنه في كل مرة يعاكس فيها (فولف) . وجاء رأي الرئيس موافقا لرأي (سكوفورو دنيكوف) فرد الطلب .

وهناك ادرك (فولف) ان تحيزه قد افترض فاعتم لذلك غما شديدا ، ثم تناول طلب (ماسلوف) وشرع في دراسته .

كان اعضاء مجلس الشيوخ بعد ان تناولوا الشاي ، يعلقون على حدث كان يستأثر باهتمام الرأي العام كمنارزة (كامينسكي) ، وذلك هو الدعوى التي رفعت

على رئيس محكمة ارتكبت جريمة مخالفة المادة (٩٩٥) من القانون مخالفة صريحه .

- انها لفضيحة . - هتف (بي) يقول .
- لست ادري لماذا يرى الناس ما هو غير عادي في ذلك . - اجاب
(سكوفورو دنيكوف) - بوسمي ان اسمي مؤلفا المانيا يؤكد ان هذا العمل
لا يشكل جرما ، ويقترح ان تجيزا القوانين الزواج بين رجل ورجل .
ثم قهقهه عالياً وهو يعب دخان لفافة التبغ التي يحملها بين سبابته والوسطى .
- هذا مستحيل . - قال (بي) محتجا .
- وسأسميه لكم . - وذكر لهم عنوان الكتاب وتاريخه ومكان طباعته .
- يؤكدون انهم سيبعثون به حاكما على احدى مدن سيبيريا . - اضاف
يقول (نيكيتين) .

- رائع . وسيخرج المطران لاستقباله رافعا بيده الصليب ولكنني اتقنى ان
يكون المطران على شاكلته . وقد يكون بوسمي ان اقدم رجلا صالحا لمثل
هذا . - قال (سكوفورو دنيكوف) .
وهنا جاء الكاتب واعلن للاعضاء رغبة (نيكليندوف) (وفاتارين) في
حضور مناقشة طلب (كاترين ماسيلوفا) .
انها حكاية ممتعة . - قال (فولف) . ثم قص عليهم ما يعلمه من علاقة
(نيكليندوف) بالسجينة .

وعاد الشيوخ الى القاعة بعد ان فرغوا من شرب الشاي وتدخين التبغ . ثم
تلو القرار الذي اتخذوه بالنسبة للطلب الاول ، وشرعوا في بحث طلب
(ماسيلوفا) . فشرح (فولف) بصوت ناعم كافة مراحل الدعوى بكافة
تفاصيلها ، ولكن بدون تحيز الا ان رغبته في قبول التمييز كانت واضحة .
فسأل الرئيس المحامي (فاتارين) اذا كان لديه ما يضيفه .

فهب هذا من مقعده واقفاً بارز الصدر يزيده بروزاً قميصه الابيض المنشأ ، وطلق يتكلم بأبهة رائعة ولسان زلق عن التحالفات التي ارتكبتها المحكمة لروحية القوانين ، وحصرها في ست نقاط . وأشار الى الظلم الفادح في القرار . وكان في دفاعه المقتضب الذي يضع النقاط على الحروف ، يعتذر عن الحاحه الشديد ، على الرغم من شدة اقتناعه من حكمة ومعرفة الشيوخ بروحية القوانين ، بقوله انه يؤدي واجبه ويلبي نداء ضميره .

وكان يبدو انه من المستحيل ان يشك احد بعد ذلك الخطاب في ان المحكمة ستقرر فسخ الحكم . وهذا هو الانطباع الذي استولى على (نيكليندوف) عندما رأى اشراقة وجه محاميه والابتسامة التي اتى هذا دفاعه بها . ولكنه لاحظ الى جانب ذلك ان الضجر كان قد استولى على الجميع سواء في ذلك الشيوخ والنائب العام ، اذ ان كلا منهم قد اطلق زفرة ارتياح عند نهاية الدفاع شأن من يفرغ من عمل شاق .

واعطيت الكلمة للنائب العام ، ففند هذا الطلب بكلمة مختصرة حاسمة ، واعتبره غير مستوف اسبابه الموجبه . ثم انتقل الشيوخ الى قاعة المذاكرة حيث وافق (فولف) على الطلب وايده (بي) لانه كان قد تبين الحقيقة ، وaban لزملائه اغلاط المهلفين بوضوح محاولا جهد اقناعهم بها . وارتأى (نيكيوتين) الشديد المحافظة على القوانين خلاف ذلك . وهكذا كان رأى (سكوفورو دينكوف) الرأي المرجح .

وكان ان صوت هذا ضد الطلب . لقد كان في رغبة الامير بالزواج من (ماسلوف) تلبية لنداء الواجب مايعتبر جنونا في نظره . وكان ، وهو الدارويني المادي المتشدد ، يرى ان مبادئ الاخلاق المجردة ، بل اكثر من ذلك كان يرى في الشعور الديني ليس جنونا فحسب وانما اهانة شخصية له . وقد ازعجه ما اثير من ضجة لاجل امرأة زانية ، كحضور محام مشهور للدفاع عنها،

وحضور (نيكليندوف) نفسه الذي ينوي الزواج منها. وأبدى رأيه بصوت طبيعي وهو ما زال بعض لحيته ، متجاهلاً سائر ما قيل عن القرار، بالموافقة على رأي الرئيس برد الطلب .

وهكذا وقع ، ورد الطلب . فبدد هذا القرار اول امل داعب نفس (نيكليندوف) طيلة شهر كامل .

- ١٠ -

- يا للصغارة . الخطأين ، والظلم في القرار واضح . - كان (نيكليندوف) يقول (لفاتارين) وهما خارجان من قاعة المحاكمات . - ان رفض اصلاح الخطأ في قرار المحكمة مراعاة للشكليات حقارة مدهشة . يا للضعة .

- لا يتوقع غير ذلك من المحكمة . - قال المحامي .

- حتى (سيلينين) عارض الطلب . يا للفضاعة ، يا للفضاعة .

- كان (نيكليندوف) ما زال يردد . - والآن . ما العمل ؟

- علينا ان نتقدم باسترحام لصاحب الجلالة الامبراطور والافق تقديمه قبل مغادرتنا (سان بطرسبرج) . ساكتبه في الحال .

وهنا جاء (فولف) وهو ما زال في بزته الرسمية الرائعة المغطى صدرها بالصلبان وتقدم من (نيكليندوف) وقال له .

- ما حيلتنا يا حبيبي . لقد كانت الاسباب الموجبة غير كافية . ثم هز كتفيه ومضى في طريقه .

وجاء بعده (سيلينين) وكان قد علم بوجود صديقه (نيكليندوف) في المحكمة .

- لم يكن يخطر لي على بال ان التقي بك في هذا المكان . - قال وهو يتقدم من

الامير مبتسماً ابتسامة تتناقض مع ما في نظراته من حزن . - لم أعلم بوجودك في بطرسبرج .

- كنت اجهل انك اصبحت نائباً عاماً ..

- قل و كيل . - قال مصححاً ، وهو يحدق في صديقه . - ولماذا جئت إلى مجلس الشيوخ ؟
- لماذا جئت ؟ .. لانني كنت اثن من ان العدالة آخذة مجراها هنا ، وان قراراً ظالماً ادان امرأة بريئة بائسة سيلغى .
- واي امرأة ؟
- تلك التي رددتم طلبها بتمييز الحكم .
- آه . اجل . هو طلب (كاترين ماسلوتا) . - قال (سيلين) وقد تذكره . ولكن هذا الطلب لا يركز على اساس .
- ليست القضية قضية الطلب . فكر في انهم اوقعوا على امرأة بريئة عقوبة لا تستحقها .
- فزفر (سيلين) زفرة عميقة .
- قد يمكن . ولكن ...
- لا يمكن . هو ...
- ولكن . كيف علمت انت ؟
- كنت من المحلفين في الدعوى ... واعرف جيداً الخطأ الذي ارتكبهنا .
- فاخذ (سيلين) يفكر .
- كان ينبغي ان تصرح به في الحال . قال ملاحظاً .
- هذا ما حصل .
- لا يكفي ذلك . كان ينبغي عرضه مع المعلومات الشفوية ولو ذكر في طلب التمييز ..
- ويبدو ان (سيلين) كان جم المشاغل ، وقليل الاختلاط باوساط المجتمع ، اذ كان يجمل قصة صديقه (نيكليندوف) الذي ادرك ذلك ورأى انه من غير المناسب اطلاعه على شيء منه .
- حتى من القرار ذاته يستدل على وجود الظلم .

- ليس هذا من صلاحية المحكمة . فلو انهم بدلا من البحث عما اذا كان ثمة مخالفات قانونية ، خالفوا قرار المحكمة الدنيا واخضعوا اساس الدعوى لقناعتهم ، اذن لتعرضوا لخطر ازهاق العدالة بدلا من اقرارها - قال وكيل النيابة معلقاً - وعلاوة على ذلك فقد تفقد مطالعة المحلفين خاصيتها .

- كل هذه أقوال وجيبة . - قال (نيكليندوف) . - ولكنها لا تخفف شيئاً بما ارتكب من ظلم فادح . لقد صدقت اعلى المحاكم خطأ فادحاً .
فأغض (سيلين) عينيه .

- كلا . كلا . انها لم تصادق شيء لأنها لم تبحث في اساس الدعوى ، اذ ليس من اختصاصها بمحـ ... ولنتكلم عنك . - قال كمن يريد وضع حد لحديث غير مرغوب فيه - لقد اخبرت امس انك موجود في بطرسبرج ، وانك تقيم في منزل خالتك الكونتيس (اليكاترين) التي دعيتي لحضور موعظة لاحد الوعاظ المشهورين . واكدوا لي انك ستحضرها .

- اجل . ولكنني انصرفت متفرزاً . - اجاب (نيكليندوف) بجفاء لأنه لاحظ ان صديقه يرغب في تغيير مجرى الحديث .
- ولماذا ؟ هو على كل حال عمل دينين .

- بالنسبة للموعظة او كد لك انها كانت اثرثة غير ذات محتوى .
لا ، لا . لا أستطيع ان افهم . كلكم تقريباً تدافعون عن بدع جديدة بدلا من المعتقدات القديمة . - اجاب (سيلين) كأنه يتوخى معرفة رد الفعل الذي تحدثه كلماته لدى (نيكليندوف) .

فحدق فيه الامير مدهوشاً ، ومستنطقاً عينيه . فأترق هذا بنظره الى الارض ليخفي عنه الاستياء البادي فيها بمتزجاً بحزنه المعتاد .

- ولكن هل تؤمن انت بمعتقدات الكنيسة ؟ - قال (نيكليندوف) يسأله .
- بلا تردد .

- انه لامر غريب . - اجاب (نيكليندوف) .

- سنبعث هذا فيما بعد . - قال (سيلين) ثم التفت إلى احد الكتبة وكان يتقدم منه وقال له . - سأعود قريباً . - ثم أضاف - ينبغي ان نتواجه . متى وابن استطيع الاجتماع بك ، انه لمن دواعي سروري ان اراك . اسكن في شارع (فارجينسكايا) ... ولكن كم تغيرنا منذ افترقنا .

ثم ابتسم له وهو يتبعد .
- سأرى اذا كان يتسع وقتي لذلك . - اجاب الامير .
واحس ان قد انقصم ما بينها . وان ذلك الصديق الذي كان فيما مضى حميماً ، قد اصبح بعد ذلك اللقاء القصير شخصاً عادياً غامضاً بالنسبة له ، ويكاد يكون عدواً .

- ١١ -

كان (سيلين) عندما تعرف عليه (نيكليندوف) وتوطدت اواصر الصداقة بينها ، شاباً طيب الشعور دمث الاخلاق ، وصديقاً مخلصاً وصدوقاً ، ويكاد يكون رجل امة بالنسبة لسنه ، محترم الجميع ، ومحترماً من الجميع . وكان دؤوباً على الدرس مع حسن استفادة وعدم تبجح ، على الرغم من الاوسمة العديدة التي حصل عليها في المسابقات الثقافية .

كان في شبابه يقول بوجوب التضحية في سبيل الغير ، وينفذ هذا القول عملاً قولاً فحسب . ولما كان يرى الوظيفة الرسمية اوفى بهذه الغاية ، فقد بحث عن اكثرها امكانية خدمة ، فالتحق بالقسم الثاني من القضاء المولج بتنفيذ القوانين ولكنه ما عثم ان ادرك ان هذا المنصب غير خليق يا بلاغه ما يصبو اليه فانتقل الى المحكمة العليا .

وكان هناك في مكانه المناسب . الا انه لم يكن راضياً كل الرضى ، لانه ادرك انه لم يصبح الرجل الذي كان يرغب في ان يكونه . فتوسط له اقاربه في ذلك الوقت فعين (جنتلمان) في البلاط . فسارع وهو يرتدي بزته الرسمية الزاهية المطرزة لتقديم الشكر والامتنان لاولئك الذين اوصلوه بسعيهم لمنصب الخادم . ولكنه ادرك حينذاك انه كان يزداد بعداً في كل مرة عن اهدافه في الحياة . غير انه لم يكن يوسعه

ان يرفض المنصب مخافة الاساءة الى ذويه ، هذا بالاضافة الى انه عندما رأى نفسه في البزة الرسمية الرائعة المطرزة بالذهب ، ابتسم حبوراً وأخذ بالاجلال الذي يسيده الجمهور للابسيها .

كذلك كان شأنه عند زواجه ، اذ انتقى له المقربون منه فتاة ، بمقتضى الموافقة الاجتماعية ، فلم يجرؤ على رفض الزواج منها خشية إيذاء شعور اولئك الذين يهتمون لامره ، وكذلك كيلا يخرج موقف الفتاة التي كانت جميلة وابنة لعائلة متميزة واسعة الثراء . ولكن هذه ، اعربت عن زهداها بعد الولادة الاولى ، في انجاب المزيد من البنين ، واندفعت في تيار الملذات الدنيوية التي جرفته اليها .

وكانت وحيدته الجعده الشعر التي كانت على الدوام عارية الفخذين ، تشبغرية عن والدها ، خصوصاً لانهم كانوا ينشؤونها على غير رغباته . وكان هذا الصراع المستمر الصامت المستر عن اعين الناس الغرباء يجعل حياة (سيلين) اليتيم مؤلمة جداً . ومن هنا كان منشأ الكتابة الدائمة المرتسمة في نظراته .

غير ان المكان الذي كان اكثر ادراكاً انه فيه غير ما ينبغي ان يكون هو فهمه للدين . كان ، كغيره من الاشخاص العديدي الذين في مثل وضعيته ومن مثل زمنه ، قد فصح العري التي تربط النفس بتوافه الحرافات الدينية . وكان ، وهو الرجل الجاد الشريف ، لا يكتم قط آراءه ، ولا يؤخذ بدوافع الرياء .

ولكن حرية الضمير هذه اصبحت ، بمرور الزمن ، وبسبب نجاحه المطرد في حياته ، مصدر ازعاج له في ذلك المجتمع الذي تعصف به رياح الرجعية .

كان على (سيلين) ان يختار بين امرين : فاما ان يتظاهر باعتناق دين كاث بعيداً كل البعد عن الايمان به . وهذا ما يتناقض وطبعه الصادق الصريح ، او ان يتهج لنفسه نهجاً في الحياة لا يحتاج معه الى التظاهر بما لا يشعر به حقاً . ولكنه كي يأخذ بهذا الاخير الذي يبدو لاول وهلة سهلاً ، كان عليه ان يستعد لاشياء جمّة ، منها معارك مستمرة مع احبائه ، واستقالته من منصبه ، وتخليه عن فكرة مساعدة القريب . الامر الذي كان يرجو ان يحققه في المستقبل . وكشخص مثقف ، دارس للتاريخ ،

مطلع على نشأة الكنيسة المسيحية وتطورها ، فقد كان واثقاً من انه كان على حق ، وكان لا يقيم وزناً لمعتقداتها . ولكن ضرورات الحياة وحاجاتها ارغمته على التساهل قليلاً مع ضميره ، قائلاً في نفسه ان اظهار مغايرة قانون ما للمنطق وللعدالة يقتضيان ان نبحت عن مكان وجود هذه المغايرة . وكان ان قاده ذلك التساهل البسيط ، وتلك الاكذوبة الصغيرة الى حقل الاكاذيب الكبيرة الشاسع الذي يكاد يحتق في الآن .

لقد قرأ مؤلفات لكبار العلماء امثال (فولتير) و (شوبنهاور) و (كنت) و (سبنسر) ، وقرأ مؤلفات (هيجل) الفلسفية ومؤلفات (فينت) و (شومياكوف) الدينية . ولما كان كان طبعياً ان يجد فيها كل ما ينشده فقد اطمأنت نفسه المضطربة القلقة لوقوعه على مبررات لتلك النظريات الدينية التي ما زال ذكاؤه يرفضها منذ أمد بعيد ولكنه ما زال يراها ضرورية للتخلص من ذلك الصراع الذي كان يقض مضجعه في حياته . لقد قيل باستمرار انه ليس بوسع رجل واحد ، حتى ولا يسع جماعات منتقات من الرجال ان يدركوا الحقيقة ، وان خير سبيل لمعرفة الوحي الالهي الذي اختصت به الكنيسة وحدها . وهكذا اصبح بوسعه التستر بهذه السوفسطائيات وامثالها ، فيتناول القربانة ، ويركع مراتح الضمير مطمئن النفس ، ثم يتابع تدرجه في السلك فيخفف من مرارة حياته البتية بإسداء الخير للناس .

واخذ يقنع نفسه شيئاً فشيئاً بأنه كان مؤمناً ، في حين كان سائر كيانه ينطق بأنه ، في هذا ، اكثر من اي شيء آخر ، لم يكن الرجل الذي ينبغي ان يكون . وهكذا كانت الكتابة المظلة من نظراته انعكاساً لكتابة روحه .

وعندما التقى في هذه الظروف بالأمير الذي عرفه عندما كانت نفسه مبرأة من تلك الاضاليل ، احس اكثر من اي وقت مضى ، بأنه اضاع سبيله في الحياة فغمرته موجة من الغم كادت تضنيه .

كذلك كان شأن (نيكليندوف) اثر الوهلة الاولى من سروره بلقاء صديقه القديم (سيلين) . وهكذا افترق الصديقان القديمان ولم يلتقيا بعدها على رغم الوعود المتبادلة بالاجتماع مرة ثانية . وغادر (نيكليندوف) مدينة بطرسبرج دون ان يعود فيرى صديقه القديم .

بعد خروج الامير و (فافارين) من قصر مجلس الشيوخ طفقاً بميثان معاً على رصيف الشارع . وامر المحامي حوزيه بالالحاق بها عن كتب . ثم شرع يقص على الامير الحادثة التي اشار اليها الشيوخ اثناء حديثهم اي تعيين ذلك الوغد حاكماً على سيديربا . كذلك قص عليه كيف ان لجنة مؤلفة من بعض ذوي النفوذ وضعت يدها على مبلغ من المال كان قد جمع لاقامة نصب تذكاري ، وقصصاً اخرى لا نهم الامير بكثير او قليل . كحادثة بيع رجل لزوجته ، وغيرها كسواء رجل لزوجته بالمال ، واختلاسات ، وجرائم من مختلف الاشكال ارتكبت من قبل اشخاص من ذوي المكانة والنفوذ ، الذين اصبحوا مدراء شركات صناعية ، ورؤساء اعمال خيرية وسخافات غير هاتشا كها ، وكان ينبغي ان يقبروا في السجون .

هذه اشياء لها اهميتها بالنسبة (لفافارين) لانها تتصل بمهنته كمحام ، ولكنها كانت غير ذات اهمية بالنسبة للامير ، ولذا فقد دهش صديقه عندما ودعه واستقل العربة عائداً إلى البيت ، قبل ان ينهي حديثه .

كان الامير شديد الغم . وزاده المأقران المحكمة العليا برد طلب التمييز الذي قدمته (كاترين) لانه لا يستطيع تناسيها وهي البريئة المدانة . كذلك كانت القصص التي رواها له المحامي بطلاقة وقوة بيان من العوامل كان لها اثرها في مضاعفة غمه ، والنظرة الباردة الكئيبة التي ودعه بها (سيلين) الذي عرفه طيباً نيلاً مستقيماً . وعندما بلغ البيت قدم له البواب بطاقة كتبها في مكتبه امرأة هي ام (شينستوفا) التي جاءت تشكر من احسن اليها ، وكان له الفضل في خلاص ابنتها ، وتتوسل اليه ان يزورها في منزلها بشارع (فاسيليفكاجا) الصف الخامس في اليوم التالي اذا تمها له ذلك فيضاعف سرورها . ويستحدثون عن (فيرا ايفرا موفنا) . كذلك وردته رسالة من (بوغاتيروف) مساعد الامبراطور ورفيق (نيكليندوف) السابق الذي كان قد طلب اليه ان يقدم شخصياً استرحاماً باسم المبعدين الى القفاس بقضايا دينية .

ويقول (بوغاتيروف) في رسالته التي كتبت باحرف كبيرة انه سيسلم الاسترحام يدأ بيد الى جلاله الامبراطور تنفيذاً لوعده له ، ثم يعرض عليه فكرة غنت له ، هي .
الا يرى من الافضل القيام بعمل ما لدى اولئك الذين يرتبط بهم مصير الدعوى ؟ .

كانت انطباعات الایام الاخيرة التي قضاها الامير في بطرسبرج قد هدمت كثيراً من معنوياته اذا كان لمقاصده الرائعة التي كان قد وضع خطوطها في موسكو نفس الاثر الذي تحدثه احلام المراهق التي تبخر حلاًلاً بخطوطه الاولى في طريق الحياة .

كان الامير منذ وصوله الى بطرسبرج يرى ان الواجب يقضي بان يحقق سائر مشاريعه ، فأخرج من جيبه بطاقة ام (شينستوفا) ، واقبل يقرأها من جديد ، وفيما هو كذلك وقف خادم بالباب ودعاه ، باسم خالته الكونتيس للذهاب الى جناحها ليتناول الشاي عندها . فخف في الحال ملياً دعوتها . وعندما مر بقرب احدي النوافذ رأى عربة (مارييتا) واقفة امام باب المدخل ، فسر ذلك سروراً عظيماً وانتزع منه البسمة انتزعاً .

كانت (مارييتا) ترتدي ثوباً ملوناً وتضع على رأسها قبعة فاتحة اللون ، وهي جالسة بقرب الكونتيس تتناول الشاي ، وتغمغم ببعض كلمات ، ويتألق بريق عينيها الضاحكتين الجميلتين . وعرف نيكليندوف (من ضحكها انه قد قطع عليها حديثاً سخيلاً كانتا تتحدثان فيه عندما دخل عليها كانت الكونتيس تفقه ضاحكة وتتولى يحسبها الضخم ، اما (مارييتا) فعلى العكس كانت تكتفي بالابتسام وتدني وجهها المرح الجريء من محدثها ، وتحقق فيها بنظرها . واستدل (نيكليندوف) من بعض كلمات عابرة انها كانتا تتحدثان عن تعيين الحاكم الجديد على سيبيريا .
- اسكتي ، اذا كنت لا تريدني ان انفجر . - قالت الكونتيس دون ان تقوى على امساك نفسها عن الضحك .

فجاء الامير السيدتين ثم جلس على احد المقاعد . واوشك ان يحكم بالخفة على (مارييتا) ، ولكنها ادركت ما يجول في خاطره ، فأسرعت بطرد امارات المرح

عن مجيها ارضاء له . (لقد كان هذا هدفها منذ رآته لأول مرة) ، وظهرت الرزاة والجد على وجهها وسائر كيانها ، والتعب من الحياة كمن يرى الوقت يمر وهو يبحث باهتمام عن شيء لا يجده . ولم يكن هذا منها تصنعاً ، اذ انها استطاعت في وقت من الاوقات ان تبني حالات (نيكليندوف) النفسية ، على الرغم من عدم استطاعتها تحديدها لو طلب اليها ذلك .

فسأله (مارييتا) بدماثة وكياسة عن القضايا التي تهمة ، فأخبرها عما صادفه من سوء الطالع في المحكمة ، وعن لقائه (بسيلين) .

— (سيلين) ؟ يا له من روح طاهرة . انه شهم حقيقي لا غبار عليه ، ولا مكان للخوف في نفسه . يا له من روح طاهرة . - قالت المرأتان مرددين النعت الذي كان المجتمع يصف به (سيلين) .

— وزوجته ، ماذا تصنع ؟ وكيف تعيش ؟ - سأل (نيكليندوف) .

— امرأته ؟ ... لا اريد ان انتقصها ، ولكنها لا تستطيع ان تفهم زوجها ... ولكن ، هل وقف معارضاً لطلب التميز ؟ - قالت (مارييتا) سأله - انه لأمر رهيب . انني ارثي لحال هذا الشاب ... - اضافت تقول وهي تصعد زفرة . فزوى (نيكليندوف) ما بين عينيه وطفق يتحدث عن (شينستوفا) لغير مجرى الحديث ، واخبرها انه قد اخلي سبيلها بفضل تدخل زوجها الذي لا يدري كيف يشكر له حسن صنيعه . وكان ينوي ان يضيف الى ذلك قوله انه من الحزن حقاً ان تتألم عائلة بكاملها طوال هذه المدة لانعدام من يهتم بها ليس إلا ، غير ان (مارييتا) لم تترك له فرصة اذ قاطعته مؤنبة . وكانت الكونتيس (ايكاترين ايفانوفنا) قد تبينت مطاردة (مارييتا) لابن اختها فسرت لذلك كثيراً .

— اتدري بماذا افكر الآن ؟ - قالت بعد صمت قليل . - تعال غدا مساء الى منزل (الينا) حيث سيكون (كيزيفتر) . وتعالى انت ايضا . - قالت (لمارييتا) ثم وجهت الكلام لابن اختها قائلة : لقد استرعت انتباهه ، وقد قال لي ان ما تعانيه نذير خير ، ويعني انك سترتد الى الخطيرة . تعال ، تعال على كل حال . قولي له

يا (مارييتا) ان يذهب . وانت ينبغي الا تخلفي عن الحضور .
 - قبل كل شيء يا سيدتي الكونتيس ارى انه ليس من حقي ان اقدم نصائح
 لسوا الامير . - اجابتها (مارييتا) وهي ترمق الامير بمؤخر عينها - ثم ينبغي
 ان تعلمي انني لست ممن يعجب ...
 - اعرف ذلك منك انك تأتين الاشياء على غير وجهها الصحيح ، وعلى هواك .
 - اهكذا ترينني ؟ - اجابتها وهي تضحك - فيما يتعلق بالدين فانا اؤمن به كما
 تؤمن أبسط قروية . ثم انا ساذب غدا الى المسرح الفرنسي .
 - هل استمعت لها ؟ ... ماذا تدعى ؟
 فذكرت لها (مارييتا) اسم الفنانة الفرنسية الشهيرة .
 - اذهب لتشاهدها . انها لروعة .
 - الى من استمع اولا يا خالتي الحبيبة ؟ الفنانة ام للواعظ ؟ . - قال
 (نيكليندوف) يسأل ضاحكاً .
 - لا تنزأ بكلماتي .
 - يبدو لي انه من الافضل ان استمع الى الواعظ اولا ، ثم الى الفنانة كيلا
 افقد كل طعم الموعظة . - قال الامير .
 - كلا . الافضل ان تبدأ بالمسرح وتنتهي بالتوبة . - اجابت (مارييتا) .
 - ارجو الانزأ بي . الواعظ هو الواعظ ، والمسرح هو المسرح . وخلص
 الروح لا يتطلب وجوهاً غامسة ، وعيوناً كالينابيع تتفجر منها الدموع باستمرار .
 في الأيمان غناء وكفاية للاحساس بالسرور العظيم للخلص .
 - انت يا خالتي تكلمين خيراً من سائر الوعاظ .
 - حسن . - قالت (مارييتا) بعد ان فكرت قليلاً . - بماذا ستبدأ غداً ؟ تعال
 غداً إلى مقصوري .
 - اخشى الا يكون ذلك في مقدوري .
 وقطع عليهم الحديث خادم جاء يعلن قدوم سكرتير إحدى الجمعيات الخيرية التي
 كانت الكونتيس رئيسة لها .

- انه مزعج حقاً . سأقابلة فترة قصيرة . قدمي له الشاي يا (ماريتا) ريثا اعود
قالت الكونتيس ثم خرجت من الغرفة بخطى سريعة رشيقة .
فخلعت (ماريتا) قفازها فبدت يدها اللطيفة العصية القوية وأصابعها المسلاى
بالخواتم .

- هل لك في كأس من الشاي . - قالت وهي تقدمه له . - انه لما يبعث الألم في
نفسي ان ارى من اقدرهم يجدهم حاضري فيحسبونني انتمي للجو الذي اعيش فيه
مضطرة .

وفجأة علت وجهها امارات غم وأسى ، كما لو كانت على وشك أن تنفجر باكية .
فأثر ذلك في نفس (نيكليندوف) . ورأى في كلماتها الشيء الكثير من الطيبة
والنبل على الرغم من غموضها وإبهامها . وكان للنظرات المتوقدة التي كانت ترنو بها اليه
تلك المرأة الشابة الأنيقة الجميلة من التأثير على نفسه حتى كانت وهي تداعبه بهاتكبله
بأغلاها .

وكان يرنو اليها بنظراته وهو صامت دون ان يقوى على ان يرفع نظره عن ذلك
الوجه الجميل .

- اتحسب اننى لو أدرك ما يحول في خاطرك ؟ . - هتفت تقول (ماريتا) - ان
ما فعلته اصح ملء الأسماع ، وانني لمعجبة بك ، وفوق ذلك اقرئك عليه .
- ليس هنالك ما يستحق الإعجاب . لقد قمت بعمل قليل .

- هذا لا يهم ، فأنا اقدر الشعور الذي حملك عليه . كذلك ادرك ما تشعر هي
به . انه لصنيع جميل . جميل جداً . ولكن لندع الكلام في هذا . - اسرعت تقول
عندما تبينت شبح الاستياء قد بدأ يعلو وجهه . - انا اعلم جيداً انه ازاء ما يلاقيه
المساجين من هول وويلات . - قالت متابعة حديثها متوخية استجلابه اليها ، ومدركة
بألدى الجنس النسائي من دقيق الحس أهم الأشياء في نظره وأغلاها لديه . - انا اعلم
انك ترغب في إسعاف هؤلاء الذين يتضورون ألماً بسبب لا مبالاة وقسوة الآخرين .
واعلم ايضاً انه قد يضحي بالحياة في سبيل غاية نبيلة ... حتى قد افعل ذلك انا ،
لكن الحظوظ تختلف .

- إذن ، ألسنت راضية عن حظك ؟

- أنا ؟ - أجابته مدهوشة كأنها لا يجوز أن يوجه لها مثل هذا السؤال - أنا ؟ . .
ينبغي أن أكون راضية ، وكذلك أنا بالفعل . ولكنني أسمع هاتفاً يهتف في
أعماق نفسي . .

- ينبغي ألا تدعيه يصمت ، وإن تنقي بذلك الصوت . - قال الأمير وقد استسلم
بكلية للخداع .

وظل (نيكليندوف) مدة طويلة يردد قوله أنه يتذكر باستحياء ما بدا منه من
ضعفه ، والقول المنمق الزائف ، والانتباه الخافي الذي كانت تصغي به إليه وهو
يتحدث عن ويلات السجون وعن الانطباعات التي ولدتها في نفسه زيارته للقوية .

وعادت الكونتيس إلى الردهة فرأتها يتحدثان كما لو كانا صديقين حميمين قديمين
بإستطاعتها أن يتفاهما فيما بينهما في ملأ من الناس ، دون أن يستشف ذلك منها . كانت
الشفاه تتحدث عن الظلم ، والمضطهدين ، وآلام الضعفاء وبؤس الشعب ، ولكن
النظرات التي كانا يتبادلانها كانت تكاد تفصح عن قولها .

- هل تستطيع أن تحبني ؟

فيحبها :

- أجل . أستطيع ذلك .

فتغمرها موجة من الشهوة ، مقنعة بقناع المثالية النيلة .

وعندما افترقا أكدت له استعدادها لخدمته بكل ما تستطيعه ، ورجته ألا
يتخلف الليلة المقبلة عن الحضور إلى مقصورتها في المسرح الفرنسي لأنها ستقص عليه
أشياء جدهامة .

- ومتى سأراك . - أضافت تقول وهي تصعد زفرة ، ثم لبست قفازها . - عذني

بأن تأتي .

فوعدها (نيكليندوف) . وجفا النوم عينيه تلك الليلة وعندما استلقى في فراشه
واطفاً المصباح ، وعاودته ذكرى مشاهد يومه ، ورفض المحكمة العليا لطلب التمييز

فقد ذلك لتذكر (ماسلوا) ورغبته في اللحاق بها إلى سيرا ، ثم عاد فتصور ما
سكون عليه ملامح وجهها عندما يطلعها على رد المحكمة للطلب ، والزفرات التي
ستصعدا .

فعاوده من جديد الندم الذي كان قد زايله منذ مدة طويلة . وهتف في اعماقه
هاتف بقول :

اليس من الجنون لحاقل بهذه الفتاة واضاعة ثروتك ؟ . .
واحس (نيكليندوف) انه في تلك الليلة الصافية التي كان بهاؤها يتسرب اليه عبر
سائر نوافذ الغرفة ، قد فقد ثباته ومناعته . وكانت الاجوبة التي كان يرد بها على
نفسه تبدو مضطربة غامضة ، واصبحت جهوده لاستعادة ماضي اقدمه ، وأفكاره
ورغباته عديمة الفائدة ، لانها كانت تنقصها قوة الاقناع .
- انني احيل الحياة شاقة علي نفسي ، وسأندم على تصرفاتي هذه . - بهذا كلف
بخطب نفسه .

واذا اعوزه ما يجيب به على ذلك اخذه غم وكآبة ، فنام نوما ثقيلا كذلك الذي
يعقب ليلي الخلاعة او العمل المضني الشاق .

- ١٣ -

عندما استفاق (نيكليندوف) في صبيحة اليوم التالي احس وكان امراً محزناً قد
اصابه يوم امس الدابر فانصرف بكلية تأملاته .

لقد بدا له ان رغبته في ربط مستقبل حياته بمستقبل (ماسلوا) وتنازله عما
ورث عن امه من املاك ، وكل ما كان قد قرره واعتزمه من قبل ، ان هو الا احلام
بعيدة التحقيق ورغبات طائشة تكاد تخلو من الانسانية . وان المعقول هو العودة الى
ما كان عليه .

كلا . ليست اعمالا قيحة . وانما هي افكار قيحة ، تعمل دائماً تقريباً على اتيانها .
وهذا اسوأ . فقد يندم المرء بعد عمل قبيح . الافكار القيحة تنبثق عنها سائر الاعمال

القيعة المشينة التي قد يأتيها الانسان . والعمل السيء يهد السيل مثله . والافكار الشريرة تقذف بنا في المنزلق الخطر .

واذ تذكر (نيكليندوف) في الصباح ما راوده في امسه من خواطر اخذته الدهشة ، وعجب لنفسه كيف خطورت له . وعلى رغم العقبات التي كان لا بد له من التغلب عليها قبل بلوغه ، وعلى رغم وعورة السيل الذي قرر سلوكه ، فانه ما زال يراه السيل الوحيد الممكن اتباعه في المستقبل . لقد كان يرى ان اعترافه بالغلبة معناه الموت .

لقد كانت فترة التردد التي مر بها يوم امس ، تشبه رغبة النائم الذي يشعر بحاجته للنهوض من فراشه ولكنه ما زال يتشهى ان لم يكن الرقاد ، فعلى الاقل البقاء في الفراش فترة اخرى حتى على حساب ما ينتظره من امور سارة هامة يعرفها .

وتذكر البطاقة التي تلقاها من (شينستوفا) والتي تدعوه فيها لزيارة منزلها . ولما كان ذلك اليوم آخر ايام اقامته في بطرسبرج فقد اسرع لتحقيق رغبتها .

كانت هذه تسكن في الطابق الثاني من بناية في جزيره (فاسيفكاجا) . وعند ما بلغها (نيكليندوف) صعد السلم الخاص بالعمل فبلغ مطبخاً تنبعث منه روائح الطعام الحادة ، وكانت هناك امرأة متوسطة العمر ، تضع صدارة فوق ثيابها ونظارات على عينيها ، وهي تحرك قدراً تطهي به الطعام ، وقد شممت عن ساعديها . فسألته بحفاوة عما يتغيه وهي تحقق فيه من فوق نظاراتها المتدلية على انفها .

- عمن تبحث ؟

ولما اعلن لها عن اسمه اشرق وجهها بسرور مرعوب .

- مرحباً بك ايها الامير . - هتفت تقول وهي تنظف يديها بصدارتها . - لماذا صعدت على هذا السلم ؟ ... ايها المحسن الحبيب الينا . انا ام الفتاة التي انقذتها . - وهمت بتقيل يده . - لقد ذهبت نهار امس الى منزل سموك ، لان اختي التي تقبم معنا قد طلبت ذلك مني ... تعال معي من هنا ارجوك ...

ودخات من باب صغير ، ثم تحولت إلى بمشي والأمير يتبعها ، وكانت وهي ماشية تصلح ثوبها وشعرها المبعثر .

- اخي (كورتيلوف) ... لعلك سمعت بذكرا . - قالت بصوت خفيض
وقد وقفت امام احد الابواب .. لقد اشتركت في قضايا سياسية ... انها امرأة
فاتكة الذكاء ..

وفتحت الباب فدخل الامير إلى ردهة صغيرة كانت تجلس على مقعد كبير فيها
امرأة بدنية قصيرة القامة شاحبة الوجه كامها وشعر الاشقر الاجعد يحيط به كالأطار
وترتدي ثوباً مخططاً .

وكان يجلس قبالتها شاب اسود الشاربين واللحية يرتدي قميصاً روسياً مطرزاً بالياقة ،
وقد انحنى إلى الامام . كانا يتحدثان حديثاً قد استوعبها حتى انها عندما دخل الامير
كادا لا يابهان له .

- هنا الامير (نيكليندوف) يا (ليديا) ذاك الذي ...

فهببت الفتاة من مكانها واقفة بحركة عصبية ، فأصلحت خصلة عصابة من شعرها ،
وحذقت بالضيف ، بعينها الرماديين في شيء من الرعب .

- انت هي المرأة الرهيبة التي اوصتني بها (فيرا افرومونا) . - قال

- بلى ، انا هي . - اجابت (ليديا) وانفجرت شفتاها عن ابتسامة ساذجة عذبة
كبسمة الطفل ، فأبدت صفين من اسنان عاجية . - ان خالتي شديدة الشوق لمرآك .
يا خالتي .. - صرخت تقول بصوتها العذب الرنان واتجهت شطر الباب .

- ان سجنك كان مصدر الم (لفيرا افرومونا) . - قال (نيكليندوف) .

- تفضل اجلس هنا ... او هنا . - قالت (ليديا) وهي تشير الى المقعد المريح
الذي اخلاه الفتى . - انه قريب (زاكاروف) . - قالت اخيراً عندما رأت الامير
يطيل النظر إليه .

فحيا الفتى الامير مبتسماً ، ثم جلس على كرسي قرب النافذة وجاء من الغرفة
المجاورة فتى مرهق اشقر الشعر في حوالى الخامسة عشرة من العمر ، وجلس في فناء
النافذة دون كلام .

- ان (فيرا افرومونا) صديقة جد عزيزة على خالتي . اما انا فمعرفتي بها
تكاد لا تذكر . - قالت (ليديا) .

وهنا دخلت الردهة امرأة بشوشة الوجه ذكية، ترتدي صدره يشدها إلى خصرها
زنار من الجلد .

- نهارك سعيد . - قالت ثم جلست في المقعد الطويل بجانب (ليديا) . -
شكراً لك على هذه الزيارة ... كيف حال (فيرا) ؟ هل رأيتها ؟ وكيف
احتمالها للسجن ؟

- انها لا تشكو ولا تتدمر . - اجاب (نيكليندوف) - الا لها قوة احتمال
(اوليمية) .

- يا حبيتي يا (فيرا) . ما اصدق هذا الوصف . - اجابت الخالة وهي تبسم .
- هي بحاجة لمن يفهمها . انها مخلوقة نادرة . كل شيء للغير . ولا شيء لنفسها .

- حقاً . انها لم تطلب شيئاً لنفسها . - اجاب موافقاً . - وان ما تأسو له هو
مصير ابنة اختك . ان مجرد تفكيرها بانها سجينه كان يسبب لها عذاباً ممحاً .

- اجل . انه لأمر مريع . واذا علمت ان هذه المسكينة تتألم بسبي .
- لا . يا خالتي لا . - اجابت (ليديا) . - لو انها لم تأخذ البطاقات منك ،

لاخذتها من غيرك .

- انا اعلم منك بذلك . - اجابت خالتها ثم التفتت الى (نيكليندوف)
واضافت . - يتلخص الامر فيما يلي : لقد طلب مني شخص ان احتفظ له ببطاقاته
فترة من الزمن ، ولما لم يجدي تركها عندها . وفي المساء جاء الجند فتحروا المنزل .
واذ وجدوا البطاقات عندها اعتقلوها واخذوا البطاقات ، واصروا على ان تبسّوح
باسم الذي اودعها عندها .

- أنا لم ابع بشيء . - اسرعت الفتاة تقول ، وهي تصلح تجعيدة من شعرها ما
زالت عصية .

- انا لم اقل انك بعت باسمه . - اجابتها الخالة .

- اذا كانوا قد اعتقلوا (ميتين) فليس بسبي . - قالت (ليديا) وهي تنظر
بقلق فيما حولها ، وقد اصطبغ وجهها بالحمرة .

فتدخلت امها وقالت لها :

- دعينا من هذا الحديث يا بني .

- كلا . لا استطيع السكوت . اريد ان اصرح بكل شيء .

وكان وجهها يزداد احمراراً ، وتلفت حولها ، وثني تجعيدة الشعر باصابعها ، وقد تهيجت اعصابها .

- الا تذكرين ما حدث لك يا حبيبي يوم امس عند ما تحدثت بذلك ؟

- لا شيء . لا شيء ... دعيني يا امي . انا لم اقل شيئاً . وكنت دائماً صامتة .

وعندما سئلت مرتين عن خالتي وعن (ميتين) اجبت بأني لن أقول شيئاً عنها . وعندئذ (بتروف) ..

- ان (بتروف) هذا ، هو قليل من كل شيء . - اجابت الحالة . - فطوراً هو

سبحان ، وطورا آخر جاسوس ، وحيناً وغد كبير .

- لقد حاول اقناعي - واصلت (ليديا) قولها وهي ترداد انفعالا . - قال لي :

« ان ما تصرحين به لن يؤدي اهدأ ، وربما كان العكس ، فلعلك تنقذين ابرياء » فاعدت عليه انني لن اتحدث بشيء . وعندئذ اجابني « حسن لا تبوحى بشيء .

ويكفي الا تنكروني ما اقله أنا . » وبدأ يذكر اسماء في عدادها (ميتين) .

- اسكتي ماذا تجنين من هذا الحديث ؟ - قالت لها خالتها .

- لا تقاطعيني ... واخذت ثني التجعيدة بأقصى شدة - وفي اليوم التالي علمت

انهم اعمتلوا (ميتين) واودعوه السجن . وقد اخبروني بذلك بواسطة الضرب على

الخائط . وفجأة خطرت لي فكرة رهبة وهي انني كنت السبب في ما اصابه . انا

وحدى ... فأصابني غم شديد اخشى معه ان اجن .

- لقد اتضح فيما بعد انك لست السبب .

- ولكنني كنت اجهل ذلك ... كنت لا ازال أحب انني كنت المسبية .

كنت لا افئا افزع زنراتي . وكانت فكرة مسؤوليتي لا تفارق ذهني . حاولت

ان انام ، فاستحال ذلك علي ، وبذلت جهداً كي انسى ، فاستحال علي ايضاً . يا

للهلول ، يا للرعب ...

وكانت ، وهي تردد انفعالا ، لا تفتأ تثني تجعيدة شعرها حيناً ، وتدعها حيناً آخر ، ثم تعود إلى ثنيها من جديد ، في حين كانت عيناها تدور مذعورة فيها حولها .
- يا (ليديا) يا بنيتي ، يا (ليديا) رحمة بي . هدي ثائرة نفسك قليلاً . -
قالت امها متوسلة .

ولكن ذلك كان قد اصبح عسيرا عليها .
- ان الامر اشد رعبا . . . بدأت تقول ، ولكن الانفعال كان قد استبد بها بحيث اخذها شيق بكاء عنيف ، فهبت من مقعدها هارعة إلى الغرفة المجاورة ملقية في طريقها باحد الكراسي الى الارض . فلحقت بها امها .
- يجب قتل جميع اولئك الاشقياء . - قال الطالب الذي كان جالسا في فناء النافذة .

- ايعنيك هذا ؟ - قالت الحالة .
- لا يعنيني ، ولكن . . . اجاب الطالب ثم تناول لفافة تبغ عن الطاولة وراح يدخن .

- ١٤ -

- صدقني يا سيدي الامير ان السجن أمر مريع بالنسبة للشباب . - قالت الحالة ، ثم اشعلت لفافة تبغ واقبلت تدخن وهي تهز رأسها .
- هذا ما اراه سواء بالنسبة للشباب وللشيوخ ، ولسائر الناس . - اجاب (نيكليندوف) .

- كلا . هو ليس كذلك . انه بالنسبة للثوريين الحقيقيين بمثابة مكان هدوء واستراحة . هذا ما اكده الثوريون انفسهم . إن من يدمسون الدعائس ويحكيون المؤامرات ، ويقاومون الانظمة والقوانين التي لا يطبقون إحتمال وطأتها ، يظلون في غم مقيم ويتألمون لانفسهم ولرفاقهم وللحزب الذي ينتمون اليه . ولكنهم عندما يقبض عليهم ينتهي كل شيء . وتنعدم المسؤولية ، ويصبحون في راحة . وقد اكد لي بعضهم انهم يسرون . ولكن بالنسبة للفتيان الابرياء ، والمساجين الاول هم

دائماً ابرياء كطفلتي هذه المسكينة (ليديا) . اواه . فالصدمة الاولى جد هائلة ، لا لأنهم يجردونهم من حريتهم ولا لأنهم يعاملونهم بقسوة وفظاظة ، ويقدمون لهم طعاما فاسداً ، ولا لان الهواء فاسد ، وليس لأنهم يسوءونهم سوء العذاب ، ولو ضاعفوه مراراً ، إذن لكان بالوسع تحملها . وإنما بسبب الهزة المعنوية العنيفة التي تأخذ المرء عندما يقع للمرة الاولى بين ايديهم .

- وكيف عوفت ذلك ؟

- انا ؟ ... لقد سجنتم مرتين . - اجابت وهي تبسم ابتسامة عذبة كثيبة - عندما القوا القبض علي للمرة الاولى وكنت بريئة كان لي من العمر اثنان وعشرون عاماً ، وكنت حاملاً بعد ولادة بكري . وصدقني اذا قلت لك ان فراقي لزوجي ، وبعدي عن اولادي ما كان يقاس بشيء امام شعوري بأنني فقدت كوني انسانية ، واني اصبحت اعد من الاشياء . هممت بتقيل ولدي فنهروني قائلين اسرعي الى العربية التي تنتظر . سألتهم الى اين يذهبون بي ، فقبل لي انني سأعلم ذلك عندما اصل . وأسأل باذا يتهمونني فلا يجيبني احد . واخيراً ، وبعد تحقيق طويل اعطوني ثياباً تحمل ارقاماً واخذوا مني ثيابي ، واقتادوني الى زنزانة ادخلت اليها وحدي . كان ثمة حارس يتقلد بندقية يروح ويغدو في المشى وهو ساكت ، ويتلصص على من حين لآخر من خلال شق في الباب . وعندئذ شعرت بألم ممرض لا يوصف . واني لا ازال اذكر الطريقة الساخرة التي قدم لي فيها الضابط الذي ضبط افادتي لفافة تبغ . هو يعلم ان التدخين يطيب للرجال ، وان الحرية والنور يشوقانهم ، ويعلم ان الامهات يحببن اولادهن ، والاولاد يحبون امهاتهم ... وقد انتزعوا مني كل ما هو حبيب لدي ، وجردوني من الحرية ، وسجنوني كما تسجن الحيوانات المفترسة . اواه صدقني اذا قلت ان تحمل كل هذا لا بدله الا ان يترك مضاعفات هائلة . اذا كان المرء يؤمن قبل ذلك ، بوجود الله ، وبالاخرة بين البشر ، وبسرعة الحب المتبادل السامية ، فانه بعد ذلك يستحيل عليه ان يؤمن بشيء ... لقد انقلبت شريرة منذ ان بدأت اشك في طيبة النوع الانساني .

قالت ذلك وارتمت على شفتيها بسمة رقيقة .

وهنا جاءت ام (ليديا) لتعلن ان ابنتها قد غلبها الانفعال واصبحت غير قادرة على الخروج .

- تأمل . هاهنا كائن فني يهدم . وان ما يؤمني هو كوني المسبية لذلك عن غير قصد . - قالت الخالة .

- يعين الله . - قالت الأم - ربما تحسنت حالها في الريف ، فقريباً سنبحث بها الى عند ابيها .

- بما لا شك فيه انه لولا توسط سموكم بالامر اذن لماتت في سجنها . - اضافت الخالة . - الف شكر لك . ولي اليك رجاء هو ان توصل رسالتي هذه الى (فيرا افراموفنا) .

واخرجت من جيبها مظروفا قدمت له .

- انها رسالة مفتوحة . بوسعك ان تقرأها ثم تسلمها لصاحبها او اعدامها إذا رأيت ذلك . ولكن على كل حال ليس فيها ما يدين سموكم . -

فتناول الامير الرسالة وأكد لها انه سيوصلها لصاحبها . ثم وقف مودعا وخرج من البيت . وعندما أصبح في الشارع اغلق المظروف دون ان يطلع على مضمونه . ولكنه على اي حال مستعد لتسليمه يدا بيد (لفيرا افراموفنا) .

- ١٥ -

كان لا يزال على (نيكليندوف) ان يقوم بأخر مهمة من المهام التي كانت السبب في حضوره إلى بطرسبرج . كان عليه ان يرفع استرحاما الى جلالة القيصر عن طريق رفيقه القديم (بوغاتيوف) باسم المبعدين إلى القفقاس بسبب القضايا الدينية . ولذا فانه عند خروجه من منزل (شينستوفا) ذهب رأساً إلى منزل (بوغاتيوف) وبلغه عندما كان هذا يتهيأ لتناول طعام الغداء :

(بوغاتيوف) الرجل الربع القامة ، المتين البنية ، الذي زودته الطبيعة بقوة هائلة يستطيع معها ان يثني حذوة الجواد ، كان طيب النفس ، نزيهاً ، مستقيماً ، متحرراً الافكار . وبفضل هذه الصفات الطيبة ، ولولائه الصادق للقيصر والعائلة

المالكة ، فقد كان محبوبا ، مقدراً حق قدره في البلاط . في مثل هذا كان تنصرم حياته . وعلى رغم هذا - ومن يدري كيف - فقد كان موفقا في اختيار الجانب الصالح للأشياء ، وتجنب السيئ والمشكوك في نزاهته . كان من مبادئه ألا يدين انساناً قط أو شيئاً . فاما ان يلزم الصمت ، او يعلن ما يراه حقيقة بصراحة ، ثم يتبع ذلك بقبعة مدوية . ولم يكن ذلك منه مداورات سياسية وإنما فطرة وخلق طبيعي .

- لقد احسنت في حضورك . اتريد ان تشاركني الطعام ؟ صدقني ، واقبل نصيحتي ، ان (اليفتاك) شيء رائع . هل لك في كأس من هذا الخمر ؟ - قال وهو يمد يده ليتناول زجاجة جن لقد فكرت بك . ساحمل الاسترحام وأسأله يدأ بيد الى صاحب الجلالة الامبراطور . ولكن اري من الاوفق ان تتصل (بتوبوروف) ونخاطبه بهذه القضية .

فاكفر وجه (نيكليندوف) عند سماعه هذا الاسم .
- كل شيء متعلق به . وحتى لو قدمت الاسترحام بيدي فلا بد من اطلاعه عليه لأنه سيدلي بمعلوماته ، ويقدم تقريره . وأذا عملت بنصيحتي فقد يتبنى هذه القضية خدمة لك .

- هذا صحيح . وسأعمل بنصيحتك .

- حسن . والآن قل لي كيف رأيت بطرسبرج ؟ - قال (بوغاتيروف) بصوت عال . - قل . خبرني .

- اي انطباعات احدثتها في نفسي ؟ اني لأراني وكأني قد نومت تنويمًا مغناطيسيا .

- قد نومت تنويماً مغناطيسياً ؟ - قال (بوغاتيروف) وهو يقهقه ضاحكاً . ثم نظف شاربته بالمنشفة وأضاف . - اذن انت لا ترغب في مرافقتي على الغذاء ؟ اترغب في مقابلة (توبوروف) ؟ اخبرني إذا رفض لأقدم الاسترحام غدا . وعندما نهض عن المائدة رسم بيده اليمنى رسم الصليب على صدره بصورة آلية دون ان يدري لماذا

كما نظف شواربه وتناول سيفه بصورة آلية أيضا . ثم قال وداعا يا عزيزي فلا بد لي من الذهاب .

- ها بنا نذهب . - قال (نيكليندوف) .

وتبادلا التحية عند الباب ، وصافح الامير يد رفيقه الكبيرة التي مدعا له ، وان كان غير واثق من نجاح هذه الزيارة .

كان (توبوروف) يشغل منصبا تتمثل فيه مناقضات لا تذهب خافية الا على جاهل كبير ، او رجل مجرد من القيم الاخلاقية . وكان حظه من هاته الخليتين كبير جدا . كان يرى ان من واجبه حماية الكنيسة والدفاع عنها بكل ما لدى الانسان من وسائل بما في ذلك العنف . تلك الكنيسة التي اقامها الله على اساس ثابت ممكن لا تتال من صولة البشر او الجحيم . كأن ما اسسه الله يحتاج حماية وعون مؤسسة بشرية مؤلفة من بضعة من الموظفين يرأسهم (توبوروف) . وكان لا يرى هذا التناقض ، او انه كان لا يرغب في ان يراه . وهكذا ، فقد كان يخشى ان يقوم كاهن كاثوليكي ، او راع انجيلي ، او حاخام موسوي ، فيهدم تلك الكنيسة التي لا يثبت امامها سلطان الجحيم وكان يحاذر عليها من اي من هؤلاء ويحسب له حسابا .

كان (توبوروف) خلوا من الشعور الديني الحق الذي ينادي بالاخوة والمساواة بين ابناء البشر . وكان يرى ان الشعب يتألف من عنصر يختلف في جوهره عن العنصر الذي يتكون منه ، وان ما هو بالنسبة له غير ذي فائدة فهو الضروري الهام بالنسبة للشعب . وكان في قرارة نفسه لا يؤمن بشيء . ولكن تفكيره بان الشعب قد يبلغ مثل وضعة كان مرعا له ، ولذا كان من اقدس الواجبات لديه (انقاذ الشعب) على خد تعيره .

كانت نظرته للدين الموضوع تحت حمايته كنظرة مربى الدواجن لما يطرحه للفراخ الصغيرة من النفايات التي يرى فيها شيئا قدراً تشرق منه النفس ولكنها من ضروريات الفراخ التي تلتهمها بشبهة .

كان «توبوروف» يقول في نفسه .

- مالا شك فيه ان تقديس سيدات (كازان) و (ايفرسكاجا)
و (سمونسكاجا) ليس سوى عبادة اصنام وضیعة . غير ان الشعب يؤمن بها ،
ولذا ينبغي المحافظة عليها وحمايتها .

ولم يخطر له قط على بال انه اذا كان الشعب يؤخذ بالاوهام فذلك لانه كان ولا
يزال يوجد رجال قساة القلوب هو احدهم ، يستغلون هذا الايمان لا ليخرجوه من
ظلمات الجهل وإنما ليزيدوها كثافة وقتوماً .

وعندما وصل (نيكليندوف) إلى منزل (توبوروف) كان هذا يتحدث في مكتبه
إلى رئيسة أحد اديرة الدعاة المبشرين بالعقيدة الارثوذوكسية في البلاد الغربية وبين
اشباع (اونياني) الذين ارغموا بالقوة على التخلي عن معتقدهم .

وخف احد الموظفين لاستقبال الامير في الردهة . وعندما علم انه يريد تقديم
استرحام لجلالة الامبراطور باسم المبعدين بسبب قضايا دينية طلب منه ان يسلمه اياه .
ثم اقتاده إلى مكتب (توبوروف) . ولم تلبث ان خرجت الرئيسة التي كانت ترتدي
قبعة شبيهة بما يسمى (قلبق) وثوباً اسوداً ، وتحمل بيدها البيضاء المصقولة الاظافر
سبحة من حجارة كريمة ، وانجبت نحو الباب . ولكن ما زال على الامير ان ينتظر .
واخذ (توبوروف) يتلو الاسترحام بسرعة ، وكان من حين لآخر يبرز رأسه
مدهوشاً ومستاء من تلك العريضة التي كانت موضوعة بلهجة رصينة واضحة حازمة .
- إذا وصلت هذه ليد الامبراطور فقد تحدث لي مضايقات ومتاعب عدة . وقد
تكون سيئاً لما لا يسر . - قال يحدث نفسه بعد ان فرغ من تلاوتها ، ثم ترك الوثيقة
على المكتب وامر بادخال (نيكليندوف) عليه .

لم يكن قد نسي شيئاً من تفاصيل تلك الدعوى التي اقيمت على بعض مشايخي
طائفة جديدة . وقد تلقى استرحاماً لصالحهم .

كان بعض اتباع الطائفة الارثوذوكسية قد تحولوا عن عقيدتهم ، ولما استحالت
إعادتهم إلى سابق معتقدهم ، احيوا إلى الحاكم التي قررت براءتهم . فتواطأ المطران

- كلا ، فانا اعدك وعداً صادقاً .
وركز على كلمة اعدك كما لو كان ليس ما هو اسمى من شرفه وكلمته . ثم اضاف
- ساصر الاوامر اللازمة .

ثم شرع يكتب بسرعة . فاستغرب الامير الذي كان ينظر إلى ذلك الرأس
الضيق الاصلع ، كيف سارع هذا الرجل اللامبالي لإزاء كل شيء للعمل على إرضائه .
- لقد انتهى . - قال (توبوروف) وهو يغلق المظروف - بوسعك ان تنقل
ذلك لحبك . - قال وهو يحاول ان يضحك .

- ولكن لماذا تركوا هؤلاء يتألمون كل هذه المدة ؟
فرجع (توبوروف) رأسه ، وابتم كما لو كانت سؤال الأمير يجلب له سروراً
كبيراً .

- ليس بوسعي الإجابة على هذا السؤال . ان واجبات موظفي الدولة قاسية جداً
في بعض الأحيان ، ولكنها ضرورية في أغلبها .

- ولكن كيف يخالفون باسم الدين المبادئ الأساسية للخير ، فيشتتون شمل
العائلات و... ؟

وكان (توبوروف) ما زال يبتسم يتسامح كما لو كان ما يقوله الامير مما يجلب له
السرور .

- ربما كنت على حق إذا نظرنا إلى الامور من وجهة نظر خاصة ، ولكن ليس
كما يدعوننا الواجب ان ننظر اليها للمحافظة على سلامة الدولة . احتراماتي اذن . - ثم
حنى رأسه ومد له يده مودعاً .
فصافحه (نيكليندوف) ولم يجب على كلامه ، ولكنه اخذه الغيظ وخرج
مسرعاً .

- مصالح الشعب . - كان يقول في نفسه مستعيداً إلى ذاكرته ما قاله (توبوروف)
- وسلامة الدولة ... قل مصلحتك ، ومصلحة أشباهك ، هذا ما كان يجب ان تقول .

ومضى يتابع تفكيره. فتذكر اولئك الذين تلاحقهم المؤسسات التي تنتحل لنفسها مهمة الدفاع عن العدالة ، والدين ومصالح الشعب . ثم يزج القائلون عليها في السجون تلك القروية لأنها تباع الخمر ، والفتى الشريد الذي اضطرته الحاجة لارتكاب السرقة ، ويلقون بالزنازة تلك المنكودة الطالع (ليدا) لنقلها اخباراً ومعلومات يراها بعضهم مفيدة ، واولئك التعساء الذين اتقدم ، لكفرهم بالمذهب الارثوذكسي ، و (غور كيفيتس) لمطالبته بالدستور . لقد اتضحت للأمير حقيقة واحدة وهي انه إذا كان هؤلاء قد سجنوا وشردوا وعذبوا فليس لمخالفتهم القوانين الاساسية ، وإنما لانهم حجبوا عثرة في سبيل كبار الموظفين والاغنياء الذين يريدون ان ينعموا وهم مطمئنون بالثروات التي ينهبونها من الشعب .

كانت الفتاة المدعوة (ليدا) وبياناتها ، واولئك الذين يجربون الاوهام ، و (غور كيفيتس) المطالب بدستور يحدد علاقة الامير ورعاياه ، كان كل هؤلاء عقبة مقيمة في سبيل اولئك وخطراً يهدد مصالحهم . لقد ادرك الامير الآن جيداً ان جميع اولئك الموظفين ، ابتداء من الكونت (ايفان ميكايلوفيتش) حتى اعضاء مجلس الشيوخ ، ومن (توبوروف) حتى احقر موظف في الدولة لا يحتاج اي وتر من اوتار نفسه لإزاء آلام الالوف من التعساء الابرياء الذين اعتقلوا ، ما دام بينهم بضع نفر خطرين .

لم يكن يحسب حساباً للنظرية القائلة بأن من الافضل ان يبرأ عشرة مجرمين من ان يدان بريء واحد . وكان الواقع هو العكس . إذ انهم كانوا يلقون في سجونهم بعشر ابرياء كي يقصوا عن المجتمع مجرماً واحداً ، كما يحدث في العمليات الجراحية إذ يعمد إلى استئصال بضعة من الجزء السليم عندما يستأصل عضو موبوء . هكذا كان (نيكليندوف) يصور لنفسه ما يجري حوله ، وكان تصويراً واضحاً وبسيطاً ، ولكنه على الرغم من بساطته ما كان ليحول دون ان يتردد طويلاً في قبوله كذلك كان يرى مستحيلاً ان تكون العدالة والشرعية والحب والايمان بالله مجرد كلمات برافقة يراد منها إخفاء احط الفظائع والمصالح الوضيعة ...

كان (نيكليندوف) يتمنى لو يغادر بطرسبرج في ذلك اليوم لولا ان تذكر وعده (لماريتا) بالذهاب الى المسرح الفرنسي . وعلى رغم اقتناعه بانه لا ينبغي له ان يذهب ، فقد كان يجادع نفسه بالقول بوجود الوفاء بالوعد .

كان يقول بوجود التضامن ، للمرة الأخيرة مع ذلك المجتمع الذي اصبح الآن لا يبالي به ، وان كان فيما مضى حبيبا لديه .

— اريد ان اعلم اذا كنت اقوى على مقاومة الاغراء . — كان يقول في نفسه .
فارتدى ثياب السهرة وذهب الى المسرح فبلغه قبل ان يبدأ الفصل الثاني . كانت تمثل آنشد رواية (غادة الكاميليا) الحادثة ، وكانت ممثلة اجنبية تمثل دور امرأة مسلوطة تحضر .

كان المسرح غاصا بالناس . فاستعلم (نيكليندوف) عن موقع مقصورة (ماريتا) ، وعندما بلغها فتح له الباب خادم يرتدي بزة الاحتفالات ، وانحنى له احتراما .
كان الرجال والنساء في المقصورات المقابلة سواء في ذلك الواقفون والقاعدون ، بولون ظهورهم للجمهور . وكان البهو الارضي يموج كالبحر بالرؤوس ما بين اصلع ، ورمادي ، وما يقرب منه ، واجعد ، والجميع يتجهون ببصارهم شطر الممثلة النحيلة القوام ، البارزة العظام ، المرتدية ثوبا حريريا ثمينا ، التي كانت آنشد تغني . وعندما فتح باب المقصورة واحداث ضوضاء ، طالب بعضهم بالمحافظة على الهدوء ، واحسن الأمير بنسمة هواء حارة واخرى باردة تلفحان وجهه .

كانت (ماريتا) في المقصورة تصحبها امرأة اخرى تضع غطاء احمر على شعر رأسها الذي صففته بطريقة تجعله عاليا كالبرج . كذلك كان ثمة رجلان احدهما زوج (ماريتا) وكان جميلا قاسي الملامح غامضا ، اقفي الأنف ، وعلى صدره الواسع شارة الخير . وكان الآخر اشقر اللون ، اصلع الرأس مفتول الشوارب .

كانت « ماريتا » رائعة ، انيقة ، عارية الصدر والظهر ، مستديرة الكتفين بضتها ، وكان في احدهما شامة سوداء ، فالتفت الى (نيكليندوف) ، وفي حين

كانت تشير له بالمروحة الى كرسي كان من ورائها يجلس عليه ، ابتسمت له ابتسامة قرأ فيها الشكر على حضوره .

وعندما انتهت الممثلة من غنائها دوت القاعة بالتصفيق والهتاف . فهبت (مارييتا) من مقعدها ومشت الى داخل المقصورة رافعة يدها ذيل ثوبها الحريري الذي كان يسمع صوت تكسره وحقيقه ، كي تقدم ضيفها (نيكليندوف) لزوجها وللحاضرين . فانفجرت شفتا القائد عن كلمتي « سعيد جداً » قالها بلهجة متحفظة ، وشرعة عيناه تضحكان .

— كنت قد قررت السفر هذا النهار ، ولكن لما كنت قد وعدتك ... — قال (نيكليندوف) موجها كلامه (لمارييتا) .

— اذا لم يكن لتراني ، فعلى الاقل لتري ممثلة رائعة . — اجابته (مارييتا) كي تدله على انها ادر كت مغزى كلماته .

— اليست رائعة حقاً هذه الممثلة؟ — قالت تسأل زوجها فأوماً هذا برأسه موافقا .

— لا يشير ذلك اي احساس في نفسي . — قال (نيكليندوف) معقبا . — لقد رأيت اليوم آلاماً من نوع آخر . آلاماً حقيقية ... — اذن اجلس وحدثني .

و كان القائد يصغي ، ومن حين لآخر كانت ابتسامة عينيه تبدو اكثر سخرية .

— لقد ذهبت لزيارة تلك الفتاة التي اخلي سبلها بعد ان امضت عدة شهور في السجن ... مكينة . انها مريضة .

— هي الفتاة التي رجوتك فيها . — قالت (مارييتا) لزوجها .

— صحيح ؟ انه ليسرني كثيراً انقاذي لها من السجن . — قال هذا بهدوء ، ثم حني رأسه قليلا وابتسم ابتسامة رأها الأمير ساخرة

كان الامير يتوقع ان تقص عليه (مارييتا) « الأشياء الهامة » التي وعدته بها . ولكن شيئاً من هذا لم يحدث لا من قريب ولا من بعيد ، لانها كانت منصرفة للتبذر على المأساة التي كان من رأيا انها ستحدث انطبعا في نفس (نيكليندوف) .

فأدرك الأمير ان تلك المرأة ارادت ان تستجوذ على اعجابه بروعة ثوبها ، وجمال
كتفها العاريتين، فتلاقى في نفسه السرور الكبير والأشمزاز العميق . وما زال
الأغراء الذي كان يفيض به سائر كيائها قائما ، غير انه كان قد اصبح يتكشف عما
يخفيه . كان اعجابه بها كبيرا ، ولكنه تبين انها قد كذبت فيما زعمته بالأمس ، وانها
كانت على وفاق تام مع زوجها الموظف الكبير ذي المستقبل الحسن ، وانها
كانت راغبة في ان تحمله على الهيام بها فحسب ، دون ان يعلم لذلك سيرا وربما كانت
هي ايضا اقل منه علما .

وكان ذلك يغويه ويشير الاشتمزاز في نفسه .

وهكذا لبث مدة مترددا ، بين البقاء ومغادرة المسرح ، وكثيرا ما تناول قبعته
وهم بالذهاب . ولكن عندما عاد الجنرال الى المقصورة مفتول الشوارب ، ورائحة
التبغ تنبعث منها ، فوجه الى الأمير نظرة ازدراء ، نظرة حام الى محبه ، خرج هذا
الى الرواق ، قبل اغلاق الباب فتناول معطفه ساخطا وغادر المسرح .

وفي طريقه الى البيت ، ماراً بشارع (نفسي) رأى عن غير قصد امرأة تتصيد
المارة . ولما كان يسرع الخطى فقد ادر كها واخذ يتأملها . كان وجهها ما زال جميلاً ،
ولكنه كان تتوه المساحيق والطلاء وكانت متوقدة النظرات . وعن غير قصد
تذكر الأمير (مارييتا) ، واحس بما يجزيه الى هذه ، وباشتمزاز يقصيه عنها ، تماماً
كما احس في المسرح منذ هينة .

واخذ يسرع الخطى وهو ناظم على نفسه ، وتحول الى شارع (مورسكايا) حيث
شرع يتمشى على الرصيف المحاذي لجرى النهر بدهشة من (الغوروفوروي)^{١١} .

حتى (مارييتا) ابتسمت عندما دخل عليها في مقصورتها ، وكان مغزى
الابتسامتين واحدا . والفرق الوحيد بين المرأتين هو ان ابنة الشارع كانت تحاطب
الناس بصراحة وبلا مواربة ، في حين كانت الاخرى تستر وراء رغبات سامية نبيلة
لتخفي ضعة الشهوة .

(١) هي كلمة روسية لعلها تعني الحوس او الشرطة .

- كانت الأولى صادقة ، وكانت الاخرى كاذبة . - قال الأمير مخاطباً نفسه . وعندما تذكر علاقته الماضية بـ زوجة ماريشال النبلاء ادركه الحجل .
 - كم هو رهيب وجود الحيوان في الإنسان . - كان يقول في نفسه . - وانت قد تستطيع احتقاره ، وفي حالي انصاعك اليه او تمردك عليه ، انت اقوى منه متحكماً به اذا ما ظهر واضحاً جلياً . ولكنه اذا ما استتر وراء مظاهر شعرية براقعة ، وفرض سلطانه عليك وانصعت له وفقدت قوة التمييز بين الخير والشر فهناك الظلمة الكبرى ...

وادرك بوضوح تام كل ما كان يحيط به من اشياء واشخاص وشهوات واحساس لأن تحولاً نهائياً قد طرأ على نفسه تلك الليلة ، فانقضت الظلمات التي كانت قد رانت على بصيرته ذات يوم .

ولم يبق لديه من شك في ان كل ما كان الناس يرونه هاما ونيلا كان مجرد صفارات وسخافات ، وان ابهة حياته تخفي وراءها جرائم قديمة العهد لم تنهب دون قصاص عليها فحسب ، وانما كوفىء مقترفوها وخرجوا خروج الظافرين محاطين بشتى مظاهر التكريم التي وسع الانسان ابتكارها . وقد كان بوسعه تجاهل ذلك والتستر عليه ، غير ان الحقيقة كانت تفرض نفسها عليه فرضاً . وكما كان يجهل مصدر النور الذي يغمر بطرسبرج كذلك كان الامير يجهل مصدر النبوع الذي انبجس منه النور الذي لاشى ظلمات نفسه . ولكنه لم يكن بوسعه الا ان يرى الاشياء التي تنيرها اشعته على حقيقتها ، وان يكن بصورة مشوشة محزنة وغير طبيعية .
 واحس بعدوبة فاتكة وقلق شديد يغمران روحه في آن واحد .

- ١٧ -

وصل الامير (نيكليندوف) إلى موسكو ، وكان أول ما فكر به الذهاب إلى مستشفى النجس لينقل إلى (ماسلوا) النبأ المؤلم ، بناءً تصديق المحكمة العليا للحكم ، وان عليها الآن ان تستعد للذهاب الى سيبيريا . وفيما يتعلق بالالتباس الذي يحمله كي توقع عليه (ماسلوا) والذي بنوي رفعه لجلالة الامبراطور فقد كان لا

يلقى عليه آمالا كباراً . والغريب في الامر هو ان الامير كان قد أصبح يتمنى ألا يلقي الحكم ، اذ كان قد الف فكرة الذهاب إلى سيبيريا ، والعيش فيها كما يعيش المبعدون والمحكومون بمختلف الاحكام ، وانه لا يستطيع تصرر الحياة بجانب (ماسلوا) اذا اخلى سبيلها .

لقد قال (تورو) الكاتب الاميركي الشهير عن بلده اميركا عندما كان لا يزال الرق مشروعاً فيها ان السجن هو خير مكان يليق بالرجل الشريف في تلك الدولة التي يحمي فيها نظام الرق . فتذكر (نيكليندوف) هاته الكلمات بعد مشاهداته في بطرسبرج ، وقال مخاطباً نفسه ان السجن هو المكان الوحيد في روسيا كما كانت قديماً في اميركا القديمة ، الخلق بالرجل الشريف .

وسارع سجان عجوز عرف الامير فأبلغه ان (ماسلوا) قد نقلت من المستشفى .
- اين هي اذن ؟

- لقد نقلت الى السجن الجديد .

- ولماذا نقلت ؟

- تعلمون يا سمو الامير ان هذه الطبقة من الناس هي دائماً هي .- اجاب السجان بازدراء . - لقد اخذت تغازل الطبيب المتمرن ، وعندما لاحظ الطبيب ذلك منها طردها .

فلم يجب (نيكليندوف) . لم يكن يتصور قط ان شأن الفتاة وسلوكها سيستأثران باهتمامه بهذا المقدار ، اذ ان ما اخبره به السجان قد غم غماً كبيراً كما لو كان قد فوجيء بكارثة هائلة ، واستحيا لنفسه . واستحال عليه في باديه الامر ، ان يصدق ما سمعته اذناه . وكان هو خارج من المستشفى يفكر في نفسه قائلاً : ترى اكانت كلمات (ماسلوا) ورفضها قبول تضحياته ، ودموعها وتحنينها له ، مجرد دهاء امرأة ساقطة تحاول ان تحصل منه على اكثر ما تستطيع . ثم تذكر انه قد لاحظ عندما تحدث اليها آخر مرة ، ان من المستحيل اصلاحها .

- والآن ، ماذا ينبغي ان افعل ؟ هل ثمة ما يربطني بها ؟ اليس في فعلتها ما يجعلني في حل منها ؟

ولكنه قبل أن يجيب جواباً مرضياً أدرك أن في قطع صلاته بها ، ونخيله عنها ، عقاباً لنفسه ، قبل أن يكون عقاباً لها . فخأنته الجرأة .

— كلا . كلا . لن يغير ما حدث شيئاً مما صممت عليه .

يجب أن أرفع معنوياتها ، فقد تنقاد لما في روحها من دوافع ... فهي خليقة بذلك ...
أن واجبي يجب بي أن ألبى نداء الضمير . والضمير يقضي بأن أضحى بحريتي تكفيراً
عن زلتي . ينبغي أن أتزوج منها ، حتى ولو كان شكلياً ، وينبغي أن أتبعها إلى
حيث يذهبون بها . هكذا يجب أن يكون .

وخف إلى السجن الجديد ، بعد أن وطد العزم على ذلك ، وطلب إلى الحارس
المتأهب أن ينقل إلى المدير رغبته في مقابلة (ماسلوكا) . وكان الحارس يعرف الأمير
فأخبره أن المدير القديم قد استقال من منصبه وحل محله مدير جديد صارم ومتشدد .

— هم الآن أكثر تشدداً من ذي قبل . — أضاف يقول — وعلى كل حال
سأبلغه ذلك .

وكان المدير آتئذ في السجن . ولم يلبث أن واجه الأمير . كان طويل القامة ،
نحيل الجسم ، مقطب الحاجبين ، بطيء الحركات فقال دون أن ينظر إلى الأمير :

— يسمح بالزيارات في الأيام المعينة لها فقط . وفي القاعة العامة .

— أحمل التماساً باسم السجينة ليرفع جلالة الإمبراطور وينبغي أن توقعه هي .

— بوسعك أن تعطيني إياه .

— أنا بحاجة لمقابلتها . — أجاب الأمير ولدي تصريح بذلك من الحاكم .

قال ذلك وأخرج من جيبه حافظة أوراقه .

— معنوة . — قال المدير ، ثم تناول الورقة بين أنامله الطويلة البيضاء النحيلة ،

وقراها بامعان . ثم قال له . — تفضل إلى المكتب .

كان المكتب آتئذ خالياً . فجلس المدير إلى طاولته وأخذ يقلب أوراقاً كانت
أمامه ، وهو ينوي أن يحضر المقابلة . ولما سأله (نيكليندوف) عما إذا كانت
بإستطاعته أن يرى (فيرا أفراموفنا) السجينة بجرم سياسي أجابه بجفاء أن ذلك
مستحيل .

— ممنوع كل المنع التحدث إلى المساجين السياسيين . — قال له ، ثم واصل تقليب الأوراق .

وأحس (نيكليندوف) احساس من كان بنوي القيام بعمل قبيح ، فاكشف ان امره قد افتضح واخفق في عمله .

وعند ما جاءت (ماسلوا) رفع المدير رأسه دون ان ينظر الى أحد منها وقال . — بوسعكما ان تتحدثا . — ثم واصل تقليب الأوراق .

كانت الفتاة قد أصبحت في ثياب السجينات ، وهي صدرية بيضاء وغطاء رأس أبيض وفستان . ولذا رأت الأمير جافا ، سيء المزاج ، وهي تدنونه احمر وجهها ، وأطرقت بنظرها الى الارض وهي تفرك باصابعها طرف ثوبها ، فايدت هذه المظاهر الدالة على الانفعال والبادية عليها ما قاله السجان له وعلى الرغم من انه كان قد قرر ان يظهر امامها بظهور عادي فقد أحس بشعور اشتزاز عنيف عندما مد لها يده .

— جئت أحمل اليك نأ سيئا . — قال لها بصوت أجش متعاشيا تلاقى نظراتها ، وقبل أن يضافحها . لقد رفضت المحكمة العليا طلب التمييز . — كنت واثقة من ذلك . — أجابت (كلارين) وهي ترتعش كما لو كانت ستفتق .

لو انها كانت في مناسبة غير هذه اذن لسألها (نيكليندوف) كيف علمت ذلك . ولكنه اكتفى بان نظر اليها فاذا بالدموع تملأ عينيها ، ولكن هذه الدموع أثارت استياءه بدلا من ان تحرك عطفه .

كان المدير قد وقف واخذ ينزع الغرفة ذهابا وأيابا . وعلى رغم الاشتزاز الذي كان يشعر به (نيكليندوف) فقد رأى ان من واجبه ان يواسيها بوضع كلمات ليقوي من عزيمتها . — لاتياسي فالاسترحام المرفوع الى جلاله الامبراطور سيؤدي إلى نتيجة حسنة ، وآمل ان ...

— ليس هذا ما ييكيني . — قالت ذلك وحدجته بعينيها الحولاءين المخضتين بالدموع ، الناطقتين بالألم .

– وما تبكين اذن ؟

– أبكي لانك قد تكون ذهبت إلى المستشفى وعلمت ...

– هذا لا يهمني . – أجاب الأمير وقد زوى ما بين عينيه وأخذته شعور بالكرامة الجريحة عندما ذكر أمامه إسم المستشفى ، فقال في نفسه . رجل من الطبقة الرفيعة تتسابق لطلب يده سائر بنات الطبقة الارستوقراطية ، قد رغب في الزواج من هذه المرأة التي لم تطلق كبحاً لجماح نفسها ، وأخذت تبادل الحب طيباً عادياً ... فغموقه موجة من الكراهية صعدت الى رأسه .

– وقعي هذا الطلب . – قال لها ثم اخرج من جيبه مغلفاً كبيراً اخرج منه الاسترحام ووضعها أمامها على الطاولة .

فكفكت غرب دموعها ، ومسحت عينها بمنشفتها وتقدمت من الطاولة ، وسأله ابن ينبغي ان توقع ، فدلها على مكان التوقيع . وعندما جلست على الكرسي ظل الامير واقفاً بجانبها دون ان يفوه بكلمة ، وهو ينظر الى ظهرها المقوس فوق الطاولة الذي كان يهتز لفواق البكاء . لقد كان شعور الكرامة الجريحة يتصارع في داخله ، وشعوراً آخر يدعوه للصفح . وقد يكون هذا شعور الرحمة الذي كان قلبه طافحاً بها نحو اولئك الذين يتألمون ، كما قد يكون لأنه قد تذكر ماضيه ، وتذكر انه هو أيضاً قد ارتكب الخطيئة التي يؤاخذها الآن عليها . وهنا ادرك انه كان خاطئاً فأشفق عليها .

وبعد ان وقعت (كلارين) الطلب ، ونظفت أصابعها بطرف ثوبها من الحبر ، وقفت وأخذت تحديق ملياً في وجهه .

– على كل حال ، ليس ثمة ما يعملني على تغيير شيء مما اعترفته . – قال لها (نيكليندوف) ليواسيها . سأفي كل ما وعدت به دون تردد . سأذهب الى حيث تذهبن .

– كلا . هذا لا يجدي . – اجابت فوراً وقد أشرق وجهها .

– فكري فيما قد نحتاجين إليه في السفر .

– شكراً لك . اعتقد انني لن احتاج لشيء ... شكراً لك .

وهنا تقدم المدير منها ، فحيا الامير وخرج من المكتب .
كان انثذ يشعر بسرور هادي و زين ، وحب للانسانية كبير لم يشعر بمثله منذ
امد بعيد . وكان اقتناعه بأن ما من عمل سيء تقوم به (ماسلوا) يقوى على الحؤول
دون شفقة عليها ، يرفع من شأنه أمام نفسه ويملاؤه جوراً .
لقد كان لا يعنيه ان نهوى الطيب المتمرن ، فهو لم يكن يحبها لنفسه ، وإنما
لذاتها في سبيل الله .
ولم تكن (كاترين) هي المذنبه في ذلك الموقف الغرامي الذي طردت من أجله
من المستشفى .

كان الحادث غير ذي بال . لقد تلقت (كاترين) امرا بالذهاب إلى الصيدلية
لاحضار الشاي ، وهنا التقت بالمتمرن (اوسيوف) الطويل القامة المنتفخ الوجه
الذي كان يطاردها منذ عدة أيام . ولما امتدت يده اليها دفعته عنها بعنف فاصطدم
باحدي الواجبات حيث سقطت منها زجاجتان فتحطمتا . وصادف أن كان رئيس
الأطباء ماراً فسمع صوت تحطم الزجاج . وإذا رأى (كاترين) تخرج من الصيدلية
مسرعة محققة الوجه مرتعشة صرخ فيها بجفاء .

— اسمعي يا بنيتي . إذا كنت تتوين أن تبدأي هنا من جديد فساطردك حالا .
هل علمت ؟ ... ماذا حدث ؟ — قال يسأل المتمرن وهو ينظر اليه من فوق نظاراته .
فراح هذا يبذل قصارى جهده في تبرير نفسه فحججه الطيب بنظر شرر دون أن
يصغي اليه ، وذهب يتفقد المرضى ، ثم كتب إلى مدير السجن يرجوه أن يستبدل
(كاترين) بأرصن منها .

كان الطرد من المستشفى بتهمة إقامة علاقات مشبوهة مع بعض الرجال مؤلماً
لنفس (ماسلوا) وهي التي كانت على أثر اجتماعها الاول (بنيكليسنوف) تنقزز من
أي تماس حسي مع الرجال ، أضف إلى ذلك فان معرفتها بأن كل رجل كان يرى
لنفسه الحق في إهانتها ، لماضيها السيء وظروفها الراهنة . ثم هو فوق ذلك يعجب
إذا ما صدته وامتنعت عليه . ان معرفتها هذه كانت تثير الالم في نفسها والاشفاق

عليها حتى تتفجر الدموع من عينيها . لقد حاولت تبرير نفسها لدى الأمير من نعمة كاذبة لاشك في انها بلغته ، ولكنها تبينت فور ابتدائها بالكلام انه سوف لن يقيم وزناً لكلامها ولذا دفنته في صدرها وسكتت على مضض .

كانت (ماسلوف) لا تزال تؤمن ، وتريد أيضاً أن تظل مقتنعة بأنها لم تسمع (نيكليندوف) كما صرحت له في اجتماعها الاول به ، بل انها تكرهه . ولكن تلك الكراهية كانت في جوهرها مزيجاً من كراهية وحب . كانت تحبه ، وتلي سائر رغباته ، دون أن تنقص ذلك . فلأجله امتنعت عن التدخين ، ولأجله هجرت الحمر ، وتصيد الرجال ، ورضيت بانتقالها إلى المستشفى . كانت ترضى بكل شيء ما دام فيه إرضاء للأمير . وإذا كانت قد رفضت وترفض بصورة قاطعة زواجها منه كلما عرض عليها ذلك ، فلأنها كانت راغبة في أن تعيد على مسامحة الكلام العنيف الذي جابهته به عند أول اجتماع لها به ، ذلك لأنها كانت ترى ان زواجها منه سيكون وبالاً عليه . لقد عقدت العزم على رفض تضحياته . ومع ذلك فقد كان يحز في نفسها ظننا بأنه ما زال يحقرها ، وانه يحسبها ما تزال غارقة في حماة الرذيلة ، وانه لم يتبين التحول الذي كان قد طرأ على نفسها .

وعندما ظنت الآن ان (نيكليندوف) يعتبر سلوكها في المستشفى كان غير شريف ، تأملت ألماً مضاً يفوق ألمها عندما تأكد لديها انها ستقضي المدة التي حكم عليها بها خلافاً لكل عدالة .

١٨

شرع الأمير (نيكليندوف) بعد عدته للرحلة الى سيبيريا لاحتال سفر (ماسلوف) مع القافلة الاولى . وكانت الأمور التي تستدعي الحلول قبل سفره من الكثيرة بحيث رأى انه ، حتى ولو اتسع له الوقت كثيراً فانه لن يستطيع لها حلا . وشتان ما هما يومه وامه ، وشتان ما حدث ومحدث له فيها . كان بالأمر لا يدري اي مهمة يتكرها لنفسه قتلاً للوقت ، اذا كان لا يهتم لغير نفسه ، بغير الأمير (دميتري ايفان نيكليندوف) . وعلى رغم ذلك فان كل شيء كان يبدو له ثقلاً

ومضجرا . واذا أصبح الآن يتم لغيره ، فان كل شيء أصبح هاماً لديه ، وغدا الوقت قصيراً جداً بحيث لا يتسع للمهام التي تتطلب منه عنايته واهتمامه . كانت المهام التي تشغل وقته وتفكيره تنحصر في ثلاث فئات . وهكذا ينظمها ويرتبها في اضبارات خاصة واضعاً كل فئة على حدة . كان قبل كل شيء اشد اهتماماً بمستقبل (ماسلوف) ، وتحقيقاً لذلك كان دائم البحث عن ذوي النفوذ ، دعماً للاسترحام الذي ستقدم به (كلترين) لجلالة الامبراطور ، في حين لا ينفك يعمل استعداد للرحلة الى سيبيريا .

وكان عليه ان يسوي امور ممتلكاته . ففي (بانوفو) اجرت الاراضي للمزارعين مقابل بدل زهيد سيرصد للنفقات العامة . ولكن كي يصبح هذا التنازل مشروعاً كان لا بد من وضع اتفاقية يوقعها الطرفان المتعاقدان ، ووضح وصية منه تحوطا لما قد يحدث في مستقبل الأيام . وكانت الاتفاقية التي ابرمت مع مزارعي (كوسمينسكوجي) تقضي بان يتقاضاهم اجراً دون ان تعين قيمته . كذلك لم يبين ما سيتروك للمزارعين لسد نفقاتهم العامة . وما سيقى له لسد نفقاته الخاصة .

وكان بحاجة لمعرفة القيمة التقديرية للنفقات التي يتطلبها سفره الى سيبيريا . كذلك لم يكن يريد التخلي عما بقي له من ثروته التي ذهب نصفها . واخيراً كانت تشغله قضايا المساجين الذين كانوا غالباً ما يرجعون اليه باعداد هائلة . كان ، في بادئ الامر ، عندما يطلب اليه سجين حاجة ، يخجل لنجدته والترويح عنه في الحال . ولكن المطالب كانت قد أصبحت من الكثرة بحيث أدرك استحالة تلبية ما دياً . وعن غير قصد ، رأى نفسه مسوقاً للتفكير بمعضلة جديدة ، معضلة اجتماعية كانت في الأيام الأخيرة قد احتلت مكان الصدارة من تفكيره . كان يرغب في أن يعلم بموجب أي قانون تعمل تلك المؤسسة الغربية المسماة محكمة الجنابات ، ومن أين جيء بتلك التي من نتائجها القرية السجون وساكنوها ، والمعتقلات العديدة ابتداء من قلعة (بيتروبالوفسك) حتى (ساكالين) حيث تسقط الضحايا بالالوف . كان (نيكليندوف) قد قام بتحريرات خاصة بين المساجين ، واستقى معلومات

من المحامي ومدير السجن وكاهن العجوز ، واطلع أخيراً على سجلات السجن فخرج من كل هذا بالرأي التالي حول من يسمونهم مجرمين . كان يقسمهم إلى خمسة أقسام . ففي القسم الأول يأتي الأبرياء والعمال الذين أضربوا فسجنوا بتهمة التمرد على السلطة .

أما القسم الخامس فيؤلفه جماعة هم أقل اجراماً بالنسبة للمجتمع مما هو بالنسبة لهم . أناس اعملوا وتركوا لانفسهم ، فعاشوا بين شتى انواع الاغراء والردائل المختلفة ، وبلد الاضطهاد المستمر إحساسهم ، أمثال المثبات من الرجال والنساء الذين رأهم (نيكليندوف) في السجن وخارج السجن ، والذين لا مفر لهم من ان يصبحوا مجرمين نظراً لظروفهم الحياتية . هؤلاء يرى (نيكليندوف) انهم سيصبحون لصواً وقتلة كالذين شاهدتهم في الايام الاخيرة . وإلى هؤلاء يمكن إضافة اولئك الفاسدين واتباع الرذيلة ، الذين استمتم المدرسة (الانثروبولوجية) المجرمين بالطبيعة ، والذين يستدل بوجودهم في المجتمع الانساني على الحاجة للقوانين الجزائية ، وللقصاص . هؤلاء المسمون (المجرمين بالطبيعة) الفاسقون المنحطون يضيفهم الأمير لاولئك الذين يرى ان المجتمع اكثر إجراماً تجاههم ، مما هم تجاهه ، بلا فرق سوى انه إذا كان المجتمع غير مسؤول عن حاضره ، فهو مسؤول عن ماضيه السحيق أيام كان يسمح بانحطاط أسلافه .

وقد لفت نظره بصورة خاصة المجرم (شوتين) اللص ذو السرقات المتكررة ، والابن الطيعي لامرأة عاشت كل حياتها في حماة الرذيلة ، والذي كان من منصبه منضماً لعصابة أشقياء ، ويأوي إلى حجر وخبص . ولكنه حتى بلوغه سن الثلاثين من عمره لم يقع ، دون شك ، على رجل فاضل يحب للخير . ومع ذلك فقد كان هذا الرجل يتحلى بحفة روح اكسبته محبة رفاقه . وكان يتوسل إلى الأمير أن يساعده متنبئاً على نفسه ، وعلى القضاة ، والسجن ، والقوانين الانسانية ، وحتى على الشرائع الالهية . وهناك مجرم آخر يدعى (فيدوروف) كان قد قتل ، بالاشتراك مع اشقياء كان يرأسهم ، موظفاً عجوزاً قصد سرقة . كان أبناً لمزارع طرد من بيته بغير وجه حق ، وخلال ادائه الخدمة العسكرية الاجبارية ، عوقب لانه احب خلية أحد الضباط .

كان حسن الصورة قوي البنية يتدفق كيانه بالحياة والشهوات ، راعباً في اغتنام قطه من منبع الحياة التي يراها من حقه ، مها كلفة الأمر ، أذ انه لم ير من يعف عن اغتصاب ما يرغب فيه ، وكذلك لأن أحداً لم يقل له ان للحياة غاية اسمى من إشباع الغرائز والشهوات .

كان (نيكليندوف) يرى ان كليهما كان من طبيعة منتجة ، فياضة بالقوى ، إلا انها قوى شوهها الاملال ، كما تنمو الأشجار في الحديقة سائبة إذا ما املت . لقد رأى متشردين ومتشردات تشمئز من مرآهم النفوس ، ولكنه لم يصادف المجرم النموذجي الذي تحدث عنه المدرسة الايطالية . كان اولئك النساء يثرون اشتمزاه ولكنه اشتمزاز لا يختلف جوهره في شيء عما يثيره في نفسه غيرهم من البلاء الذين يرام خارج السجن بتياب فاخرة وترين صدورهم اوسمه لامعة ، سواء في ميدان العمل أو المراقص . إذن لماذا يسجن اولئك النساء في حين يظل من لا يختلف عنهم في شيء يسير في الأرض مرحاً ، وأكثر من ذلك ، هو يحاكم الأولين ؟ هذا هو الموضوع الذي كان يستأثر بالكثير من تفكير (نيكليندوف) خلال الايام الاخيرة .

كان (نيكليندوف) في بداية امره يأمل في ان يجد جواباً على سؤاله . فاقنتى كل ما كتبه حول الموضوع الكتاب امثال (لومبروسو) و (غاروفالو) و (فيري) و (ليست) و (مندبا) و (تارد) ، و شرع في دراستها بأمعان . غير انه كان كلما اوغل في القراءة يزداد امله خيبة . وكان يحدث له ما يحدث لأولئك الذين يطرقون ابواب العلم يبتغون منه جواباً صريحاً وبسيطاً ودقيقاً على سؤال بوجهونه له يستطيع العلم حل الكثير من القضايا المعقدة المتعلقة بالقوانين والمؤسسات الجزائية ، ولكنه لا يستطيع جواباً على هذا السؤال البسيط : لماذا وبأي حق يقوم قلة من الناس بسجن ، ومعاقبة ، وتعذيب ، ونفي ، واعدام اشباههم ، في حي ليسوا خيراً منهم ؟ . انه يقدم لنا بدلاً عن الجواب الحاسم ، سبلا من المحاضرات حول المواضيع التالية : هل يستدل من قياسات جمجمة مجرم ما ، على مدى مسؤوليته . ما اهمية وراثته الاجرام . اذ كان الاجرام والا أخلاقية تنبع من النفس ، ما هي الاخلاق ، والجنون ، والانهلال

والنوعية ؟ ما هو تأثير المناخ والجهل وحب التقليد ، والايعاء على الاجرام ؟
 ما هي الاسس التي قام عليها المجتمع . وما هي واجباته ؟
 لقد أعادت هذه الدراسات بحثاً عن الجواب المنشود ، إلى ذاكرة الأمير حادثة
 وقعت له في شبابه ، ذلك انه في إحدى المناسبات -أل صيياً يعود من المدرسة إذا
 كان يحسن النهجية . فأجابه الصبي .
 - أجل . أحسن النهجية .
 - حسن إذن هج لي كلمة حافر .
 - أي حافر ؟ أحافر الحمار ؟ - أجاب الصبي وهو يضحك بخبت .
 ويحدث له الآن ذات الحادث .
 نجيه كتب العلم على سؤاله بأسئلة . هنالك شروح بحانة مفيدة وهامة . ولكن
 ينقصها الجواب المنشود : بأي حق يقاصص رجل رجلاً ؟ . . . انه لم يكن ينقصها
 الجواب فحسب ، وإنما كان سائر ما يرد فيها من الحجج يأتي دعماً وتبريراً للحاجة إلى
 القصص . حاجة اعتبرت بصورة عامة قضية مسلماً بها . ولما كان (نيكليسنوف يقرأ
 كثيراً ، وإنما بصورة منقطعة ، فقد ظن ان فشله في الحصول على الجواب الصحيح قد
 يعود لدراسته السطحية ، وظل حي الأمل بالوقوع عليه ذات يوم . ولكنه كان أثناء
 ذلك ، يكون لنفسه رأياً كان يردده باستمرار ، ولكنه كان يشك في صدقه وصحته ،
 ولا يوليه ثقته التامة .

- ١٩ -

لقد تبين اليوم الخامس من شهر تموز ، موعداً لسفر القافلة الأولى إلى سيبريا والتي
 ستكون (كاترين) في عدادها . وكان الأمير قد تهيأ للسفر معهم في الميعاد المعين ،
 ولكن اخته وصلت إلى المدينة قبل ذلك يوم واحد لوداع أخيها .
 كانت « تاليا سفانوفنا راغوجينسكايا » تكبر أخيها الأمير بعشر سنوات ،
 وبوسعها أن تقول انه ربي بين أحضانها . وقد حدث قبل قليل من زواجها ، أي
 عندما كانت في الخامسة والعشرين من عمرها ، وهو في الخامسة عشرة ، أن قامت

بين الاثنين صداقة ومودة ، كالتى تقوم بين أشخاص من سن واحدة . كانت (نتاليا)
آتشد نهوى (نيقولا ارتينيف) صديق أخيها وقد توفي فيما بعد . كان الأخوان يجبانه
حباً جماً ، ويجبان فيه ولأجله كل ما هو طيب ومصطفى وسائر ما يؤول إلى توحيد
بني الانسان . ولكن مع الأيام ، وبعد وفاة (ارتينيف) طرأ تغير على كليهما ،
ففسدت أخلاق كليهما . هو بسبب حياته الجديدة بعد التحاقه بالجيش ، وهي لزواجها
من رجل شهواني الحب ، لا يقدر الشعور الذي كانت هي وأخوها (ديمتري) يربانه
أثمن وأقدس من كل شيء ، حتى انه لم يكن يفهمه ، وكان يعزو ما يبشران به من
كآل معنوي ، ووجوب تقديم العون للغير الذي كانت (نتاليا) جد راغبة في تكريس
حياتها له ، للطموح ، ولحب الظهور بين طبقات المجتمع .

كان (راغوجينسكي) غامضاً فقيراً ، وبلا لقب . إلا انه كان بارعاً في التذبذب
بين حزبي الاحرار والمحافظين ، تبعاً لما يراه من إمكانية وصول أحدهما إلى الحكم .
وكذلك بفضل بعض الصدف ، واكثر من كل ذلك ، بفضل مقدرته على إرضاء
السيدات فقد تدرج في سلك القضاء حتى بلغ مرتبة عالية . وعندما شارف كهولته
تعرف ، في الخارج ، على عائلة (نيكليندوف) ، وتمكن من استهواء (نتاليا)
فتزوجها على رغم معارضة امها التي كانت تراه زواجاً غير متكافئ .

اما (ديمتري ايفان) ، وان كان يخادع نفسه ، محاولاً التغلب على شعوره الداخلي ،
فقد كان يكره صهره ويستقل ظله لضعة إحساسه ، وقلة ذكائه وجفائه وغروره
واكثر من كل ذلك لأجل اخته . كان يستحيل عليه ان يصدق ان هذه قد احبت
بمثل هذا الحب الأناني والشهواني ، طبيعة حقيرة كهذه ، وانها لكي ترضيه قضت على
النبيل والسمو في نفسها . وكان يحز في نفس (نيكليندوف) أن يتصور كون اخته
زوجة لهذا الرجل الغزير الشعر ، المفتون بنفسه ، الاصلع اللهاع الرأس . وكانت
اشمئزازه منه يتعداه لأولاده . ولذا فانه كان كل مرة يبلغه ان اخته (نياليا) قد
وضعت مولوداً جديداً يتولاه الذعر ، ويرى انها قد دنست بذلك الغريب عن سائر
افراد العائلة .

جاء آل (راغوجينسكي) دون ولديها (كانا ذكراً وانثى) وحلوا في احسن
غرف افخم الفنادق .

وصرعان ما ذهبت (نتاليا) إلى بيت اهلها ، ولكن (اغرينا بيتروفنا)
اخبرتها ان اخاها يقيم في الفندق . فذهبت اليه على الفور . غير ان خادماً قذر الثياب
انباها ان اخاها كان غائباً آتت فطلبت إرشادها إلى مخدعه لتكتب له رسالة .

وفي الغرفة الصغيرة لاحظت (نتاليا) الدقة التي امتاز بها اخوها ، والبساطة
التامة في كل شيء . فأدهشها ما رأت . وكان على المكتب كل ما تحتاجه للكتابة ،
ومؤلفات (هنريش جورج) ، ومؤلف باللغة الفرنسية (لثارد) وجدت بين صفحاته
موسى لقص الصفحات .

فجلست تكتب لاختها رسالة رجت فيها ان يذهب إلى الفندق بأسرع مايسطيع
ثم ابدت حركة استياء لما علمته من اخبار اختها وعادت إلى الفندق .
كان ثمة امران يستوليان على اهتمامها بالنسبة لاختها الاول والاهم كان اصراره على
الزواج من (كاترين) ذلك الاصرار الذي كثرت اللفظ حوله في المدينة التي تسكن
فيها ، ورغبته في التنازل عن ممتلكاته في الريف لصالح المزارعين ، الامر الذي يتحدث
عنه الجميع الناس ، معتبرة ذلك عملاً سياسياً خطيراً . فمن جهة كانت ترى في اصرار
اختها على الزواج من (كاترين) مفخرة لها ، إذ كانت ترى فيه ذاتها ، كما كانت قبل
زواجها ، ومن جهة أخرى فقد كان يستولي عليها الذعر عندما كانت تتصور ان اخاها
سيربط مصيره بمصير امرأة من مثل تلك الطبقة الوضيعة . وكان ان تغلب هذا الشعور
فقررت العمل على اقناع اختها بالعدول عن هذا الرأي ، على الرغم من إدراكها مسبقاً
صعوبة هذه المهمة . اما فيما يتعلق بتنازله عن ممتلكاته ، فقد كان قليل الاهتمام بالنسبة
لها . ولكن زوجها قد نصحها باستخدام كل ما لديها من تأثير على اختها لتحمله على
الاقلاع عما كان يعتبره جنوناً . كان (اغناسبونيكوفوروفيتش) يقول ان عملاً كهذا
لهو الغاية في العنجهية والغرور والتسرع ، ودليل على فقد الرزاق . وان خير ما يوصف
به عمل كهذا هو كونه محاولة استعلاء وتبجح ، وليجعل من نفسه احداثاً للناس .

— أريد أن أعلم إذا كان من التعقل منح الأراضي للمزارعين مقابل أجر يدفعوه ... لمن ؟ ... لأنفسهم — كان يقول — إذا كان لديه مثل هذه الرغبة فبوسعها أن يلجأ إلى أحد المصارف الزراعية ليكون وسيطاً ... هكذا يصبح مفهوماً ... ولكن ، على كل حال ، فمثل هذا التصرف يعتبر دليلاً على أنه لا يتمتع بكافة قواه العقلية . وكان يفكر في إمكانية مجلس وصاية ، ويحرض زوجته على التحدث إلى أخيها عن هذا المصير .

- ٢٠ -

وجد الأمير رسالة اخته تنتظره في الفندق حين عاد إليه فخف مسرعاً للبحث عنها .

كان الوقت أصيلاً ، وكان (اغناسبونيكوفوروفيتش) يرقد القيلولة ، فاستقبلته اخته وحدها . كانت هذه ترتدي بتاً من حرير اسود ، على صدره شريطة حمراء . وكان يلاحظ ، سواء في البيت ، أو في تصفيف شعرها الاجعد تصفيفاً رائعاً ، مدى اهتمامها بالظهور بمظهر الشباب ، كي تروق في عيني زوجها الذي كان في مثل سنها . وهرعت للقاء أخيها عندما رآته قادماً نحوها ، وقد ارتفع صوت حفيف ثوبها الحريري ، فتعانقا وأقبلا يتبادلان النظرات والابتسام . كان الوفاء والنبل يتجليان في تلك النظرات الغامضة التي تبادلاها والتي لا يستطيع التعبير عنها بالكلام ولكنها فياضة بالمعاني . غير انها عندما بدؤا يتحدثان تلاشى ذلك الوفاء وذلك النبل . لم يكن أحد منها قد رأى الآخر منذ وفاة أمها .

— لقد أصبحت بدينة وما تزالين فتية . — قال الأمير .

فارتعشت شفتاها لفرط السرور .

— وانت أراك قد أصبحت نحيلاً .

— وكيف حال زوجك ؟

— بخير . وهو يرقد القيلولة الآن ، لأنه لم يذق طعام الرقاد طوال الليلة

البارحة .

كانا في شوق شديد للتحدث . ولكن الشفاء ظلت منطوية على ماتحتجزه ورائها ،
غير ان العيون كانت تنطق بأن على الشفاء ان تطلق سراح ماتحتجزه .

— لقد ذهبت لزيارتك في البيت .

— علمت بذلك . لقد تخلّيت عن البيت لاني رأيت واسعاً علي وخاوياً ، وكنت
شديد الضجر لوجودي وحدي ضمن تلك الجدران . لست بحاجة لذلك الاثاث
والمفروشات فخذها .

— هذا ما قاله لي (اغريتا) ، فشكراً لك كثيراً ، ولكن ...

وهنا دخل خادم الفندق يحمل انية الشاي الفضية فأمسكها عن الكلام ريثما يضع
الخادم الاكواب والصحاف ، ثم تقدمت (نتاليا) من الطاولة وأخذت تعد الشاي
وهي صامتة ، بينما كان اخوها (نيكليندوف) يتابع حركاتها وهو صامت .

— حسن يا (ديتري) . لقد اخبرت بما تنويه . — قالت له بجرأة وقد صوبت
نظراتها اليه .

— هذا من دواعي سروري .

— ولكن هل توقع إصلاحاً (لكاترين) بعد تلك الحياة القنبرة الشاذة التي
عاشتها ؟ — قالت (نتاليا) .

كان (نيكليندوف) ، وهو جالس على الكرسي منتصب القامة ، ولا يستند
بظهره عليها ، ينظر إلى اخته مصغياً بكلية اليها بغية تفهم كلامها جيداً ، والابابة
عليه كذلك . وكان الاطمئنان الهادي الرزين ، وذلك الحب المتناهي للجنس
البشري كافة الذي بعثه في نفسه حديثه الاخير مع (كاترين) ما يزال حياً في
جوانبه .

— انا لا انشد إصلاحاً لها ، وإنما لنفسي . — أجاب الامير .

فصعدت اخته زفرة وقالت :

— اعتقد ان ثمة وسائل عديدة تصلح لذلك .

— انا أرى العكس ، وأنه خير السبل ، لانه يصلني باناس قد اكون مفيداً لهم .

- أخشى ألا تكون سعيداً .
- لست أنشد سعادتي ...
- لقد فهمتك . ولكن حتى هي لن تشعر بالسعادة إذا كانت طاهرة القلب ،
ولن ترضى .
- هذا ما حدث ، فالواقع انها لم ترض .
- ولكن الحياة ...
- كيف ؟ الحياة .
- للحياة مطالب اخرى .

- ليس للحياة متطلبات غير تلك التي تنبع من القيام بالواجب . - أجب
(نيكليندوف) وهو يحدق في وجه اخته الذي كان لا يزال جميلاً على رغم التجاعيد
الخفيفة التي بدأت ترسم حول فمها وعينيها .
- لست أفهمك . - قالت (نتاليا) وهي تصعد زفرة .
- يا لها من أخت منكودة . - كان يقول في نفسه . - كيف استطاعوا تغييرها
بهذا المقدار .

وعندما تذكر (نتاليا) التي عرفها قبل الزواج شعر بفيض من الحنان يغمر نفسه
حنان حافل بذكرات الصبي .
وهنا جاء (ايغناسيو نيكوفوروفيتش) مزهواً بنظاراته ولحيته السوداء وصاحته
جاء منتصب القامة منفوخ الصدر ، باسمياً .
- أهلاً وسهلاً ، أهلاً وسهلاً . - قالها بلهجة تشتمل على شيء من السخرية .
ومع انها كانا قد أصبحا بعد الزواج يتخاطبان بصيغة المفرد ، فقد عادا الآن
للتخاطب بصيغة الجمع .
فتصافحا بمحاربة ، ثم جلس (ايغناسيو) بتكاسل على أحد المقاعد .
- أعتقد ان وجودي سوف لن يجد من حرية أحد ...
- كلا . فانا لا أخفي عن أحد شيئاً مما أفعله أو أقوله .

كان منظر وجهه وبديه ، والكلمات القليلة التي نطق بها بلهجة الدعاية كافية لتلاشي تلك الطمأنينة وذلك السرور من قلب (نيكليندوف) كمن أصيب بصاعقة .
- بلى ، كنا نتكلم عما اعتزمه . - قالت (نتاليا) ثم تناولت إبريق الشاي
وأضافت قائلة تسأل زوجها . - أتريد شاي ؟

- شكراً . وما الذي تعنيه ؟
- سفري إلى سيبريا مع المساجين الذين ستكون بينهم تلك المرأة التي اعتبر نفسي
مجرماً تجاهها . - قال الأمير .
- اضلني سمعت أن الأمر يتعدى مجرد المرافقة .
- أجل . وأن أتزوج منها متى وافقت على ذلك .
- آه . وهل بوسعك اطلاعي على الدوافع التي حملتك عليه .. ؟ لأنني لم أستطع
تبينها .

- الدوافع هي ان تلك المرأة ... ان اول خطوة خطتها في طريق الخطيئة ...
- قال (نيكليندوف) ولم يجد الكلمات المناسبة للتعبير عن أفكاره . - الدوافع ؟ .
لقد كنت المجرم وهي التي تقاصص .

- إذا كانت تلاقي القصص فذلك دليل على انها ليست بريئة .
- بلى انها بريئة كل البراءة .
وبدأ يقص عليه ، وهو منفعل ، تطورات الدعوى .
- أفهم ذلك . هذا ناتج عن إهمال كبير من الرئيس ، وجواب من المحلفين غير
مدروس . وهو خارج عن اختصاص محكمة التمييز .
- لقد رفضت الطلب .

- إذا كانت قد رفضت فذلك يعني ان الأسباب الموجبة غير كافية . - قال
(ايغناسيو نيكوفوروفيتش) .

ومعنى هذا انه كان يؤمن بأن الحقيقة وقف على مداولات المحكمة .
- التمييز لا ينظر في أساس الدعوى ، وإذا كان ثمة خطأ قضائي فمن الضروري
رفع استرحام جلالة الامبراطور .

— لقد رفعنا هذا الاسترحام . ولكن امكانية نجاحه ضئيلة ، اذ انهم سيطلبون ايضاحاً من وزارة العدل ، وهذه بدورها من مجلس الشيوخ ، وهذا سيصدق قراره ، وستكون النتيجة معاقبة البريء كما يحدث دائماً .

— اولاً . ان وزارة العدل سوف لا تطلب معلومات من مجلس الشيوخ . —

اجاب (ايغناسيو) وهو يتسم ابتسامة اشفاق . — وانما سينظر في وقائع الدعوى كما اوردتها في المحكمة ، فيوافق او لا يوافق على قرارها بعد درس الدعوى طبقاً للقانون . ثانياً . لا يعاقب الأبرياء . واذا حدث شيء من هذا ، ونادراً ما يحدث ، فانه من قبيل الشواذ . اما اولئك الذين يمضون مدة العقوبة فذلك لأنهم يستحقونها . كان (ايغناسيو) يتكلم بتؤدة مبتسماً ابتسامة الظافر .

— اما انا فارى العكس . — قال (نيكليندوف) مؤكداً ، وقد استاء من صبره . — فانا مقتنع كل الاقتناع من ان ليس كل من تدينهم المحاكم مجرمين . — ماذا تعني بكلمة غير مجرمين .

— بالمعنى الصحيح للكلمة . أمثال تلك المرأة المتهمة بوضع السم ، وهي الآن تقضي مدة العقوبة ، وذلك القروي الذي تعرفت عليه منذ ايام قلائل ، والمتهم بجريه قتل لم يرتكبها . وتلك المرأة المسكينة وولدها ، المتهمين بحرق منزل ، فسجننا بسببها عدة شهور في حين ظل المجرم الحقيقي وهو صاحب المحل ، يسرح ويهرح حراً طليقاً .

— حقاً ، انه ليستحيل ، وسيظل كذلك ، تجنب بعض الأخطاء . ان عمل البشر لن يكون كاملاً .

— هنالك اناس ارتكبوا اعمالاً حسبوها غير محظورة ، لوجودهم في أوساط موبوءة ، ولكن المجتمع يحظرها ويعاقب عليها فهم والحالة هذه ينظري أبرياء .

— معذرة يا حبيبي . ان ما تقوله مغاير للمنطق . ان كل سارق يعلم ان السرقة محظورة ، لا يوجد قانون انساني لا يعاقب عليها . — قال (ايغناسيو) بمثل الهدوء والابتسامة اللذين اثارا ثأثر (نيكليندوف) .

— كلا انه لا يعرف ذلك . عند ما ينهونه عن السرقة ثم يرى اسياده يتلاعبون

عليه في عمله ، وينقصون من اجره ثم يرى ايضا الحكومة ذاتها تسرقه باستمرار عن طريق موظفيها بشكل ضرائب ، وان ...

— هذه نظريات فوضوية بحجة يا حبيبي . — قال له (ايغناسيو) مقاطعا ، ومتوخيا ابضاح مغزى كلمات ابن حميه .

— اجهل ما هي . ولست افعل سوى تبيان الواقع . — قال (نيكليندوف) مواصلا . — هو يعلم ان الموظفين يسرقونه ، ويعلم اننا نحن كبار الملاكين ننعّم بخيرات ارض للجميع عليها نفس الحقوق . ثم اذا التقط من الارض بعض أغصان الأشجار اليابسة ليشعل ناره فاننا نسجنه ونقنعه بأنه لص . هذا في حين يرى العكس ، يرى أن اللص سواء ، ذاك الذي اغتصبه قطعة الأرض التي تخصه . وان الواجب يقتضيه إعادة ما سرق منه لعائلته .

— لست افهم . او على الأقل لست من رأيك . ان الأرض لا يمكن الا ان تظل خاضعة للملكية الفردية . اذا وزعت اليوم . — قال (ايغناسيو) مواصلا كلامه مقتنعا بان (ديمتري) كان اشتراكيا فهو يريد اقناعه بكلمات موجزة يخطئ رأيه . — اذا وزعت الأرض اليوم باجزاء متساوية فانها ستذهب لا محالة الى ايدي الأذكي والأكثر عملا .

— ومن قال انه يجب توزيعها باجزاء متساوية ؟ ان الارض لا ينبغي ان تكون ملكاً لأحد . ولا ينبغي ان تكون سلعة تباع وترهن .

— ان حق الملكية فطري في الطبيعة الانسانية . الغ هذا الحق فستجد ان ما من احد يرغب في حرّاة الأرض . الغ هذا الحق فسترى اننا نعود الى حالة التوحش . — قال (ايغناسيو) ذلك بلهجة الأمر .

— انا أرى العكس . سيحدث فقط ان الارض سوف لن تظل قليلة الانتاج كما هي الآن .

— لا تتعب نفسك يا (ايفان) ان ما تقوله جنون . أمن الممكن القول الآن بالغاء حق ملكية الأرض ؟ انا اعلم انك كنت دائما تقول بهذا الرأي . ولكن

اسمح بأن أحدثك بصراحة . . . وهنا شعب وجه (ايغناسيو) وارتعش صوته .
كان في ذلك ما يشير انفعاله دون شك . . . اذا جاز لي ان اسدي لك النصيح ، فأني
اقول لك فكر مرتين قبل ان تضع نظرياتك موضع التنفيذ .

— أتتكم عن قضاياي الخاصة ؟

— اجل . اعتقد انه ينبغي علينا جميعنا ان نفي بطلبات المكانة الاجتماعية ، وانه
يجب علينا ان نكيف سلوكنا بحسب البيئة التي نعيش فيها . وانا اذا كنا قد ورثنا
ثروة عن اسلافنا ، فواجبنا يقضي بأن نورثها لأبنائنا .

— اعتقد ان واجبي . . .

— اسمح يا . . . قال (ايغناسيو) مقاطعاً — لست اقول ذلك . من اجل اولادي ،
فأن رزقهم مضمون ، ودخلي يؤمن لي عيشة مريحة واظن ان اولادي سيكونون
كذلك . ان اعتراضي على تصرفاتك غير المعقولة ، وساحني على هذا التغيير ، لا ينبع
من مصلحة خاصة ، وانما لأنني اعتق مبادئ معينة ، تحول دون تبني آرائك . واذا
جاز لي ان اقدم نصائح فأقول لك فكر مليا ، طالع ، وشاور .

— اسمح لي بأن احل قضاياي الخاصة بنفسني . وان اصنع ما اراه من مصلحتي .
اجاب (نيكليندوف) .

ومضى يتناول الشاي دون ان يضيف حرف واحد ، وقد شجب لونه بادلاً جهده
ليكظم غيظه ، وقد تثلجت يدها وقدماه .

— ٢١ —

اخذ (نيكليندوف) يستعلم من اخته عن ولديها ، بعد ثوان معدودات من تغلبه
على ثورة نفسه ، فرها انه يضع بذلك حدا لتقاشه مع زوجها ، واخبرته انها ظلا
عند جدتها ، واقبلت تشرح له كيف كانا يلعبان اثناء الرحلة تماما كما كان يلعب هو
في صغره .

— الاتراين تذكرين ذلك ؟ — قال لها ضاحكاً .

— بالطبع . تصور انهما يفعلان ما كنت تفعله .

واذ رأيت (نتاليا) ان النقاش قد انتهى . ولما كانت لاترغب في التحدث امام زوجها عن اشياء لايفهمها غير اخيها فقد اخذت تتحدث عن حادث بطرسبرج ، وعن شعور ام الفتى (كامينسكايا) الذي ذهب ضحية المبارزة . فاستغل (ايغناسيو) تلك المناسبة ليقول انه ينبغي اعتبار القتل في المبارزة كالقتل العادي الذي يعاقب عليه القانون . غير ان (نيكليندوف) اعترض على ذلك فنشبت بينهما معركة كلامية حادة ، لم يقنع فيها احدهما الآخر .

كان (ايغناسيو) شديد الأسف لوقوف ابن حميه موقف المعارض لكل ما يبجد نفسه في تأييده ، ولذا كان راغباً في اقناعه بضعف تفكيره وآرائه كذلك كان (نيكليندوف) لا يستطيع الا ان يشعر بالأشياء عندما يرى ذلك الرجل المحدود الذكاء يتشبت بعناد في اعتباره عادلا ومنطقياً كل ما يراه الأمير ضرباً من جنون مطبق ، هذا عدا عن الحق الذي كان يشعر به عندما يناقش صهره قراره في توزيع املاكه ذلك الحق الذي كان يتضاعف لدى تفكيره ان (لأينغناسيو) واولاده بعض الحق في ميراثه . فيحز في نفسه ذلك النفاق .

· - ماذا يجب ان تفعل المحكمة اذن ؟ - قال يسأله (نيكليندوف) .
- ينبغي ان تحكم على من يخرج حيا من المبارزة بالأشغال الشاقة ، تماماً كما تحكم على القاتل في جريمة عادية .

- وهذا يسمى عملاً ؟ . . .

- هو عمل عادل .

- اذن علينا ان نعترف بأن غاية المحكمة اقرار العدالة . . . قال الأمير .

- وما هي غايتها اذن ؟

- غايتها المحافظة على المصالح الطبقية في رأيي ان المحكمة انما انشئت لتكون وسيلة مريحة لحماية اوضاع الطبقة الحاكمة .

- تلك فكرة جديدة كل الجدة . قال (ايغناسيو) ملاحظاً وهو يتسم ابتسامته المعهودة . المتعارف عليه هو ان لوجود الحاكم مبررات اخرى .

هذا صحيح من الوجهة النظرية ، ولكنها ليست كذلك من الوجهة العملية . هذا ما تأكد لدي . ان مهمة المحاكم هي المحافظة على المجتمع بوضعه الراهن . ومن هنا جاءت ملاحظتها ومعاقبتها لمن هم فوق المستوى العام ورغبوا في رفع المجتمع إلى مستواهم ، ولمن كان دون هذا المستوى .

- لا يعقل أن يعاقب قوم لأنهم فوق المستوى العام . هؤلاء هم زبدة المجتمع . وفسادهم ، وان اختلف في بعض الحالات ، فليس أقل من فساد المجرم الذي تضعه تحت هذا المستوى .

- أؤكد لك انني أعرف أشخاصاً هم أسمى بكثير من القضاة الذين حاكمهم . أمثال اولئك المحكومين بقضايا دينية ...

ولكن صهره الذي كان من عاداته الا يسمح بمقاطعته عندما يتكلم ، اندفع في حديثه مثيراً بذلك حتى الامير .

- يستحيل التسليم بأن مهمة المحاكم هي المحافظة على الحالة الراهنة . ان مهمتها واضحة جلية فاما اصلاح ...

- يا له من إصلاح . الاصلاح عن طريق السجن .
- واما اقضاء هؤلاء الاشخاص الفاسدين ، الوحوش الحقيقية التي تهدد كيان المجتمع على الدوام .

- الواقع ان المحاكم لا تقوم بهذا الامر او بذاك ، وحتى لو حاولته فان المجتمع ليس لديه الوسائل الكافية .

- لست افهم . - قال (ابغناسيو) وهو يتسم .
- اقول ان بين العقوبات المعقولة تماماً يوجد اثنتان وقد كانتا مستعملتين في قديم الالام أعني بها العقوبة الجسدية وعقوبة الاعدام . ولكن بفضل تطور العادات فقد نثر استعمالها .

- هذا شيء جديد ومن فمك شديد الغرابة .
- اجل . انا ادرك ذلك ويبدو لي معقولاً ان يعاقب جسدياً كل من يضر الناس

حتى يتذكر في المستقبل ما حل به من ألم فيمتنع عن تكرارها . كذلك افهم جيداً ، واره معقولاً أن يكون المجتمع الحق في إعدام من يتفاهم خطره . هذان العقابان منطقيان . ولكن بماذا نصف سجننا لشخص أفسدته البطالة ورفاق السوء . في مثل هذه الحالة يزداد بطالة ، ويرافق من هو أشد سوءاً . فاما ان تنقل الميزانية العامة لان كل واحد من هؤلاء يكلف الدولة أكثر من خمسية روبل ، وتنقله على حساب الخزينة العامة من (نولا) إلى محافظة (ايركوتسك) ومن هذه إلى ...

- ومع ذلك فان المجرمين الذين يتقانون على نفقة الدولة يتوجسون خيفة من هذه الرحلة . وإذا كنا نتحدث هنا مطمئنين فبفضل تلك الرحلات وتلك السجون .
- لا تضمن السجون الاطمئنان الدائم لان نزلاءها ليسوا سوى ضيوف عابرين ، وسيغادرونها عاجلاً ام آجلاً وينالون كامل حريتهم بعد ان يكونوا قد ترمسوا على الفساد ، وهكذا تأتي الغاية من هذه المؤسسة معكوسة ، ويتفاهم الخطر بدلاً من تلافيه .

- انت ترى انه ينبغي تحسين نظام السجون ؟
- ليس بالامكان بلوغ الغاية من تحسينها . لان السجن الكامل يكلف أكثر مما ينفق على التعليم . فضلاً عن كونه عار على الشعب .
- ان العيوب في نظام السجون لا يمكن مجال من الاحوال ، ان تكون سبباً كافياً لالغاء المؤسسات القضائية . - اجاب (ايغناسيو) محاولاً محاصرة ابن حميه بالحجة المنطقية .

- انه عيب كبير لا يمكن إصلاحه . - اجاب (نيكليدوف) بصوت عال .
- إذن ما العمل ؟ انحكم بالاعدام ؟ أنسمل العيون كما يرتأي بعض رجال الحكم المشهورين ؟

قال (ايغناسيو) ذلك وافترت شفتاه عن ابتسامة انتصار .
- سيكون في ذلك كثير من القسوة . ولكنه على الأقل يهدف لغاية ، في حين ان النظام الحالي قاس ولا يهدف لغاية .

- وعلى الرغم من كل هذا فأنا افهمه . - قال (ايغناسيو) وقد شحب وجهه .
- لقد رأيت اثناء المحاكمة مدعي عام يبذل قصارى جهده ليضمن الحكم بالسجن
على فتى يستدعي الشفقة من كل من ليس فاسداً . وبلغني عن مدعي عام آخر كان
يحاول تجريم رجل لتلاوته الانجيل على ملا من الناس . وبصورة إجمالية فإن أعمال
المحاكم تكاد تكون كلها جائرة وقاسية . . .

- لو فكرت كما تفكر اذن لما كنت في مناصبي الحالي . اسرع (ايغناسيو) مجيئاً
وقد قفز من مقعده ، وتلمع شيء وراء زجاج نظاراته .
- أتبكي لهذا ؟ - سأله (نيكليندوف) .

كان يبكي حقاً . وكان بكاؤه للكرامة الجريحة . ودنا (ايغناسيو) من النافذة
ورفع النظارات عن عينيه وشرع ينظفها وهو يسعل ثم مسح دموعه وجلس على المقعد
الكبير واشعل لفاقة تبغ ولم ينبث بعدها بينت شقة .

فأدرك الحجل (نيكليندوف) امام هذا الصمت ، وبكته ضميره لأنه أدرك انه بكلماته
تلك قد اهان صهره واخته ، فأسف لذلك خصوصاً لأنه سيسافر في اليوم التالي ، وسوف
لن يكتب له اللقاء بهما الا بعد انقضاء مدة طويلة . وقام فودع مشوش الأفكار
مضطرب النفس وذهب الى منزله .

- ربما كنت قد أديت ما اتوخاه . . . كان يقول في نفسه وهو يسير في الشارع
لم يجب (ايغناسيو) على كلماتي الأخيرة على الأقل . ولكن ما كنت ينبغي لي ان
اقول ما قلته . لقد تغيرت وما كان لي ان ادع نفسي تنساق مع شعور استياء حقير
فسيبت بذلك الغم لأخفي المسكينة .

- ٢٢ -

كان موعد خروج قافلة المساجين في الساعة الثالثة بعد الظهر . وكانت (كاترين)
احد افرادها .

كان الأمير يرغب في ان يراها عند خروجها من السجن ثم يتبعها في الشارع ، فرأى
ان ينتظر عند باب السجن قبل حلول وقت الظهر .

وعندما كان يضع ثيابه وأوراقه في الحقيبة فتح سجل مذكراته اليومية وشرع يتلو بعض ما دون فيها.

كان منذ بداية حياته الجديدة قد اعتاد أن يسجل بعض ذكرياته من حين لآخر ، فيشعر بارتياح نفسي .

« لم تقبل (كاترين) تضحياتي ، وإنما تضحياتها هي . لقد انتصرت . وكذلك أنا انتصرت . »

كان قد كتب هذه الفقرة قبل ذهابه الى بطرسبرج .
« كم يسرني ما اراه من التيقظ الذي يراود روحها . لقد ولدت ولادة جديدة لحياتنا
حياة جديدة . . . ومع ذلك فانا لا ازال احاذر ان اصدق . »
ثم تأتي بعد ذلك ذقنة اخرى .

« لقد تأملت اليوم كثيراً ، وسررت ايضا سروراً كبيراً . لقد علمت ان (كاترين) قد طردت من المستشفى ، فتأملت المأمة ضاً .

وعندما تحدثت اليها بعدها شعرت بقزز منها وكراهية لها لا تقاوم . ولكن سرعان ما تذكرت انني كنت في كل مرة اهتمها اشتمز في نفسي ، وتأخذني شفقة عليها . ما ارجل ان ترى دائماً الحشبة في عيوننا . . . وما افضلنا عندئذ . »

واضاف ذلك الصباح فقرة جديدة .

« لقد اجتمعت (بنتاليا) . . . وبما كنت كثير الرضى عن نفسي ، وسيئاً تجاهها ولكنني سأبدأ حياة ابتداء من غد . فاودع الى الابد سلوكي القديم . نحتاج نفسي موجة من الأنطباع لا اقوى على تنسيقها لأن قوة لا ينالها ادراك تحول دون ذلك .

وعندما استفاق من نومه صبيحة اليوم التالي تذكر الأمير ما دار بينه وبين صهره من نقاش وشجار فاخذته الندم .

— يستحيل علي ان اغادر المدينة على هذه الصورة — كان يقول في نفسه . . . يجب ان اراها وان اقدم ترضية لها .

ولكن نظرة واحدة القاها على الساعة اقنعته بعدم استطاعته اضاءة الوقت ، اذا

كان حقاً يرغب في الأنتظار اما باب السجن قبل ان تتحرك قافلة المساجين . فبادر الى ثيابه فارتداها مسرعاً وانجز سائر استعداداته ثم استقل اول عربة صادفها ، وذهب الى السجن بعد ان بعث « ناراس » زوج « فيدوسيا » الى المحطة .

كان القطار العادي الذي ينوي « نيكليندوف » السفر معه يغادر المحطة بعد خروج القطار الذي يحمل المساجين بساعتين وتجنباً للعودة إلى الفندق فقد سدّد الأمير ما يطلب منه لصاحبه .

كان الحر خائفاً ، كعادته في شهر تموز . وكانت الحجارة المرصوفة في الشوارع ، وجدران المنازل ، والأسطحة الحديدية التي لم تبرد بعد تلك الليلة القاتضة ، ترسل شواظاً من نار تتلظى .

كان الهواء ساكناً ، وإذا مرت نسمة ، فلفحة من نار خائقة تحمل في ثناياها رائحة الغبار أو الدهان . وكان المارة قلة في الشوارع . وهؤلاء كانوا يبحثون عن بضعة من ظل يلتجئون اليها . ومع ذلك فقد كان عمال رصف الشوارع مكبّين على عملهم ، تلفحهم أشعة الشمس وهم ينهالون بمطارقهم على الحجارة التي كانت تنغرس في الرمل الملتهب . وكان رجال الشرطة ، وهم يرتدون قمصاناً فضفاضة وطويلة تحيط بها حائل المسدس الصفراء ، يقفون منتصبين كالأصنام كالحي الوجوه غامضين كأن لا حياة بهم .

وكانت حافلات (الترام) التي لفتحها الشمس ، تمر بمشقة تجرها جياد بلا عزم ، تظلّل رؤوسها مظلات لا تظهر منها سوى اذانها .

وعندما وصل (نيكليندوف) إلى السجن لم تكن القافلة قد بدأت تتحرك للخروج .

وكان الصخب والضجيج قد بدأ منذ الساعة الرابعة صباحاً داخل بناية السجن ، واحصاء وإعادة احصاء المساجين .

كانت القافلة تتكون من ستاية وثلاثة وعشرين رجلاً ، وأربعة وستين امرأة . وكان من الضروري التحقق من هوياتهم جميعاً ، ووضع لائحة بأسمائهم ، وفصل

المرضى عن الاصحاء ، والعهد باولئك للحرس الموابك لهم .
كان المدير الجديد ، ونائبه ، وأحد الموظفين ، ورئيس الحرس المرافق ، وأحد
الكتبه جالسين حول طاولة في منتصف باحة السجن ، وكانت الشمس قد بدأت تلقي
بأسعها على تلك الطاولة . وكان الحر خائفاً يكاد لا يحتمل حتى عندما كان الظل
يملأ الباحة ، لقلة الهواء وفساده بسبب كثرة اللهاث المنبعث من المساجين الذين كانوا
يتقدمون من الطاولة فرادى فيجيبون على أسئلة عديدة وينطق كل باسمه .

- أليس من نهاية لهذه العملية ؟ - قال ضابط قوي البنية ضخمة الجثة عريض
المنكين قصير الذراعين . - من لدن أي شيطان جاءوا بكل هذه المخلوقات ؟ ألا يزال
كثيرون ؟

فسأل الكاتب عن ذلك ففيل له .
- لا يزال هناك أربعة وعشرون رجلاً والنساء أيضاً .
- تقدموا . لماذا تقفون ؟ . صاح الضابط بالمساجين الذين لم يكونوا داخل
الصف .

كانوا يقفون تحت وهج الشمس منذ ثلاث ساعات بانتظار أن يعين دورهم .
وكان يقف خارج بناية السجن حوالي عشرين عربية لنقل الضعاف منهم ، والنياب
وبعض أمتعة الرحلة . كما يقف أيضاً حشد من أقارب المساجين وأصدقائهم الذين
جاءوا لوداعهم أو لاعطائهم بعض ما يحتاجون إليه .

وكان (نيكليندوف) واقفاً بين هؤلاء ينتظر منذ أكثر من ساعة ، فرأى
حركة السجانين تزداد تماثلاً ، ويكثر الذهاب والاياب ، ثم بدأ يسمع صلصلة القيود
والاغلال ، ووقع لإقدام ، وصوت سعال ، وصراخ قوي ، فعلم عندئذ ان القافلة قد
انطلقت السير .

وظل الصراخ قائماً زهاء خمس دقائق . ثم ارتفع صوت جاف أمراً ففتح الباب
على مصراعيه محدثاً ضجة كبيرة . فوضع صوت صليل الحديد . وخرج الجنود إلى
الشارع بشياهم البيضاء شاهري السلاح ، وتحلقوا بنصف دائرة أمام الباب .

واعطي الأمر بالمسير ، فانطلق المساجين في الحال بطاقياتهم المسطحة على رؤوسهم المحلوقة وكان كل منهم يضع على اكتافه سترة يمسك بها بأحدى يديه تاركا الأخرى مسنولة على جانبه ، وقدماء تجر القيد بجهد .

كان الرجال يسرون في المقدمة ، ماين شاب وشيخ ، وبدين ، وهزيل ، وشاحب اللون وبحمرة ، وصاحب لحية وذوي شوارب ، وامررد ، وروس وتري ويودي والجميع بتياب السجون ، ويحملون كيسا على الأكتاف . خرج الجميع وقد ارتفعت جلبة الحديد ، ملوحين باليد الطليقة كمن يتها لمسيرة طويلة . ثم وقفوا وانتظمو في صفوف من اربعة اشخاص يسير بعضهم في اعقاب بعض . وجاء على اثرهم المبعدون يمثنون بلا قيود في الأرجل ولكن مغلولي الأيدي . واخيراً أولئك الذين ينهبون الى سبيرويا بملء ارادتهم .

وجاء النساء على مثل ذلك النظم وفي طبيعتهن الحكومات بالسجن بمقصانهن الرمادية وغطاء الرأس الأبيض ؛ ثم يتلوهن المنفيات ، وفي اعقابهن اللواتي يرافقهن بعض المساجين .

وكان يختبئ بينهن بعض العسية من ذكور واناك كما تختبئ المهار الصغيرة بين امهاتها عندما تشعر بخطور مداهم . كان الرجال يمثنون محافظين على النظام يسعل بعضهم احياناً ويتحدث البعض الآخر بين حين وحين . واما النسوة فقد كانت اللغظ متواصلا بين صفوفهن .

وظن (نيكليندوف) انه لمح (كاترين) . ولكنه ما علم ان اضعاءهين ذلك الحشد الحاشد حيث لم يكن يرى سوى كتلة رمادية اللون تتحرك ، دون ان يستطاع تمييز اي وجه بينها .

وعلى الرغم من احصائهم لهم داخل السجن فقد كان لابد من اعادة احصائهم مرة ثانية في العراء . غير ان هذه العملية كانت غير ذات نهاية لأن المساجين كانوا ينتقلون من مكان لآخر بحسب الموافقة ، وعندئذ كان يضطرب الأمر على الجنود فيوسعونهم شتاً وسباباً ، ثم يعيدون العملية من جديد .

وكان ان تمت العملية بمشيئة الله ، فاصدر آمر الحرس الموابك امره فعمت الفوضى فترة من الزمن ، وتقدم الرجال الضعاف والمرضى والسناء والصيبة من العربات حيث وضعوا اكياسهم فيها ثم سعدوا اليها . وكان سرور الصيبة وهم يتنازعون الاماكن يتناقض وحزن ونجهم وجوه الرجال . وكان بعض هؤلاء ينزع قبعة عن رأسه ويتقدم من الضابط يتحدث اليه .

وقد علم (نيكليندوف) فيما بعد انهم كانوا يطلبون منه ان يسمح لهم بركوب العربات . ولكن الضابط كان يظل صامتا وهو يحسب بجدته دون ان يكف عن التدخين . وفي احدى المرات هم بحركة كمن يريد ان يصفع ولكن محدثه اندس بين الصفوف تقاديا لتلك المداعبة .

ومع ذلك فقد استطاع عبوز مقوس الظهر الحصول على امر بركوب العربة فرأى (نيكليندوف) كيف نزع الرجل قبعة عن رأسه ، وكيف رسم الصليب على صدره مرارا ثم كيف تقدم من احدى العربات . وعاقه القيد عن الصعود اليها فأعانته عليه امرأة كانت داخل العربة ، بأن مدت له يدها .

واذا اصبح كل من يحمل اذنا داخل العربات . كشف الضابط رأسه ، ومسح العرق المتصب عن جبينه وعنقه ثم رسم الصليب على صدره وصاح :

— الى الامام :

فوضع الجنود البنادق على اكتافهم ، وبعضهم صلب على صدره ، وصاح بعض الاقارب ببعض الكلام اجابهم المساجين بثلاث . وارتفع ضجيج حادين جمهور من النساء ، وتحركت القافلة تسير تحت غمامة من الغبار اثارته الاقدام التي تجر القيود . كان رتل من الجنود يسير في المقدمة يتلوهم الرجال فالنساء فالعربات ، حيث كان ينبعث من احداهن بكاء امرأة ملفوفة ببعض الاحمال ، يعلو حادا متواصلا هستيريا .

كانت القافلة طويلة بحيث غابت الصفوف الاولى عن الانتظار قبل ان تتحرك العربات من مكانها . وعندئذ صعد الامير الى عربته وطلب الحوذي ان يتقدم القافلة كان يود ان يرى بين تلك الكتل البشرية بعض الوجوه التي يعرفها ، وبصورة خاصة كان يرغب في ان يرى (كاترين) كي يسألها اذا كانت قد استلمت الثياب التي بعث بها اليها .

كان الحر يزداد حدة ويصبح غير محتمل . وكان الهواء ساكناً ، والغبار الذي تثيره الأقدام يبدو وكأنه صادر عن حراقتي . وكان المساجين يشون في منتصف الشارع بحيث استحال على عربة الامير ان تتقدم القافلة . كانت تلك الصفوف البشرية الكالحة الوجوه التي تنقل أقدامها بشكل رتيب ، وتحثي أحذية متشابهة ، وتلوح بأيديها الطليقة كأنها تشجع ذاتها ، كان هؤلاء من الكثرة والتشابه بحيث أن (نيكليندوف) كان أكثر من غيره ، يحسبهم بقايا الاساطير .

وسرعان ما تلاشى ذلك الانطباع من نفسه عندما عرف بين المساجين وجه (فيدوروف) ، وبين المبعدين وجه (شوتين) وغيرهم من التمسوا مساعدته . وكان أكثرهم ينظرون إلى العربة وإلى من يجلس داخلها متبعاً خطواتهم . وعرفه كل من (فيدوروف) و (شوتين) على الفور . فحيا، الاول باحناء رأسه . والثاني بغمز عينه . ولكنها كانا يحاولان اخفائها لظنهما بأنها محظورة .

ورأى (نيكليندوف) (كاترين) ، وكانت في الصف الثاني . كانت الاولى فيه فتاة دميعة الحلقة سوداء العينين ، قصيرة الساقين . وكانت الثانية (الجميلة) . والثالثة كانت (ماسلوا) وهي تحمل الكيس على كتفها ، ناظرة نظرات هادئة مطمئنة ثابتة في الفضاء وكانت الاخيرة امرأة جميلة ترتدي (بلوزة) قصيرة ، وتغطي رأسها بغطاء على نسق النساء المتزوجات وكانت تلك (فيدوسيا) .

فترجل (نيكليندوف) من العربية ، وتقدم من النسوة . كان يرغب في سؤال (كاترين) عما إذا كانت قد استلمت الاغراض التي ارسلها لها ، وإذا كانت تحتاج لشيء آخر . ولكن أحد الحراس أسرع اليه وقال له :
- ممنوع الاقتراب من المساجين ياسيد .

ولكنه عندما عرف الامير ، وكانوا جميعهم يعرفونه ، أدى له التحية العسكرية ، وأضاف :

- يستحيل ذلك الآن . انتظر ريثما نبلغ المحطة . هه . وانت . سنرى إذا كنت تمشي . - قال لأحد المتخلفين .
ثم أسرع عائداً إلى مكانه رغم الحر الشديد ، وهو يبطأ الارض بقوة بجذائه الجديد الرائع .

وطلب الامير من الحوذي ان يظل على مقربة من القافلة التي كانت تثير عند الاهلين الفضول الممزوج بالمرثية والذعر . وكان راكبوا العربات يتطاولون بأعناقهم ويتبعونها بأنظارهم ما استطاعوا . والمشاة يقفون ليشاهدوا تلك الصفوف التي توحى الذعر . وبعضهم كان يلقي اليهم بدراهم على سبيل الاحسان فيلتقطها الجنود . كما كان منهم من يستهويه المشهد ، فيرافقهم بعض الوقت ثم يقف وهو يمز رأسه ويشيعهم بنظراته . كذلك كان الجيران يتنادون فيطلون من النوافذ والابواب ليروا اولئك التعساء .

وعند بعض الازقة الضيقة حال الركب بين عربة فخمة وعبور الشارع . كانت الحوذي البدين الحسن التغذية جالسا في مقعده مولياً ظهره لاسياده . وكانت العربية تقل عائلة مؤلفة من رجل يرتدي ثياباً فاتحة اللون ويضع على رأسه قبعة طويلة . وسيدة على رأسها قبعة من القش الابيض ، وفتاة جميلة ، وصبي في نحو الثامنة من عمره شاحب اللون مريض السمات .

كان السيد يعنف الحوذي لانه لم يتقدم القافلة قبل ان تسد عليه السيل . وكانت

السيدة متقلصة عضلات الوجه وعلى فيها لمزة ازدراء ، وتكاد مظلته تكون لاصقة بوجهها وقاية له من الشمس والغبار . كان السائق يصغي لتعنيف سيده له بغيظ مكبوت . وكان الشرطي على استعداد للتزول عند رغبة السيد راكب العربة فيوقف الركب فترة وجيزة ليمر . غير ان ذلك المشهد كان من اجلال الحزين بحيث لم يكن أحد يجروء على إيقافها حتى ولو كان إرضاء لذلك السيد الواسع الثراء . وهكذا اكتفى الشرطي بأن رفع يده إلى طاقته ليدلل على تقديره للثراء ، في حين كانت القسوة تتجلى في نظراته إلى المساكين ، كأنه بذلك يعد السادة مستقلي العربة بمجايته لهم من اولئك السفلة .

ورأى الثري نفسه مرغماً على الانتظار حتى مرت العربة التي كانت تحمل المرأة المستيرية ، التي عادت إلى الصباح والبكاء بعد أن سكنت أعصابها فترة قصيرة . وعندئذ أرخى الحودي لحياده العنان فراحت تنهب الارض المروصوفة نهياً ، حاملة اولئك السادة إلى مزرعة قريبة طلباً للاستجمام . ولم ير الاب ولا الام من المناسب أن يشرحا للولاد مغزى ما شاهلوه . وهكذا كان عليهم أن يفسروه لانفسهم بما يعن لهم .

وإذا حكمنا عليها بناء على حر كات الام ، فبوسعنا ان نقول ان الابنة كانت ترى اولئك يختلفون عنها ، ومن طبقة غير طبقتها ، وربما رأتهم اشراراً ، وانهم في معاملتهم لهم معاملة قاسية قد احسنوا صنعا ، ولهذا شعرت برعب عندما رأتهم ، وتنفس الصعداء عندما توارب القافلة عن الانظار .

وفسرها الصبي بصورة مناقضة تماما . كان الله قد اوحى له ، دون شك ، ان اولئك الاشخاص هم اشباه له ولغيره من المخلوقات وان بعض الناس قد وضعهم في هذه الوضعية وهو يعاملهم بما يستحقون . وكان يرعبه تفكيره بأولئك المخلوق الرؤوس ويرعبه اكثر فأكثر علمه بوجود اناس خليقين بارتكاب مثل هذه المنكرات . وكان يحس بتورم عينيه ، ولكنه كان يغالب البكاء لانه كان يرى فيه ما يزيى بحقه في مثل ذلك الظرف .

كان الامير يتبع القافلة مسرعاً سعياً على الاقدام . وعلى رغم كونه يرتدي ثياباً صيفية يعلوها معطف شفاف ، فقد كان الجو الحائق شديد الازعاج له ، وكأنما كان يلفجه بشواظ من نار .

وبعد أن قطع ما يقرب من نصف ميل على هذه الصورة عاد فاستقل العربة وتقدم القافلة . وكان الحر يزداد من حين لآخر حدة ... فتذكر (نيكليندوف) ما كان من شأن الحديث الذي دار بينه وبين صهره وكيف انقلب مشادة حامية فلم يكن أسفه لذلك من الحدة كما كان عند الصباح ، فقد طغت عليه إحساسات أخرى كمسيرة قافلة المساجين ، والسير تحت الاشعة المحرقة والحر اللاهب .

وكان طالبان يقفان جنب الحائط يستظللان ظل شجرة ، عند بائع عصير الليمون ، واحدهما يجرع كأسه ، بينما كان الثاني ينتظر البائع ليملي له الكأس من تلك العصرة الصفراء . فقال الامير بسأل الحوذي وقد أحس بحاجته للابتعاد .

- أين اجد ما ابترد به ؟

- إذالم يكن ثمة ما يمنع فبوسع سموك الدخول إلى هذه الحانة التي هنا . - اجاب الحوذي ثم ذهب به إلى باب كبير تعلوه لوحة كبيرة .

كان ثمة خادم بدين يرتدي قميصاً وردياً ، يجلس على مقعد وهو يتحدث مع زملائه الذين كانوا يلبسون قمصاناً ربما كانت في احد اطوار حياتها بيضاء . وعندما شاهد هؤلاء الزائر الممتاز عرضوا عليه خدماتهم ، فطلب منهم ماء (سلتز) وجلس إلى طاولة عليها غطاء أسود قنر ، وكان يجلس إلى طاولة أخرى ، حيث كان يوجد جهاز الشاي وزجاجة بيضاء ، رجلان وهما يسحان عرقها ويتحدثان بهدوء . كان أحدهما وهو اصلع الرأس ، والبقية الباقية من شعر رأسه ، يشبه (ايفناسيونيكوفوروفيتش) فتذكر الامير من جديد المناقشة الحادة التي دارت بينه وبين صهره الليلة الماضية . - لا يمكنني ان اواجهه ولكنني سأعتمر بتحرير . - قال في نفسه .

ثم طلب دواة وورقاً ليكتب له تحريراً وأخذ يرتشف الماء البارد الفوار . ولكن تعذرت عليه الكتابة لاضطراب أفكاره .

« حبيتي (تاليا) . انه ليستحيل على ان اسافر وانا احمل في داخلي الانطباع المؤلم الذي خلقته مناقشتي امس مع (ايغناسيو نيكوفوروفيتش) ... — وماذا بعد ذلك ؟ ... هل يجب ان اطلب السماح يا ترى ؟ .. لم افه إلا بما اؤمن به . فاذا طلبت سماحه فيسطن انني نادم على ما قلت . وفضلاً عن ذلك بأي حق يتدخل بقضاياي الخاصة ؟ .. كلا . كلا . هذا مستحيل . وعادته كراهيته لذلك الرجل المفتون بنفسه ، فأخفى ما كتبه في جيبه ، ودفع ما عليه لصاحب الحانة وخرج مسرعاً ليلحق بالقافلة .

كان الحر ما زال يزداد حدة . وكأنما كانت الحجارة المرصوفة في الشوارع وواجهات البيوت تقذف اللهب . وعندما وطأت قدمه سلم العربة شعر بحرارة لا تطاق كما أرغمت الحرارة على ان يرفع يده عن ستار الدولاب اللامع عندما اسند يده عليه إذ كادت تحترق . كان الجواد مخب على الطريق التربة غير المستوية بخطى متعبة متردة . والحدودي يكاد يكون نائماً . وكان (نيكليندوف) ، وهو جالس داخل العربة ونظره شارد في الفضاء ، يرى نفسه عاجزاً عن إبداء أية رغبة .

وشاهد جمهوراً من الناس مجتمعين عند ملتقى بعض الشوارع ، أمام باب كبير ، ويقف على مقربة منهم جندي شاهرأ سلاحه . فطلب (نيكليندوف) إلى الحدودي ان يقف ثم سأل بعض المارة قائلاً :

— ماذا حدث ؟

— لقد حدث حادث لاحد المساجين . — اجاب ذلك .

فترجل (نيكليندوف) من العربة ودنا منهم .

كان ثمة رجل ملقى على رصيف الشارع يرتدي ثياب المساجين منكس الرأس ، قوي البنية متوسط العمر ، احمر اللحية مستدق الانف ، محققن الوجه . وكان من وقت لآخر يأخذه فواق رتيب يهتز له صدره العالي القوي بعنف . بينما كانت غيناه

الجامدتان الخاليتان على اي تعبير ، المحمرتان كأنما حققتا بالدم ، تبدوان وكأنهما تحدقان في قبة السماء الالهة . وكان إلى جانبه حارس مقرون الحاجبين غامض وفتى مراهق ، وساعي يريد ، ومستخدم ، وامرأة عجوز ، وصبي يحمل سلة فارغة ، وهم يتحدثون تعليقاً على الحادث .

— ينهك السجن أجسامهم ، وبالرغم من حالتهم الصحية المريضة ، فانهم يرغمونهم على المشي في مثل هذا اللهب . — قال المستخدم موجهاً الكلام للامير .
— هو مختصر . — قالت العجوز بصوت مرتعش .
— سئل له ازرار قميصه . — أشار بذلك ساعي البريد .

فشرع الحارس يفك ازرار قميصه بيده النخينة المرتجفة كاشفاً عن رقبته المحترقة وأوردته المتضخمة الملأى بالدم . كان متأثراً ومضطرباً ، فرأى من واجبه ان يصيح .
— ماذا تصنعون هنا ؟ الاترون ان الحر شديد ، وانكم تمنعون الهواء عنه ؟

— كان يجب ان يفحصهم الطبيب ، فلا يسمع للمرضى منهم بالذهاب إلى المحطة سيراً على الاقدام . لقد كان هذا مريضاً منذ ايام ومع ذلك أرغموه على الذهاب ماشياً . — قال المستخدم ليظهر معرفته بالاوامر المعطاة .

فالتفت الحارس يمينا وشمالا ثم قال :
— هيه . اذهبوا من هنا . لا عمل لكم عندنا .

ثم التفت إلى (نيكليندوف) منتظراً موافقته ، ولكنه رأى ان هذا ظل جامداً فتحول إلى الجندي فاذا به ينظر إلى كعب حدائه غير مبال .

وكان الاهلون يعلقون على الحادث بتعليقات ليست في صالح موظفي الدولة .
— انهم لا يفكرون في شيء . كأنه من الجائز قتل الناس بمثل هذه الطريقة .
— إذا كان محكوماً عليه بالسجن ، فهل يجوز ذلك دون ان يظل إنساناً .
— ارفعوا له رأسه ، واسقوه ماء . — قال لهم (نيكليندوف) .
— لقد ذهبوا ليحضروا له ماء . — أجاب الحارس .

ثم أمسك المسكين من تحت إبطيه ، ونقله من مكانه ووضع في مكان آخر بحيث أصبح رأسه أعلى من ذي قبل .
وفجأة سمع صوت قوي يقول بلهجة أمّرة .
- ما يصنع كل هؤلاء هنا ؟

كان صاحب الصوت رئيساً للحرس ، وكان يرتدي بزة جديدة وحذاء لامعاً .
- اذهبوا من هنا ، ماذا تصنعون ؟ - عاد يقول قبل أن يعلم السبب في هذا التجمع . ولكنه عندما شاهد السجين يمدداً على الأرض وهو يحتضر ، هز رأسه كمن كان يتوقع ذلك .

- ماذا حدث ؟ - قال يسأل الحارس .

فأخبره هذا باليجاز عن الحادث .

- احضروا عربة تنقله الى الموقع .

- لقد ذهبوا بطلبها . - قال الحارس مؤدياً التحية العسكرية فتجراً المستخدم معلقاً وأشار الى شدة الحر .

- وماذا يعنيك انت من هذا ؟ اذهب في طريقك . - قال رئيس الحرس وقد حدّجه بنظرة قاسية ، اسكتته عن الجواب .

- اسقوه ماء . - قال (نيكليندوف) بدوره .

فنظر اليه الرئيس شزراً ولم يجبه . ولكن عندما جاؤا بالماء امرهم ان يسقوه منها . فرفع له الحارس رأسه وأدنى الكأس من شفتيه ، غير ان المنكبود الطالع لم يقو على بلعة فتبلت ذقنه وقميصه الذي يعلوه الغبار .

- صب له الماء على رأسه . - قال لهم رئيس الحرس ففعلوا ما امرهم به .

فأجال المريض محجّره ، ولكنه لم يتغير من وضعيته شيء وكان الماء يجري على وجهه دون ان تبلغ حلقه قطرة منه واستبد به تشنج عنيف .

- هل جاءت العربة ؟ - قال الرئيس يسأل مرؤسيه . - خذ هذه . - وأشار الى عربة (نيكليندوف) .

فأجابه الخوذي باستياء . - ان عربي مأجورة .
- انها مأجورة لي . - قال الأمير - ولكني اسمح باستعمالها وانا ادفع اجرتها .
- عجل . عجل .
فنقل الحراس المحتضر الى العربية محاولين اجلاسه فيها . ولكنه لم يكن يتمالك
نفسه ، وكأني رأسه يسقط طورا الى اليمين وآخر الى الشمال ، ثم الى الورا ، والى
الأمام ، بينما كان جسمه ينزلق .
فأمرهم الرئيس بان يضعوه ممددا .
- سأخذه هكذا . - اجاب الحارس ثم جلس بجانب السجين واحاطه بذراعه ،
بينما كان الجندي يدخل ساقه في العربية .

فتناول الرئيس طاقة السجين والبسه اياها ، وأمر الخوذي بالذهاب ، فأخذه هذا
على غير رغبته شطر الموقع . كان رأس المحتضر يتأرجح ذات اليمين وذات الشمال ،
وجسمه ينتفض بين ايدي الحارس والجندي اللذين كانا يبذلان جهدا جبارا لتهديته .
ومشى الامير في اعقاب العربية .

- ٢٥ -

عندما بلغت العربية موقع الشرطة اوقف الخوذي الجياد أمام باب الباحة الكبيرة
حيث كان عدد من رجال الأطفائية يغسلون بعض العربات مشمري السواعد ، وهم
يتحدثون بصوت عال ، ويتضحكون . ولكنهم عندما رأوا العربية التقوا حولها ،
وأخرج اثنان منهم المريض الذي كان قد اضر جثة هامدة . فخلع احدهم قبعته عن
رأسه ورسم الصليب على صدره ، وهو راكع .

فصعدوا بالجنّة الى الطابق الأول ، ودخل الأمير وكان يتبعه ، الى غرفة قدرة ،
ذات شكل زري ، حيث كان يوجد اربعة اسرة . كان في احدهما رجل ملول ، وفي
الثاني جريح مائل الفم معصوب العنق . فوضعوا الجنان على السرير الثالث ، فأسرع
اليه رجل قصير القامة ، متوقد النظرات ، لا يفتأ يحرك حاجبيه ، وليس عليه من الشيا

سوى القميص الداخلي والسروال ، وعاري القدمين الا من الجوارب ، وتقدم من السرير مسرعاً ونظر الى الميت ثم الى (نيكليندوف) ثم اطلق قهقهة مدوية .
- آه . آه . يجتهد كي يفزهني ولكنه لا يستطيع . - قال - اؤكد لك انه لا يستطيع .

كان هذا احد المجانين ، معتقلاً هناك .
ودخل الحارس يرافقه الطبيب المتمرن الغرفة بعد دخول (نيكليندوف) اليها ، فتقدم الطبيب من الجثمان ، وامسك بيده التي ما زال بالوسع تحريكها ، ولكنها اصبحت باردة تعلوها صفرة الموت . وظل يتحسسها فترة من الوقت ثم تركها تسقط على بطنه .

- لقد انتهى كل شيء . - قال الطبيب المتمرن وهو بين رأسه ولكي يزداد يقيناً وعملاً بنطوق القانون ، حمل ازرار القميص القدر المتبل بالماء ووضع اذنه على صدره العالي المصفر من الحياة .

ورفع الطبيب رأسه بعد صمت قليل ولمس جفن احدى عينيه ، ثم جفن الثانية اللتين كانتا مفتوحتين وجامدتين .

- اكرر القول انه لن يفزعني . - قال المجنون موجهها كلامه للطبيب المتمرن .

- ما ترى ؟ ... - قال رئيس الحرس .

- باستطاعتكم نقله الى مستودع الموت . - اجابه الطبيب .

- دقق جيداً هل انت واثق من موته ؟

- انا واثق كل الثقة . - اجاب الطبيب - ولكن اذا كنت ترى ضرورياً ان

تبعث بطلب (ماتيو ايفانوفيتش) فسيؤكد لك ما قلته انا .

- خذوا الجثمان الى مستودع الموت . - امر الرئيس - وانت - قال موجهاً

الخطاب للجندي الذي لم يفارق الجثمان . - اذهب الى المكتب لتوقع هناك .

فخرج الجندي من الغرفة ، في حين حمل الحرس الجثة ، وصعدوا بها الى الطابق العلوي . وكان (نيكليندوف) يهم باللاحاق بهم لولا ان استوقفه المجنون .

صحيح انك لست موافقاً لهؤلاء ؟ - قال يسأله - اعطني لفافة تبغ .
فأعطاه (نيكليندوف) ما طلب ، فزوى المجنون ما بين عينيه وشرع يتدمر من
ابذائهم المستمر له .

كلهم ضدي . وكلهم يعذبوني بالصلوات ...
غير ان الأمير لم يكن لديه وقت يضعه بالاصغاء اليه فقاطعه قائلاً له عفوا . ثم
خرج مسرعاً ليرى إلى أين حملوا الجنمان .
كان الحرس قد اجتازوا باحة الدار ، ودخلوا الى احدى الحجرات ، فأحب ان
يلحق بهم غير ان الرئيس اوقفه عند عتبة الباب وسأله قائلاً : ماذا تريد ؟

- لاشيء .

- اذا كنت لا تريد شيئاً فامض في طريقك .

فعاد (نيكليندوف) الى العربية ، وايقظ الحوذي الذي كان قد ادر كته سنة من
النوم وامره ان يذهب به الى المحطة . غير انه لم يكذب يتعده به بضع خطوات حتى
التقى بعجلة يرافقها جندي من جنود حرس القافلة ، تحمل جثة سجين ميت ، ذي لحية
سوداء وتكاد طاقيته تغطي وجهه اذ تبلغ انفه ، وكان رأسه المخلوق يتنزي عند كل
اخذود يضادف العربية ، فيصطدم بجدارها الخشبي . كان يقود العربية رجل يجتدي
حذاء طويلاً يرافقه احد الحراس . هؤلاء كانوا كل مشيعي تلك الجنائزه .

فلس (نيكليندوف) كتف الحوذي وسأله قائلاً :

- ما شأن هؤلاء ؟

فأوقف الجواد ، وترجل (نيكليندوف) من العربية ولحق بالعجلة ، ودخل الى
باحة القسم من جديد . كان رجال الأطفال قد فرغوا من تنظيف العربات . وجاء
الرئيس وكان طويل القامة هزيلاً بادي العظام ، يتفحص بامعان جواداً جميلاً يطلع
من احدى قوائمه الأمامية ، ويعنف الطيب الطيري الذي كان واقفاً بجانبه ، ملقياً على
عائقه مسؤولية ما يشكو منه الجواد . كان رئيس الحرس ما زال في باحة القسم فتقدم
من العجلة عندما علم انها تحمل ميتاً جديداً ، وهو يمز رأسه باستياء .

- ابن وجئتوه؟

- وجدناه في شارع (ستاروغورباتوفسكايا) .

- هل هو سجين ؟ - قال رئيس مصلحة الأطفال يسال .

- بلى يا سيد .

- هذا هو الثاني لهذا اليوم . - قال رئيس الحرس .

حبذا العمل ، وحبذا العاملون . - قال رئيس فرقة الأطفال . ثم التفت لأحد مرؤسيه وقال له . خذني الى غرفة الزاوية وانت ابها البليد ، سأعلمك كيف تجرح جواداً هو اغلى منك . يا فظ ، يا حيوان . - قال وقد تحول نحو البيطري .
واخرجوا الميت من العجلة وذهبوا به الى الطابق الأول ، فتبعه (نيكليندوف) وكانما كان يوزح تحت وطأة كلوس مزعج .
- ماذا تريد ؟ . - قال احد الحراس يسأله .

ولكن الأمير ظل مواصلا طريقه وراء الجثة دون أن يجيب بشيء .

كان المجنون جالسا على احد الأسرة يدخن بنهم اللغافة التي كان الأمير قد اعطاه اياها ، فهب لاستقباله مدهوشا وقال له
- آه . لقد عدت من جديد .

وعندما رأى الميت تقلصت عضلات وجهه بلزمة استخفاف .

- ميت آخر؟ ... هذا كثير ... يا للذة . - ثم فقه ضاحكا ضحكة صاخبة .
لم يكن (نيكليندوف) يصغي اليه ، وانما كان يحدق نظره في تلك الجثة التي كشف احد الحراس عن وجهها فبانَت تقاطيعه الدقيقة واجزاء جسمه المتناسقة .
كان في ريعان قوته ، جميلا ، بمقدار ما كان الميت الأول مرعباً . وعلى الرغم مما كان رأسه المخلوق يشوة من خلقته ، فقد كان جيئه الواسع فوق تينك العينين السوداوين الحاليتين من الحياة ، وذلك الأنف المستقيم فوق ذينك الشاربين الاسودين الدقيقين ، وتينك الشفتين الصفراوين اللتين لا تزالان تنفرجان عن ابتسامة ، واللحية التي تحيط بذلك الوجه ، كل ذلك ينطق بما كان عليه من الجمال الناعم ، وينضح بسكينة الايمان .

لم تكن تعابير وجهه هي الناطق الوحيد بأن قسوة البشر قد اطفأت حياة زاهية مزدهرة بعقلية منتجة فعالة ، وانما تناسق يديه ورجليه اللتين يجمع بينها القيد ، وسائر اعضائه تظهر ان النموذجاً بشرياً جميلاً قوياً وبارعاً يموت بموته . وهو ، كحيوان ، اسمى بكثير من الجواد الذي كان رئيس مصلحة الاطفاء معنياً به . وقد قتلوه بلا مبالاة فلم يبكه أحد كإنسان أو حيوان صالح لعمل مشر ، فذهب لم يفد من موته أحد . ولم يحرك أي إحساس بين أولئك القوم اللهم إلا الخوف من تعفن ذلك الجسم إذا لم يدفن .

وجاء الطبيب المتمرن ورئيس الأطباء و كان قوي البنية يرتدي سترة من الحرير وسروالاً ضيقاً وضابط شرطة بدين منفوخ الوجه كالطابة وقد تعود أن يملأ فمه بالهواء ثم يعود فينفثه بصورة تدريجية . فجلس الرئيس على السرير وأمسك يد المتوفي واستمع إلى دقات القلب ثم قال . لا فائدة ترجى من أي شيء . وقطى بساقيه وقال :

ـ لا شك في موته .

فالتفت ضابط الشرطة إلى الجندي وهو ينثف الهواء تدريجياً وسأله ، إلى أي سجن ينتمي .

فأخبره عن سجنه وقال له ان القيد ما يزال في رجلي الميت .

ـ سأمر بفك القيد من رجليه . ـ قال الضابط وقد نفث نفثة قوية من الهواء ثم خرج من الغرفة .

فتقدم الامير من رئيس الأطباء وسأله .

ـ ماذا حدث ؟

فنظر اليه الطبيب من وراء نظاراته وقال :

ـ ماذا حدث ؟ انهم يموتون من وقدة القيظ ، لانهم يحتفظون بهم بلا عمل أو حركة طوال مدة الشتاء ، ويعرمونهم من النور ، ثم يخرجونهم في يوم قافظ كهذا على غير نهي أو استعداد ، ولذا يموتون .

- ولماذا يرغبونهم على الذهاب سيراً على الاقدام في مثل هذا اليوم ؟

- اسأل هذا السؤال من يعلم لماذا ... ولكن ... من أنت ؟

- أنا أحد المدنيين .

- آه صحيح ؟ إذن أنا ذاهب لعملي إذ ليس لدي وقت أضيعه معك .. قال

الطبيب ثم مشى نحو الأسرة التي كان عليها المرضى ، وقد شد مرواله إلى أعلى . -

كيف حالك ؟ - قال يسأل ذا الفم المتلوي والعنق المعصوب .

و كان المجنون ، وهو جالس على السرير بعد أن فرغ من تدخين اللقافة ، يبصق

باستمرار باتجاه الناحية التي كان الطبيب فيها .

فهبط (نيكليندوف) إلى فناء الدار ماراً من أمام الجياد والحفير ، ثم استقل

العربة بعد أن أيقظ الحوذي الذي كان نائماً ، فنقله إلى محطة السكة الحديدية .

- ٢٦ -

كان مساجين القافلة قد أصبحوا ضمن عربات القطار التي كانت نوافذها مغلقة

بجواز حديدية عندما بلغ (نيكليندوف) المحطة . وكان على الرصيف أناس كثيرون

من الاقارب والاصدقاء الذين جاءوا لوداع أقاربهم وأصدقائهم . ولقاء نظرة أخيرة

عليهم إلا أنه لم يكن يسمع لاحد منهم بالدنو من العربات .

كان قد أصيب ثلاثة من المساجين بضربة الشمس غير الاثنى الذين رآهما

(نيكليندوف) نقل آخرهم إلى القسم ، ووضع الآخرين في إحدى غرف المحطة .

وقد أقلق ذلك بال الجنود ، لا لأن خمسة ممن كانوا تحت حراستهم قد ماتوا ، الأمر

الذي كان غير ذي أهمية في نظرهم ، وإنما لأن الاجراءات القانونية المقتضاة في مثل

هذه الحالات تسبب لهم الازعاج كتسليم الجثث في المكان المختص ، والمحافظة الوقتية

على اشيائه . وحذف اسمه من سجل الذين سينقلون إلى (نيجني) حيث تنتهي مهمتهم

في المحافظة عليهم . وكانت تلك الاجراءات جد مملة ومضجرة لهم لا سيما في مثل ذلك

اليوم القاتل . وعلى رغم ذلك فان الأمير استطاع أن يقترب من العربات بفضل حلوان

منحه لأحد الحراس الذي اشترط عليه الاسراع في العودة ، وتحاشي رؤية الضباط له .

كان القطار ، عدا عن عربات الحرس ، يتألف من ثمانى عشرة عربة خاصة بالمساجين . وكانت هذه غاصة بهم . وكان الأمير وهو يمشي بالقرب منها يصغي بانتباه إلى ما يدور في داخلها ، فيسمع صليل الحديد وهو يجير على الأرض ، ومشادات كلامية ترافقها شتائم بذئثة ، ولكن أحداً من راكبيها لم يتطرق بحديثه من قريب أو بعيد إلى رفاقه الذين سقطوا صرعى في الطريق . كانوا جميعاً يتحدثون عن اختيار المقاعد ، وعن الاكياس ومياه الشرب . كذلك شاهد الأمير من وراء الحواجز الحديدية أحد الجنود يحل قيود المساجين ، ومن ورائه جندي آخر يلتقطها ويجمعها رزماً .

كانت عربات النساء مقطورة وراء عربات الرجال ، وكانت ينبعث من إحداها صوت امرأة تتوجع وتتألم من حين لآخر .
— أواه ، يا سيد . أواه ، يا سيد .

وأشار الجندي إلى عربة يدل (نيكليندوف) عليها . فتقدم هذا من نافذتها فجهته لفحة من هواء حار متقل بأنفاس بشرية . كانت المقاعد غاصة بالنساء اللواتي كن يتصبن عرفاً ، محققن الوجوه لفرط الحر ، مكشوفات الرؤوس يتلاظن .

ودهش النسوة عندما أبصرن (نيكليندوف) فاقتربت من النافذة كل من استطاعت ذلك ، ولبن صامتات بينما أخذ الأخريات يتكهن من عساه يكون ذلك السيد . وكانت (كاترين) متحيرة قليلاً ، ولكن (فيدوسيا) ذات العينين الزرقاوين الباسمتين والجسم البض عرفت الأمير على الفور . فأشارت (لكاترين) تدلها على النافذة . فهبت هذه من مقعدها واقفة ، وبعد أن غطت شعرها الأسود بغطائها . تقدمت من القضبان الحديدية محققة الوجه تتصب عرقاً .

— ما هذا الحر الذي لا يطاق . — قالت مبتسمة .

— هل استمت ما بعنت لك به؟

— أجل . واشكرك على ذلك

— هل أنت بحاجة لشيء آخر؟

كان الحر المنبعث من العربية ، من الحدة بحيث كان الامير يحسب نفسه أمام فوهة الفرن .

- كلا . شكراً لست بحاجة لأي شيء . - أجابت (كاترين) .
- لو أمكن أن تقع على جرعة ماء . - قالت (فيدوسيا) وهي تصعد الزفريات .
- كيف . أليس لديكم ماء ؟
- لقد نفذ ما أعطوه لنا .
- سأرجو أحد الجنود كي يحضر لكم بعض الماء . - قال (نيكليندوف) .
- سوف لن نتواجه حتى (نيجني) .
- سترافقنا يا صاحب السمو ؟ - قالت (ماسلوا) تسأل بسذاجة كما لو كان ما صمم عليه الامير مجهولاً منها .
- ورنث اليه بعينها السوداءين وهي تبسم حبوراً .
- أجل.. وسأستقل القطار الأول .
- فلم تثبت (ماسلوا) بينت شفة ، ولكنها بعد لحظات صعدت زفرة عميقة .
- سيدي هل صحيح انهم قتلوا عشرة مساجين ؟ - قالت امرأة عجوز تسأل بصوت خشن مرتعش . كانت تلك (كورابلوفا) .

- لم ار إلا اثنين .
- يؤكدون انهم اثني عشر ... وليس من يحتاج . يا للضعة ، ويا للصغارة .
- أو لم يحدث حادث لواحدة منكن ؟
- النساء أكثر احتمالاً . - قالت امرأة صغيرة الوجه مستديرته .
- لقد عن لواحدة منا أن تضع طفلها . أسمع صراخها ؟
- قالت واحدة منهن مشيرة يدها إلى العربية المجاورة التي تنبعث صرخات التوجع منها .

- لقد سألتني إذا كنت أحتاج لشيء . - قالت (ماسلوا) وهي تحاول إخفاء ابتسامة الجبور التي أخذت ترسم على شفثيها .

- ماذا تريدن ؟ - قال الامير يسأل .
 أليس بالإمكان العمل على إبقاء هذه المرأة هنا ؟ انها تتألم كثيراً . راجع من يدم الأمر .
 - سأقوم بذلك حالا .
 - كذلك أرجو أن نرى إذا كان بإمكان رفيقتي أن ترى زوجها . - قالت ذلك وأشارت إلى (فيدوسيا) . - هو معنا .
 - ياسيد . ياسيد . ممنوع التحدث إلى المساجين . - صاح قائد فرقة الحرس المرافقة للقافلة يقول :
 فابتعد الامير عن النافذة ، واستعلم عن رئيس البعثة ليتوسط بشأن المرأة النفساء ، وبشأن زوج (فيدوسيا) ولكن مضت مدة طويلة قبل أن يرشده اليه الجنود الذين كانوا منهمكين كثيراً ، وهكذا فقد قرع الجرس للمرة الثانية عندما تمكن (نيكليندوف) من التحدث إلى الرئيس الذي كان يوبخ غريفاً على إهمال بسيط ، وهو يقتل شاربته الذي كان يغطي فمه .
 - ماذا تريد ؟ - قال يسأل الامير .
 - ان بين نساء القافلة امرأة على وشك الوضع وأظنها ...
 - صحيح ؟ إذن لتضع بسلام . وبعدئذ نرى ما نضنع . - أجاب الضابط وقد دس نفسه في العربة ولوح يديه بطلاقة .
 وأطلق رئيس المحطة الذي كان آتئذ يمر هارحاً صفرة ، تلاها قرع الجرس ، فصرخ توجع وبكاء منبعت من عربة النساء .
 فتقدم الامير إلى الامام ، وكانت آتئذ تمر العربات ذوات القضايا الحديدية المليئة برؤوس مخلوقة ، ثم تلتها عربة النساء الاولى حيث كن مجتمعات على النوافذ مكشوفات الرؤوس فالعربة التي كانت فيها النفساء . وأخيراً جاءت العربة التي كانت (ماسلوف) فيها . كانت هذه واقفة إلى النافذة ، تنظر بانتباه وعندما أصرت (نيكليندوف) ابتسمت له غير ان ابتسامتها لم تكن ابتسامة سرور ، لانها كانت تنضع بالغم .

كان لا يزال أمام (نيكليندوف) ساعتان من الوقت قبل سفر القطار الذي سيحمله إلى سييريا ، فأحب أن يغتنمها لزيارة أخته . غير أن أحداث يومه ، وحركة الذهاب والإياب اللذين قام بها طوال يومه كانت قد أتعبتة ، مضافاً إلى ذلك الحر الشديد ، لدرجة أنه لم يكد يجلس على كرسي تركي في قاعة الدرجة الأولى حتى راح في سبات عميق .

وأيقظه من نومه شاب أنيق يرتدي (فراك) ويتأبط منشفة بيضاء قاتلا له :
- عنراً سيدي . أنت هو الأمير (نيكليندوف) ؟ هنا سيدة تريد أن تراك .
فهب (نيكليندوف) من مقعده وأخذ يفرك عينيه ، وعادت إلى ذاكرته الانطباعات التي أحسها في الصباح . تذكر قافلة المساجين ، ومسيرتهم المؤلمة في شوارع المدينة التي تتلظى بوقدة الحر ، والموتى ، والعربات ذوات القضبان الحديدية الخاصة بالرجال والنساء ، وتوجع المرأة النفساء ، وابتسامة (ماسلونا) التي تدمي الفؤاد .
وسرعان ما استورد وعيه وتذكر أين هو . فلاحظ أن سائر من في القاعة كانوا يتجهون بأبصارهم بفضل شطر الباب فجذا حذوهم .

كان جمهور من الناس يحمل امرأة ممددة على كرسي ومغطاة بستر شفاف . فتذكر (نيكليندوف) انه يعرف اثنين منهم . احدهما كان بواباً يرتدي قبعة طويلة وكانت الثانية خادمة تسير خلف الكرسي ، وتضع على صدرها صدرية بيضاء ، وتحمل بيديها صرة من الثياب وحقيبة من الجلد الفاخر ومظلات ، ثم جاء بعد ذلك الأمير الشيخ (غورتشاكين) يتقدمه صدره ، ويضع على رأسه قبعة سفر . واخيراً (مارغاريت) وابن عمها (ميثا) وشاب ملحق بإحدى السفارات يعرفه (نيكليندوف) وكان دائم المرح .

وأطل الطبيب كالح الوجه يدخن . كان آل (غورتشاكين) ذاهبين للاصطياف في مزرعة لأخت الأمير الشيخ تقع على الطريق إلى (نيجني) .

وحملوا الأميرة الام التي كان الطيب والخدمة يتبعانها ، إلى صالة خاصة بالسيدات ،
مثمرة فضول الحاضرين واحترامهم .

وجلس الأمير الشيخ إلى إحدى الطاولات وطلب بعض الشرائع والمرطبات .

ودخلت (مارغاريت) و (اوستن) إلى القاعة ، وفيما هما جالوس ، إذا
بالباب يفتح وتدخل منه سيدتان هما (نتاليا ايفان ترافقها) اغريينا بيتروفتا (فخفا
لاستقبالهما . ولم تكذب (نتاليا) تدخل حتى أخذت تدور بنظرها في أنحاء القاعة فرأت
(مارغاريت) وأخاها . فحييت هذا بإشارة وخفت للقاء (مارغاريت) وقبلتها . ثم
التفت إلى أخيها وقالت له .
— أحمد الله لأنني وجدتكم .

كان (نيكليندوف) قد نهض واقفاً ، فرد على تحية اخته ثم حيا (مارغاريت)
ومرافقها .

فقصت عليهم (مارغاريت) خبر حريق شب في مزرعتها ، بما اضطرها على
الذهاب إلى مزرعة عمتها ، كما قص (اوستن) اخبار حرائق اخرى سخيفة .
فالتفت (نيكليندوف) إلى اخته وقال لها .
— كم انا مسرور لقعودك .

— لقد وصلت منذ مدة . - أجابت (نتاليا) - فبحثنا عنك في كل مكان فلم
نجدك .

— لقد أخذتني سنة من النوم . ولم أكن اتوقع ان اراك ولذا بدأت بكتابة
رسالة لك .
ولماذا ؟

وهنا لاحظت (مارغاريت) ان الحديث قد اصبح خاصاً فابتعدت هي ورفاقها ،
واتمى (نيكليندوف) ناحية منعزلة بجانب كومة من الحقائب والصناديق .
— بعد ان غادرتكما نهار امس اخذني النوم - هكذا بدأ كلامه . - ولم كان

يطيب لي ان اعود فأعتر لكما ، غير اني خشيت ان يفسر زوجك اعتذاري تفسيراً سيئاً ... لقد كنت فظاً معه ، وهذا الذي أقض مضجعي .
- لقد كنت واثقة من ذلك . - أجابت (نتاليا) - انك لا تستطيع ان تكون سيء القصد . انت تعلم ان ...

وهنا اغرورقت عيناها بالدموع ، وامكت يد اخيها بيد مرتعشة .
كانت تلك العبارة ، وتلك الدموع دليلاً صارخاً على حبها الشديد لـاخيها ، ومدى تألمها لوقوع ما يسيء بينها . وقد كلت ذلك واضحاً جلياً ، فأثر في نفس (نيكليندوف) .

- شكراً لك . شكراً لك يا حبيبي (نتاليا) .
وأسرع على الفور يقول لها ، كما لو كانت جثث موتى ذلك النهار قد تمثلت أمام عينيها بحقيقتها الرهيبة المؤلمة فقد بادر يقول لها .
- اواه . ليتك تعلمين ما رأيت اليوم ... مساجين قد قتلوا .

- كيف قتلوا ؟
- لقد أرغومهم على الذهاب مشياً على الأقدام في هذا الحر اللاهب ... فسقطوا في الشوارع صرعى .
- اليوم ؟ منقليل ؟
- بلى اليوم . ومنذ قليل . لقد رأيت بأمر عيني جثتين هامدتين .
- وكيف تؤكد انها قتلا ؟ ومن قتلها ؟

فاستشاط غيظ (نيكليندوف) . لم تعد هذه (نتاليا) الطيبة الرحيمة التي يعرفها . فهي لم تعد ترى إلا بعيني زوجها .
- من قتلها ؟ لقد قتلها أولئك الذين ساقوهم بالقوة في الشوارع . - أجابها بحماسة .

- اواه . ربه . - قالت (اغريبينيا بيتروفتا) .

- لسنا ندرك ولا يسعنا تكوين أي فكرة عن الطريقة التي يعامل بها أولئك النساء . لا بد من أن نرى بأمر أعيننا .

وعن غير قصد حول الأمير نظره ناحية الأمير الشيخ (غورتشاكين) وكان جالساً إلى إحدى الطاولات وأمامه زجاجة شمبانيا قد أحيط عنقها بمنشفة بيضاء .

- إيه . (نيكليندوف) أتريد أن تتبرد ؟ ذلك أنسب قبل القيام بالرحلة .

فرفض (نيكليندوف) وأولاه ظهره .

- ولكن ما عساك فاعلا لمصلحة (كاترين) . - قالت (نتاليا) .

- كل ما في وسعي . لا أزال أجعل ما سأفعل . ولكن وجداني يأمرني بأن

أقوم بعمل ما لتحسين وضعها . وسأقوم به .

- أفهم . أفهم . - ثم أضافت تقول وهي تبسم ابتسامة خيثة مشيرة إلى الآنسة

(غورتشاكين) . أمن الممكن أن تكون قد قطعت صلتك بهذه ؟

- بلى . لقد انتهى كل شيء ، وأظن أن أيّاً من الطرفين لم يشعر بأي رد

فعل سيء .

- يسؤني ذلك كثيراً . لأنها فتاة تعجبني كثيراً .

- لماذا لا تجرب أن توجد صلات جديدة ؟ ولماذا تسافر ؟

- لأن الواجب عليه علي . - أجاب (نيكليندوف) بقسوة وإيجاز شأن من

يرغب في وضع حد لنقاش مزعج .

- ولكنه ندم بلطفه مع اخته فأخذه الحبل ، على الأخص لوجود قيمة المنزل

العجوز . فقال .

- أتلحين لعزمي على الزواج من (كاترين) ؟ لقد كنت على أتم استعداد ،

ولكنها رفضت .

وهنا ارتعش صوت الأمير كأنما كان على وشك البكاء ، شأنه في كل مرة يتحدث

عن هذه القضية .

- إنها تعارض في تضجيتي ، وتضجيتي بنفسها . لا أستطيع ولا ينبغي أن أتحمل

ولو دقيقة واحدة ... سأتبعها ، وسأكون حيث تكون . وسأحاول ان اكون مفيداً لها ، ولعلي استطيع تحسين وضعها .
فلم تجب (نتاليا ايفان) بشيء . وطأطأت (اغريبينيا بيتروفنا) رأسها ، وكانت تنظر اليها نظرات الاستفهام .

وهنا جاء الخدم فحملوا الاميرة (غورتشاكين) . وعندما وقع نظرها على (نيكليندوف) اومأت اليه ان يدنو منها ومدت له يدها المليئة بالخواتم بحركة مجهدة ، وتكاد تكون مرعوبة ، كأنها كانت تخشى ان يضغط عليها .
- شيء رهيب . - قالت وهي تعني الحر . - لا استطيع تحمله . ان هذا الجو يخنقني .

وبعد ان تحدثت قليلا عن قسوة المناخ الروسي ، وبعد ان دعت (نيكليندوف) لقضاء عطلة في مزرعتها ، امرت الخدم ان ينقلوها إلى الرصيف ، والتفتت إلى الامير وقالت له .

- هكذا إذن أنا بانتظارك ... لا تتخلف .
فنقلها الخدم إلى حيث كانت تقف عربات الدرجة الاولى .
ولكن الامير ذهب باتجاه آخر يتبعه حمال يحمل له حقائبه ، و (تاراس) المتقل بالاكياس والحقائب .
- هذا رفيقي .. قال الامير لاخته مشيراً إلى القروي .
فوقف الحمال عند عربة من عربات الدرجة الثالثة واخذ يرصف الحقائب بينما صعد (تاراس) اليها يحمل الاكياس .

- ماذا ارى ؟ - صاحت (نتاليا) مدهوشة . - أت افر في الدرجة الثالثة ؟
- اجل . فهنا اكثر راحة . وفضلا عن ذلك لا اضطر لمفارقة (تاراس) . -
قال (نيكليندوف) باسماء .
- اريد ان اطلعك على امر . - اضاف يقول لها . - لم اتنازل عن ممتلكاتي في

(كوسمينسكوجي) حتى الآن . وهكذا إذا مات فيكون اولادك ورثتي الشرعين .

- ما هذا القول (ياديتري) . لا تقل ذلك رحمة بي . - قالت (نتاليا) محتجة .
- حتى ولو تنازلت عنها ، فما تبقى سيكون لاولادك إذ قد لا أتزوج ، وإذا تزوجت فلن انجب اولاداً ، وهكذا يكون ...

- (ديتري) اتوسل اليك الا فخطبني كذلك . - اجابت (نتاليا) .
غير ان الامير كان قد لاحظ بوضوح تام الارتياح الذي احدثته لها كلماته .
كان حشد كبير يحتشد لإزاء شقة (آل غورثاكين) كي يشاهدوا ترف تلك العائلة . وكان المسافرون الذين وصلوا متأخرين يسارعون إلى اتخاذ اماكن في العربات ، والمستخدمون يغلقون الابواب بقوة . فصعد (نيكليندوف) إلى العربة ، غير ان الحر ورائحة انقاس المسافرين كانا من الحدة بحيث لم يُطَق تحملها فخرج إلى مدرج العربة . كانت (نتاليا) وهي واقفة بجانب العربة ، وعلى مقربة من (اغريبينيا) وعلى رأسها قبعة جميلة ، تحاول التحدث إلى اخيها ولكنها كانت لا تدري كيف تبدأ .

وكانت التوصيات المعتادة التي يُوصى بها المسافرون ، بأن يكتبوا احوال وصولهم ، موضع سخرية دائمة من الاخوين وبناتاً لضحكهم ، ولذا فقد كان من غير المعقول ان تلجأ اليها . وفوق ذلك فان الكلمات التي فاه بها حول الميراث قد اوجدت فتوراً في روابط المودة التي تربطها واصبحا يشعران وكأنهما غريبان ، ولذا فقد أحسا بارتياح عندما اقلع القطار ، وخرج من المحطة .

واستطاعت (نتاليا) ان تقول بصوت ناعم حزين وقد اقتربت من النافذة .
- استودعك الله . وداعاً .

غير ان العربة لم تكن تتوارى عن عينيها حتى احست برعشة وغامت عيناها ، فما تدري ما ستقول لزوجها عما تحدثت به مع اخيها ؟
اما (نيكليندوف) فإنه على رغم محبته لاخته ، كان قد ايقن انها لم تعد تلك الفتاة

الحبيبة المحبة التي عرفها قديماً ، وانها أصبحت تتأثر الى حد بعيد بزوجها الثقيل الروح .
وعندما تبين ان موجة من السرور غمرتها عندما حدثها عن الميراث اغتم واحس بالمل
عميق .

- ٢٨ -

كان الجو خائفاً ، والهواء ثقيلًا في العربة الكبيرة المخصصة للدرجة الثالثة ، والمعرصة
للسمس طيلة النهار بما اضطر (نيكليندوف) الى البقاء مدة طويلة خارج العربة ؛ حيث
ظن ان الهواء انقى منه في داخلها . ولكنه كان قد افسد بما تسرب اليه من العربة .
وهكذا فإنه لم يكن يوسع التنفس بل مرتبه الا بعدما غادر القطار المحطة .

- لقد قتلوهما . - كان يردد وقد تذكر كل ما قاله لأخته .

واستعادت مخيلته بعض الارتياح ، ومن بين شتى الاشياء التي احدثت انطباعات في
نفسه ذلك النهار ، شبح الجثمان الثاني والبسمة المرتسمة على شفتيه ، والاستنكار المتجلي
في جبينه

الرهيب في الامر هو انها قد قتلا وليس بالوسع تعيين القاتل . حقا ان ما حدث كان
ولا ريب نتيجة لاوامر صدرت عن (نيكليندوف) وكتبت بخط يده ، وانما ليس
بوسعنا أن ندل عليه كمسؤول عن الكارثة ، وليس بالامكان اللقاء تبعثها على الطبيب
الذي زار المساجين لان مهمته كانت تنحصر في عزل المرضى عن الاصحاء . وليس في
مقدوره التكهن بحدوث ما حدث من الحر الشديد ، او انهم سيونغونهم على السير في
حمارة قيظ كهذا . كذلك ليس المدير مسؤولا فهو قد تلقى أمراً بارسال أشخاص
معينين من المساجين في يوم معين ايضاً لابعادهم إلى سيبيريا فصدع بالامر . وليس
قائد الحرس مسؤولا فهو قد تلقى شحنة من البشر بموجب لائحة بأسماء معينة تسلمها
بعد مراجعتها ، وسيسلمها بدوره لمن يلزم . لقد قاد غيرها من قبل ، وليس في مقدوره
التكهن عما إذا كان هذا السجين أو ذاك ممن تبدو عليهم صلابة الجسم وامارات القوة
سوف لا يجتمل السير على الاقدام في حر الشمس ، وان هذا الشخص او ذاك سيموت . .

ان أحداً لا يستطيع التنبؤ بذلك ، وإذن فليس من مسؤول . ولكن على الرغم من كل ذلك فان حياة بشرية قد انطفأت دون أن يسأل احد عنها . - ثم عاد يحدث نفسه . - يحدث كل هذا لان هؤلاء من حكام ، ومدراء سجون ، واطباء ، وجنود يحسبون ان من حقهم معاملة جميع الناس كما يحلو لهم . ولو لم يكونوا في مناصبهم هذه ، سواء في ذلك (ماسلينيكوف) وغيره ، إذن لحاسبوا انفسهم اكثر من مرة واتسألوا عما إذا كان من العدل إرغام الناس على السير على الاقدام في مثل ذلك الحر الشديد ، ولكانوا أسعفوا عشرين مرة رجلاً مرهقاً خائر القوى ، وجرعوه ماء ، وسمحوا له بالاستراحة بعض الوقت ليستعيد قواه . اما الآن فانهم يفعلون العكس ذلك لانهم لا يؤمنون بحق مشروع لاولئك الذين يرونهم امامهم من المخلوقات البشرية، وإنما يرون فحسب التزامات الوظيفة وواجباتها التي يضعونها فوق مستوى الحقوق الانسانية . هذا هو تفسير ذلك الحادث المؤلم . وإذا سلمنا بوجود ما هو اسمى من شرعة الحب التي تسود الانسانية فلن تبقى جريمة إلا ولها مبرراتها .

كان (نيكليندوف) منصرفاً بكليته لمثل هذه التأملات فلم يلحظ التغير الذي كان قد طرأ على حالة الطقس إذ كانت قد اندفعت غيمة دكناء قريبة من الارض انقسمت أشلاء فغطت وجه الشمس ، كما اندفعت اخرى من الغرب رمادية اللون سرعان ما تحولت كثيفة عند الافق البعيد فلطفت حرارة الجو .

وكان وميض البرق ينير جوانب الغيوم الكثيفة الداكنة من حين لآخر . وهزيم الرعد البعيد الطويل محتلظ وجعجعة عجلات القطار . ولم تلبث ان سقطت بضع قطرات من الماء حملتها معها الريح التي كانت تهب عاتية ، والقتها على مؤخرة العربة فوشت معطف الامير بنقط دكناء ، بينما كانت الغيوم تزداد دنواً .
فانتقل الامير إلى مكان آخر حيث بوسعه ان يستنشق الهواء العليل البارد ، ورائحة التربة العطشى المتشوقة للمطر . وكانت الحقول والكروم والغابات والمزارع تمر امامه بسرعة الاحلام ، ومنظر الحقول يزداد بهاء ورواء عندما تلامسها قطرات الماء المنعشة .

كان (نيكليندوف) يستمتع بمنظر الرياض والحقول والحدائق - مثلاً بمنظرها ، وكان يبدو ان الحياة تبعث فيها من جديد بفعل تلك القطرات المنعشة . فيهدف قائلها :

فليسقط الماء مدراراً .

وسرعان ما مرت العاصفة ، وانفثت غيوم السماء ، واصبح المطر طلاً تتساقط قطراته الصغيرة عمودية على الأرض . وشرقت الشمس وضاءة ، وظهر في الافق قوس قزح منخفضاً يسوده اللون البنفسجي . وكان القطر قد دخل في منخفض من الارض ، وراح ينساب في واد قليل الانحدار تقترش جانبيه الاعشاب الخضراء من مختلف الاشكال والاجناس . فعاد (نيكليندوف) الى سابق تأملاته .

- ومن يدري . - كان يقول في نفسه . - لعل مدير السجن والضباط والسجانين كانوا صالحين قبل نيلهم وظائفهم ، ولكن التزامات الوظيفة هي التي انتزعت الرحمة من قلوبهم .

ومر في خاطره ما كان قد لاحظ من لامبالاة (ماسلينيكوف) عندما كان يتحدث عن احوال السجون ، كما تذكر الغلظة التي اظهرها الضابط عندما رفض السماح للمساجين بالصعود الى العربات ولا مبالاته بتوجع المرأة النفساء . فكان يقول مخاطباً نفسه :

- ان قلوب هؤلاء ابعد عن تقبل الرحمة بعد الصخور الصماء عن تقبل الماء . وقد يكون لهذه الصخور بعض الفائدة غير ان قحط هذه الارض (النفوس) وخلوها ، التي قد تنتج حبوباً ، واعشاباً ، وشجراً وشجيرات كالتي تزين الهضاب المحيطة به ، كان ذلك مما يجلب الغم لنفسه .

- قد يحدث للبشر ما يحدث للأرض . وقد يكون المجتمع بحاجة لهؤلاء الحكام والموظفين والضباط . ولكن ما يرغب منهم هو ان ما من احد منهم يحب اخو ولا يرأف بأحد . وهم يتقبلون كقانون ما ليس كذلك ، ثم هم يتجاهلون ويحتقرون

الشريعة الأبدية السامية التي لا جدال فيها والتي سكبها الله في قلوب البشر . ترى هل كان مصدر الضيق الذي أجده بينهم . اني اخافهم ، فهم مرعبون واشد اوعاباً من القتل انفسهم . فقد تأخذ الشفقة هؤلاء رغم كل شيء . ولكن قلوب اولئك عصية على الرحمة كالصخر الأصم على جذور النبات . لقد اشتهر الشقيان (بوغاشوف) و(رايم)^(١) بقسوة القلب . ولكن أليس أولئك اسوأ من هذين بألف مرة ؟ اعتقد اننا اذا نظرنا للأمر من وجهه نظر علم النفس فلا مفر لنا من التساؤل : كيف يؤدي الناس ، من يتمتعون بشعور ديني ، وعنصر صالح دون ان يشعروا بوخز الضمير ؟

والجواب الوحيد هو : يكفي ان تقيمهم حكماً ومدراء وسجانيين وضباطاً . يكفي ان يشعروا بأن لهم امتياز موظف الدولة حتى يميزوا لأنفسهم معاملة الانسان كالأنشاء ، وحتى يحسبوا ان مسؤولية اعمالهم لن تقع على شخص بعينه ، وإنما على سائر الجهاز الحكومي . وفي ما عدا ذلك فإنهم لن يرتكبوا الجرائم التي شهدتها اليوم .

هنالك من يعتقد بأنه من الجائز معاملة القريب بلا محبة في بعض الظروف . هذا كذب وزور فليس من وجود لمثل هذه الظروف . بلا محبة تقطع الاشجار ، وتكسر الحجارة ، ويُطرق الحديد . ولكن من يحسب نفسه غير مسيء في معاملته للقريب بلا محبة فمثلته مثل ذاك الذي يتعرض للنحل بلا حذر وحيلة ، ثم يزعم انه لا يسيء لاحد ولن يلقى اذى ... ومن غير المعقول ان يكون غير ذلك . لان الحب المتبادل بين البشر هو حجر الاساس في الحياة . وإذا كنا ، في الواقع ، لا نستطيع إرغام احد على المحبة ، فكذلك ليس بوسعنا تلقينه الأساة لمشاييننا .

وما زال (نيكليندوف) مواصلاً تأملاته هذه .

— إذا كنت لا تستطيع ان تحب الناس ، فعش وحيداً واهتم لنفسك ، واشغلها بالأنشاء المحيطة بك ، ولكن لا تعاول الاختلاط بهم . بوسعك ان تأكل دون ان

(١) ما شقيان روسيان شيران .

تؤدي صحتك ، ولكنك لا تشعر بلذة الطعام إلا عند الجوع . وهكذا فان بوسعك ان تعاشر الناس دون الاضرار بأحد ، ولكنك عندما تحبهم ستكون مفيداً لهم . وإذا تركت نفسك تنساق مع الغضب ، واللامبالاة ، وغيرهما من الاحساسات السيئة في معاملتك للناس ، كمعاملتي لصهري نهار امس ، فستهوي في المنحدر، ولن تكون لقوتك مع القريب من حدود ، كما اثبتته لي احداث اليوم . كما لن تكون لآلامك نهاية . . . هذا هو الخير . وهذه هي الحقيقة .

كانت برودة الجو التي اعقبت ذلك الحر الشديد قد رفعت كثيراً عن نفس (نيكليندوف) ، ولكن وقوعه على حل للمعضلة التي ظلت مدة طويلة تستأثر باهتمامه قد احدث له السرور الاعظم .

- ٢٩ -

في العربة التي كان (نيكليندوف) مسافراً فيها ، كان بعض الخدم وعمال المصانع والمستخدمين وجندي وامرأتان احدهما شابة والثانية متوسطة العمر تضع في يدها سواراً براقاً ، يعودون إلى مقر اعمالهم . كانوا يجلسون بطمأنينة من وجدمكاناً خالياً يرتاح فيه . بعضهم كان يأكل والبعض الآخر كان يدخن ، وآخرون كانوا يتحدثون مع جيرانهم .

وكان (تاراس) مرحاً مفتطاً ، كما يستدل من قسماث وجهه ، وهو جالس بقرب الممشى محتفظاً بالمقعد (لنيكليندوف) يتحدث بجرارة مع جنائني يقف امامه ، كان في طريقه لاستلام وظيفة اسندت اليه .

وفي طريقه لاحتلال المقعد الذي يحتفظ له (تاراس) به وقف الامير برهة عند عجوز مهيب الطلعة كان يتحدث مع امرأة تدل هيتها على انها قروية ، تجلس بجانبها فتاة في حوالي السابعة من عمرها ترتدي قميصاً طويلاً وجديداً ، يتدلى فوقه شعرها الذي كاد يكون ايضاً . ولم يكن ساقاها يبلغان الارض ، وبين يديها ألعاب تلهي بها .

وعندما رأى الرجل العجوز ان الامير ينظر الى المرأة افسح له مجالا ليجلس فيه ودعاه بتأدب قائلاً :

- ارجو ان تجلس .

فجلس الأمير بجانبه بعد ان قدم له الشكر ، وواصلت المرأة حديثها عن زيارتها لزوجها الذي كان في المدينة .

- لقد زرتة في اعياد المرافع ، وشاء الله ان اعود فأراه الآن . فلنتظر ما تعده لنا مشيئة الله في عيد الميلاد .

- شيء جميل جداً . - قال الرجل العجوز وهو يرمق الأمير بمؤخر عينيه . - شيء جميل جداً . من الضروري ان تنهي لزيارته من حين لآخر ، للحصول دون اكتسابه مصائب المدينة .

- آه . لست اخشى ذلك ، فزوجي لا يشبه الكثيرين . يكاد يكون كالصية ، ويبحث لي بأخر كويك يكبه ... لقد اثر كثيراً في نفسي ما بدا من سروره عندما قدمت له صغيرتنا لم يكن بدري كيف يظهره لي .

وكانت الفتاة تصغي لأمرها بامعان ، فأخذت تنتقل بنظراتها الذكية المطمئنة بين الأمير والرجل العجوز ، كأنما كانت تريد تركية كلامهما .

- حظ كبير كونه واعيا . - قال العجوز - ولكن ألم تتسرب اليه عدوى هذا ؟ قال ذلك وأشار الى رجل وامرأة كانا جالسين معاً على مقربة منهم ، وقد يكونا زوجين .

كان الزوج يرفع زجاجة الخمر على فمه يعب منها بنهم ويبدو ان الزوجة كانت تنتظر دورها .

- كلا . كلا . ان زوجي لا يعاقر الخمر ولا يدخن . - اجابت المرأة مقتنمة الفرصة لاطراء زوجها مرة أخرى . - اقول لك يا جداه انه قلما وجد رجل مثله . - هذا صحيح . - اجاب العجوز وهو ينظر إلى شارب الخمر .

كان هذا قد فاول الزجاجة لزوجته فأدنتها من فمها وهي تبسم ابتسامة ارتياح .
وعندما رأى العجوز والامير يراقبانه بدأ عليه الاستياء فقال :

— لماذا تنظرون إلي ايها السادة ؟ ألأنا نشرب الخمر ؟ عندما أعمل فلا أحدأ
يراني ، ولكن عندما أشرب خمرأ يراني الجميع . بلى هكذا . لقد عملت وشربت
الخمر . وأنا الآن أقدم الخمر لزوجتي كي تشرب . ألا يعجبكم ذلك ؟
— الحق معك . — قال الأمير لأنه لم يكن يدري بأذا يجب .

— بلى هكذا . — قال العامل ملحاً . — ان زوجتي امرأة طيبة وأنا احبها كثيراً
لانها تعني بي ، وتحبني ايضاً . أليس كذلك (يا مافرا) ؟
فرفعت المرأة ذراعها كالسكرى .
— أتريد ان تسكت ؟

— اجل . اجل ... هي امرأة طيبة . طيبة جداً ... ولكنها تحتاج للجلد ...
انها قميئة بأن تأتي ... ما لا يتوقعه احد ... صحيح ؟ ... معذرة ايها السادة ...
لقد شربت قليلاً ... والآن ... ماذا ينبغي ان اصنع ؟
وإذ قال ذلك تمدد على المقعد واضعاً رأسه على ركبة زوجته التي كانت تنو اليه
وهي تبسم .

ولبت الأمير بعض الوقت جالساً بجانب الرجل العجوز الذي كان يقص عليه
تاريخ حياته وحياة اولاده الذين ذهب بهم إلى المدينة ، ثم غادره إلى حيث كان
(تاراس) ينتظره .

— تفضل اجلس يا سيد . — قال الجنائي الذي كان قبالة (تاراس) سنحسي
الكيس ، جانباً .

— سنكون محشورين ، ولكن بسلام كأصدقاء طيبين . — قال (تاراس)
ورفع بذراعه القوي الكيس الذي كان لا يقل وزنه عن خمسين كيلو غراماً ، ووضع
بقرب النافذة .

— المكان واسع ... على كل حال بإمكاننا الوقوف أو الاستلقاء على الأرض .
ماذا نطلب أكثر من ذلك ؟

لقد اعتاد (تاراس) ان يقول انه عندما لا يشرب الخمر ، فانه لا يحسن الكلام ،
وان الخمر يوقظ الالهام . وفي الواقع فقد كان مقلا من الكلام عندما لم يكن قد عاقر
الخمر . واما إذا كان الامر بالعكس ، كما هو الآن ، فان رغبته في الكلام لا ينضب
لها معين . ويبدو في حديثه طبياً بسيطاً وصادقاً . وكانت نظرات عينيه الزرقاوين ،
وابتسامته الوادعة تؤكد ذلك .

وعندما جاء الأمير كان يتحدث بأسهاب عن زوجته . فأمسك عن الكلام برهة ، ولكنه
ما عثم ان واصل حديثه . وبما ان (نيكليندوف) لم يكن مطلعاً على تلك التفاصيل
فقد أصغى اليه بامعان .

— كنت اقص كيف وقعت المأساة . — قال موجهاً الكلام (لنيكليندوف)
بلهجة المودة الحانية . لقد عثرت على رجل حساس القلب وهأنذا اقصها عليه .
حسن ، حسن . — قال له (نيكليندوف) .

— هكذا يا حبيبي وقعت القصة . لقد اخذت العجينة وقالت « انا ذاهبة لعند
(اوربادينك) . وكان والدي رجلاً طبياً فحاول إقناعها بالعدول عن فكرتها فاثلا لها ان
(فيدوسيا) ما تزال طفلة ، ولكنها أثبت الاصفاء اليه وقالت « إذا هي بقيت في
البيت فانها ستقتلنا جميعاً ذات يوم كالخنفس » ثم ذهبت لعند (اوربادينك) فلبى
طلبها حالاً .

— وماذا كنت تفعل انت ؟ — سأله الجنائي .

— كنت في فراشي اتقلب واصرخ كمن مسته العفاريث واشعر كأن في جوفي
ناراً ولا استطيع الكلام . وعندئذ وضع ابي (فيدوسيا) في العجلة ، واخذها أولاً
لعند (ستانوفي) ثم لعند قاضي التحقيق حيث اعترفت بكل شيء . اعترفت كيف
حصلت على الزورنيخ ، وكيف مزجته بالطحين . وعندما سألتها القاضي لماذا فعلت
ذلك . اجابته بأنها تبغضني وانها تفضل الذهاب إلى سيبريا على العيش معي .

« فوضعوها في السجن ، وعاد أبي وحده . ولكن عندما حان وقت العمل في الحقول ، ولم يكن في البيت سوى امرأة ضعيفة وعجوز قررنا ان نطلب إخلاء سبيل (فيدوسيا) مؤقتاً . فراجع ابي بعض معارفه فلم ينجح ثم راجع آخرين فمكّانت النتيجة واحدة . واخيراً وفقت بمن قال لي ان باستطاعته ان يسوي الأمر لقاء خمس روبلات . فاتفقنا على ثلاثة دفعتها له وتم الامر . ولما كنت قد شفيت ذهبت اطلبها بنفسني . وعندما وصلت المدينة تركت الفرس في الحان وذهبت إلى السجن ويدي الرسالة . فسألني احدهم .

— ماذا تريد ؟

— جئت لان زوجتي مسجونة هنا . اجبت .

— هل لديك اوراق ؟

فأرّبتهم ما احمله ، فنظر إلى بعض الموظفين ملياً وقال لي :

— انتظر .

ثم ذهب . فجلست . وبعد انتظار حسبت انه لن ينتهي ابداً جاء احد الرؤساء

فقال :

— هل انت (فرغوتشوف) ؟

— بلى . انا هو .

— أذن هذه هي زوجتك .

وفتح باب في الحال واطلت منه (فيدوسيا) مرتدية ثيابها .

— هيا بنا . — قلت لها .

— كيف . أجئت ماشياً ؟ — قالت تسألني .

— لقد جئت على جواد .

وذهبنا إلى الحان ، ودفعت ما علي واسرجت الجواد ، واصطعجت العلف اللازم ، وجلست هي دون كلام وكذلك فعلت ، ومشينا . وعندما اصبحنا على مقربة من المنزل سألتني .

- الا تزال امك حية ؟

- بلى . - اجبتها .

- ووالدك ايضاً ؟

- كذلك هو حي .

- اغتفر لي ما كان من جنوبي . لقد فقدت رأسي .

- ينبغي الا تذكر تلك القصة . لقد مضى ذلك ولا ينبغي ان تذكرها
مضى شيئاً .

وهكذا بلغنا البيت . وعندما دخلت ترامت على قدمي امي فقالت لها :

- فليساعلك الله .

وقال الجد .

- لا تتحدثوا بالماضي ، ولتحدث المستقبل . كل شيء على ما يرام . كل شيء

حسن ايها الفتاة ، فالزراع ينمو ، وتلك نعمة من الله . ولا بد من حصاده وجنيه .

وفي اليوم التالي بدأت تعمل بحماس أدهشنا . لم تكن ترتاح قط ، وكانت دائماً
إلى جانبي تعمل كما اعمل ، فتربط الزرع المحصود أو تأخذ المنجل بيدها فتعمل حتى
كنت أكرها على أن تستريح . وعندما تعود مساء إلى البيت كانت تقوم بالأعمال
المنزلية قبل العشاء .

- إذن لقد انقلبت امرأة صالحة بعد السجن ؟ - قال الجنائني يسأل .

- لقد أصبحت خيراً من أي امرأة أخرى . كانت تحبني حتى تستطيع ان تقول

أننا روحاً واحدة في جسدان . وكثيراً ما كانت امي تقول .

- يظهر انهم ابدلوا لنا (فيدوسيا) لقد أصبحت وكأنها غيرها .

و كنت احياناً اسألها ونحن في الحقل .

- وكيف عن لك أن تفعلي ما فعلت ؟

فتجيبني بقولها :

- كنت اشبه من قريبك ، والعيش معك . فقلت في نفسي ان السجن او الموت خير من الحياة معه .

فألتها : والآن ؟

- الآن أحلك في نفسي .

ثم أمسك (تاراس) برهة عن الكلام ، وأطرق برأسه ملياً ليواصل بعد ذلك الكلام مشدوهاً .

- وعندما كان العمل في الحقول على وشك الانتهاء ، إذ لم يكن قد بقي سوى قطع القصب ... عدت إلى البيت لأجد دعوة من المحكمة ... هذا في حين كان قد تنوس كل شيء ..

- قد يكون بعض الشياطين قد فعل ذلك . - قال الجنائي - فهو وحده من يرغب في هلاك النفوس ... كذلك أنا قد عرفت رجلاً ...

وقطع حديثه وقوف القطار على إحدى المحطات .

- لقد بلغنا محطة فلم بنا نشرب .

فانقطع الحديث وهبط الأمير على اثر الجنائي ووطأ تربة الرصيف المبتلة بالماء .

- ٣٠ -

رأى الأمير من نافذة عربة القطار ، قبل أن يهبط إلى الأرض عربات فاخرة تهز جيادها أطواق الجلائل المعلقة في أعناقها فترتفع أصواتها في الفضاء . ثم رأى بعد قليل لفيغاً من السيدات بجانب إحدى عرباب الدرجة الأولى ، استرعت انتباهه إحدها وكانت طويلة القامة بدينة ، وعلى رأسها قبعة جميلة وشاب طويل القامة نحيف الجسم يرتدي ثياب راكبي الدراجات يتبعه كلب في عنقه طوق ثمين براق . وكان من وراء ذلك الجمهور من النساء عدد من الخدم وحوذي يكاد أن يختفي تحت تل من الأغصان المختلفة الاجناس والاشكال والالوان .

وكان قد تحلق حولهم كالمعتاد ، حلقة من الفضوليين والمعجبين ، وخدام الغنى كمدير المحطة ، وحارس الاحراج ، وسيدة طويلة القامة ، في عنقها عقد من الحجارة

- ٣٩٥ -

الزائفة ، التي كانت تستقبل سائر القطارات ، وعامل البرق وبعض المسافرين .
وعرف الأمير فيهم آل (غورتشاكين) . وكانت السيدة الطويلة هي التي سيحلون
ضيوفاً في منزلها . وفتح المدير باب العربة الخارجي فغادرتها بقية آل (غورتشاكين) .
فتبادلت الاختان التحية ، وإقبلتا تتحدثان بالفرنسية عما إذا كان من المناسب الذهاب
بعربة مغلقة أو مكشوفة . ثم ذهب الجميع تتبعهم الخادمة التي تحمل المظلات .

كان الأمير يرغب في أن يتفادى سلاماً ووداعاً جديدين ، فتوقف قليلاً ريثما تقدمه
الشيخ (غورتشاكين) الذي كان يتحدث مع ابنة حميه . فطرقت سمعه عبارات
متقطعة أثرت احداها في نفسه . وكان الشيخ (غورتشاكين) يقول بالفرنسية .
— آه . حقاً ان الكون رائع .

وما كاد هؤلاء يتوارون وراء جمهرة الرؤوس التي كانت تنحني لهم ، حتى وصل
إلى المحطة حوالي عشرين عاملاً يجتذون أحذية خشبية ، ويحملون على ظهورهم صرر
التياب فتقدموا بخطى ثابتة من أول عربة صادفوها خالية ، وفيما هم يهيمون بالصعود
اليها نهرهم أحد الحراس بعنف ، فالتجھوا إلى التي تليها دون أن يظهروا استغراباً
أو تردداً . وكانوا على وشك الصعود اليها عندما تقدم منهم حارس آخر فأرغمهم على
مغادرتها ، وهبوط من كان قد دخلها منهم . فعضوا ببثل الخطى الثابتة القوية نحو
العربة التي كان الأمير جالساً فيها . فقال الحارس ان لا مكان لهم فيها فتدخل الأمير
قائلاً ان في العربة متسعاً لهم وان بإمكانهم الصعود . ثم صعد هو في اثرهم .

ولكن رجلاً متوسط العمر ، يضع على قبعته شعاعاً وطنياً وسيدتين احتجوا عندما
علموا انهم سيرافقونهم في العربة ، وطلبوا منهم ان يعودوا ادراجهم . فهم العمال
بالخروج مرتبكين خائفين كمن يشعر باقتوافه أمراً نكراً ، متعثرين في كل مكان
بالأكياس الثقيلة مستعدين للوصول إلى آخر عربة في القطار أو إلى أقاصي الارض إذا
لزم الامر ، بجناً عن مكان .

— هيه . إلى أين تذهبون أيها البله ؟ هل توجد هنا أمكنة شاغرة ؟ — صاح فيهم
احد الحراس الذي خف للملاقاهم .

- توجد طرائف على الدوام . - قالت بالفرنسية أقرب السيدتين للشباب وهي تحسب ان الامير سيؤخذ دون شك بقوة لهبتها .
ونغممت الاخرى بكلمات حول السفر برفقة ابناء الارياك الذين تنبعت منهم رائحة الغبار وتفايات الحيوانات .

واخيراً جلس العمال بسرور واطمئنان من يخرج ظافراً من خطر محقق ، بعد ان طرخوا عن اكتافهم الاكياس التي كانوا يحملونها . وكان ثلاثة منهم قد جلسوا بجانب (تاراس) وفي مقابلته . ولكن عندما جاء الامير واقترب منهم اخذوا بظهره ، وارتبكوا ، فهبوا واقفين من مقاعدهم تلقائياً ، وهربوا بالذهاب ولكنه استوقفهم ، ولبت واقفاً بجانبهم ، متكئاً على مسند أحد المقاعد .

وتبادل أحدهم وكان في حوالي الخمسين من عمره ، نظرات الدهشة والرهبة مع شاب كان يجلس مقابل له . لقد اخذتهم ، الدهشة من ان يقوم سيد (كيكليندوف) فيلاطهم ، ويتنازل لهم عن مقعده ، بدلاً من شتمهم وطردهم كما كان منتظراً ، فكان في ذلك ما يحملهم على الظن بأن وراء ذلك نية سيئة . ولكنهم عندما رأوا (نيكليندوف) يسير (تاراس) اطمأنوا وأجلسوا فتى منهم على بعض الاكياس ، واجتهدوا في أن يعود الامير فيشغل مكانه .

كان العامل المسن يظهر التوقير للامير ، محاولاً الابتعاد عنه ما أمكن ، وألا تلامس رجله ذلك السيد اللطيف المعشر الدمث الاخلاق . ثم اخذ يتحدث معه ومع (تاراس) شيئاً فشيئاً بلغت به وحدة الحال معه ان صار يضرب بكفه متودداً على ركبتى الامير . كان يتحدث عن نفسه ، وعن وضعيته ، وعن عملة الذي كان يرغمه هو ورفاقه على الوقوف في الماء حتى الركب من شروق الشمس حتى غروبها ليبيع عشر روبلات شهرياً .

- انها حياة مؤلمة جداً لمن لم يتعودها . ولكنه متى اعتادها ... فصبراً والمهم ان يكون الغذاء جيداً . في البداية كان الطعام قبيحاً ، ولكننا قدمنا احتجاجاً فحسنوه . واصبح العمل الآن يبدو سهلاً . وازاف يقول انه منذ ثمانية وعشرين عاماً وهو يعمل

خارج بيته . وانه عندما يعود اليه يحمل معه كل ما يكون قد كسبه . كان في البداية يسلم المال لوالده ، وعندما توفي صار يسلمه لاخيه الاكبر ، ثم لابن اخيه الذي كان يعني بالبيت . ولم يكن يحتفظ لنفسه بأكثر من روبلين او ثلاثة ، ثمناً للتبغ .
- واحياناً ، عندما اشعر بالتعب ، اتناول قليلاً من الخمر . - اضاف يقول كمن يرى انه ضبط وهو يقترب انما .

وقص عليهم ايضاً ان النساء في بيته هن اللواتي يعتنين به . وان مراقب العمل ، اهدى له ولرفاقه قبيل سفرهم خمس ليترات من الخمر . وان احد رفاقه قد توفي ، وان آخر مريض الآن ، وأشار يدلهم عليه حيث كان في ركن منعزل من العربة . وكان شاباً يشكو من الحمى وقد ازرق شفتاه .
- لم اصادف قط في سائر اسفاري سيداً يمثل هذا اللطف ودماثة الخلق . - قال موجهاً الكلام (لئراس) . - لم يكتف بأنه لم يطردنا وانما تنازل لنا عن مكانه .
يظهر انه يوجد بين الاسياد من مختلف الطبقات .

واقترب (نيكليندوف) من المريض . ولكنه رأى في نظراته مر القسوة ماجعله يحجم عن إزعاجه بتوجيه الاسئلة . واقتصر على نصيحة الشيخ باستعمال الكيناو كتب له اسمها على ورقة سلمها له . وحاول ان يعطيه بعض المال ، ولكن العامل ابنى قائلاً له ان لديه ما يكفيه إذا اقتضى الامر .

كان (نيكليندوف) يتفوس ، اثناء ذلك ، في تلك الاعضاء الجافة ، البارزة العضلات ، وتلك الوجوه التي لوجتها اشعة الشمس فأصبحت بلون النحاس ، وتلك الثياب الحشنية الجافة التي خيطت في المنزل ، فيحسب نفسه بين اقوام جدد ، تعمل عملاً جدياً ، تحفزها افراح واتراح حياة عمل حقيقي . فيحدث نفسه قائلاً .
- بلى انه عالم مختلف عن العالم الذي عشت فيه إلى يومي هذا . هو عالم جديد ، العالم الحقيقي الرفيع .

وعندما تذكر ما سمعه من عبارات العجوز (غورتشاكين) تقاوم استياؤه من تلك الطبقة التي لا تعمل عملاً ، ومن مصالحها الوضيعة ، وشعر شعور راكب البحر

عندما تبدو له في الأفق أرض جديدة مجهولة تزخر بالاماني العذاب .

- ٣١ -

كانت القافلة التي تضم (كلترين) ، قد قطعت أكثر من خمسة آلاف (فرستا) ، بعضها في القطار ، والبعض الآخر في السفن . وكانت (ماسلوا) ما تزال بين المحكومين بجرائم عادية . ولكن الأمير قام بوساطة في (بيرم) فنقلت إلى صفوف المجرمين السياسيين ، بناء على نصيحة قدمتها له (فيرا بوغودوتشوفسكا) التي كانت إحداهن .

كانت الرحلة حتى (بيرم) مضنكة (لماسلوا) ، التي لاقت آلاماً مادية ومعنوية . لقد تأملت مادياً لقلة الهواء ، ورائحة بعض البعوض الكريهة ، وملاحقته لها . ولعلها كانت من الجهة المعنوية أكثر تألماً لملاحقة الرجال لها ، الذين ربما كانوا أكثر من البعوض إثارة لاشمئزازها . ولم يكونوا أقل منه إلحاقاً ، وكمن مرة صدت أناساً تقدموا منها بعروض قذرة كانت ذكراها تثير اشمئزازها .

كانت قد قامت بين المساجين من الجنسين وبين حرس القافلة وحتى الرؤساء منهم - علاقات مألوفة في مثل هذه الحالة ، هي أقرب للوقاحة والاستهتار ، حتى كان على كل امرأة ، وخصوصاً الفتيات منهن ان تظل يقظة حذرة ليل نهار ، إذا هي ارادت ان تظل في منجى من الانحلال الخلقي العام .

كانت تلك الحالة من القلق الدائم ، مثار إزعاج وضيق لمن . هذا بقطع النظر عن ان (ماسلوا) كانت أكثر الجميع تعرضاً لها بسبب جمالها وألوانها لماضيها المعروف من الجميع . كان أولئك الوقحون يرون في امتناعها التام عليهم إهانة لهم ، ولذا كانت تزداد النقرة عليها ساعة فساعة . ولولا صداقة (فيدوسيا) لها ولولا زوجها (تاراس) الذي أدرك ما تتعرض له كرامة زوجته فعمل على الدخول في صفوف المساجين حتى (نيجني نوفجورود) للدفاع عنها ، لولا ذلك إذن لساءت حالها كثيراً وأصبحت لا تطاق .

وعندما قبلت بين المبعدين السياسيين نحس وضعها كثيراً ، فقد كان هؤلاء

ينزلون منزلاً أفضل ، ويقدم له طعام أغزر من طعام اولئك وأصبحت لا تلاقى بين هؤلاء ما كانت تلاقيه بين اولئك من سوء التربية والحلق ، وأضحت في منجى من كل ملاحقة ومطاردة . وهكذا استطاعت أن تنس ماضيها الذي كانوا يذكرونها به على الدوام بسخريّة مريرة . ولم يكن هذا كل ما في الأمر . إذ قد هيأ لها انتقالها ما هو أهم ، وذلك اتصالها بأشخاص كان تأثيرهم عليها عميقاً وحاسماً .

كان ما توسط لها به (نيكليندوف) يتلخص في أن تنام وتقيم طيلة الرحلة بين المبعدين السياسيين لا غير . ولكنها كانت تمشي على الأقدام بين مرحلة وأخرى كغيرها من المجرمين العاديين . وكان يرافقها أثناء المسيرة المجرمان السياسيان (سيمونسون) الرجل القصير القامة ، الأسمر اللون ، الكبير العينين الغائرتين ، و (ماري باولوفنا كتينين) الفتاة الجميلة ذات العينين الزرقاوين التي رآها (نيكليندوف) في قاعة الزيارات في السجن .

كانت (ماري باولوفنا) تمشي على أقدامها لتنازلها عن مكانها في العربه لرفيقتها المجرمة العادية التي كانت حاملاً . وكان (سيمونسون) يرى من الظلم استغلال الامتياز المبني على التمييز الطبقي الاجتماعي . وكان على الثلاثة أن يستقظوا مبكرين أكثر من غيرهم من المجرمين السياسيين ليتحققوا بقافلة المجرمين العاديين . وظلوا هكذا حتى بلغوا مرحلة تسلم فيها القيادة ضابط شرطة جديد .

كان ذلك ذات صباح من شهر أيلول غامض ورطب . وكان الثلج يتناوب مع المطر ، وأحياناً تعصف ريح ثلجية . وكانت القافلة التي ستجتاز المرحلة سيراً على الأقدام تملأ فناء السكنة ، وعددها اربعماية رجلاً وخمسون امرأة . وكان بعضهم يحيط بقائد القافلة الذي كان يوزع عليهم زاد يومهم ، والبعض الآخر كان يبتاع ما كولات من النسوة اللاتي دخلن إلى فناء الدار . وكان بعضهم يحصي دراهمه ، والبعض الآخر يتحدث أو يتشاجر مع رفاقه أو مع البائعات .

كانت (كلترين) و (ماري باولوفنا) ترتدي كل منها . معطفاً قصيراً وتحذني حذاء طويلاً وتضع على رأسها غطاء كبيراً . فخرجتا من القسم الذي بانافيه ليلتهما ، ومضتا

الى فناء الدار حيث كانت البائعات يعرضن بضاعتهم ، من خبز طري ، وممك ، وحلوى ، ولحم بقر ، وبيض ، وحليب . وكانت واحدة منهم تعرض خنزيراً صغيراً مشوياً .

كانت (سميونسون) وهو يرتدي سترة من المطاط ويحتدي حذاء خشياً لأنه كان نباتياً ، لا يجيز استعمال لحم الحيوان ولا جلده ، واقفاً في فناء الدار منتظراً الأمر بالمسير ، عند الباب وهو يسجل في يومياته فكرة غنت له وهي هذه :

« اذا استطاعت جرثومة ما ان تراقب وتتفحص ظفراً بشرياً فستجد ان هذا الظفر يشكل جزءاً من مجموعة غير عضوية . وهكذا نقول بعد دراستنا للقشرة الخارجية للكرة الأرضية ان الأرض كائن غير عضوي . »

كانت (كاترين) تضع ما ابتاعته من خبز وبيض وحلوى في الكيس . وكانت (ماري باولوفنا) قد دفعت ما عليها للبائعة عندما قامت حركة مفاجئة في فناء الدار كان الجنود يقفون صفوفاً امام الضابط ، استعداداً للأجراءات الشكلية المعتادة عند كل صباح وقبل كل مسيرة .

فأحصي المساجين ، كالعادة ، وفحصت القيود ، وغلت ايدي اولئك الذين ينبغي ان يمشوا ازواجاً . ولكن سرعان ما قطع تلك الاجراءات المألوفة صوت صراخ مهتاج صادر عن الضابط ، وبكاء طفل . فساد السكون برهة في فناء الدار ، اعقبه ضجيج عم الدار من اقصاه الى ادناه فخفت (كاترين) و(ماري باولوفنا) للاستعلام عن الحادث .

- ٣٢ -

وعندما بلغنا حيث كان يجتشد الناس في فناء الدار رأنا الضابط الطويل القامة القوي البنية ذا الشاربين الطويلين الأسقرين ، ينظف قبضة يده اليمنى المملوطة بالدم ، وهو يتقيأ سباباً وشتائم لسجين كان واقفاً أمامه ، واضعاً إحدى يديه على وجهه المروض الذي كان يتفقد دماً ، ويحتضن في الثانية طفلة ملفوفة بشال ، وهي تبكي وتصرخ

صراخاً شديداً . كان نصف رأس السجين مخلوقاً ، وكان طويل القامة نحيل الجسم يرتدي ثوباً قصيراً جداً وسروالا لا يتجاوز نصف فخذه .

- ستعلم ان تكون معقولا . - كان الضابط يقول ، ثم يمزج كلامه بالشتائم . -
هيه . دع الطفلة في الأرض ، وتقدم لتغل يدك .

كان قد سمح لهذا السجين ، في الأيام القليلة الماضية ببقاء يده طليقة كي يستطيع حمل ابنته التي ماتت أمها في إحدى المراحل بمرض التيفوس . ولكن الضابط الذي كان سيء المزاج ذلك اليوم أمر بان تغل يده ، فأحتج السجين على ذلك ، فضربه الضابط بقبضة يده على عينه .

كان يقف خلف الضابط سجين طويل القامة اسود اللحية مغلول اليدين الى أحد السجناء ، فكان تارة ينظر بضجر الى الضابط وتارة الى رفيقه .

وأمر الضابط ان تؤخذ الطفلة من ايها وان تغل يده فأرتفعت من بين الحشد احتجاجات ولغط كانت تزداد بين حين وآخر .
- منذ (طومسك) ويده طليقتان . - ليس ما يحمله كلبا وانما طفلة . - كان يقول قائل في الصفوف الخلفية .

- سموت هذه الطفلة . - كان آخر يقول . - القانون لا يسمح بذلك .
- ماذا ؟ ماذا ؟ - صرخ الضابط ثم التفت كمن لسعته افعى . - ساعلمك نصوص القانون . من قال ذلك ؟ أنت ؟ أم أنت ؟
- لقد تكلمنا كلنا ... - قال سجين في الصف الأول .
- آه هل كنت انت ؟

وشرح الضابط يوزع لطماته ذات اليمين وذات الشمال .
- آه . أنتمردون ؟ ساعلمكم ما نضع . ساقولكم كالكلاب وسيشكر لي رؤسائي ذلك . هيه خذوا هذه الطفلة

فوجم الجمهور . واخذ أحد الجنود الطفلة التي لم تكف عن البكاء والصراخ .
وجاء جندي اخر فمد السجين يده صاغراً ليضع الغل فيها .

- سلموا هذه الطفلة للنساء . - قال الضابط للجندي .
كانت الطفلة محتقة الوجه تتخبط بذراعيها محاولة افلات يديها من الشال الذي يلفها . وعندئذ تقدمت (ماري باولوفنا) من الضابط محترقة الجهور وقالت له .
- سيدي اذا سمحت لي فانا آخذ الطفلة .
- من انت ؟ قال يسالها .
- أنا من فرع المحرمين السياسين .
فأثر جمال وجه (ماري باولوفنا) وعينها الزرقاوين وشعرها الأسود في نفس الضابط الذي كان قد رآها منذ قليل فلقت نظره . وعاد فحدق في وجهها ملياً ثم أطرق بنظره إلى الأرض مرتبكاً .
- خنيتها إذا شئت . ولكن أي ذوق لكن في الرأفة على هؤلاء المناكيد . إذا فر أحدهم فلن تكن أنتن المسؤولات .
- كيف يقوى على الفرار ما دام يحتضن طفلاً ؟ - قالت (ماري باولوفنا) .
- لا أريد ان اجادل . خذي الطفلة واذهي .
- أستطيع تسليم الطفلة ؟ - سأله الجندي .
- بلى . سلمها حالا .
- تعالي معي . - قالت (ماري باولوفنا) للطفلة وهي تحاول أخذها من الجندي .
ولكن الطفلة كانت تأبى إلا الذهاب مع والدها ، وما انفكت تصرخ وتتخبط .
- تميلي (يا ماري) انها تعرفني . فقد ترضى بأن تأتي معي . - قالت (ماسلوفنا)
وقد أخرجت قطعة خبز من الكيس .
وكانت الطفلة تعرف (ماسلوفنا) ، ولذا فقد كفت عن الصراخ والبكاء عندما رأتها ، ثم ذهبت معها دون مقاومة .
وتلت ذلك فترة هدوء ، ثم فتحت أبواب الدار ، وخرجت القافلة واصطف المساجين . وتحدثت (ماسلوفنا) التي كانت تحمل الطفلة بين ذراعيها ، مع (فيدوسيا) التي كانت في الصفوف الأولى .

كان (سيمون) قد شهد المشهد وهو صامت لا يفوه بكلمه واحده ، وفجأة تقدم من الضابط الذي كان قد صعد الى عربته ، وقال له .
- لقد اسأت التصرف يا سيادة الضابط .
- اذهب وقف في صفك فهذا أمر لا يعنك .
- أريد ان أقول لك الحق . وأكرر قولي انك اسأت التصرف . - أجاب (سيمون) وقد حدى الضابط بنظرة من عينه القابعتين تحت حواجبه الكثيفة السوداء .

- هل انتم جافزون ؟ اذن الى الامام . - صاح الضابط بعد أن نظر الى (سيمون) وهز كتفيه .
وتقدمت القافلة تسير في طريق موحلة على جانبيها حفر مملوءة بالماء .

- ٣٣ -

على الرغم من قسوة الظروف التي كانت تحيط (بكاترين) فانها لم تكن ترى الحياة التي اجبرت عليها مريرة كل المرات . كانت معاشرتها للمجرمين السياسيين اقل ازعاجاً لها من معاشرتها للغبيا في المحلات العامة التي قضت فيها ثماني سنوات . وكانت العشرون (فرستا) التي تقطعها سيراً على الاقدام ، والاستراحات العديدة التي كانت تقضي فيها يوماً كاملاً بعد كل مسيرة يومين ، والغذاء الحسن الذي كان يقدم لهم ، وامكانية النوم على سرير حسن ، كل هذا كان يعيد لها نشاطها ويجدد شبابها . زد على ذلك اختلاطها برفاقها الجدد الذي كشف لها عن اهداف هامة في الحياة ما كانت تعلم قط بوجودها .

لم تكن قد تعرفت من قبل على أناس « غير عاديين » ، على حد تعبيرها ، كهؤلاء الثوريين الذين اصبحت تشاطروهم حياتهم . بل أكثر من ذلك ، انها كانت تجهل كل الجهل ان في الدنيا اشباها لهم . لقد كانت أول الأمر ، ترى الدوافع التي تحفزهم غريبة شاذة ، ولكنها ما لبثت أن تفهمتهم فاعجبت بهم كل الاعجاب . لقد رأتهم يقفون مع

- ٤٠٤ -

الشعب ضد السلطات . وعندما علمت أن من بينهم من كان ينتمي للطبقة الحاكمة فضحى بامتيازاته ، وحرية ، وحياته في سبيل مصلحة الشعب ، تضاعف عطفها عليهم . كانت معجبة بكافة رفاقها الجدد . لكنها كانت أكثر إعجاباً (ماري باولوفنا) ، وتحمل لها حباً مقروناً بالتقدير والحماس . لقد ادهشها ، منذ الوهلة الأولى ، ما رآته منها ، وهي الفتاة الغنية ، المثقفة ، النبيلة ، وأبنة أحد القواد ، كيف كانت ترتدي ثياب أبسط القرويات ، وتوزع بين رفيقاتها المال والاغراض التي يبعث لها به والدها . وتبدو وكأنها تحاول إخفاء جمالها الطبيعي عن الناس ما استطاعت .

وعلى الرغم من قلة ما لا يدهشني وما لا يثير الإعجاب في صفات (ماري باولوفنا) فان (كاترين) كانت أشد دهشة من عزوفها التام عن مغازلة الرجال ومطاردتهم ولم يكن ذلك لفقدانها الشعور بجمالها . كلا . فان (ماسلوفنا) كانت تعلم أنها شاعرة به ومسرورة منه أيضاً . ولكنها بدلا من رضاها عما يحدثه من أثر في نفوس الرجال فقد كانت تحشاه وتنفر من قريب وبعيد من كل ما يسمى حباً .

كان سائر رفاقها يعلمون ذلك منها ، وحتى أولئك الذين كان جمالها يستهويهم كانوا يبالغون في إخفاء ذلك عنها ما استطاعوا . وكان رفاقها في الحزب يعاملونها كالرجال . ولكنها كانت خارج الحزب عرضة للملاحقة الرجال لها ، واضطرت أكثر من مرة لاستعمال قبضة يدها القوية لصددهم عنها .

— ذات يوم ، أوقفني شاب ، في عرض الشارع . — كانت تقص على (ماسلوفنا) . وأمسكني من ذراعي . وعبثاً حاولت الأفلات منه . فقبضت عليه من كتفه وهزته بعنف ففر هارباً مذعوراً .

كذلك قصت عليها كيف أصبحت ثورية . كانت منذ صغورها قليلة الميل لحياة الأغنياء ، بينما كانت تشعر بميل شديد لحياة الفقراء . وكانت تعنف من قبل أهلها لقضائها أكثر أوقاتها في المستودع ، أو المطبخ ، أو الاسطبل ، بدلا من القاعة . ولقد كنت أجد سلوى مع الطاهية ، في حين كنت أمل معايشرة السيدات . وكنت

ازداد يوماً عن يوم معرفة بتفاهة الحياة التي يرغبون في أن أحيائها . لقد ماتت أمي وأنا طفلة . وكان أبي لا يهتم بي . وعندما بلغت التاسعة عشرة من عمري فررت من البيت برفقة إحدى صديقاتي ، واشتغلت كعاملة في أحد المصانع . ولم يطل عملي فيه ، فنهبنا إلى الريف ، ثم عدت إلى المدينة حيث عملت بحماس في الدعاية . فاعتقلت . وحكم علي بالاشغال الشاقة . ولم تزد (ماري باولوفنا) على ذلك شيئاً ، ولكن (ماسلوفنا) علمت بعدئذ أنه قد حكم عليها لاعترافها بارتكاب جريمة قتل لم تقتربها .

كانت (ماري باولوفنا) لا تهتم لنفسها أينما كانت وفي أي وضعية وجدت ، وإنما كانت تفكر في السبل التي تبلغها ما تصبو إليه من مساعدة الغير . كان أحد المجرمين السياسيين المدعو (نوفودفوروفا) الذي كان في القافلة ، يقول عنها مازحاً أنها كرس حياتها « لرياضة عمل البر » . وفي الواقع ، فكما ان كل هم الصيد هو أخذ صيدة ، كذلك فان غاية ما تشده تلك الفتاة في حياتها هو البحث عن المناسبات لخدمة الغير . وقد تأصلت تلك « الرياضة » في نفسها ، حتى كانت تؤديها بهودة جد طبيعية حتى ان الذين كانوا يحيطون بها لم يكونوا يعجبون لذلك ، ويتلقونها كأمر طبيعي .

وعندما ألحقت (ماسلوفنا) بقافلة المجرمين السياسيين لاحظت بعض الاستياء في وجه (ماري باولوفنا) ولكنها تبينت أيضاً انها كانت توليها عناية أكبر مما توليها لسواها . . وكان لهذه العناية التي توليها اباهما فتاة تعتبرها أسمى من الرجال ، أثرها العميق في نفس (ماسلوفنا) حملها على ان تندفع بكليتها اليها ، وان تتبنى سائر افكارها مغمضة العينين ، وان تقلدها .

وأثر ذلك في نفس (ماري باولوفنا) فوطدت أواصر الصداقة والمودة بينها وبين (ماسلوفنا) ؛ اذ كان يجمع بينهما شعور واحد ، وهو ان كليتهما تمقتان الحب الجنسي . والفارق الوحيد بينهما هو ان (ماسلوفنا) كانت قد واجهت بشاعة ماضيها وذافت ويلاته . بينما كانت تلك تأفف منه لانها كانت ترى فيه عقبة كاداء في سبيل بلوغها مثلها الأعلى الذي تحلم به .

كان الحب الذي تحمله (كاترين) (لماري بارولوفنا) نتيجة مباشرة للتأثير الذي تمارسه هذه عليها .

ولكن تأثير آخر كان يسيطر عليها ايضاً هو تأثير (سيمونسون) لما يحمله لها من حب صادق .

يحيا الناس جزءاً من حياتهم ، ويتصرفون بجزء من تصرفاتهم طبقاً لافكارهم ورغباتهم الخاصة . ولكنهم يحيون ايضاً ويتصرفون بالجزء الباقي طبقاً لافكار الغير ورغباته . واحد الفوارق الاساسية التي تميز الناس بعضهم عن بعض هو العقل الذي ينبثق عن افكارهم الخاصة أو افكار الغير .

منهم من يكفي باستخدام افكاره الخاصة وحدها ، كما في اللعب ، ويستعمل عقله كعجلتي آلة قد ابطل عمل الرابط بينها . اي بلا عمل . ولكنهم في سائر الحالات الخطورة عندما يتعلق الامر فعلاً بقضايا ذات اهمية كبرى ، يلجئون الى افكار الغير التي يعمدونها باسماء اخرى « كالعادة » حياً وحيثاً « التقاليد » وآخر « الموافقة » و « القانون » . ومنهم ايضاً « وهؤلاء قلة » من يعتبر عقله المرشد الاول في حياته فيهتدي بهديه . والى هذه الفئة كان ينتمي (سيمونسون) ذاك الذي لم يسترشد قط الا بعقله .

لقد أوحى له عقله وهو ما زال طالباً ان ثروة ابيه القاضي الغني قد جاءت عن طريق غير مشروع . فبادر على الفور بالتصريح لوالده بأنه ينبغي عليه ان يعيدها للشعب . ولما لم يصغ ابوه اليه وزجره ، هجر البيت الابوي ، متنازلاً عن كافة امتيازات وضعيته ، وقرر تبعاً لموحيات عقله ان جهل الشعب هو السبب الوحيد لسائر ويلات روسيا ، ولذا فانه فور تخرجه من الجامعة طلب تعيينه مدرساً في إحدى القرى . حيث اخذ ينشر على تلامذته وعلى القرويين كل ما يراهم بحاجة لمعرفة . فاعتقل وحوكم .

وخلال الجلسة صرح للقضاة بأن ليس لهم أي حق في محاكمته . ولما رأى أن القضاة لم يقيموا لقوله وزناً ، وواصلوا رؤية الدعوى ضده قرر المقاطعة . ولم يفه بعدها بكلمة واحدة حتى نهاية الدعوى . وقد حكم عليه بالاببعاد الى مدينة صغيرة في محافظة (أركانجل) لاعتباره مدنياً . وهناك وضع مذهباً دينياً أصبح منذ ذلك الحين يصدر في سلوكه عن تعاليمه ، وكان يقول بأن الكون حي ، وأن لا وجود للموت ، وأن كافة الأشياء التي تحسب أن لا حياة فيها ، إنما هي جزء من كل عضوي . ولهذا فإن من واجب الإنسان المحافظة على حياة ذلك الكيان الكبير . ومن هنا استنتج أن الاعتداء بكافة أشكاله على الحياة كان أجراماً . ففصح السجن والحروب وقتل الحيوانات .

كذلك كانت له نظرياته الخاصة حول الزواج والعلاقات الجنسية التي كان يراها وضعية . ويؤكد أن الاهتمام بانجاب الأبناء (لأن الحب أصبح ينحصر في ذلك) لم يكن إلا سبيلاً لاقتصاداً عن المهمة الأغزر فائدة ، والاجدر باهتمامنا ألا وهي إسعاف الكائنات الحية ، لتستكمل حياة الكون . وكان من رأيه أن الأشخاص المتفوقين ، إذا ما نحاشوا العلاقات الجنسية ، فإنهم يشبهون كريات الدم ، التي تنحصر مهمتها في مساعدة الأماكن الضعيفة في الجسم . وبعد أن اعتنق هذه العقيدة ، أصبح يصدر عن تعاليمها في سائر أعماله وتصرفاته على الرغم من أنه كان في شبابه يسير على نهج مختلف .

كان حبه (لما سلوفا) مغايراً لتعاليمه كما يبدو لأول وهله . غير أن ذلك لم يكن الا ظاهرياً ، لأنه كان يقول أنه يحبها كأخت . وأن هذا الحب أبعد عن أن يكون عتبة تعوقه عن غرضه في الحياة وهو أن يكون محسناً للإنسانية ، وأنه سيكون له بمثابة نقطة ارتكاز وعون .

ولم يكتف باخضاع سائر قضايا النظرية لاحكام عقله وإنما تعداها لقضايا العملية .

كانت له نظريات خاصة في شتى تفاصيل الحياة يسير بمقتضاها . فقد كان له آراؤه حول اوقات العمل واوقات الاستراحة ، وحول نظام التغذية ، وشكل اللباس ،

وأفضل طريقة للآثارة ، وكذلك طريقة التدفئة . الخ ...
ومع ذلك فقد كان (سيمونسون) حياً جداً . فلم يحاول قط الظهور ، وإبراز
مؤهلاته ، وفرضها على الغير . ولكنه عندما يقرر امرأاً فليس على وجه الأرض من
يستطيع منعه عنه .

هذا هو الرجل الذي هام حباً (ماسلوا) .
وكانت هذه قد أدركت بغريزتها النسائية ما أحدثته في نفسه من انطباعات .
فرفع من شأنها عند نفسها ادراكها انها أثارت الحب في نفس رجل « غير عادي »
(سيمونسون) .

وعندما عرض عليها الأمير الزواج منه أدركت عندئذ انه يفعل ذلك لسمو
روحه ، وليكفر عن زلته القديمة ، بينما يحبها (سيمونسون) بوضعها الحالي ، ولانه
هكذا ، ولانه يحبها .

كانت تحسب ان (سيمونسون) عندما احبها كان يرى فيها امرأة تختلف عن
سواها من النساء ، وان لها مميزات خلقية ليست لغيرها . ولكن ترى ما هي تلك
الصفات . انها لم تستطع تبينها . ولذا فهي بغية إيجاد مبرر لرأيه السامي فيها ، اخذت
تجهد نفسها في اغناء اطيب الشعور الذي هي خليفة بتصوره . وهكذا ، فانها بتأثير
من (سيمونسون) اصبحت تحاول ادراك ما تقوى عليه طبيعتها من كمال .

ولكن هذا كان قد بدأ منذ مدة طويلة . كانت (ماسلوا) تلاحظ النظرات
الملحة التي يرمقها بها ذلك السجين ذو العينين الزرقاوين الذي يرتدي سترة من المطاط ،
عندما كانوا يقفون في فناء دار السجن . ومنذ ذلك الحين بدأت تشعر ان الرجل قد
يكون غريب الاطوار .

وكانت قد لاحظت التناقض الصارخ المتجلي في وجهه . بين قسوة جبينه ، وبين
عذوبة الطفولة التي كانت تقرأ في عينيه .
وعادت بعد مدة ، عندما انضمت في (طومسك) الى جماعة المجرمين السياسيين ،
للقاء مع محبها الغريب الاطوار .

وجمعت بينها النظرات لمبادلة بصدقة خاصة ، دون ان يكونا قد تبادلوا كلمة واحدة . وهكذا ، وعلى الرغم من انه لم يكن قد تم بينهما لقاء على انفراد ، فقد ادركت (ماسلوا) ان (سيمونسون) ، عندما كان يتحدث بحضورها ، كان يوجه كلماته اليها ولأجلها كان يجتهد في ان يتكلم بهدوء وبأجلى ما يستطيعه من وضوح . كانت تصغي اليه بسرور ، وكان لا يمل من الكلام لأجلها ، وخصوصا عندما كانوا يجتازون المسافات الطويلة سيرا على الاقدام في اعقاب المجرمين العاديين .

٣٥

خلال المسافة الطويلة التي قطعتها القافلة منذ تركت (بيرم) لم يتمكن الأمير من مواجهة (كاترين) سوى مرتين كانت احدها في قاعة الزيارات ومن وراء القضبان الحديدية في (نيجني نوفجورود) . والثانية في (بيرم) من وراء القضبان الحديدية ايضا . وكانت في كلتا المرات صموتة فاترة . وعندما كان يألها عما تحتاج اليه كانت تبييه بلهجة جافة غامضة ، تذكره بالرغبة السيئة التي استقبلته بها المرة الاولى في السجن . لقد غمغمه كثيرا ذلك الموقف المعادي الذي وقفته منه ، لأنه كان يحجل ان من اسبابه ، خاصة ، غيظها من الحاق الرجال على مطارقتها . لقد كانت تخشى ان تعود من جديد تحت تأثير ماضي وضعها اللا اخلاقي الى سابق انهيارها المعنوي وكرها لنفسها وللعالم اجمع . لقد خشيت ان تستعيد ماضي كراهيتها له ولذا كانت تلجأ الى الخمر والتدخين .

ولكنه كان من المستحيل عليه انقاذها مما هي فيه ، لأن رؤساء الحرس قد وقفوا موقف المعارض من اتصالها به ولكنه عندما توصل اخيرا لألحاقها بالمساجين السياسيين ادرك بطلان مخاوفه .

كانت (كاترين) منذ مواجهة الأولى لها في (طومسك) لا تزال على مثل الحالة النفسية التي وجدها عليها لدى زيارته الأخيرة لها في السجن . فقد كانت

تستقبله بسرور صادق ، وتجزل الشكر له على ما اداه لها من خدمات وما زال يؤديه ، بدلا من الموقف الساخر الحائر الذي كانت تقفه منه ، والاستياء الذي كان يبدو عليها عند رؤيتها له من قبل .

كذلك لاحظ (نيكليندوف) ان التغير الذي طرأ عليها قد اخذت تبدو آثاره على مظهرها الخارجي .

كانت مسيرة الشربين قد قضت على بدانتها فاصبحت رشيقة القوام نحاسية البشرة ، وظهرت التجمعات في جبينها وعلى فمها ، واختفى كل اثر لماضي تهتكها . كتيابها وتصفيف شعرها وحر كانتها .

وكان هذا التحول مدعاة لسرور عميق في نفس (نيكليندوف) واصبح يحمل نحوها شعورا جديدا .

لم يكن شعوره هذا شيئا لشعوره الأول المتحمس الفتى ، ولا لتلك الشهوة العارمة التي استبدت به بعد ذلك ، ولا للشعور النبيل والأثافي في آن واحد الذي طغى عليه عندما رأى (كاترين) فقرر التكفير عن زلته بزواجه منها . لقد كان شعوره الان مزيجا من رحمة رحنان احبه مرارا في السجن مع فاروق بسيط . وهو انه كان يشعر به من قبل على فترات اما الان فانه يلزمه بصورة مستمرة دائمة .

لتفعل (كاترين) ما تريد ، وتفكر بما تريد التفكير به فان قلبه لن ينفك عامرا بالرحمة والحنان عليها .

لقد فجر هذا الشعور الجديد في نفس (نيكليندوف) لما فعل حبه الاول من قبل ، ينابيع الرحمة والحنان التي زودته بها الطبيعة والتي ظلت مغلقة اعواما عديدة .

كان الأمير ، منذ بدأ تتبعه لقافلة المساجين ، يعيش في دوامة احساس مشوب بمحله احيانا على الاهتمام باحساس الغير ومشاعرهم ابتداء من الحوذي وحرس القافلة حتى مدراء السجن والسجانين .

لقد افاح نفل (ماسلونا) الى فرع المجرمين السياسيين، فرحة سانحة (نيكليندوف) للاتصال بالكثير من اولئك المجرمين الذين كانوا يؤلفون المجموعة التي لحقت بها (كاترين) وخصوصا خمسة رجال منهم واربع نساء . وعلى ضوء هذه الاتصالات اجري الأمير تعديلا على ما كان قد كونه لنفسه من رأي عنهم وعن الحزب الثوري الروسي بكامله .

كان (نيكليندوف) يكره القائمين بالحركة الثورية في روسيا في بداية امرها ، وكان يشتمز من العنف والوسائل الخفية التي يستعملونها في صراعهم مع السلطات ، والدس والاعتداءات الاجرامية التي كانوا يقومون بها . كذلك كان يحقر مظاهر الغرور المسيطر على الكثير منهم . ولكن بعد ان عرفهم عن كتب ، واطلع على ما كانوا يلاقونه من ظلم من السلطات ، ادرك ان اولئك لم يكن بإمكانهم ان يكونوا غير ما كانوا .

ان الآلام التي يلاقها من اصطلاح على تسميتهم بالمجرمين العاديين قبل الحكم وبعده ، كائنا ما كان نوعها هي على الاقل ذات مظهر شرعي . ولكن بالنسبة للمجرمين السياسيين فان هذا المظهر مفقود . وكان (نيكليندوف) قد رأى ذلك في بطرسبرج في مغارة (كيوستوفا) . اما الآن فانه يتبينه بصورة أجلى فيما يقصه عليه رفاق (كاترين) . لقد رأى ان ثمة تشابها بين الطريقة التي يعامل بها اولئك التعساء وبين ما يفعله صيادو الاسماك الذين يطرحون صيدهم على رمال الشاطئ ثم يعمدون الى كبرى السمكات فيأخذونها ثم يتركون صغارها ملقاة على الرمال .

هكذا كانت اجراءاتهم في تصيد الثوريين ، اذ كانوا يوقفون الناس بالملئات ، وبدون تمييز ، حتى ولو كان بينهم ابرياء ، فيسجنونهم شهورا او اعواما الى ان يمرضوا ، ويمجنوا ، او ينتحروا . يحتفظون بهم في السجون لعدم الاسباب الموجهة لاخلاء السيل ، او لموافقة بقائهم تحت تصرف السلطات لتفادي ملاحقتهم من جديد او ليكونوا شهودا . كان مصير هؤلاء منوطا بنزوات ومزاج مدير شرطة ، او مدعي عام ، او قاضي تحقيق ، او حاكم ، او وزرائه .

واذا عن لأحد الموظفين ان « يبرز » يعمد الى اعتقال كافة الشبان الذين يشبه
باشغالهم بالسياسة واما اذا اراد العيش بهدوء واطمئنان فلا يعتقل احد .

على مزاج الحاكم او الوزير يتوقف مستقبل هؤلاء الموقوفين فبعضهم ينفى الى
اقاصي الارض والبعض الآخر يوضع في الرزانات لذات الجرم . وللجرم نفسه يحكم
على اخرين بالاشغال الشاقة ، بينما يحكم على غيرهم بالاعدام والجرم واحد . وكثيرون
هم الذين يظنون احرارا لأن سيدة انيقة توسطت لهم .

هؤلاء التعساء يعاملون كما يعامل الاعداء ابان الحروب . وهم بدورهم يعاملون
السلطات كذلك .

وكما يقوم الضباط والجنود في ساحات القتال باقتواف اعمال هي في ايام السلم
جرائم لا شك فيها ، كذلك فان اعمال العنف التي يقوم بها الثوريون في صراعهم مع
السلطات تعتبر في نظر سلطاتهم نيلة واخلاقية ، ذلك لانهم يأتونها على حساب
حريتهم وحياتهم ، وكل ما هو غمين عند غيرهم من الناس .

هكذا كان الأمير يفسر الامور لنفسه اذ يرى كثيرا من لا يقوون على تحمل
منظر الالم ينساقون بكل هدوء واطمئنان لاقتواف اعمال العنف والقتل ، ويوافقون
على هذه الجرائم على اعتبارها وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس ، او اداة صالحة
لادراك مثل اعلى لاسعاد الانسانية .

والتقدير الرفيع الذي ينظر به الثوريون لانفسهم ولاعمالهم منشأ دون شك
الاهمية التي يوليها لهم اعداؤهم ، والشدة والعنف اللذين يلاحقونهم بها .

وعندما اتفق للامير ان اتصل بهم ووقف على حقيقة امرهم تبين له جليا انهم لم
يكونوا جناة خطرين كما يصورهم البعض ، ولا ابطالا كاملين ؛ كما يراهم اخرون
ولكنهم رجال عاديون بعضهم صالح والبعض الاخر طالح ، والاكثرية بينهم عادية .
منهم من اعتنق مبادئ الثورة مخلصا لأعتقاده بوجود مقاومة الشر ، ومنهم من

انتحل الثورية بدافع الانانية او الطموح او للباهاء . ولكن اكثرهم انضم اليها بدافع يعرفه (نيكليندوف) جيدا لانه انجرف معه ابان الحرب مع الإنتراك . واعني به الدافع الذي يحمل الشباب على نشدان الخطر ، وحب المغامرة تخلصا من الحياة الرتيبة .

واكتشف (نيكليندوف) بين بعض المجرمين السياسيين وبين غيرهم من الناس فارقا رئيسيا وهو ان الالتزامات المعنوية عندهم اسمى منها عند غيرهم من الناس العاديين .

والواقع ان المجرمين السياسيين كانوا يرون ان الواجب ليس مجرد احتمال للتعب والحرمان ، ولا مجرد صراحة وتجرد فحسب ، وانما تضحية بالامتلاكات ، وحتى بالروح في سبيل المجموعة البشرية .

ومن هنا ، وبسبب اولئك الذين هم اسمى من مستوى الثوريين العام ظهر النقص واضحا جليا ، لما بين ذكاته والمثل العليا التي يتطلعون اليها من تناقض . وهكذا اصبح (نيكليندوف) يحمل لبعض المجرمين السياسيين الذين يرافقون (كاترين) تقديرا ، بينما كان لا يحمل لغيرهم سوى اللامبالاة والازدراء .

٣٦

كان (كريلتزوف) المبعد السياسي الشاب المصاب بالثدور الرئوي الذي يرافق المجموعة التي منها (كاترين) - المفضل من الامير الذي تعرف عليه في مدينة (ايكاترينبرج) . وكثيرا ما كان يتحدث اليه منذ ذلك الوقت . وفي احدى المرات قضى معظم النهار معه ، خلال فترة استراحة القافلة . فقص عليه (كريلتزوف) تاريخ حياته .

كانت قصة حياته قصيرة ، على الأقل حتى تاريخ توقيفه : كان وهو طفل ، قد فقد والده الملاك الثري بالقرب من (كييف) . فربته امه التي كان وحيدها وعلمته ، وكان

في المدرسة والجامعة على السواء ، متفوقاً ومجلياً في شتى المجالات . واصبح وهو في العشرين من عمره في القمة بين الرياضيين . فنصح له اساتذته ان يذهب الى الخارج للدراسة ليصبح استاذاً في الجامعة . ولكنه كان متردداً لأنه احب فتاة وكان ينوي الزواج منها والعيش بين اعملاكه . وفي احد الايام طلب اليه رفاقه في الجامعة التبرع ببعض المال « للخير العام » . كان يعلم ان هذا « الخير العام » نوري . وماذا يعنيه منه ؟ ومع ذلك فقد تبرع له ببعض المال اكراماً لرفاقه ، وانفقة من ان ينسب اليه الخوف . فضبط المال ، وعثر على قيود تثبت ان (كريلتزوف) هو المتبرع به ، فاعتقل وسجن .

كان يقص كل هذا على (نيكليندوف) وهو جالس في سريره وعلى ركبته عباءة محدقاً في الفضاء بعينه السوداوين الحادتين .

— لم يكن قاسياً نظام السجن الذي اعتقلت فيه ، فقد كنا لا نغيب عن تبادل الاشارات ، وان تحدث مع بعضنا في الممشى ، وان نقاسم المأكل والتبغ ، وان نجتمع ليلاً وان نغني . وكان جوفي جميلاً . وكنت اجد لذة في الغناء مع المجموعة . ولولا ما كانت تلاقيه أمي من غم وحسرة لحسبت نفسي سعيداً . وتعرفت على بعض اشخاص من ذوي الأهمية ، اخص بالذكر منهم (بتروف) الشهير الذي ذبح نفسه فيما بعد بقطعة من زجاج . ولكنني لم أكن ثورياً ، كما لم أكن على استعداد لأن اكونه .

وعندما جيء بي الى السجن كان بجواري شابان كانا قد أبعدا الى سيبيريا لتوزيعهما منشورات بولونية . وفي الطريق حاولا الفرار ، وكان احدهما البولوني (لوزينسكي) والآخر من اصل يهودي ويدعى (روزمبرج) . كانت هذا يكاد يكون طفلاً وبالرغم من ادعائه انه في السابعة عشرة من عمره فقد كان واضحاً أنه لم يتجاوز الخامسة عشرة . كان قصير القامة ، نحيف الجسم ، تنقد عيناه السوداوان كالجمر ، قلقاً ثوراً ، وكسائر اليهود طيباً بارعاً . كان صوته ، الذي لم يكن قد تطور بعد ، جميلاً يلذ الأصغاء اليه .

وفور وصولها الى السجن اخرجها للمحاكمة. وفي المساء ابلغا الحكم عليها بالاعدام. لم يكن هذا متوقعا ، لأنها على رغم ما ابديا من مقاومة عند القبض عليها ، فانها لم يجرحا احداً . هذا فضلا عن انه كان من المستحيل التصور ان مراهقا « كروزميرج » سيحكم عليه بهذا الحكم القاسي . ولذا حسبنا ، نحن المساجين ، ان ذلك الحكم كان ارهابا لا غير ، وانه لن ينفذ . وهذا الأحساس الذي اثاره ذلك الحادث وعدنا لسابق حياتنا .

وذات ليلة ، أخبرني السجناء سرا ان العمال يعدون المنصة . فلم افهم بادىء الأمر ما يعنيه . المنصة ؟ وأي منصة ؟ ولما كان الانفعال ظاهرا جليا على السجناء ، فقد ادركت ما يعني . فأحببت ان انذر رفاقي ايماء ، ولكفي خشيت ان يلحظ جاراي ذلك مني . وكان نعيم على الممرات والزنايات سكون الاموات ، فظننت ان رفاقي لا بد ان يكونوا قد اصبحوا مطلعين على ما سيحدث . ولم يعن لأحد منا أن يتحدث أو يغني تلك الليلة .

وفي الساعة العاشرة أخبرني السجناء العجوز ان الجلاد آت من موسكو . فناديته لاستزيده ايضا ، واذا بي اسمع « روزميرج » يألني من زنوانته قائلا :
— ماذا جرى لماذا تدعوني ؟

فأجبت انني بحاجة للتبغ ، ويبدو ان « روزميرج » قد اخذته الريبة لأنه بادر بسؤالي وهو مضطرب لماذا لم تغن تلك الليلة ولم تتحدث . ولست ادري باذا أجبت ، ولكنني اعلم انني تناومت كي اضع حدا للحديث .

لم اطق النوم طوال تلك الليلة التي كانت موعبة بالنسبة لي . سوف لا أنسى هولها قط ما حيت . لقد لبثت في فراشي بلا حراك متسقطا اقل تأمة ، مرتعدا كما لو كنت انا الذي سيعدم . وعند الصباح سمعت صوت باب الممشى يفتح ، ووقفت ارقب من الكوة الصغيرة . كان النور ضعيفا في الممشى فرأيت مدير السجن يمر من امامي ، وكان بدينا ، راضي النفس على الدوام ، شامخ الرأس . ولكنه كان ذلك اليوم شاحب اللون كالحا ويمشي وهو مطرق بنظره الى الارض . جاء ومن ورائه

ضابط شرطة ودركيان . مر هؤلاء الاربعة من امام زنراتي ثم وقفوا على مقربة منها فسمعت ضابط الشرطة يقول : « انهض يا (لوزنسي) وألبس قميصاً أبيض » . ثم ران صمت عميق ، سمعت بعده صوت باب يفتح ووقع أقدام البولوي وهو يخرج من سجنه . لم أكن أستطيع أن أرى من الكوة غير المدير الذي كان صاحب اللون ، مهدماً ، يقتل شاريه دون أن يرفع رأسه . وفجأة رأيت يتراجع إلى الوراء كالمدعور ، إذ كان (لوزنسي) قد مر من أمامه ليقرب من زنراتي .

كان (لوزنسي) شاباً جميل الصورة ، وغودجاً للفتى البولوي . جبهة عريضة مستقيمة ، وشعر أشقر ناعم يطل من تحت طاقته وعينان زرقاوان رائعتان كعيني الطفل ، وصحة ممثلة حيوية ، وزهرة إنسانية حقيقية . كان قد وقف أمام الباب بشكل كنت أستطيع أن أرى وجهه جيداً . لقد كان انشد كالحال الوجه مربعاً وباسماً في نفس الوقت ، فقال : « هل لديك لفافة تبغ يا (كريلتروف) ؟ » فهمت بأن أقدم له ما طلب ، وإذ بالمدير يسرع بتقديم حافظته له . فتناول (لوزنسي) لفافة أشعلها له الضابط ، وراح يدخن وهو يفكر . وفجأة رفع رأسه كمن تذكر أمراً وقال : « انه تظلم ، فأنا لم أفعل شيئاً . أنا ... » وارتعش عنقه الأبيض الذي لم أقو على أن أرفع نظري عنه ، ثم سقط على الأرض .

وهنا سمعت (روزميرج) يصرخ بصوت اليهودي المرتعش فطرح (لوزنسي) لفافة التبغ ثم ابتعد عن الباب ، وهنا تقدم (روزميرج) منه ، كان وجهه ، وجه الطفل ، بعينه الصغيرتين السوداوين ، محتقناً ويتصب عرقاً ، كان يلبس قميصاً أبيض أيضاً ، وكانت سراويله طويلة جداً ، وكان لا ينفك يرفعها باستمرار إلى ما فوق وسطه ، وكان جسمه يرتعش ، فأطل من الكوة وقال : « صحيح أنت الطبيب أشار أن أشرب نقيع الأعشاب يا (اتاتولبو بيتروفيتش) ؟ أنا مريض وأريد أن أشرب هذا النقيع » ، فلم يجبه أحد ، وكان يرسل نظرات استرحام ينقلها بيني وبين المدير ، ولم أعلم قط ماذا كان يعني بكلمة منقوع الأعشاب .

وعاد الضابط إلى الصباح ، فقال بلهجة قاسية : « هيه ، كفى مزاحاً ، إلى

الامام ، ، ولكن (روزميرج) لم يكن بحيث يستطيع أن يفهم مه ، إذ راح يركض في المشى أولاً ، ثم وقف وسمعت توسلاته الممزوجة بشهيق البكاء ، ثم بدأ الشهيق يخفت رويداً رويداً ، وأغلق باب المشى ولم أعد أسمع سوى صراخ ذلك المنكود الحظ (روزميرج) يرتفع من حين لآخر .

لقد أعدما شقاً ، وقص علي سجان حضر المشهد ان (لوزنسكي) ظل هادئاً ، ولكن (روزميرج) قاوم كثيراً كثيراً وطويلاً ، مما اضطرهم لأن يرفعه إلى المنصة بالقوة ، وان يدخلوا رأسه ضمن حلقة الحبل . كان ذلك السجان قزماً غودجياً بلد إحساسه الحمر . « لقد أكدوا لي انه شيء رهيب . ولكني لم أره كذلك . حالما وضع رأسه داخل حلقة الحبل اهتزت أكتافه مرتين . فشد الجلاذ العقدة على عنقه ، فأنتهى كل شيء . أو كد لك انه ليس رهيباً كما قيل لي . »

وعندما انتهى (كريلتزوف) من روايته هذه ، اعتراه الوجوم ، ورأى (نيكليندوف) ان يديه ترتعشان ، وانه يحاول حبس عبراته .

— منذ ذلك الوقت أصبحت ثورياً . — أضاف يقول عندما هدأت اعصابه .
وأكمل بقية تاريخ حياته .

كان قد انضم إلى حزب الشيعين فترأس فرقة من الإرهابيين كي تتنازل الحكومة عن السلطة تحت ضغط الخوف فتسلمها للشعب . وسافر باسم فرقته إلى بطرسبرج ، وإلى خارج البلاد ، وعاد إلى (كييف) ثم إلى (أوروبا) دون ان يتعرض له أحد بسوء . ولكن رجلاً كان قد وضع ثقته به أبلغ عنه ، فاعتقل وسجن سنتين حكم عليه بعدها بالاعدام ثم استبدل هذا الحكم بالأشغال الشاقة المؤبدة . وفي السجن أصابه المرض ، وهو الآن بسبب حالته الحاضرة ، يعلم ان ايام حياته معدودات ، ولكنه لا يتألم لذلك ، ويقول (نيكليندوف) انه لو اعطيت له حياة جديدة اذن لقضاها في العمل على الاطاحة بأوضاع تقرأ مثال ذلك الظلم والقسوة .

وهكذا كشفت قصة ذلك الفتى المنكود الحظ ، وسائر كيانه عن أشياء كثيرة لم يكن (نيكليندوف) قد أدركها حتى ذلك الوقت .

استيقظ الأمير (نيكليندوف) ، الذي كان يبات في الفندق ، صبيحة اليوم الذي تشاجر فيه الضابط والسجين في فناء دار السجن متأخراً عن ميعاده ، فكتب عدة رسائل كان لا بد من كتابتها وهكذا الحق بالقافلة متأخراً كثيراً . وعند المساء بلغ قرية كانت إحدى مراحل استراحة القافلة ، فأوى إلى الفندق حيث غير ثيابه الداخلية والخارجية التي كان الضباب قد بللها ، ثم جلس في القاعة الكبيرة النظيفة الجميلة الأثاث والتي تعلق على جدرانها صور القديسين ، والعائلة المالكة الأمباطورية . وبعد ان تناول عدة كؤوس من الشاي ، محتملاً أثرثرة صاحبة الفندق ، تمياً للخروج كي يستحصل من الضابط على إذن بالتحدث مع (كاترين) .

كان هذا الطلب قد رفض خلال الأيام الأخيرة ، الا انه استطاع ان يتحدث قليلاً إليها وإلى رفاقها في الطريق ، ولكنهم رفضوا السماح له بالدخول إلى غرف المسجونين ، بحجة أنهم يتوقعون زيارة موظف كبير يرافقه مفتش السجون . وأخيراً جاء المفتش ، وبأصح تعبير مر مسرعاً دون ان يتوقف ، وهكذا أصبح أمل (نيكليندوف) كبيراً في ان يسمح له الضابط الذي تولى القيادة من جديد بالتحدث الى المساجين كأسلافه .

وعرضت صاحبة الفندق على الأمير ان تحمله في عربتها الى القافلة التي كانت في الطرف الثاني من القرية ، غير انه اعتذر مفضلاً الذهاب ماشياً على الأقدام . فتقدم أحد خدم الفندق ، وكان عريض الأكتاف ، يجتدي حذاء طويلاً مدهوناً بالقطران حديثاً ، وعرض نفسه لمرافقته . كان الضباب من الكثافة بحيث أن (نيكليندوف) لم يكن يرى رفيقه الذي كان يمشي امامه على بعد خطوات ، إنما كان يسمع خبط حذائه الكبير عندما يغوص او يرفعه من الوحل الكثيف ، وعندما اجتاز شارع القرية الطويل ، حيث كان يشاهد بصيص بعض الأنوار عبر بعض النوافذ ، اشتد الظلام حلكاً ، ولكنه لم يلبث ان رأى المصاييح المضاءة على باب السجن كنقطة حمراء ، ثم أخذت تزداد حجماً ووضوحاً الى ان اتضحت تماماً وتبين الأمير غرفة الحفير

وشبهه الغامض واقفاً بجانب الباب شاهراً سلاحه . فصاح الحفيظ بكلمته التقليدية في الظلام الدامس قائلاً : « من يعيش ؟ » . ولما تبين ان القادمين ليسا من القافلة ، صاح فيها انه ليس بإمكان أحد الدخول الى هنا ، حتى ولا الوقوف قريباً من المكان . غير ان الدليل الذي كان يرافق الأمير لم ترهبه تلك الفظاظة فأجابه :

— ايه لك يا رجل . تبدو كالعفاريت ! أبلغ رئيسك أننا ننتظره هنا .

فالتفت الجندي الى ناحية الباب ومضى لينادي احد رفاقه ، ثم عاد الى حيث كان فرأى الخادم كيف كان ينظف حذاء الأمير من الوحل بقبضة من الورق ، وكان يسمع عبر الجدران ضجيج متشابك من ضحك وحديث .

وفتحت كوة صغيرة في الباب بعد انتظار قليل ، فرأى (نيكليندوف) عريفاً عجوزاً يبدو من خلال الضباب مرتدياً برتقه الرسمية تنعكس عليه أنوار المصابيح فبدأ جسمه كاملاً . فسألها ماذا يريدان منه ، فقدم له الأمير بطاقته التي كان يحملها بيده ورجاه ان يبلغ رئيس القافلة أنه يرغب التحدث اليه بقضية شخصية .

كان العريف أقل قسوة من مرؤوسه ، ولكنه كان فضولياً فأحب ان يعلم لماذا يريد (نيكليندوف) ان يرى الضابط ، ومن أين أت ، ومن هو ؟ كان دون شك ينتظر مكافأة ، لأنه أبى ان ينقل البطاقة للضابط الا بعد ان وعده الأمير بها إذا استحصل له على إذن بمواجهته . فطأ رأسه وعاد مسرعاً . وبينما كان الأمير ودليله ينتظران أمام الباب . فتح هذا ليخرج منه جمهور من النساء يحملن سلالاً وأكياساً وأباريق وزجاجات . كن يتحدثن مع بعضهن ويسرعن في الكلام بلهجتهم السيرية الغامضة . وكن يرتدين معاطف قصيرة تجعلهن أقرب الى بنات المدينة منهن الى بنات القرية . وكن قد شمن ثيابهن حتى كانت سيقانهن تبدو حتى الركب . فأقبلن يتفحصن الأمير ودليله على ضوء المصابيح . ودفع السرور إحداهن عندما عرفت خدام الفندق لتغدق عليه سيلاً من الشاتم بسرعة ، ممازحة على الطريقة السيرية :

— أهذا انت يا خنزير ؟ لماذا جئت أيها الحيوان الخبيث ؟

- جئت أرافق غريباً - أجاب الفتى - وأنت ما تحملين ؟
 - جئت احمل جيناً ، وقيل لي تعالي غداً .
 - او لم يطلب اليك ان تنامي ! قال الفتى يسأل بجئت .
 - عد معنا الى القرية .
 فقال الفتى كلمة أضحكت الجميع حتى الحفير الجاف . ثم التفت الى الامير وقال له :
 - هل تعرف طريق العودة .
 - اجل ، اجل فاذهب بسلام .
 - عندما تبلغ الكنيسة . الباب الثالث على اليمين بعد البيت الكبير ذي الطابقين
 هناك الفندق . خذ عصاي فقد نحتاج اليها . ثم اعطاه عصاً طويلة رفيعة كان يحملها
 بيده ثم توارى وراء الضباب مع النسوة متخبطاً بالوحل بجذائه الضخم .
 وعندما عاد العريف العجوز ليبلغ الامير موافقة الضابط على مقابله له . كان لا
 يزال ضحك النسوة ولغطنه يبلغ سمعه .

- ٣٨ -

دخل الامير الى بناية تكاد تكون كغيرها من البنايات المبنية في المحطات على
 الطريق الى سيبريا . كانت مؤلفة من ثلاثة أبنية اقيمت على منبسط من الارض ،
 يحيطها سور عال . وكان المساجين يقيمون في اكبرها التي كانت نوافذها محاطة
 بقضبان حديدية . وينزل الحرس في الثانية ، بينما كانت الثالثة مخصصة للضابط
 والكتبة . وكان ينبعث منها عبر زجاج النوافذ نور يشع كالامل بالاطمئنان والسرور
 والراحة ، الحداد دائماً ولا سيما في مثل هذه الحالة . ويعلق بجانب باب كل بناية
 مصباح ينشر فيما حوله نوراً باهتاً يبلغ السور حيث كان يعلق خمسة مصابيح اخرى .
 وقاد العريف (نيكليندوف) الى البناية الصغرى . وبعد ان صعد معه ثلاث
 درجات أفسح له المجال ، فدخل الامير الى ردهة صغيرة ينورها مصباح وتفرح فيها
 رائحة الفحم الحانقة . وكان في احدى زواياها جندي لا يرتدي سوى القميص

وسروا الاسود منهمكاً بإعداد (الساموفار) . ولما رأى الامير اسرع ليأخذ معطفه ثم هرع الى الفرقة التالية وقال :

— لقد حضر يا سيد .

— فليدخل . — أجابه صوت تدل نبواته على مزاج سيء .

— تفضل ادخل يا سيد . — قال له ثم انشغل (بالساموفار) .

فتقدم الامير . كان ينير الغرفة مصباح معلق في سقفها وكان في وسطها طاولة عليها بقايا طعام وزجاجتان فارغتان . وكان يجلس وراء الطاولة ضابط ذو شارين أشقرين كبيرين ووجه محمر ، ويلبس سترة غسائية ذات نطاق تبرز عرض العجيزة والاكتاف . وتفوح في جو الغرفة الثقيل رائحة كريهة بمرتجة برائحة دخان التبغ .

.. أي خدمة أستطيع ان أسديا لك ؟ قال الضابط يسأل (نيكليندوف) عندما دخل عليه وقد حدجه بنظرة تتلاقى فيها السخرية بالريرة . وبدون ان ينتظر الجواب صاح وقد اتجه نحو الباب :

— يا (بيرنوف) هل تريد ان تحضر هذا (الساموفار) اللعين ام لا .

— حالاً . حالاً .

— انتظر قليلا كي اعطيكه انا . — صاح الضابط غاضباً وقد اتقدت عيناه .

— ها قد جئت به . — اجاب الجندي ثم دخل يحمل الساموفار .

فوضعه على الطاولة . وكان الضابط اثناء ذلك يتتبع حركاته بنظرات شر ، كأنه يفقش عن أفضل مكان ليصفعه عليه . ثم جاء بوعاء مربع الشكل مليء بالكونياك والبسكوت ، والتفت الى (نيكليندوف) الذي كان لا يزال واقفاً امامه فكرر سؤاله :

— بلذا أستطيع ان اخدمك ؟

— كنت ارجب في التحدث مع احدي السجينات .

— أي سجينة سياسية ؟ .. النظام يمنع ذلك .

— كلا . ليست سجينة سياسية : — اجاب الأمير .

— تفضل اجلس . — قال الضابط .

— انها ليست سجينه سياسيه . وانما بفضل توسطي لها سمح بسفرها مع المحرمين السياسيين . — قال (نيكليندوف) متابعاً كلامه وهو يجلس .

— آه . لقد عرفتُها ، لقد عرفتُها . هي امرأة صغيرة الجسم سمراء اللون .. لم لا اجل تستطيع ان تراها .. اتدخن .

قال ذلك وهو يقدم الى الامير علبه اللقائف . ثم ملاً كأسين من الشاي قدم احدهما للامير قائلاً له :

— تفضل .

— اشكرك . ارجو ان تسمح لي بأن أرى . .

— الليل طويل ، وسيكون لديك متسع من الوقت لكل شيء . سأعمل على أن تأتي .

— لا حاجة لذلك . سأذهب انا الى عندها . .

— لعند المحرمين السياسيين .. النظام يحظر ذلك ..

— لست افهم . ما دام غيرك من الضباط السابقين قد سمحوا لي بذلك . أفتخشى ان احمل لهم شيئاً . في مثل هذه الحالة سيكون باستطاعتي ان ابعث لهم به مع هذه المرأة .

— هذا غير ممكن ، فبتحريتنا لها تنفادى ذلك ، قال الضابط وقد لمز لمزة استخفاف .

— اذن تفضل بإصدار الأمر بأن يتحروني .

— كلا . كلا . ما لهذا اقصد . — اجاب الضابط ، ثم قدم الوعاء المربع قائلاً :

أتريد . . لا . كما ترغب .. كن على ثقة من ان المرء عندما يكون مرغماً على قضاء الحياة في سبيها هذه فانه لمن دواعي سروره التقاؤه بشخص مثقف يتحدث اليه .

هكذا تقضي التزامات العمل . ولكن ناكدا انه عمل مؤلم ، ولا سيما عندما يكون الانسان معتاداً على اشياء أخرى ، فعندئذ يكون شديد الازعاج . . أنا اعلم بأي عين ينظر اليها الناس . ان اي ضابط يكلف بمرافقة المساجين هو دائماً بنظر الناس ، جاهل

قاس ووضيع ، وليس من يؤمن بأنه خلق لغير هذا النمط من الحياة .

طوال المدة التي كان الضابط يتكلم فيها ، كانت عين الامير لا تفارقه لحظة واحدة كان وجهه المحقق الغامض ، وذلك الخاتم الذي في اصبه ، وتلك الرائحة الكريهة ، وعلى الاخص تلك الابتسامة المستخفة الحبيثة تحدث غيائناً في نفسه . ولكنه كان آثد ، وطوال مدة الرحلة ، في وضع لا يسمح له بازدياد كائن من كان ، ويرغمه على وضع ثقته بسائر الناس على حد تعبيره . كان الامير قد ادرك حالة الضابط النفسية من خلال حديثه الذي كان يصغي اليه . فقال جاداً :

— اعتقد انكم وانتم قمارسون عملكم هذا تستطيعون الحصول على غراء شهى بتخفيف الآم اولائك التعساء الذين وضعوا تحت حراستكم .

— اي آلام ؟ يا لهم من معشر .. كلهم من فصيلة ..

— لا تحدثنى عن فصيلة بعينها . — اجاب (نيكليندوف) — انهم لا يختلفون

عن غيرهم من بقية الناس ، وقد يكون بينهم من هم ابرياء .

— لاشك في ان بينهم من جميع الانواع . ولا ريب في ان مصيرهم يثير الشفقة . من الضباط من يطبقون الاوامر بحذافيرها ، اما انا فاحاول ما استطعت تخفيف ويلاتهم ، افضل ان اتألم انا ، يوجد من يحتمي بالنظام ، اما انا فأتحمل اشياء كثيرة .. اترغب . — قال له وقد ادنى منه كأساً جديداً من الشاي . — وهذه المرأة التي ترغب في مواجهتها ..

— انها سيئة الحظ . لقد حكم عليها مجرم لم تفكر قط حتى في اقترافه .

فهز الضابط رأسه وقال :

— في الواقع ان مثل هذا قد يحدث احياناً .. اذكر انني في (كازان) عرفت امرأة .. كانت تدعى (اما) .. كانت مجرمة المولد وكان لها عيانان .. عينا فارسية . وهنا لم يطلق الضابط اخفاء بسمه لرياح . يا لها من انيقة ! وبا لتصرفاتها ! . ان من يراها يحسبها كوتيس .

ولكن الامير قاطعة ليعود الى سابق دفاعه .

- كنت اقول انني اعتقد ان بإمكانهم التخفيف عن اولئك المساكين ، على الاقل خلال مدة بقائهم تحت رعايتكم . وانا واثق من انكم متى قمتم بذلك فانكم ستشعرون بسرور لا يوصف .

كان (نيكليندوف) يلفظ كلماته بتؤدة ، مشدداً على مقاطعها ، كما يتحدث الانسان الى الغرباء . وكان الضابط ينظر الى الامير بقارغ الصبر لانه كان دون شك ، يرغب في ان يفرغ محذته من الكلام ليعود الى قصة المجرية الحسناء ذات العينين السوداوين الفارسيتين التي عاوده خيالها من جديد أثر تذكرها فاسترعى سائر حواسه .

- هكذا هو . قال عند اول توقف للامير عن الكلام - كذلك انا اسفك عليهم . ولكن لنعد الى (اما) هذه التي كنت احدثك عنها ، انت لا تستطيع تصور ما كانت تقوم به ..

- لا يهمني . - اجاب (نيكليندوف) : انا اقول ما اشعر به . لقد كنت كذلك في زمن مضى ، اما الآن فان اقايصص علاقات الرجال بالنساء تزعجني .

فحجج الضابط الامير بنظره كالمربوب ، وقال له :

- اترغب في كأس من الشاي .

- كلا . اشكرك .

وعندئذ صاح الضابط قائلاً :

- يا (بيرتوف) ، رافق السيد الى عند (فابولوف) وقل له ان لديه رخصة

بالدخول الى دارة المساجين السياسيين حيث يستطيع البقاء حتى ساعة الاستعراض .

- ٣٩ -

كان نور المصاييح الاحمر يكاد لا يخرق الضباب عندما عاد الامير الى فناء دار السجن ، يرافقه الجندي .

— الى ابن انت ذاهب يا (بيروتوف) ؟ . قال له الخفير .

— الى الدارة الخامسة .

— لا تستطيع المرور من هنا ، فالباب مغلق . اذهب من الباب الآخر .

— ولماذا أغلقوه ؟

— اسأل العريف الذي أغلقه وذهب الى القرية .

— اذن من هنا — قال (بيروتوف) ثم مشى باتجاه المكان المعين .

فلحق به الأمير . وكان ما يزال في باحة الدار حينما بلغ سمعه ضجيج الأصوات ، ولفظ الكلام وجلبة الحياة الإنسانية ، أشبه ما يكون بفقير النحل . ولكن عندما أصبح أكثر قرباً وفتح الباب ، تعالت الضجة بأكثر قوة ، واختلطت الأصوات ، ما بين صارخة وضاحك وشائمة . وبعضهم كان ينادي البعض الآخر . كذلك بلغ سمعه صليل القيود والأغلال ، ولهاث الناس الكرية الذي يعرفه (نيكليندوف) جيداً . كان الانطباع الذي يحدثه ذلك اللفظ البشري ، مضافاً اليه صليل القيود والأغلال ، ورائحة ذلك الهاث الكرية توجد في نفس (نيكليندوف) إحساساً أليماً ، وتقززاً معنوياً ، يضاعف التقزز الحسي ويقوي أحدهما الآخر .

ودخل الأمير الى القاعة الاولى ، وكانت عبارة عن ردهة للبنابة التي خصصت للمساجين التي كان في وسطها كرسي قنر أسود كانت تجلس عليه امرأة مشمرة الثياب ، وهي تتحدث بهدوء الى سجين كان واقفاً امامها ، مخلوق الرأس ، مقيد الرجلين . وعندما رأى الأمير غمز بعينه وقال :

— حتى القيصر نفسه لا يستطيع التخلص من هذه الحاجة .

فنهضت المرأة واقفة وأصلحت ثوبها بهدوء .

كان يتفرع عن تلك القاعة ممشى تفتح عليه أبواب المهاجع المختلفة . فالمجمع الأول كان مخصصاً للعائلات ، والثاني للرجال وحدهم . والثالث ، وكان اضيقهم ويقع في نهاية الممشى ، فقد كان مخصصاً للمجرمين السياسيين .

كان في تلك البناية ما يزيد على أربعماية شخصاً ، بينما لم تكن تتسع لاكثر من

مئة وخمسين . وكانت من الضيق وعدم القدرة على الاستيعاب بحيث ان كثيراً من المساجين الذين لم يجدوا مكاناً في المهاجع تجمهروا في المشى ، بعضهم كان جالساً ، وآخر متمدداً ، وغيره كان يمشي مسرعاً ذهاباً وإياباً ، وفي يده كأساً من التناك فارغاً او ملأناً بالماء الساخن لاعداد الشاي ، وكان بينهم (تاراس) الذي تقدم من الامير فحياء تحية صادقة عندما وقع نظره عليه . فلفتت نظر الامير لطخة من دم على أنف القروي وعينه ، فقال يسأله : — ماذا فعلت ؟

— أعمال الكلاب . — اجاب (تاراس) ضاحكاً .

— يتضاربون على الدوام . — قال الجندي متدخلأ وبلهجة احتقار .

— قصة فساتين يا سيد . — قال سجين كان يتبعهم . — لقد اشتبك في عراك مع

(فذكا) .

— وكيف (فيدوسيا) ؟

— هي بحالة حسنة . شكرأ ها أنذا أحمل لها الماء لتعد الشاي . — اجاب (تاراس)

ثم دخل إلى مهجع العائلات .

فالتقى الامير نظرة من الباب المفتوح ، فرأى من في المهجع من رجال ونساء قابعين في الزوايا بين الاسرة وتحتها . وكان الهواء سملاً يبخر رطب مبال الى البياض منبعث من الثياب الرطبة التي كانت تجف بفعل الحرارة . وكان صراخ النساء المتواصل يصم الآذان .

كان الزحام من أشده في المكان المعد للرجال . وكان المساجين يلتفون حول عجوز يوزع عليهم شيئاً . فأوضح (بيرنوف) للأمير ان ما يوزعه بينهم كان ما رجوه او خسروه في المقامرة ، او ما استعير بموجب سند كتب على ورق اللعب ذاته .

وعندما أبصر من كانوا في الصفوف الخلفية الامير والجندي يقتربان منهم ، وحجوا وأخذوا يرمقونهم بنظرات العداء . ورأى الامير بالقرب ممن كان يحيط بالرجل المسن (فيدوروف) مطوقاً بنزاعيه عتق زميل له أسقر اللون أجرو الوجه ، وكأنه وارم . كذلك رأى شخصاً آخر معروفاً للزرائل ، تشسز منه النفوس ، وكان كثيراً

ما يرافق (فيدوروف) . ومجرماً آخر كويه المنظر مربعاً وبلا أنف ، وشهيراً لا كله لحم رفيقه الذي ذبحه عندما فر . كان هذا واقفاً في منتصف المشى واضعاً ستوته على كتفيه بلا عناية ، ناظراً إلى الامير نظرات ساخرة . ولم يتزعزع من مكانه حتى اضطر الامير إلى التنحي جانباً ليمر .

لم يكن المشهد الذي رآه « نيكليندوف » الآن بالجديد لديه . لقد شاهد خلال الاشهر الثلاثة الاخيرة ، ألوف المجرمين بوضعيات وأوقات مختلفة بعضها خلال أيام الرحلة القائظة عندما كانوا يجرون قيودهم بجهد كبير سائرين تحت الغبار الكثيف ، الذي كان يرتفع أثناء مسيرهم ، وبعضها الآخر خلال الاستراحات في المحطات وفي فناء دار السجن تحت لهب الصيف المزعج ، حيث كانت تحدث أحداث مرعبة . ومع ذلك فقد كان يدركه الحجل عندما يكون بينهم لشعوره بمسؤوليته . وكان أكثر ما يغمره ، ويسبب له الألم المبرح بالإضافة إلى الشعور بالمسؤولية والحجل ، كان الرعب والاشمئزاز . كان يعلم جيداً ان الوسط الذي شب هؤلاء الاقوام فيه لا يمكن بحال من الاحوال ان يأتي بشمرات أفضل . الا انه لا يقوى على كبح رعبه واشمئزازه .

وعندما دخل الامير الى مهجع المجرمين السياسيين آذت سمعه صرخة ساخرة أطلقها صوت أبح تبعها شتائم ومسيبات .
- يقضي هؤلاء الكسالى حياة حسنة .
وأعقبت هذه العبارة فقهية عدائية ساخرة .

- ٤٠ -

ودع الجندي الامير بعد ان اوصله الى مهجع المساجين السياسيين ووعده بأن يعود لمرافقته مرة ثانية بعد الاستعراض . ولم يكذ الجندي بفارق الامير حتى أبصر هذا سجيناً يدنو منه مسرعاً بمقدار ما يسمح له قيده ، وأمر اليه قوله .
- ينبغي ان تتدخل . لقد وقع المسكين في الفخ لانهم أسكروه . فأجاب بدل عن (كارمانوف) . وانت وحدك الذي تستطيع انقاذه . أما نحن اذ تدخلنا فإنهم يقتلوننا .

ثم اختفى بين الجمهور الذي كان يملأ الممشى بعد ان فاه على عجل بهذه الكلمات متلفتاً يمناً وشمالاً .

لقد كانت القصة جد معروفة من (نيكليندوف) . كان احد المساجين ويدعى (كارمانوف) قد اقنع سجيناً آخر محكوماً عليه بالابعاد ، وشبهاً به ، ان يتبادلا الاسماء ليتبادلا مدة العقوبة . كان السجين الذي جاء الآن يخبر الامير بخبر الحادث قد سبق واطلعه في الاسبوع الماضي عليه ، وتوسل اليه ان يعمل على تفادي وقوع هذه الجريمة النكراء . وهو الآن يعود فيتوسل اليه مرة اخرى ، لان له به سابق معرفة اذ كان قد طلب منه التوسط ليسمحوا بمرافقة زوجته له . كان هذا ويدعى (مكاربوس ديفغكين) ربع القامة عادي المنظر في حوالي الثلاثين من عمره ، محكوماً بالسجن بجرم محاولة سرقة مع القتل . كان قد ارتكب هذه الجريمة مجهول — على حد تعبيره هو — لم يكن يشير اليه الا بهذه الكلمة . وقد يكون الشيطان مجسداً . والقصة هي ما يلي :

جاء ذات يوم غريب الى منزل والد (مكاربوس) فاشتري عربته مقابل روبلين كي يذهب الى قريته التي تبعد اربعين (فرستا) فعهد الوالد الى الولد بقيادة العربة فاسرج (مكاربوس) الجواد وغير ثيابه لمرافقة الغريب . وكان هذا قد اخبرهم انه يعود الان الى قريته ليتزوج وانه يحمل في حقيته خمسمائة روبل حصل عليه من عمله في (موسكو) . وعندما عرف « مكاربوس » ذلك مضى الى صحن الدار حيث احضر فأساً واخفاها بين القش في العربة .

— بما لا شك فيه كوجود الله . — كان يقول — انني لا ادري لماذا اخذت الفأس كان « مجهول » قد امرني بأن اخذ الفأس فأخذتها . وبدأنا الرحلة وكنا قد قطعنا معظمها . وكنت قد نسيت الفأس . كان امامنا ستة اميال لا غير لبلوغ القرية . وكان في طريقنا منحدر يجتاز غابة كبيرة . فترجلت من العربة كيلا اتعب الجواد ، وعندئذ عاد « المجهول » فاسر في اذني : « ماذا تفعل ؟ وبماذا تفكر ؟ ستصادف مارة متى اجتزت الغابة وبلغت أعلى الطلعة ، اذ هناك تبدأ القرية . اذهب

فليس لديك وقت تضيعه . هذه فرصتك . ، فأنحيت على العربة بحجة اصلاح
القش فجاءت الفأس من تلقاء ذاتها الى يدي . فالتفت الغريب اليّ عندئذ وقال لي :

- ما هذا ؟

فرفعت الفأس يدي . ولكن الرجل كان قوي اليدين فقفز الى الارض
وقبض على رسغي .

- ما كنت تريد ان تفعل ايها الحقيير ؟ قال لي

ثم طرح بي على الثلج فلم اقاوم . فشد اكتافي بمنديله واصعدني الى العربة واقتادني
راسا الى دار الحكومة . فاعتقلت وحوكمت وحكم علي بالسجن . ونظم سائر
جيرانني عدة شهادات بحسن سلوكي وعدم ارتكابي اي جرم . وتدخل السيد الذي
كنت اخدمه لصالحه . ولكن لما لم يكن لدي من الموارد ما يمكنني من اقامة محام
عني فقد حكم علي بالاشغال الشاقة لأربع سنوات .

هذا هو الرجل الذي لم يتردد في افشاء سر هائل للأمير ، بغية انقاذ احد رفاقه ،
وهو يعلم ما ينتظره من الخطر اذا ما وقف رفاقه في السجن على فعلته .

- ٤١ -

كان يفصل المهجعين المعدن للمجرمين السياسيين ، عن المشى حائطان يكونان
ردهة صغيرة .

كان (سيمونسون) يجلس القرفصاء امام المدفئة محاولا اضرام النار فيها بطريقة
من مبتكراته الخاصة ، عندما دخل الامير الردهة ، وعندما ابصره ذاك لم يغير من
وضعه ، وانما حذق فيه من تحت حواجبه الكثيفة ماداً له يده .

- لقد احسنت بقدمك ، فلدي ما اقصه عليك - قال له بلهجة جادة معبرة ،
وهو لا يزال يحذق بنظره فيه .

- ٤٢٠ -

— ما الذي ستفعله علي ؟
— سأقوله لك فيما بعد اما الآن فانا مشغول — قال ذلك ثم مضى ينفخ النار في المدفئة .

وفيا كان الامير يهم بالدخول الى احد المبهجين اذا (بكاترين) تخرج من ثيابها . كانت قد رفعت ثوبها حتى بدا ساقها ، وكانت ترتدي صدرية بيضاء وغطاء رأس ابيض ايضاً اسدلته على وجهها حتى كاد يغطي عينيها وقاية لشعرها من الغبار . كانت ، وهي مقوسة الظهر ، تكنس الغرفة بمكنسة قديمة ذات مقبض قصير . وعندما ابصرت الامير انتصبت بجلء قامتها ، طارحة المكنسة جانباً ، ونظفت يدها بطرف ثوبها وتقدمت من الامير والبشر باد على محياها .

— اراك تنظفين البيت . — قال لها الامير ماداً لها يده .
— اجل لقد عدت لسابق مهنتي . — اجابت الفتاة باسمه ، لقد استحال المكان الى مزبلة ، وليس من يرضى أن ينظفه .

قالت ذلك والتفتت الى (سيمونسون) وسألته :
— هل جف الثوب ؟
— لقد أوسك على الجفاف ، اجابها وهو يرمقها بنظرات استغربها الامير .
— سآني بعد قليل لأخذه ، وسأحضر معي قطعاً اخرى لتجفيفها ، قالت (ماسلوف) ثم انصرفت الى الامير .

— كلهم مجتمعون هنا . قالت له مشيرة الى المجمع الاول .
ففتح الامير الباب ودخل .

كانت تلك الحجرة التي ينيرها مصباح من التلك صغيرة جداً . وكانت على النقيض من غيرها ، باردة ومشحونة برائحة دخان التبغ والغبار والرطوبة . كان المصباح ينير وسط الغرفة ولكن الأمرة التي بجانب الجدران كادت تكون في شبه ظلام دامس حتى تكاد لا ترى وجوه الجالسين عليها .

كان سائر المساجين السياسيين مجتمعين هناك ما عدا «سيمونسون» ورجلين آخرين
كانا يعدان طعاماً للعشاء .

وكانت «فيرا افراموفنا» وهي أكثر شجوباً ونحولا مما كانت عليه في السجن ،
وترتدي ثوباً رمادي اللون ، جالسة تتلهم بصنع لفائف التبغ امام صحيفة منشورة
امامها ، مرعوبة النظرات ، محتقة الاصدرين .

كذلك كانت سجيناً سياسية أخرى هي «اميليا رانتزوف» وكان الامير
يعرفها ويودها كثيراً . كانت هي المعنية بمجاعات المجموعة المنزلية ، فجعلت من
عملها هذا مهمة سارة مليئة بالعذوبة واللفظ ، بالرغم من الظروف الشاقة المحيطة بها .
كانت انشد وهي جالسة تحت المصباح ، وقد حسرت عن ذراعيها ، تغسل كؤوس
الشاى وصحافها . وعلى الرغم من انها لم تكن جميلة ، فقد كانت ما تزال فتية ،
وكان لوجهها الطيب الذكي قابلية التبدل تبداً كاملاً عندما تبسم ، فيتخذ عندئذ
تعبيراً مرحاً ضاحكاً يجعله جميلاً فعلاً ، فاستقبلت الامير باحدى هذه البسمات الشبية .

- ظننا انك عدت الى روسيا - قالت له :

ورأى الامير في احدى الزوايا «ماري باولوفنا» التي كانت تحمل على ركبتيها
طفلة صغيرة سقراء لا تنفك تثرثر بصوتها الطفولي العذب
- كم يسرني مجيئك - قالت للامير عندما أبصرته - لدينا الآن رفيقة جديدة -
قالت ذلك ثم اشارت الى الطفلة

وكان «اناتول كريلتزوف» الشاحب اللون الضامر الوجه يجلس على السرور
متربعاً وقد أخفى يديه داخل كفيه مراقباً للامير بعينه الكيرتين ، وفيما كان هذا
يهم بالسلام عليه اصطدم بشاب احمر الشعر يحلي اصابعه بالحواتم ، كان واقفاً
يتحدث مع امرأة جميلة كانت تبسم له . فاسرع الامير لمصافحته لا لانه يشعر ميل
خاص اليه وانما لكونه الوحيد بين سائر المجرمين السياسيين الذي كان الامير
يستقل ظله . ولذا رأى من الاوفق السلام عليه للتخلص من وجوده . فنظر هذا

الفتى وهو (نوفودفوروف) بعينه الواسعتين اللتين كانتا تتقدان عبر زجاج نظارته ، الى الأمير ومد له يده الطويلة الناحلة مصافحاً .

— حسن . وهل راقتك الرحلة ؟ — قال بسخرية ظاهرة .

— أجل . لقد راقنتي كثيراً . اجاب (نيكليندوف) متظاهراً بعدم إدراك سوء ما يقصد . ثم بادر للسلام على (كريلتزوف) .

كان يظهر اللامبالاة . ولكن كانت كلمات (نوفود فوروف) ورغبته الواضحة في الاساءة اليه ، قد حطمت ما كان يحمله منذ بعض الوقت من رغبات متفائلة ، وأحس بعدم الارتياح والغم ، وكان يندم على قيامه بتلك الزيارة .

— هل أنت بصحة جيدة ؟ — قال يسأل (كريلتزوف) مصافحاً يده المثلجة التي ترتعش من الحمى .

— أجل ، انا على احسن ما يكون ، فشكراً . ولكنني اشعر بالبرد ولا أجد الدفء . — قال هذا وأسرع يدس يده داخل كفيه . — وفضلاً عن ذلك فالغرفة باردة برودة شيطانية ويوجد لوحان من الزجاج مكسورين فيدخل الهواء عبرهما . قال ذلك وأشار الى النافذة ذات القضبان الحديدية .

— لماذا تأخرت عنا كل هذه المدة ؟ — اضاف يقول .

— لقد منعوني من الدخول، وهذه هي المرة الاولى التي يتساهل فيها الضابط معي . فأخذت (ماري باولوفنا) تقص عليه الحادثة التي حدثت في الصباح بسبب الطفلة وهي ما تزال جالسة .

— أرى انه يجب علينا ان نحتج اجمعياً . — قالت (فيرا-ايفرا موفنا) بلهجة جازمة ، وهي تنقل نظراتها المذعورة بين رفاقها . — لقد قال (فلاديسير سيمونسون) لهذا اللفظ ما يستحقه . ولكن يبدو لي انه غير كاف .

— ولم الاحتجاج ؟ — اجاب (كريلتزوف) وقد لمز بفمه لمزة تدل على الضجر . كان ظاهراً ان غلو (فيرا) يثير تأثيره ويجذب له رد فعل عصبي حاد .

— هل تبحث عن (كلارين) ؟ — أضاف يقول للأمير — انها لا تزال تشتغل . لقد

كنت هذا المكان . وهي الآن تزال الغبار عن ثياب النساء بالفرشاة ، ولكنها لا تقوى على إراحتنا من هذا العمل اللعين الذي تلاقي منه الأمرين . وما الذي تصنعه (ماتشا) هناك في الزاوية ؟ - قال يسأل . ثم وقف لينظر الى حيث كانت تجلس (ماري باولوفنا) .

- انما تمشط شعر ابنتها . - قالت (اميليا رانتزوف) .
- المهم ان لا تنشر بيننا ما انتزعته منها من قمل . قال (كريلتزوف) .
كلا . كلا . لا نخشى ذلك فهنا يسيطر الضمير . - قالت (ماري باولوفنا) .
ها قد أصبحت نظيفة ، فاليكها يا (اميليا) فأنا ذاهبة لأساعد (كاترين) .
فأخذت (رانتزيف) الطفلة وأجلستها على طرف ثوبها بعناية الأم وقدمت لها قرصاً من السكر .
والتقت (ماري باولوفنا) عند خروجها بالرجلين اللذين كانا قد ذهبا لابتيع ما كل .

- ٤٢ -

كان احد السجينين اللذين دخلا الغرفة لا يزال شاباً ، صغير الجسم نحيله ، يرتدي فروة قصيرة وحذاء طويلاً وكان يمشي مسرعاً حاملاً بكلتا يديه ابريقاً كبيراً مليئاً بالماء الساخن ويتأبط بكلا الجانبين رغيفة خبز ملفوفاً بمنشفة .

- آه . ها قد أطل أميرنا . - قال وهو يضع الابريقين بجانب الاكواب التي أعدها (رانتزيف) . - لقد اشتربنا كثيراً . - أضاف يقول بعد ان خلع فروته ، ورمى بها من فوق رؤوس رفاقه الى الركن حيث كان سريره . - آتنا بالبيض والحليب يا (ماركل) فنحن في عيب حقيقي : وستقدم (اميليا) لنا ذلك فتجعله بنظافتها المميزة لها . - أضاف يقول مبتسماً ابتسامة موجهة (لرانتزيف) .

كان كل شيء في كيان ذلك الرجل ينطق بمزيج من الاقدام والمرح ، سواء في ذلك حركاته ونبرات صوته ، ونظراته ، وسائر تصرفاته . على عكس رفيقه الذي

كان غامض المظهر حزينة ، قصير القامة غليظ العظام ، رمادي الوجه ، بارز عظام الوجه ، وكان يرتدي معطفاً قديماً من الحشايا ، وينتعل قبقاباً فوق خذاته . وعندما وضع على الأرض سلة وعلة من التنك كان يحملها حيا الامير بفتور ، فصوبا اليه نظرات عينيه الخضراوين الواسعتين .

كان هذان السجينان السياسيان ينتميان الى طبقة الشعب : وكان احدهما يدعى (نوباتوف) وهو قروي . والآخر يدعى (ماركل) وهو عامل مصنع . ولكن هذا لم يصبح ثورياً الا بعد ان بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، بينما كان (نوباتوف) ثورياً منذ طفولته . وقد أظهر في مدرسة القرية من التفوق والاجتهاد ما حمل أهله على ان يرسلوه الى المعهد حيث أصبح من المجلدين وإحراز المداية الذهبية . ولكنه بدلاً من ان يلتحق بالجامعة عاد إلى قريته كي يعلم مواطنيه ما تعلمه هو . وعين معقب دعاوي . وقرأ على أبناء القرى كثيراً من الكتب واعارهم اياها . وأسس منهم جمعية للتعاون المتبادل ، فاعتقل على أثر ذلك بقليل . وعلى الرغم من اخلاء سبيله بعد انقضاء ثمانية اشهر ، فقد ظل يحط أنظار الشرطة الدائم ، لانه ما كاد يصبح حراً طليقاً حتى عاد إلى سيرته الاولى . فاعتقل من جديد وأحيل الى المحاكمة فحكم عليه بالسجن عامين ، ولكنه لم يتنازل عن شيء من آرائه . وبعد ان أخلى سبيله للمرة الثانية أبعده الى ولاية (بيرم) حيث قضى ستة أشهر . ولما رفض ان يقسم بين الولاء للإمبراطور الجديد ، اعتقل مرة أخرى وحكم عليه بالنفي الى ولاية (جاكونيسك) في أقاصي سيبيريا . وهكذا فقد قضى الرجل ما يقرب من نصف حياته في السجون والمنفى ، ولكن كل هذا لم يؤثر في شيء على طباعه وأخلاقه به على العكس زاده نشاطاً وإقداماً .

كان يتدفق بالعافية مادياً ومعنوياً ، شديد الاحتمال . وكان في كل مكان وغند كل مناسبة نشيطاً مقداماً مرحاً . لم يكن يتذكر الماضي قط ، ولا يحاول التنبؤ بما سيكون ، وإنما كان يكرس سائر ذكائه وبراعته وحاسته العملية للحاضر وعندما يخلى سبيله كان يعود الى عمله الاول وهو تعليم القرويين . وفي السجن كان

يحاول ما استطاع تحسين ظروف حياته وحياة غيره من المساجين .
كانت الحياة لأجل الغير حاجة طبيعية في نفسه . ولما كان ليس بنبي عادة
سيئة ، و كان بمقدوره حرمان نفسه من المأكل والنوم بمقدار ما يرغب لصالح الغير ،
فقد كان يبذل جهوده كقروي نشيط . وكان على الدوام مثال القروي الجاد الماهر
النشيط ، الشريف بطبعه ، المستعد دوماً لمساندة مقترحات وأفكار الآخرين .

كانت أمه العجوز القروية الجاهلة ، المؤمنة بالخرافات لا تزال حية . وعندما
يكون طليقاً يأتي لزيارتها فيعاونها بكل أعمالها المنزلية ، ويرافق تلامذته السابقين الى
الحانة والحقول ، ويدخن وهو يتحدث اليهم ، ويتبارى وإياهم في الملاكمة ، وبين كل
ملاكمة وأخرى كان يشرح لهم اسباب جهلهم وضعفهم .

كان ، وهو يحلم دائماً بالثورة لمصلحة الشعب ، لا يقر ان تغير هذه او ان تعدل
كثيراً في ظروف حياته . كان يأمل ان تعمل الثورة على جعل القرويين ملاكاً
الأرض ، وان تقضهم من الملاكين والموظفين . وكان من رأيه - خلافاً لرأي
(توفود فوروف) - ان الثورة يجب ألا تقطع صلاتها بالماضي ، وألا تغير كل
التغير العادات والاعراف ، وانما ان توزع كنوز التقاليد القومية الجليلة بما هو
أقرب لروح العدالة .

وكان طابعه القروي يبدو حتى في القضايا الدينية . ولم يكن يولي كبير عناية
لمسائل ما وراء الطبيعة والمبادئ الاولية والحياة الاخرى . وكان يردد على الدوام
ان « الله » في نظره فرضية لا لزوم لها كما قال (لابلاس) . وقليل ما اهتم لمعرفة
كيفية بدء الكون . والداروينية التي كان الكثير من رفاقه يحملونها بحمل الجذ ،
كانت في نظره نظرية جد كبيرة كخلق الكون في ستة ايام .

كذلك لم يكن يفكر في الحياة الاخرى . ولكنه كانت تتأصل في نفسه
عقيدة ورثها عن أسلافه ، وهي عقيدة يشترك فيها سائر الذين يعيشون على اتصال
مباشر بالطبيعة . كان يؤمن بأن الانسان شأنه شأن عالم الحيوان والنبات حيث لا
يتلاشى شيء وانما يتحول ، كذلك الانسان لا يموت ، وانما يستبدل شكل حياته .

ومن هنا جاء انه كان ينظر دائماً الى الموت بلا خوف ولا مرارة . ولكنه لم يكن يروقه التفكير بهذا الاعتقاد ، وأقل من ذلك التحدث عنه . كان العمل كل ما يسره ، ولذا كان دائم العناية بالمسائل العملية ، ويجتهد في تقليد رفاقه .

وكان رفيقه (ماركل) يختلف عنه تماماً . لقد دخل المعمل وهو في الخامسة عشرة من عمره ، ومنذ ذلك الحين اولى بالتدخين ومعاقرة الخمر ليكبت شعور الذل الذي كان قد استيقظ في نفسه . كانت ولادة ذلك الشعور في نفسه ذات ليلة من ليالي عيد الميلاد عندما أقامت زوجة صاحب المعمل حفلة لابناء عمال المصنع دعتهم اليها وقدمت له ولرفاقه هدايا من التفاح والصفارات والجوز الموه بلون الذهب ، بينما قدمت لبنيتها لعباً جدياً رائحة لا يقل ثمن الواحدة منها عن خمسين روبلا .

لقد لبث (ماركل) في عمله عشرين عاماً . وعندما اتصل بالثوريين كان قد بلغ الخامسة والثلاثين من عمره ، وذلك على أثر دخول فتاة ثورية كعاملة في المصنع بقصد الدعاية للحزب . فأقامت علاقات معه واعارته كتباً ومنشورات وكانت تناقشه وتظهر له بوضوح وضعه ووضع رفاقه في الدنيا ، وأسبابه ، والسبل الكفيلة بتحسين أحوالهم المتواضعة .

ولما تجلبت له إمكانية تحرره وتحرير غيره من ذلك السجن المرهق الذي يرزحون تحت وطأته منذ الصغر ، تجلبت له كذلك فداحة الظلم في هذا الارهاق ، وهكذا أضيفت الى رغبته في التخلص من ذلك النير رغبة أخرى أشد جموحاً في الانتقام من المضطهدين .

ولما أكدوا له ان العلم كفيل بتحقيق معجزة تحرره انكب على الدرس . او ليس العلم هو الذي أظهر له مدى الاجحاف في وضعه ؟ اذن فهو الذي سيضع حداً لهذا الاجحاف . كذلك فللعلم قوة رفع شأنه واحلاله مكاناً أسمى من غيره من الناس وكانت تلك دائماً أمنيته الدائمة الخفية . وهكذا أقلع عن التدخين ومعاقرة الخمر لينصرف بكليته في اوقات فراغه للدرس .

وظلت الثورية على صلة وثيقة به . وكانت شديدة الإعجاب بمجاسه في درس المسائل العويصة . فدرس خلال عامين الهندسة والتاريخ والجبر . وقرأ عدد من كتب النقد والفلسفة ، ولكنه عني بصورة خاصة بالأدب الاشتراكي المعاصر ، وأصبح من أشد أنصار الاشتراكية تحمساً ، وعندما سمح له بالعودة الى مسقط رأسه ، وذلك بعد بضعة شهور ، ترأس اضراباً عمالياً انتهى بإضرار النار في أحد المصانع وقتل صاحبه . فاعتقل من جديد وهو الآن يعد أديباً الى سييريا .

كان رديكالياً فيما يتعلق بالدين والاقتصاد السياسي . ولما كان قد أصبح مقتنعاً من فساد المعتقدات التي شب عليها ، فقد كان شديد الرغبة في الانتقام من أولئك الذين أبقوه على ضلاله القديم . ولذا كان لا يكف عن اعلان كراهيته للكهنة ورجال الدين ، ويسخر بمرارة من التعاليم الدينية .

كانت له مظاهر الزهاد ، وكان كغيره ، من ممنونوا على العمل منذ نعومة اظفارهم يكاد لا يتعب من الاعمال الجسدية ، الا انه كان يحقرها على مختلف أشكالها ، وكان ، سواء اثناء وجوده في السجن ، او في محطات الاستراحة يهيء لنفسه قليلاً من الوقت ليواصل دراسته التي كان يزداد في كل يوم اقتناعاً بأنها العمل الوحيد النافع الشريف . وكانت اشد على وشك الفراغ من دراسة كتاب « رأس المال » (لكارل ماركس) ، الذي كان يخفيه في اسفل الكيس ، والذي كان يقضي ليله مكباً عليه ككنز ثمين .

كان متحفظاً ولا مبالياً بالنسبة لكافة رفاقه باستثناء (توفود فوروف) الذي كان يحبه كثيراً ، ويرى في آرائه اكبر حقيقة .

وكان يرى في المرأة العقبة الكبرى في سبيل التحرر الاجتماعي وتطور الذكاء الحر . ولذا كان يحقرها احتقاراً تاماً ما عدا (كاترين) التي كان يرى فيها المثال النموذجي لاستغلال الطبقة العليا للطبقة الدنيا . ويعاملها معاملة خاصة ، ولذا كان لا يدع مناسبة تفوته دون ان يظهر (لنيكليندوف) استقاله لظله .

كانت المدفأة قد اوقدت ، وارتفعت حرارة الجو قليلا وانزعت افداح الشاي ، وصفت على احد الأسرة انواع المأكولات كالخبز الابيض والأسمر والبيض المسلوقة ، والزبد ، وقوام العجول . فتقدم الجميع من السرير ، وشرعوا يأكلون ويشربون ويتحدثون . وكانت (رانتريف) وهي جالسة على صندوق ترحب بهم كما لو كانت سيدة المنزل وهم ضيوفها . ولم يختلط (كريلتزوف) بالجماعة وظل وحده ، يتحدث مع (نيكليندوف) بصوت خافت بعد ان استبدل الفرواة المبتلة بالماء بسترته التي كانت قد جفت .

وانعش ذلك العشاء ، والدفء ، ونكهة الشاي ، المرح والسرور في نفوس المساجين ، بعدما قاسوه من برد ورطوبة خلال الطريق ، وبعدها صادفوه من قذارة وفوضى في محطة الاستراحة ، وبعدها بذلوه من جهد اضطراري لترتيب وتنظيف المكان ، واعداد ذلك العشاء .

وكان الصراخ ، والشتم ، والضوضاء المبعثة من الشقة المخصصة للمساجين العاديين ، التي كانت تصلهم عبر الحاجز ، تجعل ذلك الاحساس بالطمأنينة والراحة شبيهاً ، لما بين الحالين من تناقض . كانوا يحسون وكانهم معزولين في جزيرة صغيرة في محيط صاخب . وهذا الانطباع كان يبعث في نفوسهم نوعاً من نشوة ذهنية تجعلهم يذهلون عن ويلات وضعيتهم الحالية وينقادون لأسيادهم .

وكما يحدث دائماً عندما يجتمع شباب من الجنسين - ولا سيما اذا كانوا مرغبين على العيش معا ، فقد قامت فيما بينهم علاقات خفية مقصودة كانت أم غير مقصودة . كان الجميع اويكادون ان يكونوا عاشقاً . فهذا (توفود فوروف) يصبح عاشقاً للصبي الحساء المرح « غرايتز » . كانت هذه وهي طالبة ، قليلة التفكير ، لا تهتم بالقضايا الثورية . ولكنها مع الايام تأثرت بهم واشتركت في بعض المؤامرات فحكم عليها بالنفي . وكما كان شغلها الشاغل في الجامعة مطاردة الطلاب ، فانها لا تعني بشيء آخر

منذ دخلت السجن الى الآن . كانت ترى نفسها سعيدة لأن (توفودفوروف) أحبها حقاً وبأداته الحب .

وكانت « فيرا ايفراموفنا » ، التي قضت حياتها محبة دون ان تبادل بالحب ، ودون ان ينضب معينه لديها تصعد زفرات مكبوتة كلما رأت (نوباتوف) او (توفودفوروف) . وكان (كريلتزوف) يشعر بيل (لماري باولوفنا) التي كان يحبها حقاً حب الرجال للنساء ولكنه ، وهو العليم برأيها في الحب ، كان يخفي حبه تحت مظاهر الصداقة والاعتراف بالجليل .

وكان (نوباتوف) عاشقاً ايضاً . كان هو (واميليا رانتزيف) يتبادلان علاقات بريئة ولكنها عاطفية اخر الأمر . و كما كانت « ماري باولوفنا » مثال الفتاة البريئة حقاً ، كذلك كانت (رانتزيف) مثال المرأة والزوجة الكاملة .

عندما كانت هذه لا تزال في المدرسة ، وفي حدود السادسة عشرة من عمرها ، احبت (رانتزوف) الذي كان آنئذ طالباً في جامعة بطرسبرج ، وتزوجت منه بعد ذلك بثلاثة اعوام . وبما ان زوجها قد اشترك بمظاهرات جامعية فقد حكم عليه بالنفي ، وعندئذ قطعت دراستها في كلية الطب لترافقه ولما كان قد اعتنق المباديء الجديدة فقد تأثرت به وانضمت للجماعة الثورية . ولم يكن زوجها اجمل الرجال واذكاهم وأفضلهم في نظرها على الاقل لما احبته ولما رضيت بالزواج منه . وما دامت قد احبته وتزوجت به لاعتقادها هذا ، فانها ترى من الفظاعة بكان أن تنظر الى الحياة بغير المنظار الذي ينظر اليها فيه . كان زوجها في بداية حياته الزوجية يرى أن انبل غاية في حياته هي انصرافه للدرس ، وعندئذ شرعت تدرس الطب . ثم اصبح زوجها فيما بعد ثورياً ، فالتحقت بالثوريين ، وكانت تشرح بوضوح كأي من رفاقها مواطن الجور في النظام الاجتماعي الراهن ، ولماذا يتوجب على كل شخص العمل على اسقاطه واستبداله بنظام جديد تستطيع الشخصية الانسانية في ظله ان تنمو بحرية كانت واثقة من ان هذه كانت افكارها ومشاعرها الخاصة ولكن الحقيقة كانت انها لم تكن تفكر قط إلا

بما يراه زوجها صواباً . وكان حلمها الوحيد وامنيته الغالية هي توحيد ذاتيهما توحيداً تامياً .

وفصلت عن زوجها وولدها لاشتراكها بأعمال شغب جديدة . فكان هذا الانفصال شديد الأيلام لها . كانت تتحمله بعزيمة ثابتة ، لأنها كانت تعلم انها تقاسيه لأجل زوجها ، وفي سبيل قضية جدية بكل تضحية . بينما كان زوجها لا يريد لها تلك التضحيات . لم تكن تفكر إلا في زوجها . وكما أحبه قبل ان يتفتح قلبها لغيره كذلك فهي لا تستطيع أن تتفتح قلبها لأحد من بعده . غير أن الميل البريء المتحرر الذي كان (توفود فوروف) يظهرة نحوها ، كان يؤلم نفسها ، ويسرها في آن واحد . ولما كان اخلاقياً بالفطرة ، متحكماً في رغباته واهوائه ، فقد كان يجهد نفسه في معاملتها كأخت . غير ان علاقاتها بها كانت في بعض الاحيان تعكس ما هو أعمق من شعور الاخ والأخت . وكان هذا يبعث في نفسها قلقاً وسروراً خفياً . وهكذا فلم يكن بين تلك الجماعة من هو خلي البال والقلب من لواعج الهوى غير (ماري باولوفنا) والعامل « ماركل » .

- ٤٤ -

ظل (نيكليندوف) جالساً يتحدث الى (كريلتزوف) بانتظار فرصة مناسبة يخلو فيها بعد العشاء الى (كاترين) شأنه كل مرة كان يقضي فيها السهرة بين الجماعة في محطات الاستراحة . فقص عليه في جملة ما قصه ، حديث (مكاربوس) له عن وضعية المعبد . وكان (كريلتزوف) يصغي اليه باتباه محدقاً فيه بعينه الكبيرتين الراقبتين .

- ها انت ترى . - قال يجيب على الفور - كثيراً ما افكر في غرابة حالنا ، نحن نساق الآن الى سيبيريا مع هؤلاء . ماذا أقول ؟ الا صوب ان أقول اننا نساق الآن الى سيبيريا من أجل هؤلاء ، ولكننا لا نعرفهم ، بل اننا لا نحاول ان نعرفهم . هم يكرهوننا ويعاملوننا كالأعداء . أليس ذلك رهيباً ؟

- كلا . ليس ذلك بالأمر الرهيب . - قال (نوفود فوروف) وكان قد اقترب من سرير المريض - ما كانت الجماهير قط إلا جاهلة فظة ، ولا تحترم غير القوة . - قال بصوته الرنان - القوة بيد الحكومة اليوم ، ولذا يحترقها الناس ويحتقروننا . وغداً عندما نحصل على السلطة سيحترموننا .

وهنا سمع في المجمع المجاور ضربات على الحائط وصليل القيود ، وصراخ وزعيق . كان أحد المساجين يستجير ولا من يجير ، ويستغيث ولا من مغيث ، لقد كانت يجلد .

- اتسعون هذه الحيوانات المفترسة ؟ أي علاقة تريدون أن تقيمها معهم ، - قال (نوفود فوروف) باطمئنان .

- أتصفهم بالحيوانات المفترسة ، اسمع ما قصه علي (نيكليندوف) الآن عن احدهم .

وأعاد عليه (كريلتزوف) خبر ما فعله (مكاربوس) انقاذاً لأحد رفاقه ، ثم أضاف .

- ما أظن هذا خليقاً بالحيوانات المفترسة .

- العاطفية . - قالها (نوفود فوروف) هازئاً وهو يتسم . - كأننا ندرك ما في نفوس هؤلاء ، والدوافع التي تكمن وراء تصرفاتهم ، فقد يكون بغضا ما نحبه بطولة منهم .

- وأنت لا تؤمن بوجود ما هو صالح عند الغير ، قالت (ماري بولوفنا) .

- كيف أرى ما ليس موجوداً ؟

- ولماذا لا تقدر قدر من عرض نفسه تطوعاً لموت رهيب .

- اعتقد انه اذا كنا نريد انجاح قضيتنا ، فأول ما يجب علينا الأخذ به هو ألا تنساق بعيداً مع الاحلام ، وان نرى دائماً الأمور كما هي .

كان (ماركل) قد مشى نحوهم مصيحاً بسمعه ومصغياً الى كلمات الرجل الذي يعتبره كعلم ، بعد ان اغلق كتابه الذي كان يقرأ فيه وهو واقف تحت المصباح .

وكان (نوفودو فورف) ما زال يواصل كلامه وقوراً حازماً كأنه كان يلقي محاضرة .

— ان واجبنا ان نفعل كل ما نستطيع فعله لصالح الشعب دون ان ننتظر اي شيء منه . ينبغي تكريس جهودنا له ، ولكنه لن يستطيع التعاون معنا الى ان يتخلص من الحمول الذي ينحل ويتلاشى فيه . ان المخدوع وحده هو الذي يتوقع من الشعب اي عون مهما كان ضئيلاً ما دام لم يستكمل تطوره المعنوي ، ذلك التطور الذي نعهده له .

— أي تطور ؟ — سأله (كريلتزوف) وقد اعتدل في مقعده . — نحن نكافح ضد الاستبداد ، ولكن عملنا الذي نمجده هو في حد ذاته استبداد وضع أيضاً .

— وأين هو الاستبداد ؟ — أجاب (نوفودو فوروف) دون ان يتفعل . — أنا أقول انني أعرف السبيل الصالح الذي ينبغي على الشعب ان يسلكه ليستكمل تطوره وبوسعي إرشاده اليه .

— ولكن من خولك حق التأكيد بأن السبيل الذي ترشد اليه هو السبيل الأقوم؟ ألم توجد محكمة التفتيش باسم هذه المبادئ ؟ والثورة الفرنسية ألم ترتكب جرائمها باسمها ايضاً ثم ادعت أنها وجدت في العلم ، السبيل الأوحـد الذي يجب السير عليه . — إذا كان غيري قد خدع ، فليس من الضروري ان أخدع . وفضلاً عن ذلك ، فليس من وجه شبه بين سخافات دعاة المثل العليا ، وبين تأكيدات علم الاقتصاد الوضيعة .

كان صوت (نوفودو فوروف) الجمهوري يملأ القاعة . ولم يكن ثمة من يجرؤ على مقاطعته .

— على م تختصمون ؟ — قالت تسال (ماري باولوفنا) عندما أنهى ذاك كلامه .

— وماذا ترين ؟ — قال لها (نيكليندوف) .

— أرى ان الحق مع (اناتول) فوسعنا ان نفرض أفكارنا على الشعب .

— تلك طريقة غريبة لفهم مهمتنا . قال (نوفود فوروف) ، ثم أشعل لقافة
تبغ ومضى عنهم والاستياء باد عليه .
— كلما تحدثت اليه اخرج عن طوري ، وعبثاً حاولت تفادي ذلك . -- اسر
(كريلتزوف) في اذن (نيكليندوف) .
وكان الأمير قد أحض بشيء من هذا . ولكنه أسره لنفسه .

- ٤٥ -

على رغم التقدير الذي يحمله رفاق السجن (لنوفود فوروف) وعلى رغم غزارة
علمه ، وتقديره الكبير لنفسه ، فقد كان الأمير يرى فيه غوذجاً حياً لأوثك الثوريين
الذين لكونهم دون المستوى العام ، يخنفون اذا ما وجدوا في جو يسود فيه هذا
المستوى . ولكنه كان يعترف له بالتفوق على أكتوية الثوريين من حيث الثقافة ،
ويقول بأن غروره وأفانيته المفرطين الناشئين عن ظروف حياته ، قد أحوالا
ذكاه عقيماً .

وكان (نيكليندوف) يرى ان سائر نشاطات (نوفود فوروف) الثورية صادرة
عن الحسد وحب التسلط والظهور ، على الرغم مما يعزو لها من دوافع رائعة .

كانت موهبة ادراك أفكار الغير وإبرازها بشكل واضح جلي ، فعاز بسببها على
اعجاب الناس في مختلف الأوساط التي تقدر مثل هذه المؤهلات وعلى الأخصر في
المدرسة والجامعة حيث كان المدرسون ورفاق الدراسة يعترفون له بالذكاء بما كان له
تأثير كبير على إثناء غروره . ولكنه عندما أنهى دراسته ، وانقطع عنه ذلك الاطراء
لم يستكن لذلك فعمد على الفور الى استبدال آرائه بآراء أخرى جديدة ليعود فيسيطر
في أجواء أخرى . وهكذا انقلب من تحرري تقدمي الى ثوري متحمس .

لقد أهله خلوه التام من المزايا الاخلاقية والفنية التي تولد الشك والتردد ، لادراك
ما يصبو اليه من رئاسة الحزب الثوري في مدة قصيرة . كان لا يشك ولا يتردد اذا
ما قرر أمراً ، ولذا كان يتق دائماً من أنه لن يخدع . كان يبدو له كل شيء بسيطاً ،

واضحاً ، لا يقبل الجدل . وكانت سائر الأفكار تبدو في نظرة واضحة بسيطة لضيق أفقه ، ولذا كان على الدوام يردد قوله . بالمنطق تتضح الحقائق .

كان من الاعتداد بالنفس بحيث كان يعسر القرب منه دون ان يحس المرء برغبته في فرض سلطته عليه ، او ان يضطر الى الوقوف في وجهه ، ولما كان على الدوام يعمل مع فتیان يلتبس لديهم الاعتداء بالنفس بالأفكار السامية ، فقد استكان لسلطانه أكثرية هؤلاء مما يجعله يحتل خلال وقت قصير مكانة مرموقة في الاوساط الثورية . كان رفاقه يخشونه ، ويقدرونه لاقدامه وحزمه ، ولكنهم لم يكونوا يحبونه ، كما لم يكن يجب أحداً . كان يرى في كل رجل يتمتع بموهبة بارزة منافساً له ، ولم كان يتمكن لو يستطيع تجريد سائر ذوي المواهب من مواهبهم ليصرف عنها الانتباه العام ولم يكن يظهر تلطفاً إلا لمن ينحنون أمامه . وهكذا فانه طوال الرحلة لم يظهر ميلاً لغير (ماركل) ذاك القوي تبنى سائر آرائه ، والمرأتين اللتين كان يزعم أنها مغرمتين به وهما (ماري ايفرامونا) والحسنة (غرابتز) .

كان (نوفود فوروف) من الوجهة النظرية من القائلين بتحرر المرأة ، ولكنه عملياً كان يرى فيها مخلوقة ضعيفة وبليدة ، باستثناء أولئك اللواتي كان يهوهن ، ويصفهن بأنهن مخلوقات غير عادية ، واللواتي لم يكتشف غير مواهبهن . لقد أحب هكذا كثيراً من النساء وعاش حياة زوجية مع خيلتين ، ولكنه هجرهما عندما أدرك ان ما يشعر به نحوهما لم يكن حباً حقيقياً . وهو الآن يتبهاً لاخذ خلية جديدة هي (غرابتز) .

كان يحتقر (نيكليندوف) لأن هذا كان يتصرف مع (ماسلوف) تصرف « الغبي المدعي » على حد تعبيره . ولكن حقيقة كرهه له كان عدم مشاطرة الأمير له آراءه حول وسائل اصلاح عيوب المجتمع ، اذ كانت له آراؤه الخاصة ، ويعالج القضايا الاجتماعية كما يعالج الأبله ، وكان (نيكليندوف) مدركاً لحقيقة ما يشعر به ذلك الثوري نحوه ، ولم يكن يجهل ، على رغم ما كان عليه من حسن النية ان ما

من قوة في ارض لا تستطيع ان تحول دون ان يعامل ذلك الرجل بزيج من الاحتقار
وخبث النفس .

- ٤٦ -

عندما هم الأمير بالتحدث (لكاترين) بعد ان فرغ المساجين من تناول طعام
العشاء وشرب الشاي ، سمع صوت الرئيس في القاعة المجاورة فوجم الجميع ، وفتح
الباب ودخل الرئيس يتبعه حارسان لتفقد المساجين المليي . فأحصى المساجين السياسيين
واحداً واحداً وهو ينطق بأسمائهم بينما كان احد الحارسين يلسمهم بإصبعه .

وعندما استكمل الرئيس تفقده للمساجين التفت الى الأمير ، وقال له بزيج من
الاحترام ووحدة الحال .

- تفضل أخرج يا حضرة الامير . لا يجوز ان تظل هنا بعد استعراض اللائحة .

ولكن (نكليندوف) كان يدرك مغزى هاته الكلمات ، فتقدم من العجوز
ودس في يده ورقة من ذوات الثلاث روبلات .

- يبدو ان من العسيرو طرده . بوسعك البقاء هنا بعض الوقت .

وفيا كان الرئيس يهم بالخروج من القاعة دخلها سجين طويل القامة نحيل الجسم
حول احدى عينييه هالة زرقاء يرافقه حارس .

- جئت أبحث عن الطفلة . - قال السجين .

فارتفع صوت طفلة ، وبرز رأس أشقر من بين النسوة اللواتي كن يخطن ثوباً
للطفلة من احد فساتين (رانتريف) قائلاً . - هذا أبي .

- تعالى يا حبيبي ، تعالى نامي . - قال لها السجين .

- ستكون هنا احسن حالاً . - أجابته (ماري باولوفنا) وهي تمحلق في

وجهه المهشم .

- دعها معنا .

ان السيدة تصنع لي ثوباً جديداً فستاناً أحمر . - أجابت الطفلة إياها وأرته ما تخطه لها (اميليا رانتزيف) .

- أترغين في البقاء معنا ؟ - سألتها هذه وهي تداعبها .

- أجل ، ولكن اريد ان ينام ابي معنا ايضاً .

فانقرجت شفتا (رانتزيف) عن احدى ابتساماتها التي تضي على وجهها مسحة من الجمال .

- ينام ابوك في الغرفة المجاورة ، ولكنه يسمح لك بأن تنامي معنا . أليس كذلك . - قالت ذلك والتفتت الى الأب .

- سوا أموركم كما تشاؤون . - قال الرئيس ثم خرج يتبعه الحراس الثلاثة .

ولما ذهب هؤلاء تقدم (نوباتوف) من أب الطفلة وقال له وقد وضع كف العريضة على كتفه .

- قل لي يا أخي ، هل صحيح ان (كارمانوف) ينوي تبادل الاسم مع منفي آخر ؟

فتجهم وجه السجين الهادي فجأة وأطرق بنظره .

- لم نسمع بشيء من هذا ، تقال أشياء كثيرة كاذبة . اجاب ثم قال دون ان يرفع نظره من الأرض - يا (انيوتكا) ابق هنا مع هؤلاء السيدات الرائعات . - وفر مسرعاً .

- انه يعرف كل شيء . ويجب ان يكون صدقاً ما قاله (مكاربوس) . - قال (نوباتوف) هذا موجهاً الكلام للأخير .

فصمت الاثنان رغبة منها في تفادي المشاكل .

كان (سيمونسون) طيلة الوقت صامتاً لا يثبت بينت شفة مستلقياً على السرير ، فنهض من فراشه مجزم ، ثم شق طريقاً له بين المساجين وتقدم من الامير .

- هل تسمح بالاصغاء لي بعض الوقت ؟

- بكل سرور . - أجابه الأمير ثم ذهب واقفاً يتبعه .

وإذ رأت (كاترين) ان الأمير قد وقف احمر وجهها وحولته على الفور .
- اليك ما أردت ان اصرح لك به . قال (سيمونسون) بعد ان مشى مع الامير
حتى الردهة .

كان الصخب شديد آنئذ هناك ، لما يحدثه المجرمون العاديون من ضوضاء سواء في
المهجع المجاور او المشى فزوى الامير ما بين عينيه لان الضجيج كاد يصم أذنيه ،
وكذلك كان « سيمونسون » لا يسمع شيئاً .

- بما اننى اعرف صلاتك (بكاترين ميكاييلوفنا) . - قال وهو يحدق بعيني
الامير ، - رأيت من واجبي .

وأمسك عن الكلام عند هذا الحد ، لان اثنين كانا آنئذ يتشاجران عند الباب
وبصرخات .

- اقول لك اني لست انا خنزير . - كان يصيح احدهما ، فيصيح به الآخر .
- ارجعه لي ايها الوحش الحيث .

وهنا جاءت (ماري باولوفنا) فقالت :

- ان محاولة التحدث هنا ساقطة . تعالاي معي الى مهجعنا اذ لا يوجد احد فيه على
ما أظن .

وذهبت بها الى المهجع الثاني حيث ترقد النساء ، لم تكن الحجرة خالية كما ظنت ،
اذ كانت (فيرا ايفراموفنا) مستلقية على فراشها ووجهها الى الحائط .
فقالت (ماري) :

- انها تشكو من الشقيقة وأظنها نائمة فلن نسمع حديثكما ، وها أنا
ذاهبة عنكما .

- بوسعك ان تبقي اذ ليس لدي اسرار أخفيها ولا سيما عنك . - اجابها
(سيمونسون) .

- ليكن ما تريد . - قالت هذه . ثم جلست على الكرسي بحركات تنضج بعذوبة الاطفال .

- اليك ما أردت ان ابوح لك به - عاد (سيمون) يقول - بما أنني أعرف صلاتك (بكاترين ميكاييلوفنا) رأيت من واجبي ان أطلعك على علاقتي بها .

- ما معنى هذا ؟ سأله (نيكليندوف) بذعر مفاجيء .

- القضية هي انني راغب في الزواج من (كاترين) . .

- احقاً ما تقول ؟ - قالت (ماري بولوفنا) وهي تحديق في (سيمون) بعينها الزرقاوين الجليتين .

- لقد قررت ان أسأله اذا كانت توافق ان تكون زوجة لي .

- وما الذي أستطيعه انا ؟ هذا من خصوصياتها . - قال (نيكليندوف) بجفاء .

- أجل . ولكنني أعلم أنها لن توافق دون إذن منك .

- ولماذا ؟

- لان (كاترين) لن تتخذ قراراً ما قبل ان يثبت في امر علاقة سموك بها .

- بالنسبة لي فالامر غاية في البساطة . - قال (نيكليندوف) - لقد أدبت ما

رأيت واجباً عليّ تجاهها . وحاولت جهدي تخمين وضعها ما استطعت . ولكنني لن افرض نفسي عليها لقاء أي شيء في الدنيا ، ولن أتحمك في رغبتها .

- هذا واضح . ولكنها لا تقبل بتضحياتك .

- ليس في الامر أي تضحية .

- انا أعلم ان قرارها بالنسبة لهذه القضية لا ينقض .

- اذن لماذا تخاطبني فيه ؟ قال له (نيكليندوف) .

- من الضروري ان تعلم انه يجب ان تكف عن متابعة العناية بها .

- كيف أستطيع الموافقة على الكف عن عمل أراه واجباً عليّ ؟ والشيء

الوحيد الذي أستطيع قوله هو انه في حين لا أرى نفسي حرة التصرف بالنسبة لها كل الحق في حرية التصرف بالنسبة لي .

فلبت (سيمونسون) برهة مفكراً ، ثم أجاب :
— حسن ، سأخبرك بذلك ، ولكن لا تظن اني أهواها ، انا احبها كأخت لي ،
كصديقة احاول تخفيف آلامها ولست ابتغي شيئاً سوى مساعدتها وتحسين وضعها .
وعلى رغم الانفعال الذي اعترى الامير فقد لاحظ ان صوت (سيمونسون)
كان يرتجف .

— تحسين وضعها — عاد (سيمونسون) يقول : — هي لا تقبل مساعدة سموك ،
وقد تقبلها مني ، فاذا صح لي ذلك فسأطلب نقلي الى المدينة التي ستقضي محبوسيتها
فيها ، سأعيش على مقربة منها ، ولعلي اقو على ان اجعل حياتها أقل ألماً .

وعاد فأمسك عن الكلام اذ اوشك ان يبكي .
— ماذا تريد ان اقول لك ؟ — اجاب . (نيكليندوف) يسرني انها وجدت
محامياً نظيرك .

— ان ما كنت اتوق لمعرفته هو رأيك فيما اذا كان زواجي منها مفيداً ، بعد ان
اطلعت على مدى شعوري نحوها ، ورغبتني في توفير الهناء لها .
— اجل ، ارى ذلك ؛ — قال (نيكليندوف) مجزماً .

— انا لا أفكر إلا بها ، وامننى قليلاً من الهدوء لتلك الروح التي طالما تألمت .
— أضاف (سيمونسون) يقول وهو يرمق الأمير بنظرات جد متوسلة وصيانية ،
تتناقض ووضع ذلك الرجل الذي كان على العموم كثير التحفظ والغموض .

وفجأة تقدم من (نيكليندوف) وامسك بيده وهو يتسم استحياء وقبل خده ،
ثم قال :

— انا ذاهب لأتقل لها ذلك ، انا ذاهب لأتقل لها ذلك في الحال . — قال هذا ،
وخرج مسرعاً .

— ٤٧ —

هكذا تأتي الأمور — قالت (ماري باولوفنا) أنو خروج (سيمونسون) ،

انه مغرم لحد الجنون . من كان يصدق ان (فلاديمير سيمونسون) سيصبح عاشقاً
كلما هقين ؟ انه لما يبعث الدهشة ، وازيد على ذلك ان هذا يغيظني . - اضافت
تقول بمزيج من سخرية وجد .

- ما رايبك فيها ستفكر به (كاترين) .

- هي ؟ .

ثم أمهكت (ماري) عن الكلام قليلا كمن تحاول الاجابة بأوضح ما تستطيع .

- هي ! انها ترى ان ماضيها لن يحول دون ان تكون لها طبيعة من أكثر ما
رايت استقامة ، انها ادق احساساً من جميعاً . هي تحبك كثيراً ، وكثيراً . ويسعدها
او تقوم بعمل سلبى يملك على الكف عن العناية بها . وترى في زواجك منها سقوطاً
اسوأ من كل ماضيها . وانا واثقة من انها ان توافق على ذلك مطلقاً ، ان وجودك
هنا يسبب لها قلقاً مستمراً .

- بماذا تشيرين علي اذن ، هل أتواري ؟

- أجل ، او على الأقل بعض التواري .

- كيف يمكنني ان اتواري بعض التواري .

- لقد ذكرت الآن ، - قالت (ماري) راغبة في تغيير مجرى الحديث ، - لقد
ذكرت انني لم اجب على سؤالك الاول ، كنت اريد ان اقول لك ان (كاترين)
لا بد وان تكون على علم بما يجمله (سيمونسون) من شعور حاد نحوها ، على الرغم
من انه لم يصرح لها به حتى الآن ، وكما تعلم فأنا لست كثيرة الخبرة في هذه القضايا
ولكنني اعتقد ان هذا الحب لا يختلف عن غيره من حيث الجوهر عن اي حب
عادي ، على الرغم من محاولة (فلاديمير) اظهاره بظهر الحب العنري الأفلاطوني ،
وانه يشهد نشاطه بدلاً من اضعافه ، واني اعلم ان لا وجود لمثل هذا ، اذ هو مجرد
رغبة جنسية كالتي يحسها (توفود فوروف) نحو الحسناء (غرابتر) .

وكانت (ماري باولوفنا) جد رغبة في مواصلة هذا الموضوع الذي يروقها ،
لولا ان قاطعها (نيكليندوف) قائلا :
- واخيراً بماذا تنصحين لي !

- ارى ان تتحدث بذلك مع (كاترين) . ومن الأفضل ان يكون كل شيء
واضحاً ، فعالج الأمر معها ، اتريد ان ادعوها !
- اجل ، ارجوك . - قال (نيكليندوف) .
فأسرعت (ماري) بالذهاب على الفور .

كانت تضطرب في نفس (نيكليندوف) مشاعر غريبة بينما كان ينتظر وهو جالس
وحده في القاعة ينصت لأنفاس (فيرا ايفراموفنا) وللضجيج المستمر والضوضاء التي
كان المساجين العاديون يحدثونها ، والتي كانت تبلغ سمعه عبر الحائط ، ان ما صرح
له به (سيمونسون) يجعله في حل من الالتزام الذي ألزم نفسه به ، والذي كان
يبدو له خصوصاً في الأيام الأخيرة ، مخيفاً وعبثاً ثقيلاً ، ومع ذلك فان ما صرح له به
(سيمونسون) لم يسوءه فحسب ، وانما أثار في نفسه ألماً لم يعرفه من قبل .

كان لألمه هذا أسباب عديدة متنوعة لم يكن هو نفسه يدركها الا بصورة غامضة ،
فمنها مثلاً ، ان ما عرضه عليه (سيمونسون) قد جرد تصرفه بالنسبة (لكاترين)
من الطابع الخاص الذي كان لا يزال حتى تلك الساعة ملء عينه وعين الدنيا ، واذا
كان رجل (كسيمونسون) لا يرتبط بأي التزام بتلك المرأة ، يريد ان يرتبط
مصيره بمصيرها ، فالى اي شيء انحسرت تضحيت تلك كانت تبدو له بطولية !
كذلك كان للغيرة عملها ، اذ كان قد ألف فكرة كونها تحبه لحد أصبح معه التفكير
بإمكانية حبها لغيره يقض مضجعه كخيبة الامل ، وكان يتألم لانهاير مشاريعه وخططه
كان قد خطط لحياته مع (كاترين) التي كان سيرعاها حتى نهاية مدة سجنها ، وما
دامت ستزوج من (سيمونسون) فما معنى وجوده بقربها ، لقد بات يتوجب عليه
ان يبحث عن اسلوب جديد لحياته ، وهكذا ، فانه عندما فتح الباب ، ودخلت
(كاترين) كانت تتنازعه أفكار محزنة من انواع شتى ، وكان ضجيج القاعة

المجاورة يزداد حدة بين حين وحين، وكان واضحاً ان امرأ غير عادي قد حدث هناك .
وتقدمت منه (كاترين) بخطى سريعة دون أن ترفع نظرها من الأرض .
- لقد اخبرتني (ماري باولوفنا) انك ترغب في التحدث الي . - قالت وهي مرتبكة .

- اجل يا (كاترين) . اجلسي . لقد خاطبني (فلاديمير سيمونسون) بأمرك .
كانت الفتاة قد جلست واضعة يديها على ركبتيها باطمئنان . ولكنها عندما لفظ
الأمير اسم (سيمونسون) انتفضت واحمر وجهها .
- وماذا قال لك ؟

- لقد قال لي انه يريد الزواج منك .

فتقلص وجه الفتاة كما لو كانت تشعر بألم شديد، ولكنها لم تقل شيئاً وإنما اطرقت
بنظرها الى الارض .

- وهو يطلب موافقتي ، وعلى الأصح يطلب نصحي .. اضاف (نيكليندوف) .
فقلت له ان أمر هذا يعود اليك فانت التي ينبغي أن تقرري .

- وما هي موجبات كل هذا ؟ قالت ذلك وحدثت بالامير بنظرة نفاذة من عينيها
الحولوين التي طالما أثرت في نفس (نيكليندوف) . ولبت هكذا برهة يحديق احدهما
في الآخر . فعبوت لهما تلك النظرة عما لم تقو الكلمات على الافصاح عنه .

- انت وحدك التي ينبغي ان تبني في الأمر . - عاد يقول لها من جديد .

- ما ينبغي أن اقرر ؟ ما دام كل شيء مقررأ من قبل . - اجابت (كاترين) .

- كلا يا (كاترين) ينبغي أن تصرحي اذا كنت توافقين على عرض (فلاديمير
ايفان) .

- اتواني أنا السجينة استطيع الزواج ، ولماذا يضيع (فلاديمير ايفان) ، - قالت
الفتاة بصوت يرتعش .

- ولكن ، هل تحينه . - سألها (نيكليندوف) .

- دعني . الأفضل ألا تحدث في هذا . - اجابت (كاترين) ثم هبت واقفة وأسرعت بالخروج من القاعة .

- ٤٨ -

ألقى الأمير كل شيء مضطرباً في القاعة الكبيرة عندما عاد إليها بعد نهاية حديثه مع (كاترين) . كان (نوباتوف) الذي كان يتدخل في كل شيء ، ويراقب كل مكان ، ويستعلم عن كل أمر ، كان هذا قد وقع على خبر جديد لرفاقه ، إذ اكتشف على أحد الجدران كتابة بخط الثوري (تيلين) الذي كان منذ عامين قد حكم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة . كانوا يحسبون انه قد اصبح منذ مدة في سيبيريا ، ولكن الكتابة تدل على انه مر منذ وقت قصير .
كان هذا نص الكتابة .

« مررت هنا في ١٧ - ١٨ آب مع قافلة المجرمين العاديين . كان من المقرر أن يأتي (نيفوروف) معي ، ولكنه انتحسناً في « كازان » خلال نوبة جنون . انا صحيح الجسم والعقل واثق بمستقبل قضيتنا . - (تيلين) . »

كانوا يعلقون على تأخير سفر (تيلين) ، وبصورة خاصة على دوافع انتحار (نيفوروف) . وكان (كريلتوف) وحده الذي لبث صامناً محمداً في الفضاء بعينه المحموتين .

- لقد اخبرني زوجي ان (نيفوروف) كانت تترأى له خيالات مخيفة عندما كان في القلعة . - قالت (وانتريف) .

- اجل . لقد كان شاعراً خيالياً ، وأمثال هؤلاء لا يحتملون الوحدة . - قال (توفودفوروف) ساخراً . عندما وضعت في الزنزانة قررت ألا أؤخذ بهذه الخيالات فوزعت وقتي ونفذت خطتي بدقة ، وهكذا استطعت ، دون شك ، احتمال الزنزانة .

— احتملت الزنانة ؟ ليس في ذلك ما يوجب المباهاة . كنت اجد سروراً
عندما أسجن لوحدي . — هتف (نوباتوف) يقول وهو يتسم محاولة منه لتخفيف
الكتابة التي كانت تسود الجميع . — عندما يكون المرء طليقاً يهتم لكل شيء ،
ويحاذر ان يضر نفسه وبالأخرين ، وان يخرج القضية ويعوق نجاحها . ولكن اذا
كان سجيناً فان كل مسؤولية ترتفع عن عاتقه ، ويصبح بإمكانه ان يتنفس ببله رتيه
كما يهوى . التدخين والجلوس كافيان لقضاء الوقت .

— هل عرفت (نيفوروف) معرفة صحيحة ؟ قالت (ماري باولوفنا) تسأل
(كريلتزوف) الذي عادت عضلات وجهه فتقلصت ، وبدأت يدها ترتجفان عندما
سمع كلام (توفود فوروف) .

— كان (نيفوروف) خيالياً ؟ قال (كريلتزوف) وقد رفع صوته الأبع
جهده . — كان (نيفوروف) احد اولئك العباقرة الذين يغشون هذا العالم بين حين
وحين . كان حرياً بالاعجاب ، شفافاً لفرط صراحته . ولم يكن عاجزاً عن قول
الكذب فحسب ، وانما على اخفاء أقل أفكاره أهميه . كان شديد الاحساس للدرجة
ان اقل شيء كان كافياً لايلام نفسه .. اجل كان طبيعة حساسة ، غنية ، منتجة .
اواه . لم يكن لا .. ولكن لم الكلام ؟

وصمت ، الا انه كان يبدو انه يزداد انفعالاً من حين لآخر . ولكنه اضاف بعد
ذلك بمرارة وألم:

— ان امثال (نيفوروف) يتساءلون بأسي بأي الأمرين يبدأون . أبتعليم
الشعب أولاً ، ام باستبدال المؤسسات التي يحكم بها . وكذلك يتساءلون بأي وسيلة
يأخذون أولاً في نضالهم ، أبالدعاية السياسية ام بالارهاب . وهذا هو سبب تسميتهم
لهم بالخياليين . ان من ينعتهم بذلك لا يتساءل ، ولا يناقش ، ولا يزعج نفسه بالبحث
عما اذا كانت اعمال امثاله تعود على الشعب بألاف الضحايا . بل على العكس يبدو
انهم يرغبون في ان يموت الأفضل والأحسن . والواقع ان هذان يهلكان .

لقد كان (هرزن) يؤكد ان مستوى روسيا الاجتماعي قد تدنى بعد القضاء على جماعة كانون الأول . ثم قضى على (هرزن) ومعاصريه ، والآن يلقون الحرمان من الكنيسة على (نيفيوروف) .

- وعلى رغم كل هذا أرى ان ليس بوسعهم القضاء على جميع البشر . - اجاب (نوباتوف) بلهجة مرحة . - وليس من شك في انه سيظل في الدنيا من يصفي الحسابات لتحديد المسؤوليات .

- كلا . سوف لن يبقى احد اذا ما سمحنا لهؤلاء بأن يتصرفوا كما يشاؤون . قال (كريلتزوف) وهو يزداد حدة .

- اعطني لفافة تبغ يا (اميليا) .

- لا تدخن . لا تدخن هذه الليلة فلست مرتاحاً . - قالت له (ماري باولوفنا) . - دعيني . أجبها بحدة ، وقد أشعل اللفافة .

ولكنه بعد ان اخذ نفساً من اللفافة بدأ يسعل ويحتق ومضت مدة قبل ان يعود الى حاله الطبيعية ، ثم نشط وقال :

- كلا.. ليسوا رجالاً اولئك الذين يتصرفون هكذا ، ويفكرون بهذه الصورة ، كان يجب سحقهم كالبق .. كان يجب القضاء عليهم .. بلى ، هذا ما كان ينبغي عمله لآث ..

وكان قد بدأ بعبارة جديدة عندما احتقن وجهه فجأة ودامته نوبة سعال حادة القت به على الحدة ، واندفع الدم منه .

فأسرع (نوباتوف) الى الممشى يبحث عن ثلج ، وتقدمت (ماري باولوفنا) من المريض وادنت منه زجاجة تحتوي على (فاليرنابا) ولكنه كان يدفعها عنه بيده الناحلة مغمض العينين ، وظل جامداً بعض الوقت لا يستطيع التنفس .

وعندما خففت لزقات الثلج والماء البارد بعض ما به ، وأصبح بإمكان رفاقه

نزع ثيابه عنه ، أرقدوه في فراشه ، فودع (نيكليندوف) وخرج الى الممشى حيث كان الرئيس ينتظره منذ مدة طويلة .

وكان ضجيع المجرمين العاديين قد هدا ، وكان بعضهم قد نام . لم يكونوا يرقدون على الأسرة وتحتها ، وعلى الأوض وأمام الأبواب فحسب ، وإنما كان كثير منهم لم يجد مكاناً داخل القاعة ، فتمدد في الممشى ، متخذاً من كيسه مخدة ، ومن ثيابه بديلاً عن اللحاف .

كان غطيظ النيام يملأ القاعات والمهشي ، وتشاهد في كل مكان أشباح بشرية غريبة شبه مسترة تحت معاطفها الكبيرة . كذلك رأى الأمير عجوزاً كان لا يزال مستيقظاً يبحث في ثيابه عن القمل ، وهو جالس تحت المصباح عاري الجسم . وكان بعض المساجين جالسين في أحد المنعطفات يلعبون الورق باهتمام بالغ . كان الجو في الممشى شديد العفونة لدرجة خال (نيكليندوف) انه كان في قاعة المساجين السياسيين يستنشق هواء نقياً .

واخيراً بلغ نهاية الممشى محاذراً ان يبطأ النيام . وكان ثلاثة من المساجين لم يجدوا معالهم ، حتى في الممشى فاستلقوا على عتبة الباب بجانب المزارب . كانت أحدهم أبلهاً ، وكان الأمير قد رآه غير مرة ، وكان الثاني صيباً في حوالي العاشرة من عمره ، يرقد كالأطفال واضعاً كلتا يديه تحت خده في حين كان المزارب المليء بالنفايات ينضح بسائل قدر تتساقط قطراته الداكنة عليه .

وفي فناء الدار وقف (نيكليندوف) وقتاً طويلاً يعجب بملء رتيه هواء الليل البارد .

- ٤٩ -

كانت الغيوم قد انقشعت ، بعد ان كانت منذ ساعتين تحجب زرقة السماء ، وعادت النجوم تتلألأ من جديد بكامل بهائها . وكانت الأوحال قد تجمدت في أماكن كثيرة ، ولذا فقد أصبح من السهل على الأمير ان يعود الى الفندق . وقرع

النافذة فأسرع الشاب العريض المنكبين وفتح له الباب .

وبلغ سمع (نيكليندوف) من الناحية اليمنى للمشى غطيظ ساقني العربات الذين كانوا يوقدون في حجرة مظلمة . وملأت أنفه رائحة الخمر ممزوجة برائحة عرق الرجال صادرة عن باب القاعة الكبيرة المفتوح ، والذي كان ينبعث منه نور مصباح كبير مضاء امام أيقونته ، فصعد الى غرفته وخلع ثيابه واستلقى على الديوان الذي كانت فوقه منحة من الفراء ، ملتجئاً بمعطف السفر . وطافت به صور مختلف المشاهد التي مرت به ، وكان خيال ذلك الصبي الذي يوقد على عتبة الباب تحت المازراب الذي كان ينضح بأفكاره . اول ما استعرضته بخيلته بوضوح وجلاً .

كان الحديث الذي دار بينه وبين (سيمونسون) ، ثم بينه وبين كاترين قد أذهله ، وكان قد أدرك ان حدثاً ما غير متوقع وجد خطير قد وقع . حدثاً ربما كان له أثر كبير على سيرة حياته في المستقبل . ولكنه تبين أيضاً ان ذلك الحدث الجديد كان من الخطورة بحيث يتعذر عليه التفكير فيه بدم بارد . ولذا كان يحاول بشتى الوسائل الممكنة تناسيه ، واقضاء سائر الذكريات التي تتصل من بعيد او قريب بوضعيته ووضعية ، (كاترين) . وكان مشهد الصبي الذي رآه راقداً على الباب لا ينفك يفرض نفسه عليه كلما حاول تناسيه ..

كذلك تبين له ان مجرد معرفة الانسان بأن ثمة أقواماً في جهة ما من الدنيا قريبة او بعيدة ينزلون بأخوانهم أنواعاً شتى من العذاب والآلام والاذلال امر يختلف كل الاختلاف عن مشاهدة ذلك بأم العين ساعة بعد ساعة ويوماً اثر يوم خلال ثلاثة اشهر . وكما تساءل في داخله خلال هذه المدة قائلاً : « هل انا مجنون فأرى الأشياء خلافاً لما يراها عليه سواي ؟ ام المجانين اولئك الذين يرتكبون هذه المنكرات او يسمحون بارتكابها ؟ » وطبعي ان لا يسلم هو مجنونه ما دام يرى تفكيره منسجماً موزوناً وواضحاً . كذلك من يقر تلك الأعمال التي طالما أثارته ذعره ، ويراهها فوق ذلك ضرورة وهامة ، لا يسلم أيضاً مجنونه ، بل على العكس يرى نفسه انسانياً يخدم

الانسانية خدمة جلى . وعبناً حاول ترجيح احد القواين . وانهى أخيراً الى تفسير لما مر به خلال الأشهر الثلاثة الماضية . واليكه :

لقد اصبح شديد الاقتناع بأن القضاء والادارة ينتقيان اشد الأشخاص حماساً ، وأكثرهم يقظة ، وبكلمة واحدة أكثرهم اهليسة واستعدادا ، ولكن أقلهم تعقلا ووعياً فيعتقلانهم . وهؤلاء دون ان يكونوا أكبر مسؤولية ، وأقل خطراً يتلاقون في السجون والمعتقلات ، وفي محطات الاستراحة حيث يرغمون على قضاء أعوام ، في حياة ركود وخمول ، في عزلة عن الطبيعة والعائلة والعمل . وبكلمة واحدة خارج سائر ظروف الحياة الانسانية الطبيعية

كذلك تبين له ان هؤلاء يتعرضون في كل مكان لسلسلة من عمليات الاذلال (كتقييد الرجلين ، وغل اليدين ، وحلق الرأس والثياب الخاصة) التي ترمي للقضاء على المفومات الرئيسية لدوافع الحياة المعنوية عند أكثر الناس ، كالحجل ، والحرق على كسب احترام الناس ، والشعور بالكرامة الانسانية . كذلك رأى ان في استمرار تعريض هؤلاء لخطر الأمراض ، وللموت ما يعدم حالة نفسية يرى فيها نفسه ، افضلهم وأسمهم حلقاً مدفوعاً بغريزة حب البقاء للقيام بأشد الاعمال قسوة وضعة ، وتبريرها امام ضميره .

كما لاحظ أيضاً ان ارغامهم على معايشة رفاق السوء ، كالقتلة واللصوص وموقدي الحرائق يعرضهم للعدوى بالفساد .

واخيراً انتهى الى القول بأن المعاملة التي يعاملون بها ، وتطبيق مختلف الاجراءات الرهيبة عليهم كفصل الآباء عن البنين ، والأزواج عن الزوجات ، ومنع مكافآت للوشاة ، قد يراد من كل ذلك اقناع هؤلاء بأن سائر مظاهر العنف والقسوة ، والوحشية ليست من الأمور والأعمال التي لا ينبغي منعها فحسب ، وإنما هي مما يجب ان ينص القانون عليها لفائدتها . ومن هنا نستنتج ان كل هذه الاشياء يجب ان يسمح بتطبيقها بشكل خاص على اولئك المحرومين من حريتهم الذين يقاسون اسوأ حالات اليأس .

وكان (نيكليندوف) يخاطب نفسه بقوله : الحق ان لقائل ان يقول هذه الاجراءات لا بد وان تكون قد ابتكرت خصيصاً لنشر الفساد والريذة بين اقوى رجال الأمة الأمر الذي يساعد كثيراً على نشرهما بين سائر الأوساط ، ففي كل عام يتحول المئات من المخلوقات البشرية الى أشرار مجردين من كل شعور طبيعي ، فيندفعون لارتكاب اشد الأعمال شناعة ، حتى اذا ما بلغوا ذروة الشر أطلقوا سراحهم لينشروا في طول البلاد وعرضها ما أثمرته نفوسهم من فساد .

لقد رأى (نيكليندوف) في السجن عند اجتماعه الأول (بكاترين) ، ثم بعد ذلك خلال مسيرة القافلة سواء في (بيرم) و (ايكاتيرنبرج) و (طومسك) ، وسواها من المخطات ، آثار ما لا يمكن اعتباره سوى مخطط واسع النطاق للقضاء على اخلاق الأمة ، لقد رأى طبائع ساذجة ليست بالصالحة ، ولا بالطالحة ، طبائع مشبعة بالأفكار الأخلاقية التقليدية التي يؤمن بها القروي والمسيحي ، قد تحللت بصورة تدريجية من افكارها هذه لتعتق أخرى تقول بشرعية كل عنف وعار . وانتهت أخيراً ، وبتأثير ما رآته من سوء ما يعامل به المساجين ، الى الاعتقاد بأن كل ما لقنها آياه دينها من مبادئ العدالة والرحمة كان خادعاً . وان من حقها نسيانه واطراحه .

كان (نيكليندوف) قد تبين عند كثير من مساجين القافلة نماذج لمثل هذه العلوى . تبينها عند (فيدروف) وعند (مكاربوس) وحتى عند (تاراس) ذلك الذي لم يرافق المجرمين سوى شهرين اثنين اكتسب في نهايتهما الكثير من عاداتهم ، واحساسهم ، وطريقتهم في التعبير عن ذات نفوسهم . لقد سمعه الأمير يتحدث بإعجاب عن ذلك الشقي العجوز الذي كان يتباهى بقتل رفيقه وأكل لحمه . وكان يحدث نفسه بأن القروي الروسي قد يصل خلال اشهر قلائل بتأثير المعاملة التي يلقاها المساجين الى حالة من الانحلال شبيهة بتلك التي يعانيتها المثقفون الذين يجدون (نيتشه) ، ويشيرون بتعاليمه من الاهتراء المعنوي

لقد علمته الكتب ان ما يراه من الاجراءات ذات النتائج المؤسفة ليست سوى ضروريات تبررها الحاجة لعزل بعض الاعضاء الخطرة عن كيان المجتمع بغية اسداء

المعونة لها واصلاحها . غير ان القول ابعد ما يكون عن الواقع . فهم بدلاً من عزلها يساعدون على نشر الفساد ، وعوضاً عن اربابها يشجعونها بتقديمها لها نماذج من القسوة وفساد الأخلاق ، وضمنهم لها حياة بطالة وكسل وتبذل تسرها وجعل الكثير من المتشردين يتمنون لو تقبلهم السجون . وهم ينقلون اليها بنظام ، عدوى مختلف الرذائل .

— اذن لماذا يتصرفون هكذا ؟ — كان (نيكليندوف) يتساءل دون ان يجد جواباً على سؤاله .

وشد ما كان يدعشه هو ان ما كان يحدث لم يكن طارئاً حديثاً ، وانما كان يجري منذ أجيال بصورة متواصلة مدروسة دون فرق سوى انهم من قبل يخدعون أنوفهم وينقلونهم في الزحافات ، اما اليوم فيغلون ايديهم ، ويفقثون عيونهم بقضائهم ، وينقلونهم في البواخر .

كان (نيكليندوف) قد قرأ في مؤلفات بعض الكتاب ، ان اسباب ما ينكره من اجراءات تعود لقلعة السجون ، ونقص في التنظيم لا يلبث ان يتلافى . غير ان هذه الاجابة لم تقنعه ذلك لأنه يعلم حق العلم ان مصدر تلك المساويء لم يكن قلة السجون ، ولا نقص في هذه المنظمة او تلك .

لقد علم بالاختبار ان سوء ما زال يزداد بين عام وعام ، على رغم ما يسمونه تقدم المجتمع . وان قوافل المساجين المبعدين ما كانت قبل خمسين عاماً تظهر بوضوح كالآن مدى الهمجية والآنحطاط ، على الرغم من انعدام الخطوط الحديدية والبواخر في تلك الأيام لنقل المساجين الى أقاصي روسيا .

كذلك لم يكن يستطيع ان يقرأ بغير استياء وقلق ، وصف السجون النموذجية التي تخيلها علماء الاجتماع والتي تقوم فيها الكهرباء بمخدمة السجين فتتير له المكان ، وتطعمه ، وتعذبه ، وتعدمه .

وشد ما كان يغيث (نيكليندوف) علمه بأن ثمة قضاة وموظفون آخرون ،

ليتعلموا منها كيفية ابعاد بعض الرجال الى اماكن قسوة للتخلص منهم حيناً من الزمن ولينهاروا ان لم يكن مادياً فمعنوياً على الأقل .

كان الأمير بمقدار ما يزداد دراسة للسجون والمحطات الاستراحة عن كسب ، يزداد ادراكاً ان سائر الموبقات التي يرتكبها المساجين كالقنطرة والسكر وأعمال العنف والفسق لم تكن بشكل من الأشكال مظهرًا من مظاهر « المجرم النموذجي » المزعوم الذي ابتكره العلماء خدام السلطات ، وانما كانت نتيجة مباشرة للخطر الرهيب الذي يوجهه ينتحل بعض الناس الحق لأنفسهم بحاكمية البعض الآخر ومعاقبته .

كان (نيكليندوف) يعلم ان (كانيالية) آكل لحوم البشر السجين العجوز ، لم تبدأ في السجن ، ولم تتكون في المنفى ، وانما في الوزارات ، واللجان ، ودوائر الجزاء . كذلك كان يعلم ان كل ما يحدث في السجن لم يكن سوى نتيجة طبيعية لما يحدث في الأوساط العليا ، وان ثمة اناساً ، كصهره مثلاً ، لا يهتمون بقليل او كثير للعدل وخير البلاد الذي يدعون خدمته ، وانما هم الوحيد تقاضي الروبلات المخصصة لهم كمكافأة من عملهم الحقير الذي ينتج الفساد والآلام . .

أليس كل هذا وليد الأخطاء ؟ أليس من الممكن ضمان الراتب لهؤلاء الموظفين ، وحتى وعدم بعلاوات اذا ما كفوا منذ الان عن اقتواف تلك الأعمال الوضيعة التي يرون وجوب ارتكابها للحصول على الرواتب ؟

بمثل هذا كان يفكر (نيكليندوف) . وظلت هذه الافكار تراود ذهنه حتى غلبه النوم فنام حتى الصباح على رغم جيوش البق التي هاجته .

- ٥٠ -

عندما استفاق (نيكليندوف) عند الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي جاءته ربة الفندق برسالة قالت ان جندياً من حرس القافلة قد اتى بها . كانت تلك الرسالة من (ماري باولوفنا) .

لقد ارسلت هذه الفتاة تعلمه ان الحادث الذي وقع (لكريلتزوف) الليلة الماضية كان اخطر مما قدر له لاول وهلة .

« لقد عن لنا ان نبقى هنا ، وان نبقى معه . ولكنهم لم يسمحوا بذلك ، وهو الان مسافر معنا . ان حالته تدعو للقلق . الا تستطيع الحصول على موافقة لابقائه في الخطوة التالية اذا استدعت حالته ذلك . وان يبقى احدنا معه ؟ واذا رفضوا ذلك وكان من الممكن الحصول على موافقة برفاقتي له اذا ما تزوجته فلست بحاجة لان أصرح لك بأنني موافقة على ذلك » .

فأصدر الأمير لحوزيه بإعداد العربية ونهضة الحقائق . ولم يكن قد تناول كأس الشاي الثاني ، عندما سمع وقع حوافر جياد وجعجعة دواليب عربية جاءت تطلبه . فدفع ما عليه ، واستقل العربية ، وأمر الحوذي بالاسراع بالالحاق بالقافلة . وكان الضابط يسير في مقدمة العربات ، شأنه في كل يوم ليقوم بحراسة القافلة وقيادتها . وكان الجنود يحيطون بالعربات ويسرون بخطى ثابتة ؛ وكان كلا منهم قد جرع جرعة قبل سفره تجديد نشاطه .

كان عدد العربات يبلغ العشرين على الأقل ، وكان المساجين العاديون يستقلون الأخريات منها اكادساً بعضها فوق بعض ، ستة فسة ، بينما كان المبعدون السياسيون يسرون في اولاهها ثلاثة فتلاثة .

كان (توفود فوروف) يرافق (ماركل) و (غرابتر) في العربية . وكانت المرأة الحبلى التي تنازلت لها (ماري باولوفنا) عن مكانها في العربية ، ترافق (اميليا انتريف) و (نوبانوف) . ورأى الأمير في الثالثة (كريلتزوف) ممدداً في فراش من القش وتحت رأسه مخددة ، وعلى مقربة منه . تجلس (ماري باولوفنا) في مؤخرة العربية .

وأشار الامير الى حوزيه بإيقاف العربية ثم ترجل منها وتقدم من (كريلتزوف)

وكان الحراس يشون بالقرب منه فطلبوا من الأمير الابتعاد عنه ، ولكنه كان قد تعود ذلك منهم فلم يعبا بطلبهم وظل سائراً الى جانب عربة المريض ما طالب له ان يسير .

كان (كريلتزوف) ، وهو ملتف بفروته ، وعلى رأسه قبعة من جلد الخراف وعلى فمه عصابة بيضاء ، يبدو أشد شجونا وأكثر نجولا . وكانت عيناه ، وهما الحيتان في وجهه تتقدان حتى ليحسبها الرائي انها قد اتسعتا كثيراً . وكان يرسل نظراته الى الامام ، متأرجحاً كلما اهتزت العربة يميناً وشمالاً . وكان يبدو عليه الألم الشديد ، وعندما سأله (نيكليندوف) عن حاله اغض عينيه وحول رأسه بحركة تدل على الغيظ . وكان واضحاً انه يستجمع قواه لمواجهة صدمات العربة .

وعندما أبصرت (ماري باولوفنا) الامير رmqته بنظرة تم عن قلقها . ولكنها بعد قليل أخذت تتحدث اليه بما استطاعته من هدوء ومرح .

- لقد جئت بك بخبر سار . - قالت بصوت عال ليطفي من ضجيج عجلات العربة .
- لقد خجل الضابط بما فعله يوم امس فأمر بأن ينزع الغل من يد والد الطفلة ، وسمح له بحملها . لقد تنازلت لي (فيرا) عن مكانها في العربة ، ولذا تراني هنا ، في حين تسير هي على قدميها بصحبة (سيمونسون) و (كاترين) .

ثم ران صمت قصير . وفجأة تلفظ (كريلتزوف) ببعض كلمات بعد ان ازاح العصابة عن فمه . ولم تفهم (ماري) ولا الامير منها شيئاً . فنظر المريض عندئذ بفارغ صبر ثم عاد الى اغماض عينيه باذلا جهده في حبس سعاله . فانحنت عليه (ماري) فغمغم يقول لها :

- لقد تحسنت حالتي كثيراً . واذا لم يلحقني برد فأظنني سأستعيد صحتي .
ثم التفت الى الامير وقال له وهو يبتسم .

- ما شأن مشكلة الاجرام الثلاثة ؟ هل توصلت لحل لها ؟

فنظر اليه الأمير بشوق لمعرفة ما يعنيه بقوله هذا فشرحته له (ماري) قائلة ان

العلماء اصطاحوا على اطلاق هذا الاسم على قضية فلكية تتصل بعلاقة الشمس والأرض والقمر بعضها ببعض ، وان (كريلتزوف) قارن الليلة البارحة بين علاقات الامير العاطفية (سيمونسون) و (كلارين) .

فهز (كريلتزوف) رأسه موافقاً على ما قالته (ماري) .

- يرجع البث بهذه القضية لسواي . قال (نيكليندوف) :

- هل وصلتكم رسالتي ؟ وهل ستفعل ما طلبته منك ؟ قالت (ماري) تسأله :

- اطمئني . اجابها الأمير .

وهنا لاحظ (نيكليندوف) تقلصاً في عضلات وجه المريض ، فأدرك انه يتألم لأنه لا يستطيع الاشتراك معها بالحديث ، فمضى مبتعداً عنه .

وكان ما لمح به (كريلتزوف) قد أعاد الى ذاكرة الامير ما كان يحاول تناسيه من وضعيته الراهنة . وحملت الرغبة الملحة على مواجهة (كلارين) كي يبت بالقضية ، ولذا عاد فأمر الحوذي بان يغز السير ، وسرعان ما رأى امامه غطاء الرأس الازرق الذي تضعه (ماسلوفنا) على رأسها .

كانت الفتاة تمشي في مؤخرة القافلة ترافقها (فيرا ايفراموفنا) و (سيمونسون) الذي كان يبدد من حركات ذراعيه الطويلتين اللذين كان يطوح بهما في الهواء انه كان يشرح لرفيقيه شيئاً . وعندما ادركهم (نيكليندوف) حيته المرأتان باسيتين . وخلع (سيمونسون) قبعته له بحماس ظاهر . ولكن الامير بعد ان اصدر امره الى الحوذي بايقاف العربدة بغية التحدث اليهم ، احجم عن ذلك في اللحظة الحاسمة تهيأ ، واسرع يتقدم القافلة التي كانت تجر نفسها جراً على الطريق ، يرافقها الصراخ المألوف والضحك وصليل الحديد .

وقادته الطريق التي كانت تسير عليها العربدة الى غابة كثيفة اشجارها مختلفة فيما بينها كل الاختلاف سواء بورقها او قشورها . وما لبثت الغابة ان توارت وبرزت على أثرها الحقول الواسعة تمتدة عن الجانبين . فتبين الامير عن بعد قبة جرس وصلباناً مذهبة لدير كان هناك .

كان الطقس قد صفا ، وانقشعت الغيوم ، وعاد نور الشمس يسطع فوق الحقول ، واصبح الندى والوحل الذي كان قد تجلد ، وقبة الجرس والصلبان المنهبة تتلمع من جديد . وكان ذلك النور يجعل الحقول الممتدة على الجانبين ، والتي يحدها خط الجبال الازرق التي تسد الافق ، تبدو أكثر سعة وامتداداً .

واخيراً بلغت العربة قرية كبيرة هي احد ارياض المدينة التي كان (نيكليندوف) يقصدها .

كان شارع القرية يفض بالمسارة من الروسين والغرباء الذين يرتدون تشكيلة غريبة من الثياب والقبعات. وكانوا يتحلقون حلقات أمام الحانات والحانات والمحازن ، وكان بينهم الضاحك والمتشاجر والمتحدث . وكان ثمة عدد من العجلات منها التي تسير بشاقل ، والتي تقف في عرض الطريق . كان كل شيء يدل على قرب المدينة .

ووقف السائق في مقعده ، وراح بسوط جياده ليهز شخصيته ، فراحت تنهب الارض ، واجتازت العربة الشارع ، معرضة جماهير المارة التي تملأها الدهس .

وظلت العربة على سرعتها الى أن بلغت ضفة نهر يفصل بين المدينة والقرية ، الذي كان الناس يعبرونه على قارب عريض .

كان القارب انثذ يجتاز النهر قادماً الى الضفة التي كانت عربة الامير تقف عليها . وكان ثمة زهاء عشرين عجلة تنتظره . غير ان سائقي هذه العجلات سمحوا لسائق عربة الامير بأن يتقدمهم جميعاً . وعندما امتلأ القارب اغلق الحاجز الذي يفصله عن الشاطئ بين احتجاجات سائقي وركاب العجلات التي ظلت على البر .

ومضى القارب مبتعداً عن الرصيف ، مناسباً بهدوء وبطء على صفحة الماء ، غير يحدث ضجة أو ضوضاء الا ما كان من تكسر الامواج على جانبيه ، ووقع حوافر الجياد على سطحه الخشبي .

كان (نيكليندوف) يتأمل منظر الخط الذي يحدثه القارب على صفحة ماء النهر بينما كانت ذاكرته تستعرض مشهدين متاليين أولهما مشهد (كريلتزوف) وهو يحتضر على فراشه القشبي في العربة ، ونظراته المخبطة . والثاني مشهد (كاترين) وهي تسير بخطى نشيطة برفقة (فلاديمير سيمونون) .

كان المشهد الاول ، مشهد (كريلتزوف) الذي يأبى الاستسلام للموت ، يبدو له مربعاً ومؤسفاً . وكان الثاني مشهد (كاترين) التي وجدت رجلاً (كسيمونسون) يحبها فتسير وياه في طريق الحير بنفس الخطى النشيطة التي تسير فيها على طريق القافلة ، لا يبحث في نفسه الا احساساً ساراً ومنعشاً . ومع ذلك فان كلا المشهدين كانا في نظره متساويين في القسوة ولا يستطيع نسيانها .

ونقلت اليه اجنحة الأثير صدى فضياً رناناً لناقوس يعلن دنو موعد الصلاة في كنيسة المدينة . فتزع حوزي الامير وسائر المسافرين قبعاتهم عن رؤوسهم ، ورسما الصليب على صدورهم باستثناء عجوز رث الثياب ظل محتفظاً بقبعته على رأسه ، وأبى ان يرسم الصليب على صدره ، ولبث ساكناً ويداه وراء ظهره .

- وأنت يا شيخ لماذا لا ترسم الصليب على صدرك ؟ سأله حوزي (نيكليندوف) بعد ان وضع قبعته على رأسه . ألم تعد ؟

- أأرسم الصليب على صدري ؟ وأصلي ؟ قال الشيخ الممزق الثياب بعد ان اقترب من الحوزي ، وحدق فيه ملياً . الى من اصلي ؟
- يا له من سؤال . أأست مؤمناً بالله ؟

- وهل تعرفه ؟ وهل تعلم أين هو ؟

وكان في تعبيرات وجه الشيخ من الجذ والقسوة ما حمل الحوزي على الصمت . ولكن لما كان فمة كثير من الفضوليين يصغون اليه ، فقد اندفع في حديثه كيلا يتوهموا أنه يتراجع .

- ابن هو الله ؟ أتجهل يا غبي انه في السماء ؟
- ألعلك رأيته هناك ؟ هل صعدت الى السماء .
- كلا لم اصعد الى السماء . ولكن ليس من يجهل انه يجب أن نصلي لله .
- ان احداً لم ير الله . ان ابنه الوحيد الذي يجا في ذات الأب قد قال ذلك . -
اجاب الشيخ بصوت قاس وقد زوى ما بين عينيه .
- ألسنت مسيحياً ؟ أنت عابد اصنام . - قال الحوذي ثم التفت ناحية وبصق على الارض بتقزز .

- ما دينك ؟ - قال سائق عربية أخرى كان بالقرب من جواده يسأل الشيخ .
لا ادين بدين ، ولا أومن الا بنفسي . - اجابه الشيخ وهو ينظر اليه شزراً .
- وكيف يمكن الايمان بالنفس ؟ - سأله (نيكليندوف) مدهوشاً مما سمع .
- تلك هي افضل طريقة للامان من الخداع .
- اذن كيف اثبتت كل هذه الديانات .

- نشأت الديانات لأن الناس يؤمنون بغيرهم . لقد آمنت بغيري مدة فخدعت .
وضلت سبيلي ، وأشكل أمري علي حتى حسبت انني سوف لن اعثر على الحقيقة قط .
لقد صادفت في طريقي مؤمنين قدامي ، وحديثي الايمان ، من مختلف المذاهب
والطوائف ، ورأيت رجالاً من شتى الاجناس ، ولكني لم أجد ديانة واحدة لا ترى
نفسها الافضل والاصوب . هنالك ديانات شتى ، ولكن الجوهر واحد . هو هو عندي
وعندك وعند الجميع . وهذا يعني ان كل فرد ينبغي أن يؤمن بنفسه . وبهذه الصورة
تفق رأي الجميع .

كان الشيخ يتكلم بصوت يعلو مطرداً ، ملتفتاً حوله كأنه يريد أن يسمعه ما
امكن من الناس .

- هل تبشر بهذه التعاليم منذ مدة طويلة ؟ - سأله الامير .
- أنا ؟ اجل . منذ مدة طويلة . منذ ثلاثة وعشرين عاماً وأنا عرضة للملاحقة
والمطاردة .

- ولماذا ؟

انا ألاحق الان بسبب ما لوحق من اجله السيد المسيح . هم يعتقلوني ، ويقدمونني الى المحاكمة ، والى الكهنة ، والكتبة والفريسيين . ويسجنونني مع المجانين . ولكنهم عاجزون تجاهي لأنني حر . هم يسألوني ما اسمك ؟ ويعسبون ان لي اسما ، او وطننا ، او مسكنا ، او أي شيء آخر . فانا لا املك الا نفسي . ماذا أدعى ؟ رجل . ما هو سني ؟ انا لا احصي الاعوام . والواقع الصحيح هو ان لا عمر لي ، لان النفس التي في داخلي قد كانت منذ الازل وستظل الى الابد . ويسألوني عن ابي وأمي . فأجيبهم ليس في بيتي سوى الله والارض . فانه ابي والارض امني . ألا تعترف على القيصر وتخضع له ؟ ولماذا اخضع له ؟ هو يملك لمصلحته الخاصة ، وأنا املك لمصلحتي الخاصة ايضا . فيقولون لي : اذهب فلا يمكن التحدث اليك . فأجيبهم انا لا اطلب اليكم التحدث الي . وهنا يشرعون في تعذيبني .

- الى اين انت ذاهب الان ؟ سأله الامير .

- انا ذاهب الآن الى حيث تقودني ارادة الله . انا اعمل وعندما لا أجد عملا ، استعطي . - اجاب الشيخ وهو يتلفت يمينا وشمالا بهيئة الظافر .

وكان القارب قد بلغ الضفة الثانية ، فاخرج الامير من جيبة قطعة من الفضة وقدمها للشيخ ولكنه رفض قبولها قائلا :

- انا لا اقبل مالا قط . وكل ما اقبله هو الخبز .

- سامعني .

- ليس لدي ما اسامحك عليه . لم تهني . وليس من يستطيع اهانتني . قال الشيخ وقد تناول كيسه الذي كان ملقى على الارض عند قدميه .

ودبت الحركة في اوساط المسافرين في القارب ، وبدأوا في اعداد العربات واسراج الجياد ، واخذت العجلات تغادر القارب .

- انك لرجل طيب يا سمو الامير اذ تصغي لامثال هؤلاء . قال له الحوذي وهو يغادر القارب - ان في الاصغاء هؤلاء المتشردين ما يسري عن النفس .

عندما بلغت العربية الضفة الثانية للنهر التفت الحوذي الى الامير وقال له :

- الى أي فندق تريد أن تذهب ؟

- لا ادري . فأبها احسن ؟

- احسنها المسمى (سييريا) ولكنك ستكون مرتاحاً في نزل (دو كوف) .

- خذني الى ما تختاره منها .

فساط الحوذي جواده ، فدخلت العربية الى المدينة التي كانت كغيرها من المدن حيث كان كل شيء متشابهاً كالاسطحة المستوية ، والكنايس الكبيرة والمارة والمتاجر والشرطة ولم يكن ثمة أي تباين سوى ان البيوت في هذه كانت من الخشب ، وان الشوارع غير مرصوفة .

وقفت العربية امام فندق يقع في أحد الشوارع الغاصة بالناس . ولكنه لم يجد مكان للامير . فانتقل الى نزل (دو كوف) حيث وجد غرفة اطلق عندما رآها زفرة ارتياح طويلة لأنها كانت المرة الاولى التي يصادف فيها منذ شهرين غرفة لا تقي تحوي كل اسباب الراحة التي تعودها منذ نعومة اظفاره ، وليس يعني ذلك انها كانت مترفة ولكنها كانت مما يمكن العيش فيها اذا ما قورنت بغيرها من الغرف التي صادفها في رحلته . وأول ما فكر به التخلص من القمل الذي كان يسعى في ثيابه ، والذي رافقه طوال رحلته كلها . فدخل الحمام حيث لبث ما ينيف على الساعة .

ورأى ان يقوم بزيارة لحاكم المدينة فارتدى لهذه الغاية ثياباً انيقة وقميصاً مكويًا وسروالاً من الجوخ الرمادي وسترة ومعطفاً .

واستقل عربية يجرها جواد أصيل حملته الى بناية كبيرة رائعة يقف امامها خفيران ، وبعض شرطة البلدية ، وتحيط بها حديقة جميلة .

كان الحاكم يشكو علة ، ولا يقابل احداً . غير أن الامير اقنع الخادم بايصال بطاقته اليه ، فعاد يعلن بعد قليل متلطفاً باسماء ان سعادته يدعوه اليه .

واعاد الخادم والسلم والقاعة ذات الارض اللامعة الى ذاكرة الامير ذكري منازل بطرسبرج وانما بصورة مصغرة . ولم يطل أمد انتظاره في الردهة الكبيرة حتى دعي لمقابلة الحاكم .

كان هذا الموظف الكبير ضخمة الجثة ، دموي المزاج ، اصلع الرأس ، احمر الانف ، في جبينه وريد محتقن ، ويرتدي بتا اصفر اللون ، وكان جالسا يدخن ويشرب الشاي في كأس محلى بالفضة .

- عفواً يا سمو الامير اذا استقبلتك على هذه الصورة .. قال باسماً وهو يتململ في مقعده الوثير . - ان استقبالي لك هكذا خير من عدمه . انني اشكو من مرض ولذا لا استطيع مغادرة القراش . ما سبب تشرفنا بزيارتكم في هذه المملكة النائية ؟
- جئت ارافق قافلة المساجين لأن فيها شخصاً يعني أمره . اجاب (نيكليندوف) وبسببه ازعج الآن سعادتك .

فتمطى الحاكم بساقيه ، ثم جرع جرعة شاي ونقض رماد لفافته في منفضة من الخزف ، واقبل يصغي الى (نيكليندوف) بامعان ، محدقاً فيه بعينه الكبيرتين المتقدتين شبه الدامعتين . وقد قاطعه مرتين ليدعوه لتناول الشاي والتدخين .

كان القائد احد اولئك الموظفين الأذكى الذين يحاولون ، بدافع من مصالحهم وأوضاعهم ، الجمع بين مبدأ السلطة والمبدأ الانساني في ممارسة وظائفهم . ولكنه لما كانت الطبيعة قد زودته بمواهب كبيرة وخلق طيب فانه ما عثم ان ادرك ان كل جهد يبذله لتحسين اوضاع اولئك التعساء عديم الجدوى . ولكي يسكت صوت ضميره ويخفف من تبكيت راح يعاقر الخمر حتى استبدت به تلك العادة وأصبحت ادماناً ، وحتى تحول بعد خدمة خمسة وثلاثين عاماً في الجيش والادارة الى ما يسمى « كحولياً » وحتى اصبح كأس صغير من المستحيل عليه الانقطاع عن شرب الخمر ، وهكذا فانه منذ عدة اعوام ما انفك يسكر في كل ليلة :

ولما كان قد اعتاد هذه الحالة ، فانه كان لا يتورع في مشيته قسط ، او يتلعم

لسانه . ولو حدث له شيء من هذا ففي سمو منزله ضمان بستره . وبما انه كان لا يعاقر الحمر في الصباح ، فقد وجده الامير صاحياً ، وفي وضع يستطيع معه تفهم رغباته بسهولة .

كان رؤساؤه يعرفون فيه نقطة الضعف هذه . ولكنهم كانوا يعترفون له أيضاً بأنه أذكى من أكثرية الموظفين ، على رغم ادمانه الحمر . وانه كان أبعد ما يكون عن ارتكاب ما قد يدينه حتى ولو كان في حالة سكر شديد . ولما كانوا واثقين من مهارته واقdamه ، فقد افسحوا له مجال التقدم حتى بلغ مرتبة الحاكم .

- ٥٣ -

كان (نيكليندوف) قد جاء يعرض على الحاكم قضية (كلترين) والحكم الجائر الذي صدر بحقها . وأخبره انها قبل خروجها مع القافلة كانت قد رفعت استرحاماً تطلب العفو من جلالة الامبراطور .

- حسن . - قال له الحاكم بعد أن اصغى اليه بامعان . - وماذا تطلب مني الآن ؟

- لقد وعدت بان ينظر في طلب العفو على الفور ، وان الادارة الامبراطورية ستصل الى هنا خلال هذا الشهر ..

وقرع الحاكم جرساً ولبث ينتظر دون ان تفارق نظراته (نيكليندوف) .
- كذلك كنت ارجب في السؤال عما اذا كان بالامكان السماح ببقاء هذه السجينة هنا ربما تصدر الارادة الامبراطورية بشأن الاسترحام سلباً أو ايجاباً ..

وقطع حديث الأمير دخول أحد الحجاب .
- انظر اذا كانت (فاسيليفنا) قد افاقت وأحضر شاي . - قال له الحاكم .
ثم نظر الى الأمير وأضاف :
- اكمل حديثك .

- كذلك ارجب ان التمس منكم التماساً لصالح أحد المساجين السياسيين القادمين مع القافلة .

- حسبك . - قال الحاكم بلهجة مهذبة .

- هذا المنكود الحظ مريض وعلى وشك الاحتضار . وسيخلفونه هنا في المستوصف . وترغب إحدى رفيقاته من السجينات البقاء بجانبه للعناية به .
- هل هي إحدى قريباته ؟

- كلا . ولكنها لا ترى مانعاً من زواجها منه إذا سمح لها بالبقاء الى جانبه .
فصوب الحاكم نظراته الى الامير كأنما يريد ارضاءه بنظراته هذه ، دون أن يفوه بكلمة واحدة .

ولما أمسك (نيكليندوف) عن الكلام بانتظار الجواب نهض الحاكم من مقعده ، وتناول كتاباً شرع يقلب صفحاته بسرعة ، ووقف يتلو فقرة وهو يدل عليها باصبعه .
- ما مدة الحكم الذي حكم عليها به ؟ - قال الحاكم يسأل بعد أن رفع نظره عن الكتاب .

- بالأشغال الشاقة .

- الزواج لا يؤثر على وضع المريض في شيء .
- ولكن هذا ..

- عفواً . حتى لو تزوجت هذه المرأة من رجل حر طليق فلا مفر لها من انتهاء مدة عقوبتها . والآن تريد ان نعلم من من السجينين اكبر محكومة .
- المدة واحدة وهي الاشغال الشاقة المؤبدة .

- القضية واضحة تماماً . - قال الحاكم باسم . - ان الزواج لن يغير وضع أي منها . اذا كان هو مريضاً فمعنى به هنا . وسنجهد لتحسين حاله . أما هي فستذهب مع القافلة ولو تزوجت منه .

- لقد افأقت « القائمة » وهبطت الى الطابق الارضي لتناول طعام الافطار ،
جاء الحاجب معلناً .

فهز الحاكم رأسه ومضى يقول :

- على كل حال سأفكر بالموضوع . ما اسم هذين السجينين ؟ أتريد أن أتترك لي اسميهما ؟

فكتب الامير الاسمين على ورقة .

وعندما طلب منه الامير اذنًا بزيارة المريض قال :

- لا استطيع السماح بذلك ، ولا تحمل رفضي محملاً سيئاً كان يكون لدي شبهة في سموكم . - ثم اردف بعد قليل يقول : - كأني أرى الآن ما حدث معك . أنت مهمهم هؤلاء الاشخاص وترغب في زيارتهم وخدمتهم . وتقلق مالا ، وهنا يمكن شراء الجميع . وكما تلقيت ملاحظات من رؤسائي لوضع حد لهذا التسامح . وكيف يمكن ذلك ما دام الصغير والكبير يشري ويبيع ؟ وكيف استطيع مراقبة كافة موظفي خمسة الاف (فرستا) ، حيث كل واحد منهم امبراطور صغير وأنا احدهم . اضاف الحاكم وهو يهقه . بلى . هذا ما حدث وأنا اعلم ذلك . لقد كنت طوال الرحلة تحصل على اذن برويتهم عن طريق الرشوة . أليست هذه هي الحقيقة ؟ - اجل هذا هو الواقع بعينه .

انا أعلم انك فعلت ذلك . لقد قمت بما ينبغي عليك . انك ترغب في أن ترى مجرماً سياسياً فاستخدمت ابتغاء ذلك الوسائل الصالحة . كانت ضباط القيادات والسجانون يسمحون لك برويتهم والاختلاط بهم عن طريق الرشوة لضالة الراتب . والحق بيدهم اذ لولا ما يتلقونه من هبات عن مثل هذه الخدمات اذن لعجزوا عن اعالة عيالهم . ولولا احترام المركز الذي احتله لتصرفت كتصرفهم . ولكنني لا استطيع أن أتسامح بأي مخالفه للقانون ، على الرغم من كوني متسامحاً بطبعي . لقد عهد إلي القيام بمهمة وأخذت على عاتقي إداؤها تحت ظروف معينة وينبغي علي أن اكون عند حسن الظن بي . هذا ما استطيع أن اقله لك . والأن قل لي طرفاً مما يحدث في أوروبا ، وبطرسبرج وموسكو .

ثم وجه اليه عدة اسئلة لم يكن الدافع عليها حب الاستطلاع مثلما كان يدلل على مدى لطفه ورايئته ، وليبرهن عن طيب نفسه .

- في أي فندق تنزل ؟ لا بأس بنزل (دو كوف) ولكن فندق سييرا خير منه . وبالمناسبة - اضاف يقول - انتظر حضورك لتناول الطعام معنا الساعة الخامسة .
أتكلم الانكليزية ؟
- أجل .

- حسن جداً يسرني ذلك . تصور أنه يوجد هنا مسافر انكليزي يحمل ترخيصاً من بطرسبرج بزيارة السجون في محطات الاستراحة السييرية ، وستناول اليوم الطعام معنا . لا تتخلف عن الحضور وسأكون لك من الشاكرين . وفي ذات الوقت سأجيبك عن قضية المرأة التي تنتظر العفو وقضية الرجل المريض ، وسأرى ماسيكون باستطاعتي عمله بالنسبة لهما .

- ٥٤ -

وأنهى (نيكليندوف) زيارته للحاكم ، وفور خروجه من مكتبه ذهب نواً الى مكتب البريد اذ كان يشعر بأنه أكثر همة ونشاطاً من اي وقت مضى .

كانت دوائر البريد تحتل قبواً واسعاً رطباً ومظلماً . وكان عدد من الموظفين يقفون وراء الحواجز يتحدث بعضهم مع بعض ، في حين كان المكان المعد للمراجعين غاصاً بهم ، وكانوا يتدافعون وراء الحاجز بفارغ الصبر ، وكان على مقربة من الباب موظف عجوز يجثم بالحاتم عدداً من المظروفات ثم يلقها لأحد زملائه .

ولم يطل انتظار الأمير ، لان ثيابه الفاخرة ومظهره الأنيق حملا احد الموظفين على ان يدعوه ليتقدم ، فقدم له الأمير بطاقته ، فأسرع الموظف بإعطائه رزمة من التحارير موجهة اليه .

كان بينها رسائل خاصة ، واخرى تحمل مالاً وبعض الكتب والمنشورات والصحف . فجلس الأمير على مقعد خشبي ليلقي عليها نظرة سريعة بجانب جندي يحمل يده سجلاً . وكان بين المظروفات مظروف كبير يحمل ختماً بالشمع الأحمر

نافراً ، ففض الغلاف وقرأ التوقيع فأحس بالدم يتصاعد الى وجهه وتتسارع دقات قلبه . كان التحرير يحمل توقيع (سيلين) صديقه القديم الذي أصبح الآن مفتشاً في مجلس للشيوخ . وكان ضمن الرسالة وثيقة رسمية ، هي جواب الاسترحام الذي تقدمت به (ماسلوا) .

ولكن ما عساها تحمل تلك الرسالة؟ أتراها سلبية ام ايجابية بالنسبة لطلب العفو؟ لقد كان (نيكليندوف) يتلهف شوقاً لمعرفة ذلك . ومع هذا فلم يكن يجوز على تلاوة الرسالة التي كانت ستضع حداً لشكوكه . وأخيراً تجرأ على تلاوة بعض ما فيها فصعد زفرة ارتياح . لقد قبل استرحام (ماسلوا) وهذا نص ما كتبه له (سيلين) .

« يا صديقي الحبيب . لقد كان للقائنا الأخير اثر عميق في نفسي . كنت مبصياً فيما قلته عن (ماسلوا) فقد درست قضيتها بإمعان فخلصت الى القول بأن الحكم عليها كانت نتيجة لحظاً واضح . لا يمكن الغاء الحكم على كل حال ولذا اتجهت الى لجنة الاسترحامات فعملت ان الطلب قد وصلهم . وأحمد الله لنيلي مبتغاي ، ابعت اليك طية نسخة عن القرار على العنوان الذي اخذته من الكونتيس (كلارين ايفاموفا) اما القرار الاصيل فقد أرسل الى (ماسلوا) على عنوانها في المدينة التي صدر فيها الحكم . وأعتقد انهم اعدوه ليسلم الى عميتك . وعلى كل حال فما أنذا أسارع لاطلاعك على هذا النبأ السار . يضافك بجمرة صديقك (سيلين) .

وهذا نص القرار الذي تسلمه .

« بلاط صاحب العظمة الامبراطورية - لجنة الاسترحامات - بناء على أمر من صاحب العظمة الامبراطورية تبلغ (ماسلوا) ان صاحب العظمة الامبراطورية قد اطلع على استرحامها ، فتفضل بإبدال حكم السجن بالأشغال الشاقة لمدة اربع سنوات التي حكمت بها ، بالحكم بالابعاد مدة مماثلة في احدى حكومات الحدود في سيبيريا .

باله من نبأ سار مشتبه . انه يحمل اليه كل ما كان يتمناه (كلارين) ولنفسه . ولكنه سرعان ما خطر له ان التغير الذي طرأ على وضعيتها الآن سيكون ذا تأثير

كبير على علاقاته بها اذ لو ظلت محكومة بالأشغال الشاقة لكان زواجه المفترض منها شكلياً ، الغاية منه الترفيه عن نفسها . اما الآن ، وبعد استبدال الحكم فقد أصبح افتراض زواجهما اكثر جدية اذ ليس ما يمنعها من العيش معاً كما يعيش الأزواج . وهنا عاوده رعبه القديم ، اذ اخذ يتساءل عما اذا كان بوسعه تحمل العيش بجانبها . وكان من الجرأة بحيث اعترف امام نفسه بتخوفه من هذه الحياة .

وفجأة عاودته ذكرى علاقات (كاترين بسيمونسون) . وأخذ يتساءل عن معنى قول هذا له الليلة الماضية : هل سيكون زواجها منه مفيداً لها اذا هي وافقت عليه ونافعاً للأمير .

كان يستعرض كل هذا في مخيلته دون ان يجد جواباً على أي منها ، ولذا كان يفرغ الى ملجأ المعتاد : التسويف .

— سأبث في هذه القضية فيما بعد . — كان يقول في نفسه . — أما الآن فأول ما ينبغي عمله هو ابلاغ (كاترين) بالخطر واجراء المقتضى لاخلاء سبيلها . وكانت النسخة التي بعث بها اليه (سيلين) كافية ريثما تصل النسخة الأصلية . وعلى الفور غادر دائرة البريد لينذهب الى السجن .

- ٥٥ -

على الرغم من فرض الحاكم السباح (نيكليندوف) بزيارة السجن فقد ظل هذا يأمل بأن يتمكن من زيارته له لأن التجارب قد علمته أن باستطاعته الحصول من صغار الموظفين على ما لا يستطيعه من كبارهم . وهكذا كان يترفع ان يسمع له مدير السجن بمواجهة (كاترين) ليطلعه على النبا السار ، كما كان يتوقع أن يتمكن من مواجهة (كريستوف) لينقل اليه نتيجة مقابله للحاكم .

كان مدير السجن طويل القامة قوي البنية ، مهيب الطلعة ، كبير الشاربين . فاستقبل (نيكليندوف) بخشونة . وأعلن له انه لن يسمع له بمواجهة السجينة . ولما قال له انه حتى في المدن الكبرى كان يحصل على اذن في الدخول الى السجن اجابه بجفاء .

— قد يمكن ان يكون ذلك . اما انا فلا استطيعه .

وكانت لهجته تعبر بوضوح عما يلي :

ان الاسياد في العاصمة يتصورون ان بوسعهم ترويعنا وادهاشنا . سنين لهم اننا هنا في سيرييا نعرف واجبنا واننا نستطيع ان نعلمهم واجبهم .

واطلعه (نيكليندوف) على نسخة القرار باستبدال عقوبة (ماسلوف) . فلم يفده ذلك شيئا . ولم يكتف المدير برفض طلب المواجبة . وانما انكر معرفته وعلمه بوصول المساجين . وعندما ساله الامير بسذاجة عما اذا كانت تلك النسخة تكفي لاخلاء سبيل (ماسلوف) ابتسم ابتسامة ازدراء مما جعل الأمير يستحي من سذاجته . ولكنه كان في منتهى اللطف عندما اكد له انه على استعداد لاخلاء سبيلها دون تاخير دقيقة واحدة متى امره بذلك رؤساؤه .

وعندما ادرك (نيكليندوف) ان لا فائدة ترجى من ذلك الرجل الضخم استقل عربته وعاد الى الفندق .

وفي الطريق أخبره الخوذي ان القافلة قد وصلت ، وان السبب في رفضهم السماح له بزيارتهم يعود لانتشار مرض التيفوس بين المساجين .

— هذا شيء طبيعي . — قال الخوذي — يوجد في كل غرفة ضعف ما تستطيع استيعابه . فليس غريباً والحالة هذه اذا ما مات عشرون شخصا في كل يوم .

— ٥٦ —

لم يشط رفض المدير من عزيمة (نيكليندوف) ، وبدلاً من ان يذهب الى غرفته ، غير رأيه وعاد الى قصر الحكومة ليستعلم عما اذا كان القرار باستبدال عقوبه (كلارين) قد وصلهم .

ذهب ماشياً على قدميه مرتاح النفس لوقوعه على ما يعينه على تناسي ما كان يقض مضجعه . وعندما علم انه لم يصلهم بعد ، امضى زهاء ساعه وهو يكتب رسائل لحاته و « لسبينين » ولحاميه مظهراً استغرابه لذلك التأخر الذي لم يكن غير طبيعي .

وعندما فرغ من كتابة الرسائل رأى انه لم يبق لديه من الوقت سوى ما يكفيه لاستبدال ثيابه لحضور الدعوة لتناول الطعام التي وجهها اليه الحاكم .

وعندما اصبح في الشارع داهمته افكار متعددة وهي كيف ستقابل (كاترين)
نبأ استقبال عقوبتها ؟ واين ستسكن ؟ وماذا سيفعل (سيمونون) ؟ وما هي
افكار (كاترين) بالنسبة له ؟ وما هو شعورها نحوه ؟

ثم تذكر (نيكليندوف) التبدل الذي طرأ على (كاترين) وزياراته لها في
السجن ، والابتسامة التي شيعته بها من نافذة القطار عبر القضبان الحديدية عند
مسيرة القافلة .

- انا بحاجة لتناسي كل هذا ، وانتزاعه من نفسي . سأراها قريبا وسينتهي كل
شيء . - كان يقول في نفسه محاولا نسيان الفتاة .

ثم عاد يفكر في الطريقة التي يجب اتخاذها للحصول على موافقة الحاكم بدخول
السجن .

كانت المأدبة التي اقامها الحاكم غاية في الترف اذ انفق عليها بسغاه كما هو
المعهود في مثل هذه المناسبات ، وقد كان سرور الامير بها فائق الحدسيا وقد انقضى
عليه شهران كاملان ظل خلالها محروما من كل ترف وحتى من اسباب الراحة
الضرورية .

وكانت زوجة الحاكم احدى سيدات بطرسبرج ووصيفة شرف في بلاط القصر
نقولا الاول . وكانت تجيد الفرنسية ولا تحسن الروسية ، وتجلس منتصبة القوام
وتتوخى الا تفارق اكواعها خواصرها . وكانت تحمل لزوجها قليلا من الازدراء ،
وتبدو دمثة مع ضيوفها ، وتحاول جهدا اعطاء كل منهم ما يستحقه .

وهكذا استقبلت (نيكليندوف) كاحد افراد طبقتها ، واحاطته من عنايتها
بما جعله يشعر باهميته وقيمه ، وان يكون راضيا عن نفسه . واخبرته بطريقة لبقه
انه قد بلغها نبأ الشعور السامي الذي دعاه للذهاب الى سيبيريا ، وانها تحله المحل
الاسمي .

وكان لتلك المعاملة الطيبة التي اولته اياها ربة البيت ، وجو المنزل المترف المريح
تأثيرها على نفس (نيكليندوف) بحيث انصرف بكليته للاستمتاع بطعام شهى
برفقة اناس دمنى الاخلاق ممتازين ، حتى شعر وكأنه في جو مألوف منه ، كجوه
الخاص ، وحتى حسب ان كل ما رآه وسمعه في الايام الاخيرة لم يكن سوى
اضغاث احلام .

كان بين من حضر المأدبة عدا عن الحاكم وزوجته وابنته وصهره - احد التجار
الاثرياء الذي يملك منجى للذهب ، وموظف كبير سابق ، والانجليزي الذي اخبر
عنه الحاكم . فوطد الأمير صلاته بهم جميعاً .

كان الضيف الانجليزي احمر الشعر صحيح الجسم لا يجيد التحدث بالفرنسية
ولكنه كان محدثاً لبقاً اذا ما تكلم بلغة بلاده .

كان يعرف كل شيء وشاهد اشياء كثيرة . واستدعى انتباه الأمير عندما
تحدث عن ذكرياته عن أميركا واليابان والهند وسيبيريا .

كذلك رأى الأمير في صاحب المنجم شاباً محبوباً جذاباً . كان هذا ابناً لأحد
القرويين ، وكان يرتدي ثياباً انيقة على أحدث طراز ازوارها من الماس . وكانت
هوايته اقتناء الكتب ، وكان ينفق قدراً كبيراً من المال على اعمال السير ، ومطلعا
على تقدم الاراء التحريرية في اوروبا . ولم يكن سرور الأمير به لعذوبة حديثه
فحسب ، وانما لأنه كان يمثل ظاهرة اجتماعية جديدة ، الا وهي التلقيح الناجع بين
الثقافة الاوروبية والطبيعة الروسية الصلبة .

وكان الموظف السابق الكبير رجلاً طيباً بديناً قليل شعر الرأس اجعده ،
ضخم البطن اعشى العينين الزرقاوين ، عذب الابتسامة . كان قليل الكلام على غير
اجاده ، ولكن الحاكم كان يجلسه لما ابداه من نزاهة . وكانت « القائدة » اكثر
اجلالاً له لانه كان موسيقاراً متحمساً ، يجيد العزف على البيانو ويرافقها بعزف بعض
القطع بالأيدي الأربع .

وكان الامير تلك الليلة من طيب النفس وحسن المزاج بحيث رأى نفسه سعيدا لتعرفه على ذلك الموظف .

غير ان ما من احد احدث انطباعات في نفس الامير اشهى بما احدثه الزوجان ابنة الحاكم وزوجها .

لم تكن الزوجة جميلة ، غير ان وجهها كان يطفح بسداجة وعدوبة . ولم تكن تفكر بغير اولادها . وكان زوجها الذي تزوجته على غير رضى من والديها ، مجازا سابقا من جامعة موسكو ، متواضعا ، حيا وذكيا ، يهتم بالاحصاءات يستريح في العمل . ولم يكن ثمة من هو اكثر منه وقوفا على تحركات الاجانب في سيبيريا .

واستقبل الجميع الامير بتحفظ لقلّة الوجوه الجديدة التي يصادفونها في بلدتهم . وتحدث اليه الحاكم الذي كان يرتدي بزة رسمية ويضع على صدره صليبا ايضا ، حديث الصديق القديم لصديقه . واخبره الأمير بما فعله ، وعندما ابلغه انه قد تلقى قرار استبدال العقوبة ، ثم طلب منه الأذن بزيارة السجن زوى ما بين عينيه وتظاهر بأنه لم يسمع . لقد كره دون شك ان يتحدث عن مهام وظيفته على المائدة .

- هل لك بقليل من هذا الخمر ؟ - قال يسأل الانجليزي بالفرنسية .

وقص هذا عليهم انه زار الكنيسة ومصنعين ، واضاف انه يرغب في زيارة سجن المبعدين السياسيين الكبير .

- حسن . - قال الحاكم . - حسن جدا . ستذهبان معا . ساوقع اذن بذلك الان .

- الا يسرك ان ترى السجن في الليل ؟ قال « نيكليندوف » يسأل الانجليزي .

- بلى . هذا ما كنت على وشك ان اطلب اذنا به . - قال الانجليزي للحاكم .

- في مثل هذه الساعة يكون سائر المساجين في القاعات وهكذا يكون بالامكان تكوين فكرة صحيحة عن ظروف حياتهم .

- آه . آه . يرغب الشاب في ان يرى الاحتفال في أوجه . - قال القائد الذي كان قد أحسن اخفاء سكره حتى تلك الساعة .

- حسن . ستراه . لقد كتبت مرارا لبطرسبرج اشكو الحالة هنا فلم يعيروني اذنا صاغية . فلعلهم اذا ما رأوا هذه الشكوى منشورة في الصحافة الاجنبية يعيرونها التفاتا .

وتحول مجرى الحديث ، فتحدثوا عن (تونكين) ، و عما تقول صحف سيبيريا . وذكر الحاكم بعض الامثلة عن نساء الموظفين في سيبيريا .

وفتر الحديث قليلا عند قرب الفراغ من تناول الطعام أو هكذاتوهم (نيكليندوف) على الاقل . ولكن ربة البيت عنّ لها بعد المائدة ان تسأل الضيف عن (غلادستون) فلاحظ (نيكليندوف) ان اجوبته كانت صائبة وفي علمها . وشعر الامير بارتياح واطمئنان ورضى عن نفسه وعن الآخرين بعد تلك الجلسة المريحة والطعام والشراب الشهيين برفقة تلك الفئة المهذبة . وعندما جلست ربة البيت الى اليانو فوقعت بناء على رغبة الضيف الانجليزي (صونات دومينور) (ليتيوفن) احس الامير براحة نفسية فائقة . وكان كمن يستعيد شجاعته .

كان اليانو رائعا . وكان لا مندوحة (لنيكليندوف) ، الذي يعرف المقطوعة عن ظهر قلب ، من الاعتراف بانه قلما سمع هذه المقطوعة توقع ببراعة استاذية كهذه المرة . وكاد عندما سمعها لا يقوى على حبس دموعه ، واعتراه الغم (لكاترين) ولنفسه ولاخته (تاليا) التي طالما برهنت عن حبها الصادق له .

وبعد ان شكر الامير ربة البيت على النشوة الفنية التي وفرتها له ، استوى واقفا ليودع ويعود الى الفندق ، واذا بابنة الحاكم تتقدم منه على استيحاء القول له .

- لقد تلطفت وسألت عن اولادي فهل تحب ان تراهم ؟

- هذه تصور ان في معرفة ابنائها سعادة كبرى - قالت الام وهي تبسم اعتذاراً لابنتها - ليس لدي الامير أي رغبة في رؤية ابنائك .

- على العكس يا سيدي ، على العكس . ثقي انه لمن دواعي سروري الصادق ان أراهم . - قال (نيكليندوف) وقد أثر في نفسه ذلك الفيض من الحب الامومي .

- هي تحمل الامير على أن يرى ابناءها . - قال القائد الذي كان يلعب الورق مع صهره وصاحب المنجم ، في أحد اركان القاعة * - ها قد وجدت يا صديقي عملا تعله .

كانت الأبنة تسير امام الامير بعد ان خرجت من القاعة وهي شديدة التأثر لأن غريباً سيدي رأيه بصغارها . وفي غرفة واسعة مبطنة باللون الابيض ، ومضاءة بمصباح فرقة مظلة داكنة تحد من نوره ، كان يوجد سريران متجاوران تجلس امامهما خادمة حسنة المظهر وترتدي ياقة بيضاء كبيرة تمتد حتى منتصف ظهرها . فهبت من مقعدها لتحيي السيدة . فانحنى هنه على احد السريرين فور وصولها .

- هذه (كاتريني) . - قالت ذلك وأزاحت الستار ليبدو وجه الصغيرة الرائع التي كانت في عامها الثاني والتي ترقد باطمئنان وفمها نصف مفتوح . - أليست جميلة ؟ ليس لها من العمر سوى عامين .

- انها رائعة .

- وهذا (فاسكا) كما يدعوه جده . انه لا يشبه اخته . انه سييرباني حقيقي ، أليس كذلك ؟

- انه لطفل جميل . - اجاب الامير ، وهو يحدق بالطفل الذي كان بديناً احمر اللون .

كانت الام تبسم بعذوبة وهي واقفة بجانبه .

وهنا عادت الذاكرة بالأمير الى القيود في الارجل ، والرؤوس المخلوقة ، واللكمات تنصب على الأوجه والعيون ، و (كريبلتوف) الذي تركه يحتضر ، و (كاترين) فانغم لذلك غماً شديداً وأسف على ألا يكون في مقدوره بلوغ هناية هادئة بريئة كالتي يشهدها الآن .

وعاد الامير الى القاعة حيث كان الضيف الانجليزي بانتظاره لينها معاً الى السجن

بعد ان اطرى جمال الاطفال لأهمهم، ثم ودعا معاً أهل البيت بعد أن تبادلوا العبارات المألوفة في مثل هذه المناسبات وخرجوا يبغيات زيارة السجن .
كانت الاحوال الجوية قد تغيرت، اذ اصبح الثلج يتساقط كثيفاً حتى غطى أرض الدار ودرجات السلم ، واسطح العربات وظهور الحيل . فصعد (نيكليندوف) ورفيقه الى العربة التي أقلتها الى السجن .

- ٥٧ -

كان السجن رهيباً بمصايحه الحمر وخفرائه ، على الرغم مما كانت نوافذه تزدان به من أكاليل الثلج ، والبساط الابيض الجميل الذي يفتش فناء الدار .
واستقبل المدير ، الذى كان ميباً ، زائريه على عتبة الباب، وقرأ بامعان ، وعلى ضوء الصباح ، الأذن الذي جاء به (نيكليندوف) ، واكتفى بأن هز كتفيه اعلاناً لنزوله عند رغبة رئيسه وأمره ، ودعى الزائرين لمرافقته الى مكتبه حيث سألهما عما يريدان رؤيته . فقال له الامير انه يريد قبل كل شيء ان يتحدث الى (ماسلوف) ، وان رفيقه يريد من جهته ان يسأله عن النظام الداخلي للسجن كي يكون في مقدوره ان يزور ملحقاته المتعددة بنجاح .

فأمر المدير أحد السجنان ان يحضر (ماسلوف) الى المكتب .

- كم يستوعب هذا السجن من المساجين ؟

سأله الانكليزي بواسطة (نيكليندوف) - وكم يوجد فيه الان ؟ كم رجلاً ، وكم امرأة ، وكم يوجد فيه من المحكومين بالاشغال الشاقة ، ومن المنفيين ؟ وكم مرافقاً متطوعاً ؟ وكم مريضاً ؟

كان (نيكليندوف) ينقل الى المدير اسئلة السائح الانكليزي ، وينقل عنه الاجوبة . ولكنه لو سئل عنها لعجز عن الجواب لتوقعه محادثة قريبة مع (كاترين) وكان هذا يعكر صفاء تفكيره .

وعندما سمع وقع اقدام في الممشى اعقبه صوت باب يفتح ويدخل السجنان منه

تتبعه (كاترين) مرتدية ثيابا بيضاء ، وعلى رأسها قبعة الفراء ، وقف في منتصف جملة كان يترجمها و كأن الدم قد جدد في عروقه .

— أريد ان احيا . اريد ان تكون لي عائلة ، وان انجب اولاداً ، واريد أن آخذ قطي من السعادة . — هكذا كان يهتف به صوت داخلي لم يسمعه منذ زمن طويل .

وبادر في الحال مندفعاً نحو (كاترين) . كانت محتقة الوجه متحمسة وكانت تحقق فيه بنظرات اغاظته ، دون ان تفوه بكلمة واحدة . لم يكن قد رأى منها مثل تلك النظرات التي كانت مزيجاً من تصميم فاتر وشهوة عارمة . كان وجهها يحمر فارة ويصفر أخرى . وكانت اناملها تعث بطرف ثوبها طياوياً ، وتنظر في وجهه حيناً ، ونطرق بنظرها الى الارض على استحياء حيناً آخر .

— هل تدرين أي خبر جئت احمله اليك ؟ سألها (نيكليندوف) .

— اجل لقد اخبروني . ولكنني الان مصممة على الزواج من (فلاديمير ايفان) . كانت تتكلم بسرعة وبدون توقف ، بما يدل على انها كانت قد اعدت ما تقوله مسبقاً .

— كيف ؟ مع (فلاديمير ايفان) — قال يسألها .

فقاطعت قائلة :

— اجل ، وهل في الامر غرابة ؟ هكذا هو يريد ويرغب في أن نعيش معا ..

وامسكت كالمذعورة ثم اضافت :

— يرغب في ان نعيش معا . وماذا اطلب اكثر من ذلك ؟ فقد يصح - عيداً ، وقد استطيع التوصل لان اكون مفيدة .. وماذا استطيع ؟ .

لقد كانت على أحد حالتين : فاما انها كانت مغرمة (بسيمونسون) ، ولذا اصبحت لا تحتاج لتضحيات (نيكليندوف) . وأما كان الامر بالعكس فهي تحب هذا وترغب في تجنبه انقلها وتريد الزواج من الثوري .

وادرك (نيكليندوف) هذا فاستحي واحمر وجهه خجلاً .

- اذا كنت تحبينه .. قال لها .

- ماذا تريد ؟ لم اعرف قط رجلاً في مثل اوضاعه . ولماذا لا احبه ؟ هذا عدا عن انه يختلف كل الاختلاف عن غيره .

- بلا ريب . - قال (نيكليندوف) بصوت مرتعش - هو رجل رائع واطن ان ...

ولكن (كاترين) قاطعته كأنها كانت تحشى ان يقول ما تنوي ان تقوله . وقد تكون راغبة في ان تقول هي كل شيء .

- كلا . كلا . نحن نطلب منك الصفع اذا لم نستطع النزول عند رغبتك ، فسموك احوج للحياة .

ها هي (كاترين) تعيد الان على مسامعه ما قاله لنفسه في غرفة الاطفال في منزل الحاكم ، وما رددته على نفسه منذ قليل .

ولكنه كان قد اصبح لا يفكر في هذا . ولم يبق في نفسه أي شيء حول هذا الموضوع . لقد اصبح يفكر باشياء اخرى ، ويشعر شعوراً مختلفاً . لقد أخذته الحوف والحجل والغم الشديد .

- إذن لقد انتهى كل شيء بيننا ؟ قال يسألها .

- بلى ، يجب ان اقول نعم . - اجابته وهي تبسم ابتسامة غريبة .

- سأكون سعيداً اذا كان بوسعي اسداء خدمة لك ..

- لا نحتاج لشيء . وحدثت في وجهه عندما لفظت كلمة لا نحتاج . فأننا مدينة لك باشياء كثيرة . فلولا سموك ..

وتعذر عليها انها الجملة اذ انحبس صوتها في صدرها فأطرقت بنظرها الى الارض وصمتت .

- لست ادري من منا اكثر ديناً للآخر . الله وحده يرى ويحكم . اجاب الامير .

- بلى ، بلى . هو هذا . الله يرانا . قالت (كاترين) .
 - هل انتهيت ؟ سأله الانجليري .
 - على وشك . اجاب (نيكليندوف)
 ثم سأل (كاترين) عن حال (كريلتزوف) وقد اخفى ما ساوره من الغم .
 كان قد اعتراها الوجوم ، فاجابته بلهجة هادئة بما تعلمه عن حاله وهو انه تألم كثيراً أثناء الطريق ، وانه ما زال منذ وصوله في المستشفى ، وان (ماري باولوفنا) طلبت السماح لها بمرافقته للعناية به ولكن طلبها قد رفض .
 - ينبغي ان اعود الى هناك - اضافت تقول اذ رأت ان الانجليري قد أخذه الضجر .

- لن اودعك الان ، فسأراك فيما بعد . قال (نيكليندوف) ماداً لها يده .
 - كلا . وداعا ، وداعا . قالت (كاترين) باصرار .
 وعندئذ تلاقى نظراتهما . وفي نظرة عينها الحولاءين وابتسامتها الحزينة ، والطريقة التي لفظت بها كلمة وداعا ، تبين الامير ان ثاني التفسيرين المحتملين لسلوكها كان التفسير الحقيقي والوحيد . لقد ادرك انها كانت تحبه بكل ما في نفسها من قوة كما احبته ليلة قبلته في فمه عند خروجها من الكنيسة . وادرك انها كانت ترى في موافقتها على الزواج منه ما ينقل كاهله باعباء قد تهدم حياته ، بينما ترى في زواجها من (سيمونسون) انقاذاً له من هذه الاعباء .

فصافحت اليد التي مدها (نيكليندوف) لها ، ورجعت على عقبها بسرعة .
 كان الانجليزي يرغب في الاسراع بزيارة القاعة ، غير انه عندما لاحظ الانفعال البادي على الامير الذي ترتعش يداه ، بسببه مكث قليلا وتظاهر بالرغبة في تسجيل بعض مذكراته . فجلس الامير على أحد المقاعد وقلبه مغمم بالأس والحجل . ولبث ساكنا برهة من الزمن لا يبدي حراكا ، ولا يقوى على التفكير .

- والان اها السادة ، متى تزور قاعات السجن ؟ قال المدير يسأل .

فهب الأمير من مقعده واقفا وهو ما زال يضطرب ، واغلق الانجليزي سجل
ذكرياته استعداداً للذهاب .

٥٨

اجتاز السائح الانجليزي والأمير يرافقها المدير ، ممشى مظلماً كربه الرائحة مليئاً
بالاقدار . ودخلوا القاعة الاولى المخصصة للمحكومين بالاشغال الشاقة . كان ثمة
حوالي سبعين رجلاً . وكان اكثرهم نياماً . كانت الاسرة المتلاحقة الموجودة في
وسط القاعة ترغم المساجين على ان يظل احدهم لاصقا بالآخر .

واستيقظ الجميع عند دخول الزوار عليهم ، وجلسوا في فراشهم مشيرين جلبة من
صليل الحديد ، فاستغرب الأمير لمعان رؤسهم التي حُلقت حديثاً . ولكن اثنين
منهم ظلاً مضطجعين في الفراش وكان احدهما في ريعان شبابه محتقن الوجه لارتفاع
حرارته ، والثاني كان اكبر سناً ولا يكف عن التوجع . فقال الانجليزي متى
اصيبا بالمرض فليل له ان احدهما هداشكى منذ الصباح فقط ، اما الثاني فقد كان
يشكو من الم في معدته ، وانهم ينتظرون ان يحلوا مكانهما في المستشفى لينقلا اليه .

فطلب الانجليزي الى الأمير ان ينقل الى المساجين ما سيوجه اليهم من الكلام
وقال : انه في الوقت الذي يطوف فيه ارجاء سيبيريا لدراسة نظام المنفى فقد اخذ
على عاتقه مهمة نشر تعاليم الانجيل الصالحة بين المبعدين .

- اريد ان اقول لهم ان المسيح مات ليخلصهم . وانهم سينجون اذا ما امنوا به .
هذا ما يؤكده هذا الكتاب .

وبعد ان نقل لهم الأمير هذه الكلمات اخبر الانجليزي من حقيقته ملفاً من
كتاب « العهد الجديد » مجلدا بورق مقوى مختلف الالوان . فتزاحمت عليه ايد
كبيرة ذات اظافر سوداء ، وتلقفته متدافعة . ثم انتقل الى القاعة المجاورة .

وفي هذه تكرر المشهد وتمثلت الرواية . فقلة الهواء هي ذاتها ، ووفرة
الروائح الكريهة هي نفسها . وكما كانت تعلق ايقونة على حائط القاعة الاولى ،

كذلك تعلق ايقونة اخرى في هذه بين النافذتين ، وفي مقابل المزاب .

وفي هذه هب المساجين من نومهم عند دخول الزوار ، كانوا في حدود الستين سجيناً ، تخلف ثلاثة منهم عن الجلوس . احدهم لم يأبه بكثير او قليل للزائرين ، والاخران حاولا الجلوس فلم يقلعا فطلب الانجليزي الى الامير ان يعيد عليهم خطابه الاول ثم عاد فوزع عليهم نسخاً من الانجيل .

وفي القاعة التي تليها كانت ثلاثة مرضى . فسأل الانجليزي المدير لماذا لا يجمع المرضى في مكان واحد . فاجابه المدير بانهم لا يرضون ، وان مرضهم غير معد ، وان المرض يزورهم ويعتني بهم عناية تامة .

- اجل . هذا صحيح . اننا لم نزله وجها منذ خمسة عشر يوماً . - قال احدهم .

وانتقل المدير الى القسم الثاني دون ان يعير هذا القول اي اهتماماً . وتكررت فيه ، كما في غيره نفس المشاهد والمناظر ، سواء في ذلك القسم المخصص للمبعدين السياسيين ، والقسم المخصص بالمساجين العاديين . لقد شاهد الامير ورفيقه في كل مكان مرا به الجوع ، والمرضى ، والاذلاء ، والا عمل لهم الذين هم اشبه بالحيوانات المفترسة منهم بالمخلوقات البشرية .

وبعد حوالي نصف ساعة كان السائح الانجليزي قد استنفد كافة ما يحمله من الانجيل وكف عن تكليف الامير بترجمة خطابه ، وذلك يعود دون شك لما راه من الفظائع وخصوصاً الروائح الكريهة التي كان يصطلم بها في كل مكان والتي كان لها التأثير الكبير على نفسه . واصبح يكتفي بالاجابة على ملاحظات المدير في كل قسم يزوره بقوله : (اول رايت) .

كان (نكليندوف) يحسب نفسه في حلم . فقد كان لا يرى شيئاً ، وليس له القوة الكافية على البقاء او الذهاب وكان يزداد من حين لآخر احساساً بياسة ونجسه .

في آخر قسم زاره الامير ورفيقه السائح الانجليزي صادفته مصادفة اعادته الى واقعه .
اذ ابصر بين المبعدين السياسيين العجوز الغريب الذي رافقه في القارب عند الصباح
كان هذا العجوز ، وهو يرتدي قميصاً ممزقاً ، وسروالاً مرقعاً ، ويمشي حافي
القدمين ، جالساً على الارض في احدي الزوايا يراقب الزائرين بنظرات متجهمة .
كان وجهه المتغضن يبدو اكثر تقلصاً وحيوية منه عندما كان في القارب وعندما
دخل المدير ورفاقه عليهم هب الجميع وقوا الا هو فقد ظل قاعداً ولم يتحرك . كانت
عيناه تتقدان وقد زوى ما بينها .

— هيه . قف يا هذا — قال له المدير .

ولكن العجوز هز كتفيه وابتسم ابتسامة ازدراء .

— يقف امامك خدمك ، اما انا فلست بخادم لك . سيماءك في وجهك يا هذا . .

اجاب العجوز حانقاً .

— من هذا ؟ قال المدير يسأل بلهجة الوعيد .

— انا اعرف هذا الرجل . قال الامير متدخلاً . انه شخص غريب الاطوار .

ولكن كيف وصل الى هذا السجن ؟

— لقد بعثت الشرطة به الينا على اعتباره متشرداً . وعبثاً توسلنا اليهم ألا يبعثوا لنا

بالمزيد من هذه الاشكال ولكنهم دائماً يعيروننا أذاً انا صماء . اجاب المدير .

— ارى انك انت أيضاً احد جنود المسيح الدجال . قال العجوز موجهاً الكلام

(لنيكليندوف) .

— كلا . انا احد الزوار .

— آه . آه . هل جئت لتري كيف يعذب المسيح الدجال الناس ؟ حسن اذن .

تأمل . لقد قبض عليهم بكمية كبيرة ووضعهم في السجن ليكون منهم جيشا . ان

واجب بني الانسان ان يكسبوا خبزهم بعرق الجبين . والمسيح الدجال يحتفظ بهم في حالة بطالة دائمة كالحنازير ليحلو لهم كذلك .

— ماذا يقول ؟ قال الانجليزي .

فاجابه (نيكليندوف) بان الشيخ يتهم المدير وغيره من الموظفين بسجن الكثير من الناس ضد كل عدالة .

— سله ماذا يفعل هو بمن لا يراعي جانب القوانين ؟ قال الانجليزي باسماء .
فنقل الامير له السؤال . فاغرب العجوز ضاحكا فبدت اسنانه المسوسة المكسرة .
— القانون . قال بازدراء . آه اجل . باستطاعتك ان تحدثني عن القانون . لقد بدأوا اولاً بالاستيلاء على الارض وجردوا الناس من كل ثروة ، وازحوا من طريقهم كل مقاوم لهم ، وعندئذ جاؤا فوضعوا القانون ليحرموا السرقة وقتل النفس ، كن واثقا من انهم ما كانوا ليضعوا قانونهم هذا قبل ذلك .

فعاد الانجليزي الى الابتسام عندما نقل له الامير هذا الجواب .

— سله ما يجب فعله حاليا باللصوص والقتلة .

فاجاب العجوز :

— قل له انه ينبغي البدء بمحو عار المسيح الدجال فاذا فعلت ذلك قلما يكون لديك الكثير من الاعمال ، وعندئذ لا تستطيع الاهتمام لا باللصوص ولا بالقتلة . اذهب وأعد عليه بلفته هذا الجواب .

— انه لمسهج . قال الانجليزي عندما سمع الجواب .

وعاد يتسم وهو خارج من القاعة .

وكان الامير قد تخلف قليلا فقال له العجوز .

اهتم لأمرورك وقضاياك وخل عنك أمور الغير . فانه وحده الذي يعلم كيف يثبت وكيف يعاقب . اما نحن فلا علم لنا بشيء .

واضاف يقول بعدئذ وكأنه ندم على محاولته هداية (نيكليندوف) :

- ولكن ، لا . ليس لدي بعد ما اضيفه . اذهب ، ماضياً في سبيلك . لقد رأيت الآن كيف يقدم عيد المسيح الدجال مخلوقات بشرية لتكون طعمة للقمل . وروح عن نفسك في مكان آخر .

- ٥٩ -

لم يكبد (نيكليندوف) يبلغ غرفته في الفندق حتى طفق يروح ويغدو ذهاباً وإياباً . لقد ادرك ان صلاته (بكاترين) قد انتهت ، انتهت الى الابد . والى الابد أصبح غير مفيد (لكاترين) . وهذا ما كان يبعث في نفسه الغم والحجب ، ولكنه ادرك ايضاً ان هذه الفكرة يجب الا تحتل أي قسط من اهتمامه بعد الان . وان عليه ان يصرف عنايته لامر آخر ، لم يكن قد أتمه فحسب ، وانما كانت يفرض نفسه عليه .

كان يشعر بأنه امام شر رهيب ، وان من واجبه القضاء عليه ، ولكنه لم يكن يدري كيف . ذلك الشر هو الذي اضاعه من قبل ، وأضاع (كاترين) ، وهو الذي منذ قليل ، اضاع ذلك الجدير بالتقدير والاعجاب ، (كريلتزوف) الذي أصبح الان يرفد مع الكثير من المجهولين تحت طي الثرى .

كان قد رأى تلك المئات من الاحياء البشرية التي زج بها في غياهب السجون وجوها الخائى حكام قساة القلوب ، ونواب عامون ، ومدراء سجون . ورأى النظرات المحمومة التي كان ذلك العجوز يتحدى بها « عيد المسيح الدجال » . وكانت ذاكرته تعيد اليه منظر وجه (كريلتزوف) الشمعي في غرفة الاموات . كل ذلك وكل ما يحيط به من مظاهر الحياة كان يقع عليه كالكابوس . وكان يتساءل باستمرار من هو المجنون يا ترى ، أكان هو (نيكليندوف) ، أم اولئك الذين يدعون التعقل ثم يسمحون بارتكاب تلك الامور الوضيعة .

واستلقى على فراشه بعد أن ظل راثعاً غادياً مدة طويلة ، وبصورة آلية تناول الاناجيل التي كان قد اخذها من الساتح الانجليري ، والتي كان قد وضعها على الطاولة عند حضوره .

- ٤٩٢ -

— هناك من يقول ان في هذا الكتاب جواباً لكل شيء . كان يفكر في نفسه وهو يفتح الكتاب دون أن ينظر في صفحاته .

وشرع يقرأ . كان ذلك في الاصحاح الثامن عشر من انجيل متى .

وحدث له ما يحدث للذين ألفوا الحياة الروحية . . اذ تكشف له الفكرة التي طالما ظلها غريبة خادعة ، عن حقيقة واضحة جلية . وهكذا ادرك بجلاء ووضوح ان خير علاج لما تلاقيه الإنسانية من ويلات وشُرور يكمن في اعتراف ابنائها المذنبين امام الله بأن لا حق لهم في محاسبة غيرهم ومعاقبتهم ، وتبين له أن المآسي التي شهدا في السجون وعلى طريق القافلة ، وان الاطمئنان الذي يبدو على مسيبيها ، كان نتيجة لأمر بسيط جداً ، هو انهم حاولوا المستحيل بمحاولتهم اصلاح غيرهم ، وهم اشرار يحتاجون الاصلاح . اشرار يصلحون اشراراً ، ولأنهم كذلك فان اقصى ما يستطيعونه هو نشر الرذيلة لا قمعها . فالسيء ينشر سوءه فيما حوله . والجواب الذي طالما بحث عنه (نيكليندوف) فلم يجده ، كان نفس الجواب الذي اجاب به يسوع المسيح بطرس الرسول ، وهو انه ينبغي ان يغفر المرء دائماً ليس الى سبع مرات بل الى سبعين مرة سبع مرات .

— كلا . ليس بالامكان التسليم بأن الأمور على مثل هذه البساطة . — كان يقول في نفسه .

ومع ذلك فقد كان يعلم ان الجواب الوحيد ليس من الوجهة النظرية فحسب ، وانما من الوجهة العملية والقريبة النتائج . واذا كان قد بدا له التصديق به عبر آراءؤه غريباً فلأنه كان قد افكار أخرى مغايرة ، الا انه كان يحس ويشعر انه الحق الذي لا شك فيه .

والسؤال العادي الذي كان يحاول الاجابة عليه ، وهو : ما الذي ينبغي عمله بالصوص والقتلة . لم يكن وجيهاً في نظره ، ما دام لا فائدة من العقوبة في إزالة الجريمة من الدنيا او على الأقل تقليلها . ولو كان الأمر بالعكس اذن لكان له بعض الوجاهة . وقد دلت التجارب على عكس ذلك . فها هي ذي اجيال وأجيال قد

انقضت ، والبشرية تلاحق الجريمة والمجرمين . فهل أزيلت من الوجود ؟ ام خففوا منها على الأقل ؟ انهم نشروها بدلاً من محوها او تقليلها ، اذ افسدوا المساجين بما أنزلوه بهم من قصاص . فأضافوا الى جرائم اولئك المجرمين الذين يسمون قضاة ، ونواباً عامين ، وقضاة تحقيق ، وجلادين وشرطة ، ومدراء سجون .

واتضح له ان الأمر لا بد ان يكون هكذا . كما تبين له انه اذا كانت المجتمع الانساني والنظام الاجتماعي ما زال قائمين فليس الفضل في ذلك لما يديه القضاة والحكام من قسوة ، وانما على الرغم منهم ، لوجود من يحب القريب بجانبهم .

لقد تحدث الانجيل آخر الأمر الى قلب الأمير ، ووضح له كما وضح لقارثيه . فاندفع يقرأ ويقرأ . فقرأ (اصحاح الجبل) الذي طالما غمر قلبه بالرافة . غير انه في هذه المرة أدرك ان تلك الكلمات لم تكن فحسب افكاراً نبيلة وتصورات مثيرة ، تصلح مثلاً أخلاقياً أعلى يكاد يكون غير قابل التحقيق ، لقد أدرك ان (اصحاح الجبل) يحوي تعاليم واضحة ، صحيحة ، بسيطة ، وعملية ، وسهلة التطبيق ، وقد ينبثق عنها ما يصلح لتكوين مجتمع انساني تام الجدة يقضى فيه على العنف والظلم ، وتقام ملكوت السموات على الأرض . كانت تلك التعاليم خمسة :

أولها كان لا يكتفي بتحريم قتل الانسان لأخيه الانسان ، وانما كان يقول بأنه لا ينبغي له ان يغضب منه او يحقره او يتهمه . واذا ضرب أحداً بعصى ، فينبغي عليه ان يصلحه قبل ان يقدم قرباناً لله . . اي قبل التحاقه بالله عن طريق الصلوات العقلية .

وكان الثاني ينهي الانسان عن الانقياد لشهواته ، وان لا يندس جمال المرأة بانخاذها أداة لشهواته ، ويأمره بأن يعتبر نفسه بعد الزواج . مرتبطاً بزوجته بروابط لا انقسام له الى الأبد .

والثالث ينهاء عن ان يقسم على الوفاء بوعده قطعه على نفسه ما دام غير مالك لأمر نفسه او أمر غيره .

والرابع يأمر الانسان بالآلا يكتفي بعدم تطالب العين بالعين ، وانما ان يحول خده الأيسر لمن يضربه على خده الأيمن ، وان يغفر عن الاهانة وان يتعملها برضوخ والآ يرفض شيئاً مما يطلب اليه .

والخامس يأمر الانسان بالآلا يكتفي بعدم بغض أعدائه ، والعمل ضدهم ، وانما يوصي بحبهم واسعافهم وخدمتهم .

واستلقى (نيكليندوف) على الديوان وأطلق العنان لتأملاته . كان يقول في نفسه ، وقد تذكر مظاهر البؤس في الحياة الانسانية والتشويه الذي أصيبت به ، ترى ما عساها تكون الحياة لو وافق الناس جميعاً على تطبيق الانجيل التي قرأها منذ قليل . فزايته قسوته وغمرته موجة من الحساس وأحس وكأنه قد أبصر النور العذب السعيد المطمئن بعد حياة آلام قضاها في دياجير الظلمات .

لم تغمض له عين تلك الليلة ، ولبت يقرأ بنهم الأناجيل الأربعة تاركاً نفسه تنساق مع السرور الذي أوجده في نفسه ذلك الاكتشاف . وكما يحدث لأولئك الذين يدركون مغزى الكتاب المقدس متأخرين ؛ فقد أدهشه ، وهو يقرأ ، ادراكه الواضح للكثير من الكلمات التي طالما قرأها ، ولكن دون ان يعيها اى أهمية . وكما تمتص الاسفنجة كل الماء الذي تقوى على استيعابه ، كذلك كان يتقبل كافة ما يراه طيباً ونبيلاً ، ومفرحاً في ذلك الكتاب . وكان يبدو له ان كل ما يقرأه كانت ما أوفاً منه لأنه كان يؤكد ويوضح له أشياء كان يحس بها منذ زمن طويل ، ولكنه لم يكن يقطع بصحتها . أما الآن فهو يراها حقيقة ويؤمن بها .

لقد أصبح يؤمن بأن الانسانية اذا ما انبعث تعاليم الانجيل فستبلغ ما تشده من سعادة . بل أكثر من ذلك لقد أصبح يؤمن واثقاً من انه خير للانسان ان يحيا حياة الجحود من ان يتورك بتعاليم الانجيل . كما كان يؤمن واثقاً أيضاً من ان هذه التعاليم هي المبرر الوحيد للكينونة الانسانية، وان ترك العمل بها او تناسيها يسوق المرء للقصاص .

تلك هي النتيجة التي خرج بها (نيكليندوف) من ذلك الكتاب ، ولكنها كانت تبدو له أكثر وضوحاً وأشد قوة في مثل غارسي الكرمة الذين ظنوا ان الأرض التي

سلمت ليغرسوها انما هي ملك لهم وليست للمالكها، وان ما تنتجه الكرمة من محصول هو لهم ، وان واجبه الوحيد هو استغلال الأرض لمصلحتهم ، ونسوا المالك ، وقتلوا كل من يذكرهم بالتزاماتهم تجاهه .

— هذا ما نفعله كلنا . — قال (نيكليندوف) في نفسه — نحن نحيا على اعتقاد بأن حياتنا ملك لنا ، وانها أعطيت لنا كهدية ، وهذا منتهى الغباء ، ان الانسان لم يأت الى هذه الدنيا بمجرد رغبته ، انه لا بد ان يكون قد جيء به لسبب ما ، ولكننا اسرفنا في تناسي تلك الحقيقة ، وحسبنا اننا نحيا لمجرد أهوائنا ، ثم نعجب بعد ذلك لماذا نتألم ونشقى كأن ذلك لم يكن النتيجة الطبيعية لوضعنا كعمال تجاهلوا رغبة رب العمل ، وهنا في هذا الكتاب تبدو واضحة رغبة مالكنا .

« ابتغوا ملكوت الله ، وما تبقى مستحصلون عليه بلا جهد ، ونحن بدلا من ان نبتغي ملكوت الله نقشش عما تبقى ثم نعجب اذا ما أخطأنا .

» بلى ، هكذا كانت حياتي كلها ، ولكن الآن تبدأ حياة اخرى جديدة .

وفي الواقع فان حياة اخرى جديدة قد بدأت تلك الليلة بالنسبة للامير (ديمتري ايفان نيكليندوف) ، جديدة ليس لأنه اقلع عن ان يختص نفسه بتفكيره ، مكرساً جهوده لخدمة الغير فحسب ، وانما هي جديدة بصورة خاصة لأن كل ما مر به منذ تلك الليلة ، وما قام به من أعمال كان له في نظره مغزي مغايراً لما كان له حتى تلك الساعة .

كيف انتهت تلك المرحلة الجديدة من حياته ؟

المستقبل كفيل بإطلاعنا عليه .

علي مولا

رواية البحث

C1 رواية

S.P375



1 0 2 5 2 8

عالم المعرفة



دار الأندلس
الطباعة والنشر والتوزيع